تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد الثامن

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق | عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم | محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

الطبعة الثانية
الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طبعة جديدة
بصف وإخراج جديد

التنفيذ الطباعي
في مطابع دار الخير



للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠



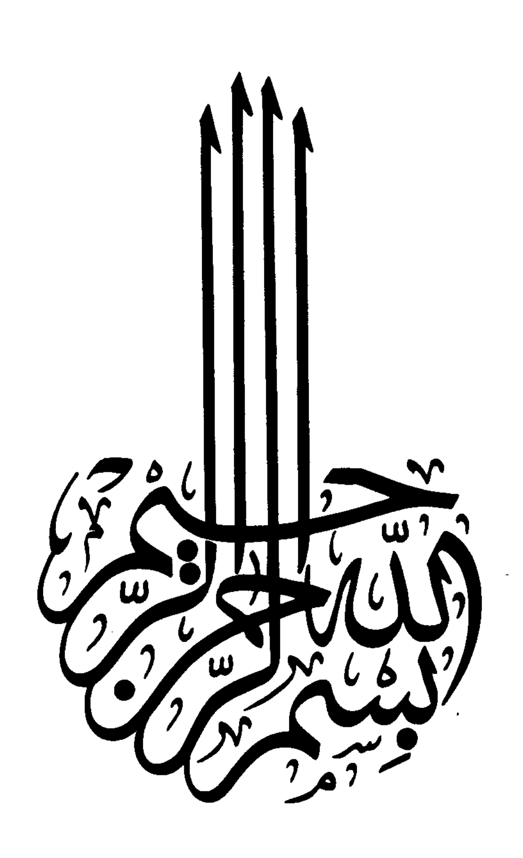
تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الحُجُرات

وهي مدنيّة بإجماع من أَهل التّأويل(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

كانت عادة العرب ـ وهي إلى الآن ـ الاشتراك في الآراءِ، وأَن يتكلم كلٌّ بما شاءَ ويفعل ما أَحبَّ، فمشى بعض النّاس ممن لم تتمرَّنْ نفسه مع النَّبيِّ ﷺ على بعض ذلك، قال قتادة: فربَّما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، وأَيضاً فإِنَّ قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النَّبيِّ ﷺ، حكاه الحسن بن أَبي الحسن، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك.

وحكى الثّعلبيُّ عن مسروق أَنَّه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشَّكِّ، فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إِنِّي صائم، فقالت: نهى رسول الله ﷺ عن صيام هذا اليوم، وفيه نزلت: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾، وقال ابن زيد: معنى ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾: لاَ تَمشوا بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك بين يدي العلماءِ، فإِنَّهم ورثة الأَنبياءِ، وتقول العرب: تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إِذا قلتَ فيه.

(١) قال القرطبيُّ أيضاً: هي مدنية بإجماع، وأخرج ابن الضريس، والنَّحّاس، وابن مردويه، والبيهقيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت سورة الحجرات بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزُّبير رضي الله عنهما مثله. (ذكر ذلك السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، والشَّوكانيُّ في فتح القدير).

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [تُقَدِّمُوا] بضمِّ التَّاءِ وكسر الدّال، وقرأَ ابن عبّاس، والضَّحّاك، ويعقوب، بفتح التّاءِ والدّال على معنى: لا تتقدّموا، وعلى هذا يجيءُ تأْويل ابن زيد في المشي، والمعنى على ضمِّ التَّاءِ: بين يَدَيْ قول الله ورسوله.

ورُوي أَنَّ سبب هذه الآية هو أَنَّ وفد بني تميم لمَّا قدِم، قال أَبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أَمَّرْتَ الأَقرع بن حابس، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، بل أَمِّر القعقاع بن مَعْبد، فقال أَبو بكر رضي الله عنه: ما أَردتَ إلاَّ خلافي، ويروى: إِلى خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أَردتُ خلافك، وارتفعت أَصواتهما، فنزلت الآية في ذلك[1]، وذهب بعض قائلي هذه المقالة إِلى أَن قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ معناه: لا تُقدِّموا ولاة، فهو من تقدّم الأُمراءِ، وعموم اللَّفظ أَحسن، أَي: اجعلوه مبدأً في الأَقوال والأَفعال. و[سَميعٌ] معناه: لأَقوالكم، و[عَليمٌ] معناه: بأَفعالكم ومقتضى أَقوالكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية هي أَيضاً في ذلك الفنِّ المتقدّم، ورُوي أَنَّ سببها كلام أَبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أَمْر الأَقرع والقعقاع، والصَّحيح أَنَّها نزلت بسبب عادة الأَعراب في الجفاءِ وعُلُوِّ الصَّوت والعُنْجهيَّة، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه مِمَّن في صوته جهارة، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ اهْتَمَّ وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين، حتّى عرف رسول الله ﷺ خبره، فبعث إِليه فآنسه وقال له: «امْش في الأَرض بَسْطاً فإِنَّك من

---

(١) روى ذلك البخاريُّ في صحيحه عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما، ورواه أيضاً عن ابن أبي مُلَيْكَة، قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النَّبيِّ ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاَّ خلافي، قال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية، قال ابن الزُّبير: فما كان عُمر يُسْمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، وذكر الواحديُّ هذا في «أسباب النُّزول» بسنده دون الجزء الأخير وهو قول ابن الزُّبير رضي الله عنهما، وأورد السُّيوطيُّ الحديث في الدُّرِّ المنثور وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن مردويه، عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما.

وقد ذكر ابن عطيَّة هنا أنَّ أبا بكر أشار بإمارة الأقرع بن حابس، وأن عمر أشار بإمارة القعقاع بن مَعْبد، ولكن الرِّواية الثّابتة في الدُّرِّ المنثور، وفي أسباب النزول أنَّ العكس هو الصَّحيح، وأنَّ أبا بكر أشار بالقعقاع، وعمر أشار بالأقرع، وما في الطَّبريِّ يوافق ما ذكره ابن عَطِيَّة، ورواية البخاريِّ لم تحدِّد.

أَهل الجنَّة»(١)، وقال له مرَّة: «أَما ترضى أَن تعيش حميداً، وتموت شهيداً»، فعاش كذلك ثمَّ قُتل رضي الله عنه باليمامة يوم مسيلمة(٢). وفي قراءَة ابن مسعود: [لاَ تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ] بزيادة باءٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أَي: كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأَسماءِ والأَلقاب، وكانوا يدعون النَّبيَّ ﷺ: يا محمد، قاله ابن عبّاس وغيره، فأَمرهم الله تعالىٰ بتوقيره وأَن يدعوه بالنُّبوَّة والرِّسالة والكلام اللَّيِّن، فتلك حالة الموقِّر، وكره العلماءُ رفع الصَّوت عند قبر النَّبيِّ ﷺ وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي الجميع آثارٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، رواه البخاريُّ من حديث موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك عِلْمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النَّبيِّ ﷺ، فقد حبط عملُه وهو من أهل النّار، (وهذا التفات من الحاضر إلى الغائب، والأصل: كنتُ أرفع صوتي)، فأتى الرَّجلُ النَّبيَّ ﷺ فأخبره أنَّه قال كذا وكذا، فقال موسى: فرجع إليه المرَّة الأخيرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنَّك لست من أهل النَّار، ولكنَّك من أهل الجنَّة»، ورواه مسلم من رواية حمّاد بن سلمة، عن ثابت البنانيِّ، عن أنس بن مالك، وأورده السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، وزاد نسبته إلى الإمام أحمد، وأبو يعلى في معجم الصَّحابة، والطَّبرانيُّ، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الدَّلائل، عن أنس بن مالك.

(٢) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجيُّ، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عبد الرّحمن، قُتل له ثلاثة من أولاده يوم الحرَّة، وهم: محمد، ويحيى، وعبد الله، وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيب رسول الله ﷺ كما يقال لحسّان بن ثابت: شاعر رسول الله ﷺ، وقد خطب يوم قدم وفْدُ بني تميم على رسول الله ﷺ خطبة بليغة جزلة، كما قال حسان بن ثابت قصيدة ردَّ بها على الأقرع بن حابس شاعر بني تميم، فقال الوفد: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، وفي يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة، وفي اللِّقاء انكشف المسلمون فقال ثابت ومعه سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثمّ حفر كلٌّ واحد منهم حفرة فثبتا وقاتلا حتّى قُتلا، وعلى ثابت يومئذ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصيّة، فإيَّاك أن تقول: هذا حُلْم فتضيِّعه، إني لمَّا قُتلت جاء رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى النّاس، وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ ـ يعدو إقبالاً وإدباراً في طِوَله ـ والطِّوَلُ: الحبل الطَّويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد والطَّرف الآخر في رجل الفرس ـ وقد كفأ على الدِّرع بُرْمة، وفوق البُرْمة رحل، فأتِ خالداً فمُره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ ـ يعني أبا بكر رضي الله عنه ـ فقل له: إنَّ عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فأتى الرّجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدِّرع فأحضرها، وحدَّث أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجازها الصِّديق، قيل: ولا نعلم أحداً أُجيزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه. (راجع الاستيعاب؛ والإصابة والدرَّ المنثور).



وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَحۡبَطَ﴾ مفعول من أَجله، أَي مخافة أن تحْبَط، والحبط: الفساد في العمل بعد تقرُّره، يقال: حبِط بكسر الباءِ، وأَحبطه الله، وهذا الحبْط إن كانت الآية مُعَرِّضة بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجُرْأَةً فذلك كُفْر والحَبْطُ معه على حقيقته، وإِن كان التَّعريض للمؤمن الفاضل الَّذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإِنَّما يحبط عمله البرَّ في توقير النَّبيِّ ﷺ وغَضِّ الصَّوت عنده إِنْ لَوْ فعل ذلك، كأَنَّه قال: مخافة أَن تحبط الأَعمال الَّتي هي مُعَدَّةٌ أَن تعملوها فتؤجروا عليها، ويحتمل أَن يكون المعنى: أَن تأْثَمُوا ويكون ذلك سبباً إِلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تتدرَّج القهقرى حتَّى يؤول ذلك إِلى الكفر فيُحْبط الأَعمال حقيقة، وظاهر الآية أَنَّها مخاطبة لفُضلاءِ المؤمنين الَّذين لا يفعلون ذلك احتقاراً، وذلك أَنَّه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأَة: «وأَنت لا تشعر» لأَنَّه ليس له عمل يعتقده هو عملاً، وفي قراءَة عبد الله بن مسعود: [فَتَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ].

ثمَّ مدح تعالىٰ الصِّنف المخالف لمن تقدَّم ذكره وهم الَّذين يَغُضُّون أَصواتهم عند النَّبيِّ ﷺ، وغضُّ الصَّوت: خَفْضُه وكَسْرُه، وكذلك البصر، ومنه قول جرير:

فَغُــضَّ الطَّــرْفَ إِنَّــكَ مِــنْ نُمَيْــرٍ . . . .[١]

ورُوي أَنَّ أَبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله ﷺ إِلاَّ كأَخي السِّرار[٢]، وأَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يحتاج مع عمر رضي الله عنه بعد ذلك إِلَى استعادة

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير يهجو الرّاعي النُّميري، والبيت بتمامه:

فَغُــضَّ الطَّــرْفَ إِنَّــكَ مِــنْ نُمَيْــرٍ فَــلا كَعْبــاً بَلَغْــتَ وَلاَ كِــلابــاً

وهو من قصيدته البائية الَّتي بدأها بقوله:

أَقِلِّــي اللَّــوْمَ عَــاذِلَ والعِتَــابَــا وَقُــولـي إِنْ أَصَبْــتُ لَقَــدْ أَصَــابَــا

والبيت في الدِّيوان، والكتاب لسيبويه، والعينيّ، وابن يعيش، والهمع، والأشمونيّ، وشرح شواهد الشّافية، والتّصريح، وفي الكامل للمبرّد: (فَغُضِّ) بكسر الضّاد، وفي الخزانة: فَغُضِّ بالفتح والكسر والضمّ، والنّحويون يستشهدون به على جواز الفتح في (غُضَّ) المضعّف لالتقاء السّاكنيْن، وقد قيل: هو أهجى بيت قالته العرب.

(٢) ذكره الوّاحديُّ في (أسباب النزول)، وأخرجه البزّار، وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم، والبيهقيُّ في (المدخل) من حديث أبي هريرة وقال: «صحيح على شرط مسلم».



اللَّفظ؛ لأَنَّه كان لا يسمعه من إخفائه إيَّاه(١).

و[اْمتَحَنَ] معناه: اختبر وطهَّر كما يُمتحن الذَّهب بالنَّار، فيسَّرها وهيَّأَها للتَّقوى، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: امْتحن للتَّقوى: أَذهب عنها الشَّهوات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

من غَلَب شهوته وغضبه فذلك الَّذي امتحن الله تعالىٰ قلبه للتَّقوى، وبذلك تكون الاستقامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزل في وفد بني تميم، حيث كان الأَقرع بن حابس، والزِّبرقان بن بدر، وعمرو بن الأَهتم، وغيرهم، وذلك أَنَّهم وفدوا على رسول الله ﷺ فدخلوا المسجد ودنَوْا من حجر أَزواج النَّبيِّ ﷺ وهي تسع، فعجِلوا ونادَوْا ولم ينتظروا، ونادوا بجملتهم: يا محمد، اخرج إلينا، يا محمد، اخرج إلينا، فكان في فعلهم ذلك جفاءٌ وبداوة وقلَّة توقير، فتربَّص رسول الله ﷺ مدَّة، ثمَّ خرج إليهم، فقال له الأَقرع بن حابس: يا محمد، إنَّ مدحي زين، وذمِّي شيْن، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ويلك ذلك الله تعالىٰ»، واجتمع النَّاس في المسجد، فقام خطيبهم فخطب وفخر، فأَمر رسولُ الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، فخطب وذكر الله تعالىٰ والإسلام وأَربى على خطيبهم، ثمَّ قام شاعرهم فأَنشد مفتخراً، فقام حسَّان بن ثابت رضي الله عنه ففخر بالله تعالىٰ وبالرسول ﷺ وبالبسالة فكان أَشعر من شاعرهم، فقال بعضهم لبعض: والله إنَّ هذا الرَّجل لَمُؤَتًّى له،

---

(١) جاء ذلك في حديث ابن أبي مُلَيْكَة الَّذي رواه البخاريُّ وذكرناه قبل ذلك، وفيه أن ابن الزُّبير رضي الله عنهما قال: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتّى يستفهمه»، وفي الخبر أنَّه لم يذكر عن جدِّه أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، راجع صفحة (٦) من هذا المجلد.



لخطيبه أَخطب من خطيبنا، ولشاعره أَشعر من شاعرنا، ثمَّ نزلت فيهم هذه الآية(١).

هذا تلخيص ما تظاهرت به الرِّوايات في هذه الآية، وقد رواه موسى بن عقبة عن أَبي سلمة عن الأَقرع بن حابس، وفي مصحف ابن مسعود: [أَكْثَرُهُم بَنُو تَمِيم لاَ يَعْقِلُونَ].

و«الْحُجُرَات» جمع حجرة، وقرأَ الجمهور من القرَّاءِ: [ٱلْحُجُرَاتِ] بضمِّ الحاءِ والجيم، وقرأَ أَبو جعفر القارىء وحده: [ٱلْحُجَرَاتِ] بفتح الجيم. وقوله تعالىٰ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني في الثَّواب عند الله تعالىٰ، وفي انبساط نفس النَّبيِّ ﷺ لهم وقضائه لحوائجهم وَوُدِّه لهم، وذلك كلّه خير، ولا محالة أَنَّ بعضه انزوى بسبب جفائهم. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ترجيةٌ لهم وإِعلامٌ بقبوله توبة التَّائب، وغفرانه ورحمته لمن أَناب ورجع.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ الآية. سببها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أَبي مُعَيْط إِلى بني المصطلق مُصدِّقاً(٢)، فرُوي أَنَّه كان معادياً لهم فأَراد إِذايتهم، فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم ـ قاله الضَّحّاك ـ وقال للنَّبيِّ ﷺ: إِنَّهم قد منعوا الصدقة وطردوني وارتدوا، فغضب النبي ﷺ وهمَّ بغزوهم ونظر في ذلك، وبعث خالد بن الوليد إِليهم، فورد وفدهم منكرين لذلك(٣)، وروي عن أُمِّ سَلَمة

---

(١) ذكره الواحديُّ النيسابوريُّ في (أسباب النزول)، وهو خبر طويل، وذكره ابن إسحاق في السِّيرة، وقد أورد خطبة ثابت بن قيس في الرَّدِّ على خطيب بني تميم وهو عطارد بن حاجب، وأورد شعر الزِّبرقان بن بدر شاعر بني تميم، وشعر حسَّان بن ثابت في الرَّدِّ عليه، ومن شعر الزِّبرقان قوله:

نَحْـنُ الْكِـرَامُ فَـلا حَـيٌّ يُعَـادِلُنَـا ... مِنَّـا الْمُلُـوكُ وفِينَـا تُنْصَـبُ البِيَـعُ
وَكَـمْ قَسَـرْنَـا مِـنَ الأَحْيَـاءِ كُلِّهِـمِ ... عِنْـدَ النِّهَـابِ وَفَضْـلُ العِـزِّ يُتَّبَـعُ

ومن شعر حسَّان قوله:

أَكْـرِمْ بِقَـوْمٍ رَسُـولُ اللهِ شِيعَتُهُـمْ ... إذا تَفَـاوَتَـتِ الأَهْـوَاءُ والشِّيَـعُ
أَهْـدَى لَهُـمْ مِـدْحَتِـي قَلْـبٌ يُـوَازِرُهُ ... فيمـا أُحِـبُّ لِسَـانٌ حَـائِـكٌ صَنَـعُ
فَـإِنَّهُـمْ أَفْضَـلُ الأَحْيَـاءِ كُلِّهِـمِ ... إِنْ جَـدَّ بِـالنَّـاسِ جِـدُّ القَـوْلِ أَوْ شَمَعُـوا

والصَّنَع هو الَّذي يُحْسِن القول ويُجيده، ومعنى «شَمعُوا»: هَزَلُوا، وأصل الشَّمع: الطَّرَبُ واللَّهْوُ، أمَّا قول الأقرع بن حابس: إنّ هذا الرَّجُلَ لَمُؤَتَّىً لَهُ فمعناه: لَمُوَفَّق له.

(٢) المُصَدِّقُ: العاملُ الَّذي يجبي الصَّدقات.

(٣) أخرجه أحمد، وابن أبي حاتم، والطَّبرانيُّ، وابن منده، وابن مردويه، بسند جيِّد عن الحارث بن ضرار=



وابن عبّاس رضي الله عنهم أَنَّ الوليد بن عقبة، لمَّا قرب منهم خرجوا إِليه متلقّين له، فرآهم على بُعْد ففزع منهم وظنَّ بهم الشَّرَّ وانصرف فقال ما ذكرناه(١)، وروي أَنَّه لمَّا قرب منهم بلغه عنهم أَنَّهم قالوا: لا نعطيه الصَّدقة ولا نعطيه، فعمل على صحَّة هذا الخبر وانصرف فقال ما ذكرناه، فنزلت الآية بهذا السَّبب، والوليد ـ على ما ذَكَرَ مجاهد وقتادة ـ هو المشار إِليه بالفاسق، وحكى الزَّهراوي: قالت أُمُّ سَلَمة: هو الوليد بن عُقَبَة ثمَّ هي باقية فيمن اتَّصف بهذه الصِّفة غابر الدَّهر. و«الفِسْقُ»: الخروج عن نهج الحق، وهو مراتب متباينة كلُّها مظنَّة للكذب وموضع تَثَبُّت وتَبَيُّن، وتأَنَّس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية؛ لأَنَّه يقتضي أَنَّ غير الفاسق إِذا جاءَ بنبأٍ أَن يعمل بحسبه، وهذا ليس باستدلال قوي، وليس هذا موضع الكلام على مسأَلة خبر الواحد.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: [فَتَبَيَّنُوا] من التَّبَيُّن، وقرأَ حمزة، والكسائيُّ، والحسن، وابن وثّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى: [فَتَثَبَّتُوا] من التَّثَبُّت. و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَن تصيبوا﴾ مفعول من أَجله، كأَنَّه تعالىٰ قال: مخافة أَن تصيبوا، وقال قتادة: قال رسول الله ﷺ عندما نزلت هذه الآية: «التَّثَبُّت من الله والعجلة من الشَّيطان»(٢)، قال منذر بن سعيد: هذه الآية تردُّ على من قال إِن المسلمين كلُّهم عدول حتّى تثبت الجرحة لأَنَّ الله تعالىٰ أَمر بالتَّبَيُّن قبل القبول(٣).

= الخزاعيُّ، وأخرج مثله الطَّبرانيُّ، وابن منده، وابن مردويه، عن علقمة بن ناجية، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله، مع اختلاف في الألفاظ.

(١) أخرجه ابن راهويه، وابن جرير، والطَّبرانيُّ، وابن مردويه، عن أُمِّ سَلَمة رضي الله عنها، وأخرجه ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقيُّ في سننه، وابن عساكر، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، وهو جزءٌ في آخر الحديث الَّذي رواه قتادة عن إرسال النَّبيِّ ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق، واللَّفظ المذكور في الدُّرِّ المنثور: «التَّأَنِّي من الله والعجلة من الشَّيطان»، وذكره السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير من رواية البيهقيِّ في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه، ثمَّ رمز له بأنَّه ضعيف.

(٣) إذ لا معنى للتَّثبُّت بعد إنفاذ الحكم، فإنْ حكم الحاكم قبل التَّثبُّت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة وهو ما نصَّت عليه الآية الكريمة ﴿أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. ثمَّ إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يأمر بالتَّبيُّن إلاَّ عند مجيء الفاسق لا مجيء المسلم.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله يقتضي أن المجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً، والاحتياط لازم. قال النَّقاش: وقوله تعالىٰ: [فَتَبَيَّنُوا] أبلغ من [تَثَبَّتُوا]؛ لأنَّه قد يَتَثَبَّت من لا يَتَبَيَّن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ توبيخ للكذبة ووعيدٌ بالفضيحة، أَي: فليفكِّر الكاذب في أَنَّ الله تعالىٰ يفضحه على لسان رسوله ﷺ، ثمَّ قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، أَي لشقيتم وهلكتم، والعَنَتُ: المشقَّة، أَي: لو يُطيعكم أيُّها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدُّمكم بين يديه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ الآية، كأنَّه تعالىٰ قال: ولكن أَنعم بكذا وكذا، وفي ذلك كفاية وأمْرٌ لا تقومون بشكره، فلا تتقدَّموا في الأُمور واقنعوا بإنعام الله تعالىٰ عليكم، وحبَّب الله تبارك وتعالىٰ الإيمان وزيَّنه بأَن خلق في قلوب المؤمنين حُبَّه وحَسَّنه، وكذلك تكْريهُ الكفر والفسوق والعصيان، وحكى الرُّمَّاني عن الحسن أَنَّه حبَّب الإيمان بما وصف من الثَّواب عليه، وكرَّه الثَّلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها، وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ رجوعٌ من الخطاب إلى ذكر الغيبة، كأنَّه تعالىٰ قال: ومن فعل هذا معه وقَبِلَه وشكَر عليه فأُولَئك هم الرَّاشدون.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ مصدر مؤكّد بنفسه لأَنَّ ما قَبْلَه هُوَ بمعناه؛ إذ التَّحبيب والتَّزيين هو نفس الفضل، وقد يجيءُ المصدر مؤكّداً لما قَبْلَه إذا لم يكن هو نفس ما قَبْله، كقولك: جاءَ زيد حقًّا ونحوه، وكان قتادة رحمه الله تعالىٰ يقول: قد قال تعالىٰ لأَصحاب محمد ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، وأَنتم والله أَسخف رأياً وأَطْيش أَحلاماً، فلْيَتَّهم رجلٌ نفسه وَلْيَنْتَصح كتابَ الله تبارك وتعالىٰ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

[طَائِفَتَانِ] مرفوع بإضمار فعل، والطَّائفة: الجماعة، وقد تقع على الواحد، واحْتُجَّ

لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[١]، ورأى بعض النّاس أنّه يُجزي أن يشهد حدَّ الزّناة واحد، فهذه الآية الحُكمُ فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد.

واختلف النّاس في سبب هذه الآية ـ فقال أنس بن مالك والجمهور: سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزِّبين منهم أيضاً مع عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول حين مرَّ به رسول الله ﷺ وهو متَّجه لزيارة سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرضه، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لما غَشِيَه حمار رسول الله ﷺ: لا تُغَبِّرُوا علينا، ولقد آذانا نَتْنُ حمارك، فردَّ عليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله. . . فتلاحى النأس حتّى وقع بينهم ضربٌ بالجريد، ويروى بالحديد[٢].

وقال أَبو مالك، والحسن: سببها أَنَّ فرقتين من الأَنصار وقع بينهما قتال، فأَصلحه رسول الله ﷺ بعد جهد ونزلت الآية في ذلك.

وقال السُّدِّيُّ: كانت بالمدينة امرأَة من الأَنصار يقال لها: أُمُّ بَدْرٍ[٣]، وكان لها زوج من غيرهم، فوقع بينهما شيءٌ أَوجب أَن يأْنف لها قومها وله قومه، فوقع قتال نزلت الآية بسببه[٤].

---

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة).

(٢) حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، وذكره الواحديُّ في (أسباب النزول) بسنده عن معتمر بن سليمان عن أبيه، ونقله عنه القرطبيُّ، وذكره السُّيوطيُّ في (الدُّرِّ المنثور)، وزاد نسبته إلى الإمام أحمد، وابن جرير الطَّبريِّ، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيِّ في سننه، وليس فيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ على ابن سلول وهو ذاهب إلى زيارة سعد بن عبادة، بل فيه أنَّه قيل للنَّبيِّ ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيٍّ، فانطلق وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبِخَة، فلمَّا انطلق إليهم قال: إليك عنِّي فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، وغضب لكلٍّ منهما أصحابه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنِّعال، فأُنزل فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.
أمّا حديث زيارة سعد بن عبادة فقد أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ خرج يعود سعد بن عبادة، فمرَّ بمجلس فيهم عبد الله بن أُبَيٍّ وعبد الله بن رواحة، فخمَّر ابن أُبَيٍّ وجهه بردائه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا. . . إلخ الحديث وهو طويل، وقد ذكره أبو الفرج البغداديُّ بطوله في كتابه «المغني».

(٣) في جميع كتب التَّفسير والحديث «أُمّ زيد».

(٤) أخرجه ابن جرير الطَّبريُّ، وابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ، قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران، =



و[بَغَتْ] معناه: طلبت العُلُوّ بغير الحقِّ، ومدافعةُ الفئة الباغية تتوجَّه في كلِّ حال، وأمَّا التَّهيُّؤُ لقتالها فمع الوُلاَة، وقيل لعليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَمُشْركون هم أَهل صفِّين والجمل؟ قال: لا، من الشِّرك فرُّوا، قيل: أَفَمُنَافقون؟ قال: لا، لأَنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، وقال النَّبيُّ ﷺ: «حكم الله تعالىٰ في الفئة الباغية أَلاَّ يُجهز على جريح، ولا يُطلب هارب، ولا يُقتل أَسير»(١). و[تَفِيءُ] معناه: ترجع، و«الإقساط»: الحكم بالعدل.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يريد تعالىٰ أُخوة الدّين، وقرأ الجمهور من القراءِ: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وذلك رعاية لحال أَقل عدد يقع فيه القتال والتَّشاجر، والجماعة متى قصدوا الإصلاح فإنَّما هو بين رجلين رجلين، وقرأ ابن عامر، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [بين إِخْوَتِكُم]، وقرأ ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن سيرين، والحسن، وعاصم الجحدريُّ، وثابت البنانيُّ، وحمّاد بن سلمة: [بين إِخْوَانِكُمْ]، وهي حسنة لأَنَّ الأَكثر من جمع الأَخ في الدِّين ونحوه من غير النَّسب إِخوان، والأَكثر من النَّسب إِخْوَةٌ وآخاءٌ، قال الشاعر:

وَجَــدْتُــمْ أَخــاكُــمْ بَيْنَنَــا إِذْ نُسِبْتُــمُ ... وأَيُّ بنـي الآخَـاءِ تَنْبُـو مَنَـاسِبُـهْ؟(٢)

وقد تتداخل هذه الجموع، وكلُّها في كتاب الله تعالىٰ، فمنه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾،

= تحته امرأة يقال لها أُمُّ زيد، وأنَّها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، وكان الرَّجل قد خرج، فاستعان أهلَ الرَّجل فجاء بنو عمِّه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا وتجادلوا بالنِّعال، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله. (الدُّرُّ المنثور).

(١) ذكر القرطبيُّ هذا الحديث، قال: «وقال ابن عمر: قال النَّبيُّ ﷺ: «يا عبد الله، أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمَّة»؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: «لا يُجْهز على جريحها، ولا يُقْتل أسيرها، ولا يُطْلب هاربها، ولا يُقْسم فَيْئُهَا»..».

(٢) البيت في اللِّسان والتَّاج غير منسوب، وإنَّما قالا: «وأنشد أبو عليٍّ»، قال صاحب اللِّسان: «ويدلُّ على أنَّ أخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جَمْعهم إيَّاها على أفعال نحو آخاءِ، حكاه سيبويه عن يونس، وأنشد أبو عليٍّ: وجدتُّم بينكم دوننا... البيت»، ففي روايته: «بينكم دوننا» بدلاً من «أخاكم بيننا»، وفي الصِّحاح أنَّ الأخ أصلُه أَخَوٌ بالتَّحريك، قال: «لأنَّه جمع على آخاءٍ مثل آباءٍ، والذّاهب منه واوٌ لأنَّك تقول: أَخوان».



ومنه ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾[(١)]، فهذا جاءَ على الأَقل في الاستعمال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذه الآية والَّتي بعدها نزلت في خُلُق أَهل الجاهلية، وذلك لأَنَّهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم، لم يُقَوِّمْهُمْ أَمرٌ من الله تعالىٰ ولا نَهْي، فكان الرَّجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالأَلقاب ويظنُّ الظنُّون فيتكلَّم بها ويغتاب ويفتخر إِلى غير ذلك من أَخلاق النُّفوس الباطلة، فنزلت هذه الآية تأديباً لأُمَّة محمد ﷺ.

وذكر بعض النّاس لهذه الآيات أَسباباً، فمِمَّا قيل: إِنَّ هذه الآية ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أَبي جهل، وذلك أَنَّه كان يمشي بالمدينة مسلَّحاً، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأُمة، فعزَّ عليه ذلك وشكاه إِلى رسول الله ﷺ، والقويُّ عندي أَنَّ هذه الآيات نزلت تقويماً لسائر الخلق، ولو تتبَّعت الأَسباب لكانت أَكثر من أَن تُحصى.

و[يَسْخَرْ] معناه: يستهزيء، والهُزْءُ إِنَّما يترتب متى ضعف امرؤٌ إِمَّا لصغر وإِمَّا لعلَّة حادثة أَو لِرَزِيَّة أَو لنقيصة يأْتيها، فيُنْهى المؤمنون عن الاستهزاءِ في هذه الأُمور وغيرها نهياً عامًّا، فقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به خيراً من السّاخر. و«القوم» في كلام العرب واقع على الذُّكران، وهو من أَسماءِ الجمع كالرَّهط، وقول من قال إِنَّه من القيام أَو جمع قائم ضعيف، ومن هذا قول الشّاعر وهو زهير:

وَمَـا أَدْري وَسَـوْفَ إِخَـالُ أَدْري ... أَقَـوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَـاءُ؟[(٢)]

---

(١) من الآية (٦١) من سورة (النّور).

(٢) قال زهير هذا البيت من قصيدة يهجو بها بني غُلَيب، وهم آل بيت من كلب لأَنَّ رجلاً قد شكاهم إِليه، ثمَّ علم أَنَّه ظلمهم فندم على ذلك، وقد أَراد بالقوم هنا الرِّجال دون النِّساء، وهذا موضع الاستشهاد بالبيت، وقوله: «وسوف إِخال أَدرى» معناه: سأَبحث عن حقيقة حالهم، وهذا هُزْءٌ بهم وتوعُّد لهم، وقد استشهد صاحب اللِّسان بالبيت على أَنَّ «القوم» هم الرِّجال لا النِّساء.



وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم بالذُّكران، وقد يكون مع الذُّكران نساءٌ فيقال لهم: «قَوْمٌ» على تغليب حال الذُّكور، ثم نهى الله تعالىٰ النِّساءَ عمَّا نهى عنه الرِّجال من ذلك، وقرأ أُبيٌّ بن كعب، وابن مسعود: [عَسَوْ أَنْ يكونوا] و[عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ].

و[تَلْمِزُوا] معناه: يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون «اللَّمْزُ» بالقول وبالإشارة ونحو هذا مما يفهمه الآخر، و«الهَمْزُ» لا يكون إلاَّ باللِّسان، وهو مشبَّه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المُمَاسَّة، قال الشّاعر:

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تبَرْكَعَا[1]

وقيل لأعرابيٍّ: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهِرُّ يهمزها، وحكى الثَّعلبيُّ أَنَّ «اللَّمْزَ» ما كان في المَشْهد، وأَن «الهَمْزَ» ما كان في المغيب، وحكى الزَّهراويُّ عن عليٍّ بن سليمان عكس ذلك، فقال: الهمزُ أَن تعيب بالحضرة واللَّمز في الغيبة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[2]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[3]، وقرأ الجمهور: [تَلْمِزُوا] بكسر الميم، وقرأ الأعرج والحسن بضمِّها، قال أَبو عمرو بن العلاءِ: هي عربية، وقال أَبو حاتم: قراءَتنا بالضَّمِّ وأَحياناً بالكسر، وقوله تعالىٰ: [أَنفُسَكُمْ] معناه: بعضكم بعضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[4]، كأَنَّ المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة كما قال رسول الله ﷺ: «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى سائره بالسَّهر

---

(١) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو من قصيدة قالها يمدح تميماً، وقد ذكره في اللِّسان مع بيت بعده باللَّفظ الَّذي ذكره ابن عطيَّة هنا، ولكنَّه في الدِّيوان مختلف عن ذلك، أمّا في اللِّسان فالبيتان هما:

وَمَــنْ همَــزْنَــا عِــزَّهُ تَبَــرْكَعَــا ... عَلَــى اسْتِــهِ زَوْبَعَــةً أَوْ زَوْبَعَــا

ومعنى تَبَرْكَعَ: صُرِعَ فوقع على اسْتِهِ، وأمّا في الدّيوان فالرِّواية:

وَمَــنْ هَمَــزْنَــا رَأْسَــهُ تَلَعْلَعَــا ... وَمَــنْ أَبَحْنَــا عِــزَّه تَبَــرْكَعَــا

عَلَــى اسْتِــهِ رَوْبَعَــةً أَوْ رَوْبَعَــا

والهَمْزُ هو الدَّفع والضَّرب ـ والبيت شاهد على هذا المعنى في اللِّسان ـ، وتَلَعْلَع: ضَعُفَ من المرض أو التَّعب.

(٢) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة).

(٣) من الآية (٥٨) من سورة (التَّوبة).

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (النِّساء).

والحُمَّى»[١]، وهم كما قال أيضاً: «كالبُنْيان يشُدُّ بعضُه بعضاً»[٢].

و«التَّنَابز»: التَّلَقُّب، والنَّبَزُ واللَّقَبُ واحد، إذ اللَّقب هو ما يُعْرف به الإنسان من الأَسماءِ الَّتي يكره سماعها، ورُوي أَنَّ بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الأَلقاب، فدعا رسول الله ﷺ رجلاً منهم فقال له: يا فلان، فقيل له: إنَّه يغضب من هذا الاسم، ثمَّ دعا آخر كذلك، فنزلت الآية في هذا[٣]، وليس من هذا قول المحدِّثين: سليمان الأَعمش، وواصل الأَحدب[٤]. ونحوه مما تدعو الضَّرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف ولا أَذى، وقد قال عبد الله بن مسعود لِعَلْقَمَة: أَو تقول أَنت ذلك يا أَعور[٥]؟ وأَسند النَّقّاشُ إلى عطاءٍ، قال رسول الله ﷺ: «كفُّوا أَولادكم»، قال عطاءٌ، مخافة الأَلقاب، وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَبِ﴾ أَي: لا يقل أَحدٌ لآخر: يا يهودي بعد إسلامه، ولا «يا فاسق» بعد توبته، ونحو هذا، وحكى النَّقّاش أَنَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم في صحيحه، عن النعمان بن بشير، ورمز له الإمام السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير بالصِّحَّة، ولفظه فيه: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى».

(٢) أخرجه البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ في صحيحيهما، عن أبي موسى رضي الله عنه، وذكره الإمام السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير ورمز له بالصِّحَّة، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ٤٠١، ٤٠٥، ٤٠٩).

(٣) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والبخاريُّ في الأدب، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وأبو يعْلى، وابن جرير، وابن المنذر، والبغويُّ في معجمه، وابن حبّان، والشّيرازيُّ في الألقاب، والطَّبريُّ، وابن السُّنيُّ في عمل اليوم واللَّيلة، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، عن أبي جبيرة بن الضَّحّاك رضي الله عنه، قال: فينا نزلت، في بني سَلَمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَبِ﴾، قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فيها رجل إلاَّ وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنَّه يكره هذا الاسم، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَبِ﴾. (الدُّرُّ المنثور).

(٤) أمَّا الأعمش فهو سليمان بن مهران الأسديُّ الكاهليُّ، أبو محمد، الكوفيُّ، الأعمش، ثقة حافظ، عارف بالقراءة، ورع، قال عنه الحافظ ابن حجر: لكنَّه يُدَلِّس، مات سنة سبع وأربعين أو ثمان وأربعين. وأمَّا الأحدب فهو واصل بن حيّان الأحدب، الأسديُّ الكوفيُّ، ثقة ثبت، مات سنة عشرين ومائة، قال العلماءُ: ليس هذا من التنابز بالألقاب لأنَّه أُريد به الصِّفة ولم يُرد به العيب، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصْلَع يُقَبِّل الحجر، وفي رواية: الأُصَيْلِعَ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) في الصَّحابة عدد كبير ممن اسمه علقمة، ولا ندري من المقصود منهم.



كعب بن مالك، وابن أَبي حَدْرَدٍ تَلاحَيَا[١]، فقال له كعب: يا أَعرابيُّ، يريد أَن يُبعده من الهجرة، فقال له الآخر: يا يهودي؛ لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب، فنزلت الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يحتمل معنييْن: أَحدهما فبئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالأَلقاب فتكونون فُسَّاقاً بالمعصية بعد إِيمانكم، والثاني بئس ما يقول الرَّجل لأَخيه يا فاسق بعد إِيمانه، وقال الرُّمَّانيُّ: هذه الآية تدلُّ على أَنَّه لا يجتمع الفسوق والإِيمان، وهذه نزعة اعتزاليَّة، ثمَّ شدَّد الله تعالىٰ عليهم النَّهي بأَن حكم بظلم من لم يتب ويُقلع عن هذه الأَشياءِ الَّتي نهى عنها.

ثمَّ أَمر تبارك وتعالىٰ المؤمنين باجتناب كثير من الظَّنِّ، وأَلاَّ يعملوا ولا يتكلَّموا بحسبه لما في ذلك وفي التَّجسُّس من التَّقاطع والتَّدار، وحكم على بعضه أَنَّه إِثم؛ إِذ بعضه ليس بإِثم ولا يلزم اجتنابه، وهو ظنُّ الخير بالنَّاس، وحُسْنُه بالله تعالىٰ، والمظنون من شهادات الشّهود، والمظنون به من أَهل الشَّرِّ، فإِن سقوط عدالته وغير ذلك هو من حكم الظَّنِّ به، وظنُّ الخير بالمؤمن محمود، والظَّنُّ المنهيُّ عنه هو أَن يظنَّ سوءًا برجل ظاهره الصَّلاح، بل الواجب أَن يزيل الظَّنَّ وحكمه ويتأَوَّل الخير، وقال بعض النَّاس: [إِثْمٌ] معناه: كذب، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «إِيَّاكُم والظَّنَّ فإِن الظنَّ أَكذب الحديث»[٢]. وقال بعض النَّاس: معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أَي إِذا تكلَّم الظَّانُّ إِثمٌ، وما لم يتكلَّم فهو في فُسْحة لأَنَّه لا يقدر على دفع الخواطر الَّتي يُبيحها قول النَّبيِّ ﷺ: «الحزمُ سوءُ الظَّنِّ»[٣]. وذكر النَّقَّاش عن أَنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «احترسوا من النَّاس بسوءِ الظَّنِّ»[٤].

---

(١) أي: تنازعا وتخاصما.

(٢) أخرجه مالك، وأحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزءٌ من حديث ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور، ولفظه كما ذكره: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُم والظَّنَّ فإِنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تَباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يخطب الرَّجل على خطبة أخيه حتّى ينكح أو يترك».

(٣) أخرجه أبو الشّيخ في الثّواب عن عليٍّ، والقضاعيُّ عن عبد الرَّحمن بن عائذ، ورمز له السُّيوطيُّ في الجامع الصَّغير بأنَّه حديث حسن.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن عدي في الكامل، عن أنس رضي الله عنه، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما زال أُولو العزم يحترسون من سوءِ الظَّنِّ ويسدُّون ذرائعه، قال سلمان الفارسيُّ : إنِّي لأَعُدُّ عُراق قِدْرِي[١] مخافة الظَّنِّ، وكان أَبو العالية يختم على بقيَّة طعامه مخافة سوءِ الظَّنِّ بخادمه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الأَمانة خير من الخاتم، والخاتم من سوءِ الظَّنِّ.

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، أَي : لا تبحثوا عن مُخَبَّآت أُمور النّاس، وادفعوا بالَّتي هي أَحسن، وأَخبروا بالظَّواهر الحسنة. وقرأَ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن سيرين، والهُذَليُّون : ﴿ولا تحسَّسوا﴾ بالحاءِ غير منقوطة، وقال بعض النّاس : التَّجسُّس ـ بالجيم ـ في الشَّرِّ، والتَّحسُّس ـ بالحاءِ ـ في الخير، وهكذا ورد القرآن ولكن قد يتداخلان في الاستعمال، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ : التَّجسُّس : ما كان من وراءَ وراءَ، والتَّحسُّس : الدُّخول والاستعلام، وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال : «ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إِخواناً»[٢]. وذكر الثَّعلبيُّ حديث حراسة عمر بن الخطاب مع ابن عوف رضي الله عنهما ووجودهما الشَّرْب في ربيعة بن أُميَّة بن خلف، وذكر أَيضاً حديثه في نحو ذلك مع أَبي محجن الثَّقفيِّ[٣]، وقال زيد بن وهب : قيل لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عُقبة تقطر

---

(١) العُراق ـ بضمِّ العين ـ : العظم أكل لحمه، وفي بعض النُّسخ «لا أعُدُّ» بدلاً من «لأعُدُّ».

(٢) سبق الاستشهاد بالجزء الأوَّل منه وهو قوله ﷺ : «إيَّاكم والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث»، وقد ذكرنا تخريجه في الهامش (٢) من الصفحة السابقة.

(٣) حديث حراسة عمر مع عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنهما أخرجه عبد الرَّزاق، وعبد بن حميد، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق»، عن زرارة بن مصعب بن عبد الرّحمن بن عوف، عن المسور بن مخرمة، عن عبد الرَّحمن بن عوف، قال : إنَّه حرس مع عمر بن الخطاب ليلةً بالمدينة، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمُّونه، فلمَّا دَنَوْا منه إذ بابٌ مُجَافٍ على قوم لهم فيه أصواتٌ مرتفعة ولغط، فقال عمر ـ وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف ـ : أتدري بيت من هذا؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أُميَّة بن خلف، وهم الآن شَرْبٌ فما ترى؟ قال : أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله : ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ فقد تجسَّسْنا، فانصرف عنهم وتركهم، والشَّرْبُ : القوم يشربون ويجتمعون على الشَّراب.

وأمَّا حديثه مع أبي محجن الثَّقفيِّ فقد قال أبو قُربة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقفيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر رضي الله عنه حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلاَّ رجل، فقال أبو مِحْجَن : إنَّ هذا لا يحلُّ لك، قد نهاك الله عن التَّجسُّس، فخرج عمر وتركه.



لحيته خمراً؟ فقال: إِنَّا قد نُهينا عن التَّجسُّس، فإِن يظهر لنا أَمْرٌ أَخذنا به[١].

﴿وَلَا يَغْتَب﴾ معناه: ولا يذكر أَحدكم من أَخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه، وروي عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت عن امرأَة: ما رأَيتُ أَجمل منها إِلاَّ أَنَّها قصيرة، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «اغْتَبْتِها، نظرت إِلى أَسوأ ما فيها فذكرته»[٢]، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إِذا ذكرتَ ما في أَخيك فقد اغتبته، وإِذا ذكرت ما ليس فيه فقد بَهَتَّه»[٣]، وفي حديث آخر: «الغِيبَةُ أَن يُذكر المؤمن بما يكره، قيل: وإِن كان حقًّا؟ قال: إِذا قلت باطلاً فذلك هو البُهتان»[٤]، وقال معاوية بن قُرَّة، وأَبو إِسحاق السَّبيعيُّ[٥]: إِذا مرَّ بك رجل أَقطع فقلت: ذلك الأَقطع، كانت غِيبة، وحكى الزَّهراويُّ عن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الغِيبَةُ أَشدُّ من الزِّنى؛ لأَنَّ الزَّاني يتوب فيتوب الله عليه، والَّذي يغتاب يتوب فلا يُتاب عليه حتَّى يَسْتَحِلَّ»[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن زيد بن وهب، وليس في الحديث ذكر لاسم الوليد بن عقبة، بل ذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ «هذا فلان تقطر لحيته خمراً».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة، قال: إنَّ امرأة دخلت على النَّبيِّ ﷺ ثمَّ خرجت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما أجملها وأحسنها لولا أنَّ بها قِصراً، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «اغتبتيها يا عائشة»، فقالت: يا رسول الله: إنَّما قلت شيئاً هو بها، قال: «يا عائشة، إذا قلت شيئاً بها فهي غيبة، وإذا قلت ما ليس بها فقد بَهَتِّهَا». (الدُّرُّ المنثور).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، والتِّرمذيُّ وصحَّحه،، ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال: يا رسول الله، أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه. (الدُّرُّ المنثور). والبُهتان هو القذف بالباطل.

(٤) أخرج عبد بن حميد، والخرائطيُّ في «مساوىء الأخلاق» عن عبد المطلب بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغِيبَةَ أن تذكر المرءَ بما فيه»، قال: إنَّما كُنَّا نرى أن نذكره بما ليس فيه، قال: «ذاكَ البُهْتَان».

(٥) معاوية بن قُرَّة بن إياسٍ بن هلال المزني، أبو إياس البصريُّ، ثقة، عالم، مات سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة، وأبو إسحاق السَّبيعيُّ هو عمر بن عبد الله الهمدانيُّ، والسَّبيعيُّ بفتح السِّين المهملة وكسر الباء، مكثر، ثقة، عابد، مات سنة تسع وعشرين ومائة، وقيل قبْل ذلك. (تقريب التَّهذيب).

(٦) أخرجه ابن مردويه، والبيهقيُّ، عن أبي سعيد، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. (الدُّرُّ المنثور). ومعنى (يَسْتَحِل): يسأله أن يُحِلَّه من أمره ويصفح عنه.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يموت من اغتبتَ أَو يأبَى، ورُوي أَنَّ رجلاً قال لابن سيرين: إِنِّي قد اغتبتك فحلِّلني، فقال: إِنِّي لا أُحلِّل ما حرَّم الله، والغِيبةُ مشتقَّة من «غاب يغيب»، وهي القول في الغائب، واستعملت في المكروه، ولم يُبَح في هذا المعنى إِلاَّ ما تدعو الضَّرورة إِليه كتجريح الشُّهود، وفي التَّعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النَّبيِّ ﷺ: «أَمَّا معاوية فصعلوك لا مال له»[1]، وما يقال في الفَسَقة أَيضاً وفي وُلاة الجور ويُقصد به التَّحذير منهم، ومنه قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «أَعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما فيه حتَّى يعرفه النَّاسُ إِذا لم تذكروه»[2]، ومنه قوله: «بئس ابن العشيرة»[3].

ثمَّ مثَّل تعالىٰ الغِيبة بأَكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبِّه الغِيبة بأَكل اللَّحم، فمنه قول سُوَيْد بن أَبي كاهل:

فَــــإِذَا لاقَيْتُــــهُ عَظَّمَنــــي   وإِذَا يَخْلُــو لَــهُ لَحْمــي رَتَــع[4]

---

(١) أخرجه مسلم في الرَّضاع والطَّلاق، وأبو داود في الطَّلاق، والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ في النِّكاح، ومالك في الطَّلاق، وأحمد في مسنده (٦ـ٤١٢)، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي بكر بن الجهم بن صُخَيْر العدويِّ، قال: سمعتُ فاطمة بنتَ قيس تقول: إنَّ زوجها طلَّقها ثلاثاً، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ سُكْنى ولا نفقة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إذا حَلَلْتِ فآذنيني، فآذَنْتُهُ، فخطبها معاوية وأبو جهم وأُسامة بن زيد، فقال رسول الله ﷺ: أمَّا معاوية فرجل تَرِبٌ لا مال له، وأمّا أبو جهْم فرجل ضرَّاب للنِّساء، ولكن أُسامة بن زيد، فقالت بيدها هكذا: أُسامة أُسامة؟ فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك، قالت: فتزوجته فاغتبطت. ومعنى تَرِب: فقير.

(٢) أخرجه البيهقيُّ ـ وضَعَّفه ـ من طريق بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه. (ذكر ذلك السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور).

(٣) أخرجه البخاريُّ وأبو داود في الأدب، ومسلم في البرّ، ومالك في حسن الخلق، وأحمد في المسند (٦ـ٣٨، ٨٠، ١٥٨، ١٧٣) ولفظه كما جاء في مسند أحمد، عن عروة بن الزُّبير أنَّ عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رجلاً استأذن على النَّبيِّ ﷺ فقال: ائذَنُوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، وقال مرَّة رجل، فلما دخل عليه ألان له القول، فلمّا خرج قالت له عائشة: قلتَ له الَّذي قلتَ ثمَّ ألَنْتَ له القول؟ فقال: «أي عائشة، شرُّ النّاس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودَعَه النّاسُ أو تَرَكَه النّاسُ اتِّقاءَ فُحْشه».

(٤) الشّاعر هو سُوَيْد بن أبي كاهل، من بني يشكر، شاعر مخضرم، عاش في الجاهلية طويلاً، وعمّر في الإسلام ستين سنة، وبيته هذا من قصيدة له تعتبر من أغلى الشّعر وأنفسه، وهي المفضلية رقم ٤٠، قال الأصمعيُّ عنها: «كانت العربُ تفضلها وتقدِّمها وتَعُدُّها من حِكَمها، وكانت في الجاهلية تسمِّيها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال، قال في مطلعها:

=



ومنه قول الآخر:

إذا أكلُوا لَحمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْداً(١)

فوقفهم الله تعالىٰ ـ على جهة التَّوبيخ ـ بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، فالجواب عن هذا: لا، وهم في حكم من يقولها، فخوطبوا على أنَّهم قالوا: لا، فقيل لهم: [فَكَرِهْتُمُوهُ]، وبعد هذا مُقَدَّرٌ تقديره: فكذلك فاكرهوا الغِيبَةَ الَّتي هي نظير ذلك، وعلى هذا المقدَّر يعطف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، قاله أبو عليٍّ الفارسيُّ، وقال الرُّمَّانيُّ: كراهية هذا اللَّحم يدعو إليها الطَّبع، وكراهيَّة الغِيبَة يدعو إليها العقل، وهو أحقُّ أن يجاب لأنَّه بصيرٌ عالِمٌ، والطَّبْعُ أعمى جاهل، وقرأ الجمهور: [مَيْتاً] بسكون الياءِ خفيفة، وقرأ نافع، وابن القعقاع، وشيبة، ومجاهد بكسرها مشدَّدة، وقرأ أبو حيوة: [فَكُرِّهْتُمُوهُ] بضمِّ الكاف وشدِّ الرَّاءِ، ورواها أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ. ثمَّ أعلمهم الله تعالىٰ بأنَّه تَوَّابٌ رحيم إبْقاءً منه تعالىٰ وإمْهالاً وتمكيناً من التَّوبة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ

= بَسَطَتْ رابعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ مِنْهَا ما اتَّسَعْ

وروايةُ البيت في المُفَضَّليات، وفي الشِّعر والشعراء، «وَيُحَيِّيني إذا لاقَيْتُه» وفي اللِّسان: «وَحَبِيبٌ لي إذا لاقَيْتُهُ»، وكان الحجَّاج قد تمثَّل يوم رُسْتَقباذَ على المنبر بأبيات من قصيدة سويد هذه، منها هذا البيت، ومعنى رَتَع: أكَلَ، والرَّتْعُ في الأصل هو الأكل في الخصب.

(١) هذا البيت للمُقَنَّع الكِنْدي، واسمه محمد بن عُمَيْر، كان من أجمل النّاس وجهاً، وأمَدِّهم قامةً، فكان إذا كشف عن وجهه أُصيب بالعين، فكان يتَقَنَّع دهره، فَسُمِّي بالمُقَنَّع، والبيت ضمن أبيات يقولها في قومه، منها:

لاَ أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ رَئِيسَ القَوْمِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدَا
وَلَيْسُوا إِلَى نَصْرِي سِرَاعاً وَإِنْ هُمُ دَعَوْنِي إِلَى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمُ شَدّاً
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا

والبيت هنا شاهد على أنَّ العرب تستعمل أكل اللَّحم في مكان الغِيبَة. فالمعنى هنا: إذا هم اغتابوني وذكروني في غيبتي بما أكره فلست أفعل مثلهم، بل أصون أعراضهم، ولا أتناول أحداً منهم بسوءٍ.

فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يحتمل أن يريد آدم وحوَّاءَ عليهما السَّلام، فكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّا خلقناكم جميعاً من آدم وحوَّاءَ، ويحتمل أن يريد بالذَّكر والأُنثى اسْم الجنس، وكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّا خلقنا كلَّ واحد منكم من ماءِ ذكر وأُنثى، وقَصْد هذه الآية التَّسوية بين النَّاس، ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، أي: لِئَلاَّ تفاخروا ويريد بعضكم أَن يكون أكرم من بعض، فإنَّ الطَّريق إلى الكرم غير هذا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وروى أَبو بكرة: قيل: يا رسول الله، من خير النَّاس؟ قال: «من طال عُمُره، وحسُن عمله»[1]، وفي حديث آخر: مَنْ خَيْرُ النَّاس؟ قال: «آمرُهُم بمعروف، وأَنهاهم عن منكر، وأَوصلهم للرَّحم، وأَتقاهم»[2].

وحكى الزَّهراويُّ أَنَّ سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام، وعَتَّاب بن أَسيد حين أَذَّن بلال يوم فتح مكة على الكعبة[3]. وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ سببها قول ثابت بن قيس لِرَجلٍ لم يفسح له عند النَّبيِّ ﷺ: يابْنَ فلانة، فوبَّخه النبي ﷺ، وقال له: إنَّك لا تَفْضُل أَحداً إلاَّ في الدِّين والتَّقوى[4]، فنزلت

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في الزُّهد، والدارميُّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (٤ـ١٨٨، ٥ـ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠)، ولفظه كما جاء في المسند، عن عبد الله بن بُسْر قال: أَتى النَّبيَّ ﷺ أعرابيَّان، فقال أحدهما: من خير الرِّجال يا محمد؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «من طالَ عُمُرُه، وحَسُنَ عَمَلُه»، وقال الآخر: إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فبابٌ نتمسَّك به جامع؟ قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦ـ٤٣٢)، عن دُرَّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النَّبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أيُّ النَّاس خير؟ فقال ﷺ: «خير النَّاس أقرؤهم وأتقاهم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأَوْصَلُهم للرَّحِمِ». وأورده السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثور» وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن أبي مُلَيْكَة، قال ذلك في «الدُّرِّ المنثور»، وذكره الواحديُّ في «أسباب النُّزول» بدون سند عن مقاتل، قال: لمَّا كان يوم فتح مكَّة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتّى أذَّن على ظهر الكعبة، فقال عتَّابُ بن أَسيد بن أبي العيص: الحمد لله الَّذي قبض أبي حتّى لم يَرَ هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمرو: إنْ يُرِدِ اللهُ شيئاً يُغَيِّره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربُّ السَّماءِ، فأتى جبريل عليه السَّلام النَّبيَّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقرُّوا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وزجرهم عن التَّفاخر بالأنساب والتَّكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراءِ.

(٤) ذكَرَهُ الواحديُّ في «أسباب النزول» بغير سند، ولم يَعْزُه لأحد، وذَكَرَهُ الخازن والبغويُّ عن ابن عبّاس=



هذه الآية، ونزل الأمر بالتَّفسُّح في ذلك أيضاً.

و«الشُّعوب» جمع شَعْب، وهو أَعظم ما يوجد من جماعات النّاس مرتبطاً بنسب واحد، وتتلوه القبيلة ثمَّ العمارة ثمَّ البطن ثم الفخذ ثمَّ الأُسرة والفصيلة، وهما قرابة الرّجل الأَدنَوْن، فمُضر وربيعة وحِمْير شعوب، وقيس وتميم ومَذْحج ومراد قبائل، مُشَبَّهة بقبائل الرأس لأَنَّها قطع تقابلت، وقريش وسليم عمارات، وبنو قُصَيٍّ وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أُميّة ونحوهما أَفخاذٌ، وبنو عبد المطلب أُسرة وفصيلة. وقال ابن جبير: الشُّعوب: الأَفخاذ، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: الشُّعوب: البطون، وهذا غير ما تَمَالأَ[1] عليه اللُّغويون. وقال الثَّعلبيُّ: وقيل: الشُّعوب في العجم والقبائل في العرب والأَسباط في بني إِسرائيل، وأَمَّا الشعب الذي في هَمْدان الذي يُنسب إِليه الشَّعبيُّ فهو بطنٌ يقال له: الشَّعْب، وقيل للأُمم التي ليست بعرب: «شَعوبية» نسبة إِلى الشُّعوب، وذلك أَنَّ تفصيل أَنسابها خفيٌّ فلم يُعرف أَحدٌ منهم إِلاَّ بأَن يقال: فارسيٌّ، تركيٌّ، روميٌّ، فكأَنَّهم عرفوا بشعوبهم وهي أَعمُّ ما يُعبَّر به عن جماعتهم، ويقال لهم الشَّعُوبيّة بفتح الشين، وهذا من تعيين النَّسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرتُ، وهذا أَولى عندي.

وقرأَ الأَعمش: [لِتَتَعَارَفُوا]، وقرأَ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: [لِتَعْرِفوا أَنَّ] على وزن «تَفْعِلُوا» بكسر العين وبفتح الألف من [أَنَّ] وإِعْمال [تَعْرِفُوا] فيها، ويحتمل ـ على هذه القراءَة ـ أَن تكون اللاَّم في قوله تعالىٰ: [لِتَعْرِفُوا] لام «كَيْ»، ويضطرب معنى الآية مع ذلك، ويحتمل أَن تكون لام الأَمر، وهو أَجود في المعنى، ويحتمل أَن يكون

= رضي الله عنهما بدون سند أيضاً، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشّاف»: إنَّ الثَّعلبيَّ ذكره عن ابن عبّاس بغير سند، وأورده القرطبيُّ مسبوقاً بكلمة «وقيل» وبدون سند أيضاً، قالوا جميعاً: إنَّ الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس حين أراد أن يجلس قريباً من النَّبيِّ ﷺ، وطلب إلى رجل أن يُفسح له في المجلس فلم يُفْسح له، فقال ثابت للرَّجل: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقال ثابت: أنت ابن فلانة! فذكر أمّاً له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية، فأغضى الرَّجلُ ونَكَس رأسه، فقال رسول الله ﷺ: من الذَّاكر فلانة؟ فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النَّبيُّ ﷺ: انظر في وجوه القوم، فنظر، فقال: ما رأيتَ؟ قال: رأيتُ أبيض وأسود وأحمر، فقال: فإنك لا تفضلهم إلاّ بالتّقوى، فنزلت في ثابت هذه الآية، ونزلت في الرّجل الذي لم يفسح له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ ﴾ الآية.

(١) بمعنى: اجتمعوا واتفقوا.



المفعول محذوفاً تقديره: «الحَقَّ»، وإِذا كانت لام «كي» فكأَنَّه تعالىٰ قال: يا أَيُّها النّاس أَنتم سواءٌ من حيث أَنتم مخلوقون، وإِنَّما جُعلتم قبائل لأَنْ تتعارفوا ولأَنْ تعرفوا الحقائق، وأَمَّا الشَّرفُ والكرم فهو بتقوى الله تعالىٰ وسلامة القلوب. وقرأَ ابن مسعود: [لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ، وخيركم عند الله أَتقاكم]، ورُوي أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن سرَّه أَن يكون أَكرم النّاس فَلْيتَّق الله ربَّه»[1]. ثمَّ نبَّه تعالىٰ على الحذر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أَي بالمُتَّقِي الَّذي يستحقُّ رتبة الكرم.

قوله تعالىٰ: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾، قال مجاهد: نزلت في بني أَسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، وكانوا قد أَظهروا الإِسلام، وكانت نفوسهم ـ مع ذلك ـ دَخِلَةً[2]، إِنَّما يُحبُّونَ المغانم وعَرَض الدُّنيا، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: وذهبوا مرَّة إِلى أَن يتسمَّوْا بالمهاجرين، فنزلت هذه الآية مُسَمِّيَةً لهم بالأَعراب، مُعَرِّفَةً لهم بذلك أَقدارهم، ومُخْرِجَةً ما في صدورهم من صورة معتقدهم، وهم أَعرابٌ مخصوصون كما ذكرنا، قال أَبو حاتم عن ابن الزُّبير: سمع النَّبيُّ ﷺ رجلاً يقرأُ: «قَالتِ الاعْرابُ» بغير همز، فردَّ عليه بِهَمْز قَطْع. وقد أَخبر الله تعالىٰ أَن في الأَعراب على الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر، فأَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أَن يقول لهؤلاءِ المُدَّعين في الإيمان: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، أَي: لم تصدِّقوا بقلوبكم، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

والإِسلام يقال بمعنيَيْن: أَحدهما الَّذي يعُمُّ الإِيمان والأَعمال، وهو الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3]، والَّذي في قوله ﷺ: «بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمْسٍ»[4]، والَّذي في تعليم النَّبيِّ ﷺ لجبريل عليه السّلام حين قال: ما الإِسلام؟

---

(١) ذكره القرطبيُّ بقوله: «وقد جاء منصوصاً عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ أَحبَّ أن يكون أكرم النَّاس فليتَّق الله»، وفي البخاريِّ عن أبي هريرة قال: سُئِل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة.

(٢) أصابها الفسادُ والعيب من الداخل، وفي بعض النّسخ «دغلة» بالغين، والداغل هو الَّذي يبغي الشَّرَّ لأصحابه ويحسبونه هم خيراً.

(٣) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران).

(٤) أخرجه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ في الإيمان، ولفظه كما جاء في صحيح البُخاريِّ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: شهادة أنْ لا إلَه إلاّ الله=

قال: «أَن تعبد الله وحده لا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصّلاة، وتُؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً»[١]، والّذي في قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أَوْ مُسلِماً، إنِّي لأُعطي الرَّجلَ وغيرُه أَحبُّ إِليَّ منه»[٢] الحديث، فهذا الإسلام ليس هو في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

والمعنى الثّاني لِلَفظ الإسلام هو الاسْتِسلامُ والإظهار الّذي يُسْتَعصم به ويُحقَن الدَّمُ، وهذا هو الإسلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، والإيمان الّذي هو التَّصديق أَخصُّ من الأَوَّل.

ثمَّ صرَّح تعالىٰ لهم بأَن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ثمَّ فتح تعالىٰ لهم باب التَّوبة بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الآية، وطاعةُ الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في ضمنها الإيمان والأَعمال.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾، من (لاَتَ يَليتُ) إذا نقص، يقال: «لاَتَهُ حقَّه» إذا نقصه منه، وقرأَ أَبو عمرو، والأَعرج، والحسن، وعمرو: [لا يَأْلِتْكُم] من (أَلَتَ

= وأَنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والحجِّ، وصوم رمضان».

(١) رواه البخاريُّ في كتاب الإيمان عن أبي هريرة قال: كان النَّبيُّ ﷺ بارزاً يوماً للنّاس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصّلاة، وتؤدّي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك، قال: متى السّاعة؟ قال: ما المسؤول بأعلم من السائل، وسأُخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربَّها، وإذا تطاول رعاةُ الإبل البُهْم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلاَّ الله، ثمَّ تلا النَّبيُّ ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمَّ أدبر، فقال: ردُّوه فلم يروْا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلِّم النّاسَ دينهم. اهـ. وكذلك رواه مسلم والتِّرمذيُّ في كتاب الإيمان، وأبو داود في السُّنَّة، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (١ـ٢٧، ٥١، ٥٣ ـ ٢ـ١٠٧ ـ ٤ـ١٢٩) واللفظ هنا للبخاري.

(٢) أخرجه الشيخان في صحيحيهما في كتاب الإيمان وفي كتاب الزّكاة، عن سعد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أعطى رهْطاً وسعْدٌ جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان، فوالله إنّي لأراه مؤمناً، فقال: (أو مُسلماً)، فسكتُّ قليلاً، ثمّ غلبني ما أعلم منه فعدتُّ لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان فوالله إنّي لأراه مؤمناً، فقال: (أو مُسلماً)، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلم منه فعدتُّ لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ، ثمّ قال: «يا سعدُ، إنِّي لأعطي الرَّجل وغيره أحبُّ إليَّ منه خشية أن يُكبَّه الله في النّار». قال الإمام البخاري: ورواه يونس، وصالح، ومَعْمَرٌ، وابن أخي الزُّهريّ عن الزُّهريّ.

يَأْلِتُ)، وهو بمعنى (لات)، وكذلك يقال: (أَلِتَ) بكسر اللام (يَأْلَتُ)، ويقال أيضاً في معنى (لات): (آلَتَ يُولِتُ)، ولم يُقرأ بهذه اللُّغة. وباقي الآية بيِّنٌ في التَّرجية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[إِنَّمَا] في هذه الآية حاصرةٌ تُعطي ذلك المعنى. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي لم يشكُّوا في إيمانهم، ولم يُدَاخِلْهم ريب، وهم الصّادقون إذْ جاءَ فعلهم مُصدِّقاً لقولهم. ثمَّ أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بتوبيخهم بقوله: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي بقولكم: «آمنَّا»، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأنَّه العليم بكلِّ شيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ نزل في بني أَسد أيضاً، وذلك أَنَّهم قالوا في بعض الأَوقات للنَّبيِّ ﷺ: إِنَّا آمنَّا بك واتَّبعناك ولم نحاربك كما فعلت مُحارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية، حكاه الطبريُّ وغيره. وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [يَمُنُّون عَلَيكَ إِسْلاَمَهُمْ].

وقوله تعالىٰ: [أَنْ] يحتمل أَن يكون مفعولاً صريحاً، ويحتمل أَن يكون مفعولاً من أَجله، وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ بزعمكم إِذْ تقولون آمنَّا، فقد لزمكم أَنَّ الله تعالىٰ مانٌّ عليكم، ويدلُّك على هذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فعلَّق عليهم الحُكمين: هم ممنونٌ عليهم على الصِّدق، وأَهلٌ أَن يقولوا أَسلمنا من حيث هم كذبة، وقرأَ ابن مسعود: [إِذْ هَدَاكُمْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أَن يكون بمعنى: يُنْعِم، كما تقول: مَنَّ اللهُ عليك، ويحتمل أَن يكون بمعنى: يَذْكُرُ إِحسانه فيجيءُ معادلاً لـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾، وقال الناسُ قديماً: إِذا كُفرت النِّعمة حَسُنَت المِنَّةُ، وإِنَّما المنَّةُ المُبطلةُ للصَّدَقة المكروهة ما وقع دون كُفر نعمة.



وقرأَ أَبو جعفر، ونافع، وشيبة، وقتادة، وابن وثّاب: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطاب، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [بما يَعْمَلُون] بالياءِ من تحت على ذكر الغائب.

كمل تفسير سورة الحجرات والحمد لله ربّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة ق

هي مكيَّة بإجماع من المتأوِّلين(١)، وروى أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «من قرأ سورة قَ هوَّن الله عليه الموت وسكراته»(٢).

---

(١) وحُكي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وعن قتادة أنَّ فيها آية مدنيَّة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾، وهي رقم (٣٨)، وسورة (ق) هي أوَّل المُفَصَّل، قال ابن كثير في تفسيره: والدَّليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له، قال مسدّد (وكان في الوفد الَّذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف)، قال: كان رسول الله ﷺ كلَّ ليلة يأتينا بعد العشاء يحدِّثنا، قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتّى يراوح بين رجليه من طول القيّام، فأكثر ما يحدِّثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثمَّ يقول ﷺ: «لا سواء، وكنّا مُسْتَضعفين مُسْتذلّين، (قال مسدّد: بمكَّة)، فلمَّا خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم، نُدالُ عليهم ويُدالُون علينا»، فلمّا كانت ليلة أبطأ عنّا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا اللَّيلة، قال ﷺ: «إنَّه طرأ عليَّ حِزْبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتّى أُتِمَّه»، قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المُفَصَّل وحده.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عبد الرَّحمٰن، ورواه ابن ماجه عن أبي خالد الأحمر، ونحن إذا جمعنا الأرقام الَّتي وردت في الحديث عن سور القرآن حتّى المفصَّل نجدها ثمانياً وأربعين سورة، والَّتي تبدأ بعدهن هي سورة (ق)، أمّا الثّلاث فهي: البقرة، وآل عمران والنِّساء، وأمّا الخمس فهي: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتّوبة، وأمّا السبع فهي: يونس وهود ويوسف والرّعد وإبراهيم والحجر والنّحل، وأمّا التّسع فهي: الإسراءُ والكهف ومريم وطه والأنبياء والحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان، وأمّا الإحدى عشرة فهي: الشّعراء والنّمل والقصص والعنكبوت والرّوم ولقمان والسّجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وأمّا الثّلاث عشرة فهي: الصافات وص والزُّمر وغافر وفصِّلت والشّورى والزّخرف والدُّخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات، وبهذا استدلَّ ابن كثير على أن سورة (ق) هي أوَّل المفصَّل من القرآن الكريم.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللَّفظ، والَّذي رواه الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد اللَّيثيَّ: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت، وذكر ابن كثير في تفسيره أنَّ مسلماً رواه وكذلك أهل السُّنن الأربعة من حديث مالك به، كذلك روى الإمام أحمد عن أُم هشام بنت حارثة=



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: [قٓ] اسمٌ من أَسماءِ القرآن، وقال أَيضاً: اسمٌ من أَسماءِ الله تبارك وتعالىٰ، وقال قتادة والشَّعبيُّ: هو اسم السُّورة، وقال ابن زيد، وعكرمة، ومجاهد، والضَّحّاك: هو اسم الجبل المحيط بالدُّنيا، وهو فيما يزعمون من زُمُرُّدَة خضراءَ، منها خُضرة السَّماءِ وخُضرة البحر. و[ٱلْمَجِيدِ]: الكريم في أَوصافه الَّذي جمع كلَّ عليٍّ، و[قٓ] ـ على هذه الأَقوال ـ مُقْسَمٌ به وبالقرآن المجيد، وجواب القَسَم مُنتَظر، واختلف النّاسُ فيه ـ فقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾[1]، وقيل: الجواب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾[2]، وقال الزَّهراويُّ، عن سعيد الأَخفش: الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وضعَّفه النَّحّاس[3]، وقال الكوفيون من النُّحاة: الجواب ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾، والمعنى: قد عَجِبُوا، قال منذر بن سعيد: وقد قيل: إِنَّ جواب القَسَم في قوله تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾[4]، وفي هذه الأَقوال تكلُّف وتحكُّم على اللِّسان، وقال الزَّجّاج، والمبرِّد، والأَخفش: الجوابُ مُقدَّر، تقديره: «قٓ والقرآن المجيد لَتُبْعَثُنَّ»، وهذا قولٌ حسَنٌ، وأَحسن منه أَن يكون الجواب هو الَّذي يقع عنه

= قالت: «ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ إلاّ على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كلَّ يوم جمعة على المنبر إذا خطب النّاس، ورواه مسلم من حديث ابن إسحاق، قال ابن كثير: (والقصد أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السّورة بالمجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداءِ الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنّة والنّار، والثّواب والعقاب. . .».

(١) من الآية (١٨) من السورة.

(٢) من الآية (٣٧) من السورة.

(٣) قالوا: لأنّه لا يُعرف في أجوبة الأيمان قد، وإنّما تُجاب الأيمان إذا أُجيبت بأحد الحروف الأربعة «اللام، وإنَّ، وما، ولا»، أو بترك جوابها فيكون ساقطاً.

(٤) من الآية (٢٩) من السّورة.

الإضراب بـ [بَلْ]، كأنَّه تعالىٰ قال: والقرآن المجيد ما ردُّوا أَمْرك بِحُجَّة، أَو ما كذَّبوك بِبُرْهَان، أَو نحو هذا ممَّا لا بدَّ لك من تقديره بعد الَّذي قدَّر الزَّجاّج؛ لأَنك إِذا قلت الجواب «لَتُبْعَثُنَّ» فلا بُدَّ بعد ذلك أَن تقدِّر خبراً عنه يقع الإِضرابُ، وهو الَّذي جعلناه جواباً وجاءَ في المقدر أَخصر.

وقال جماعةٌ من المفسِّرين في قوله تعالىٰ [قَ]: إِنَّه حرف دالٌّ على كلمة، نحو قول الشّاعر:

قُلْــتُ لَهَــا قِفِــي فقــالــتْ قــاف . . . . (١)

واختلفوا بعد، فقال القُرَظِيُّ: هو دالٌّ على أَسماءِ الله تعالىٰ هي: قادرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاض وقابضٌ. وقيل: المعنى: قُضي الأَمر من رسالتك ونحوه. «والقرآن المجيد»، فجواب القسَم في الكلام الَّذي يدلُّ عليه [قَ]، وقال قوم: المعنى: قف عند أَمرنا، وقيل: المعنى: قُهِرَ هؤلاءِ الكفرة، وهذا أَيضاً وقع عليه القَسَم، ويحتمل أَن يكون المعنى: قيامُهم من القبور حقٌّ «والقرآن المجيد»، فيكون أَوَّل السُّورة من المعنى الَّذي اطَّرد بعْدُ، وعلى هذه الأَقوال، فثمَّ كلام مضمر وقع عنه الإِضرابُ، وهو خبرٌ

---

(١) هذا صدر بيت للوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، كان أخاً لعثمان بن عفان رضي الله عنه لأُمِّه، وقد تولّى الكوفة فاتُّهم بشُرْبِ الخمر، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشُّخوص إليه، فخرج في جماعة، ونزل الوليد يسوق بهم، فقال:

قُلْـتُ لَهَـا: قِفِـي، فَقَـالَـتْ: قَـافْ ... لا تَحْسَبِينَـا قَـدْ نَسِينَـا الإيجَـافْ
والنَّشَـوَاتِ مِـنْ مُعَتَّـقٍ صـافْ ... وَعَـزْفَ قَيْنَـاتٍ عَلَيْنَـا عَـزَافْ

والإيجاف: العدْو، وهو أيضاً الحمل عليه، وانظر الخصائص لابن جنّي، والأغاني ٥ـ١٣١، وشواهد الشّافية، والمحتسب في وجوه شواذ القراءات لابن جنيٍّ، ومعاني القرآن للفرّاء، واللسان والتّاج ـ مادة وقف ـ، والشّعر في اللِّسان غير منسوب، قال: «إنَّما أراد: (قَدْ وقَفْتُ) فاكتفى بذكر القاف، قال ابن جنيٍّ: ولو نقل هذا الشّاعر إلينا شيئاً من جملة الحال فقال ـ مع قوله قالت قاف ـ: وأمْسَكت زمام بعيرها أو عاجَتْهُ علينا، لكان أبْيَنَ لما كانوا عليه وأدلَّ على أنَّها أرادت: قِفِي لنا قِفِي لنا، أي: تقول لي: قِفِي لنا متعجبةً منه، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها (قافْ) إجابةٌ له لا ردٌّ لقوله وتعجُّبٌ منه». قال ابن كثير في تفسيره: «وفي هذا التَّفسير نظر، لأنَّ الحذف في الكلام إنَّما يكون إذا دلَّ عليه دليلٌ، ومنْ أين يُفهم هذا من ذِكْر هذا الحرف؟»، كذلك قال ابن جنيٍّ تعليقاً على كلام الفراء واستشهاده بهذا الشِّعر: «وفي هذا ضعفٌ، ألا ترى إلى الفتح والكسر فيه؟» يعني أنَّه لو كان حرفاً من كلمة لما جاءت فيه القراءة بفتح الفاء وبكسرها.



عنهم، كأنَّه تعالىٰ قال: ما كذَّبوك ببرهان، أَو نحو هذا مما يليق مظهراً.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: «قافْ» بسكون الفاءِ، قال أَبو حاتم: ولا يجوز غيرها إِلاَّ جواز سوءٍ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه القراءَة تحسُن مع أَن تكون [قٓ] حرفاً دالاً على كلمة. وقرأَ الثَّقفيُّ، وعيسى: «قافَ» بفتح الفاءِ، وهذه تحسُن مع القول بأَنَّها اسمٌ للقرآن أَو للهِ تعالىٰ، وكذلك قرأَ الحسن، وابن أَبي إِسحاق: «قافِ» بكسر الفاءِ، وهي في رتبة الَّتي قبلها في أَن الحركة للالتقاءِ، وفي أَنّها اسم للقرآن، و«المجيدُ» الكريمُ الأَوصاف الكثيرُ الخير[1].

واختلف النَّاسُ في الضَّمير في [عَجِبُوا]، لمن هو؟ فقال جمهور المتأَوِّلين: هو لجميع النَّاس، مؤمنهم وكافرهم؛ لأَنَّ كلّ مفطور عَجِب من بعثة بشر رسولاً لله[2]، لكنَّ المؤمنين نظروا واهتدوا، والكافرين بقوا على عمايتهم وصمُّوا وحاجُّوا بذلك العجب، ولذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾، وقال آخرون: بل الضَّمير في [عَجِبُوا] للكافرين، ، كرَّر الكلام تأْكيداً ومبالغةً، والإِشارة بـ[هذا] يحتمل أَن تكون إِلى نفس مجيءِ البشر، ويحتمل أَن تكون إِلى القول الذي يتضمَّنه الإِنذار وهو الخبر بالبعث، ويؤيِّد هذا القول ما يأْتي بعده.

وقرأَ الجمهور: [أَئِذَا]، وقرأَ الأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر: [إِذَا] على الخبر دون استفهام[3]، والعامل في [إِذَا] فعل مضمر، كأَنَّه تعالىٰ قال: أَنبعثُ إِذا؟ وإِلى هذا الفعل وقعت الإِشارة بقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، قال ابن جنِّيٍّ: ويحتمل أَن يكون المعنى: إِذا مِتنا بَعُدَ رجعُنا، فيدلُّ ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ على هذا الفعل الَّذي هو (بَعُدَ) ويحلُّ محلَّ الجواب لقولهم: [إِذَا].

---

(١) قال ابن جنِّيٍّ: «يحتمل (قاف) بالفتح أمرين: أحدهما أن تكون حركته لالتقاء السَّاكنين، كما أنَّ من يقرأ بالكسر كذلك، غير أنَّ من فَتَح أتبع الفتحة صوت الألف لأنَّها منها، ومَنْ كسر فعلى أصل التقاء السَّاكنين، والآخر أنَّ (قاف) منصوبة الموضع بفعل مضمر، ولم تُصرَّف لاجتماع التَّعريف والتَّأنيث في معنى السُّورة».

(٢) في بعض النُّسخ «من بعثة بشر رسول الله».

(٣) يرى أبو حيَّان الأندلسيُّ أنَّه يجوز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة، ويجوز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر وجواب [إذا] مضمر.



و«الرَّجْعُ» مصدر رجعتُه، وقولهم: [بَعيدٌ] معناه: بعيد في الأفهام والفكر كَوْنُه، فأَخبر الله تعالىٰ ـ ردًا على قولهم ـ بأَنَّه تعالىٰ يعلم ما تأكل الأَرض من ابن آدم وما تُبقي منه، وأَنَّ ذلك في كتاب، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كلُّه، و«الحفيظ»: الجامع الَّذي لم يفته شيءٌ، وقال الرُّمَّانيُّ: حفيظٌ: منيع من أَن يذهب بِبِلًى ودُروس، وروي في الخبر الثَّابت أَنَّ الأَرض تأكل ابن آدم إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ[1] وهو عظم كالخردلة فمنه يُركَّبُ ابن آدم، وحِفْظُ ما تنقص الأَرض إِنَّما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحقُّ، وذهب بعض الأُصوليِّين إِلى أَن الأَجساد المبعوثة يجوز أَن تكون غير هذه، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالىٰ، ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الجلود والأَيدي والأَرجل على الكفرة إِلى غير ذلك ممّا يقتضي أَنَّ أَجساد الدُّنيا هي الَّتي تعود؟ وقال ابن عبّاس، ومجاهد، والجمهور: المعنى: ما تنقص من لحومهم وأَبشارهم وعظامهم، وقال السُّدِّيُّ: معنى قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَي ما يحصل في بطن الأَرض من موتاهم، وهذا قولٌ حسنٌ مُضَمَّنُهُ الوعيد، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما حكى الثَّعلبيُّ ـ: معناه: قد علمنا ما تنقص الأَرض بالإِيمان من الكفرة الَّذين يدخلون في الإِيمان، وهذا قول أَجنبي من المعنى الذي قبلُ وبعدُ.

وقبل قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ مُضمر عنه وقع الإِضراب، تقديره: ما أَجادوا النَّظر، أَو نحو هذا، والَّذي يقع عنه الإِضرابُ بـ (بَلْ) الأَغلب فيه أَنَّه منفيٌّ تقضي (بلْ) بفساده، وقد يكون أَمراً مُوجباً تقضي (بَلْ) بترك القول فيه لا بفساده، وقرأَ الجمهور: [لَمَّا] بفتح اللاَّم وشدِّ الميم، وقرأَ الجحدريُّ: [لِمَا] بكسر اللاَّم وتخفيف الميم، قال أَبو الفتح: هي كقولهم: «أَعطيته لِمَا سَأَلَ»، وكما في التأْريخ «لِخَمْسٍ خَلَوْنَ»، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) روى مسلم في صحيحه، وأبو داود، والنَّسائيُّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «كل ابن آدم يأكله التُّراب إلاَّ عَجْبَ الذَّنَب، منه خُلق، ومنه يُرَكَّب»، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد أورده الإمام السُّيوطيُّ في (الجامع الصَّغير)، ورمز له بأنَّه صحيح. والعَجْب ـ بسكون الجيم ـ: العظم الذي في أسفل الصُّلب عند العَجُز، وفي اللسان أَنَّه ما انضم عليه الوَركان من أصل الذَّنَب المغروز في مُؤَخَّر العَجز.

(٢) من الآية (١٨٧) من سورة الأعراف، والمعنى في هذه الآية: لا يُجَلِّيها عند وقتها إلاَّ الله تعالىٰ، وكذلك المعنى في قولهم: «أَعطيتُه لِمَا سَأَلَ»: أَعطيته لسؤاله، والمثال الَّذي ذكره أبو الفتح في المحتسب: =

. . . . إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ[١]

و«الْمَرِيجُ» معناه: المختلط، قاله ابن زيد، أي بعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول كاهن، وبعضهم يقول شاعر[٢]، إلى غير ذلك من تخليطهم، وكذلك عادت فكرة كلِّ واحد منهم مختلطة في نفسها، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المريج: المُنكر، وقال مجاهد: المُلْتبس، والمريج: المضطرب أيضاً، وهو قريب من الأوَّل، ومنه في الحديث «مَرِجَتْ عهودُهم»[٣]، ومن الأول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾[٤]، وقال الشّاعر:

مَــرِجَ الــدِّيــنُ فَــأَعْــدَدْتُ لَــهُ مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ[٥]

= «أعطيتُه ما سأل لطلبه»، أي عند طلبه، أو مع طلبه، وليس كما ذكر هنا إذ نُقل محرفاً، ومعنى «لِخَمْسٍ خَلَوْنَ»: عِنْدَ خَمْس خلَوْنَ، أو مَعَ خَمْسٍ خلَون. وعلى هذا يرجع المعنى في قراءة [لِمَا] بكسر اللاّم وفتح الميم خفيفة لمعنى القراءة العامّة [لَمَّا] بفتح اللاّم وشدِّ الميم.

(١) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (عقر) شاهداً على أنَّ العَقْر موضعٌ معيَّن، والبيت بتمامه:

كَـرِهْـتُ العَقْـرَ عَقْـرَ بَنِـي شُلَيْـلٍ إِذَا هَبَّـتْ لِقَـارِيهَـا الـرِّيَـاحُ

والبيت في المُحْتَسَب لابن جنيٍّ، والرِّواية فيه: «شَنِئْتُ العَقْر»، ومعنى شنئتُ: كرهتُ، وضُبطت (شليل) في اللّسان بفتح الشّين وكسر اللاّم الأولى، وضبطت في المحتسب بضمِّ الشّين وفتح اللاّم، ومعنى «إذا هبَّتْ لِقاريهَا»: إذا هبت عند وقتها الرِّياح، وهو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) في الأصول: «وبعضهم كاهن، وبعضهم شاعر»، والزِّيادة للتوَّضيح.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مسنده (٢ـ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١)، ولفظه كما جاء في المسند: حدَّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، ثنا إسماعيل، عن يونس، عن الحسن، أن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من النّاس»؟ قال: قلت: يا رسول الله، كيف ذلك؟ قال: «إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم وكانوا هكذا»، وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذاك، قال: قلتُ: ما أصنع عند ذاك يا رسول الله؟ قال: «اتَّق الله عزَّ وجلَّ، وخُذْ ما تعرف ودَع ما تُنكر، وعليك بخاصتك، وإيَّاك وعوامَّهم». ومثل هذا الحديث ما رواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «كيف أنتم إذا مَرِج الدِّينُ، وظهرت الرَّغبة، واختلفت الإخوان، وحُرِّق البيتُ العتيق»، والشّاهد في الحديثين (مرج) بمعنى اختلط.

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الرَّحمٰن).

(٥) البيت لأبي دُؤادٍ الإياديِّ ـ جارية بن الحجّاج ـ، وهو في اللّسان (مَرَجَ)، قال: «ومَرِجَ العهد والأمانة والدِّين: فَسَدَ، قال أبو دؤاد: مَرِج الدِّينُ. . . البيت. والحاركُ: الكاهل، والكَتَد: مجتمع الكتفين وهو الكاهل، ويقال كتَد ـ بفتح التّاء وكسرها ـ وفي الحديث «كنا يوم الخندق ننقل التّراب على أكتادنا».

يقول: إنَّه عندما اختلط الدِّين أعدّ للجهاد فرساً عالي الكاهل محكم الكتفين متين البناء، ومثل هذا البيت قول الداخل الهذليِّ يصف بقرة رماها بسهم: =



ثمَّ دلَّ تعالىٰ على العبرة بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الآية. و[زَيَّنَّاهَا] معناه: بالنُّجوم، و«الفُرُوج»: الفطور خلالها وأثناءَها، قاله مجاهد وغيره، وحكى النَّقاش أن هذه الآية تعطي أن السَّماءَ مستديرة، وليس الأمر كما حكى إذا تُدُبِّر اللَّفظ وما يقتضي. و«الرَّواسي»: الجبال، و«الزَّوْجُ»: النَّوْعُ، و«الْبَهِيجُ» قال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد: هو الحسن المنظر.

وقوله تعالىٰ وجلَّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر، و«الْمُنِيب»: الرّاجع إلى الحقِّ عن فكرة ونظر، وقال قتادة: هو المقبل بقلبه إلى الله تعالىٰ، وخصَّ تعالىٰ هذه الصنيفة بالذِّكر تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتَّبصرة والذِّكرى، وإلاَّ فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكلِّ بشر، وقال بعض النَّحويين: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ مفعولان من أجلهما، وهذا محتمل، والأوّل أرجح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، قيل: يعني جميع المطر، كلّه يتَّصف بالبركة، وإن ضَرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضُّرِّ الخاص البركةُ العامَّة، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النَّبيُّ ﷺ إذا جاءَ المطر فسالت الميازيب قال: «لا مَحْل عليكم العام»، وقال بعض المفسِّرين: ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ يريد به ماءً مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالىٰ كلَّ سنة، وليس كلّ المطر يتّصف بذلك. وحَبُّ الحصيد هو البُرُّ والشَّعير ونحوه مما هو نبات محبب يُحصد، و[ٱلْحَصِيدِ] صفة لمحذوف[1]، وقال مجاهد: حبُّ الحصيد: الحنطة.

= فجالَتْ فالتَمَسْتُ بهِ حَشَاهَا فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ

(١) التّقدير: «وحَبَّ النَّبْتِ الْحَصيد»، وهذا قول البصريين، أمّا الكوفيون فيقولون: هذا من إضافة الشّيء إلى نفسه، كما يقال: مسجدُ الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، إذ المراد: المسجدُ الجامعُ، والرَّبيعُ الأوَّلُ، ومن=

و[بَاسِقَاتٍ] معناه: طويلات ذاهبات في السَّماءِ، ومنه قول أَبي[(١)] نوفل في ابن هُبيرة:

يَـــابْـــنَ الَّـــذِيـــنَ بِجِـــدِّهِـــمْ بَسَقَـــتْ عَلَـــى قَيْـــسٍ فَـــزَارَهْ[(٢)]

وروى قطبة بن مالك عن النبيِّ ﷺ أنَّه قرأ: [بَاصِقَاتٍ] بالصَّاد[(٣)]، قال أَبو الفتح: الأَصل السّين، وإنما الصَّاد بدلٌ منها لاستعلاءِ القاف. و«الطَّلْعُ» أَوّل ظهور التّمر في الكُفُرَّى[(٤)] وهو أَبيض منضَّد كحبِّ الرُّمَّان، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد، وإذا خرج من الكفرى وتفرَّق فليس بنضيد. و[رِزْقاً] نصب على المصدر، والضمير في [بِهِ] عائد على المطر، ووصف البَلْدَة بـ «مَيْت» على تقدير القُطْر والبلد، وقرأَ الناس: [مَيْتاً] مخفَّفاً، وقرأَ أَبو جعفر، وخالد: [مَيِّتاً] بالتَّثقيل، ثمَّ بيَّن تبارك وتعالىٰ موضع الشَّبه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾، وهذه الآيات كلُّها إنَّما هي أَمثلة وأَدلَّة على البعث، و«الخروج» يريد به الخروج من القبور.

و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قومٌ كان لهم بئر عظيمة وهي الرَّسُّ، وكلُّ ما لم يُطْوَ من بئر أَو معدن أَو نحوه فهو رسٌّ، وأَنشد أَبو عبيدة للنابغة الجعديِّ:

سَبَقْـــتَ إِلَـــى فَـــرَطٍ نَـــاهِـــلٍ تَنَـــابِلَـــةً يَحْفُـــرونَ الـــرِّسَـــاسَـــا[(٥)]

= هذا قوله تعالىٰ في سورة الواقعة: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، وقوله تعالىٰ في هذه السُّورة: ﴿مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾، وإنَّما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها، وهذا هو قول الفرّاء، ذكره في «معاني القرآن»، وهو أيضاً قول ابن قتيبة.

(١) في الأصول: «ابن نوفل».

(٢) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، قال: «﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوال، يقال: جبل باسق، وحَسَب باسق، قال أبو نوفل لابن هُبيرة: «يابْن الَّذين... البيت». وذكر صاحب اللِّسان هذا البيت شاهداً على أنَّ البُسوق هو الارتفاع في الفضل، قال: «وبَسَق على قومه: علاهم في الفضل، وأنشد ابن برِّي لأبي نوفل: يابن الَّذين... البيت»، والرِّواية في مجاز القرآن وفي اللِّسان: «بِفَضْلِهِم» بدلاً من «بجدِّهم»، وفي حديث ابن الحنفيَّة: كيف بسق أبو بكر أصحابَ رسول الله ﷺ؟ أي: كيف ارتفع ذِكْرُه دونهم؟

(٣) ذكر ذلك الثَّعلبيُّ، ونقله القرطبيُّ، ثمَّ قال: «قلت: الَّذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال: صَلَّيْتُ وصلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، حتّى قرأ: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ﴾، قال: فجعلتُ أردِّدها ولا أدري ما قال، إلاَّ أنَّه لا يجوز إبدال الصَّاد من السِّين لأجل القاف». اهـ.

(٤) وعاءُ طلع النَّخل هو الكُفَرُ، ويقال فيه: الكُفُرَّى والكِفِرَّى والكَفَرَّى، والكُفَرَّى. (انظر اللِّسان).

(٥) البيت في اللِّسان، والفَرَط ـ بفتح الفاء والرّاء ـ: القوم يتقدَّمون إلى الماء قبل الوارد فيهيِّئون لهم الدِّلاء=



وجاءَهم نبيٌّ يسمَّى حنظلة بن سفيان فيما رُوي، فجعلوه في الرَّسِّ وردموا عليه وأَهلكهم الله تعالىٰ، وقال كعب الأَحبار في كتاب الزَّهراويِّ: أَصحاب الرَّسِّ هم أَصحاب الأُخدود، وهذا ضعيف؛ لأَنَّ أَصحاب الأُخدود لم يكذِّبوا نبيًّا، إِنَّما هو مِلك أَحرق قوماً، وقال الضَّحّاك: الرَّسُّ بئْر قتل فيها صاحب يس، قال منذر: رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّهم قومُ عاد.

و«الأَيْكَةُ» شجر ملتفٌ، وهم قوم شعيب عليه السَّلام، والأَلف واللاَّم من «الأَيْكة» غير معرّفتين لأَنَّ «أَيكة» اسم علم كطلحة، يقال: أَيكة ولَيْكة، فهي كالأَلف واللاَّم في الشَّمس والقمر وفي الصِّفات الغالبة، وفي هذا نظر، وقرأَ: [الأَيْكَةَ] بالهمز أَبو جعفر، ونافع، وشيبة، وطلحة.

و﴿ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هم حِمْير، و«تُبَّع» اسم الملِك فيهم، يذهب تُبَّع ويجيءُ تُبَّع، مثل كسرى في الفرس وقيصر في الرُّوم، وكان أَسعد أَبو كرب أَحد التَّبابعة رجلاً صالحاً صحب حَبْرين فتعلَّم منهما دين موسى عليه السَّلام، ثمَّ إِنَّ قومه أَنكروا عليه ذلك، فندبهم إِلى محاجَّة الحَبْرين فوقعت بينهم مجادلة عظيمة، واتفقوا على أَن يدخل جميعهم النّار الَّتي في القربان فمن أَكلته النّار فهو المبطل، فدخلوا فاحترق قوم تُبَّع وخرج الحَبْران تعرق جباههما، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر قوم تُبَّع بدين الحَبْرين، وفي الحديث اختلاف كثير أَثْبَتُّ أَصحَّ ذلك على ما في سير ابن هشام. وذكر الطَّبريُّ عن سهل بن سعد أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لاَ تلعنوا تُبَّعاً فإِنَّه كان قد أَسلم»[1]، وذكر الثَّعلبيُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ تُبَّعاً كان نبيًّا.

= والأرسان ويملئون الحيَّاض ويستقون لهم، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض» بمعنى: أنا المتقدِّم منكم إليه يوم القيامة، والنّاهل هو الشّارب وإن شئت العطشان، (انظر اللّسان)، ويروى «باهل» بالباء، وهكذا هي في الطَّبريِّ، ومعناها المتردِّد بلا عمل، والنّاهل أنسب للمعنى هنا، والتَّنابلة جمع تَنْبل على وزن جعفر، وهو الرَّجل القصير، ولعلَّ ذلك يشير إلى كسل أو عجز عن العمل، والرِّساسُ جمع رَسٍّ، والرَّسُّ: البئر القديمة، أو هي المعدن، أي المنجم الَّذي يستخرج منه المعادن، وابن عطيَّة يستشهد بالبيت هنا على أنَّ كلَّ ما حُفِر من بئر أو قبر أو منجم يُسَمَّى رَسّاً، فإذا عرشت البئر بالحجارة فهي طويٌّ.

(١) أخرجه ابن جرير الطَّبريُّ، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهِيْعَة، عن عمرو بن جابر الحضرميِّ، عن سهل بن سعد السّاعدي.



قوله تعالىٰ: [كُلٌّ]، قال سيبويه: التَّقدير: كُلُّهم، وحذف لدلالة «كُلّ» عليه إيجازاً، والوعيد الَّذي حقَّ هو ما سبق به القضاءُ من تعذيب الكفرة وإهلاك الأُمم المكذِّبة، وفي هذا تخويف من كذَّب محمداً ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ توقيف للكفَّار وتوبيخ وإقامة للحجَّة الواضحة عليهم، وذلك أَن جوابهم على هذا التَّوقيف هو: لم يقع عِيٌّ، ثمَّ همْ مع ذلك في لبْس من الإعادة، وهذا تناقض، يقال: عَيِيَ يَعْيَا إذا عجز عن الأَمر، ويدغم هذا الفعل الماضي من هذا الفعل، ولا يدغم المستقبل منه، فيقال: عيَّ، ومنه قول لشّاعر:

عَيُّــوا بِــأَمْــرِهِــمْ كَمَــا عَيَّــتْ بِبَيْضَتِهَــا الْحَمَــامَــهْ[1]

و«الخلق الأَول» إنشاءُ الإنسان من نطفة على التَّدريج المعلوم، وقال الحسن: الخَلْقُ الأَوَّل آدم عليه السَّلام، وحكاه الرُّمَّانيُّ، و«اللَّبْسُ»: الشَّكُّ والرَّيبُ واختلاط النَّظر، و«الْخَلْق الْجَدِيدُ»: البعث من القبور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾.

هذه آيات فيها إقامة حُجج على الكفَّار في إنكارهم البعث والجزاءَ، و«الْخَلْقُ» إنشاءُ الشَّيءِ على تقدير وترتيب حكميٍّ، و«الإنسان»: اسم الجنس، وقال بعض المفسِّرين: الإنسان هنا آدم عليه السَّلام، و[تُوَسْوِسُ] معناه: تتحدَّث في فكرتها، وسُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لخفائه، والوسوسة إنَّما تستعمل في غير الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالىٰ على العبد،

---

(١) هذا البيت لعبيد بن الأبرص الأسديُّ، وهو من قصيدة أنشدها أمام حُجْر يصف حال قومه بعد أن أذلَّهم حُجْر وجعلهم عبيد العصا، وهو في اللِّسان، ويروى:

بَــرِمَــتْ بَنُــو أَسَــدٍ كَمَــا بَــرِمَــتْ ببيْضَتِهَــا الحَمَــامَــهْ

والبيت هنا كما في اللِّسان شاهد على أنَّ الإدغام أكثر من التَّخفيف في (عَيِيَ)، يقال: عَيَّ بأَمْرِهِ وَعَيِيَ إذا لم يهتد إلى الصَّواب.

وكون العبد في قبضة القدرة والعلم، قد أُحيط به، فالقُربُ هو بالقدرة والسُّلطان؛ إذ لا ينحجب عن علْم الله تبارك وتعالىٰ باطن ولا ظاهر، وكلّ قريب من الأَجرام فبينه وبين قلب الإِنسان حجب، و«الوريد» عرقٌ كبير في العُنق، يقال: إِنَّهما وريدان عن يمين وشمال، قال الفرّاءُ: هو ما بين الحلقوم والعلباوين، وقال الحسن: الوريد: الوتين، قال الأَشرم: هو نهر الجسد، هو في القلب الوتين، وفي الظهر الأَبهر، وفي الذراع والفخذ: الأَكحل والنَّسا، وفي الخنصر: الأُسيلم، و«الحبلُ» اسم مشترك فخصَّصه بالإِضافة إِلى الوريد، وليس هذا بإِضافة الشَّيءِ إِلى نفسه، بل هي كإِضافة الجنس إِلى نوعه، كما تقول: لا يجوز حي الطَّير بلحمه.

وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فقال المفسِّرون: العامل في [إِذْ] هو [أَقْرَبُ]، ويحتمل عندي أَن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً تقديره: اذكر إِذْ يَتَلَقَّى، ويحسن هذا المعنى لأَنَّه أَخبر خبراً مجرَّداً بالخلق، والعلم بخطرات الأَنفس، والقرب بالقدرة والمِلْك، فلمَّا تمَّ الإِخبار أَخبر بذكر الأَحوال الَّتي تُصَدِّق هذا الخبر وتُبَيِّن وروده عند السَّامع، فمنها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، ومنها مجيءُ سكرة الموت، ومنها النَّفخ في الصُّور، ومنها مجيءُ كلِّ نفس. و«الْمُتَلَقِّيَان»: المَلَكان المُوَكَّلاَن بكلِّ إِنسان، مَلك اليمين الذي يكتب الحسنات، ومَلَك الشِّمال الَّذي يكتب السَّيِّئات، قال الحسن: الحفظة أَربعة: اثنان بالنَّهار واثنان باللَّيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويؤيِّد ذلك الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار»... الحديث بكماله[١]. ويُروى أَنَّ مَلك اليمين أَمير على مَلك الشِّمال، وأَنَّ العبد إِذا أَذنب يقول مَلك اليمين للآخر: تثبَّت لعلَّه يتوب، ورواه إِبراهيم التَّيميُّ وسفيان الثَّوريُّ، و[قَعِيدٌ] معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة «أَكيل» فهو بمعنى مُقَاعد، وقال الكوفيون: أَراد «قُعوداً» فجعل الواحد موضع الجنس، والأَوَّل أَصوب لأَنَّ المُقَاعد إِنَّما يكون عند قعود

(١) أخرجه البخاريُّ في المواقيت والتَّوحيد، ومسلم في المساجد، والنَّسائيُّ في الصَّلاة، ومالك في السَّفر، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثمَّ يعرج الَّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلُّون». واللَّفظ للبخاريِّ.



الإِنسان، والقاعد يكون قاعداً على كلِّ هيئات الإِنسان، وقال مجاهد: قَعيدٌ رصد، ومذهب سيبويه أَن التَّقدير: عن اليمين قعيد وعن الشِّمال قعيد، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأَوَّل، ومثله عنده:

. . . . وَعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنًّـى غَـرِيمُهَـا[1]

ومثله قول الفرزدق:

إِنِّـي ضَمِنْـتُ لِمَـنْ أَتـانـي مـا جَنَـى   وَأَبـي فكـانَ وكُنْـتُ غَيْـرَ غَـدُورِ[2]

وهذه الأَمثلة كثيرة، ومذهب المبرِّد أَنَّ التَّقدير: عن اليمين قعيد وعن الشِّمال، فأَخَّر [قَعِيدٌ] عن مكانه، ومذهب الفراءِ أَن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إِلى تقدير غير الظاهر.

قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾، قال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: يكتب الملكان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسَّيِّئات ويمحو غير ذلك، وهذا ظاهر الآية. وقال أَبو الجوزاءِ، ومجاهد: يكتبان عليه كلَّ شيءٍ حتَّى أَنينه في مرضه،

---

(١) هذا عجز بيت قاله كثير من قصيدة له، والبيت بتمامه:

قَضَـى كُـلُّ ذي دَيْـنٍ فَـوَفَّـى غَـرِيمَـهُ   وعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنًـىً غَـرِيمُهَـا

وقَضَى: أدَّى ما عليه من الدَّيْن لصاحبه، ووَفَّى: أعطاه حَقَّه كاملاً وافياً تامّاً، والغريم: الدّائن، ومَمْطُول: لم يأخذ حقَّه بل تأجَّل موعد الوفاء به مرَّة بعد أُخرى، والمُعَنَّى: المُتعب الَّذي كُلِّف ما يشُقُّ عليه أو الأسير، يقول: إنَّ صاحب كلِّ دَيْن أخذ حقَّه كاملاً إلاّ غريم عزَّة وهو أنا، فلم أزل محروماً مُتعباً لا أنالُ إلاّ الوعود بعد الوعود، والشّاهد الَّذي يقصده ابن عطيَّة هو قول كُثَيِّر: «غريمها» فقد تنازع فيه كلٌّ من (ممطول) و(مُعَنًّى)، وهو يريد هنا أنَّ الثاني وهو (مُعَنًّى) هو الَّذي عمل في (غريمها)، واكتفى بذكره عن ذكره مع الأوَّل وهو (ممطول)، على أنَّ بين النَّحويين خلاف طويل هنا، ويمكن الرُّجوع إليه في كتب النَّحو في البيت شاهد آخر في الموضوع ذاته، وهو في الشَّطر الأوَّل لأنَّ (قضى) تطلب (غريمه) مفعولاً، وكذلك (وفَّى) تطلبه، والخلاف بين النَّحويِّين في أيِّهما أحقُّ بالعمل مذكور في كتب النَّحو.

(٢) بيت الفرزدق هذا من شواهد النَّحويِّين أيضاً في باب التَّنازع، فإنَّ (كان) و(كُنتُ) كلّ منهما تطلب الخبر وهو «غير غدور»، وأصل الكلام: فكان غير غدور، وكنتُ غير غدور، فحذف أحد الخبرين اكتفاءً بدلالة الآخر عليه، وعند البصريين ـ وابن عطيَّة على مذهبهم ـ أنَّ الخبر الموجود هو خبر الثّاني، أمّا خبر الأوّل قد حذف لدلالة الثّاني عليه، وقد استشهد بهذا البيت الطّبريُّ والقرطبي، وهو مذكور في (معاني القرآن) للفراء، والكتاب لسيبويه، ومع كلّ هذا فهو غير موجود في الدِّيوان.



وقال عكرمة: المعنى: ما يلفظ من قولٍ خيرٍ أَو شرٍّ، وأَمَّا ما خرج عن هذا فإِنَّه لا يُكتب، والأَوَّل أَصوب، ورُوي أَنَّ رجلاً قال لجمله: «حَلْ»[١]، فقال مَلك اليمين: لا أَكتبها، وقال مَلك الشِّمال: لا أَكتبها، فأَوحى الله تعالىٰ إِلى مَلك الشِّمال أَن اكتب ما ترك صاحب اليمين، ورُوي نحوه عن هشام الحمصيِّ، وهذه اللَّفظة إِذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته ببعيره، فإِن كان في طاعة فإِن «حَلْ» حسنة، وإِن كان في معصية فهي سيِّئة، والمتوسط بين هذين عسر الوجود، ولا بد أَن يقترن بكلِّ أَحوال المرءِ قرائن تخلِّصها للخير أَو لخلافه، وحكى الثَّعلبيُّ عن عليِّ بن أَبي طالب رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: إِنَّ مقعد الملَكين على الثنِيَّتَيْن، فقلمهما اللِّسان ومدادهما الرِّيق)[٢]، وقال الضَّحاك، والحسن: مقعدهما تحت الشَّعر، وكان الحسن يحبُّ أَن ينظِّف عنفقته[٣] لذلك، قال الحسن: حتَّى إِذا مات المرءُ طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤]، عَدَل والله من جعله حسيب نفسه. و«الرَّقيب»: المراقب، و«العتيد»: الحاضر.

وقوله تعالىٰ: [وَجَاءَتْ] عطف ـ عندي ـ على قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾، فالتَّقدير: وإِذ تجيءُ سكرة الموت، وجُعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً[٥] للأَمر، وهو أَحثُّ على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، وتبيين هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإِنَّها صيرورة بمعنى الاستقبال. وقرأَ أَبو عمرو: ﴿وَجَآءَت سَّكْرَةُ﴾ بإِدغام التَّاءِ في السِّين، وسكرةُ الموت: ما يعتري الإِنسان عند نزعه، والنَّاسُ فيها مختلفة أَحوالهم، لكن لكلِّ أَحد سَكْرة، وكان

(١) في اللِّسان: «يقال للنَّاقة إذا زجرتها: حَلْ جزمٌ، وحَلٍ مُنَوَّن، . . . وقال ابن سِيدَه: ومن خفيف هذا الاسم: حَلْ وحَلِ لإناث الإبل خاصّة». فهو صوت لزجر النَّاقة أو الجمل، وقال الجوهريُّ في الصِّحاح: حَلْ: زجر للنَّاقة، وحَوْبُ: زجر للبعير.

(٢) ذكره السُّيوطيُّ في الدُّرِّ المنثور عن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنه موقوفاً، قال: أخرج ابن أبي الدُّنيا في الصَّمت، عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: «لسان الإنسان قلم المَلَك وريقُه مدادُه»، وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم، والدَّيلميُّ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: «إنَّ الله لطَف المَلَكَيْن الحافظيْن حتّى أجلسهما على النَّاجذين، وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما». والنَّاجذ: الضِّرس.

(٣) العنفقة شعيرات بين الشَّفة السُّفلى والذَّقن.

(٤) من الآية (١٤) من سورة (الإسراء).

(٥) في بعض النُّسخ: «وتثبيتاً للأمر».

رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ للموت لسكرات»[١]. وقوله تعالىٰ: [بِالْحَقِّ] معناه: بلقاءِ الله تبارك وتعالىٰ وفقد الحياة الدنيا، وفي مصحف ابن مسعود: [وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالموْت]، وقرأها ابن جبير، وطلحة، ويروى أَنَّ أَبا بكر الصِّدِّيق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما، وذلك أَنَّها قعدت عند رأسه تبكي وهو ينازع فقالت:

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّراءُ عن الْفَتَى ... إذا حَشْرجَت يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ[٢]

ففتح أَبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال: لا تقولي هكذا وقولي: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالموْتِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد»، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القرّاءِ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[٣] فقال أَبو الفتح: إن شئت علقت الباءَ بـ [جَاءَتْ] كما تقول: «جئت بزيد»، أَي: سقته، وإن شئت كانت بتقدير: ومعها الموت[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاريُّ، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماءٌ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إلَه إلاَّ الله، إنَّ للموت سكرات.

(٢) هذا البيت لحاتم الطّائي، وهو من قصيدة أكثر فيها من الحكم، والرِّواية في الديوان: «أماوِيَّ، ما يغني الثَّراءُ»، والبيت في اللِّسان، والحشرجة: صوت النَّفس، وهو الغرغرة في الصَّدر. أمَّا «مَاوِيَّة» فهي امرأة حاتم، وهو هنا يناديها ويوجِّه لها الحديث في هذا البيت وفي ستة أبيات أُخرى من القصيدة نفسها، يقول في مطلع كلِّ بيت: أماوِيَّةَ.

(٣) أخرجه أحمد، وابن جرير، عن عبد الله بن اليمنيِّ مولى الزُّبير بن العوّام، قال: لمّا حضر أبو بكر تمثَّلت عائشة بهذا البيت:

أَعَاذِلُ ما يُغْني الحِذَارُ عَن الْفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس كذلك يا بُنَيَّة، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾. أمَّا ما نقله ابن عطيَّة هنا وهو ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾ فقيل إنَّها قراءة قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه، وقال القرطبيُّ: «إن أبا بكر رضي الله عنه رويت عنه روايتان: إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نقل الحديث».

(٤) فهي متعلقة بمحذوف، وتقع حالاً، كقولك: خرج بثيابه، أي: وثيابه عليه، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: وزينتُه عليه. أمَّا على قول من قال إنَّ قراءة أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾ قراءة فقد قال أبو الفتح بعد أن نسبها إلى طلحة وسعيد بن جبير: «كيف يجوز أن تقول: (جاءت سكرة الحق بالموت) وأنت تريد به (جاءت سكرة الموت بالحقِّ)؟ فيا ليت شعري أيَّتها الجائية بصاحبتها؟ قيل: إنَّهما اشتركتا في الحال، وكلٌّ منهما قريبة من صاحبتها حتّى كأنَّ كلّ واحدة منهما جاءت بالأخرى». اهـ. بتصرُّف.



واختلف المتأوِّلون في معنى «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِالْمَوْتِ» ـ فقال الطَّبريُّ ـ وحكاه الثَّعلبيُّ ـ الحَقُّ: الله تعالىٰ، وفي إِضافة السَّكرة إِلى اسم الله تعالىٰ بُعْدٌ، وإِن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلْق له، ولكنَّ فصاحة القرآن ورصفه لا يأْتي فيه هذا، وقال بعض المتأَوِّلين: المعنى: وجاءَت سكرة فراق الحياة بالموت، وفراق الحياة حقٌّ يعرفه الإِنسان ويحيد منه بأَمَلِهِ، ومعنى هذا الحيد أَنَّه يقول: أَعيش كذا وكذا، فمتى فكَّر في قرب الموت حادَ بذهنه وأَمله إِلى مسافة بعيدة من الزَّمان، وأَيضاً فحذر المرءِ وتحرُّزاته ونحو هذا حيد كلُّه. وقد تقدَّم القول في النَّفخ في الصُّور مراراً، و«يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ» هو يوم القيامة، وأَضافه إِلى الوعيد تخويفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، قرأَ طلحة بن مصرف: [مَحَّا] بالحاءِ مثقلة[1]، و«السَّائق»: الحاثُّ على السَّير، واختلف النَّاس في السائق والشَّهيد ـ فقال عثمان بن عفان، ومجاهد، وغيرهما: مَلَكَان مُوَكَّلان بكلِّ إِنسان، أَحدهما يسوقه، والآخر من حفظته يشهد عليه، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: السَّائق مَلَك، والشَّهيد العمل، وقال منذر بن سعيد: السَّائق مَلك، والشَّهيد النَّبيُّ ﷺ، قال: وقيل: الشَّهيد الكتابُ الَّذي يلقاه منشوراً، وقال بعض النُّظار: [سَائِقٌ] اسم جنس، و[شَهِيدٌ] كذلك، فالسَّاقة للنَّاس ملائكةٌ يوكَّلون بذلك، والشُّهداءُ الحفظةُ في الدُّنيا وكلُّ ما يشهد، وقال ابن عبَّاس، والضَّحَّاك: السَّائق مَلَك، والشَّهيد جوارح الإِنسان، وهذا يبعد على ابن عبَّاس رضي الله عنهما لأَنَّ الجوارح إِنَّما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعمُّ الصَّالحين، فإِنَّما معناه: شهيد بخيره وشرِّه، ويقوى في [شَهِيدٌ] اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع، ومنه قوله ﷺ: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إِنسٌ ولا جانٌّ ولا شيءٌ إِلاَّ شهد له يوم القيامة»[2]، وكذلك تشهد بالشَّرِّ

---

(١) مع إدغام العين في الهاء فانقلبتا حاءً، كما قالوا: ذهب «مَحُمْ» يريدون «مَعَهُم»، انظر البحر المحيط ٨ـ١٢٤.

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الأذان، باب رفع الصَّوت بالنِّداء، عن عبد الرَّحمٰن بن عبد الله الأنصاريُّ ثمَّ المازنيُّ، عن أبيه، أنَّه أخبره أن أبا سعيد الخدريَّ قال له: إِنِّي أراك تحبُّ الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصَّلاة فارفع صوتك بالنِّداءِ، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. ورواه البخاريُّ أيضاً في (بدء الخلق)، كما أخرجه النَّسائيُّ في الأذان، ومالك في النِّداء، وأحمد في مسنده (٣ـ٣٥، ٤٣، ٦٠).

الملائكة والبقاع والجوارح، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: السّائق مَلك والشّهيد العمل، وقال ابن مسلم: السَّائق شيطان، حكاه عنه الثَّعلبيُّ، والقول في كتاب منذر بن سعيد، وهو قول ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

قرأ الجحدريُّ: [لقد كنتِ] بكسر التّاءِ على مخاطبة النّفس، وكذلك كسر الكافات بعد، وقال صالح بن كيسان، والضَّحّاك، وابن عبّاس: معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كُنتَ﴾ الآيَةَ أَن يقال للكافر العاقل من ذوي الّتي معها السَّائق والشَّهيد إذا حصل بين يدي الرَّحمٰن عزَّ وجلَّ، وعاين الحقائق الّتي كان لا يُصدِّق بها في الدُّنيا ويتغافل عنها وعن النَّظر فيها: لقد كنت في غفلة من هذا، فلمَّا كُشف الغطاءُ عنك الآن احتَدَّ بصرك، أَي بصيرتك، وهذا كما تقول: «فلان حديد الذهن والفؤاد» ونحوه، وقال مجاهد: هو بصر العين، أَي: اشتدّ التفاتُه إِلى ميزانه وغير ذلك من أَهوال القيامة، وقال زيد بن أَسلم: قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كُنتَ﴾ الآية مخاطبة للنّبيِّ محمد ﷺ، والمعنى أَنّه خوطب بها في الدُّنيا، أَي: لقد كنت يا محمد، في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتّى أَرسلناك وأَنعمنا عليك وعلَّمناك فبصرك اليوم حديد.

وهذا التّأْويل يضعف من وجوه: أَحدها أَن «الْغَفْلَةَ» إِنَّما تنسب أَبداً إِلى مُقصِّر، ومحمد ﷺ لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده، وثانيها أَنَّ قوله تعالىٰ ـ بعد هذا ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يقتضي أَنَّ الضَّمير إِنَّما يعود على أَقرب مذكور، وهذا الَّذي يقال له: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ـ وإِن جعلناه عائداً على ذي النّفس في الآية المتقدِّمة ـ جاءَ هذا الاعتراضُ لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن، فتأَمله، وثالثها أَنَّ معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدُّنيا يسقط، وهو أَجرى في الآية وأَولى بالوصف، والوجه عندي ما قاله الحسن، وسالم بن عبد الله أَنَّها مخاطبة للإِنسان ذي النَّفس المذكورة من مؤمن وكافر.

و﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هي الحياة بعد الموت.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾، قال جماعة من المفسِّرين: قرينه من زبانية جهنَّم، أي قال: هذا العذابُ الَّذي لهذا الإنسان الكافر حاضرٌ عتيدٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به.

وقال قتادة، وابن زيد: بل قرينه المَلك المُوَكَّل بسَوْقه، فكأنَّه قال: هذا الكافر الَّذي جُعل إليَّ سوقُه، فهو لديَّ حاضِرٌ، وقال الزَّهراويُّ: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾: شيطانه، وهذا ضعيف، وإنَّما أَوقع فيه أَنَّ القرين في قوله: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ هو شيطانُه في الدُّنيا ومُغْويه بلا خلاف، ولفظة القرين اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزَّبانية قرين، وكاتب سيِّئاته في الدُّنيا قرين، وتحتمله هذه الآية، أي: هذا الَّذي أَحصيتهُ عليه عتيد لديَّ، وموجبُ عذابه. ومُمَاشي الإنسان في طريقه قرين، ومنه قول الشّاعر:

عن ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَن قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَـرِيـنٍ بِـالْمُقَـارِنِ يَقْتَـدِي(١)

والقرين الَّذي في هذه الآية غير القرين الَّذي في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ إِذ المقارنة تكون على أَنواع، وقال بعض العلماءِ: قرينه في هذه الآية عَمَلُه قلباً وجوارحاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ معناه: يقال: أَلْقيا في جهنَّم، واختلف النّاس، لمن يقال ذلك؟ فقالت جماعة من المفسِّرين: هو قول لِمَلَكَيْن من ملائكة العذاب، وقال عبد الرَّحمٰن بن زيد في كتاب الزَّهراويِّ: هو قول للسّائق والشّهيد، وحكى الزَّهراويُّ أَنَّ المأْمور بإِلْقاءِ الكافر في النّار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالىٰ: [أَلْقِيَا]، وقال مجاهد وجماعة من المتأَوِّلين: هو قول للقرين، إِمَّا السّائق وإِمَّا الَّذي هو من الزبانية حسب ما تقدَّم، واختلف أَهل هذه المقالة في معنى قوله تعالىٰ: [أَلْقِيَا] وهي مخاطبة لواحد ـ فقال المبرِّد: معناه: أَلْقِ أَلْقِ، فإِنَّما أَراد تثنية الأَمر مبالغة وتأْكيداً

---

(١) هذا البيت شاهد على أَنَّ القرين يقال لمن يمشي مع إِنسان في طريقه، وأَنَّ كلمة القرين تطلق على كلِّ من يقترن بالمرءِ في عمله أو في حياته، قال في اللّسان: «والقرين: صاحبك الَّذي يقارنك، وقرينك: الَّذي يُقارنك، والجمع قرناء».



فردَّ التَّثنية إلى الضَّمير اختصاراً، كما قال:

. . . . لَفتَكَ لأمَيْنِ عَلَى نَابِلِ[١]

يريد: ارم، ارم. وقال بعض المتأوِّلين: المراد: «الْقِيَنْ»، فعوَّض من النّون أَلِفاً كما نُعَوِّض من التَّنوين، وقال جماعةٌ من أَهل العلم بكلام العرب: هذا جرى على عادة العرب، وذلك أَنَّها كان الغالب عندها أَن يترافق في الأَسفار ونحوها ثلاثة، فكلُّ واحد منهم يخاطب اثنين، فكثر ذلك في كلامها وأَشعارها حتّى صار عُرفاً في المخاطبة، فاستعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأَشعار: خليليَّ، وصاحِبيَّ، وقِفَا نَبْكِ[٢]، ونحوه، وقد جرى المحدِّثون على هذا الرَّسم، فيقول الواحد: حدَّثنا ـ وإنْ كان قد سمع وحده ـ، ونظير هذه الآية في هذا القول قولُ الحجَّاج: يا حَرَسَيَّ اضْرِبَا عنقه، وهو دليل على عادة العرب، ومنه قول الشاعر:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يابْنَ عَفَّان أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا[٣]

---

(١) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس من أبيات له قالها بعد أن انتصر على بني أسد، والبيت بتمامه:

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً ... لَفتَكَ لأمَيْنِ عَلَى نَابِلِ

وهو في الدِّيوان واللِّسان، والرِّواية في الديوان: «كَرَّكَ» بدلاً من «لَفْتَك»، وسُلْكَى: طعناً مستوياً أو أمام الوجه، ومخلوجة: معوجة عن يمين وشمال، يريد أنَّهم يطعنونهم من أمام ومن يمين وشمال، وكَرَّك: ردُّك، وكذلك لفتُكَ، واللأم: السَّهم، والنابل: من يرمي بالنبل، والمعنى: إنَّنا نطعنهم ونعيد الطَّعن بسرعة كما نردُّ سهمين على صاحب نَبْل يرمي بسهمين ثمَّ يعادان عليه بسرعة. وقد روى صاحب اللِّسان أنَّ بعض أهل العلم سأل رؤبة عن هذا البيت فقال: حدَّثني أبي عن أبيه، قال: حدَّثتني عمَّتي وكانت في بني دارم أنَّها سألت امرأ القيس وهو يشرب طلاءً مع عَلْقَمة بن عَبَدَة عن معناه فقال: مررتُ بنابل وصاحبه يناوله الرِّيش لؤاماً وظُهاراً فما رأيت أسرع منه فشبَّهت به.

(٢) أمَّا (خليليَّ) فمثاله قول امرىء القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي علَى أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وأمَّا (صاحبيَّ) فمثاله قول أبي تمام:

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تصوَّرُ

تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

وأمَّا (قِفَا نبك)، فهو في مطلع معلقة امرىء القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٣) هذا البيت من شواهد الفرّاء الَّتي ذكرها في (معاني القرآن)، قال: «العرب تأمر الواحد بما يؤمر به=

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [أَلقياً] بتنوين [أَلْقِيَا]. و[كَفَّارٍ] بناءُ مبالغة، و[عَنِيدٍ] معناه: عاند عن الحقِّ، أَي مُنحرفٌ عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لفظ عامٌّ للمال والكلام الحسن والتعاون على الأَشياءِ، وقال قتادة، ومجاهد، وعكرمة: معناه: الزَّكاة المفروضة، وهذا التَّخصيص ضعيف، و[مُعْتَدٍ] معناه: بلسانه ويده، و[مُرِيبٍ] معناه: مُتَلَبِّس بما يُرْتاب به، أَرابَ الرَّجلُ إِذا أَتى بريبة ودخل فيها. قال الثَّعلبيُّ: قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال الحسن: [مُرِيبٍ]: شاكٌّ في الله تعالىٰ ودينه.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] بدلاً من [كَفَّارٍ]، ويحتمل أَن يكون صفة له من حيث تَخَصَّص [كَفَّارٍ] بالأَوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد بالمعرفة، ويحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: [فَأَلْقِيَاهُ]، ودخلت الفاءُ للإِبهام الَّذي في [ٱلَّذِي] فحصل الشَّبه بالشَّرط، وفي هذا نظر، ويَقْوَى عندي أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً، ويتضمَّن القول حينئذ بني آدم والشَّياطين الْمُغْوِين لهم في الدُّنيا، ولذلك تحرَّك القرين الشيطان ٱلْمُغْوِي في الدُّنيا فرام أَن يُبرىءَ نفسه

= الاثنان، فيقولون للرَّجل: قوما عنّا» وروى في ذلك مثالاً ثمَّ قال: «وأنشدني أبو ثروان: وإنْ تَزْجُرَاني... البيت، ونرى أنَّ ذلك منهم أنَّ الرَّجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرّفقة أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه»، والزَّجر: المنْع والنَّهْي والانتهار، يقال: زجره يزجره فانزجر وازدجر، والحماية: المَنْع والصِّيانة، والعِرْض: ما يُمدح ويُذَمُّ من الإنسان سواءٌ كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره، ومعنى البيت: إن تركتماني حميتُ عرضي ممن يؤذيني، وإن زجرتماني انزجرتُ وصبرتُ. هذا والبيت لسويد بن كُرَاع العُكْلِيِّ، وكان قد هجا بني عبد الله بن دارم فاسْتَعْدَوْا عليه سعيد بن عثمان، فأراد ضربه، فقال سويد قصيدةً بدأها بقوله:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَوْفِيِّ لَيْلَى: أَلاَ تَرَى ... إِلَى ابْنِ كُرَاعٍ لا يَزَالُ مُفَزَّعَا؟
مَخَافَةُ هَذَيْنِ الأَمِيرَيْنِ سَهَّدَتْ ... رُقَادي وَغَشَّتْنِيَ بَيَاضاً مُقَزَّعَا
فَإِنْ أَنْتُمَا أَحْكَمْتُمَانِي فَازْجُرَا ... أَرَاهِطَ تُؤْذِينِي مِنَ النَّاسِ رُضَّعَا
وإِنْ تَزْجُرَانِي يَابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وهذا يدل على أن العرب تخاطب الواحد بلفظ الاثنين، فقد خاطب سعيد بن عفان بقوله: (وإن تزجراني)، ولعله أراد سعيد بن عفان هذا ومن ينوب عنه أو يحضر معه. كذلك نلحظ أنَّه قال أيضاً (أحكمتماني) وهو خطاب للواحد بلفظ الاثنين.



ويخلِّصها بقوله لربِّه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ليست بحجَّة لأَنَّه كذب في نفي الإِطغاءِ عن نفسه جملة، والحقيقة أَنَّه أطغاه بالوسوسة والتَّزيين، وأَطغاه الله تعالىٰ بالخلق والاختراع حسب سابق قضائه الَّذي هو عدل منه لا ربَّ غيره، ويوصف بالضَّلال البعيد مبالغة، أَي لِتَعَذُّر رجوعه إِلى الهدى.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ معناه: قال الله تعالىٰ لا تختصموا لديَّ بهذا النوع من المقاولة الَّتي لا تفيد شيئاً إِذْ قد استوجب جميعكم النَّار. وقد أَخبر تعالىٰ بأَنَّه تقع الخصومات لديه في الظُّلامات ونحوها ممّا فيه اقتصاص واقتضاءٌ، فأَيَّده تعالىٰ بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1]، وجمع الضَّمير في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ﴾ يريد تعالىٰ بذلك مخاطبة جميع القُرناءِ؛ إِذْ هو أَمرٌ شائع لا يقف على اثنين فقط، وهذا كما يقول الحاكم لِخَصمين: لا تغلظوا علي، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما، وتَقْدِمَتُه تعالىٰ إِلى الناس بالوعيد هو ما جاءَت به الرُّسل عليهم السَّلام والكُتب من تعذيب الكفرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى: قد قدَّمتُ بالوعيد أَنِّي أُعذِّب الكفَّار في ناري فلا يُبدَّل القول لديَّ ولاَ يُنْقض ما أَبرمه كلامي، ثمَّ أَزال موضع الاعتراض بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أَي: هذا عدلٌ فيهم؛ لأَنِّي أَعذرت وأَمهلت وأَنعمت بالإِدراكات وهديت السَّبيل والنَّجدين وبعثت الرُّسل. وقال الفرّاءُ: معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أَي ما يكذَّب لديَّ لعلمي بجميع الأُمور، فتكون الإِشارة ـ على هذا ـ إِلى كذب الَّذي قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾، يجوز أَن يعمل في الظَّرف قوله تعالىٰ: ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾، ويجوز أَن يعمل فيه فعل مضمر، وقرأَ الجمهور من القرّاءِ وحفص عن عاصم: [نَقُولُ] بالنّون، وهي قراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، والأَعمش،

---

(١) الآية (٣١) من سورة (الزُّمر).

ورجَّحها أَبو عليٍّ بما تقدَّم من قوله تعالىٰ: [قَدَّمْتُ] وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾، وقرأَ نافع، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [يَقُولُ]، على معنى: يقول الله، وهي قراءَة الأَعرج، وشيبة، وأَهل المدينة، وقرأَ الحسن، وابن مسعود، والأَعمش أَيضاً: [يُقَالُ] على بناءِ الفعل للمفعول.

وقوله: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ تقرير وتوقيف، واختلف النّاس، هل وقع هذا التَّقرير فامتلأَت أَو هي لم تمتلىء؟ فقال بكلٍّ وجه جماعة من المتأَوِّلين، وبحسب ذلك تأَوَّلوا قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، فمن قال إِنَّها امتَلأَت جعل قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على معنى التَّقرير ونفي المزيد، أَي: وهل عندي موضع يُزاد فيه شيءٌ؟ ونحو هذا التَّأويل قول النَّبيِّ ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»[١]، وهو تأْويل الحسن، وعمرو، وواصل. ومن قال إِنَّها كانت غير مَلأَىٰ جعل قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على معنى السُّؤال والرَّغبة في الزِّيادة، قال الرُّمَّانيُّ: وقيل: المعنى وتقول خَزَنَتُهَا، والقول إِنَّها لقائلة أَظهر.

واختلف النّاسُ في قول جهنَّم ـ هل هو حقيقة أَو مجاز؟ أَي: حالها حالُ من لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى[٢]

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاريُّ، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: أصبتُ شارفاً مع رسول الله ﷺ في المغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفاً أُخرى، فأنختها يوماً عند باب رجل من الأنصار وأنا أُريد أن أحمل عليها إذْخِراً لأبيعه، ومعي صائغٌ من بني قَيْنُقاع لأستعين به على وليمة فاطمة، وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت، فثار إليهما حمزة بالسَّيف، فجَبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما ثمَّ أخذ من أكبادهما، قلت لابن شهاب: وَمِنَ السّنام؟ ـ وابن شهاب أحد الرُّواة ـ قال: جبَّ أسنمتهما فذهب بهما، قال: فنظرت إلى منظر أفظعني، فأتيت نبيَّ الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة فأخبرته الخبر، فخرج ومعه زيد، فانطلق معه، فدخل على حمزة فتغيَّظ عليه، فرجع حمزة بصره فقال: هلْ أنتم إلاَّ عبيد لأبي؟ فرجع رسول الله ﷺ يُقَهْقِرُ حتّى خرج عنهم، وذلك قبل تحريم الخمر. اهـ. وفي رواية لمسلم أنَّ حمزة كان يشرب ومعه قَيْنة تغنّيه، والشّارف: الناقة المُسِنَّة، وجمعها: شُرْف ـ بضمِّ الشّين وسكون الرّاء، والإذْخر: حشيش طيِّب الرّيح، وله ثمرة تُطحن فتدخل في الطِّيب، وجَبَّ: قطع، وبقَر: شقَّ، وتغيَّظ: أظهر الغيظ والغضب.

(٢) هذا البيت من الرَّجز في اللِّسان غير منسوب، وذكر معه بيتاً آخر، قال: يقال للبعير إذا أتعبه السَّير فمدَّ عنقه وكثر أنينه: قد شكا، ومنه قول الرّاجز:



ومجرى قول ذي الرُّمة:

. . . . تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ[١]

والَّذي يترجَّح في قول جهنَّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنَّها حقيقة، وأنَّها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه، ويبين ذلك الحديث الصَّحيح المتواتر، قول النَّبيِّ ﷺ: «يقول الله لجهنَّم: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتّى يضع الجبّار فيها قدمه فتقول: قَطْ، قَطْ، وينزوي بعضها إلى بعض»[٢]، وقد اضطرب النّاس في معنى هذا الحديث، وذهب جماعة من المتكلِّمين إلى أن «الجبَّار» اسم جنس، وأنه يريد المتجبِّرين من بني آدم، ورووا أن الله تعالىٰ يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يَملأُ بهم جهنَّم آخراً، وروي عن النبي ﷺ أن جلدة الكافر يصير غِلَظُهَا أربعين ذراعاً، ويَعْظُم بدنُه على هذه النسبة[٣]، وهذا كله من ملءِ جهنم، وذهب الجمهور إلى أن الجبَّار اسم الله تبارك وتعالىٰ، وهذا هو الصحيح، فإن في الحديث الصحيح «فيضع ربُّ العالمين فيها قَدَمَهُ»[٤]، وتأويل هذا أن «القَدَم» ما قدَّم لها من خَلْقه وجعلهم في

= شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى صَبْراً جُمَيْلِي فَكِلاَنَا مُبْتَلَى

والسُّرَى: السَّير ليلاً، والابتلاء: المحنة تنزل بالمرءِ ليختبر بها، أو الغَمُّ والحزن والجهد الشَّديد في الأمر.

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرُّمَّة، وهو مع بيت قبله:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ
وأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ

ومعنى أسقيه: أدعو له بالسُّقْيا، وأَبُثُّه: أشكو إليه، والبيت كالشَّاهد السّابق يدلُّ على أنَّ العرب قد تنسب القول إلى الحيوان والجماد تَجَوُّزاً.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنَّم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتّى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَطْ قَطْ بعزَّتك وكرمك، ولا يزال في الجنّة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنَّة»، واللَّفظ لمسلم.

(٣) رواه مسلم في «الجنّة»، والتِّرمذيُّ في «جهنم»، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٦)، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «يعظُم أهلُ النّار في النّار حتّى إنَّ بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غِلَظَ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أُحد».

(٤) جاء التَّعبير بـ «ربُّ العالمين» في رواية لمسلم في الحديث الَّذي خرجناه في الهامش قبل السَّابق على هذا.



علمه من ساكنيها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١]، فالقَدَم ما قُدِّم من شيء، ومنه قول الشاعر:

صَلِّ لِرَبِّكَ وَٱتَّخِذْ قَدَماً ... يُنْجِيكَ يَوْمَ ٱلْعِثَارِ والزَّلَلِ[٢]

ومنه قول العجَّاج:

. . . . وَيُنْشِىءُ ٱلْمُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَدَمْ[٣]

أَي ذي شرف متقدِّم، وهذا التأْويل مروي عن ابن المبارك[٤]، وعن النَّضر بن شُمَيْل[٥]، وهو قول الأُصوليين، وفي كتاب مسلم بن الحجَّاج: «فيضع الجبَّارُ فيها رجْله»[٦]، ومعناه الجمع الَّذي أُعِدَّ لها، يقال للجمع الكثير من النّاس: «رجْلٌ» تشبيهاً برجْل الجراد، قال الشّاعر:

فَمرَّ بِهَا رجْلٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَانْزَوَى ... إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ[٧]

---

(١) من الآية (٢) من سورة (يونس)، وقد اختلف المفسِّرون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ وذكر أقوالهم ابنُ عطيَّة في المجلد الرابع ص٤٤٦ وما بعدها، والمختار أنَّ «قدم الصِّدق» هو ما قدَّموه من أعمال، وهو الذي اختاره الطَّبريُّ.

(٢) قال هذا البيت الوَضَّاح (جَذيمة بن مالك بن فهم التَّنوخي)، والرِّواية في القرطبيِّ «صَلِّ لِذِي العَرْشِ»، والشّاهد أنَّ «قَدَماً» هنا بمعنى ما يُقَدِّمه الإنسان من عمل، يقول: اعبد الله واعمل الأَعمال الصّالحة فتنجو يوم القيامة، ورُوي عن أحمد بن يحيى أنَّ القَدَم هي كلُّ ما قدَّمت من خير، ذكر ذلك صاحب اللِّسان.

(٣) هذا عجز بيت، وقد ورد البيت كاملاً في القرطبيِّ مع اختلاف في الألفاظ، قال:

زَلَّ بَنُو العَوَّامِ عَنْ آلِ الحَكَمْ ... وَتَرَكُوا المُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَدَمْ

والشَّاهد هنا أنَّ قوله: «ذي قدم» معناه: ذو سابقة في الأفعال، أو ذي شرف متقدم كما قال ابن عطيّة.

(٤) هو عبد الله بن المبارك المَرْوزِي، مولى بني حنظلة، ثقة، ثبت، فقيه عالم، جواد مجاهد، جُمعت فيه خصال الخير، مات سنة إحدى وثمانين، وله ثلاث وستون سنة. (تقريب التَّهذيب).

(٥) هو النضر بن شُمَيْل المازني، أبو الحسن النَّحْوي، نزيل مَرْوٍ، ثقة ثبت، مات سنة أربع ومائتين، وله اثنتان وثمانون سنة، (تقريب التّهذيب).

(٦) جاء ذلك في إحدى الرِّوايات الَّتي رواها مسلم رحمه الله.

(٧) هذا البيت شاهد على أن (الرِّجْلَ) بكسر الرّاء وسكون الجيم هو الطائفة من الشّيء، أو الجمع من الشيء، وقد استشهد به القرطبيُّ، وذكره مع بيت آخر غير منسوبين، قال: يقال رأيتُ رِجْلاً من النّاس ورِجْلاً من الجراد، قال الشاعر: =



وملاك النَّظر في هذا الحديث أَنَّ الجارحة والتَّشبيه وما جرى مجراه منتف كلّ ذلك، فلم يبق إلاَّ إِخراج الأَلفاظ على هذه الوجوه السّائغة في كلام العرب.

و«أُزلِفَتْ» معناه: قُرِّبتْ، وقوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأْكيد وبيان أَنَّ هذا التَّقريب هو في المسافة، لأَنَّ «قُرِّبت» كان يحتمل أَن يكون المعنى: بالوعد والإِخبار، فَرُفع الاحتمالُ بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ. يحتمل أَن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إِزلاف الجنَّة: هذا هو الَّذي كنتم توعدون به في الدُّنيا، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنَّه خطاب لأُمَّة محمد ﷺ، أَي: هذا هو الَّذي توعدون به أَيُّها النّاس لكلِّ أَوَّاب حفيظ، و«الأَوَّابُ»: الرَّجَّاع إِلى الطَّاعة وإِلى مراشد نفسه، وقال ابن عباس، وعطاءٌ: الأَوَّابُ المُسَبِّح، من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[(١)]، وقال الشَّعبيُّ، ومجاهد، هو الَّذي يذكر ذنوبه فيستغفر، وقال المحاسبيُّ: هو الرَّاجع بقلبه إِلى الله تعالىٰ، وقال عُبَيْد بن عمير: كنَّا نتحدث أَنَّ الَّذي إِذا قام من مجلسه استغفر الله تعالىٰ ممَّا جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النَّبيُّ ﷺ يفعل. و«الحفيظ» معناه: لأَوامر الله تعالىٰ فيمتثلها، ولنواهيه فيتركها، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حفيظ لذنوبه حتّى يرجع عنها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل أَن يكون من نَعْتِ «الأَوَّاب» أَو بدلاً من [كُلِّ][(٢)]، ويحتمل أَن يكون رفعاً بالابتداءِ، والخبر: يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ويحتمل أَن تكون شرطية فيكون الجواب: يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، وقوله تعالىٰ: [بِالْغَيْبِ] معناه: غير مشاهد له، إِنما يصدِّق رسوله ويسمع كتابه، وجاءَ أَنَّ معناه: يوم

= فَمَرَّ بِنَا رِجْلٌ مِنَ النَّاسِ وانْزَوَى ... إِلَيْهِمْ مِنَ الحَيِّ اليَمَانِينَ أَرْجُلُ
قَبَائِلُ مِنْ لَخْمٍ وعُكْلٍ وَحِمْيَرٍ ... عَلَى ابْنَيْ نِزَارٍ بِالعَدَاوَةِ أَحْفَلُ

وفي اللِّسان: «والرِّجْلُ: الطَّائفة من الشَّيء، أُنثى، وخصَّ بعضهم به القطعةَ العظيمة من الجراد، والجمع أَرجال... ومنه حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَنَّه دخل مكَّة رِجْلٌ من جرادٍ، فجعل غلمان مكَّة يأخذون منه، فقال: أَمَا إِنّهم لو علموا لم يأخذوا منه، كره ذلك في الحرم لأَنّه صيد».

(١) من الآية (١٠) من سورة (سبأ).

(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.



القيامة، و«الْمُنِيبُ»: الرَّاجع إلى الخير والمائل إليه، وقوله تعالىٰ: [ٱدْخُلُوهَا] تقرير يقال لهم، أو: فيقال لهم، على ما تقدَّم. و«سلام» معناه: بأمن وسلامة من جميع الآفات، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ مقابلٌ لقوله تعالىٰ قبلُ في أمر الكفار: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خبرٌ بأنَّهم يُعطون آمالهم أجمع، ثمَّ أبهم تعالىٰ الزِّيادة الَّتي عنده للمؤمنين المنعَّمين، وكذلك هي مُبْهمة في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]، وقد فسّر ذلك الحديثُ الصّحيح في قوله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بَلْهَ ما اطّلعتم عليه»[2]، وقد ذكر الطبريُّ وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطوَّلة وأشياءَ ضعيفة؛ لأنَّ الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ وهم يُعَيِّنُونها تكلُّفاً وتعسُّفاً، ورُوي عن جابر بن عبد الله، وأنس رضي الله عنهما أنَّ المزيد: النَّظرُ إلى وجه الله تعالىٰ بلا كيف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

[كَمْ] للتّكثير، وهي خبرية، والمعنى: كثيراً أهلكنا قبلهم. و«القَرْن»: الأُمَّة من النّاس الَّذين يمرُّ عليهم قدرٌ من الزَّمان، واختلف النّاس في ذلك القدر ـ فقال

---

(١) من الآية (١٧) من سورة (السَّجدة).

(٢) أخرجه البخاريُّ في التَّوحيد وبدء الخلق وتفسير سورة السَّجدة، ومسلم في الإيمان، والجنَّة، والتِّرمذيُّ في الجنَّة وتفسير سورة السَّجدة وتفسير سورة الواقعة، وابن ماجه في الزُّهد، والدارميُّ في الرِّقاق، وأحمد في مسنده (٢ـ٣١٣، ٣٧٠، ٤٧٠، ٥ـ٣٣٤)، ولفظه كما جاء في البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالىٰ: أعددتُ لعبادي الصَّالحين ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفي رواية مسلم زيادة هي: «ذُخْراً، بَلْهَ ما اطلعتم عليه»، ومعنى ذخراً: مُعَدّاً. وأمَّا (بَلْهَ) فهو اسم فعل بمعنى (دَعْ).

الجمهور: مائة سنة، وقيل غير هذا، وقد تقدَّم القول فيه غير مرَّة، و«شِدَّةُ ٱلْبَطْشِ» هي بكثرة القوَّة والأموال والمُلك والصِّحةِ والأذهان إلى غير ذلك. وقرأ الجمهور من النّاس: [فَنَقَّبُوا] بشدِّ القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية، والمعنى: وَلَجُوا البلاد من أَنْقابها، وفي الحديث: «إنَّ على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطّاعون ولا الدَّجّال»[1]، والمراد: تطوَّفوا ومشوْا طماعية في النَّجاة من الهلكة، ومنه قول الشّاعر:

وقَــدْ نَقَّبْــتُ فــي الآفَــاقِ حَتَّــى ... رَضِيــتُ مــنَ الْغَنِيمَــةِ بــالإيــاب[2]

وقول الحارث بن حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيِّ:

نَقَّبُـوا فـي الْبِـلادِ مِـنْ حَـذَرِ ٱلْمَـوْ ... تِ وجَالُوا في الأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ[3]

وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما، وابن يَعْمَر، ونصَّار بن يسار، وأبو العالية: [فَنَقِّبُوا] بشدِّ القاف المكسورة على الأمر لهؤلاءِ الحاضرين، و﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ توقيف وتقرير، أَي: لا محيص، و«المحيص» موضع الحيص وهو الرّوغان والحياد، قال قتادة: حاصَ الكفرة فوجدوا أَمر الله مُتَّبعاً مُدْرِكاً، وفي صدر البخاريِّ: «فحاصوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب»[4] وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في فضائل المدينة وفي الفتن، ومسلم في الحجِّ، ومالك في المدينة، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٣٧، ٣٧٥، ٣٧٨)، عن نعيم بن عبد الله أنَّه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الدَّجال ولا الطّاعون»، والنَّقب: الخرق في الجدار، وجمعه أنقاب.

(٢) هذا البيت لامرىء القيس، وهو في الدِّيوان، واللِّسان، ومجاز القرآن، والطَّبريِّ، والقرطبيِّ، والبحر، ورواية الدّيوان: (وقد طوَّفت في الآفاق)، والتَّنقيب: الذَّهاب في الأرض والتَّطواف، وهو موضع الاستشهاد هنا، والشّاعر يفخر بنفسه في هذا البيت وفي القصيدة كلِّها، ويقول: إنَّه قاد الجيوش في سبيل تحقيق مآربه الكبيرة، لكنَّه بعد أن تعب رضي بالعودة سالماً.

(٣) هو شاهد على أن معنى «نَقَّبُوا في البلاد...» هو: طوَّفوا في البلاد، وذهبوا فيها مذاهب متعدِّدة يلتمسون الهروب من الموت. والمجال: موضع الجولان، يقول: جالوا في الأرض وطوّفوا في كلِّ مكان.

(٤) أخرجه البخاريُّ في بدء الوحي وفي تفسير سورة النِّساء، وكلٌّ من أبي داود والتِّرمذيِّ في الجهاد، وأحمد في المسند (٢ـ٧٠، ١٠٠)، وهو حديث طويل، رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن أبي سفيان حين كان في تجارة بالشّام في المدَّة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش، =



إِذَا حَـاصَ الـدَّلِيـلُ رَأَيْـتَ مِنْهَـا جُنُـوحـاً لِلطَّـرِيـقِ عَلَـى اتِّسَـاقِ[(١)]

وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية عُبَيْد عنه ـ: [فَنَقَبُوا] بفتح القاف وتخفيفها، وهي بمعنى التَّشديد، واللَّفظة أَيضاً قد تقال بمعنى البحث والطَّلب، تقول: نقَّب عن كذا إِذا استقصى عنه، ومنه «نقيب القوم» لأَنَّه الَّذي يبحث عن أُمورهم ويباحث عنها، وهذا عندي تشبيه بالدُّخول من الأَنقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ يعني إِهلاك من مضى، و«الذِّكْرَى»: التَّذكرة، و«القَلْبُ» عبارة عن العقل إِذْ هو محلّه، والمعنى: لمن كان له قلبٌ واعٍ ينتفع به، وقال الشِّبليُّ: معناه: قلب حاضر مع الله تعالىٰ لا يغفل عنه طرفة عين، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إِلى هذه الأَنباءِ الواعظة، وانتبه في سماعها، فذلك إِلقاءٌ له عليها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[(٢)]، أَي: أَثبتها عليك، وقال بعض النّاس: قوله تعالىٰ: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾[(٤)]، هي ممّا قلَّ استعماله الآن وبعدت

= قال: إِنَّ هرقل أرسل إليه مع صحبه وسألهم عن النَّبيِّ ﷺ، فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرَّجل الَّذي يزعم أنه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، فلمَّا سأله هرقل قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. وفي آخر الحديث أنّ هرقل أُتي برجل أرسل به ملِك غسّان يخبر عن رسول الله ﷺ، فلمّا استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أَمُخْتَتِنٌ هو أم لا، فنظروا إليه فحدَّثوه أنه مُخْتتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملِك هذه الأمَّة قد ظهر، ثمَّ كتب هرقل إلى صاحب له برُومِيَة، وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِم حمص حتّى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه نبيٌّ، فأذن هرقل لعظماء الرّوم في دسكرة له بحمص، ثمَّ أمر بأبوابها فَغُلِّقَت، ثمَّ اطَّلع فقال: يا معشر الرّوم، هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يثبت مُلْكُكُم فتبايعوا هذا النَّبيَّ؟ فحاصوا حَيْصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَت، فلمّا رأى هرقل نفرتهم وأَيس من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: إنِّي قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدَّتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له، ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. اهـ.

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أنّ الحيص هو الحَيْدُ والرَّوَغَانُ، قال في اللِّسان: «الحَيْصُ: الحَيْد عن الشَّيء، حاص عنه يحيص حيصاً: رجع، ويقال: ما عنه محيصٌ، أي محيد ومهرب»، والدَّليلُ: المرشدُ، والجُنُوحُ: الميْلُ، والاتِّسَاقُ: الانتظام والاستواءُ. يقول الشّاعر: إذا حاد الدّليل عن الطّريق فإنّ ناقته تميل بحسِّها وخبرتها إلى الطّريق الصّحيح فتمضي فيه على اتساق.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٣) من الآية (١١) من سورة (الكهف).

(٤) من الآية (١٤٩) من سورة (الأعراف).



معانيه، وقول هذا القائل ضعيف، بل هي بيِّنَة المعاني، وقد مضت في مواضعها، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال بعض المتأوِّلين: معناه: وهو مُشاهد مُقبل على الأمر غير مُعرض ولا متفكر في غير ما يسمع، وقال قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّ هذه العِبَر لَتَذْكِرَة لِمَن له فهم فيتدبَّر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحَّتها لعلمه بها من كتاب التَّوراة وسائر كتب بني إسرائيل، فـ [شَهِيدٌ] على التَّأويل الأوَّل من المشاهدة، وعلى التَّأويل الثَّاني من الشَّهادة، وقرأ السُّدِّيُّ: [أو أُلقِيَ السَّمعُ][1]، قال ابن جني: أيْ أُلْقِيَ السَّمْعُ منه، حكى أبو عمرو الدَّاني أنَّ قراءَة السُّدِّيِّ ذكرت لعاصم فمقت السُّدِّيَّ وقال: أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآيةَ... خبرٌ مُضَمَّنُهُ الرَّدُّ على اليهود الَّذين قالوا: إنَّ الله خلق الأشياءَ كلَّها في ستَّة أيَّام ثمَّ استراح يوم السَّبت، فنزلت ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، واللّغوبُ: الإعياءُ والنَّصَب والسَّأم، يقال: لَغَبَ الرَّجل يَلْغُبُ إذا أَعيا[3]، وقرأَ السُّلَميُّ، وطلحة: [لَغُوبٍ] بفتح اللاَّم.

وتظاهرت الأَحاديث بأَن بدءَ خلق الأَشياءِ كان يوم الأَحد، وفي كتاب مسلم، وفي الدَّلائل لثابت حديث مضمّنه أَنَّ ذلك كان يوم السَّبت، وعلى كلِّ قول فأَجمعوا على أَنَّ آدم عليه السَّلام خُلق يوم الجمعة، فمن قال إنَّ البدأَة يوم السَّبت جعل خلق آدم عليه

---

(١) جاءت القراءة في الأصول بدون ضبط، وقد ضبطها ابن جنِّيٍّ في المحتسب، وأبو حيَّان في البحر، وهي بضمِّ الهمزة وكسر القاف من [أُلْقِيَ] وبرفع العين من [ٱلسَّمْعُ]، فالفعل مبني للمفعول، و[ٱلسَّمْعُ] نائب فاعل. قال أبو الفتح: «أي: أُلْقِيَ منه، وهذا كأنَّه أندى معنى إلى النَّفس من القراءة العامَّة، وذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه: أَلْقَى سمعه نحو كتاب الله تعالىٰ، وهو شهيد، أي: قلبُه حاضر معه، ليس غرضه أن يُصغي كما أُمر بالإصغاء نحو القرآن، ولا يجعل قلبَه إليه، إلاّ أنَّ ظاهر الأمر وأكثره أنَّه إذا أَلقى سمعه أيضاً فقلبُه أيضاً نحوه معه، وهذه القراءة المنفردة كأنَّها أشدُّ تشابهَ لفظ؛ لأنَّ ظاهرها أن قَلْبَه أُلْقِي إليه، وليس في اللَّفظ أنَّه هو أَلقاه، فاتّصل بعض ببعض، فكأنَّه أُلْقِيَ إليه سمْعُه وقَلْبُه، حتّى كأن مُلْقياً غيره أَلْقَى سَمْعَهُ إلى القرآن، وليس عجباً أن يقال: إنَّ قلبه عند ذلك معه، لأنَّه إذا كان هو الَّذي أَلقاه نحوه فالعُرف أن يكون قلبه معه، وهو شاهد لا غائب»، قارن هذا بما ذُكر عن عاصم.

(٢) من الآية (٢٢٣) من سورة (الشُّعراء).

(٣) في اللِّسان: لَغَب يَلْغُب ـ بفتح الغين في الماضي وضمّها في المضارع، ولَغِبَ ـ بكسر الغين ـ لغة ضعيفة.

السَّلام كخلق بنيه لا يُعدُّ من الجملة الأُولى، وجعل اليوم الَّذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، قال بعض المفسِّرين: المراد أَهل الكتاب لقولهم: ثمّ استراح يوم السَّبت، وهذه المقالة من أَهل الكتاب كانت بمكَّة قبل الهجرة، وقال النُّظَّار من المفسِّرين: قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يراد به أَهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعمَّ بذلك جميع الأَقوال الزّائفة من قريش وغيرهم، وعلى هذا التَّأويل يجيءُ قول من قال إِنَّ الآية منسوخة بآية السَّيف، و[سَبِّحْ] معناه: صَلِّ بإِجماع من المتأَوِّلين. وقوله تعالىٰ: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ الباءُ للاقتران، أَي: سَبِّح سُبْحَةً[1] يكون معها حَمْدٌ، ومثله: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾[2] على بعض الأَقوال فيها، و﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ هي الصُّبح، ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ هي العصر، قاله قتادة، وابن زيد، والنّاس، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿قبل الغروب﴾ الظهر والعصر، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ ﴾ هي صلاة العشاءَيْن، وقال ابن زيد: هي العشاءُ فقط، وقال مجاهد: هي صلاة اللَّيل، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾، قال عمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وأَبو هريرة، والحسن، والشَّعبيُّ، وإِبراهيم، ومجاهد، والأَوزاعيُّ: هي الرَّكعتان بعد المغرب، وأَسنده الطَّبريُّ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ[3]، كأَنَّه رُوعي أَدبار صلاة النَّهار كما رُوعي أَدبار النُّجوم في صلاة اللَّيل فقيل: هي الرَّكعتان مع الفجر، وروي عن ابن عبّاس أَن «أَدبار السجود» الوتر، حكاه الثَّعلبيُّ، وقال ابن زيد، وابن عبّاس أَيضاً، ومجاهد: هي النَّوافل إِثر الصَّلوات، وهذا جار مع لفظ الآية، وقال بعض العارفين: هي صلاة اللَّيل، وقال الثَّعلبيُّ: وقال بعض العلماءِ في قوله تعالىٰ: ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ركعتا الفجر، ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ الرَّكعتان قبل المغرب، وقال بعض التّابعين: رأَيت أَصحاب محمد ﷺ يهبُّون إِليها كما يهبُّون إِلى المكتوبة، وقال قتادة:

---

(١) في اللِّسان: «السُّبْحَةُ: الدُّعاءُ، وصلاة التَّطوع والنَّافلة، يقال: فرغ من سُبْحَته، أي من صلاته النافلة، قال ابن الأثير: وإنَّما خُصَّت النافلة بالسُّبْحَة وإن شاركتها الفريضة في معنى التَّسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل، فقيل لصلاة النافلة سُبْحَة».

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون).

(٣) قال الطَّبريُّ: حدثنا أبو كُرَيْب، قال: ثنا أبو فضيل، عن رشيد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بن عبّاس، ركعتان بعد المغرب أدبار السُّجود».

ما أدركت أحداً يصلي الرّكعتين قبل المغرب إِلاَّ أنساً وأَبا برزة. وقرأَ ابن عبّاس، وابن كثير، ونافع، وحمزة، وأَبو جعفر، وشيبة، وعيسى، وشبل، وطلحة، والأَعمش: [وَإِدْبَارَ] بكسر الأَلف، وهو مصدر أُضيف إِليه وقت ثمَّ حذف الوقت، كما قالوا: جئتك مَقْدِم الحجِّ وخُفوقَ النَّجم ونحوه، وقرأَ الباقون، والحسن، والأَعرج: [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة، وهو جمع دُبُر كطُنُبٍ وأَطناب، أَي: وفي أَدبار السُّجود، أَي في أَعقابه، قال أَوس بن حجر:

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرْضُنَا وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سَنِينٌ تَلْمَعُ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالىٰ: [وَٱسْتَمِعْ] هو بمنزلة «وانْتظر»، وذلك أَنَّ محمداً ﷺ لم يؤمر بأَن يستمع في يوم النّداءِ لأَنَّ كلَّ من فيه يستمع، وإِنَّما الآية في معنى الوعيد للكفّار، وقيل لمحمد ﷺ: تحسَّس وتسَمَّع هذا اليوم وارتقبه فإِنَّ فيه تبيين صحَّة ما قلته، وهذا كما تقول لمن تَعِدُهُ بورود فَتْح: استمع كذا وكذا، أَي كُنْ منتظراً له مستمعاً، فعلى هذا فنصب [يَوْمَ] إِنَّما هو على المفعول الصَّريح. وقرأَ ابن كثير [ٱلْمُنَادِي] بالياءِ وصلاً ووقفاً على الأَصل الَّذي هو ثبوتها؛ إِذ الكلام غير تامٍّ، وإِنَّما الحذف أَبداً في الفواصل وفي الكلام التَّام تشبيهاً بالفواصل، وقرأَ أَبو عمرو، ونافعٌ في الوقف بغير ياءٍ لأَنَّ الوقف موضع تغيير، أَلا ترى أَنَّها تُبدَّل من التَّاءِ فيه الهاءُ في نحو «طلحة» و«حمزة»، وتبدّل من التّنوين الأَلف، ويضعف فيه الحرف كقولك: هذا فوجٌّ، ويحذف فيه الحرف

---

(١) لم أجد هذا البيت في الدّيوان (دار صادر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم)، ودُبُر الشَّهر: آخره، يقال: جئتك دُبُرَ الشهر وفي دُبُره وعلى دُبُره، والجمع من كلِّ ذلك أَدْبَار. وأرضٌ جَدْبٌ وجدبة بمعنى مجدبة، والجمع جدوب، وسُنّت الأرضُ فهي مسنونةٌ وسَنِينٌ إذا أُكِلَ نباتُها، ويقال: هذه بلادٌ سَنِين أي جدبة، (راجع اللّسان) فقد ذكر ذلك، واستشهد عليه بقول الطِّرمَّاح:

بِمُنْخَرَقٍ تَحِنُّ الرِّيحُ فيه حَنِينَ الْجُلْبِ فِي الْبَلَدِ السَّنِينِ

يعني: في البلد المحل.

في القوافي. وقرأ الباقون، وطلحة، والأعمش، وعيسى بحذف الياءِ وصلاً ووقفاً، اتباعاً لخط المصحف، وأيضاً فإنَّ الياءَ تحذف مع التّنوين، فوجب أن تحذف مع معاقب التّنوين، وهما الألف واللاَّم.

قوله تعالىٰ: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قيل: وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق، وروي عن النّبيِّ ﷺ أن مَلكاً ينادي من السّماءِ: أيّتها الأجساد الهامدة، والعظام البالية، والرّمم الواهية، هلُمَّ إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالىٰ[1]. وقال كعب الأحبار، وقتادة، وغيرهما: المكان صخرة بيت المقدس، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب ـ فقال قوم: وصفها بذلك لقربها من النّبيِّ ﷺ، أي من مكّة، وقال كعب الأحبار: وصفها بالقرب من السّماءِ، وروي أنّها أقرب الأرض إلى السّماءِ بثمانية عشر ميلاً، وهذا الخبر إن كان بوحي، وإلاَّ فلا سبيل إلى الوقوف على صحّته.

و«الصَّيْحَةُ» هي صيحةُ المنادي، و«الخروج» هو من القبور، و«يوْمُهُ» هو يوم القيامة، و«يوم الخروج» في الدُّنيا هو يوم العيد، وقال حسّان بن ثابت:

وَلأَنْتِ أَحْسَنُ إذْ بَرَزْتِ لَنَا ... يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى بِهَا مَلِكٌ ... مِمَّا تَرَبَّبَ حَائِرُ الْبَحْرِ[2]

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، العامل في [يَوْمَ] هو [ٱلْمَصِيرُ]. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر بتشديد الشّين، والباقون خفّفوها. و[سِرَاعاً] حال، قال بعض النّحويّين: هي من الضّمير في قوله تعالىٰ: [عَنْهُمْ]، والعامل في الحال [تَشَقَّقُ]، وقال بعضهم: التّقدير: يوم تشقّق الأرض عنهم يخرجون سراعاً، فالحال من الضّمير في

---

(١) أخرجه ابن عساكر، والواسطيُّ في (فضائل بيت المقدس)، عن يزيد بن جابر، في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾، وفيه أنَّ الملك هو إسرافيل، وأخرج مثله ابن جرير عن كعب. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) هذان البيتان من قصيدة قالها حسّان ومطلعها:

حَيِّ النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الخِدْرِ ... أَسَرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي

وهما في الدّيوان، وفي اللّسان ـ حير ـ والرّواية فيه «بسَاحَةِ العَقْرِ»، ورُوي البيت الثّاني «مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى الملوكُ بها»، والحائر: المكان المطمئن يجتمع فيه الماء فيتحير لا يخرج منه، وهو يُريدُ الدُّرَّة التي تَتَرَبَّى في الصّدف في قاع البحر. والشاهد أن «يوم الخروج» هو يوم العيد، يشبه حسّان هذه المرأة بالدُّرَّة التي يعتزُّ بها ملك وقد نمت وتكونت في أعماق البحر.



«يخرجون»، والعامل «يخرجون»، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ معادلٌ لقول الكفرة: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة، واختلف النّاس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ـ فقال قتادة: نهى الله تعالىٰ عن التَّجبُّر، وتقدَّم فيه، فمعناه: وما أَنت عليهم بمُتَعَظِّم، من الجبروت، وقال الطَّبريُّ وغيره: معناه: وما أَنت عليهم بِمُسَلَّط تَجْبُرهم على الإِيمان، ويقال: جَبَرْتُه على كذا، أَي قَسرْتُه، فـ «جَبَّارٌ» مبالغة من جَبَرَ، وأَنشد المُفَضَّل:

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلمينا[٢]

قال: أَراد بالجبَّار النُّعمان بن المنذر لولايته، ويحتمل أَن نصب «عَزْمَةَ» على المصدر وأَراد: عصينا مقدّمين عزمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاءِ، أَخلاقِ الجاهلية والحياة الدُّنيا، ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أَنَّ المؤمنين قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفْتَنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو لم يكن هذا سبباً فإِنَّه لَمَّا أَعْلَمَهُ أَنَّه ليس بمُسَلَّط على جبرهم أَمرهم بالاقتصار على تذكير الخائفين من المؤمنين[٣].

كمل تفسير سورة قٓ

---

(١) من الآية (٣) من هذه السّورة (ق).

(٢) هذا البيت من شواهد الفرّاء في (معاني القرآن)، ذكره مع بيت آخر فقال: «لست عليهم بمسلَّط، جعل الجبّار في موضع السُّلْطان من الجبرية، وأنشدني المُفضَّل:

وَيَوْمَ الحَزْنِ إذْ حَشَدتْ مَعَدٌّ ... وكَانَ النَّاسُ إلاّ نَحْنُ دِينَا
عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلمينَا

وقد استشهد صاحب اللّسان بالشَّطر الثّاني من البيت الأوّل على أن (دِين) بمعنى (دائن)، قال: «قومٌ دينٌ أي دائنون» قال: وذكر النِّصف الثّاني من البيت.

وروي الشّطر الثّاني من البيت الثّاني في (معاني القرآن): «صَبَحْنَا الْجَوْفَ إلْفاً معلمينا»، ثمَّ ذكر أنَّ المراد بالجبّار هو النعمان بن المنذر لأنَّه كان والياً عليهم. والإِلف: المألوف الذي اعتاده النّاسُ.

(٣) في بعض النُّسخ «الخائفين من النّاس»، والأولى ما أثبتناه لأنَّ الذكرى تنفع المؤمنين، ومن لا يخاف الوعيد من النّاس لا يتذكر فلا تنفع فيه الذِّكرى.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الذاريات

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾.

أَقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها، وتشريفاً لها، ودلالة على الاعتبار فيها، حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى.

و«الذَّاريات»: الرِّياح، بإجماع من المتأَولين، يقال: ذرت الرِّيح وأَذرت بمعنى(١)، وفي الرِّياح مُعتبرٌ من شدَّتها حيناً ولينها حيناً، وكونها مرَّة رحمة ومرَّة عذاباً، إلى غير ذلك، و[ذَرْواً] نصب على المصدر.

و«الحاملات وِقْراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: هي السحاب المُوقَرة بالماءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: هي السُّفن المُوقَرة بالناس ومتاعهم، وقال جماعة من العلماءِ: هي أَيضاً ـ مع هذا ـ جميعُ الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك مُعْتبر، و[وِقْراً] مفعول صريح.

و«الجاريات يسراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وغيره: هي السُّفن في البحر، وقال آخرون: هي السَّحاب بالريح، وقال آخرون: هي الجواري من الكواكب، واللفظ يقتضي جميع هذا، و(يُسْراً) نعت لمصدر محذوف، وصفات المصادر

(١) ولكن قال الزجاج: يقال: ذَرَتْ فهي ذارية، وأَذْرت فهي مُذْرية.

المحذوفة تعود أَحوالاً، و(يُسْراً) معناه: بسهولة وقلة تكلُّف.

و«الْمُقَسِّمَات أَمْراً»: الملائكة، و«الأَمْر» هنا اسم الجنس، فكأنه تعالى قال: والجماعات التي تقسِّم أَمر الملكوت من الأَرزاق والآجال والخلق في الأَرحام وأَمر الرياح وغير ذلك؛ لأَن كل هذا إِنما هو بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأَنهم كلهم في أُمور مختلفة، وأَنَّث «الْمُقَسِّمَات» من حيث أَراد الجماعات، وقال أَبو الطفيل عامر بن واثلة[١]: كان عليٌّ رضي الله عنه على المنبر، فقال: لا تسأَلوني عن آية من كتاب الله تعالى أَو سُنَّة ماضية إِلاَّ قلتُ، فقام إِليه ابن الكواءِ فسأَله عن هذه فقال: الذَّاريات: الرِّياح، والحاملات: السَّحاب، والجاريات: السُّفن، والمقسِّمات: الملائكة، ثم قال له: سلْ سؤال تعلُّم ولا تسأَل سؤال تعنُّت[٢].

وهذا القَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، و(تُوعَدُونَ) يحتمل أَن يكون من الإِيعاد، ويحتمل أَن يكون من الوعد، وأَيهما؛ كان فالوصف له بالصدق صحيح، و[صَادِقٌ] هنا موضوع بدل «صدْق» وضع الاسم موضع المصدر.

و«الدِّينُ»: الجزاءُ، وقال مجاهد: الحسابُ، والظاهر في الآية أنها للكفَّار وأَنها وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة.

ثم أَقسم الله تعالى بمخلوق آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فظاهر لفظة «السماءِ» أنها لجميع السموات، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي السماءُ السابعة، و(الْحُبُك) ـ بضم الحاءِ والباءِ ـ الطرائق التي هي على نظام في الأَجرام، فحُبُك الرِّمال

---

(١) هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي، أبو الطفيل، وربما سمِّي عمراً، ولد عام أُحد، ورأى النبي ﷺ، وروى عن أبي بكر فمَن بعده، وعمِّر إلى أن مات سنة عشر ومائة على الصحيح، وهو آخر من مات من الصحابة، قال ذلك مُسْلم وغيره. (تقريب التهذيب)، أما ابن الكواءِ فاسمه عبد الله.

(٢) ورُوي أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني مررتُ برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن ـ وهذا الرجل اسمه صَبيغٌ (على وزن أمير) ـ فقال عمر: اللهم أمْكِنِّي منه، فدخَلَ هذا الرجل يوماً على عمر وهو يلبس ثياباً وعمامة، وكان عمر يقرأُ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»؟ فقام عمر فحسر عن ساعديه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه، واحملوه على قَتَب، وابلغوا به حيَّه، ثم لْيَقُمْ خطيب فليقل: إن «صَبيغاً» طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم.



والماءِ: الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابَّةُ عليها، ومنه قول زهير:

مُكَلَّــلٌ بعَميــمِ النَّبْــت تَنْسجُــهُ ... ريحٌ خَريقٌ لضاحي مَائِه حُبُكُ[١]

وحُبُك الدِّرع: الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض، وفي بعض أَجنحة الطير حُبُك على نحو هذا، ويقال لتكسير الشَّعر: حُبُك، وفي الحديث: «إِن من ورائكم الكذَّاب المُضِلُّ، وإِنَّ رأسه من ورائه حُبُكاً حُبُكاً»[٢]، يعني جُعُودة شعره، فهو تكسُّره، ويظهر في المنسوجات من الأَكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هُنَّ حُبُك، ويقال: نسج الثوب فأَجاد حبكه، فهذه من الحُبُك في اللغة، وقال منذر بن سعيد: إِن السماءَ في تأَلُّف جرمها هي هكذا لها حُبُك، وذلك لجودة خلقتها وإِتقان صنعتها، ولذلك عبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ بأَن قال: حُبُكها: حُسْن خِلْقتها، وقال ابن جبير: الحُبُك الزينة، وقال الحسن: حُبُكها كواكبها، وقال ابن زيد: الحُبُك الشدَّة، حُبكت: شُدَّت، وقرأَ: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾[٣]، وقال ابن جنِّي: الحُبُك طرائق الغَيْم ونحو هذا، وواحد «الحُبُك» حَباك، ويقال للضَّفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه ـ وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة ـ: حِباكٌ، وقد يكون واحد الحُبُك حبيكة، وقال الرَّاجز:

كَــأَنَّمَــا جَلَّلَهَــا الحَــوَّاكُ ... طِنْفَسَــةً فــي وَشْيِهَــا حِبَــاكُ[٤]

---

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي قالها بعد أن أغار الحارث بن ورقاءَ الأسدي على بني عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيه يساراً، فقال زهير القصيدة يطالبه بردِّ إبله وراعيه. ورواية الديوان والمحتسب: (مُكَلَّل بأُصول النَّبت)، ويروى: (بأُصول النجم) كما في القرطبي والكشاف، ورواية اللسان كرواية ابن عطية هنا. والبيت في وصف ماءٍ ظاهر على وجه الأرض قد اصطفت على حافته طيورٌ صغيرة بيضاء، وزيَّنَه النباتُ الذي امتد على جوانبه كالأكاليل، وتَنْسِجه: تضم بعضه إلى بعض، فالريح تنسج الماءَ في هذا الوادي بمعنى أنها تضرب وجهه فتجعل فيه طرائق بعد أن تضم بعضه إلى بعض، والخريق: الشديدة، وهي صفة للريح، والضاحي: البارز للشمس، والحُبُك: الطرائق، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمعنى أن هذا الماءَ الظاهر على وجه الأرض قد زيَّنته أكاليل النبات ومرت عليه الريح الشديدة فجمعت بعضه إلى بعض حتى أصبح طرائق من تكسُّره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ٢٠، ٥ـ٣٧٢) عن هشام بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رأس الدَّجَّال من ورائه حُبُك حُبُك، فمن قال: أنت ربِّي افْتَتن، ومن قال: كذبتَ، ربِّي الله عليه توكلت، فلا يضره، أو قال: فلا فتنة عليه».

(٣) من الآية (١٢) من سورة (النبأ).

(٤) يصف الرَّاجز ظهْر أتان من حُمُر الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق، وجَلَّلَها: أَلْبسها وكساها، والحَوَّاك: =

وقرأ جمهور الناس: (الْحُبُك) بضم الحاءِ والباءِ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو مالك الغفاري بضم الحاءِ وسكون الباءِ تخفيفاً، وهي لغة بني تميم، كرُسْل في رُسُل، وهي قراءَة أَبي حيوة، وأَبي السَّمال، وقرأَ الحسن أَيضاً، وأَبو مالك الغفاري: (الْحِبِك) بكسر الحاءِ والباءِ على أَنها لغة كإِطِل وإِبِل، وقرأَ الحسن أَيضاً: (الْحِبْكُ) بكسر الحاءِ وسكون الباءِ، كما قالوا على جهة التخفيف: «إِبْلٌ» و«إِطْلٌ» بسكون الباءِ والطاءِ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (الْحَبَك) بفتح الحاءِ والباءِ، وقرأَ الحسن أَيضاً فيما رُوي عنه: (الْحِبُك) بكسر الحاءِ وضم الباءِ، وهي قراءَة شاذة غير متوجهة، وكأَنه أَراد كسرهما ثم تَوَهَّمَ (الْحُبُك) قراءَة الضم بعد أَن كسر الحاءَ فضم الباءَ، وهذا على تداخل اللغات، وليس في كلام العرب هذا البناءُ[1]، وقرأَ عكرمة: (الْحُبَك) بضم الحاءِ وفتح الباءِ جمع حُبْكة، وهذه كلها لغات، والمعنى ما ذكرناه، والفرسُ المحبوك: الشديد الخِلْقة الذي له حُبَك في مَوَاضع من منابت شعره، وذلك دليل على حسن بنيته[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أَن يكون خطاباً لجميع الناس، مؤمن وكافر، أَي: اختلفتم بأَن قال منكم فريق: آمنا بمحمد وكتابه، وقال فريق آخر: كفرنا، وهذا قول قتادة، ويحتمل أَن يكون خطاباً للكفرة فقط، أَي: أَنتم في جنس من الأَقوال مختلف في نفسه، قوم منكم يقولون: ساحر، وقوم يقولون: كاهن، وقوم يقولون: شاعر، وقوم يقولون: مجنون، إِلى غير ذلك، وهذا قول ابن زيد، والضمير في [عَنْهُ] قال الحسن، وقتادة: هو عائد على محمد ﷺ، أَو كتابه، أَو شرعه، و[يُؤْفَكُ] معناه: يُصرف، فالمعنى: يُصرف من الكفار عن كتاب الله تعالى من صُرف ممن غلبت شقاوته، وكان قتادة يقول: المأفوك منَّا اليوم عن كتاب الله تعالى كثير، ويحتمل أَن

= الذي يحوك الثياب أي ينسجها، والطُّنْفَسَةُ: البساط أو النُّمرقة فوق الرحل، والوشي: الزخرف والنقش، والحِباك: الطريقة التي تحدثها الرياح في الرمال أو المياه، وهي موضع الاستشهاد هنا، يقول: كأن ظهر هذه الأتان بما فيه من نقوش وخطوط قد كساه الحائك الذي ينسج الثياب طنفسة موشاة فيها خطوط مستقيمة ذات ألوان متعددة. والبيتان في تفسير الطبري ومعهما بيت ثالث، وكذلك استشهد بهما القرطبي.

(١) يعني بناءَ (فِعُل) بكسر الفاءِ وضم العين، وقال بعض العلماءِ: إن هذا ليس من تداخل اللغات، وإنما هو تركيب من قراءتين، فإن صحَّ الأخذ به فإنه لا يبدو بعيداً.

(٢) أي: هيئة البناء الذي قام عليه شكله، وفي بعض النسخ: «على حُسْن مُنبته».

يعود الضمير على القول الذي يصرف بسببه من أَراد الإِسلام بأَن يقال: هو سحر، هو كهانة، وهذا قول حكاه الزهراوي، ويحتمل أَن يعود الضمير في [عَنْهُ] على القول، أي: يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إِلى الإِسلام من غلبت سعادته، وهذا على أَن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ للكفار فقط، وهذا وجه حسن لا يُخل به إِلاَّ أَن عرف الاستعمال في «أفك» إِنما هو في الصرف من خير إِلى شر، وتأَمل ذلك تجدها أَبداً في المصروفين المذمومين، وحكى أَبو عمرو عن قتادة أنه قرأَ: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ بفتح الهمزة والفاءِ.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم، كما تقول: قاتله الله، أَو قتله الله، وعَقْرَى حَلْقَى[1]، وقال بعض المفسرين: معناه: لُعن الخراصون، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة، و«الخَرَّاصُ»: المُخَمِّن القائل بظنه وتقديره، فَتَحْتَه الكاهن والمرتاب ونحوه ممَّن لا يقين له، والإِشارة إِلى مُكَذِّبي محمد ﷺ على كل جهة من طرقهم[2].

و«الغَمْرَةُ» ما يُغشِّي الإِنسان ويغطيه كغمرة الماءِ، والمعنى: في غمرة من الجهالة، و(سَاهُونَ) معناه: عن أَنهم في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ معناه: يقولون: متى يوم الدين؟ على معنى التكذيب، وجائز أَن يقترن بذلك من بعضهم هزؤٌ وأَلاَّ يقترن، وقرأَ السَّلَمي، والأَعمش: (إِيَانَ) بكسر الهمزة وفتح الياءِ مخففة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، قال الزجاج: نصب [يَوْمَ] على الظرف من مُقَدَّر تقديره؛ هو كائن يومَ هم على النار، أَو نحو هذا، وقال الخليل وسيبويه: نصبه على البناءِ لمَّا أُضيف إِلى غير متمكن، قال بعض النحاة: وهو في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، و[يُفْتَنُونَ] معناه: يحرقون ويعذبون في النار، قاله ابن

---

(١) يقال للمرأة: «عَقْرَى حَلْقَى»، بمعنى: عَقَرَها الله وحَلَقَها، أي: حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها، وقد قيل لرسول الله ﷺ: إن صفية بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها حائض، فقال: «عَقْرَى حَلْقَى، ما أُراها إلا حابستنا»، قال أبو عبيد: هو: «عَقْراً حَلْقاً» بالتنوين، والمحدِّثون يقولون: «عَقْرَى حَلْقَى»، وأصل هذا ومعناه: عَقَرَها الله وحَلَقَها، أي أصابها بوجع في حلقها، كما تقول: رأَسْتُه، وبَطَنْتُه. (راجع اللسان، ومجمع الأمثال والمستقصى من أمثال العرب).

(٢) قيل للكذَّاب: خَرَّاصٌ لأن الخَرْص في الأصل هو حَزْرُ ما على النخل من الرطب تَمْراً، أي تقدير ما عليها من البلح، وهو قائم على الظن والتخمين، والخَرَّاصون جمع خارص، ويقال: خَرَص واخْتَرَص، وخَلَق واخْتَلَق، وبَشَكَ وابْتَشَك، وسَرَج واسْتَرَج، ومانَ، بمعنى: كَذَبَ.

عباس، ومجاهد، وعكرمة، والجميع، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ: فَتينٌ، كأن الشمس أَحرقت حجارتها، ومنه قول كعب بن مالك:

مَعَــاطِــنُ تَهْــوِي إِلَيْهَــا الْحُقُــو ... قُ يَحْسَبُهَــا مَــنْ رَآهَــا الْفَتِينَــا[1]

وفَتَنْتُ الذَّهبَ: أَحرقتُه، ولما كان لا يُحْرَقُ إِلاَّ لمعنى الاختبار قيل لكل اختبار: فِتْنَةٌ، واستعملوا افْتُتِنَ بمعنى اخْتُبِرَ، و[عَلَى] هنا موصلة إِلى معنى «في»، وفي قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ إِضمار، أَي يقال لهم: ذوقوا حرقكم وعذابكم، قاله قتادة وغيره، والذوق استعارة، و[هَذا] إِشارة إِلى حرقهم، واستعجالهُم هو قولهم: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم.

ولما ذكر تعالى حال الكفرة وما يلقون من عذاب الله عزَّ وجلَّ عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناسُ طريق الهدى، و«الجنات» و«العيون» معروف[2]، والمتَّقي في الآية مطلق في اتِّقاءِ الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: (آخِذِينَ) نصب على الحال، وقرأ ابن أَبي عبلة: (آخِذُونَ) بواو، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أَوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه، فالحال على هذا محكية، وهي متقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون، وقال جماعة من المفسرين: معنى قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أَي مخلصين لنعم الله تعالى التي أَعطاهم من جنَّته ورضوانه، وهذه حال متصلة في المعنى لكونهم في الجنات، وهذا التأْويل أَرجح عندي لاستقامة الكلام به، وقوله

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها كعب بن مالك في غزوة أُحد يفتخر، وقبل هذا البيت يقول:

وَأَبْقَــتْ لَنَــا جَلَمَــاتُ الْجُــرُ ... بِ مِمَّــنْ نُــوَازِي لَــدُنْ أَنْ بُــرِينَــا

وجَلَمَات: من الجَلْم وهو القطع، ونُوازي: نُسَاوي، وبُرينا أصله بُرِئْنا بمعنى خُلقنا، أما المعاطن فهي مبارك الإبل على الماءِ، والحِقُّ هو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يُركب ويُحمل عليه ويَضْرب الناقة، وإن كان صاحب اللسان لم ينص على أن (الحقوق) تكون جمعاً له، والفَتِينُ من الأرض: الحَرَّةُ التي قد أَلْبَسَتْها كلَّها حجارةٌ سودٌ كأنها مُحرقة، ويقال للأَمَة السوداءِ: مفتونة؛ لأنها كالحَرَّة في السواد كأنها مُحترقة، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، فالشاعر يشبه الجمال الرابضة في معاطنها بالحجارة السوداء التي حرقتها الشمس بلهيبها. ومثل هذا البيت قول الكميت:

ظَعَــائِــنُ مِــنْ بَنــي الحُــلاَّفِ تَــأْوي ... إِلــى خُــرُسٍ نَــوَاطِــقَ كــالفَتِينَــا

(٢) هكذا في الأصول، وكأنه يريد: أمْرهما معروف.



تعالى: ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ يريد: في الدنيا، [مُحۡسِنِينَ] بالطاعة والعمل الصالح.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾﴾.

معنى قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، فالمراد من كل ليلة، و«الهجوع»: النوم، وقال الأحنف بن قيس: «لستُ من أهل هذه الآية»، وهذا إنصاف منه، وقيل لبعض التابعين: مدح الله تعالى قوماً كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال: رحم الله تعالى امرأً رقد إذا نعس، وأطاع ربه إذا استيقظ، وفسَّر أَنَسُ بن مالك هذه الآية بأنهم كانوا يتنفَّلون بين المغرب والعشاءِ، وقال الرَّبيع بن خُثَيْم: المعنى: كانوا يصيبون من الليل حظًّا، وقال مُطَرِّف بن عبد الله: قلَّ ليلة أتت عليهم هجعوها كلها، وقال ابن أبي نُجَيْح ومجاهد: فالمراد عند هؤلاءِ بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أي من اللَّيالي، وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأكثر من ليلهم، أي من كلِّ ليلة، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل، لا ينامون منه إلاَّ قليلاً.

وأَمَّا إعرابُ الآية فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أن المعنى: كانوا قليلاً في عددهم، وتم خبر [كَانَ]، ثم ابتدأ ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، فـ[مَا] نافية، و[قَلِيلاً] وقف حسن. وقال بعض النحاة: [مَا] زائدة، و[قَلِيلاً] مفعول مقدم لـ[يَهْجَعُونَ]، وقال جمهور النحويين: [مَا] مصدرية، و[قَلِيلاً] خبر [كَانَ]، والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، و«الهجوع» مرتفع بـ[قَلِيلاً] على أنه فاعل، وعلى هذا الإعراب يجيءُ قول الحسن وغيره ـ وهو الظاهر عندي ـ أَن المراد: كان هجوعهم من الليل قليلاً، وفسَّر ابن عمر والضحاك [يَسْتَغْفِرُونَ] بـ«يُصَلُّونَ»، وقال الحسن: معناه: يدعون في طلب المغفرة، والأَسحار مظنَّة الاستغفار، ويُروى أَن أبوابَ الجنَّة تفتح فجر كل يوم، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾[1] أنه أَخَّر الاستغفار لهم

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (يوسف).



إلى السَّحر، قال أَبو زيد في كتاب الطبري: السَّحَرُ السدسُ الأَخير من اللَّيل.

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾، الصحيح أَنها محكمة، وأَن هذا الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض، و[مَعۡلُومٞ][(١)] يراد به: متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأَكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات. وقال منذر بن سعيد: هي الزكاة المفروضة، وهذا ضعيف لأَن السُّورة مكيَّة وفرض الزكاة بالمدينة، وقال قوم من المتأَولين: كان هذا ثم نسخ بالزكاة، وهذا غير قوي، وما شَرَّع الله تعالى وجلَّ بمكة قبل الهجرة شيئاً من أَخذ الأَموال.

واختلف الناس في [الۡمَحۡرُومِ] اختلافاً هو عندي تخليط من المتأَخرين؛ إِذ المعنى واحد، وإِنما عبَّر علماءُ السلفَ في ذلك العبارات على جهة المثلات فجعلها المتأَخرون أَقوالاً، وحصرها مكي في ثمانية، و«المحروم» هو الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة، وهو مع ذلك لا يسأَل، فهذا هو الذي له حق في أَموال الأَغنياءِ كما للسائل حق، قال الشعبي: أَعياني أَن أَعلم ما «المحروم»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم: المحاربُ الذي ليس له في الإِسلام سهم مال، فهو ذو الحرفة المحدود، وقال أَبو قُلابة: جاءَ سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من أَصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، وقال ابن زيد: هو الذي أُصيبت ثمرته، وقال غيره: هو الذي ماتت ماشيته، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: هو الكلب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأَوقات والحالات، أَلا ترى إلى الذي كان يأْكل الثرى من العطش.. الحديث[(٢)]؛ إلى غير هذا من الأَقوال التي إنما ذكرت مثالاً،

---

(١) لم ترد كلمة [مَعْلوم] في هذه الآية، ولكنه يشير إلى ما ورد في الآيتين (٢٤، ٢٥) من سورة (المعارج)، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

(٢) يشير إلى الحديث المعروف الذي أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب، ومسلم في السلام، وأبو داود في الجهاد، ومالك في صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي وهو بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب كان يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي به فسقى الكلب فشكر الله له =



كأنه يقول: الذي أُصيبت ثمرته من المحرومين، والمعنى الجامع لهذه الأَقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أَصابه، وإِلاَّ فالذي تصاب ثمرته وله مالٌ غيرها كثير ليس في هذه الآية بإِجماع.

وبعد هذا مقدَّر من الكلام تقديره: فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقهم فإِن النظر المؤدي إِلى ذلك متجه، ففي الأَرض آيات لمن اعتبر وأَيقن، وهذه إِشارة إِلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك، وقرأ قتادة: [آيَةٌ] على الإِفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ إحالة على النظر في شخص الإِنسان، فإِنه أَكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه ـ مع كونه من تراب ـ من لطائف الحواس، ومن أَمر النفس وحياتها ونطقها، واتصال هذا الجزءِ منها بالعقل، ومن هيئة الأَعضاءِ واستعدادها لتنفع أَو تحمل أَو تعين، قال ابن زيد: إِنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل، أَفيدري أَحدٌ ما ذاك العقل؟ وما صفته؟ وكيف هو؟ وقال الرُّمَّاني: النفس خاصة الشيءِ الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمنة به لم تبطل، وهذا تعمُّق لا أَحمده. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ توقيف وتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، قال الضحاك، ومجاهد، وابن جبير: أَراد تعالى المطر والثلج، وقال واصل الأَحدب، ومجاهد: أَراد القضاءَ والقدر، أَي: الرزق عند الله تعالى يأْتي به كيف شاءَ، لا ربَّ غيره، وقرأ ابن محيصن: [وفي السماء رازقكم]. و[تُوعَدُونَ] يحتمل أَن يكون من الوعد، ويحتمل أَن يكون من الوعيد، والكلُّ في السماءِ، قال الضحاك: المراد: من الجنة والنار، وقال مجاهد: من الخير والشر، وقال ابن سيرين: المراد الساعة، ثم أَقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر، وشبَّهه في اليقين به بالنطق من الإِنسان، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أَن يقع فيه من اللَّبْس ما يقع في الرُّؤْية والسمع، بل النُّطق أَشد تخلُّصاً من هذه. واختلف القراءُ في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ﴾ ـ فقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية

= فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال رسول الله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر».



أَبي بكر ـ: (مِثْلُ) بالرَّفع، ورويت عن الحسن، وابن أَبي إِسحق، والأَعمش ـ بخلاف عنهم ـ، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وأَبو جعفر، وأَهل المدينة، وجلُّ الناس: (مِثْلَ) بالنصب، فَوجْه الأُولى الرفع على النعت لـ[حَقٌّ]، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أُضيف إِلى المعرفة من حيث كان [مِثل] شائعاً عامًّا لوجوه كثيرة، فهو لا تُعرِّفه الإِضافة إِلى معرفة؛ لأَنك إِذا قلت: «رأَيتُ مثلَ زيد» فلم تُعرِّف شيئاً لأَن وجوه المماثلة كثيرة، فلما بقي الشياع جرى عليه حكم النكرة فَنُعتت به النكرة، و[مَا] زائدة تعطي تأكيداً، وإِضافة [مِثْلُ] هي إِلى قوله تعالى: [أَنَّكُمْ]. ووجه قراءَة النصب أَحد ثلاثة أَوجه: إِمَّا أَن يكون [مِثْلَ] قد بُني لَمَّا أُضيف إِلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ[حَقٌّ]، ولحقه البناءُ لأَن المضاف إِليه قد يُكْسِبُ المضافَ بعض صفاته كالتأْنيث في قوله:

. . . . شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاة. . . .[1]

وكالتعريف في «غلام زيد» إِلى غير ذلك، ويجرى [مِثْلَ] حينئذ مجرى ﴿عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[2] على قراءَة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا . . . .[3]

---

(١) هذه الجملة جزءٌ من بيت قاله الأعشى ميمون بن قيس، ويسمَّى صنَّاجة العرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، والبيت من الطويل، وهو بتمامه:

وَتَشْرَقُ بِالقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعْتُهُ ... كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

ومعنى أذعْتُهُ: أَفْشيْتُه وأَعْلَنْتُه، والقناة: الرمح، وشَرِقَ بريقه إذا غَصَّ وهو من باب عَلِمَ يَعْلَمُ، وقد استشهد به المؤلف على أن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض صفاته كالتأنيث، فالقناة مؤنث، وصَدْر مذكَّر، ولكن لما أُضيف إلى القناة اكتسب منها التأنيث ولهذا أنث الفعل «شَرِقَ» فلحقت به تاءُ التأنيث فقيل: «شرقت»، والقياس أن يقال: «شَرِقَ صَدْرُ». ومثل هذا كثير في اللغة.

(٢) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (المعارج): ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ في قراءة نصب الميم، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني، قال الخليل في كتاب سيبويه تعليلا لنصب الذي في موضع الرفع: «هذا كنصب بعضهم "يَوْمَئِذٍ" في كل موضع، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾.

(٣) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني، والبيت بتمامه:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟

وهو في الديوان، وابن الشجري، والإنصاف، وشرح شواهد المغني، وابن يعيش، والمنصف، =



ومنه قول الآخر:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ . . . .[1]

فـ«غَيْرَ» فاعلة ولكنه فتحها.

والوجه الثاني ـ وهو قول المازني ـ أن [مِثْلَ] بُني لكونه مع [مَا] شيئاً واحداً، ويجيءُ ـ على هذا ـ في مضمار: «وَيْحَمَا، وأَيْنَمَا، وابْنَمَا»، ومنه قول حُمَيْد بن ثور:

أَلاَ هَيَّمَا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيَّمَا وَوَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَدْرِ ماهُنَّ وَيْحَمَا[2]

= وخزانة الأدب، والهمع، وشرح شواهد العيني. والوازع: الزاجر الناهي، وقد أسند الوَزْع إلى الشيب تجوزاً، يقول: إنه بكى على الديار في وقت مشيبه ومعاتبته لنفسه على هذا الضرب، أي: عاتبت نفسي على الصبا لمكان شيبتي. والشاهد في «حينَ» لأنه بُنِيَ على الفتح لإضافته إلى فعل بناؤه لازم وهو زمان مبهم، فهو ظرف، والمعنى: في وقتِ عاتبتُ، كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أي: في وقت غفلة. قال النحويون: ويجوز كسره للإعراب، ولكن المختار والأرجح بناؤه إذا تلاه فعلٌ مبني للتناسب بينهما، قال سيبويه: «كأنه جعل (حِينَ) و(عاتبت) شيئاً واحداً»، ومثله قول الشاعر:

لأَجْتَذِبَنَّ منهُنَّ قَلْبِي تَحَلُّماً عَلَى حينَ يَسْتَصْبِينَ كُلَّ حَلِيمِ

إلاّ أن بناءَ الفعل في البيت الأول لازم، وفي البيت الثاني عارض.

(١) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أنْ هَتَفَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أوْقَالِ

وهذا البيت مختلف في نسبته ـ فقيل: هو لأبي قيس ابن الأسلت «صيفي بن عامر»، وقيل: لقيس ابن رفاعة، وقيل: للشَّمَّاخ «معقل بن ضرار»، وليس في ديوانه، وهو في خزانة الأدب، واللسان ـ وكتاب سيبويه، ومغني اللبيب، وانظر أيضاً ابن يعيش، والتصريح، وابن الشجري، والهمع. والضمير في «منها» يعود على الوجناء وهي الناقة في بيت قبله، وفي البيت قَلْب، إذ أصل الكلام: «لم يمنعها من الشُّرْب» فقال بعد القلب: «لم يمنع الشرب منها»، ويروى «نطقت» بدلا من «هتفت»، ويروى: «في سَحُوقَ» بدلاً من «غصون»، والسَّحوق: ما طال من شجر الدوم، والأوقال: جمع وَقْل، والوَقْل ثمار شجر الدوم كما قال في اللسان، والشاهد في البيت هنا أن «غَيْرَ» فاعل ولكنها رويت بفتح الراءِ، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن، ومعنى البيت أن هذه الناقة أرادت الشرب ولكن منعها منه أنها سمعت صوت حمامة في الغصون فنفرت وخافت، يصفها بأنها حديدة النفس، شديدة الحذر، دائمة الفزع.

(٢) هذا البيت في اللسان، و«هَيَّ» كلمة معناها التأسف والأسى، وقيل: التعجب، و«ما» في موضع رفع زائدة، قال ابن بَرّي: ومنه قول حُمَيْد الأرقط: ألا هَيَّما. . . البيت، وقال الكسائي: «ومن العرب من يتعجب بِهَيَّ وفَيَّ وشَيَّ، ومنهم من يزيد «ما» فيقول: يا هَيَّما وي فَيَّما ويا شَيَّما، أي: ما أحسن هذا»، وقيل: بل هو تلهُّف، و«وَيْحَ» كلمة تقال رحمة، وكذلك «وَيْحَما»، قال الليث: «وَيْحَ كلمة رحمة لمن=



فلولا البناءُ وجب أَن يكون منوناً، وكذلك قول الشاعر:

. . . . فَأَكْرِم بِنَا خالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا(١)

والوجه الثالث أن ينصب [مِثْلَ] على الحال من قوله تعالى: [لَحَقٌّ] وهي حال من نكرة، وفيه خلاف، ولكن جوَّز ذلك الجرميُّ، وأَما غيره فيراه حالاً من الذِّكر(٢) المرفوع في قوله تعالى: [لَحَقٌّ]؛ لأَن التقدير: لَحَقٌّ هو، وفي هذا نظر، و«النطق» في هذه الآية: الكلام بالحروف والأَصوات في ترتيب المعاني، ورُوي أن بعض العرب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أحوج الكريمَ إلى أنَ يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و«سبل الخيرات» متممة عن الأَصمعي، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أَقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه»(٣)، وروى أَبو سعيد الخدري أَن

= تنزل به بليّة، وربما جعلت مع «ما» كلمة واحدة فقيل: وَيْحَمَا»، ومعنى هذا أن [مِثْلَ] في الآية ركبت مع [مَا] في كلمة واحدة كما جعلت «ويح» مع «ما» في البيت.

(١) هذا عجز بيت قاله حسَّان بن ثابت من قصيدة له في الفخر مطلعها:

أَلَـمْ تَسْـأَلِ الـرَّبْـعَ الجَـديـدَ التَّكَلُّمَـا ... بِمَـدْفَـعِ أَشْـداخٍ فَبُـرْقَـةَ أَظْلَمَـا

والبيت بتمامه:

وَلَـدْنَـا بَنِـي العَنْقَـاءِ وابْنَـيْ مُحَـرِّقٍ ... فَـأَكْـرِمْ بِنَـا خـالاً وَأَكْـرِم بِنَـا ابْنَمَـا

وقد ورد الشطر الثاني في الأصول: «فَأَكْرِمْ بِهَا أُمّاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا»، والتصويب عن الديوان واللسان، والعنقاءُ: ثعلبة بن عمرو مُزَيْقياء بن عامر بن ماءِ السماءِ، ومُحَرِّق هو الحارث بن عمرو مزيقياء، وكان أول من عاقب بالنار، وقال الكلبي: سمِّي عمرو بن هند مُحَرِّقاً لأن سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاً له ثم هرب، فقتل ابن هند سبعة من ولد سويد، وأقسم ليقتلن مائة من بني تميم، فبلغ ثمانية وتسعين أحرقهم بالنار، وصادف أن أقبل رجل من البراجم حين رأى الدخان ساطعاً وهو يحسب الطعام يُعمل ـ والبراجم جماعة من بني تميم تحالفوا وقالوا: نكون كبراجم اليد، أي مفاصلها ـ فلما دنا الرجل من النار قيل له: مِمَّن أنت؟ قال: من البراجم، فقال ابن هند: «إنَّ الشَّقي وافد البراجم» وألقاه في النار، فذهب قوله مثلا، وتحلل من يمينه بالحمراءِ بنت ضمرة النهشلية تتمة المائة. أما «ابْنَمَا» فهي «ابن» زيدت عليها الميم كما زيدت في (شَدْقم وزُرْقم وشَجْعم) لنوع من الحيات، ويجوز عند إعراب «ابْنَم» أن تعرب الميم وحدها لأنها صارت آخر الاسم، وتبقى النون مفتوحة على كل حال، ومنهم من يُعربه من مكانَيْن، أي يجعل علامة الإعراب على النون والميم، وابن عطية يستشهد بالبيت لأن «ابن» بُنِيَت مع «ما» فصارتا معاً كلمة واحدة، وجاءت «ابن» مفتوحة على الرأي الأول الذي ذكرناه في الإعراب.

(٢) يعني: من ضمير الذِّكر، والذِّكر هو القرآن، إذ تقدير الكلام: إن الذِّكر لَحَقٌّ.

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. (الدر المنثور).

النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لو فرَّ أَحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت»[(١)]، وأَحاديث الرزق والأَشعار فيه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب، وهذا كما تبدأُ المرءَ إِذا أردتَ أَن تحدثه بعجيب فتُقَرِّره: هل سمع ذلك أَم لا؟ فكأَنك تقتضي منه أَن يقول: لا، ويستطعمك الحديث[(٢)]. و[ضَيۡف] اسم جنس يقع للجمع وللواحد، وروي أَن أَضياف إِبراهيم عليه السلام هؤلاءِ هم جبريل وميكائيل وإِسرافيل وأَتباع لهم من الملائكة عليهم السلام، وجعلهم تعالى مكرمين إِمَّا لأَنهم عنده كذلك، وهذا قول الحسن، وإِمَّا من حيث أَكرمهم إِبراهيم عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل، وقيل: من حيث رفع مجالسهم. و[سَلَاماً] منصوب على المصدر، كأَنهم قالوا: نُسَلِّم سلاماً، أَو سلمت سلاماً[(٣)]، ويتجه أَن يعمل فيه [قَالُوا] على أَن يجعل [سَلاماً] بمنزلة «قولاً»، ويكون المعنى حينئذ أَنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً، وهذا قول مجاهد، و[سَلَامٌ] مرتفع على خبر ابتداءٍ، أَي أَمري سلام، أَو واجب لكم سلام، أَو على الابتداءِ والخبر محذوف كأَنه قال: سلام عليكم، وإِبراهيم عليه السلام قد حيًا بأَحسن؛ لأَن قولهم دعاءٌ وقوله واجب قد تحصَّل لهم. وقرأَ ابن وثاب، والنَّخَعي، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وابن جبير: ﴿قَالَ سِلۡمٌ﴾ بكسر السين وسكون اللام، والمعنى: نحن سلام، أَو أَنتم سلام، وقوله تعالى: ﴿قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ معناه: لا نميزهم ولا عهد لنا بهم، وهذا أَيضاً على تقدير: أَنتم قوم منكرون، وقال أَبو العالية: أَنكر سلامهم في تلك الأَرض وذلك الزمن.

و«راغ» معناه: مضى أَثناءَ حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلاً كأَنه لم يُرد أَن يفارقهم فمضى إِلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع لحينه، وهذا تشبيه بالروغان المعروف؛ لأَن الرائغ يوهم أَنه لم يزل، و«العِجْلُ» هو الذي حَنَذَه لهم[(٤)]، وحسبك أَنه

---

(١) قال القرطبي بعد أن ذكر هذا الحديث: «أسنده الثعلبي».

(٢) استَطْعَم فلاناً الحديث: طلب منه أن يحدثه فيذيقه طعم حديثه. (المعجم الوسيط)، وفي قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ تفخيم لحديث ضيف إبراهيم، وتنبيه على أنه لم يكن معروفاً للنبي ﷺ وإنما عرفه بالوحي.

(٣) فهو المصدر السادُّ مسَدَّ الفعل المستغني به.

(٤) كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾، والحنيذ: المشوي، أو الذي يقطر دهنه.

عليه السلام أَوقف للضيافة أَوقافاً تُمضيها الأُمم على اختلاف أديانها وأَجناسها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

المعنى: فَقَرَّبَه إِليهم فأَمسكوا عنه فقال: أَلا تأْكلون؟ فيروى في الحديث أنهم قالوا له: إِنَّا لا نأْكل إِلاَّ ما أَدَّينا ثَمَنه، فقال لهم إِبراهيم عليه السلام: وأَنا لا أُبيحه لكم إِلاَّ بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أَن تسمُّوا الله تعالى عند الابتداءِ، وتحمدوه عند الفراغ من الأَكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما استمروا على ترك الأَكل أَوْجَس منهم خيفة، و«الوَجْسُ»: تَحسُّسُ النفس وخواطرها في الحذر، وذلك أَن أَكْل الضيف أَمَنَة ودليل على انبساط نفسه، والطعام حُرْمة وذمامٌ، والامتناع عن ذلك وحشة، فخشي إِبراهيم عليه السلام أَن امتناعهم من أَكل طعامه إِنما هو لشرٍّ يريدونه، فقالوا له: لا تخف، وعرَّفوه أنهم ملائكة، وبشَّروه وبشَّروا سارة معه بغلام عليم، أَي عالم في حال تكليفه وتحصيله، أَي سيكون عليماً، و«عليم» بناءُ مبالغة. وجمهور الناس على أَن الغلام هنا هو إِسحاق بن سارة عليه السلام الذي ذكرت البشارة به في غير موضع، وقال مجاهد: هذا الغلام هو إِسماعيل عليه السلام، والأول أَرجح، وهذا وَهْمٌ، ويروى أنه عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إِياه بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ يحتمل أَن يكون: قَرُبَتْ إِليهم من ناحية من نواحي المنزل، ويحتمل أَن يكون هذا الإِقبال كما تقول: أقبل فلان يشتمني أَو يفعل كذا إِذا جدَّ في ذلك وتلبَّس به. و«الصَّرَّة»: الصَّيْحة، كذا فسَّره ابن عباس، ومجاهد، وسفيان، والضحاك، والمضطر الذي يصيح، وقال قتادة: معناه: في رنَّة، وقال الطبري: قال بعضهم: قالت: أَوَّه[1]، بصياح وتعجُّب، وقال النحاس: وقيل: ﴿فِى

(١) مقصورة الألف، كما قال الطبريُّ.



صَرَّةٍ﴾: في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة. وقوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ معناه: ضربت وجهها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لطمت، وهذا مما يفعله الذي يَرِدُ عليه أَمر يستهوله، وقال سفيان، والسدي، ومجاهد: ضربت بكفَّيها وجهها، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن، وقولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ إما أن يكون تقديره: إني عجوز عقيم فكيف أَلِدُ؟ وإمَّا أَن يكون التقدير: عجوزٌ عقيمٌ يكون منها ولادة؟ وقدّره الطبري: أَتَلد عجوز عقيم، ويروى أنها كانت لم تلد قط، و«العقيم» من النساءِ التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً فهي لا بركة فيها. وقولهم: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي كقولنا الذي أَخبرناك به قال ربك أَن يكون، و«الحكيم» ذو الحكمة، و«العليم» معناه: بالمصالح وغير ذلك من المعلومات.

ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، والخَطْبُ: الأَمر المُبْهم، وقيل: إنما يُعبَّر به عن الشدائد والمكاره غالباً حتى قالوا: «خطوب الزَّمان» وغير ذلك، وكأنه يقول: ما هذه الطَّامة التي جئتم لها؟ فأَخبروه حينئذ أَنهم أُرسلوا إلى سدوم قرية لوط عليه السلام بإهلاك أَهلها الكفرة العاصين المجرمين، و«المجرم»: فاعل الجرائم وهي صفات المعاصي من كفر ونحوه، واحدتها جريمة. وقولهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: لنهلكهم بهذه الحجارة، ومتى اتصلت «أَرسل» بـ«عَلَى» فهي في معنى المبالغة في المباشرة والعذاب. ومتى اتصلت بـ«إلى» فهي أخف، وانظر ذلك تجده مطرداً، وقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ بيان تخرج به عن معتاد حجارة البَرَد التي هي من ماءٍ، ويُروى أَنه طين طُبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجُرِّ، و[مُسَوَّمَةً] نعت لـ[حِجَارَةً]، وقيل: معناه: متروكة. وسومها من الإهلاك والإصابة، وقيل: معناه؛ معلَّمة بعلامتها من السماءِ، والسَّومى[1]: العلامة، أَي أَنها ليست من حجارة الدنيا، وقال الزهراوي والرُّمَّاني: قيل: معناه على كل حجر اسم المضروب به، قال الرُّمَّاني: وقيل: كان عليها أَمثال الخواتيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تسويمها أن كان في الحجارة السود نقط بيض، وفي البيض سودٌ، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له، لا أَن كل واحد منها له علامة خاصة به، و«المُسْرف»:

---

(١) جاء في اللسان: «والسُّومَةُ والسِّيمة والسِّيماءُ والسِّيمِيَاءُ: العلامة». ثم جاء: «والأصل في سِيمَا وسْمَى، فحولت الواو من موضع الفاءِ فوضعت في موضع العين، كما قالوا: ما أطيبه وأيطبه، فصار سِوْمَى، وجعلت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها».



الذي يتعدى الطور، فإذا جاءَ مطلقاً فهو لأبعد غايات الكفر فما دونه.

ثم أَخبر الله تعالى أَنه أَخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم، وأَعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها، ولأن القوم المجرمين معلوم أَنهم في قرية ولا بد، قال المفسرون: ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأَخره، وإنما هما وصفان، ذكرهم[1] أَولاً بأَحدهما ثم آخراً بالثاني، قال الرُّمَّاني: الآية دالة على أَن الإيمان هو الإسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن في المعنى زيادة تحسِّن التقديم للإيمان، وذلك أَنه ذكره مع الإخراج من القرية كأَنه تعالى يقول: لقد أمرنا بإخراج كل مؤمن، ولا يشترط فيه أن يكون عاملا بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأَعمال. والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه، وقيل: وبنته، وفي كتاب الثعلبي: وقيل: لوطٌ وأَهلُ بيته ثلاثة عشر، وهلكت امرأَته فيمن هلك. وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش، أَي أَنهم إذا كفروا أَصابهم مثل ما أَصاب هؤلاءِ المذكورين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى: وتركنا في القرية المذكورة ـ وهي سدوم ـ أَثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره، فهو آيةٌ ـ أَي علامة ـ على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أَن يكون المعنى: وتركنا في أَمرها، كما قال: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[2] وقال ابن جريج: ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جدًّا، و«الَّذين

---

(١) الضمير في «ذكرَهُم» يعود على الموصوفين بالإيمان وبالإسلام.

(٢) الآية (٧) من سورة (يوسف).



يخافون العذاب» هم العارفون بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى: [فيهَا]، أي: وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية، ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، وفرعون هو صاحب مصر، و«السُّلْطَان» في هذه الآية: الحجة، و«تَوَلَّى» معناه أعرض وأدبر عن أمر الله تعالى، و«رُكْنُهُ»: سلطانه وجندُه وشدَّة أَمره، وهو الأَمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده، وقال ابن زيد: (برُكْنِهِ): بجُمُوعه، وقال قتادة: بقومه، وقَوْلُ فرعون في موسى عليه السلام: «سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ» هو تقسيم ظنَّ أن موسى عليه السلام لا بُدَّ أن يكون أحد هذين، وقال أَبو عبيدة: [أَوْ] هنا بمعنى «الواو»، واستشهد ببيت جرير:

أَثَعْلَبَــةَ الْفَــوَارسَ أَوْ رِيَــاحَــا عَــدَلْــتَ بِهِـمْ طُهَيَّـةَ والْخشَـابَـا؟[١]

والخشَاب: بيوتٌ في بني تميم، وقولُ أَبي عبيدة ضعيف لا داعية إِليه في هذا الموضع، و[نَبَذْنَاهُمْ] معناه: طرحناهم، و«اليَمُّ»: البحر، وفي مصحف ابن مسعود: [فنبذناه]، و«المُليمُ»: الذي أَتَى من المعاصي ونحوها ما يُلامُ عليه، وقال أُمَيَّةُ ابنُ أَبي الصَّلْت:

. . . . وَمَـنْ يَخْـذُلْ أَخَـاهُ فَقَـدْ أَلامَـا[٢]

---

(١) قال جرير هذا البيت من قصيدة يهجو بها الراعي النميري، والبيت في اللسان أيضاً، وطُهَيَّة على وزن سُمَيَّة: حيٌّ من تميم نُسبوا إلى أُمِّهم، والخِشاب: بنو رازم بن مالك، وربيعة وكعب بن مالك، وحنظلة، وهم بطون من تميم أيضاً. قال أبو عبيدة: [أَوْ] ها هنا في موضع الواو التي للمُوَالاة ـ أي للعطف ـ لأنه قد قالهما جميعاً له. ولكن ابن عطية لا يوافق أبا عبيدة على رأيه هذا لأن فرعون قالهما فعلا لموسى عليه السلام ولكنه أراد بهما الإبهام على السامع. قال ذلك أبو حيان الأندلسي في البحر.

(٢) هذا عجز بيت، وهو بتمامه:

تَعُــدُّ مَعَــاذِراً لا عُــذْرَ فِيهَــا وَمَـنْ يَخْـذُلْ أَخَـاهُ فَقَـدْ أَلامَـا

ولم أجده في ديوان أُمَيَّة، ولكن وجدته في لسان العرب منسوباً إلى أُمِّ عُمَيْر بن سَلْمَى الحنفي تخاطب ولدها عُمَيْراً لأنه كان قد أَسلم أخاه لرجل كلابيٍّ له عليه دَمٌ فقتله، فعاتبته أُمُّه في ذلك وقالت هذا البيت، قال ابن بَرِّي: وعُذْره الذي اعتذر به أن الكلابيَّ التجأ إلى قبر سَلْمَى والد عُمَيْر، فقال لها عُمَيْر:

قَتَلْنَـا أَخَـانَـا لِلْـوَفَـاءِ بِجَـارِنَـا وكَـانَ أَبُـونَـا قَـدْ تُجِيـرُ مَقَـابِـرُه



وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ عطف على قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾. وعَادٌ هي قبيلة هود النبي ﷺ، و«العقيم» معناه: التي لا بركة فيها، لا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً، وقال سعيد بن المسيب: كانت ريح الجنوب، وروي عن علي رضي الله عنه: كانت نكباءَ[(١)]، وهذا عندي لا يصح عن عليٍّ رضي الله عنه لأنه يرادُّ قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادٌ بالدبور»[(٢)]، و[تَذَرُ] معناه: تَدَع، وقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ يعني مِمَّا أذن الله تعالى لها في إهلاكه، و«الرميم»: الفاني المتقطع يبساً أو قِدَماً من الأشجار والورق أَو الحبال أَو العظام، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[(٣)]، أَي في قوام الرماد، ورُوي حديث: «إِنَّ تلك الريح كانت تهب على الناس فيهم العاديُّ وغيره، فتنزع العاديَّ من بين الناس وتذهب به»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يحتمل أَن يراد: قيل لهم في أول بعث صالح عليه السلام: آمنوا وأَطيعوا فتُمتَّعوا متاعاً حسناً إِلى آجالكم، وهو «الحينُ» على هذا، وهو قول الحسن حكاه عنه الرُّمَّاني، ويجيءُ قوله تعالى: [فَعَتَوْا] مُرَتَّباً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأَخراً عن القول لهم: [تَمَتَّعُوا]، ويحتمل أَن يريد: إِذْ قيل لهم بعد عقر الناقة: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[(٥)]، وهي «الحينُ» على هذا التأْويل، وهو قول الفراءِ، ويجيءُ قوله تعالى: [فَعَتَوْا] غير مُرَتَّب المعنى في وجوده، لأَن عتوهم كان قبل أَن يقال لهم: [تَمَتَّعُوا]، وكأَن المعنى: فكان من أَمرهم قبل هذه المقالة أَن عَتَوْا، وهو السبب في أَن قيل لهم ذلك وعُذِّبوا. وقرأَ جمهور القراءِ: [الصَّاعِقَةُ]، وقرأَ الكسائي ـ وهي قراءَة عُمَر وعثمان رضي الله عنهما ـ: [الصَّعقَةُ]،

---

(١) الريح النَّكْباءُ: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصَّبا والشمال، والجمع «نُكْبٌ».

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء والمغازي وبدء الخلق والأنبياء، ومسلم في الاستسقاءِ، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنى قول المؤلف قبل هذا الحديث: «لأنه يرادُّ قول النبي ﷺ» أنه يعارضه ويختلف عنه.

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (يس).

(٤) أخرج ابن عساكر عن وهب قال: لما أرسل الله الريح على عادٍ اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبهم من الريح إلاَّ ما تلين عليه الجلود وتلذه الأنفس، وإنهما لتمرُّ بالعاديِّ فتحمله بين السماءِ والأرض وتدمغه بالحجارة ـ ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور)، والعاديّ: نسبة إلى عادٍ.

(٥) من الآية (٦٥) من سورة (هود).

وهي ـ على القراءتين ـ الصيحةُ العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد: صاعقة، وهي التي تكون معه النار التي يُروى في الحديث أَنها من المخْراق الذي بيد مَلَك يسوق السحاب[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتمل أَن يريد: فجأَةً وهم يُبصرون بعيونهم حالهم، وهذا قول الطبري، ويحتمل أَن يريد: وهم ينتظرون ذلك في تلك الأَيام الثلاثة التي أُعلموا به فيها ورأَوا علاماته في تَلَوُّنهم، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدَّم تفسيره، وانتظارهم للعذاب هو أَشد من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

قال بعض المفسرين: (من قيام) معناه: ما استطاعوا أَن يقوموا من مصارعهم، وقال قتادة وغيره: معناه: من قيامٍ بالأَمر ودفعه، كما تقول: فلانٌ له بكذا وكذا قيام، أَي: استصلاح وانتهاض، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: (وقوم نوح) بالنصب، وهو عطف إِمَّا على الضمير في قوله تعالى: [فَأَخَذَتْهُمُ]؛ إِذ هو بمنزلة «أَهلكناهم»، وإِما على الضمير في قوله تعالى: [فَنَبَذْنَاهُمْ]، وقرأَ أَبو عمرو ـ فيما روى عنه عبد الوارث ـ: (وقومُ نوح) بالرفع، وذلك على الابتداءِ والخبر، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [وقومِ نوحٍ] بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾، وقد روي النصب عن أَبي عمرو.

وقوله تعالى: [وَالسَّمَاءَ] نصب بإِضمار فعل تقديره: وبنينا السماءَ بنيناها،

---

(١) حديث الملَك الذي يسوق السحاب أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرعد، وأخرجه أحمد في مسنده (٦ـ٢٧٤)، وهو حديث طويل رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن اليهود أقبلوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن خمسة أشياءَ، وقالوا: إن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي، وكان آخر سؤال هو: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «مَلَك من ملائكة الله عزَّ وجلَّ مُوَكَّل بالسحاب، بيده أو في يده مِخْراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله»، قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: «صوته»، قالوا: صدقت، إلخ الحديث. والمِخْراق: السيف.



و«الأَيْد»: القُوَّة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ووقعت في المصحف بياءَيْن، وذلك على تخفيف الهمز، وفي هذا نظر. وقوله تعالى: [لَمُوسعُونَ] يحتمل أَن يريد: إِنا نوسع الأَشياءَ قوة وقدرة، كما قال تعالى: و﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[1]. أَي الذي يوسع أَهلَه إِنفاقاً، ويحتمل أَن يريد: لموسعون في بناءِ السماءِ، أَي جعلناها واسعة، وهذا تأْويل ابن زيد، وقال الحسن: أَوْسع الرزقَ بمطر السماءِ، و«الماهدُ»: المهيِّئُ الموَطِّئُ للموضع الذي يتمهد ويفترش.

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي مُصْطَحِبين مُتَلاَزِمَيْن، وقال مجاهد: معناه أَن هذه إِشارة إِلى المتضادات والمتقابلات من الأَشياءِ كالليل والنهار، والشَّقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماءِ والأَرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإِيمان، ونحو هذا، ورجَّحه الطبري بأَنه أدل على القدرة التي توجد الضِّدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعْلاً واحداً كالتسخين والتبريد، وقال ابن زيد وغيره: هي إِشارة إِلى الأُنثى والذكر من كل حيوان، والترجِّي الذي في قوله تعالى: [لَعَلَّكُمْ] هو بحسب خلق البشر وعرفهم، وقرأ الجمهور: [تَذَّكَّرُونَ] بتشديد الذال والإِدغام، وقرأ أبي بن كعب [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءَين وخفَّة الذال.

وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَمْرٌ بالدخول في الإِيمان وطاعة الله تعالى، وجعل الأَمر بذلك بلفظ الفِرار لينبِّه على أَن وراءَ الناس عقاباً وعذاباً وأَمراً حقُّه أَن يُفَرَّ منه، فجمعت لفظة «فِرُّوا» بين التحذير والاستدعاءِ، وينظر إِلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا ملجأَ ولا منجى منك إِلاَّ إِلَيْك...» الحديث[2]. قال الحسين بن الفضل: من فرَّ إِلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ عن عبادة الأَصنام والشياطين وكل

---

(١) من الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوءِ والدعوات والتوحيد، ومسلم في الذِّكر، وأبو داود في الأدب، والترمذي وابن ماجه في الدعاءِ، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٤ـ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٢)، وهو عن البراء بن عازب، ولفظه أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً من الأنصار أن يقول إذا أخذ مضجعه: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت»، فإن مات مات على الفطرة.

مدعوٌّ من دون الله تعالى، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإبلاغ وهزُّ النفس وتحكيم التحذير، وإعادةُ الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت.

وقوله تعالى: [كَذَٰلِكَ] تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معناه إلاَّ قال بَعْضٌ هذا وبعضٌ هذا وبعضٌ الجميع، ألا ترى أن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط: هو ساحر، وإنما قالوا: به جِنَّة، فلما اختلفت الفِرَق جعل الخبر عن ذلك بإدخال [أَوْ] بين الصيغتين، وليس المعنى أن كل أُمَّة قالت عن نبيِّها: إنه ساحر أو مجنون، فليست هذه كالمتقدمة في فرعون، بل هذه كأنه تعالى قال: إلاَّ قالوا: هو ساحر، أو قالوا: هو مجنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم عَلَى تفرُّق أزمانهم، أي: إنهم لم يتواصلوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من تَوَاصى، والعلَّة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي عن الحرص المفرط عليهم وذهاب اليقين حسرات، ويحتمل أن يراد: فتولَّ عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام، فلست بمصيطر عليهم ولست بملوم إذْ بلَّغت، فنحِّ نفسك عن الحزن عليهم وذكِّر فقط فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قُضي له أن يكون منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل فلا نَسْخَ في الآية إلاَّ في معنى الموادعة التي فيها: فإن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وروى قتادة ـ وذكره الطبري ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلت﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ حزن المسلمون وظنوا أنه أَمْر بالتولِّي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع، حتى نزلت ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فسُرُّوا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، اختلف الناسُ في معناه مع



إجماع أَهل السُّنَّة على أَن الله تعالى لم يُرد أَن تقع العبادة من الجميع؛ لأَنه تعالى لو أَراد ذلك لم يصح أَن يقع الأَمر بخلاف إِرادته ـ فقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: المعنى: ما خلقت الجن والإِنس إِلاَّ لآمرهم بعبادتي وليقرُّوا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: [لِيَعْبُدُونِ]؛ إِذ العبادة هي مضمون الأَمر، وقال زيد بن أَسلم، وسفيان: المعنى خاص، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإِنس إِلاَّ لعبادتي، ويؤيد هذا التأْويل أَن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون]، وقال ابن عباس أَيضاً: معنى [لِيَعْبُدُونِ]؛ ليتذلَّلُوا لي ولقدرتي وإِن لم يكن ذلك على قوانين الشرع، وعلى هذا التأْويل فجميع الجن والإِنس عابد متذلِّل، والكفار كذلك، أَلا تراهم عند القحوط والأَمراض وغير ذلك؟ وتحتمل الآية أَن يكون المعنى: وما خلقت الجن والإِنس إِلاَّ مُعَدِّين ليعبدوني، وكأَن الآية تعديد نعمة، أَي: خلقت لهم حواسَّ وعقولاً وأَجساماً منقادة لحق العبادة وهذا كما تقول: البقر مخلوق للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يُحارب به أَصلاً، فالمعنى أَن الإِعداد في خلق هؤلاءِ إِنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسَّب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له»[1]، وقوله: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة»[2]. . . الحديث.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ أَي أَن يرزقوا أَنفسهم ولا غيرهم، وقوله تعالى: ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾ إِمَّا أَن يكون المعنى: أن يطعموا خلقي، فأُضيف إِلى الضمير على جهة التَّجوُّز، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وإِما أَن يكون الإِطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أَعطيت فلاناً كذا وكذا طُعمةً، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يجبيه، ونحو هذا، فكأَنه تعالى قال: «ولا أُريد أَن ينفعونِ»، فذكر جزءًا من المنافع وجعله دالاًّ على الجميع. وقرأَ الجميع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، وروى أَبو إِسحاق السبيعي، عن عبد الله بن زيد، قال أَبو عمرو الداني: عن ابن مسعود قال: أَقرأَني

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٢) أخرجه أبو يَعْلى في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في السنن، عن الأسود بن سريع، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يُهَوِّدانه أوْ يُنَصِّرَانه أوْ يُمَجِّسَانه»، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث صحيح.

رسول الله ﷺ: [إني أنا الرزاق]، وقرأ جمهور القراءِ: [الْمَتِينُ] بالرفع، إمَّا على أنه خبر بعد خبر، أَوْ صفة لـ[الرَّزَّاقُ]، وقرأ يحيى بن وثَّاب، والأعمش: (الْمَتِينِ) بالخفض على النعت لـ [الْقُوَّةِ]، وجاز ذلك من حيث إن تأْنيث [الْقُوَّةِ] غير حقيقي، فكأَنه قال: ذو الأَيْد والحبْل[1]، ونحوُه قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾[2]، وجوَّز أَبو الفتح أَن يكون خفض [الْمَتِينِ] على الجوار، و«الْمَتينُ»: الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، يريد تعالى أَهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأَ الأَعمش: [فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا]، و«الذَّنُوبُ»: الحظُّ والنصيب، وأَصله من الدَّلْو، وذلك أَن الذَّنوب هو مِلْءُ الدلو من الماءِ، وقيل: الذَّنوب: الدَّلْوُ العظيمة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّــا إِذَا نَــازَلَنَــا غَــرِيــبُ
لَــهُ ذَنُــوبٌ وَلَنَــا ذَنُــوبُ
فَــإِنْ أَبَيْتُــمْ فَلَنَــا الْقَلِيــبُ[3]

وهو السَّجْل[4]، ومنه قول عَلْقَمَة بن عبدة:

وَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ قَـدْ خَبَطْـتَ بِنِعْمَـةٍ ... فَحُـقَّ لِشَـأْسٍ مِـنْ نَـدَاكَ ذَنُـوبُ[5]

---

(١) هذا رأي أبي الفتح ابن جني: يقول: ذكَّره على معنى الحبل، يريد: قُوَى الحَبْل؛ لقوله سبحانه: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة)، وقد سقطت تاء التأنيث في قوله سبحانه: (جَاءَهُ) لأن تأنيث «الموعظة» غير حقيقي.

(٣) استشهد الفراءُ في (معاني القرآن) بالبيتين الثاني والثالث، قال: «والذَّنوب في كلام العرب: الدَّلْو العظيمة، ولكن العرب تذهب بها إلى الحظِّ والنصيب، وبذلك أتى التفسير: فإن للَّذين ظلموا حظّاً من العذاب، كما نزل بالذين من قبلهم، وقال الشاعر:

لَنَــا ذَنُــوبٌ وَلَكُــمْ ذَنُــوبُ ... فَــإِنْ أَبَيْتُــمْ فَلَنَــا الْقَلِيــبُ

والذَّنوب يُذكَّر ويُؤنَّث». وقد أخذ عنه المفسرون هذا الاستشهاد، ونقلوا البيتين كما رواهما «لَنَا ولكم»، لكن ابن عطية زاد هنا البيت الأول، وجاءت الرواية فيه: «له ولنا» كما ترى، والبيتان أيضاً في اللسان والتاج، والرواية فيهما: «لها ذنوبٌ ولكم ذنوب»، وقد نقل صاحب الكلام الفراء الذي نقلناه هنا. والقَلِيب: البئر، تذكَّر وتؤنث، وفي الحديث أنه ﷺ وقف على قليب بدر، والجمع قُلُبٌ.

(٤) السَّجْل: الدَّلو العظيمة، مملوءة، أو فيها ماءٌ قلَّ أوْ كثُر (مذكَّر).

(٥) هذا البيت لعلقمة الفحل، وهو من قصيدة له يمدح فيها الحارث ملك الغساسنة في الشام على إثر الوقعة المعروفة باسم «يوم حليمة»، ومطلع القصيدة: =



فروي أن الملك لما سمع هذا البيت قال: نعم وأَذْنُبُ، ومنه قول حسَّانٍ:

لاَ تَبْعَـدَنَّ رَبِيعَـةَ بْـنَ مُكَـدَّمٍ ... وَسَقَـى الْغَـوَادِي قَبْـرَهُ بِـذَنُـوب[1]

و«أصحابهم» يراد به من تقدَّم من الأمم المعذبة، قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تحقيق للأمر، بمعنى: هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يستعجلوه، وقرأ ابن وثاب: [فلا تستعجلون] بالتاء من فوق، وبه قرأت فرقة، والباقون بالياء.

ثم أوجب تعالى الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم، و«الويل»: الشقاء والهم، وروي أن في جهنم وادياً يسمى ويلاً، والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به، وذلك في هذا الموضع قلق، لأن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا، و[مِنْ] لابتداء الغاية، وقال جمهور المفسرين: هذا التوعد هو بيوم القيامة، وقال آخرون ـ ذكره الثعلبي ـ: هو بيوم بدر، وفي [يوعدون] ضميرعائد على الكلام، التقدير: يوعدون به، أو يوعدونه.

تم تفسير سورة الذاريات والحمد لله رب العالمين

= طَحَـا بِـكَ قَلْـبٌ فـي الْحِسَـانِ طَـرُوبُ ... بُعَيْـدَ الشَّبَـابِ عَصْـرَ حَـانَ مَشِيـبُ

وكان الحارث قد انتصر في «يوم حليمة» وأَسَر شَأساً شقيق الشاعر، وقد طلب الشاعرمن الملك بعد أن مدحه أن يعفو عن أخيه تقديراً لبطولته وإخلاصه لقومه وإن كان قد حارب الملِك، واستجاب الملِك لطلب الشاعر وأطلق سراح شأس وجميع الأسرى، وكان لكلمة الشاعر الأثر الكبير في ذلك.

ومعنى: «قد خَبَطْتَ بنعمة»: أعطيت من غير معرفة بمن تعطيه، وهذا غاية المدح، والذَّنوب: الدَّلْوُ فيها ماءٌ، أو لا ماءَ فيها، أو التي كان الماءُ فيها قريباً من مِلئِها... على اختلاف كلام اللغويين، ولكن المراد بها الحظُّ والنصيب، يقول الشاعر: إنك أيُّها الملِك تعطي النعمة من لا تعرفه، وتجود على كل الناس، وهذا يعطي أخي حقاً في أن يكون له نصيب من جودك ومعروفك، وقد سارت أبيات علقمة في الحارث مثلا في مديح الملوك.

(١) هذا البيت واحد من أربعة أبيات نُسبت لحسان بن ثابت، وقيل: لضرار بن الخطاب الفهري، وقيل: لمكرز بن خوص بن الأخيف العامري، وقال ابن سلام: الصحيح أنها لعمر بن شقيق بن سلامان، وربيعةُ بن مكدم من بني كنانة، وكانت بينهم وبين بني سليم وقعة قتل فيها ربيعةُ أربعة من بني سليم، وطعنه بعضهم طعنة قاتلة، فذهب إلى أُمه يطلب منها أن تسقيه فرفضت وطلبت إليه أن يقف على ثنيَّة الوادي حتى لا يهاجمهم القوم، ولكن ثعلباً مرَّ بفرسه التي كان عليها وقد مات، فنفرت الفرس وسقط ربيعة فدفن على الثَّنيَّة، وقال الشاعر هذه الأبيات، والغوادي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ فتمطر غدوة، يدعو له بالسقيا والري لما أظهره من الشجاعة والتضحية.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الطور

هي مكية بإجماع من المفسرين والرواة[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هذه مخلوقات أقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى.

و«الطُّور»، قال بعض أهل اللغة: كل جبل طور، فكأنه تبارك وتعالى أقسم بالجبال، إذ هو اسم جنس، وقال آخرون: الطور: كل جبل أجرد لا ينبت شجراً، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الطور: الجبل بالسريانية، وهذا ضعيف، لأن من حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يُسمَّى بالطُّور، وهو طور سيناءَ، فقال نوف البكالي: إنه الذي أقسم الله تعالى به لفضله على الجبال، إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أني مهبط على أحدكم أمري ـ يريد رسالة موسى عليه السلام ـ، فتطاولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله تعالى وقال: حسبي الله، فأهبط الله تعالى الأمر عليه، ويقال: إنه بمدين، وقال مقاتل بن حيان: هما طوران.

و«الكتاب المَسْطور» معناه بإجماع: المكتوب أسطاراً، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به ـ فقال بعض المفسرين: هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم، وقال آخرون: بل أقسم الله تعالى بالقرآن، فإنه قد كان علم أنه يتخذ في رَقٍّ منشور، وقال آخرون: أقسم الله تعالى

(١) روى الأئمة عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. متفق عليه..



بالكتب القديمة المنزلة، التوراة والإنجيل والزبور، وقال الفراء ـ فيما حكى الرُّمَّاني ـ: أقسم بالصحف التي تعطى وتؤخذ يوم القيامة بالأيمان والشمائل، وقال قوم: أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أَحصاها، وكتب بعض الناس (مَصْطُور) بالصاد، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف، والجمهور على السين. و«الرَّقّ»: الورق المعدة للكَتْب، وهي مُرَقَّقَة فلذلك سُمِّيت رقًّا، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان، و«المنشور» خلاف المطويّ، وقد يحتمل أن يكون نَشْرهُ بمعنى بَشْره وترقيقه وصنعته، وقرأ أبو السَّمال: ﴿فِي رِقٍّ﴾ بكسر الراء.

واختلف الناس في ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ـ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: هي الكعبة، وقال علي ابن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهم: هو بيت في السماء يقال له: الضراح، وهو بحيال الكعبة، ويقال: الضريح، ذكر ذلك الطبري، وهو الذي ذُكر في حديث الإسراء، قال جبريل للنبي ﷺ: (هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، آخر ما عليهم)[1]، وبهذا عمارته، ويروى أنه في السماء السابعة، وقيل: السادسة، وقيل: إنه مقابل الكعبة، لو خرَّ لسقط عليها، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: في كل سماءٍ بيت معمور وفي كل أرض كذلك، وهي كلها على خط مع الكعبة، وقاله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

و«السَّقْفُ المَرْفُوعُ»: السماء، و«السَّقْفُ» طول في انحناءٍ، ومنه أسقف النصارى، ومنه السَّقْف، لأن الجدار وسَقْفه فيهما طول في انحناءٍ.

واختلف الناس في [المسجور] ـ فقال مجاهد وشِمْر بن عطية[2] معناه: الموقد

---

(١) أخرجه ابن جرير، ومسلم، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ: «رُفع إليَّ البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا، آخر ما عليهم)، وقال ابن كثير في تفسيره: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رُفع إليَّ البيت المعمور، وإذ هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه، آخر ما عليهم)، يعني يتعبدون فيه ويطوفون كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة».

(٢) شِمر بن عطية ـ بكسر الشين المعجمة وسكون الميم ـ الأسدي، الكاهلي، الكوفي، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب: «صدوق من السادسة». وقد كتب في الأصول: سِمر ـ بالسين الخالية من النقط. .



ناراً، وروي «إن البحر هو جهنم» (١) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي: أين جهنم؟ فقال: هي البحر، فقال علي رضي الله عنه: ما أظنه إلا صادقاً، وقرأ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، [ومنه ما روي عن النبي ﷺ: «إن البحر هو جهنم»،] (٢) قال الثعلبي: وروي أن النبي ﷺ قال: «لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً»(٣) وفي حديث آخر قال: «البحر نار في نار». وقال قتادة: المسجور: المملوءُ ماءً، وهذا معروف من اللغة ورجَّحه الطبري لوجود ماءِ البحر كذلك، ولهذا يعود القول الأول، لأن قولهم: «سَجَرْت التَّنُّور» معناه: ملأتها بماءٍ يحترق ويتقد، والبحر المسجور: المملوء ماءً، وهكذا هو معرض للعبرة، ومنه قول النمر بن تَوْلَب:

إِذَا شَــاءَ طَــالَــعَ مَسْجُــورَةً ... تَـرَى حَـوْلَهَـا النَّبْـعَ والسَّمَـاسِمَـا

سَقَتْهَــا رَوَاعِــدُ مِــنْ صَيِّــفٍ ... وَإِنْ مِـنْ خَـرِيـفٍ فَلَـنْ يَعْـدَمَـا(٤)

يصف ثوراً وعينا مملوءَة ماءً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسجور هو الذي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: (البحر هو جهنم)، قالوا لِيَعْلَى، فقال: ألا ترون أن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَآ﴾، قال: لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله عزَّ وجلَّ، ولا يصيبني منها قطرة حتى أَلْقَى الله عزَّ وجلَّ. (المسند ٤ ـ ٢٢٣)..

(٢) ما بين العلامتين [...] سقط من أكثر النسخ، وأثبتته النسخة التونسية، ولعله تكرار للحديث السابق تخريجه في الهامش قبل هذا..

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد..

(٤) قال هذين البيتين النَّمِرُ بن تَوْلب العُكْلِيُّ، وقد استشهد بهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وهو في البيتين يصف ثوراً وعيناً مملوءَة بالماءِ كما قال المؤلف، ومَسْجُورَة: مملوءة، يريد أنه يشاهد عيناً مملوءة بالماءِ، والنَّبْع: نوع من الشجر خشبه متين ولهذا تتخذ منه القِسِيُّ، والسَّماسم: الآبنوس أو شجر يشبهه، وكلٌّ من النَّبع والسَّماسم ينبت في أعالي الجبال والضمير في «سقتها» يعود على العين، والرواعد: جمع راعدة، وهي السحابة الممطرة، وغالباً ما يكون معها صوت الرعد، والصَّيِّف: المطر الذي يأتي في الصيف، والخريف: الفصل المعروف الذي يأتي بعد الصيف وقبل الشتاءِ، وقول الشاعر: «وإن مِنْ خريف» يعني به أنه إذا لم تمتلىء العين من مطر الصيف فإنها تمتلىء من مطر الخريف... والمعنى أن هذا الثور يشاهد الماءَ في هذه العين المملوءة به إما من مطر الصيف وإما من مطر الخريف، فإنها دائماً يملؤها الماءُ، والشاهد أن مسجورة بمعنى مملوءة.



ذهب ماؤه، فالمسجور: الفارغ، ويُروى أن البحار يذهب ماؤُها يوم القيامة، وهذا معروف في اللُّغة، فهو من الأضداد[1]، وقيل: يوقد البحر ناراً يوم القيامة، فذلك السَّجْرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الْمَسْجُور: المحبوسُ، ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن البحر يُمْسَك لفاض على الأرض، وقال علي ابن أبي طالب، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم: البحر المُقْسم به هو في السماءِ تحت العرش، والجمهور على أنه بحر الدنيا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[2]، وقال منذر ابن سعيد: المعنى هو القسم بجهنم، وسمَّاها بحراً لِسَعَتها وتموجها، كما قال ﷺ في الفرس: «وإن وجدناه لبحراً»[3].

والقَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾، ويريد عذاب الآخرة للكفار، قاله قتادة، والعامل في [يَوْمَ] هو [وَاقعٌ]، ويجوز أن يكون العامل فيه [دَافع]، والأول أَبين، قال مكيٌّ: لا يعمل فيه [دَافع]، قوله تعالى: [تَمُورُ] معناه: تذهب وتجيءُ بالرياح متقطِّعة متفتِّتة، والغبارُ الموَّارُ: الذي يجتمع ويذهب ويجيءُ بالرياح ثم هو كلُّه إلى ذهاب، ومنه قول الأعرابي: «وَغَادَرَت التُّرَابَ مَوْرا» يصف سنة قحطٍ، وأنشد ابن المثنى:

. . . .   مَوْرُ السَّحابَة لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ[4]

---

(١) يأتي المسجور بمعنى الفارغ في اللغة، وقد روى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خرجت أَمَةٌ لتستقي، فقالت: إن الحوض مسجور، أي: فارغٌ، قال ابن أبي داود: «ليس لذي الرُّمَّة حديث إلا هذا»، وفي اللسان ـ سجر ـ «وبئر سَجِرَةٌ: ممتلئةٌ، المسجور: الفارغ من كل ما تقدم، ضِدٌّ، عن أبي عليٍّ، أبو زيد: المسجور يكون المملوءَ ويكون الذي ليس فيه شيءٌ».

(٢) الآية (٦) من سورة (التكوير).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والأدب، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الأدب، والترمذي وابن ماجه في الجهاد، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، قال: ولقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق قِبَل الصوت، فرجع رسول الله ﷺ وهو يقول للناس: لم تُراعوا، لم تُراعوا، وقال للفرس: وجدناه بحراً، وإنه لبحر، قال أنس: وكان الفرسُ قَبْل ذلك يبطىءُ، قال: ما سُبق بعد ذلك.

(٤) هذا عجز بيت من قصيدة الأعشى المعروفة (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ)، والبيت بتمامه على رواية ابن المثنى:

كَــأَنَّ مِشْيَتَهَــا مِــنْ بَيْــتِ جَــارَتِهَــا   مَــوْرُ السَّحَـابَـةِ لا رَيْـثٌ وَلا عَجَــلُ =



أَراد مُضِيَّها. وقال الضحاك: [تَمُورُ]؛ تموج، وقال مجاهد: تدور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشقق، وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماءَ العالية يعتريها هذا كله.

وسَيْرُ الجبال هو في أَول الأَمر ثم تَتَفَتَّت أَثناءَ السير حتى تصير أَخيراً كالعهن المنفوش[١]. والفاءُ في قوله تعالى: [فَوَيْلٌ] عاطفة جملة على جملة، وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيدَه وإِثباتَ الويل للمكذِّبين، و«الوَيْلُ»: السوءُ والمشقة والهمُّ الأَطول، ويروى أَن في جهنم وادياً يُسمَّى وَيْلاً. و«الخَوْضُ»: التخبُّط في الأَباطيل، يُشبَّه بحوض الماءِ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[٢]، و[يَوْمَ] الثاني بدل من [يَوْمَئِذٍ]، و[يُدَعُّونَ] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: يدفعون في أَعناقهم بشدَّة وإِهانة وتَعْتَعَة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾[٣]، وفي الكلام محذوف مختصر، تقديره: يقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾، وإِخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع. وقرأَ أَبو رجاءِ العُطَاردي[٤]: [يوم يُدْعَون] من الدعاءِ، بسكون الدال وفتح العين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

= أما الرواية المشهورة، وهي التي في الديوان ـ ففيها (مَرُّ السَّحَابة)، وعليها فلا شاهد في البيت، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وفي اللسان أن المَوْرَ هو التَّرَهْيُؤُ، ومعناه: التحرك والمجيءُ والذهابُ كما تتكفَّأ النخلة العيدانة، يصفها بأنها عند عودتها من بيت جارتها تمشي في حركة مترددة وتتمايل في خيلاء، وهي لا تبطىء في مشيتها ولا تسرع بل تمضي في يُسر وسهولة.

(١) العِهْن: الصوف المصبوغ ألواناً، والقطعة منه عِهْنَة، والجمع عهون.

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الأنعام).

(٣) الآية (٢) من سورة (الماعون).

(٤) هو عِمْران بن مِلْحان ـ بكسر الميم وسكون اللام بعدها مهملة ـ، ويقال: ابن تَيْم، أبو رجاءِ العُطَاردي، مشهور بكنيته، وقيل غير ذلك في اسم أبيه، مخضرم، ثقة، معمر، مات سنة خمس ومائة، وله من العمر مائة وعشرون سنة، (تقريب التهذيب) هذا وقد قرأ نفس القراءة ابن السميفع.

لمَّا قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ وُقِفُوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار، وهما: إِمَّا أَن يكون ثَمَّ سحرٌ يُلَبِّس ذات المرئي، وإِمَّا أَن يكون في بصر الناظر اختلال، وأَمرهم بِصَلْيِها على جهة التقريع، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾، أَي: عذابكم حَتْم فسواءٌ جزعكم وصبركم، لا بد من جزاءِ أَعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الآيات. . . يحتمل أَن يكون من خطاب أَهل النار فيكون إِخبارهم بذلك زيادة في غمِّهم وسوءِ حالهم، ويحتمل ـ وهو الأَظهر ـ أَن يكون إِخباراً لمحمد ﷺ ومعاصريه، لما فرغ من ذكر عذاب الكفَّار عقَّب ذلك بنعيم المتَّقين ليبين الفرق ويقع التحريض على الإِيمان. و«المُتَّقُونَ» هنا هم مُتَّقُو الشِّرك لأَنهم لا بُدَّ من مصيرهم إِلى الجنَّات، وكلما زادت الدرجة في التَّقوى قوي الحصول في حكم الآية حتى أَن المتَّقين على الإِطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصَّادق. وقرأَ جمهور الناس: (فَاكِهِينَ)، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أَبو عبيدة: هو من باب «لابِنٍ وتامِرٍ»، أَي لهم فاكهة، والمعنى الأَول أَبرع(١)، وقرأَ خالد فيما حكى أَبو حاتم: (فَكِهِينَ)، والفَكِهُ والفَاكِهُ: المسرور المتنعِّم. وقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَي: من إِنعامه ورضاه عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، هذا متمكن في مُتَّقِي المعاصي الذي لا يدخل النار، ويكون في مُتَّقِي الشِّرك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى: ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم، ويحتمل أَن يكون [الْجَحِيم] من طبقات جهنَّم ليست بمأْوى العصاة من المؤمنين، بل هي مخصصة للكفرة، فهم وإِن عُذِّبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم. وقرأَ الجمهور: (ووَقَاهُمْ) بتخفيف القاف، وقرأَ أَبو حيوة بتشديدها على المبالغة، وذلك كله مُشْتَقٌّ من الوقاية وهي الحائل بين الشيءِ وبين ما يضره. والمعنى: يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾، و[هَنِيئاً] نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه أَن رُتَب الجنة ونعيمها هي بحسب الأَعمال، وأَمَّا نَفْس دخولها فهو برحمة الله تعالى وتغمُّده، والأَكل والشرب والتَّهنِّي ليس من الدخول في شيءٍ، وأَعمال العباد الصَّالحة لا توجب على الله تعالى التنعيم إِيجاباً، لكنه سبحانه قد جعلها أَمَارَةً على من

---

(١) في بعض النسخ: «والمعنى الأول أبدع».



سبق في علمه تنعيمه، وعلَّق الثواب والعقاب بالتكسُّب الذي في الأعمال.

وقوله تعالى: [مُتَّكِئِينَ] نصب على الحال، على حدِّ قوله تعالى: [فَاكِهِينَ]، والعامل في هاتين الحالتين الفعل مقدر في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، ويجوز غير هذا، وفي هذا نظر، وقرأَ أَبو السَّمال: (على سُرَرٍ) بفتح الرَّاءِ الأُولى و[زَوَّجْنَاهُمْ] معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، و«الحُور» جمع حوراءَ، وهي البيضاءُ القوية بياضَ بَيَاضِ العَيْن وسوادَ سوادِها، و«الْعِينُ» جمع عيناءَ، وهي الكسيرة العينين مع جمالهما، وفي قراءَة ابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعي: [وزوجناهم بعيسٍ عين]، قال أَبو الفتح: العَيْسَاءُ: البيضاءُ، وقرأَ عكرمة: [وَزَوَّجْنَاهُمْ حُوراً عِيناً]، وحكى أَبو عمرو عن عكرمة أَنه قرأَ: [بعيس عينٍ] على إِضافة [عِيسٍ] إِلى [عِينٍ][1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأَهل مكة: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقرأَ نافع، وأَبو جعفر، وابن مسعود ـ بخلاف عنه ـ وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وشيبة، والجحدري، وعيسى: [واتَّبَعَتْهُم ذرّيتهُم بإيمان ألحقنا بهم ذُرِّيَّاتِهِمْ]، وروى خارجة عنه مثل قراءَة حمزة، وقرأَ ابن عامر، وابن عباس، وعكرمة، وابن جُبَيْر، والضحاك: [واتبعتهم ذُرِّيَّاتُهُمْ بإيمان ألحقنا بهم ذرياتِهِمْ] وقرأَ أَبو عمر، والأعرج، وأَبو رجاء، والشعبي، وابن جبير، والضحاك: [وأَتْبَعْنَاهم ذُرِّياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذَرِيَاتهم]، فلكون «الذُّرِّيَّة»

---

(١) قال أبو الفتح بن جني: العيساءُ: البيضاءُ، والأعْيَس: الأبيض، ومثله: جملٌ أعيسٌ وناقة عيساءُ، قال في وصف امرأةٍ:

كَأَنَّهَا البَكْرَةُ العَيْسَاءُ

وفي اللسان أن العيساءَ هي البيضاءُ التي يخالط بياضها شيءٌ من شُقْرة.



جمعاً في نفسه حسُن الإفراد في هذه القراءَات، ولكون المعنى يقتضي انتشاراً وكثرةً حسُن جمع الذُّرِّيَّة في قراءَة من قرأ: [ذُرِّيَّاتِهِمْ].

واختلف الناسُ في معنى الآية ـ فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر، والجمهور: أخبر الله تعالى أَن المؤمنين الذين تتَّبعهم ذرِّيَّتهُمْ في الإيمان فيكونون مؤمنين كآبائهم ـ وإِن لم يكونوا في التقوى والأَعمال كالآباءِ ـ فإِنه يُلْحِق الأَبناءَ بمراتب أُولئك الآباءِ كرامةً للآباءِ، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ[١]، فجعلوا الحديث تفسير الآية، وكذلك وردت أَحاديث تقتضي أَن الله تعالى يرحم الآباءَ رعياً للأَبناءِ الصالحين[٢]، وذهب بعض الناس إِلى إِخراج هذا المعنى من هذه الآية، وذلك لا يترتب إِلاَّ بأَن نجعل اسْمَ «الذُّرِّيَّة» بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[٣]، وفي هذا نظر، وقال ابن عباس أَيضاً، والضحاك: معنى هذه الآية أَن الله تعالى يلحق الأَبناءَ الصغار بأَحكام الآباءِ المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإِسلام، وفي أَحكام الآخرة في الجنة، وحكى أَبو حاتم عن الحسن أنه قال: الآية في الكبَار من الذُّرِّيَّة وليس فيها من الصغار شيءٌ، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار لا في الكبار، وحكى الطبري قولاً معناه أَن الضمير في قوله تعالى: [بِهِمْ] عائد على الذُّرِّيَّة، والضمير الذي بعده في [ذُرِّيَّاتِهِمْ] عائد على [الَّذِينَ]، أَي: اتَّبعهم الكبار وأَلْحقنا نحن بالكبار الصغار، وهذا قولٌ مستكره.

وقوله تعالى: [بِإِيمَانٍ] هو في موضع الحال، فمن رأَى أَن الآية في الأَبناءِ الصغار

---

(١) وهو حديث أخرجه سعيد بن منصور، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لِتقَرَّ بهم عينه»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية، وأخرج البزار، وابن مردويه رفعه إلى النبي ﷺ، كذلك رواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم، قال أبو جعفر: «فصار الحديث مرفوعاً عن النبي ﷺ، وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جلَّ ثناؤه».

(٢) منها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب قد عملتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ الآية.

(٣) من الآية (٤١) من سورة (يس).



فالحال من الضمير في قوله تعالى: [اتَّبَعَتْهُمْ]، فهو من المفعولين، ومَنْ رأى أن الآية في الأَبناءِ الكبار فيحتمل أَن يكون الحال من المفعولين، ويحتمل أَن يكون من المتَّبعين الفاعلين، وأرجح الأَقوال في هذه الآية القول الأَول؛ لأَن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إِلى أَهل الجنة، فذكر من جملة إِحسانه أَنه يرعى المُحْسِن في المسيءِ، ولفظة [أَلْحَقْنَا] تقتضي أَن للمُلْحَق بعض التقصير في الأَعمال.

وقرأَ الجمهور من القراءِ: (أَلَتْنَاهُمْ) بفتح اللام من «أَلَتَ»، وقرأَ ابن كثير، وأَبو يحيى، وشبل: (أَلِتْنَاهُمْ) من «أَلِتَ» بكسر اللام، وقرأَ الأَعرج: [وَمَا آلَتْنَاهُمْ] على وزن أَفْعَلْنَاهُمْ، وقرأَ ابن كعب، وابن مسعود: [لِتْنَاهُمْ] من «لات»، وهي قراءَة ابن مصرف، ورواها القواسُ عن ابن كثير، وتحتمل قراءَة من قرأَ: [أَلَتْنَاهُمْ] بفتح اللام أَن تكون من «أَلات» فإِنه يقال: أَلاتَ يُليتُ إِلاَتَةً، ولاَتَ يَليتُ ليتاً، وآلَتَ يُؤلِتُ إِيلاَتاً، وأَلَتَ يأْلَتُ، وأَلِتَ يَأْلِتُ إِلْتاً، وَوَلَتَ يَلِتُ وَلْتاً، كلها بمعنى بعض(١).

ومعنى هذه الآية أَن الله تعالى يلحق المقصِّر بالمحسن ولا يُنقص المحسن من أَجره شيئاً، وهذا تأْويل ابن عباس، وابن جُبَير والجمهور، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أَن يريد: من عملهم الحسن والقبيح، ويكون الضمير في [عَمَلهمْ] عائداً على الأَبناءِ، وهذا تأْويل ابن زيد، ويُحَسِّن هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، والرَّهين: المُرْتَهَنُ، وفي هذه الأَلفاظ وعيد، وحكى أَبو حاتم عن الأَعمش أَنه قرأَ: [وَمَا لَتْنَاهُمْ] بغير أَلف وبفتح الَّلام، قال أَبو حاتم: لاتجوز هذه القراءَة على وجه من الوجوه.

و«أَمْدَدْتُ الشَّيْءَ» إِذا سيرتَ إِليه شيئاً آخر يكثِّره أَو يكثر لديه، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ إِشارة إِلى ما روي من أَن المُنَعَّم إِذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يَخْتَرُ(٢)، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ، وبالجملة لا كلفة في الجنة.

---

(١) نقل هذا كله أبو الفتح ابن جني عن قطرب، وذكرمعاني أخرى للفظة «أَلَتَ»، واستشهد على كلامه بالشِّعر العربي، راجع المحتسب (٢ـ٢٩٠). والمراد من كلامه أن جميع هذه الصِّيَغ بمعنى واحد.

(٢) أي: يَفسُد ويُنْتن، يقال: خَتِرَ اللحم والتمر والجوز خُتوراً، ويَخْتَرُ ختراً بمعنى: فسد وأنتن، وفي الحديث الشريف: «لولا بنو إسرائيل ما أنتن اللحم ولا خَتِرَ الطعام». اللسان.



و[يَتَنَازَعُونَ] معناه: يتعاطون، ومنه قول الأخطل:

نَـازَعْتُـهُ طَيِّـبَ الـرَّاحِ الشَّمـولِ وَقَـدْ صَاحَ الدَّجاجُ وَحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[١]

و«الكَأْسُ»: الإناءُ وفيه الشراب، ولا يقال في فارغ «كأسٌ»، قاله الزجاج، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: (لاَ لَغْوٌ) بالرفع (وَلاَ تَأْثِيمٌ) كذلك، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن: [لاَ لَغْوَ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمَ] بالنصب على التبرية، وعلى الوجهين، فقوله تعالى: [فِيهَا] هو موضع الْخَبَر، وأَغْنَى خبر الأول عن ذكر خبر الثاني، و«اللَّغْوُ»: السقط من القول، و«التَّأثيم» يلحق خمر الدنيا في نفس شُرْبها وفي الأَفعال التي تكون من شُرَّابها، وذلك كله مرتفع في الآخرة.

و«اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ» أَجمل اللُّؤْلُؤ لأَن الصَّوْن والكِنَّ يُحَسِّنه، وقال ابن جبير: أَراد أنه الذي في الصَّدف لم تَنَلْهُ الأَيدي، وقيل للنبي ﷺ: إذا كان الغلمان كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدومون؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم كالقمر ليلة البدر»[٢]، ثم وصف تعالى عنهم أَنهم في جملة تَنَعُّمهم يتساءَلون، أَي عن أَحوالهم وما نال كل واحد منهم، وأَنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تساؤُلهم إذا بُعثوا في النفخة الثانية، و«الإِشفاقُ» أَشد الخشية ورقَّة القلب، وقد قرأَ أَبو حيوة: (وَوَقَّانَا) بتشديد القاف، وقرأَ الجمهور بتخفيفها،

---

(١) الضمير في (نازعته) يعود على شارب كان يشرب معه، وهو في بيت قبل هذا البيت يقول فيه:

وَشَـارِبٍ مُـرْبِـحٍ بـالكَـأسِ نـادَمَنـي لا بِـالْحَصـورِ وَلا فيهـا بِسَـوَّارِ

ومعنى مُرْبح أنه يذبح للضيوف الرُّبَعَ وهو الفُصْلان الصغار، واحدها رابح، والحصور: الضَّيِّق البخيل، والسَّوَّار: المعربد الوثاب، وتنازعنا الشراب: تناولناه بعضنا من بعض، فهو يعطيني وأنا أُعطيه، والرَّاح: الخمر، والشمول: الخمر أيضاً، سميت بذلك لأنها تشمل بريحها الناس، وقيل: الشمول هي الخمر الباردة، والدجاج يراد به هنا الديوك، يعني أن وقت السحر قد حان، وإذا قيل: هذا دجاج فهم يريدون الديوك، وإذا قيل: هذه دجاج فهم يريدون الأنثى، والسَّاري: السائر بالليل، وَوَقْعَة السَّاري من قولهم: وقعت الإبل إذا بَركت، ويروى: (وَقْفَة) بالفاء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، قال: بلغني أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذا الخدم مثل اللؤلؤ، فكيف بالمخدوم؟ قال: «والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم»، هكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور، وفي لفظ لابن جرير «إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».



وأَمال عيسى الثقفي (وَقَانَا) بتخفيف القاف، و«السَّمُوم»: الحارُّ، قال الرُّمَّاني: هو الذي يبلغ مسامَّ الإنسان، وهو النار في هذه الآية، وقد يقال في حرِّ الشمس وفي الريح: سَمُوم، وقال الحسن: السَّمُوم اسم من أَسماءِ جهنم. و[نَدْعُوهُ] يحتمل أَن يريد: نعبده، ويحسن هذا على قراءَة من قرأَ: (أَنَّهُ) بفتح الأَلف، وهي قراءَة نافع ـ بخلاف ـ والكسائي، وأَبي جعفر، والحسن، وأَبي نوفل، أَي: من أَجل أَنه، وقرأَ باقي السبعة، والأَعرج، وجماعة: [إِنَّهُ] على القطع والاستئناف، ويحسن مع هذه القراءَة أَن يكون [نَدْعُوهُ] بمعنى نعبده، أَو بمعنى الدعاءِ نفسه، ومن رأَى [نَدْعُوهُ] بمعنى الدعاءِ نفسه فيحتمل أَن يجعل قوله تعالى: [أَنَّهُ] بالفتح هو نفس الدعاءِ الذي كان في الدنيا، و[الْبَرُّ] هو الذي يَبرُّ ويُحسن[1]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

جَاءَتْ مِنَ الْبِيضِ زُعْراً لاَ لبَاسَ لَهَا ... إِلاَّ الـدِّهَـاسُ وأُمٌّ بَـرَّةٌ وأَبُ[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

هذا أَمر لرسول الله ﷺ بالدعاءِ إِلى الله تعالى ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام: فما أَنت بإِنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا مجنون[3]، وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجنِّ الإِنْسَ بهذين الوجهين، فنسبت

---

(١) في اللسان: «البَرُّ من صفات الله تعالى، وهو العطوف على عباده بِبِرِّه ولُطْفه» وفيه: بَرَّ يَبَرُّ ويَبِر بالفتح والكسر.

(٢) البيت في اللسان، وقد ساقه شاهداً على أن «الدُّهْسَة» لونٌ يعلوه أدنى سوادٍ، ويكون في الرمال والمعز، والزَّعَرُ: قِلَّةٌ ورقَّةٌ وتفرُّقٌ في الشَّعر، و«زُعْراً» هنا: جمع أزْعَر وزَعِر، وفي حديث ابن مسعود أن امرأة قالت له: إنِّي امرأة زعراءُ، أي قليلة الشعر، والبَرَّةُ: الرحيمة الكثيرة الحنان، يصف الشاعر جماعة من المعز بأنها أقبلت بلونها الأبيض وشعرها القليل المتفرق، وقد غطَّى لونَها شيءٌ من السواد الخفيف، ولكنها كانت تتمتع برعاية الأب والأم وما يحوطانها من الاهتمام والبر.

(٣) قيل: إن قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ معناه القَسَم، أي: وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون، وقيل: ليس قسماً، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله تعالى من ذلك.



محمداً ﷺ إلى ذلك، فنفى الله تعالى عنه ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية. رُوي أن قريشاً اجتمعت في دار النَّدوة فكثرت آراؤُهم في محمد ﷺ، حتى قال قائل منهم: تربَّصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنَّابغة والأعشى وغيرهم، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية في ذلك.

و«التَّرَبُّص»: الانتظار، ومنه قول الشاعر:

تَـرَبَّـصْ بهَـا رَيْـبَ الْمَنُـونِ لَعَلَّهَـا ... تُطَلَّـقُ يَـوْمـاً أَوْ يَمُـوتُ حَلِيلُهَـا[(١)]

وأنشد الطَّبريّ:

. . . . لَعَلَّهَـــا ... سَيَهْلِك عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْنَحُ[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ وعيدٌ في صيغة أَمر، و«الْمَنُونُ» من أَسماءِ الموت، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، ومن أَسماءِ الدَّهر، وبه فسَّر مجاهد، وقال الأَصمعي: الْمَنُون واحد لا جمع له، وقال الأَخفش: هو جمع لا واحد له.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

و«الرَّيْب» هنا: الحوداث والمصائب لأَنها تريب من نزلت به، ومنه قول النبي ﷺ في أَمر ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذُكر أَن عليًّا رضي الله عنه يتزوج بنت أَبي جهل: «إنما فاطمة بَضعة مني يُريبُني ما أَرابَها»[(٣)]، يقال: أَرابَ وَرَابَ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد ذكروه جميعاً شاهداً على أن التَّربُّص هو الانتظار، وزاد بعضهم أن الفعل (تَرَبَّص) يتعدى بإسقاط حرف الجر، وأن الأصل: تربَّص إلى ريب المنون، وأنَّ (ريب المنون) هو الموت أو حوادث الدهر، والحليل هو الزوج، ومعنى البيت: انتظر الأيام وحوادثها فلعلَّ ذلك يحقق أملك بأن يموت زوجها أو يطلقها.

(٢) هذه هي الرواية التي انفرد بها الطبري لهذا البيت، ومع ذلك وقع تحريف في الكلمة الأخيرة، فوردت في أُصول الطبري ـ كما ذكر مُحَقِّقُهُ ـ «أو شحيح»، وبهذا اختل المعنى والوزن، وحاول الإصلاح فاختار بدلا منها كلمة «تُسَرَّح»، والتَّسريح هو الطلاق ويناسب المعنى، وفي الأصول المخطوطة هنا وردت الكلمة «أو سَيَجْنَح» أي يميل ويبعد عنها، وهو يعني الفراق والطلاق، ومن الغريب أن القرطبي نسب البيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما، لكن المحقق أكرمه الله غيّر ذلك إلى: «قال الشاعر».

(٣) حديث فاطمة رضي الله عنها المشار إليه هنا أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، والترمذي في المناقب، وابن ماجه في النكاح، وهو عن المِسْوَرِ بن مخرمة، من طرق مختلفة، وفيه ـ واللفظ لمسلم ـ أن=

. . . . فَقَدْ رَابَنِي منهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا(١)

وقول الآخر:

وَقَدْ رابَنِي قَوْلُهَا يَا هَنَا ... ه. . . . . (٢)

وأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بتوعُّدهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

وقوله تعالى: [بِهَٰذَآ] يحتمل أَن يشير إِلى هذه المقالة «هو شاعر»، ويحتمل أَن يشير

= المِسْور سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذَنُ لهم، ثم لا آذَنُ لهم، ثم لا آذَنُ لهم، إلاَّ أن يُحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بَضْعَةٌ مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»، وفي رواية: «وإنِّي لستُ أُحَرِّم حلالاً ولا أُحِلُّ حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدُوِّ الله مكاناً واحداً أبداً»، وفي رواية ثالثة: «وإنَّها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً»، قال الراوي: فترك عليٌّ الخِطْبة.

(١) هذا عجز بيت قاله توبة بن الحُمَيِّر في ليلى بنت عبد الله بن الرَّحالة التي أحبها وقال فيها الشعر ولما خطبها إلى أبيها رفض أن يزوجه إيَّاها، والبيت بتمامه:

وَكُنْتُ إذا مـا جِئْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ ... فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورهـا

وكان من خبر توبة أنه كان يزور ليلى بعد أن تزوجت في بني الأدلع، وجاءَ يوماً لزيارتها فإذا هي سافرة لتحذِّره، ولم ير منها البشاشة التي تعوَّدها، فعلم أن ذلك لأمر ما، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى، وتابعه بنو الأدلع ولكنه فاتهم، وقال في ذلك قصيدة منها هذا البيت، والشاهد أن «راب» في البيت بمعنى: فعل ما يُريب، فهي مثل أراب، قال ابن الأثير: هما بمعنى شكَّكَنِي.

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد، والبيت بتمامه:

وَقَدْ رَابَنِي قَوْلُهَا يَا هَنَا ... هُ وَيْحَكَ أَلْحَقْتَ شَرّاً بِشَرّ

والبيت في اللسان، وقد ذكره شاهداً على أن «هَنَاه» اسم من أسماء النداءِ، ومعناه: «يا فُلان»، قال: «وقولهم: يا هَنُ أقْبل، يا رجلُ أقْبل، ويا هنانُ أقبلا، ويا هنونَ أقْبلوا، ولك أن تُدخل فيه الهاءَ لبيان الحركة فتقول: يا هَنَهْ، كما تقولَ: لِمَهْ وسُلْطَانِيَهْ، ولك أن تُشبع الحركة فتتولد ألف فتقول: يا هناهُ أقبل، وهذه اللفظة تختص بالنداء خاصةً، والهاءُ في آخره تصير تاءً في الوصل، ولك أن تقول: «يا هناهُ أقبل» بهاءٍ مضمومة. . . وأنشد أبو زيد لامرىء القيس: (وَقَدْ رابَني. . . البيت. يعني: كنَّا مُتَّهَمَيْن فحققْتَ الأمر»، والشاهد هنا كالشاهد في البيت السابق، ولكن قيل: إن «أرابني في كذا» معناها: شكَّكَني وأوهمني الريبة فيه، فإذا استيقنت قلتَ: «رابني» بغير ألف، راجع اللسان.



إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام، و«الأحلام»: العقول، و[أَمْ] المتكررة في هذه الآية قدَّرها بعض النُّحاة بألف الاستفهام، وقدَّرها مجاهد بـ«بَلْ»، والنظر المحرَّر في ذلك أن منها ما يتقدَّر بـ«بل والهمزة» على حدِّ قول سيبويه في قولهم: «إِنَّهَا لإِبلٌ أَمْ شَاءٌ»، ومنها ما هي معادلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وقرأ مجاهد: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وهو معنى قراءَة الناس إلاَّ أن العبارة بـ[أَمْ] خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ، وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال: «ما في سورة الطُّور من استفهام كلُّه استفهام وليس بعطف»، و[تَقَوَّلَهُ] معناه: «قال عن الغير: إنه قاله»، فهي عبارة عن كذب مخصوص.

ثم عجَّزهم تعالى بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾، والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز، واختلف الناس، هل كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيءِ محمد ﷺ؟ فقال شُذَّاذٌ يُسَمَّوْن أهل الصرفة: كانت قادرة وصُرفت، وقال الجمهور: لم تكن قطُّ قادرة، ولا في قدرة البشر أن يأتي بمثله؛ لأن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل، والله تعالى محيط علمُه بكل شيءٍ، فإذا ترتبت اللَّفظة في القرآن عَلِم بالإحاطة التي تصلح أن تَلِيهَا ويَحْسُن معها المعنى، وذلك متعذر في البشر. والهاءُ في [مِثْلِهِ] عائد على القرآن، وقرأ الجحدري: [بحديثِ مِثْلِهِ] بإضافة «الحديث» إلى [مِثْلِهِ]، فإنها[1] ـ على هذا ـ عائدة على محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال الطبري: معناه: أَمْ خُلِقُوا خَلْق الجماد من غير حَيٍّ[2] فهم لا يُؤْمرون ولا يُنْهون كما هي الجمادات عليه؟ وقال آخرون: معناه: أم خُلقوا من غير علَّة ولا لغايةِ عقاب ولا ثواب فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرَّعون؟ وهذا كما تقول: فعلتُ كذا وكذا من غير علَّة، أَي لغير علَّة، ثم وقفهم تعالى على جهة التوبيخ على أنفسهم، أَهم الذين خَلقوا الأَشياءَ فهم لذلك يتكبَّرون؟ ثم خصَّص تعالى من الأَشياءِ السموات والأَرض لعظمها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم تعالى عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤدِّيهم إلى اليقين.

---

(١) أي الهاءُ في [مِثْلِهِ].
(٢) عبارة الطبري أوضح، وهي: «أَخُلِق هؤلاءِ المشركون من غير شيءٍ، أي من غير آباءٍ ولا أُمَّهاتٍ؟».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ بمنزلة قوله تعالى: «أم عندهم الاستغناءُ عن الله تعالى في جميع الأُمور»؟ لأَن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأَشياءِ كلها مِنْ خزائن الله تبارك وتعالى. قال الزهراوي: وقيل: يريد بالخزائن العلم، وهذا قول حسنٌ إذا تُؤُمِّل وبُسط، قال الرُّمَّاني: خزائنه تعالى: مقدوراته. و«المُصَيْطِرُ»: المُسَلَّط القاهر، وبذلك فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، وأَصله بالسِّين، ولكن كتبه بعض الناسِ وقرأَه بالصَّاد مراعاة للطَّاءِ ليتناسب النُّطق، وحكى أَبو عبيدة: «تسيطرتَ عليَّ» إذا اتخذتني خوَلاً.

و«السُّلَّم»: السبب الذي يصعد به، كان ما كان، من خشب أَو بناءٍ أَو حبال أَو غيره، ومنه قول ابن مقبل:

لاَ تُحْـرِزُ الْمَـرْءَ أَحْجَـاءُ الْبِـلاَدِ وَلاَ   تُبْنَى لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلاَلِيمُ[١]

وحكى الرُّمَّاني قال: لا يقال «سُلَّم» إلاَّ لِمَا بُني من الأَدراج وإِنما السُّلَّم المُشَبَّك، وبيت الشِّعر يردُّ عليه، والمعنى: أَلَهُم سُلَّم إِلى السماءِ يستمعون فيه؟ أَي عليه ومنه، وهذه حروف يسدُّ بعضها مسدَّ بعض[٢]، والمعنى: يستمعون الخَبر[٣] بصحة

---

(١) البيت لتميم بن أُبَيِّ بن مُقْبل العَجْلاني، وهو في اللسان، وتُحْرِزُ: تصون وتحفظ، والأَحْجَاءُ: النواحي، مثل الأَرْجاءِ، والواحد فيها حَجاً ورجاً مقصور، ويُروى: أَعْناءُ البلاد، والأَعْناءُ أَيضاً النواحي والجواني، والواحد عِنْو، والسلاليم جمع سُلَّم، وهو الدرجة والمِرْقاة، يذكَّر ويؤنث، وقد سمِّي السُّلَّم سُلَّماً لأنه يُسْلم الإنسان إلى حيث يريد. وقد احتاج الشاعر إلى زيادة الياء في «السلاليم» حتى يسلم الوزن.

(٢) ومثل هذا كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي: على جذوع النخل، وهذا تقدير الأخفش، وأما أبو عبيدة فقدَّره: «يستمعون به».

(٣) يعني أن (يَسْتَمِعُونَ) لها مفعول محذوف تقديره: الْخَبَرَ، وقد جاءت هذه الجملة في بعض الأصول: «يستمعون الجن».



ما يَدَّعون، فليَأْتوا بالحجة المبيِّنة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ الآية... معناه: أَم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتحاؤُهم وتكبُّرهم؟ ثم قال تعالى: أَم تسأَلهم يا محمد على الإيمان بالله تعالى وشرعه أُجرة يُثقلهم غُرْمُها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى: أَم عندهم علم الغيب فهم يُبيِّنُون ذلك للناس سُنناً وشرعاً يكتبونه، وذلك عبادة الأَوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل: المعنى: فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربَّصون به؟ و[يَكْتُبُونَ] بمعنى يحكمون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني تعالى: أَم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى: أَمْ يُريدون كيداً بك وبالشَّرع؟ ثم جزم الخبر بأَنهم هم المكيدون، أَي هم المغلوبون، فسمَّى تعالى غلبتهم كيداً إِذْ كانت عقوبة الكيد.

ثم قال تعالى: أَم لهم إِله غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في صدر إِهلاكهم، ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما يُشركون به من الأَصنام والأَوثان، وهذه الأَشياءُ التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاءَ والتكبُّر والبُعد من الائتمار، فوقَفهم تعالى عليها، أَي ليست لهم، ولا يبقى شيءٌ يوجب ذلك إِلاَّ أَنهم قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسُّبهم وإِيثارهم، فتعلق بذلك عقابهم. ثم وصفهم تعالى بأَنهم على الغاية من العُتُوِّ والتمسُّك بالأَقوال الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ الآية، وذلك أَن قريشاً كان في جملة ما اقترحت «أَن تُسقِطَ السماءَ علينا كِسَفاً»، وهي القِطَعُ، واحدها كِسْفَة، وتُجمع أَيضاً على «كِسْف» كتَمْرَة وتَمْر، وقال الرُّمَّاني: هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوءَ الشمس، فأَخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أَنهم لو رأَوْا كسْفاً ساقطاً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العُتُوُّ والجهل والبعد عن الحق أَن يُغالطوا أَنفسهم وغيرهم ويقولوا: «سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، أَي كثير قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أُخر[1].

---

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (٩٢) من سورة (الإسراء): ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، وقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة (الشعراء): ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: [فَذَرْهُمْ] وما جرى مجراه من الموادعة منسوخ بآية السيف، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: (يَلْقَوْا)، والجمهور على (يُلاَقُوا). واختلف الناس في اليوم الذي تُوُعِّدُوا به ـ فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً، وهذا على تجوُّز، و«الصَّعْقُ»: التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه، ويحتمل أن يكون اليوم الذي تُوعِّدُوا به يوم بَدْر لأنهم عُذِّبوا فيه، وقال الجمهور: التوعُّد بيوم القيامة لأن فيه صعقة تعمُّ جميع الخلائق، ولكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً، وقرأ جمهور القراءِ: [يَصْعَقُونَ] من: صَعِقَ الرَّجلُ بكسر العين، وقرأ أبو عبد الرحمن: [يَصْعِقُونَ] بفتح الياءِ وكسر العين، وقرأ عاصم، وابن عامر، وأهل مكة ـ في قول شبل ـ: (يُصْعَقُونَ) بضم الياءِ وفتح العين، وذلك من: أصعق الرجل غيره، وحكى الأخفش: (صُعِقَ الرجلُ) بضم الصاد وكسر العين، قال أبو علي: فجائز أن يكون منه، فهو مثل «يُصْرَفُونَ»، قال أبو حاتم: وفتح أهل مكة الياءَ في قول إسماعيل.

و[يُغْني] معناه: يكون منه غَناءٌ ودفاعٌ، ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم ـ أي قبله ـ عذاب، واختلف الناس في تعيينه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو بدر والفتح ونحوه، وقال مجاهد: هو الجوع الذي أصاب قريشاً، وقال البراءُ بن عازب، وابن عباس أيضاً: هو عذاب القبر، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما في وجود عذاب القبر بهذه الآية، وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [دُونَ ذَلكَ قَرِيباً ولكن لا يَعْلَمُونَ].

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر لحكم الله تبارك وتعالى والمضيِّ على نذارته وَوَعْده بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، ومعناه: بإدراكنا وأَعْيُن حفظنا لك وحيطتنا، كما تقول: فلان يرعاه الملك بعين، وهذه الآية ينبغي أن يُقدِّرها كلُّ مؤمن في نفسه

فإنها تفسح مضايق الدنيا، وقرأ أبو السَّمال: (بِأَعْيُنَّا) بنون واحدة مشدَّدة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ـ فقال أبو الأحوص عوف ابن مالك[١]: هو التَّسبيح المعروف، أَي يقول في كل قيام: سبحان الله وبحمده، وقال عطاءٌ: المعنى: حين تقوم من كل مجلس، وقال ابن زيد: التسبيح هنا هو صلاة النوافل، وقال الضحاك، وابن زيد: هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة، فقوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الظُّهر والعصر، أَي: حين تقوم من نوم القائلة، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغرب والعشاءُ، وقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: الصُّبح، ومَنْ قال هي النوافل جعل ﴿إِدْبَارَ النُّجُوم﴾: الصُّبح، ومَنْ قال هي النوافل جعل (إِدْبَارَ النُّجوم) ركعتي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أَبي طالب، وأَبو هريرة، والحسن، رضيَ الله عنهم، وقد روي مرفوعاً، ومن جعله التسبيح المعروف جعل قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مثالاً، أَي: حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرُّفك، وحكى منذر عن الضحاك أَن المعنى: حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإِحرام فقل: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدُّك. . .» الحديث[٢].

وقرأَ سالم بن أَبي الجعد[٣]، ويعقوب: (وأَدبار النجوم) بفتح الهمزة بمعنى: وأَعقاب، ومنه قول الشاعر:

---

(١) هو عوف بن مالك بن نَضْلة ـ بفتح النون وسكون الضاد المعجمة ـ الجُشَمي ـ بضم الجيم وفتح الشين المعجمة ـ أبو الأحوص الكوفي، مشهور بكنيته «أبو الأحوص»، ثقة، من الثالثة، قُتل في ولاية الحجاج على العراق. (تقريب التهذيب).

(٢) هذا الحديث أخرجه الترمذي في الصلاة، والنسائي في الافتتاح، وابن ماجه في الإقامة، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٠، ٦٩)، عن أبي سعيد الخدري، ولفظه كما في مسند أحمد: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل واستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولاإلَه غيرك»، ثم يقول: «لا إلَه إلاّ الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه»، ثم يقول: «الله أكبر» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

(٣) هو سالم بن أبي الجعد رافع، الغطفاني الأَشجعي مولاهم، الكوفي، ثقة، وكان يرسل كثيراً، من الثالثة، مات سنة سبع أو ثمان وتسعين، وقيل: مائة أو بعد ذلك، ولم يثبت أنه جاوز المائة. (تقريب التهذيب).



فَـأَصْبَحْـتُ مِـنْ لَيْلَـى الغَـدَاةَ كَنَـاظِـرٍ مَعَ الصُّبْحِ في أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّب[1]

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة.

كمل تفسير سورة الطُّور والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) هذا البيت لقيس بن المُلَوَّح، وهو في الديوان، والأغاني، واللسان. وذكر صاحب اللسان أن المُبَرِّد نسب هذا البيت إلى أبي حَيَّة النُّمَيْري. والمُغَرِّب: الذي يأخذ في ناحية المَغْرب. والشاهد في البيت أن «أعقاب» بمعنى: بَعْده، أو خَلْفه، وأعقاب النجوم بمعنى (أدبار النجوم).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النجم

هي مكِّيَّة بإجماع من المتأولين[١]، وهي أَول سورة أَعلن بها رسول الله ﷺ، وجهر بقراءَتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإِنس غير أَبي لهب فإِنه رفع حفنة من تراب إِلى جبهته وقال: يكفيني هذا[٢]، وسبب هذه السُّورة أن المشركين قالوا: إِنَّ محمداً يتقوَّل القرآن ويختلق أَقواله، فنزلت السُّورة في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾.

أَقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبيهاً منه ليكون معتبراً فيه، حتى تؤول العبرة فيه إِلى معرفة الله تبارك وتعالى، وقال الزهراوي: المعنى: وربِّ النَّجم، وفي هذا قلق مع لفظ الآية، واختلف المتأَولون في تعيين النَّجم المُقسم به ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والفراءُ، وبيَّنه منذر بن سعيد: هو الجملة من القرآن إِذا تنزَّلت، وذلك أَنه رُوي أَن القرآن نزل على النبي ﷺ نجوماً، أَي أَقداراً مقدرة في أَوقات ما، ويجيءُ [هَوَى] ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى نزل، وفي هذا الهُوِيِّ بُعْدٌ وتحاملٌ على

(١) لكن حكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: إلا آية منها، وهي قوله تعالى في الآية ٣٢: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية. قال القرطبي: والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال: هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، وروي أيضاً مثله عن عبد الله، وفيه أن الرجل الذي أخذ كفًّا من تراب هو أُمية بن خلف، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام مسلم، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدرّ المنثور.



اللُّغة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[١]، والخلاف في هذا كالخلاف في ذلك، وقال الحسن، ومعمر ابن المثنى، وغيرهما: النجم هنا اسم جنس، أَراد: والنجوم إِذا هوت، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى [هَوَى] ـ فقال جمهور المفسرين: هَوى للغروب، وهذا هو السابق إِلى الفهم من كلام العرب، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو حمزة اليماني: هَوَى عند الانكدار في القيامة، فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ: هوى في الانقضاض في أَثر العفْرِيَة[٣]، وهي رجوم الشياطين[٤]، وهذا القول تُساعده اللغة، والتأْويلات في [هَوَى] محتملة كلُّها قويةٌ، ومن الشاهد في النَّجم الذي هو اسم الجنس قول الرَّاعي:

فَبَـاتَـتْ تَعُـدُّ النَّجْـمَ فـي مُسْتَحيـرَةٍ   سَرِيعٍ بِأَيْدِي الأَكِلِينَ جُمُودُهَا[٥]

يصف إِهالةً صافية، والمُسْتحيرة: القِدْرُ التي يُطبخ فيها، قاله الزجاج، وقال الرُّمَّاني: هي شحمة صافية حين ذابت. وقال مجاهد، وسفيان: النَّجم في قَسَم الآية: الثُّرَيَّا، وسقوطها مع الفجر هو هويُّها، والعرب لا تقول النجم مطلقاً إِلا للثريا ومنه قول العرب: «طَلَع النَّجْمُ عشاءَ، فابْتَغى الرَّاعي كسَاءَ، طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ، فابْتَغى

---

(١) الآية (٧٥) من سورة (الواقعة)، وقد نقل الفراءُ عن عبد الله أنه قال عن قراءة الكسائي: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: هو مُحْكم القرآن.

(٢) الآية (٢) من سورة (الانفطار).

(٣) في اللسان قال الخليل: «شيطان عِفْرِيةٌ وعِفْرِيتٌ، وهم العَفَارِيةُ والعَفَاريت، والعِفْرِيَةُ: الداهية».

(٤) وهي التي أشار إليها قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾.

(٥) الراعي هو حُصَين بن معاوية النُّمَيْري، لُقِّب بالرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، والبيت في اللسان، وفي حماسة أبي تمام، وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة، والمستحيرة: الجَفْنَة أو القِدْر التي يُطْبخ فيها، سمِّيت مستحيرة لأن الدَّسم يتحير فيها، والشاعر يتحدث في البيت عن امرأة أضافها، وقال: إنها كانت تَعدُّ النجم في هذه القِدْر، وأراد بالنجم كما قال صاحب اللسان: الثُّرَيَّا؛ لأن فيها ستة أنْجم ظاهرة يتخللها نجوم صغار خفية، وابن عطية يقول: إن النجم هنا اسم جنس يراد به جميع النجوم، ومعنى(تعدُّ النجم) أنها النجوم في هذه المستحيرة وتستطيع أن تَعُدَّها ـ من العَدَد ـ لأنها صافية والنجوم ظاهرة فيها، قال أبو العلاء: وقد يجوز هذا الوجه، وقد يحتمل أن يكون (تَعُدُّ) بمعنى: تحسب وتظن، بمعنى أن المرأة تظن أن النجم في القدر لما تراه من بياض الشحم، وهذا الشحم الصافي الذي ذاب في القدر يجمد بسرعة عندما يأخذه الآكلون بأيديهم ويَبْعُد عن النار.

الرَّاعي شُكَيَّةْ»[١]، و[هَوَى] ـ على هذا القول ـ يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار[٢]، و«هَوَى» في اللُّغة معناه: خرق الهواءَ ومقصده السُّفْل، أَو مَصيره وإِن لم يقصده، ومنه قول الشاعر:

هَــوَى ابْنــي مِــنْ شَفَــا جَبَــلٍ ... فَـــزَلَّـــتْ رِجْلُـــهُ وَيَـــدُهْ[٣]

وقول الشاعر:

وَإِنَّ كَـلاَمَ الْمَـرْءِ فـي غَيْـر كُنْهِـه ... لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فيها نِصَالُهَا[٤]

وقول زهير:

. . . . هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَسْلَمَهَـا الـرِّشَـاءُ[٥]

---

(١) ذكر هذا السجع صاحب اللسان في (نجم)، قال: «وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، أقسم الله تعالى بالنجم، وجاء في التفسير أنه الثُّرَيَّا، وكذلك سمتها العربُ، ومنه قول ساجعهم: طلع النَّجم عشاءً... الخ والشُّكِيَّةُ هي الشَّكْوَى، يقال: شكوتُ فلاناً أشْكُوهُ شَكْوَى وشِكَايَةً وشَكِيَّةً وشكاةً.

(٢) أي: التَّناثر في جهات متفرقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، والمعنى: انتَثَرَتْ.

(٣) هَوى: سقط إلى أسفل وهو لم يقصد ذلك، وهذا هو موضع الشاهد، والشَّفا: حرف الشيءِ وحدُّه، قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، وزلَّ: زَلِقَ، ولم أقف على قائله.

(٤) البيت في اللسان غير منسوب، قال: «كُنْهُ كلِّ شيءٍ: قَدْرُهُ ونهايته وغايته... تقول: بلغت كُنْه هذا الأمر، أي غايته، وفعلتُ كذا في غير كنهه، وأنشد: (وَإِنَّ كلامَ المَرْءِ في غَيْر كُنْهِهِ.... البيت)، ولا يُشتق منه فعل، والنَّبْل: السهام، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، لا يقال نبلة، وتَهْوي: تسرع إلى الرَّمية، والنَّصْلُ: حديدة السَّهْم، يقول الشاعر: إن كلام المرءِ في غير مكانه ووقته وبدون هدف كالنَبل يرمي بها الإنسان وليس فيها نصلها، فهي لا تصيب هدفاً ولا تحقق غاية ولا قيمة لها ولا نتيجة.

(٥) هذا عجز بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى، والبيت بتمامه:

فَشَـجَّ بِهَـا الأَمَـاعِـزَ فَهْـي تَهْـوِي ... هُـوِيَّ الـدَّلْـو أَسْلَمَهَـا الـرِّشَـاءُ

والبيت في الديوان، وفي اللسان، والشاعر يصف فيه حماراً وحشياً يقود قطيعاً من الأتن في أرض وعرة، فالفاعل بالفعل «شَجَّ» هو الحمار، والضمير في «بها» يعود على الأُتن، وشَجَّ الأرض معناها: ركب الأرض وعلاها، والأماعز: حُزون الأرض الكثيرة الحَصَى، وتَهْوي: تُسرع في انطلاقها وسط هذه الحُزون، والرشاءُ: الحبل الذي ترفع به الدلو من البئر، ومعنى «أسلمها» تركها وانقطع فهي تسقط بسرعة، يشبه زهير هذه الأتن وهي تجري بسرعة كبيرة وسط هذه الأرض الجرداء وخلف هذا الحمار الذي يقودها، يشبهها في سرعتها وانقضاضها، بالدَّلو التي انقطع حبلها وهي ملأى بالماء فاندفعت تهوي إلى أسفل.



ومنه قولهم للجراد: الهاوي[١]، ومنه: هُوِيُّ العقاب.

والقَسَم واقع على قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، و«الضَّلَالُ» أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه، و«الغيُّ» شيءٌ كأنك تتكسَّبه وتريده، فنفى الله تعالى عن قلبه هذين الحالين، وغَوَى الرجل يَغْوي إذا سلك سبيل الفساد والعِوَج، نفى الله تعالى عن نبيِّه ﷺ أن يكون ضلَّ في هذه السبيل التي أَسلكه الله تعالى إيَّاها، وأثبت الله تعالى في سورة الضُّحى أنه قد كان قبل النُّبُوَّة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرُّشد بعدها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ يريد تعالى محمداً ﷺ أنه ليس بمتكلم عن هواه، أي بهواه وشهوته، وقال بعض العلماءِ: المعنى: وما ينطق القرآن المنزل عن هوًى وشهوة، ونسب تعالى النطق إليه من حيث يُفهم منه، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾[٣]، وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ يُراد به القرآن بإجماع، والوحيُ: إلقاءُ المعنى في خفاءٍ، وهذه العبارة تعم المَلَك والإلهام والإشارة وكل ما يُحفظ من معاني الوحي. والضمير في قوله تعالى: [عَلَّمَهُ] يحتمل أن يكون للقرآن، والأظهر أنه لمحمد ﷺ، وأمَّا المُعَلِّم فقال قتادة، والربيع، وابن عباس: هو جبريل عليه السلام، أي: علَّم محمداً ﷺ القرآن، وقال الحسن: المُعَلِّم الشَّديد القُوى هو الله تعالى، «والْقُوَى» جمع قُوَّة، وهذا في جبريل عليه السلام متمكن، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٤]، و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ معناه: ذو قُوَّة، قاله قتادة، وابن زيد، والربيع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحلُّ الصَّدقة لِغَنِيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٥]، وأَصْل المِرَّة من مرائر الحبل[٦] وهي فتله وإِحكام عمله، ومنه قول امرىء القيس:

---

(١) إذا أجدب الناس قال العرب: «أتى الهاوي والعاوي، فالهاوي: الجراد، والعاوي: الذئب» (من اللسان).

(٢) وذلك في قوله تعالى في سورة الضُّحَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية).

(٤) الآية (٢٠) من سورة (التكوير).

(٥) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد عن عبد الله بن عمرو. والسَّوِيُّ: الصحيح السليم الأعضاء.

(٦) في اللسان: «المرائر: الحبال المفتولة على أكثر من طاق، واحدها مرير ومريرة» وفيه «كلُّ قُوَّة من قوى الحبل مِرَّة، وجمعها مِرَر».

. . . . بِكُلِّ مُمَرِّ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[1]

وقال قوم ممن قال إنَّ «ذا المرَّة» جبريل: معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو هيئة حسنة، وقال آخرون: بل معناه: ذو جسم طويل حسن، وهذا كله ضعيف[2].

و[اسْتَوَى] مُسْند إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال: إنه المُتَّصف بقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وكذلك يجيءُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صفةً لله تعالى على معنى: وعظمتُه وقدرتُه وسُلطانُه نتلقى نحن أنه بالأُفق الأعلى، ويجيءُ المعنى نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[3]، ومن قال: إن المتَّصف بقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو جبريل عليه السلام قال: إن [اسْتَوَى] مستند إلى جبريل عليه السلام، واختلفوا بعد ذلك ـ فقال الربيع، والزجاج: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام في الجوِّ وهو إذ ذاك بالأُفق الأَعلى، فرآه رسول الله ﷺ بحراءَ قد سدَّ الأُفق، له ستمائة جناح، وحينئذٍ دنا من محمد ﷺ حتى كان قاب قوسين، وكذلك هو المرئي ـ في هذا القول ـ في «النَّزْلَة الأُخرى» في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السِّدرة، وقال الطبري والفراءُ: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني محمداً ﷺ وقد تقدَّم ذكره في الضمير في [عَلَّمَهُ]، وفي هذا التأويل العطفُ على المُضْمر المرفوع دون أَن يؤكد، وذلك عند النحاة مستقبح، وأَنشد الفراءُ حُجَّةً على قوله:

---

(١) هذا عجز بيت لامرىء القيس، روي بهذه الألفاظ، وورد هكذا في الأصول، ولكن الرواية الثابتة في الديوان، وفي شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري، وفي موسوعة الشعر العربي تختلف عن ذلك، وليس فيها شاهد هنا، والبيت بتمامه كما في الديوان:

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ويروى: (كأَن نجومه بأَمْرَاسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ)، وقد قال ابن الأنباري: إن الأصمعي لم يرو هذا البيت ضمن معلقة امرىء القَيس، ورواه يعقوب وغيره، قال يعقوب: معناه: كأن نجومه شُدَّتْ بِيَذْبُل، وهو الجبل، والمغار: الحَبْل الشديد الفتل، وكذلك (مُمَرُّ الفتل) معناه: مُحْكَم الفتل، وقوله: (مِنْ لَيْلٍ) معناه التفسير للتعجب، ولم يستشهد بهذا البيت أحد من المفسرين المعروفين كالطبري والقرطبي والزمخشري، لأن الرواية الصحيحة ليست فيها كلمة (مِرَّة أو مُمَرّ).

(٢) استشهد المفسرون على ذلك بأبيات من الشعر، ولكن ابن عطية لم يقبلها ويرى أنها أقوال ضعيفة.

(٣) الآية (٥) من سورة (طه).



أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ النَّبْـعَ يَصْلُـبُ عُـودُهُ ولا يَسْتَوِي وَالْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ[1]

وقد ينعكس هذ الترتيب فيكون [اسْتَوَى] لمحمد ﷺ، و[هُوَ] لجبريل عليه السلام، وأَمَّا [الأَعْلَى] فهو عندي لِقِمَّةِ الرأس وما جرى معه، وقال الحسن وقتادة: هو أُفُق مَشْرق الشمس، وهذا التخصيص لا دليل عليه.

واختلف الناس، إلى من استند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ـ فقال الجمهور: استند إلى جبريل عليه السلام، أَي: دنا إلى محمد ﷺ عند حراءٍ، فقال ابن عباس، وأَنس رضي الله عنهم في حديث الإسراءِ ما يقتضي أنه مُسْتند إلى الله تعالى، ثم اختلف المتأولون ـ فقال مجاهد: كان الدُّنُوُّ إلى جبريل عليه السلام، وقال بعضهم: كان إلى محمد ﷺ، و﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ـ على هذا القول ـ معه حذف مضاف، أَي دنا سُلطانه ووحيُه وقَدْرُه، والانتقال وهذه الأَوصاف منتفيةٌ في حق الله تبارك وتعالى.

والصحيح عندي أَن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، فإن ذلك يقتضي بنزلة متقدمة، وما روي قط أَن محمداً ﷺ رأى ربَّه عزَّ وجلَّ قبل ليلة الإسراءِ، أَما إِنَّ رؤْية القلب لا تُمنع بحال.

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن)، والرواية فيه (يُخْلَق) بدلا من (يَصْلُبُ)، والنَّبع: شجر صلب متين ينبت في أعالي الجبال، ومن خشبه تُتَّخذ القِسيُّ والسِّهام، والخِرْوَعُ: شجر ليِّن يتقصف بسهولة، ومن بذوره الملساء الكبيرة الحجم يُستخرج زيت الخِرْوَع، وهو بكسر الخاء، أما الخَرْوع بفتح الخاء فهو المرأة الفاجرة أو الناعمة التي تتثَنَّى ليناً، وفرق كَبير بين النَّبع والخِروع فلا يستوي الخروع بالنبع في الصلابة والمتانة، وهذا هو معنى البيت، أما الشاهد فيه فقد وضَّحه الفراء بقوله: «استوى هو وجبريل بالأفق الأعلى لمَّا أُسري به، وهو مطلع الشمس الأعلى، فأضمر الاسم في (اسْتَوَى)، ورد عليه (هُوَ)، وأكثر كلام العرب أن يقولوا: استوى هو وأبوه، ولا يكادون يقولون: استوى وأبوه، وهو جائز لأن في الفعل مُضْمَراً، أنشدني بعضهم: أَلَمْ تَرَ أَن النَّبْعَ. . . . البيت»، ومعنى ذلك أنه تمَّ عطف (هُوَ) الضمير البارز على الضمير المستتر في (اسْتَوَى)، وفي البيت هنا عطف (الخِروع) على الضمير المستتر في (يستوى)، ومثله في ذلك قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ فقد عطف (الآباء) على الضمير في (كُنَّا)، وحسَّن ذلك الفصلُ بينهما بقوله: (تُرَاباً).

هذا هو الرأي الذي قاله الطبري واستشهد بكلام الفراءِ، وقد علَّق عليه الإمام ابن كثير في تفسيره فقال: «وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤيا لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلةً أُخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء».



[ودَنَا] أَعم من [تدَلَّى]، فبيَّن تعالى بقوله: [فَتَدَلَّى] هيئة الدُّنُوِّ كيف كانت. و[قَابَ] معناه: قَدْرَ، وقال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إِلى طرفه الآخر، وقال الحسن ومجاهد: من الوَتر إِلى العود في وسط القوس عند المقبض. وقرأ محمد بن السَّمَيْفَع اليماني: «وكان قيسَ قَوْسَيْنِ»، والمعنى قريب من قاب، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «لَقَابُ قَوْسِ أَحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[١]، وفي حديث آخر «لَقَابُ قوس أَحدكم في الجنة». وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ معناه: على مقتضى نظر البشر، أَي: لو رآه أَحدكم لقال في ذلك: قوسان أَو أدنى، وقال أَبو رزين: ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أَو أَدنى، وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأَطوال، وذكره الثعلبي وأَنه من لغة الحجاز.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فأَوحى الله تعالى إِلى عبده محمد ﷺ ـ ما أَوحى، وقال بعض العلماءِ: المعنى: فأَوحى الله تعالى إِلى عبده جبريل ـ عليه السلام ـ ما أَوحى، وفي قوله تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ إِبهام على جهة التفخيم والتعظيم، والذي عُرف من ذلك فرض الصلاة. وقال الحسن: المعنى: فأَوحى جبريل إِلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أَوحى، كالأَول في الإِبهام، وقال ابن زيد: المعنى: فأَوحى جبريل إِلى عبد الله ما أوحى الله تعالى إِلى جبريل عليهما الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، قرأَ جمهور القُرَّاءِ بتخفيف الذَّال على معنى: لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيءَ الذي رأَى بل صدَّقه وتحقَّقه نظراً، و«كَذَبَ» يَتعَدَّى، وقال أَهل التأْويل ـ ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبُو صالح ـ: رأَى محمد ﷺ الله تعالى بفؤاده، وقال النبي ﷺ: «جعل الله تعالى نور بصري في فؤادي فنظرتُ إِليه بفؤادي»[٢]، وقال آخرون من المتأَولين: ما رآه بعينه لم يكذب ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، وبدء الخلق، والرقاق، والترمذي في فضائل الجهاد، وأحمد في مسنده (٢ـ٤٨٢، ٣ـ١٤١)، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَقَابُ قوسٍ في الجنَّة خيرٌ مما تطلع عليه الشمس وتغرب»، وقال: «لَغَدْوَةٌ أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب».

(٢) هذا جزءٌ ورد في آخر حديث الخصومات من رواية لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال عَنْها=

قلبه بل صدَّقه وتحققه، ويحتمل أَن يكون التقدير: «فيما رأى»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما رُوي عنه ـ وعِكْرِمة، وكعب الأَحبار: إن محمداً ﷺ رأَى ربَّه عزَّ وجلَّ بعيني رأْسه، ويبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم، وأَبت عائشة رضي الله عنها، وقالت: أَنا سأَلت رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقال لي: «هو جبريل فيها كلها»[1]، وقال الحسن: المعنى: ما رأَى من مقدورات الله تعالى وملكوته، وسأَل أَبو ذرٍّ

= ابن كثير: فيها زيادة غريبة، وبعد أن نقل الحديث قال: وإسناده ضعيف، وحديث الخصومات أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه، وقال عنه الإمام ابن كثير: «وهو حديث المنام المشهور»، يعني أن الرؤيا التي وردت فيه كانت مناماً، وكذلك أخرجه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي، وقال الحسن: صحيح، وأخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس أيضاً وفي أوله: «أتاني ربِّي الليلة في أحسن صورة ـ أحسبه يعني في النوم ـ»، أما رواية ابن جرير التي فيها هذا الجزء الذي ذكره ابن عطية فهي كما في تفسير الطبري: «رأيتُ ربي في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا يا رب، فوضع يده بين كتفيَّ، فوجدت بردها بين ثُدْيَيَّ، فعلمت ما في السموات والأرض، فقلت: يا ربِّ في الدرجات والكفارات ونقلِ الأقدام إلى الجُمُعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فقلت: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلَّمتَ موسى تكليماً، وفعلتَ وفعلتَ، فقال: أَلم أَشرح لك صدرك؟ أَلم أَضع عنك وزرك؟ أَلم أفعل بك؟ ألم أفعل؟ قال: فأفضى إليَّ بأشياءَ لم يؤذن لي أن أحدثكموها، قال: فذلك قوله في كتابه يحدثكموه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي».

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم، ومسلم في الإيمان، وأحمد في مسنده (٦ـ٤٩)، والترمذي في تفسير سورة النجم، وهو عن مسروق، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن الشعبي، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم: قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة ـ وهذه كنية الإمام مسروق ـ ثلاثٌ من تكلم بواحدة فيهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أُمَّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته مُنْهبطاً من السماءِ سادًّا عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض، فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾. قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.



النبيَّ ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: «نورٌ أنَّى أَرَاه»[١] وهذا هو قول الجمهور، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قاطع لكل تأْويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو منتزعٌ من ألفاظ القرآن. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما روى عنه هشام ـ: (ما كذَّب) بتشديد الذَّال، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ، وأَبي جعفر، وقتادة، والجحدري، وخالد، ومعناه بيِّن على بعض ما قلناه، وقال كعب الأَحبار: إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: فكلَّم موسى مرَّتين، ورآه محمد مرَّتين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد قفَّ شعري لسماع هذا، وقلت: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ الآية[٢]. وذهبت هي وابن مسعود، وقتادة، وجمهور العلماءِ إلى أَن المرئي هو جبريل عليه السلام في المرتين: في الأَرض وعند سِدرة المنتهى ليلة الإِسراءِ، وقد تقدَّم ذلك في سورة الإِسراءِ، وهو مشهور في كتب الصحاح.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر هذه السُّورة كلها بفتح أَواخر الآيات فيها، وأَمال عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ (رَأَى)، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، بيْن الفتح والكسر، وأَمال حمزة والكسائي جميع ما في السُّورة، وأَمال أَبو عمرو ـ فيما روى عنه أَبو عبيد ـ (الأَعْلَى) و(تدَلَّى).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ خطاب لقريش، وهو من الْمِرَاءِ، والمعنى: أَتجادلونه في شيءٍ رآه وأَبصره؟ وهذه قراءَة الجمهور وأَهل المدينة، وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وحمزة والكسائي: [أَفَتَمْرُونَهُ] بفتح التاءِ دون أَلف بعد الميم،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في التفسير، وأحمد في مسنده (٥ـ١٥٧، ١٧١، ١٧٥)، عن عبد الله بن شقيق، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم (عن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ أنَّى أراه؟)، قال شراح الحديث: المعنى: حِجابه نورٌ فكيف أراه؟ وقال بعضهم: المعنى: إن النور منعني من الرؤية.

(٢) راجع الهامش (١) من صفحة (١١١) فهو الحديث نفسه. والآية من سورة (الأنعام)، ورقمها (١٠٣).



والمعنى: أَفتجحدونه[١]؟ وذلك أَن قريشاً لما أَخبرها رسول الله ﷺ بأَمره في الإِسراءِ كذَّبوا واستخفُّوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأَمْر عيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإِسراءِ مستقصى، ورواها سعيد عن النَّخَعي: [أَفَتُمْرُونَهُ] بضم التاءِ، قال أَبو حاتم: وذلك غلط من سعيد. وقوله تعالى: [يَرَى] مستقبلاً والرُّؤْية قد مضت عبارة تعُمُّ ما مضى وتشير إِلى ما يمكن أَن يقع بَعْدُ، وفي هذا نظر.

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْرَءَاهُ﴾ حسب ما قدَّمناه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأَحبار: هو عائد على الله تعالى، وقال ابن مسعود، وعائشة، ومجاهد، والربيع: هو عائد على جبريل عليه السلام، و[نَزْلَةً] معناه: مَرَّة، ونصبه على المصدر في موضع الحال. و«سِدْرَةُ الْمُنتَهَى» هي شجرة نبق [٢] قال كعب: هي في السماءِ السابعة، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ[٣]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: في السماء السادسة وقيل لها «سدرة المنتهى» لأَنها إِليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءَها صُعُدا إِلاَّ الله تبارك وتعالى، وقيل: سُمِّيت بذلك لأَنها إِليها ينتهي من مات على سُنَّة النبي ﷺ، وهم المؤمنون حقًّا من كل جيل، وقيل: سُمِّيت بذلك لأَن ما نزل من أَمر الله تعالى فعندها يُتَلَقَّى، ولا يتجاوزها ملائكة العلو، وما صعد من الأَرض فعندها يُتَلَقَّى ولا يتجاوزها ملائكة السُّفل، ورُوي عن رسول الله ﷺ أَن الأُمة من الأُمم تستظل بظلِّ الفَنَن منها[٤]، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) قال ابن خالويه: «الحجة لمن أثبت الألف في [أَفَتُمَارُونَهُ] أنه أراد: أَفتجادلونه، من المماراة والمجادلة بالباطل، ومنه قوله ﷺ: «لا تماروا بالقرآن فإن مِراءً فيه كُفْر»، والحجة لمن حذفها أنه أراد: أفتجحدونه»، واختار أبو عبيد هذه الأخيرة، قال: «لم يُماروه وإنما جحدوه»، ويقال: مَرَيْتُه حقَّه أي جحدتُه، قال الشاعر:

لَئِـنْ هَجَـرْتَ أَخَـا صِـدْقٍ وَمَكْـرُمَـةٍ ... لَقَـدْ مَـرَيْـتَ أَخـاً مَـا كَـان يَمْـرِيكَـا

(٢) النَّبق ـ بكسر الباءِـ: ثمر السِّدْر، والواحدة نَبِقَة، ويقال: نَبْق بفتح النون وسكون الباءِ، وقد ذكر اللغتين ابنُ السكيت في (إصلاح المنطق)، وهي لغة المصريين، والأولى أفصح، وهي التي ثبتت عن النبيﷺ.

(٣) جاء ذلك من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، رواه أحمد في مسنده.

(٤) رواه الترمذي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، قالت: «سمعتُ النبي ﷺ يصف سدرة المنتهى، قال: يسير الراكب في الفَنن منها مائة سنة، يستظل بالفَنن منها مائة راكب. فيها فراش من ذهب، كأن ثمرها القلال». قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن».



«رُفعت لي سِدْرَة المنتهى فإذا نَبِقُهَا مثل قلال هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيَلَة»[١].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾، قال الجمهور: أَراد تعالى أَن يعظم مكان السِّدْرة ويشرفه بأَن جنة المأوى عندها، قال الحسن: وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم، وقال قتادة، وابن عباس ـ بخلاف ـ: هي جنة تأوي إليها أَرواح الشهداءِ والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم، وهذا يحتاج إلى سند، وما أَراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وأَنس بن مالك ـ بخلاف ـ وابن الزبير، وأَبو الدرداءِ، وزرُّ بن حُبَيْش، وقتادة، ومحمد بن كعب: ﴿عِندَهَا جَنَّهُ المَأْوَى﴾ بالهاءِ في (جَنَّهُ)، وهو ضمير محمد ﷺ، والمعنى: سَتَرَه وضمَّه إيواءُ الله تعالى وجميلُ صنعه به، يقال: «جَنَّه الليل وأَجَنَّه»، وردَّت عائشة وصحابة معها رضي الله عنهم هذه القراءَة وقالوا: أَجن الله من قرأَها، والجمهور قرأَ: (جَنَّةُ) كالآية الأُخرى: ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا﴾[٢]، وحكى الثعلبي أَن معنى ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: ضَمَّه المبيتُ والليل[٣]. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾، العامل في [إِذْ] [رَآهُ]، والمعنى: رآه في هذه الحال، و﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ معناه: من قدرة الله تعالى وأَنواع الصِّفات التي يخترعها لها، وذلك مُبْهَم على جهة التفخيم والتعظيم، وقال مجاهد: ذلك تَبَدُّل أَغصانها دُرًّا وياقوتاً ونحوه، وقال ابن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ قال: «رأَيتها ثم حال دونها فراش من الذهب»[٤]، وقال الربيع، وأَبو هريرة: كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر، وقيل غير هذا مما هو تكلُّف في الآية لأَن الله تعالى أَبهم ذلك وهم يريدون شرحه، وقد قال رسول الله ﷺ: «فغشيها أَلوان لا أَدري ما هي»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد، وابن جرير، عن أنس رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) من الآية (١٩) من سورة (السجدة).

(٣) قال أبو حاتم بعد أن ذكر هذه القراءة وما فيها من اختلاف: «والذي عليه اللغة أن «جَنَّهُ اللَّيلُ»: أدركه الليل، وجَنَّ عليه الليلُ، وأَجَنَّهُ: ألبسه سواده».

(٤) رواه الحكيم الترمذي، وأبو يعْلى، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) جاء ذلك في حديث رواه أنس عن أبي كعب الأنصاري، وقد أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه، وفيه يقول النبي ﷺ: «ثم انطلق بي ـ يعني جبريل ـ حتى أتى سِدْرة المنتهى، قال: فغشيها أَلوانٌ=



قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما حال هكذا ولا هكذا[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه: ولا تجاوز الحدَّ المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً، وهذا تحقيق للأمر ونفْيٌ لوجوه الريب عنه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾. قالت جماعة من أَهل التأْويل: لقد رأى الكبرى من آيات ربّه، والمعنى: من آيات ربّه التي يمكن أَن يراها البشر، فـ[الْكُبْرَى] ـ على هذا ـ مفعول بـ[رَأَى]، وقال آخرون: المعنى: لقد رأَى بعضاً من آيات ربّه الكبرى، فـ[الْكُبْرَى] ـ على هذا ـ وصف لـ[آيَاتِ]، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أَبداً على حدِّ وصف الواحدة، وقال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: رأَى رفرفاً أَخضر من الجنة قد سدَّ الأُفق، وقال ابن زيد: رأَى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها في السموات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: [أَفَرَأَيْتُم] مخاطبة لقريش، وهي من رؤْية العين لأَنه أَحال على أَجرام مرئية، ولو كانت «رأَى» التي هي استفتاءٌ لم تَتَعَدَّ.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال ـ على جهة التوقيف ـ: أَرأَيتم هذه الأَوثان وحقارتها وبُعدها عن هذه القدرة والصفات العلية؟

و«اللّات» صنم كانت العرب تُعظِّمه، قال أَبو عبيدة وغيره: كان في الكعبة، وقال

= ما أدري ما هي»، قال: «ثم دخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تُرَابُها المسك»، قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، وليس هو في شيءٍ من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذرٍّ هذا السياق سواء، فالله أعلم».

(١) يعني: ما اعْوَجَّ ولا مال هكذا ولا هكذا، يقال: حال الشيءُ بمعنى: اعْوَجَّ بعد استواءٍ.



قتادة: كان بالطائف، وقال ابن زيد: كان بِنَخْلَة عند سوق عكاظ، وقول قتادة أرجح، ويؤيده قول الشاعر:

وَفَـــرَّتْ ثَقِيـــفٌ إِلَـــى لَاتِهَـــا   بِمُنْقَلَـبِ الْخَـائِـفِ الْخَـاسِـرِ[١]

والتَّاءُ في «اللَّاتِ» لام فعل كالباءِ من «باب، وقال قوم: هي تاءُ التأنيث، والتصريف يمنع ذلك، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح: [اللَّاتَّ] بشدِّ التاءِ، وقالوا: كان هذا الصنم حجراً، وكان عنده رجل من بَهز يلُتُّ سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل وسمَّوه باسمه، ورُويت هذه القراءَة عن ابن كثير، وابن عامر[٢].

و«العُزَّى» صخرة بيضاءُ كانت العرب أَيضاً تعبدها وتُعَظمها، قاله سعيد بن جبير، وقال مجاهد: كانت شُجيرات تعبد ثم لمَّا بليت انتقل أَمرها إلى صخرة، و«عُزَّى» مؤنثة «عزيز» ككُبْرى وعُظْمَى[٣]، وكانت هذه الأَوثان تُعَظَّم وتُعبد، الوثن منها له قبيلة تُعَظِّمه، ويجيءُ كل من عزَّ العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها، وقال أَبو عبيدة مَعْمر: كانت العُزَّى ومناة في الكعبة، وقال ابن زيد: كانت العُزَّى في الطائف، وقال قتادة: كانت بنَخْلة، وأَمَّا مناة فكانت بالمشلَّل من قديد، وذلك بين مكة والمدينة، وكانت أَعظم هذه الأَوثان قدراً، وأَكثرها عابداً، وكانت الأوس والخزرج تُهِلُّ لَهَا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فأَكَّدها بهاتين الصفتين، كما تقول: رأَيت فلاناً وفلاناً، ثم تذكر ثالثاً أَجلَّ منهما فتقول: وفلاناً الآخر الذي من أَمره وشأْنه، ولفظة «آخَر» و«أُخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات، وذلك نصٌّ في الآية، ومنه قول ربيعة بن مكدم:

وَلَقَــدْ شَفَعْتُهُمَــا بِــآخَــرَ ثَــالِــثٍ[٤]

---

(١) ثقيف: قبيلة كانت بالطائف، وهذا دليل على أن «اللات» كانت بالطائف.

(٢) وهي أيضاً قراءة منصور بن المعتمر أبو عتاب السلمي الكوفي المتوفىٰ سنة ١٣٣هـ.

(٣) وقيل: هي واحدة من شجر السَّمُر، وكانت لغطفان، وكانوا يعبدونها وأقاموا عليها بيتاً وجعلوا لها سدنة، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة وهو يقول:

يَـا عُـزَّ كُفْـرَانَـكِ لا سُبْحَـانَـك   إِنِّـي رَأَيْـتُ اللهَ قَـدْ أَهَـانَـك

و«عبد العُزَّى» هو أبو لهب، وقد كنَّاه الله تعالى فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، ولم يُسَمِّه لأن اسمه محال.

(٤) هذا شاهد على أن لفظة «آخَر» يوصف بها الثالث، فالشاعر يقول: لقد أتبعتهما بثالث، وقال عنه: آخر،=

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وَآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ[1]

وقرأ ابن كثير وحده: (وَمَنَاءَةَ) بالهمز والمدِّ، وهي لغة فيها، والأُولى أَشهر وهي قراءَة الناس، ومنها قول جرير:

أَزَيْدَ مَنَاةَ تُوعِدُ يابْنَ تَيْمٍ تَأَمَّلْ أَيْنَ تَاهَ بِكَ الْوَعِيدُ[2]

وقف تعالى الكفارَ على هذه الأَوثان وعلى قولهم فيها؛ لأَنهم كانوا يقولون: هي بناتُ الله، فكأَنه قال: أَرأَيتم هذه الأَوثان وقولكم هي بنات الله؟ أَلَكُمُ الذَّكَر ولَهُ الأُنثى؟ أَي: النَّوْعُ المستحسنُ المحبوبُ هو لكم موجودٌ فيكم، والمذمومُ المستثقلُ عندكم هو له بزعمكم؟ ثم قال تعالى ـ على جهة الإنكار ـ: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾، أَي عوجاءُ، قاله مجاهد، وقيل: [ضِيزَى] معناه: جائرة، قاله ابن عباس وقتادة، وقال سفيان: معناه: منقوصة، وقال ابن زيد: معناه: مُخَالِفَة، والعرب تقول: «ضِزْتُه حقَّه أَضيزُه» بمعنى: منعتُه منه وظلمتُه فيه، و«ضِيزَى» من هذا التصريف، وأَصْلها فُعْلَى بضم الفاءِ «ضُوزَى» لأَنه القياسُ؛ إِذْ لا يوجد في الصفات فِعْلى بكسر الفاءِ، كذا قال سيبويه وغيره، فإِذا كان هذا فهو «ضُوزَى» كسروا أَولها كما كُسِر أَوَّل «عِينٍ وبيضٍ» طلباً

= ولكن في اللسان أن الشَّفيع من الأعداد: ما كان زوجاً، تقول: كان وَتْراً فشفعته بآخر، قال الشاعر:

مَا كَانَ أَبْصَرَنِي بِغِرَّاتِ الصِّبَا فَالآنَ قَدْ شُفِعَتْ لِيَ الأَشْبَاحُ

يعني أنه يحسب الشخص اثنين لضعف بصره، فقد وصف الثاني بلفظ «آخر».

(١) النَّشَم: شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ، وهو من عُتُق العيدان، وهو مثل النَّبْع في المتانة والاستعمال، والثُّمامة: واحدة الثُّمام، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو ما يُشبه الخوص، وربما حُشِيَ به وسُدَّ به خصاص البيوت، والشاهد في البيت هو استعمال لفظ «آخر» صفة العدد الثالث، فقد جعل الشاعر عودين من هذا الشجر المتين القوي المُسَمَّى بالنَّشَم، ثم جعل ثالثاً من هذا النبات الضعيف، ووصفه بأنه «آخر»، ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها جرير يهجو التَّيم، ومطلعها:

أَلا زَارَتْ وَأَهْلُ مِنًى هُجُودُ وَلَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنًى يَعُودُ

والرواية في الديوان: «تبيَّن» بدلا من «تأمل»، ومناة: صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، يعبدونها من دون الله، والهاءُ فيه للتأنيث، ويُسكت عليها بالتاء، وزَيْدُ مناة: ابن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويُقصر، قال ابن بَرِّي: قال الوزير: من قال زيد مناه بالهاء فقد أخطأ. (راجع اللسان).



للتخفيف؛ إِذ الكسرة والياءُ أَخف من الضمة والواو، كما قالوا: «بِيُوتٌ وعِصيٌّ» وهي في الأصل فُعول بضم الفاءِ، وتقول العرب: «ضُزْتُه أَضُوزُه»، فكان يلزم على هذا التصريف أَن تكون «ضُوزَى» فُعْلَى، وفي جميع هذا نظر، وقرأَ ابن كثير: [ضِئْزَى] بالهمز على أَنه مصدر كذِكْرى، وقرأَ الجمهور بغير همز.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ ﴾، يعني تعالى أَن هذه الأَوصاف ـ من أَنها إِناثٌ، وأَنها تُعبد من دون الله آلهة ونحو هذا ـ ما هي إِلاَّ أَسماءٌ، أَي تسمياتٌ اخترعتموها أَنتم وآباؤكم، لا حقيقة لها، ولا أَنزل الله تعالى بها بُرهاناً ولا حُجَّة، وقرأَ عيسى بن عمر: [سُلُطَانٍ] بضم اللام، وقرأَ هو وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش: [إِن تَتَّبِعُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، ونافع، والأَعمش أَيضاً، والجمهور: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ بالياءِ على الحكاية عن الغائب.

و«الظَّنُّ»: مَيْلُ النفس إِلى أَحد معتقدَيْن متخالفَيْن دون أَن يكون ميلها بحجَّة ولا بُرهان، و«هَوَى الأَنْفس» هو إِرادتها الملذة لها، وإِنما تجد هوى الأَنفس دائماً في ترك الأَفضل لأَنها مجبولة بطبعها على حب الملذ، وإِنما يردعها ويسوقها إِلى حسن العاقبة العقلُ والشرع.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين فيه توبيخ لهم؛ لأَن سرد القول إِنما هو: «إِن يتبعون إِلاَّ الباطل وما تهوى الأَنفس أَم للإِنسان ما تمنى»، ثم اعترض بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، أَي: يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحالُ هذه، فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ جملة في موضع الحال. و«الهُدَى» المشار إِليه هو محمد ﷺ وشرعُه، وقرأَ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: [ولقد جاءكم من ربكم] بالكاف فيهما، وقال الضحاك عنهما: إِنهما قرأا: [ولقد جاءك من ربك].

و«الإِنْسانُ» في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ اسم الجنس، كأَنه تعالى يقول: ليست الأَشياءُ بالتمني والشهوات، إِنما الأَمر كله لله تعالى، والأَعمال جارية على قانون أَمره ونهيه، فليس لكم أَيُّها الكفرة مرادكم في قولكم: «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتُقَرِّبنا زلفى» ونحو هذا. وقال ابن زيد، والطبري: الإِنسان هنا هو محمد ﷺ، بمعنى أَنه لم ينل كرامتنا بتأْميل بل بفضل من الله تعالى، أَو بمعنى: بل إِنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إِذ

الكلُّ لله تعالى يهب من يشاءُ، وهذا ما تقتضيه الآية وإن كان اللفظ يعمه.

و«الآخِرَةُ والأُولَى»: الدَّاران، أَي: له كل أَمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ الآية... ردٌّ على قريش في قولهم: «الأَوثان شفعاؤُنا»، كأَنه تعالى يقول: هذه حال الملائكة الكرام فكيف بأَوثانكم؟ و[كَمْ] للتكثير، وهي في موضع رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿لَا تُغْنِي﴾، والغِنَى: جَلْبُ النَّفع ودفع الضرِّ بحسب الأَمر الذي يكون فيه الغِنَى، وجمع الضمير في [شَفَاعَتُهُمْ] على معنى [كَمْ]، ومعنى الآية أَنْ يأْذن الله تعالى في أَن يُشفع لشخص ما يرضى عنه كما أذن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كفَّار العرب، وقوله تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ معناه: ليصفون الملائكة بأَوصاف الأُنوثة، وأَخبر الله تعالى عنهم أَنهم لا علم لهم بذلك، وإِنما هي ظنون منهم لا حُجَّة لهم عليها، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «مِنْ عِلْم إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أَن يُحَرِّر ما يفعل ويعتقد، فإِنها مواضع وحقائق لا تنفع الظُّنون فيها، وأَما في الأَحكام وظواهرها فَيُجْتَزَأُ فيها بالمظنونات. ثم سلَّى تعالى نبيَّه ﷺ وأَمره بالإِعراض عن هؤلاءِ الكفرة، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ معناه أَنه لا يُصدق بغيرها، وسعيُه وعملُه إِنما هو لدنياه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ معناه: هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات، وذلك أَن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة، ومنها ما هي أُمور فانية

---

(١) من الآية (٧) من سورة (غافر).



وأَشخاص بائدة كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرياسة على الناس بالمخرقة، وكلها معلومات ولها علم، ومبلغ علم الكفرة إِنما هو في هذه الدُّنياويَّات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... متصلٌ في معنى التَّسلية بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... وعيدٌ للكفَّار ووعْدٌ للمؤمنين، وأَسند الضَّلالَة والهدى إِليهم بكَسْبِهم وإِن كان الجميع خلْقاً له واختراعاً، واللاَّم في قوله: [لِيَجْزِيَ] متعلقة بقوله تعالى: [ضَلَّ]، وبقوله تعالى: [اهْتَدَى]، فكأَنه تعالى قال: ليصير أَمرهم جميعاً إِلى أَن يجزيَ، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامَيْن، وقال بعض النحويين: اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير، لأَن تقديره: ولله ما في السموات وما في الأَرض يضل من يشاءُ ويهدي من يشاءُ لِيَجْزِيَ. والنظر الأَول أَقل تكلُّفاً من هذا الإِضمار، وقال قوم: اللام متعلقة بقوله تعالى في أَول السورة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، وهذا بعيد. و«الْحُسْنَى» هي الجنة، ولا حُسْنى دونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: [الَّذينَ] نعتٌ لـ[الَّذينَ] المتقدم قبله، و[يَجْتَنِبُونَ] معناه: يَدَعُونَ جانباً، وقرأَ جمهور القراءِ والناس: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾، وقرأَ ابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى، وحمزة، والكسائي: [كبير الإثم] على الإِفراد الذي يراد به الجمع، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[2].

واختلف الناس في الكبائر، ما هي؟ فذهب الجمهور إِلى أَنها السَّبع الموبقات التي

---

(١) الآيتان (١٠٠)، (١٠١) من سورة (الشعراء).
(٢) من الآية (٦٩) من سورة (النساء).



وردت في الأَحاديث، وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأَحاديث فيها في سورة النساءِ، وتحرير القول في الكبائر أَنها كل معصية يوجد فيها حدٌّ في الدنيا وتَوَعُّدٌ بنار في الآخرة، أَو لعنة أو نحو هذا خاصٌّ بها، فهي كثيرة العدد، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حين قيل له: أَسَبْعٌ هي؟ ـ فقال: هي إِلى السبعين أَقربُ منها إِلى السبع، وقال زيد بن أَسلم: كبير الإِثم هنا يرادُ به الكفر. و«الفواحش» هي المعاصي المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ هو استثناءٌ يصح أَن يكون متصلا، وإِن قدرتَه منقطعاً ساغ ذلك.

واختلف الناس في معنى [اللَّمَم] ـ فقال ابن عباس، وابن زيد: معناه: ما أَلَمُّوا به من الشِّرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإِسلام، قال الثعلبي، عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أَسلم، وأَبيه: إِن سبب الآية أَن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأَمس تعملون أَعمالنا، فنزلت الآية، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: إِلاَّ ما أَلَمُّوا به من المعاصي، الفلتة والسقطة دون دوام، ثم يتوبون منه، وذكر الطبري عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال: هي اللَّمَّة من الزِّنى والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود، وهذا كالذي قبله، فكأَن هذا التأْويل يقتضي الرِّفق بالنَّاس في إِدخالهم في الوعد بالحسنى؛ إِذ الغالب في المؤمنين مواقعة المعاصي، وعلى هذا أَنشدوا ـ وقد تمثل به النبي ﷺ ـ:

إِنْ تَغْفِـــر اللَّهُـــمَّ تَغْفِـــرْ جَمًّـــا ... وَأَيُّ عَبْـــدٍ لَـــكَ لاَ أَلَمَّـــا[2]

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (النساء).

(٢) يُنسب هذا البيت إلى أُمَيَّة بن أبي الصَّلت، على أنه قاله عند احتضاره، والجَمُّ: الكثير، وأَلَمَّ الرجل: من اللَّمَمِ وهو صغار الذنوب، أو هو مقاربة المعصية دون مواقعة، والأول هو المناسب لمعنى البيت، وهو موضع الشاهد هنا، وقد نسب هذا البيت مع بيت آخر قبله إلى أبي خراش، قيل إنه مرَّ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول:

لا هُـــمَّ هَـــذَا خـــامِـــسٌ إنْ تَمَّـــا ... أَتَمَّـــهُ اللهُ وَقَـــدْ أَتَمَّـــا

إنْ تَغفِـــرِ اللَّهُـــمَّ تَغفِـــرْ جَمَّـــا ... وَأَيُّ عَبْـــدٍ لَـــكَ لا أَلَمَّـــا؟

وقد ذكر ذلك صاحب اللسان نقلا عن ابن بَرِّي، وقد أخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في=



وقال أَبو هريرة، وابن عباس، والشعبي، وغيرهم: اللَّمَم: صغار الذنوب التي بين الحدَّيْن الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصًّا بها مذكوراً لها، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها، وإلاَّ فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها، ويعضد هذا قولُ النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والفرج يكذِّب ذلك أَو يصدِّقه، فإن تقدم فرجه فهو زانٍ، وإلاَّ فهو اللَّمَم»[١]، ورُوي أَن هذه الآية نزلت في نبْهَان التَّمار[٢]، فالناس لا يتخلصون من مواقعة هذه الصغائر، ولهم ـ مع ذلك ـ الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أَنفسها كبائر، وتظاهر العلماءُ في هذا القول وكثُر المائل إليه، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنه قال: اللَّمَم ما دون الشِّرك، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو، وذكر المهدوي عن ابن عباس، والشعبي: اللَّمم ما دون الزِّنى، وقال نفطويه: اللَّمم ما ليس بمعتاد، وقال الرُّمَّاني: اللَّمم الهَمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أَن يواقع، وحكى الثعلبي عن سعيد بن المسيب أَنه ما خطر على القلب، وذلك

= شعب الإيمان، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، قال: هو الرجلُ يُلمُّ بالفاحشة ثم يتوب منها، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جَمّاً، وأي عبد لك لا أَلَمَّا»؟ ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور، وهذا هو الذي أشار إليه ابن عطية بقوله: «وقد تمثَّل به النبي ﷺ».

(١) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: «إن الله كتب على ابن آدم...» الحديث. (الدر المنثور).

(٢) وكان لنبهان هذا حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءت امرأة تشتري منه تمراً، فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم نبهان وأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: ما من شيءٍ يصنعه الرجل إلاَّ وقد فعلته إلاَّ الجماع، فقال: «لعلَّ زوجها غازٍ»؟ وفي رواية عن أبي الْيَسَر أن الرسول ﷺ قال له: «أَخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى تمنى ـ أي نبهان ـ أنه لم يكن أسلم إلاَّ تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قال أبو الْيَسر: فأتيته فقرأها عليَّ رسول الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله! أَلهذا خاصة أَمْ للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وفي الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

هو لمَّة الشَّيطان، قال الزهراوي: وقيل اللَّمم نظرة الفجأة، وقاله الحسن بن الفضل. ثم أَنَّس تعالى بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية. رُوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أَنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعظِّمون أَنفسهم، ويقولون للطفل إِذا مات عندهم: هذا صدِّيق عند الله تعالى، ونحو هذا من الأَقاويل المُمَوَّهَة، فنزلت الآية فيهم[1] ثم هي بالمعنى عامة جميع البشر. وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأَعمالهم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قال مكي بن أَبي طالب في المشكل: معناه: هو عالم بكم، وقال جمهور أَهل المعاني: بل هو التفضيل بالإِطلاق، أَي هو أعلم من الموجودين جملة، والعامل في [إِذْ] هو [أَعْلَمُ]، وقال بعض النحاة: العامل فيها فعل مضمر تقديره: اذكروا إِذ، والمعنى الأَول أَبْين؛ لأَنَّ تقديره: فإِذا كان علمه قد أَحاط بكم وأَنتم في هذه الأَحوال ووقع بكم التخفي فأَحرى أن يقع بكم وأَنتم تغفلون وتجترحون.

والإِنشاءُ من الأَرض يراد به خلق آدم عليه السلام، ويحتمل أَن يراد به إِنشاءُ الغذاءِ، و[أَجِنَّةٌ] جمع جنين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أَن يُزَكِّي أَحدٌ نفسه، ويحتمل أَن يكون نهياً عن أَن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً، وإِذا كان هذا فإِنما ينهى عن تزكية السُّمعة والمدح للدنيا، أَو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته[2]، وأَمَّا تزكية الإِمام والقدوة أَحداً ليؤتم به أَو ليَتَهَمَّمَ الناسُ بالخير

---

(١) أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والواحدي، عن ثابت بن الحارث الأنصاري، قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبيٌّ صغير قالوا: هذا صِدِّيق، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلاّ أنه شقيٌّ أو سعيد»، فأنزل الله عند ذلك ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. (الدر المنثور).

(٢) حديث عثمان بن مظعون أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير، وأحمد في مسنده (٦ـ٤٣٦)، ولفظه كما في البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أَنَّ أُمَّ العلاءِ ـ امرأةً من الأنصار ـ بايعت النبي ﷺ، أخبرته أنه اقتُسم المهاجرون قُرْعةً، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفِّي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يُدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يُكرمه الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أمَّا هو فقد جاءه اليقين، والله إنِّي لأرجو له الخير، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي، قالت: فو الله لا أُزَكِّي أَحداً بعده أبداً.



فجائز، وقد زكّى رسول الله ﷺ بعض أَصحابه، أَبا بكر وغيره رضي الله عنهم، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إِليها، وأَصل التزكية إِنما هو التقوى، والله تعالى هو أَعلم بتقوى الناس منكم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ الآية. قال مجاهد، وابن زيد، وغيرهما: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أَنه كان قد سمع قراءَة النبي ﷺ، وجلس إِليه، وَوَعَظَهُ رسول الله ﷺ، فَقَرُبَ من الإِسلام، وطمع النبي ﷺ فيه، ثم إِنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أَتترك مِلَّة آبائك؟ ارجع إِلى دينك واثْبت عليه وأَنا أَتحمل لك بكل شيءٍ تخافه في الآخرة، لكن على أَن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد بن المغيرة على ذلك، ورجع عمَّا همَّ به من الإِسلام، وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأَعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أَمسك عنه وشَحَّ، فنزلت الآية فيه. وذكر الثعلبي عن قوم أَنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبد الله بن سعد بن أَبي سَرْح[1]، وذلك كله عندي باطل، وعثمان عن مثله مُنَزَّهٌ. وقال السُّدي: نزلت في العاص بن وائل، فقوله تعالى: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ ـ على هذا القول ـ هو في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي: المعنى: وأَعطى من نفسه قليلاً في قربه من الإِيمان، ثُمَّ أَكْدَى، أَي انقطع ما أَعطى، وهذا بيِّن من اللَّفظ، والآخر يحتاج إِلى رواية، و[تَوَلَّى] معناه: أَدبر وأَعرض، والمراد: عن أَمر الله تعالى، و[أَكْدَى] معناه: انقطع عطاؤُه، وهو مُشَبَّه بالحافر في الأَرض، فإِنه إِذا انتهى إِلى كُدْية ـ وهي ما صلب من الأَرض ـ وقف وانقطع حفره، وكذلك: أَجْبَل الحافر إِذا انتهى إِلى جبل، ثم قيل لمن انقطع عمله: أَكْدَى وأَجْبَل.

---

(١) ذكر القرطبي أن خبر عثمان بن عفان مع أخيه ابن أبي سرح نقل عن ابن عباس، والسدي، والكلبي، والمُسَيّب بن شريك، وفيه أن عثمان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألاَّ يبقى لك شيءٌ، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عما كان يصنع من الصدقة، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾، فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله، وقد ذكر ذلك الثعلبي، وذكره الواحدي في (أسباب النزول). وسابقة عثمان رضي الله عنه وتاريخه في الإسلام يجعلنا نؤكد رأي ابن عطية في نفي ذلك عنه.



وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ معناه: أَعَلِم من الغيب أَنَّ من تحمَّل ذنوب آخر فإن المُتَحَمِّل عنه ينتفع بذلك فهو لهذا الذي عَلِمَه يرى الحقَّ وله فيه بصيرة، أَم هو جاهل لم يُنَبَّأْ بما في صحف موسى ـ وهي التوراة ـ وفي صحف إبراهيم ـ وهي كتب نزلت عليه من السماءِ ـ من أَنه لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى؟ أَي: لا تحمل حاملة حِمْل أُخرى، وإنما يؤخذ كل أَحد بذنوب نفسه، فلما كان جاهلاً بهذا وقع في إعطاءِ ماله للذي قال له: أَنا أَتَحَمَّل عنه دَرَك الآخرة[1].

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وفي ما هو المُوَفَّى؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأْخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل ونحوه، فوفَّى إبراهيم عليه السلام وَبَلَّغ هذا الحكم من أَنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والربيع: ومن طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام، وقال الحسن، وابن جبير وقتادة: وَفَّى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى، وقال عكرمة: وفَّى هذه العشر الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فما بعدها، وقال ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: وفَّى ما افْتُرِض عليه من الطَّاعات على وجهها، وتكمَّلت له شعب الإيمان والإسلام، فأَعطاه الله تعالى براءَته من النَّار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وفَّى شرائع الإسلام ثلاثين سهماً، وقال أَبو أمامة ـ ورفعه إلى النبي ﷺ ـ: وفَّى أَربع صلوات في كل يوم، والأَقوى من هذه كلها القول العامُّ لجميع الطَّاعات المستوفية لدين الإسلام، فروي أَنها لم تُفرض على أَحد مُكَمَّلة فوفَّاها إلاَّ على إبراهيم ومحمد ﷺ، ومن الحجَّة لذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[2].

وقرأَ ابن جُبَيْر، وأَبو مالك، وابن السميفع: [وَفَى] مخفَّفة الفاءِ، والخلاف فيما وَفَى به كالخلاف فيما وَفَّاه على القراءَة الأُولى التي فَسَّرنا ورويت هذه القراءَة عن النبي ﷺ، وقرأَها أَبو أُمامة[3].

---

(١) أي: تَبِعَةَ الآخرة، يقال: ما لحقك من دَرَك فعليَّ خلاصه.

(٢) من الآية (١٢٤) من سورة (البقرة).

(٣) قال ابن جنِّي: «وهذا على تسمية المُسَبَّب باسم سببه، ألا ترى أنَّ معناه، الذي وعد ذلك فوفى بحاضره وسيفي بغائبه يوم القيامة، وذلك منهم لصدق الوعد، أي: إذا قال فقد فعل أو قد وقع ما يقوله، وهذا كقولهم: وعْد الكريم نقد، ونقد اللَّئيم وعْد».

و«الوِزْرُ»: الثقل، وأَنَّث «الْوَازِرَةَ» إمَّا لأَنه أَراد النَّفس، وإمَّا أَنه أَراد المبالغة كَعَلاَّمة ونسَّابة وما جرى مجراهما، و[أَنْ] في قوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ مخفَّفة من الثقيلة، وتقديرها: أَنه لا تزر، وحسَّن الحائل بينها وبين الفعل أن بقي الفعل مرتفعاً، فهي كقوله تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ﴾[1] ونحوه، و[أَنْ] في موضع رفع أَو خفض كلاهما مترتب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ ﴾، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وأن، وأنه﴾ معطوف كل ذلك على «أَن» المقدرة في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾، وهي كلها بفتح الألف في قراءَة الجمهور، وقرأَ أَبو السمال قعنب: [وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى] بكسر الهمزة فيها وفيما بعدها، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[2]، وهذا لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما لأَنه خبر لا يُنْسخ، ولأَن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلاَّ أَن يُتَجَوَّز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً. وقال عكرمة: هذا الحكم كان في قوم إِبراهيم وموسى عليهما السلام، وأَمَّا هذه الأُمَّة فلها سَعْيُ غيرها، والدليل حديث سعد بن عبادة، قال: يا رسول الله: هل لأُمِّي إن تطوعت عنها أَجر؟ قال: نعم[3]، وقال الربيع بن أَنس: هذا الإنسان في هذه الآية هو الكافر، وأَمَّا المؤمن

(١) من الآية (٢٠) من سورة (المزمِّل).

(٢) من الآية (٢١) من سورة (الطُّور).

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن هشام، قال: أخبرني أبي، قال: أخبرتني عائشة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أُمِّي افْتُلتت نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر أن أتصدق عنها؟ قال: نعم. وأخرجه مسلمٌ في صحيحه من عدة طرق، كلها تنتهي إلى هشام. ومعنى «افْتُلتت»، ماتت فجأة. قال الإمام ابن حزام النووي في شرحه لصحيح مسلم: «وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابُها، وهو كذلك بإجماع العلماءِ، وكذلك أجمعوا على وصول الدعاءِ وقضاء الدَّيْن بالنصوص الواردة=

فله ما سعى وما سعى له غيره، وسأَل عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحُسَيْن بْنَ الفضل عن هذه الآية مع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، فقال له: ليس له بالعدل إِلاَّ ما سَعَى، وله بفضل الله ما شاءَ اللهُ، فقبَّل عبدُ الله رأَس الحسين، وقال الجمهور: الآية محكمة، والتحرير عندي في هذه الآية أَنَّ مَلاك المعنى هو في اللام من قوله تعالى: [لِلإِنْسَانِ]، فإذا حققت الشيءَ الذي حقُّ الإِنسان أَن يقول فيه: «لي كذا» لم تجده إِلاَّ سعيه، وما تَمَّ بَعْدُ من رحمة بشفاعة أَو رعاية أَب صالح أَو ابن صالح أَو تضعيف حسنات أَو تغمُّد بفضل أو رحمة دون هذا كله، فليس هو للإِنسان ولا يَسَعُهُ أَن يقول: «لي كذا وكذا» إِلاَّ على تجوُّز وإِلْحاق بما هو له حقيقة، واحتج بهذه الآية من يرى أَنه لا يعمل أَحدٌ عن أَحد بعد موته ببدن ولا مال، وفرَّق بعض العلماءِ بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسناتٌ تُذكر للمعمول عنه، وقد أَمر رسول الله ﷺ سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أُمه، والسَّعْيُ: الكَسْبُ.

وقوله تعالى: [يُرَى] فاعلُه حاضرو القيامة، أَي يراه الله تعالى ومَنْ شاهد الأَمر، وفي عرض الأَعمال على الجميع تشريف لِلْمُحْسنين وتوبيخ لِلْمُسيئين، ومنه قول النبي ﷺ: «من سمَّع بأَخيه فيما يكره سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وعيدٌ للكافرين وعْدٌ للمؤمنين.

و«الْمُنْتَهَى»: يحتمل أَن يريد به الحشر والمصير بعد الموت، فهو مُنتهى بالإِضافة إِلى الدنيا وإِن كان بعده مُنْتهى آخر هو الجنة أَو النار، ويحتمل أَن يريد بالمنتهى الجنة أَو النار، فهو منتهى على الإِطلاق، ولكن في الكلام حذفُ مضاف، أَي: إِلى عذاب ربك ورحمته، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ

= في الجميع، ويصح الحج عن الميت إذا كان حج الإسلام، وكذا إذا وصَّى بحج التطوع على الأصح عندنا، واختلف العلماءُ في الصوم إذا مات وعليه صوم، فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه، وأما الصلاة وسائر الطاعات فلا تصله عندنا ولا عند الجمهور، وقال أحمد: يصله ثواب الجميع». وقد وضح القرطبي اسم الرجل كما هنا، وذكر أن الرجل سأل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماءِ.

(١) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والأحكام، ومسلم في الزهد، والترمذي في النكاح، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٣ـ ٤٠، ٥ـ ٤٥). ولفظه كما في مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءَى راءَى الله به»، وروي مثله عن جندي العَلَقِيِّ ولكن بلفظ المضارعة: «من يُسَمِّع...».



﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: «لا فِكْرة في الرَّبِّ»[(١)]، وروى أَنس رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «إِذا ذُكر الرَّبُّ فانتهوا»[(٢)]، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ يوماً على أَصحابه فقال: «فيم أَنْـتُمْ»؟ قالوا: نتفكَّر في الخالق سبحانه وتعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّـرُوا فـي الخَلْق ولا تَتَفَكَّـروا فـي الخـالـق فـإِنـه لا تحيـط الفكـرة»... الحديث[(٣)]، وذكر تعالى الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس؛ إِذ الواحدة دليل السرور والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنَبَّه تعالى على هاتين الخاصَّتين اللتين هما للإنسان وحده، وقال مجاهد: المعنى: أَضحك أَهل الجنة وأبكى أهل النار[(٤)]، وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعاريَّة كَمَنْ قال: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماءَ بالمطر، ونحوه، و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ بَيِّنٌ، وحكى الثعلبي قولاً أَنه أَحيا بالإِيمان وأَمات بالكفر. و«الزَّوْجَيْن» في هذه الآية يريد به المُصْطَحِبَيْن من الناس، من الرجل والمرأَة وما ضارع من الحيوان، والخُنْثَىٰ مُتَمَيِّزٌ ولا بُدَّ لإِحدى الجهتين.

و«النُّطْفَةُ» في اللغة: القطعة من الماءِ كانت يسيرة أَو كثيرة، ويراد بها هنا الذُّكْران[(٥)].

وقوله: [تُمْنَى] يحتمل أن يكون من قولك: «أَمْنَى الرجل» إذا خرج منه المنيُّ، ويحتمل أن يكون من قولك: «منى الله الشيء» إذا خلقه، فكأنه قال: إذا تُخْلَق وتُقَدَّر. و«النَّشْأَةُ الأُخرى» هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلى في التركيب، وقرأ الناس:

---

(١) أخرجه الدارقطني في الإفراد، والبغوي في تفسيره، عن أُبَيِّ بن كعب، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري.

(٢) ذكره القرطبي بلفظ: «إذا ذكر الله تعالى فانْتَه»، وذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير)، عن البزَّار، عن أَبي سعيد المقبري مرسلاً بلفظ «إذا ذكرتم بالله فانتهوا».

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن يونس بن مسيرة، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يذكرون عظمة الله تعالى، فقال: ما كنتم تذكرون؟ قالوا: كنا نتفكر في عظمة الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: ألا في الله فلا تفكروا، ثلاثاً، ألا فتفكروا في عِظم ما خلق، ثلاثاً، وأخرج مثله أيضاً أبو الشيخ عن أبي أُمَيَّة مولى شبرمة واسمه الحكم، عن بعض أئمة الكوفة، مع زيادة في آخره، وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله مع زيادة واختلاف في الألفاظ. ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الدر المنثور».

(٤) اخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: مرَّ رسول الله ﷺ على قوم يضحكون، فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، فنزل عليه جبريل فقال: إن الله هو أضْحك وأبْكى، فرجع إليهم فقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال: ائت هؤلاء فقل لهم: إن الله أضحك وأبكى. «الدر المنثور».

(٥) أي: يراد بها ماء الرجال.



(النَّشْأة) بسكون الشين وبالهمزة والقصر، وقرأ أبو عمرو، والأعرج: [النَّشَاءَةَ] ممدودة، و«أَقْنَى» معناه: أَكْسَبَ، تقول: قنيتُ المال أي كسبته، ثمَّ تُعَدَّى بعد ذلك بالهمزة، وتُعَدَّى بالتضعيف، ومنه قول الشاعر:

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصابَ الدَّهْرُ ثَرْوَتَهُ وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِقْلَالِ[1]

وعبَّر المفسرون عن «أَقْنَى» بعبارات مختلفة، فقال بعضهم: أَقْنَى معناه: اكْتَسَب ما يَقْتَني، وقال مجاهد: معناه: أَرضى وأَغْنَى، وقال حضرمي: معناه: أغنى نفسه و«أَقْنَى» أفقر عباده إليه، وقال الأخفش: أَغْنَى: أَفقر، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة: أَكْسَبَ ما يُقْتَنَى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَقْنَى: أَقنع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقناعة خير قُنْيَة، والغِنَى عَرَضٌ زائل، فَلِلهِ دَرُّ ابن عباس رضي الله عنهما.

و«الشِّعْرَى»: نجم في السماءِ، وقال مجاهد وابن زيد: هو مرْزَم الجوزاءِ[2]، وهما شعريان: إِحداهما الغميصاءُ[3] والأُخرى العَبُور، لأنها عبرت المَجَرَّة، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشِّعرى، ومنهم أَبو كبشة، ذكره الزهراوي والثعلبي، واسمه عبد الشِّعرى، فلذلك خُصَّت بالذكر، أَي: وهو ربُّ هذا المعبود الذي هو لكم.

و«عَادٌ»: قوم هود، واختلف في معنى وصفها بالأولى ـ فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأَنها في وَجْه الدَّهر وقديمه، فهي أُولَى بالإِضافة إِلى الأُمم المتأَخرة، وقال الطبري: سميت بالأُولى لأَن عاداً أَخيرة ـ وهي قبيلة ـ كانت بمكة مع العماليق وهم بَنُو

---

(١) هذا البيت شاهدٌ هنا على أن (قَنِيَ) تتعدى بالتضعيف، و«كَمْ» هنا للتكثير، وأصاب ثروته: أضاعها، فكأنه أنزل بها إصابة ماحقة، والإقلال: الفقر والحاجة، يقول: كثير من الأغنياء أصابهم الدهر فضاعت ثرواتهم، وكثير من الفقراء أغناهم الدهر وأكسبهم الثروة، ولم أقف على قائل البيت.

(٢) أي الذي يأتي بعد الجوزاء ويتبعها، وهو اسمٌ لعدد من النجوم أشهرها مِرْزَمان: هما الشِّعْريَان: العَبُورُ والغُمَيْصَاءُ، وأُمُّ مِرزم: الريح، أو ريح الشمال الباردة؛ لأنها تأتي بِنَوءِ المِرْزَم ومعه المطر والبرد. (المعجم الوسيط). وفي اللسان: «الشِّعْرَى: كوكب نيِّر يقال له: المِرْزم، يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر».

(٣) سمَّاها العرب بالغُمَيْصَاءِ لأنهم قالوا: إنها بكت على إثر العَبُور حتى غَمِصَتْ، أي صغرت، وهذا كناية عن قلة ضوئها.



لُقَيْم بن هزَّال، والقول الأول أَبْيَن؛ لأَن هذا الأَخير لم يصح، وقال المبرد: عاد الأَخيرة هي ثمود، والدليل قول زهير:

. . . . كَـأَحْمَـر عَـادٍ ثُـمَّ تُـرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ[١]

ذكره الزهراوي، وقيل: الأَخيرة: الجَبَّارُون. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: (عَاداً) منونةً (الأُولَى) مهموزة، وقرأَ نافع فيما يُروى عنه: ﴿عَادَ الأولَى﴾ بإزالة التنوين والهمز، وهذا كقراءَة من قرأَ: ﴿أَحَدُ اللهُ﴾[٢]، وكقول الشاعر:

. . . . وَلاَ ذاكِـــــرِ اللهَ إِلاَّ قَليـــــــلاَ[٣]

وقرأَ قوم: (عَادِ الأُولَى)، والنطق بها (عادَنِ الأُولَى)، اجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكُسرت النون لالتقاءِ الساكنين، ولا فرق بينها وبين قراءَة

---

(١) هذا عجز بيت من المعلقة، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها الحرب وينفِّر منها، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

فَتَعْـرُكُكُـمْ عَـرْكَ الـرَّحَـى بِثِفـالِهَـا ... وتَلْقَـحْ كِشَـافـاً ثُـمَّ تُنْتِـجْ فَتُتْئِـمِ

فَتُنْتِـجْ لَكُـمْ غِلْمَـانَ أَشْـأَمَ كُلُّهُـمْ ... كَـأَحْمَـرِ عَـادٍ ثُـمَّ تُـرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ

يقول: إن الحرب تعرُكُكُمْ كما تَعْرُك الرَّحَى الحَبَّ مع الثِّفَالِهِ وهو الخِرقة التي توضع تحت الرحى ليقع عليها الطحين، والحرب تلقح في السنة مرتين وتلد توأمين، والشُّؤْم: ضِدُّ اليُمْن، ورجلٌ مَشْئُومٌ كما يقال رجل ميمون، والأشأم: أفعل من الشؤم وهو مبالغة، وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود وهو قدار بن سالف الذي عقر الناقة، يقول: فَتَلِدُ لكم أبناءً في أثناء تلك الحروب كل واحد منهم أشأم كعاقر الناقة، ثم ترضعهم الحرب وتفطمهم، أي تكون ولادتهم ونشأتهم في أثناءِ الحرب فيصبحون مشائيم على آبائهم، والشاهد هو أنه أراد بأحمر عاد أحمر ثمود، فعادٌ تطلق على ثمود، وهي عادٌ الأخيرة.

(٢) من قوله تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة (الصمد): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فقد قرئت: [أَحَدُ] بدون تنوين.

(٣) هذا عَجُز بيت لأبي الأسود الدؤَلي ـ ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ـ والبيت بتمامه:

فَـــأَلْفَيْتُـــهُ غَيْـــرَ مُسْتَعْتِـــبٍ ... وَلا ذاكِـــرِ اللهَ إِلاَّ قَلِيـــــلاَ

وهو في الكتاب، وخزانة الأدب، وابن الشجري، والأغاني، والمغني، واللسان، ويروى أن أبا الأسود أغوته امرأة بجمالها، وزعمت أَنَّها صناعُ الكفِّ حسنة التدبير، وعرضت عليه الزواج فتزوجها، ولكنه وجدها قد أسرفت في ماله، ومدت يدها إلى خيانته، فهجاها بأبيات منها هذا البيت، وغير مُسْتَعْتِبٍ: أي غير راجع بالعتاب عن قبيح فعله، وهو يعني هذه المرأة، والشاهد في البيت حذف التنوين من «ذاكر» لالتقاءِ الساكنين ونصب ما بعده وإن كان الوجه الإضافة.



الجمهور إلاَّ ترك الهمز، وقرأ نافع أيضاً، وأبو عمرو بالوصل والإدغام: [عَادًا لُّولَى] بإدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام، وعاب أبو عثمان المازني والمبرِّد هذه القراءَة وقالا: إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حدِّ السكون، وحقُّ ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم: «الأَحْمَر» فإنهم يقولون: «الَحْمَرُ جاءَ»، فكذلك يقال هنا: «عاداً للُولَى»، قال أبو علي: والقراءَة سائغة، وأيضاً فمن العرب من يقول: «لَحمَرُ جاءَ» فيحذف الألف مع النقل ويَعْتَدُّ بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون، وقرأ نافع فيما رُوي عنه: [عاداً اللُّؤْلَى] بهمز «اللُّؤْلَى»، يهمز الواو، ووجه ذلك أنَّه لم يكن بين الواو والضمة حائل يحمل الهمزة فهمزها كما تهمز الواوُ المضمومة، وكذلك فعل من قرأ: [على سؤقِهِ][1]، وكما قال الشاعر:

لَحَبَّ المُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى . . . .[2]

وهي لغة. وقرأ الجمهور: [وَثَمُوداً] بالنصب عطفاً على [عَاداً]، وقرأ عاصم، والحسن، وعصمة: [وَثَمُودَا] بغير صرف، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه بغير ألف بعد الدال.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ ظاهره: فما أبقى عليهم، وتأول ذلك بعضهم: فما أبقي منهم عينا تطرف، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول: إن ثقيفاً من

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة (الفتح): ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة له يمدح هشام بن عبد الملك، ويروى: لَحَبَّ الواقدان، وأحب الموقدين، وأنشده الزمخشري في كشافه كما هنا، والبيت بتمامه:

لَحَبَّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى ... وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

وحَبَّ: فِعْل ماض أَصلُه حَبُب، مثل كَرُمَ، ومعناه: صار محبوباً، فأدغمت الباءُ الأولى في الثانية إما للقلب، وإما لنقلها إلى الحاءِ قبلها، فَلِذَا رُوي «لَحَبَّ ـ بفتح الحاءِ وضمها ـ واللام في «لَحَبَّ» لام جواب قسم محذوف، والمُؤْقدان هما موسى وجعدة، فإنهما يوقدان نار القرى للضيوف، كناية عن الكرم، والوُقود ـ بضم الواو ـ: مصدر بمعنى الإيقاد، وبالفتح ما يوقد به من حطب ونحوه، والمعنى: لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما ذوي ضياءٍ وبهجة صارا محبوبَيْن، والشاهد هو قلب الواو همزة في «المؤقدان»، وفي «مُؤْسى» إجراءً لضمة ما قبلها مجرى ضمتها هي، وهذا هو مذهب سيبويه، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من مناسبة.



ثمود، فأنكر ذلك وقال: إن الله تعالى قال: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، وهؤلاءِ يقولون: بقي منهم باقية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝٥٦ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ۝٦٢﴾.

نصب ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ عطفاً على [ثَمُودَ]، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأنهم كانوا أول أُمَّة كذبت من أَهل الأَرض، و«نوح» أَول الرُّسل، وجعلهم «أَظلَم وأَطْغى» لأَنهم سبقوا إِلى التكذيب دون اقتداءٍ بأَحد قبلهم، وأَيضاً فإنهم كانوا في غاية من العُتُوِّ، وكان عُمْر نوح عليه السلام قد طال في دعائهم، وكان الرجل يأْتي إِليه مع ابنه فيقول: احذَرْك من هذا الرجل فإِنه كذَّاب، ولقد حذَّرني منه أَبي وأَخبرني أَن جَدِّي حذَّره منه، فمشت على هذا أَخلاقهم أَلفاً إِلاَّ خمسين عاماً.

و«الْمُؤْتَفِكَةُ» قرية قوم لوط عليه السلام بإجماع من المفسِّرين، ومعنى «الْمُؤْتَفِكَة»: المتقلبة؛ لأَنها أَفِكَت فأْتفكت، ومنه «الإِفْكُ» لأَنه قلْب الحق كذباً، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) على الجمع، و[أَهْوَى] معناه: طرحها في هواءٍ عال إِلى أَسفل، وهذا ما رُوي من أَن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماءِ فهبط الجميع، ثم أُتْبعوا بحجارة، وهي التي غشَّاها الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ مخاطبة للإنسان الكافر، كأَنه قيل له: هذا هو الذي له هذه الأَفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النِّعم، ففي أَيها تشكُّ؟ و[تَتَمَارَى] معناه: تَتَشكَّك، وقرأَ يعقوب: [ربِّك تَّمارَى] بتاءٍ واحدة مشدَّدة، وقال أَبو مالك الغفاري(١): إِن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إِلى قوله تعالى: [تَتَمارَى] هو في صحف إِبراهيم وموسى عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يحتمل أَن يشير إِلى محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وأَبي جعفر، ومحمد بن كعب القرظي، ويحتمل أَن يشير إِلى القرآن، وهو تأْويل قوم، وقال

---

(١) اسمه غَزْوان الغِفَاري، أَبو مالك الكوفيُّ، مشهور بكنيته، ثقة، من الثالثة، (تقريب التهذيب).



أَبو مالك: الإِشارة بهذا النَّذير إِلى ما سلف من الأخبار عن الأُمم، و[نَذِيرٌ] يحتمل أَن يكون بناءَ اسم فاعل، ويحتمل أَن يكون مصدراً، و«نُذُر» جمع نذير، وقال: [الأُولَى] بمعنى أنه في الرتبة والأَوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة، والأَشبه أَن تكون الإِشارة إِلى محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ معناه: قربت القريبة، و[الآزِفَةُ] عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين، و«أَزِفَ» معناه: قَرُبَ جدًّا، وقال كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا ... وَلاَ أَرَى لِشَبَـابِ ذاهـبٍ خَلَفَـا[1]

وقوله تعالى: (كَاشِفَةٌ) يحتمل أَن يكون صفةً لمؤنثة، والتقدير: حالٌ كاشفة، أَو منَّةٌ كاشفة، أَو سعاية، قال الرُّمَّاني: أَو جماعة، ويحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾[2]، ويحتمل أَن يكون بمعنى «كاشف» والهاءُ للمبالغة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[3]، وأَما معنى (كَاشِفَة) فقال الطبري، والزجاج: هو من كشف السِّرِّ، أَي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه، وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف الضُّرِّ ودَفعه، أَي: ليس من يكشف هولها وخطبها، وقرأَ طلحة: «لَيْسَ لَهَا مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُون الله كَاشِفَةٌ وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الْغَاشِيَةُ»[4].

و﴿هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن، وقوله تعالى: (أَفَمِنْ)؟ توقيف وتوبيخٌ، وفي حرف

---

(١) يبكي شبابه ويتوجس خيفة من الشيب، وبانَ: ذهب وارتحل. وأَزِف: دنا واقترب جداً، وهو موضع الاستشهاد هنا. يقول: ذهب الشباب واقترب المشيب، فالكبر والعجز، وليس بعد ذلك إلا الفناء، فإذا ذهب الشباب فقد ذهب العمر كله في الحقيقة.

(٢) جاءت في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة (غافر): ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

(٣) الآية (٨) من سورة (الحاقة).

(٤) قال أبو الفتح بن جني: «هذه القراءة تدل على أن المراد بقراءة الجماعة: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، حذف مضاف بعد مضاف، ألا ترى أن التقدير: «ليس لها من جزاءِ عبادة معبودٍ دون الله كاشفةٌ»، فالعبادة ـ على هذا ـ مصدر مضاف إلى المفعول، ، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، ثم حذف المضاف الأول فصار تقديره: «ليس لها من عبادة معبودٍ دون الله كاشفة»، ثم حذف المضاف الثاني الذي هو «عبادة» فصار التقدير: «ليس لها من معبود دون الله كاشفة»، ثم حذف المضاف الثالث فصار إلى ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾. وقوله: «وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ ساءَتِ الغَاشِيَةُ» جارٍ مجرى قولهم: «زيدٌ بِئس الرجلُ»؛ لأن ساءَ بمعنى بِئْس».



أُبَيٍّ، وابن مسعود رضي الله عنهما «تَعْجَبُونَ، تَضْحَكُونَ» بغير واو عطف، وقرأ الحسن: ﴿تُعْجِبُونَ تُضْحِكُونَ﴾ بضم التاءِ فيهما وكسر الجيم والحاءِ وحذف واو العطف، وفي قوله تعالى وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حضٌّ على البكاءِ عند سماع القرآن، وروى سعد بن أَبي وقَّاص رضي لله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن هذا القرآن أُنزل بِحُزْنٍ، فإِذا قرأتموه فابكوا، فإِن لم تبكوا فتباكوا»[١]، ذكره الثعلبي.

و«السَّامِدُ»: اللاعبُ اللاهي، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسِّرين، وقال الشاعر:

قِيـلَ قُـمْ فَـانْظُـرْ إِلَيْهِـمْ ... ثُـمَّ دَعْ عَنْـكَ السُّمُـودَا[٢]

و«سَمَدَ» بلغة حِمْير: غَنَّى، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وأَسند الطبري عن أَبي خالد الوالبي[٣]، قال: خرج علينا عليٌّ رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال: مالي أَراكم سامدين؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة والزهد، وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة.

(٢) البيت في اللسان ـ سمد ـ غير منسوب، وفي «الدُّرّ المنثور» ذكره الإمام السيوطي مع بيت آخر قبله منسوباً إلى هزيلة بنت بكر، قال: أخرج الطسي في مسائله، والطبراني، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى: [سَامِدُونَ]، قال: السُّمود: اللهوُ والباطل، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد:

لَيْـتَ عَـاداً قَبِلُـوا الْحَـقَّ ... وَلَـمْ يُبْـدُوا جُحُـودَا
قِيـلَ قُـمْ فَـانْظُـرْ إِلَيْهِـمْ ... ثُـمَّ دَعْ عَنْـكَ السُّمُـودَا

وقد فُسِّر السمود بمعاني كثيرة، فقيل: هو اللهو واللَّعب، وقيل: هو الغِنَاءُ، وقيل: الاستكبار، وقيل: القيام في تَحَيُّر، وهذا المعنى يلائم البيت موضع الاستشهاد، وقيل: السمود: الغفلة والذَّهاب عن الشيءِ، وقيل: السُّمودُ يكون سروراً وحزناً، ومما رُوي في السُّمود قول القائل:

رَمَـى الحِـدْثَـانُ نِسْـوَةَ آلِ حَـرْبٍ ... بِـأَمْـرٍ قَـدْ سَمَـدْنَ لَـهُ سُمُـودَا
فَـرَدَّ شُعُـورَهُـنَّ السُّـودَ بِيضـاً ... وَرَدَّ وُجُـوهَهُـنَّ البِيـضَ سُـودَا

(٣) هو أبو خالد الوالبي ـ بموحَّدة قبلها كسرة ـ الكوفيُّ، اسمه هُرْمز، وقيل: هَرِم، مقبول، من الثانية، وفد على عمر، وقيل: حديثه مرسل فيكون من الثالثة، وخبره المروي هنا أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، ذكر ذلك السيوطي في «الدر المنثور».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يشبه أَنه رآهم في أَحاديث ونحوها مما يُظن أَنه غفلة مَّا، وقال إِبراهيم: كانوا يكرهون أَن ينتظروا خروج الإِمام قياماً، وفي الحديث: «إِذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتَّى تروني»[1].

ثم أَمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيراً وتخويفاً، وهاهنا سجدة في قول كثير من أَهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أَحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى[2]، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: إِنه قرأ بها عند النبي ﷺ فلم يسجد.

تم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجمعة والأذان، ومسلم في المساجد، وأبو داود، والترمذي في الصلاة، والنسائي في الإمامة والأذان، والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٥ـ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠)، ولفظه كما في مسلم، عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني». وقال ابن حاتم: «إذا أقيمت أو نودي» وزاد إسحق في روايته حديث مَعْمَر وشيبان: «حتى تروني قد خرجت». قال العلماءُ: والنهي عن القيام قبل أن يروه لئلا يطول عليهم القيام، ولأنه قد يعرض له عارض فيتأخر بسببه.

(٢) لأنه يرى أن السجود المطلوب في الآية هو سجود الفرض في الصلاة، أما أكثر العلماء فيرون أن المراد هو سجود تلاوة القرآن، وبه قال أبو حنيفة والشافعي.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة القمر(١)

وهي مكيَّة بإجماع إلاَّ آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس: هي مكيَّة، وقال قوم: هي مما نزل يوم بدر، وقيل: بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾(٢)، وسيأتي القول في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

[ٱقْتَرَبَتِ] معناه: قربت إلاَّ أنه أبلغ، كما أن اقْتَدر أَبلغ من قَدَر، و[ٱلسَّاعَةُ] القيامة، وأمرها مجهول التحديد، لم يعلم إلاَّ أنها قَرُبت دون تحديد، وقال النبي ﷺ: «بُعثت أَنا والسَّاعة كهاتين» وأَشار بالسَّبَّابة والوسطى(٣)، وقال أَنس رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب، فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى إلاَّ كمثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى»(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لأَرجو الله أَن

---

(١) في أكثر الأصول: «تفسير سورة اقتربت الساعة»، وآثرنا الاسم الذي يتفق مع المصحف الشريف الذي بين أيدينا.

(٢) هي الآية (٤٥)، وقد قيل عن قتادة: إن الخلاف وقع في ثلاث آيات (٤٤، ٤٥، ٤٦). ولكن أكثر العلماء يرون أن هذا ضعيف.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة أحمد، والبخاري، ومسلم عن سهل بن سعد، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث صحيح.

(٤) رواه الحافظ البزَّار بسنده عن قتادة عن أنس، وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث بسنده: «قلت: هذا=



يُؤَخِّر أُمتي نصف يوم»[(١)] وهذا منه ﷺ على جهة الرجاءِ والظن، لم يجزم به خبراً، فأَناف الله تعالى على أَمله وأَخَّر أُمته أَكثر من رجائه، وكل ما يُروى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إخبارٌ عما وقع في ذلك، وذكر الثعلبي في ذلك أَنه قيل: إن المعنى: ينشق القمر يومئذ[(٢)]، وهذا ضعيف والأُمَّة على خلافه، وذلك أَن قريشاً سأَلت رسول الله ﷺ آية، فقيل: مجملة ـ وهذا قول الجمهور ـ وقيل: بل عيَّنوا شق القمر، ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأَراهم الله تعالى انشقاق القمر، فرآه رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين والكفار، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[(٣)]، وممن قال من الصحابة رأَيتهُ: عبد الله بن مسعود، وجبير بن مطعم،

= حديثٌ مدارُهُ على خَلَف بن موسى بن خَلَف العمي عن أبيه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ربما أخطأ»، ثم أورد حديثاً آخر رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: إنه يُعضِّد الذي قبله، ولفظه كما في مسند أحمد: «كُنَّا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قُعَيْقعانَ بعد العصر، فقال: ما أَعماركم في أعمار من مضى إلاّ كما بقي من النهار فيما مضى».

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم، وأحمد في مسنده (١ـ١٧٠)، ولفظه كما في المسند عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنِّي لأرجو ألا يعجز أُمَّتي عند ربِّي أن يؤخرهم نصف يوم»، فقيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة.

(٢) يعني: يوم القيامة. وقد قيل: إنَّ انشقاق القمر هو زوال الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يُسَمَّى الصبح فَلَقاً لانفلاق الظُّلْمة عنه، وقد يُعَبَّر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة:

فَلَمَّـا أَدْبَـرُوا وَلَهُـمْ دَوِيٌّ ... دَعَـانَـا عِنْـدَ شَـقِّ الصبْـحِ دَاعِ

ولكن جمهور العلماء على أَنَّ الانشقاق قد وقع فعلاً، وقد ثبت ذلك في البخاري وغيره من حديث ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وجُبَيْر بن مطعم، وابن عباس رضي الله عنهم، وقد أنكر أبو حيان كل رأي يخالف صريح العبارة بلفظ قوي صريح.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه ـ من طريق أبي معمر ـ عن ابن مسعود، قال انشَق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا، وأخرج مثله ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل ـ من طريق علقمة ـ عن ابن مسعود، قال: كنَّا مع النبي ﷺ بمنى، فانشق القمر حتى صار فرقتين، فتوارت فرقة خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: اشهدوا، وأخرج مثله مسلم، والترمذي، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في الدلائل ـ من طريق مجاهد ـ عن ابن عمر، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد، وأخرج أبو نعيم في الحلية ـ من طريق عطاءٍ، والضحاك ـ عن ابن عباس. . . مثله، إلا أنه ذكر أسماء الكفار الذين طلبوا من الرسول ﷺ آية.



وأخبر به عبد الله بن عمر، وأنس، وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وقال المشركون عند ذلك: سحرنا محمد، وقال بعضهم: سَحَر القمر، وقالت قريش: استخبروا المسافرين القادمين عليكم، فما ورد أحد إلاَّ أخبر بانشقاقه، وقال ابن مسعود: رأيته انشق فذهبت فرقة وراءَ جبل حراءَ، وقال ابن زيد: كان يُرى نصفه على قُعَيْقِعَان والآخر على أَبي قبيس، وقرأ حذيفة: «اقتربَت السَّاعَةُ وقَد انْشَقَّ الْقَمَرُ»، وذكر الثعلبي عنه أَن قراءَته: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ انْشَقَّ الْقَمَرُ» دون واو.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾، جاءَ اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي، فهو إخبارٌ بأَن حالهم هكذا، واختلف الناسُ في معنى [مُسْتَمِر] ـ فقال الزجاج: قيل: معناه دائمٌ مُتَمَاد، وقال قتادة، ومجاهد، والكسائي، والفراءُ: معناه: ذاهبٌ مارٌّ عن قريب يزول، وقال الضحاك، وأَبو العالية: معناه: مشدودٌ، من مراير الحبل، كأَنه سحْرٌ قد استَمَرَّ، أَي: أُحْكمَ، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى اسْتَمَرَّت عَلَى شَـذْرٍ مَرِيرَتُـهُ صِدْقَ العَزِيمةِ لاَ رَتًّا وَلاَ ضَرَعاً[1]

ثم أَخبر تعالى أَنهم كذَّبوا واتبعوا شهواتهم وما يَهْوَوْن من الأُمور، لاَ بِدَلِيلٍ ولا بِتَثَبُّت، ثم قال تعالى ـ عَلَى جهة الخبر الجزم ـ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، كأَنه تعالى يقول: وكلُّ شيءٍ إِلى غاية، فالحق يستقر ثابتاً ظاهراً، والباطل يستقر زاهقاً

---

(١) هذا البيت لِلَقِيط بن يَعْمَر الإيادي من قصيدة قالها يدعو قومه إلى قتال كسرى ويحضهم على الحرب والفداءِ، ويقول في مطلعها:

يَـا دَارَ عَبْلَـةَ مِـنْ مُحْتَلِّهَـا الْجَـرَعَـا هَـاجَتْ لِيَ الهَـمَّ والأَحْـزَانَ والـوَجَعَا

والبيت أحد الأبيات التي يتكلم فيها عن اختيار قائد شجاع، قادر على الحرب، قد حنكته الأيام وأكسبته الخبرة، فهو لا يستكين إذا عضه مكروه، ولا يعيش عيش المترفين إن ساعده رخاءُ العيش:

وَقَلِّـدُوا أَمْـرَكُـمْ للهِ دَرُّكُـمُ رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا

لا مُتْـرفـاً إن رخَـاءُ العَيْـش سَـاعَـدَهُ وَلا إذَا عَـضَّ مَكْـرُوهٌ بِـهِ خَشَعَـا

ومعنى «اسْتَمَرَّتْ»: أُحْكِمَتْ، والشَّزْرُ: فَتْل الحَبْل مما يلي اليسار، وهو أَشَدُّ لفتله، والمريرةُ: إحكام الفَتْل ثم أُريد بها القوة، يقال: اسْتَمَرَّت مريرةُ الرَّجُل إذا قويت شكيمته، والصِّدْقُ: الكامِلُ في كل شيءٍ، وصَدْقُ العزيمة: الثابت فيها المصمم عليها، ويُرْوى «مُرَّ العزيمة»، كما يُروى «مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ» بدلاً من «صَدْقَ العزيمة». والرَّتَّةُ: ردَّةٌ قبيحة في اللسان من العيب، والذي في «الشعر والشعراءِ» وفي الديوان: «لاقَحْماً» والقَحْمُ: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخوف، والضَّرَعُ: اللَّيِّن الذليل.



ذاهباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [وكلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٍّ] بالجرِّ في (مُسْتَقر)، يعني بذلك أشراطها، والجمهور على كسر القاف من (مُسْتَقِرٌّ) وقرأ نافع ـ بخلاف ـ وابن نصاح بفتحها، قال أبو حاتم: لا وجه لفتحها[1].

و«الأَنْبَاءُ» جمع نبأٍ، ويدخل في هذا جميع ما جاءَ به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأُمم الكافرة، و[مُزْدَجَرٌ] معناه: موضع زجر وانتهاءٍ، وأَصله «مُزْتَجَرٌ» قلبت التاءُ دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي، وكذلك تبدل تاءُ «افتعل» من كل فعل أَوله زايٌ كازْدَلَف وازْدان ونحوه.

وقوله تعالى: [حِكْمَةٌ] مرتفع إِمَّا على البدل من [مَا] في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ﴾، وإِمَّا على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه حكمة، و[بَالِغَةٌ] معناه: يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] نافية، أَي: ليس تُغْني مع عُتُوِّ هذه الناس، ويحتمل أَن تكون استفهاماً بمعنى التقرير، أَي: فَمَا غَنَاءُ النُّذر مع هؤلاءِ الكفرة؟

ثم سلَّى تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أَي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتمَّ القول في قوله تعالى: [عَنْهُمْ]، ثم ابتدأ وعيدهم، والعامل في قوله تعالى: [يَوْمَ] قوله تعالى: [يَخْرُجُون]، و[خُشَّعاً] حالٌ من الضمير في [يَخْرُجُونَ]، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال، قال المهدوي: ويجوز أَن يكون حالاً من الضمير في [عَنْهُمْ]، وقال الرُّمَّاني: المعنى: فَتَولَّ عنهم واذكر يومَ، وقال الحسن: المعنى: فتولَّ عنهم اليومَ وانحذفت الواو من [يَدْعُ] لأَن كَتَبَةَ المصحف اتَّبعوا اللَّفظ لا ما يقتضيه الهجاءُ، وأَمَّا حذف الياءِ من [الدَّاعِ] ونحوه فقال سيبويه: حذفوها تخفيفاً، وقال أَبو عليٍّ، حذفت مع الأَلف واللاَّم؛ إِذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ بضم الكاف، وقرأَ ابن كثير، وشبل، والحسن: [نُكْرٍ] بسكون الكاف، وقرأَ مجاهد، والجحدري، وأَبو قُلابة: [نُكِرَ] بكسر الكاف وفتح الراءِ على أنه مبني للمفعول، والمعنى في ذلك كله أَنه منكور غير معروف ولا يُرَى مثلُه، قال الخليل: النُّكُر نعتٌ للأَمر الشديد والرجل الداهية، وقال مالكُ بن عوف النَّصْري:

---

(١) قال أبو حيان في البحر: «وخُرِّجت عَلَى حذف مضاف، أي: ذو استقرارٍ وزمان استقرارٍ».



أَقْـدِمْ محـاجُ إِنَّـهُ يَـوْمٌ نُكُـر مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكُر[١]

و«نُكُر» فُعُل، وهو صفة، وذلك قليل في الصِّفات، ومنه «مِشْيَةٌ سُجُحٌ» قال الشاعر:

دَعُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إِنَّ الـرِّجَـالَ ذوُو عَصْـبٍ وتَـذْكيـرِ[٢]

ومثله: «رجلٌ شُلُلُ»[٣] و«نَاقَةٌ أُجُدٌ»[٤].

وقرأ جمهور القراءِ: [خُشَّعاً]، وهي قراءَة الأعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقتادة. وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [خَاشعاً] وهي قراءَة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وهي إِفراد بمعنى الجمع، ونظيره قول الشاعر:

وَشَبَـاب حَسَـن أَوْجُهُهُـمْ مِـنْ إِيـادِ بْـنِ نِـزَار بْـنِ مَعَـدّ[٥]

---

(١) يريد الشاعر أن هذا اليوم يوم منكور غير معروف لأن أحداً لم ير مثله لما فيه من شدَّة، يقال: أَنْكَرْتُه فهو مُنْكَر، ونَكِرْتُه فهو منكور، وقد جمع الأعشى بين اللغتين حين قال: «وَأَنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الَّذي نَكِرَتْ...»، ومعنى: يحمي: يدافع ويحفظ الشيءَ ويَمْنَعُه، ويكُرُّ: يحمل على العدوِّ ويعيد الحمل عليه مرة بعد أُخرى، يطالبه بالإِقدام في هذا اليوم الشديد العصيب الذي لم ير أحد مثله فإن اجتماعهما معاً يقوي عزمهما، ويساعدهما على حماية قومهما والكر على العدوِّ وهزيمته.

(٢) هذا البيت أحد أبيات سبعة قالها حسَّان بن ثابت في هجاء بني الحارث بن كعب رهط النجاشي الشاعر، والتَّخَاجُؤُ: التباطُؤ في المشي، وقد روي هكذا في خزانة الأدب، وفي الديوان، ولكن جاء في معجم مقاييس اللغة: «ذروا التَّخَاجِيء»، والصحيح هو التَّخاجُؤ؛ لأن التَّفاعُل في مصدر «تفاعَل» حقُّه أن يكون مضموم العين، ولا تأتي مكسورة إلا في المعتل اللام، والمِشْيَةُ السُّجُح ـ بضم السِّين والجيم ـ هي المشية السَّهْلة، وقال الأزهري: هي أن يعتدل الإنسان في مشيه ولا يتمايل فيه تكبُّراً، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على ذلك، وورد في حديث عليٍّ رضي الله عنه يُحَرِّض أصحابه على القتال: «وامشوا إلى الموت مِشْيَةً سُجُحاً»، وأُلو عَصْبٍ: أصحابُ شِدَّة خَلْق، يقال: رجل معصوب الخَلْق، والرجل الذَّكر: القويُّ الشديد الأبيُّ.

(٣) يقال رجل مِشَلٌّ وشَلولٌ وشُلُلٌ وشُلْشُلٌ، والمعنى فيها كلها أنه خفيف سريع، وجمع شُلُل: شُلُلُون.

(٤) ناقةٌ أُجُدٌ: متصلة الفَقار، تراها كأنها عظم واحد، والمراد أنها قوية موثَّقَةُ الخَلْق، والمادة تعطي معنى القوة والإِحكام، يقال: بناءٌ مُؤَجَّدٌ بمعنى: مُقَوًّى مُحْكم. وكل هذه الأمثلة على وزن «فُعُل»، وهذا الوزن قليل في الصفات كما قال ابن عطية.

(٥) هذا البيت للحارث بن دوس الإيادي، ويروى لأبي دُواد الإيادي، وهو في البحر المحيط، وابن جرير الطبري، والقرطبي، وكلهم أخذه عن الفراءِ الذي استشهد به في (معاني القرآن)، قال: «إذا تقدم الفعل=



ورَجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة، وذكر أن رجلاً من المتطوعة قال قبل أَن يستشهد: رأَيت النبي ﷺ في النوم فسأَلته عن [خُشَّعاً] و[خَاشعاً]، فقال: [خَاشعاً]، بالأَلف، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب، وعبد الله رضي الله عنهما [خَاشعاً]، وخصَّ تعالى الأَبصار بالخشوع لأَنه فيها أَظهر منه في سائر الجوارح، وكذلك سائر ما في نفس الإِنسان من حياءٍ أَو صلف أَو خوف ونحوه إِنما يظهر في البصر.

و«الأَجْدَاثُ» جمع جَدَث وهو القبر، وشبَّههم تعالى بالجراد المنتشر، وقد شبَّههم في أُخرى بالفراش المبثوث[1]، وفيهم من كل هذا شبه، وذهب بعض المفسِّرين إِلى أَنهم أَولاً كالفراش حين يموج بعضٌ في بعض، ثم في رتبة أُخرى كالجراد إِذا توجَّهوا نحو المحشر والدَّاعي، وفي الحديث أَن مريم بنت عمران عليها السلام دعت للجراد فقالت: «اللهم أَعشها بغير رضاع، وتابع بنيها بغير شياع».

و«الْمُهْطِعُ»: المُسْرع في مَشْيه نحو الشيءِ مع هزٍّ ورَهَق ومَدٍّ بصر نحو المقصد إِمَّا لخَوْف أَو طمع ونحوه، ويقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لما يَرَوْنَ من مخايل هوله وعلامات مشقته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

سَوْقُ هذه القصة وعيدٌ لقريش وضَرْبُ مَثَل لهم، وقولُه تعالى: [وازْدُجرَ] إِخبارٌ من الله تعالى أَنهم زَجروا نوحاً عليه السلام بالسَّبِّ والنَّجْه[2] والتخويف، قاله ابن زيد وقرأَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[3]، وذهب مجاهد إِلى أَن (وَازْدُجِرَ)

= قبل اسم مؤنث، وهو له، أو قبل جمع مثل الأنصار والأعمار وما أشبهها جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه، وقد أتى بذلك في هذا الحرف، فقرأه ابن عباس رضي الله عنهما: [خَاشعاً].

(١) في قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (القارعة): ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

(٢) يقال: نَجَهَ فُلاناً نَجْهاً: ردَّه رَدًّا قبيحاً.

(٣) من الآية (١١٦) من سورة (الشُّعراءِ).



من كلام قوم نوح، كأَنهم قالوا: «مجنون وازدُجرَ»، والمعنى: استطير جُنُوناً واستعر جنوناً، وهذا قول فيه تعسُّفٌ وتحكُّم، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وعاصم، والأَعرج، والحسن: (أَنِّي) بفتح الأَلف، أَي: بأَنِّي، كأَن دعاءَه كان هذا المعنى، وقرأَ عاصم أَيضاً، وابن أَبي إِسحق، وعيسى: (إِنِّي) بكسر الأَلف، كأَن دعاءه كان هذا اللفظ، قال سيبويه: المعنى: قال إِنِّي، وذهب جمهور المفسِّرين إِلى أَن المعنى: قد غلبني الكفَّار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر لي منهم بأَنْ تُهلكهم، ويحتمل أَن يريد: فانتصر لنفسك إِذ كذبوا رسولك، ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما: إِن المراد بقوله: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ الله تعالى، فوقعت الإِجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام، وذهبت المتصوفة إِلى أَن المعنى: إِنِّي قد غلبتني نفسي في إِفراطي في الدعاءِ على قومي فانتصر منِّي يا ربِّ بمعاقبة إِن شئتَ، والقولُ الأَول هو الحق إِن شاءَ الله تعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، وذلك هو الانتصار من الكفار.

وقرأَ جمهور القراءِ: (فَفَتَحْنَا) بتخفيف التَّاءِ، وقرأَ ابن عامر، وأَبو جعفر، والأَعرج: (فَفَتَّحْنَا) بشدِّها على المبالغة، ورجَّحها أَبو حاتم بقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[1]. قال أَبو حاتم: يعني بالأَبواب المجرَّة، وهي شَرَج السماءِ كشَرَج العَيْبَة[2]، وقال قوم من أَهل التأْويل: الأَبواب حقيقة، فتحت في السماءِ أَبوابٌ جرَى منها الماءُ، وقال جمهور المفسِّرين: هو تشبيه ومجاز لأَن المطر كثُر كأَنه من أَبواب، و«المُنْهَمر»: الشديدُ الوقوعِ الغزيرُ، قال امرؤ القيس:

رَاحَ تَمْـرِيـهِ الصَّبَـا ثُـمَّ انْتَحَـى ... فيـه شُؤْبُـوبُ جَنُـوبٍ مُنْهَمِـرْ[3]

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص).

(٢) العَيْبَةُ: وعاءٌ من جلد ونحوه يكون فيه المتاع، وهو ما يُسَمَّى «الحقيبة»، وشَرَج العَيْبَة: عُرْوَتُها، فإذا أَدخلت عُراها بعضها في بعض قيل: شَرَّجْتَهَا، والمراد الفتحات التي تكون في الحقيبة إذا تركت عُرَاها بدون إحكام بإدخال بعضها في بعض فإنَّ هذه الفتحات تكون كالأبواب، تصوروا للسماءِ فتحات مثل الفتحات التي تكون في الحقيبة.

(٣) هذا بيت من ثمانية أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الغيث، وقيل عنها في الديوان: «هذا أشعر ما جاء في وصفه»، ورواية الديوان: «مُنْفَجر» بدلا من «مُنْهَمِر»، وعلى هذا فلا شاهد فيه، ويكون الشاهد في البيت السابق كما جاء في الديوان وهو:

سَـاعَـةً ثُـمَّ انْتَحَـاهَـا وَابِـلٌ ... سَـاقِـطُ الأَكْنَـافِ وَاهٍ مُنْهَمِـرْ =



وقرأ الجمهور: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بشدِّ الجيم، وقرأ ابن مسعود وأَصحابه، وأَبو حَيْوة، والمفضل عن عاصم بتخفيفها، وقرأ الجمهور: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ على اسم الجنس الذي يعُمُّ ماءَ السماءِ وماءَ العيون، وقرأ علي بن أَبي طالب، والحسن، وعاصم، والجحدري: (فالْتَقَى الماءَان)، ويروى عن الحسن: [فالتقى الماوان].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ قال فيه الجمهور: المعنى: على رُتبة وحالة قد قدرت في الأول وقضيت، وقال جمهور من المتأَولين: المعنى: على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه، ورَوَوْا أَن ماءَ الأَرض علا سبعة عشر ذراعاً، وكان ماءُ السماءِ ينزل عليه بقية أَربعين ذراعاً أَو نحو هذا لأَنه مما اختلفت فيه الروايات، ولا خبر يقطع العذر في شيءٍ من هذا التحديد، وقرأَ أَبو حَيْوة: [قُدِّر] بشدِّ الدَّال.

و(ذات أَلواح ودُسُر) هي السَّفينة، قيل: كانت أَلواحها وخشبها من ساج. و«الدُّسُر»: المسامير، واحدها دسارٌ، وهذا هو قول الجمهور، وهو عندي من الدفع المُتَتَابع؛ لأَن المسمار يدفع أَبداً حتى يستوي، وقال الحسن، وابن عباس أَيضاً: الدُّسر مقادم السَّفينة لأَنها تَدْسُر الماءَ أَيْ تدفعه، والدَّسْر: الدَّفْع، وقال مجاهد وغيره: الدُّسُر: نُطُق[1] السَّفينة، وقال أَيضاً: الدُّسُر: عوارض السَّفينة، وقال أَيضاً: أَضلاع السَّفينة، وقد تقدم القول في شرح قصة السَّفينة مستوعباً. وجمهور الناس على أَنها كانت كهيئة السُّفن اليوم كجؤجؤ الطائر[2]، وورد في بعض الكتب أَنها كانت مربَّعة طويلة في السماءِ واسعة السُّفل ضيقة العُلْو، وكان أَعلاها مفتوحاً للهواءِ والتنفس، قالوا: لأَن الغرض منها إِنما كان السلامة حتى يزول الماءُ، ولم يكن طلبَ الجري

= ومعنى «رَاحَ»: عادَ السحابُ بالمطر آخر النهار، وتَمْرِيه: تَسْتَدِرُّهُ، وأَصْلُه من مَرْيِ الضَّرْع، وهو مَسْحُه باليد حتى يُدِرَّ اللبن، وكذلك السحاب حين تضربُه ريح الصَّبَا الباردة يتجمَّع ويتكاثف فيسقط مطراً، فكأن ريح الصَّبَا مَرَتْهُ لينزل منه الماءُ، ثم جاءت الجنوبُ مُحَمَّلَةً بالأمطار من بحر الهند فأضافت إلى هذا السحاب ومطره شُؤْبُوباً آخر يتفجر وينزل بكثرة وشدَّة. وقد خصَّ ريح الصَّبا لأنهم يمطرون بها، وذكر ريح الجنوب لأن مطرها يكون غزيراً متدفقاً.

(١) النُّطُق: جمع نطاق، وهو حزام يُشَدُّ به وسط الشيءِ ليصير متيناً متماسكاً.

(٢) جُؤْجُؤُ الطائر: مُجْتمع رُءُوس عظام الصدر، ويسمى صَدْرُ السفينة جُؤْجُؤاً، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: (كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة).

وقَصْدَ المواضع المعيَّنة، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى، والله أَعلم كيف كانت، والجميع محتمل.

قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، قال الجمهور: معناه: بحفظنا وكفايتنا وتحت نظر منَّا لأهلها، فسمَّى هذه الأَشياءَ أَعْيُناً تشبيهاً، إذ الحافظ المُتَحَفِّي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نُصْب عينيه، وقيل: المراد مَنْ حَفِظها من الملائكة، سمَّاهم عيوناً، وقال الرُّمَّاني: وقيل: إن قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يريد به العيون المتفجرة من الأَرض، وهذا ضعيف. وقرأَ أَبو السَّمال: [بِأَعْيُنَّا] مُدْغمةً، وقرأَ جمهور الناس: ﴿كُفِرَ﴾ بضم الكاف وكسر الفاءِ، واختلفوا في المعنى ـ فقال ابن عباس، ومجاهد: يُراد بها الله تعالى، كأَنه قال: غَضَباً وانتِصاراً لله تعالى، أَي: انتصر لنفسه فأَنجى المؤمنين وأَغرق الكافرين، وقال مكي: وقيل: [مَنْ] يُرادُ بها نوحٌ عليه السلام والمؤمنون؛ لأَنهم كُفِرُوا من حيث كُفِر بهم، فجازاهم الله تعالى بالنجاة. وقرأَ يزيد بن رومان[١]، وعيسى، وقتادة: [كَفَرَ] بفتح الكاف والفاءِ.

والضمير في ﴿تَرَكْنَاهَا﴾ قال مكي بن أَبي طالب: هو عائد على هذه الفعلة والقصة، وقال قتادة، والنقاش، وغيرهما: هو عائد على هذه السَّفينة، قالوا: وإِن الله تعالى أَرساها على الجودي حين تطاولت الجبال وتواضع هو، وهو جُبَيْل بالجزيرة بموضع يقال له: «بَاقِرْدَى»، وأَبقى خشبها هنالك حتى رأَتْ بعضه أَوائل هذه الأُمَّة، قال قتادة: وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً. و﴿مُدَّكِرٍ﴾ أَصله «مُذْتَكِر»، أَبدلوا من التاءِ دالاً لتناسب الذَّال في النطق، ثم أَدغموا الذَّال في الدَّال، وهذه قراءَة الناس، قال أَبو حاتم: رويت عن النبي ﷺ بإِسناد صحيح[٢]، وقرأَ قتادة: [مُذَّكِرٍ] بإِدغام الثاني في الأول، قال أَبو حاتم: وذلك رديءٌ، ويلزمه أَن يقرأَ: [وَاذَّكَرَ بعد أمة][٣]، و[ومَاتَذَّخِرُونَ في بيوتكم][٤].

---

(١) هو يزيد بن رومان المدني، مولى آل الزبير، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، من الخامسة، مات سنة ثلاثين، وروايته عن أبي هريرة مرسلة».

(٢) فقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، وأَبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن مسعود قال: قرأت على النبي ﷺ: [فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ] بالذال فقال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بالدال. (الدر المنثور).

(٣) من قوله تعالى ﴿وادكر بعد أمة﴾ من الآية (٤٥) من سورة (يوسف).

(٤) من قوله تعالى: ﴿وما تدخرون في بيوتكم﴾ من الآية (٤٩) من سورة (آل عمران).



وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ توقيف لقريش، و«النُّذُرُ» هنا جمع «نَذير» المصدر، بمعنى: كيف كان عاقبة إنذاري لمن لم يَحْفل به كأَنتم أَيها القوم؟

و﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ معناه: سهَّلناه وقرَّبناه، و«الذِّكْر»: الحفظ عن ظهر قلب، قاله ابن جبير: لم يُستظهر من كتب الله تعالى سوى القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يُسِّر بما فيه من حُسْن النظم وشرف المعنى، فله لَوْطَةٌ[1] بالقلوب وامتزاجٌ بالعقول السليمة.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ استدعاءٌ وحضٌّ على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس، قال مطرف: معناه: هل من طالب عِلْم فيُعَانُ عليه؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الآية تعديد نعمه في أَن الله تبارك وتعالى يسَّر الهدى ولا بخل من قبله، فـلله درُّ من قبل واهتدى، وتقدم تعليل: [مُدَّكِرٍ].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

«عادٌ» قبيلة، وقد تقدَّم قصصها.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾، موضع [كَيْفَ] نصب، إمَّا على خبر [كَانَ] وإمَّا على الحال، و[كَانَ] بمعنى: وُجِدَ وَوَقع في هذا الوجه، و[نُذُرِ] جمع «نَذِيرٍ» وهو المصدر، وقرأَ ورش وحده: [نُذُرِي] بالياءِ، وقرأَ الباقون: [نُذُرِ] بغير ياءٍ على خط المصحف.

---

(١) يقال: «لاط بالقلب» بمعنى: لصق به مع محبَّة.



و«الصَّرْصَرُ» قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: معناه: الباردة، وهو من الصرِّ، وقال جماعة من المفسِّرين: معناه: المُصَوِّتة نحو هذين الحرفين، مأْخوذ من: صرَّت الرِّيح إِذا هبت دُفَعاً كأَنها تنطق هذين الحرفين: الصَّاد والرَّاءِ، وضوعف الفعل كما قالوا: «كَبْكَب وكَفْكَف» من «كَبَّ وكفَّ»، وهذا كثير، ولم يختلف القراءُ في سكون الحاءِ من [نَحْسٍ] وإِضافة اليوم إِليه إِلاَّ ما رُوي عن الحسن أَنه قرأَ: [فِي يَوْمٍ] بالتنوين [نَحِسٍ] بكسر الحاءِ، و[مُسْتَمِرٌّ] معناه: متتابع، قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم، قال الضحاك في كتاب الثعلبي: المعنى: كان مُرًّا عليهم، وذكره النقاش عن الحسن، ورُوي أَن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه نحس مستمر كان يوم أَربعاءٍ، وروي في بعض الأَحاديث في تفسير هذه الآية: يوم نحس مستمر يوم الأَربعاءِ، فتَأَول بعض الناس في ذلك أَنه مستصحبٌ في الزمان كله، وهذا عندي ضعيف، وإِن كان أَبو بشر الدولابي ذكر حديثاً رواه أَبو جعفر المنصور عن أَبيه محمد عن أَبيه علي عن أَبيه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أَربعاء من الشهر يوم نحس مستمر»[1]، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأَعاجم، وقد وجد ذكر الأَربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولَّدين، وذكر الثعلبي عن زِرِّ بن حُبَيْش في تفسير هذه الآية لعادٍ أَنه كان في أَربعاء لا تدور، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال: كان القمر منحوساً في رجل، وهذه نزغة سوءٍ عياذاً بالله تعالى أن تصح عن جعفر بن محمد.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نَزْعاً فتطرحهم، وروي عن مجاهد أَنها كانت تلقي الرجل على رأْسه فيتفتَّت رأْسُهُ وعنقه وما يلي ذلك بين يديه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فلذلك حَسُن التشبيه بأَعجاز النخل، وذلك أَن المُنْقَعر هو الذي ينقلع من قعره، فذلك التَّشَعُّب الذي لأَعْجَاز النخل كان يشبهها ما تقطَّع وتشعَّب من شخص الإِنسان، وقال قوم: إِنما شبَّههم بأَعْجاز النخل لأَنهم كانوا يحفرون حُفَراً ليمتنعوا فيها من

---

(١) أخرجه وكيع في الغرر، وابن مردويه في التفسير، والخطيب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف.

الريح، فكأنه شبَّه الحُفَر بعد النَّزع بحفر أَعجاز النَّخل، والنَّخل تُذَكَّر وتُؤَنث فلذلك قال تعالى هنا: [مُنْقعِرٍ]، وفي غير هذه السُّورة [خَاوِيَةٍ][1]، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما رُوي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله، وفائدة قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ التخويف وهزُّ الأَنْفُس. قال الرُّمَّاني: لما كان الإِنذارُ أَنواعاً كرَّر التذكير والتَّنبيه، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ التأْكيد والتحريض وتنبيه الأَنْفُس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «أَلاَ هل بلَّغت؟ أَلاَ هل بلَّغت؟ أَلاَ هل بلَّغت؟»[2]، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلاَ وقول الزُّور، أَلا وقول الزُّور، أَلاَ وقول الزُّور»[3]، وكان رسول الله ﷺ إِذا سلَّم على قوم سلَّم عليهم ثلاثاً، فهذا كلُّه نحوٌ واحد وإِن تنوع.

و«ثَمُود» قبيلة صالح عليه السلام، وهم أَهل الحِجْر، وقرأَ الجمهور: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾، ونصبه بإِضمار فعل يدلُّ عليه [نَتَّبِعُهُ]، و[وَاحِداً] نعت لـ[بَشَراً]، وقرأَ أَبو السَّمَّال: [أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ]، ورفعه إِمَّا على إِضمار فعل مَبْني للمفعول، والتقدير: أَيُنَبَّأُ بَشَرٌ؟ وإِمَّا على الابتداءِ، والخبرُ في قوله تعالى: [نَتَّبِعُهُ]، و[وَاحِداً] على هذه القراءَة حالٌ، إِمَّا من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] وإِمَّا على المقدَّر مع [مِنَّا]، كأَنهم يقولون: أَبَشَرٌ كائن منَّا واحد؟ وفي هذا نظر[4]، وحكى أَبو عمرو الداني أَن قراءَة أَبي السَّمَّال: [أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ] بالرفع فيهما، وهذه المقالة من ثمود حسدٌ منهم لصالح عليه

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة (الحاقة): ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾.

(٢) تكرر ذلك في حجة الوداع، حيث قال ﷺ: «يا أَيُّها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: هذا يوم حرام، قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأَي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ثم أعادها مراراً، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم هل بلَّغت، مِراراً»، والحديث متفق عليه، وهذا جزءٌ منه كما رواه أحمد.

(٣) جاء ذلك في حديث عن الكبائر وأكبرها، وقد أخرجه مسلم في الإيمان، والترمذي في الشهادات، وأحمد في المسند (٥ـ٣٧)، ولفظه كما في مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً)، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قول الزُّور، وكان رسول الله ﷺ متَّكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

(٤) إن كان حالاً من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] كان المعنى: أَنتَّبعه حالة كونه واحداً منفرداً لا نصير له؟ وإن كان حالاً من الضمير في [مِنَّا] كان المَعنى: أَيُنَبَّأُ بَشَر كائن منَّا؟ ويكون الناصب لهذه الحال الظرف.



السلام، واستبعادٌ أن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل، فقالوا: أنكون جميعاً ونتبع واحداً، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتيه من يشاءُ، ويُفيض نور الهدى على من رَضيه.

وقولهم: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ معناه: في أمرٍ مُتلف مُهْلك بالإتلاف، و[سُعُرٍ] معناه: في احتراق أنفُسٍ واستعارُوهَا حنقاً وهمًّا باتباعه، وقيل في «السُّعُر»: العناءُ، وقيل: الجنون، ومنه قيل: ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ و«أُلْقيَ» بمعنى «أُنزِلَ»، وكأنه يتضمن عجلة في الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(٢)]، و«الذِّكْرُ» هنا: الرِّسالةُ وما يمكن أن يكون جاءَهم به من الحكمة والموعظة.

ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، أي: ليس الأمر كما يزعم، و«الأشِر» البطرُ المَرِحُ، فكأنهم رَمَوْه بأنَّه أشِرَ فأراد العُلُوَّ عليهم وأن يقتادهم ويتملَّك طاعتهم، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، وهذه بالياءِ من تحت قراءَة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم[(٣)]، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [سَتَعْلَمُونَ] بالتاءِ على معنى: قُل لهم يا صالح، وقوله تعالى: [غداً] تقريب يراد به الزّمان المسْتَقْبل لا يوماً بعينه، ونحوه المثل «مع اليوم غدٌ»[(٤)]، وقرأ جمهور الناس: [الأشِرُ] بكسر الشين كحذر بكسر الذال، وقرأ مجاهد ـ فيما ذكر عنه ـ: [الأَشُرُ] بضم الشين كحَذُر بضم الذال، وهما

---

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٢) الآية (٥) من سورة (المزَّمل).

(٣) لعلَّ ذلك في رواية أبي بكر عنه، أما قراءته في رواية حفص فهي بالياءِ كما هي في المصحف.

(٤) يضرب هذا المثل في تنقل الدُّوَل على مرّ الأيام وكرها، والمثل كما ذكره الميداني في «مجمع الأمثال»: «إن مع اليوم غدا يا مُسْعدة». وقال الزمخشري في «المستقصى»: «يضربه الراجي للظفر بمراده في عاقبة الأمر وهو في بَدئه غير ظافر، قال:

لا تَقْلُوَاهَا وادْلُوَاهَا دَلْوَا ... إنَّ مَعَ اليَوْمِ أَخَاهُ غَدْوَا

وهو في حديث عن الإبل، ومعنى «لا تَقلُوَاهَا»: لا تسوقوها سوقاً شديداً، بل «ادْلُوَاهَا دَلْواً» أي: سوقوها سوقاً رفيقاً فإن الأيام ممتدة ولا داعي للسرعة، وهناك بعد اليوم غدٌ يمكن الوصول فيه.

بناءَان من اسم الفاعل، وقرأَ أَبو حيوة: [الأَشَرُ] بفتح الشين كأَنه وصف بالمصدر، وقرأَ أَبو قُلابة: [الأَشَرُّ] بفتح الشين وشدِّ الراءِ، وهو الأَفعل، ولا يستعمل إِلاَّ بالأَلف واللام، وهو كان الأَصيل لكنه رفض تخفيفاً وكَثْرَةَ استعمال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه النَّاقة التي اقترحوها أَن تخرج من صخرة صماءَ من الجبل، وقد تقدَّم قصصها، فأَخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام ـ على وجه التأْنيس ـ أَنه يُخرج لهم النَّاقة ابتداءً واختباراً، ثم أَمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر، و«اصْطَبِرْ» أَصله: اصْتَبر «افْتَعل»، أُبدلت التاءُ طاءً لتناسب الصاد، ثم أَمره تعالى أَن يخبر ثمود بأَن الماءَ قسمة بينهم، وهو ماءُ البئر الذي كان لهم.

واختلف المتأَولون في معنى هذه القسمة ـ فقال جمهور منهم: قسمة بينهم، يتساوون فيه في اليوم الذي لاترد الناقة فيه، وذلك ـ فيما روي ـ أَن الناقة كانت ترد البئر غبًّا[1]، وتحتاج جميع مائها يومها، فنهاهم الله تعالى عن أَن يستأْثر أَهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم، وأَمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم. وقال آخرون: معناه: الماءُ بين جميعهم وبين الناقة قسمة. و[مُحْتَضَرٌ] معناه: محضور مشهود مُتَوَاسى فيه[2]، وقال مجاهد: المعنى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾، أَي من الماءِ يوماً ومن لبن الناقة يَوْماً [مُحْتَضَرٌ] لَهُمْ، فكأَنه أَنبأَهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك.

و«صَاحِبُهُم» هو قُدار بن سالف، وبسببه سُمِّي الجزار القُدارَ للشبه في الفعل، قال الشاعر:

إِنَّـا لَنَضْـرِبُ بـالسُّيُـوف رُءُوسَهُـمْ ... ضَـرْبَ الْقُـدَار نَقيعَـةَ القُـدَّام[3]

---

(١) أي تَرِدُ يوماً ولا تَرِدُ يوماً.

(٢) بمعنى: التَّساوي فيه.

(٣) هذا البيت للْمُهَلْهِلْ، والقُدارُ في الأصل: الطَّبَّاخ، وقد يقال للجزَّار، قال في اللسان: «وفي حديث=



وقد تقدَّم شرح أَمر قدار بن سالف.

و«تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى»، فكأَن هذه الفعلة تدافعها الناسُ وأَعطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال للرجل الذي يُدخل نفسه في تحمُّل الأُمور الثقال: متعاط، على الوجه الذي ذكرناه، والأَصل «عَطَا يعطو» إِذا تناول، ثم يقال: عاطى غيره، ثم يقال: تعاطى، وهذا كما يقال: جَرَى وجارَى وتجارى، وهذا كثير.

ويُروى أَنه كان مع شَرْب ـ وهم التسعة رهط ـ فاحتاجوا ماءً فلم يجدوه بسبب وِرْد الناقة، فحمله أَصحابه على عقرها، ويُروى أَن ملأَ القبيل اجتمع على عقرها، ورويت أَسباب غير هذين، وقد تقدَّم ذلك.

و«الصَّيْحَةُ» يروى أَن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتَّتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر، و«الهشيم» ما تهشَّم وتفتَّت من الأَشياءِ، وقرأَ جمهور الناس: [كهشيم المحتظِر] بكسر الظاءِ، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاءِ ونحوهم، قاله ابن إِسحق السبيعي، والضحاك، وابن زيد، وهي مأْخوذة من الحَظْر وهو المَنْع، والعرب وأَهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أَيضاً من الأَغصان والشجر المورق والقصب ونحوه، ولهذا كله هشيم يتفتَّت، إِمَّا في أَول الصنعة وإِمَّا عند بلى الحظيرة وتساقط أَجزائها، وحكى الطبري عن ابن عباس، وقتادة أَن «المحْتَظِر» معناه: المحترق، قال قتادة: كهشيم مُحْرَق. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وأَبو رجاءٍ: [الْمُحْتَظَر] بفتح الظَّاءِ، ومعناه الموضع الذي احتَظر، فهو مُفْتَعَل من الحظْر، أَو الشيءُ الذي احتُظر به، وقد روي عن سعيد بن جبير أَنه فسَّر ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بأَن قال: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي، وهذا متوجه لأَن الحائط حظيرة، والسَّاقط هشيم، وقال أَيضاً هو وغيره: الْمُحْتَظِر معناه: المحرق بالنار، أَي كأَنه ما في الموضع

= عُمَيْر مولى أبي اللَّحم: أمرني مولاي أن أَقْدُرَ لحماً، أي: أطبخ قدراً من لحم»، والبيت في اللسان، والرواية فيه: «لنضربَ بالصَّوَارِم هامَهَا»، والنَّقيعة: ما يُذبح للضيافة، أو طعام الرجل ليلة عُرسه، أو ما ينحر من النهب قبل القسمة، والقُدَّام: جمع قادم، وقيل: هو المَلِك. يقول: إنا لنضرب بالسيوف رءُوس أعدائنا كما يضرب الطباخ أو الجزَّار اللحم الذي يقدم في الطعام للضيوف، والشاهد أن القُدار بمعنى: الجزَّار.

المحتظر بالنار، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءَة كسر الظاءِ، وفي هذا التأويل بعض البُعد، وقال قوم: المحتظَر ـ بالفتح ـ: الهشيم نفسه، وهو مفتعَل، وهو كمسجد الجامع وشبهه.

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام، و«الحاصبُ»: السحابُ الرامي بالبَرَد وغيره، فشبه تلك الحجارة التي رُمي بها قو مُ لوط به في الكثرة والتوالي، وهو مأْخوذ من الحصباءِ، كأَن السحاب تحصب مقصده، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَخصبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ(١)

وقال ابن المُسَيَّب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأَهل المدينة: حصِّبوا المسجد، و«آل لوط»: ابنتاه فيما رُوي، و«سَحَرٍ» مصروف لأَنه نكرة لم يُرَد به يوم معين.

وقوله تعالى: [نِعْمَةً] نصب على المصدر، أَي: فعلنا ذلك إِنعاماً على القوم الذين نجيناهم، وهذا هو جزاؤُنا لمن شكر نعمنا وآمن وأَطاع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

المعنى: ولقد أَنذر لوط قومه أَخْذنا إِيَّاهم وبَطْشنا بهم، أَي عذابنا لهم، و[تَمارَوْا] معناه: تشككوا وأَهدى بعضهم الشك إِلى بعض بتعاطيهم الشُّبَه والضلال، و«النُّذُر» جمع نذير وهو المصدر، ويحتمل أَن يراد بالنُّذر هنا وفي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ

---

(١) قال الفرزدق هذا البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلب، وبعده يقول:

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا ... عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

وهو في البيتين يصف حالهم في اتجاههم إلى الممدوح في الشام، والريح الشديدة تحمل الحصباءَ فتلقيها على عمائمهم وهم يحملون أرحلهم على نياق تزحف من شدة الإعياء والتعب.



﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل. و«الضَّيْف» يقع للواحد وللجميع، وقد تقدَّم ذكر أَضيافه وقصصهم مستوعباً.

وقوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة: هي حقيقة، جرَّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أَعينهم فاستوت مع وجوههم، قال أَبو عبيدة: مَطْموسة بجلد كالوجه، وقال ابن عباس، والضحاك: هذه استعارة، وإِنما حجب إِدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس. وقوله تعالى: [بُكْرَةً] قيل: كان ذلك عند طلوع الشمس، وأَدغم ابن محيصن(١) الدال في الصاد من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾، والجمهور على الإِظهار، و(بُكْرَةً) نكرةٌ ها هنا فلذلك صُرفت.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة، و[نُذُرِ] جمع المصدر، أَي: وعاقبة نُذُري التي كذَّبتم بها، وقال تعالى: [مُسْتَقِرٌّ] في صفة العذاب لأَنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم، وهم مدة موتهم تحت الأَرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أَمر متصل مستقر، وكرر قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تأْكيداً وتوبيخاً، وروى ورش عن نافع: [وَنُذُرِي] بياءٍ.

و«آلُ فرعون» قومُه وأَتباعه، ومنه قول الشاعر:

فَــلاَ تَبْـكِ ميْتــاً بَعْـدَ مَيْـتٍ أَجَنَّــهُ ... عَلِــيٌّ وَعَبَّــاسٌ وَآلُ أَبِــي بَكْــرِ(٢)

يريد المسلمين في مواراة النبي ﷺ، ويحتمل أَن يريد بـ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قرابته على عُرف الآل، وخصهم بالذكْر لأَنهم عمدة القوم وكبراؤُهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يحتمل أَن يريد آل فرعون المذكورين أَخذناهم كذلك، يريدهم بالضمير لأَن ذلك الإِغراق الذي كان في البحر كان بالعزَّة والقدرة، ويكون قوله: [بِآيَاتِنَا] يريد بها التِّسع، ثم أَكَّد بقوله: [كُلِّهَا]، ويحتمل أَن يكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ كلاماً تامًّا ثم يكون قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا

---

(١) في بعض النسخ: «وأَدغم أبو محمد».

(٢) أَجَنَّه: سَتَرهُ أو وضعه في القبر، قال في اللسان: «وفي الحديث: وَلِيَ دفن سيدنا رسول الله ﷺ وإجْنَانَه عليٌ والعباس، أي: دَفْنه وسَتْرهُ»، يقول الشاعر: لا يستحق أي ميت أن تبكي عليه بعد أن مات محمد ﷺ، والشاهد أن «آل» بمعنى: قوم وأتباع.



كُلِّهَا﴾ يعود الضمير في [كذَّبوا] على جميع من ذكر من الأُمم، ويجيءُ جميع الآيات مستقيماً، ويجيءُ قوله تعالى: [فَأَخَذْنَاهُمْ] كذلك يعود على جميع الأُمم المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الآية... خطابٌ لقريش، وَقَفَهم على جهة التوبيخ، أَثَمَّ خصلة من مال أَو قوَّة أَبدان وبسطة أَو عقل أَو غير ذلك مما يقتضي أَنكم خير من هؤلاءِ المعذبين لمَّا كذَّبوا فتُرْجَى لكم ـ بذلك الفضل ـ النجاة من العذاب حين كذبتم رسولكم؟ أَم لكم في كتب الله تعالى المنزَّلة براءَة من العذاب؟ قاله الضحاك، وابن زيد، وعكرمة.

ثم قال تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: أَمْ يَقولونَ نَحْنُ جَميعٌ واثقون بأَنَّا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي، سَيُهزمون فلا ينفع جمعهم، وقرأَ أَبو حيْوة: [أَم تَقُولُونَ﴾ بالتَّاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه عِدَةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ أَن جَمْع قريش سيهزم نُصرة له، والجمهور على أَن الآية مكيَّة، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت أَقول في نفسي: أَي شيءٍ يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأَيت رسول الله ﷺ في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإنما كان رسول الله ﷺ في بدر مستشهداً بالآية.

وقال قوم: إن الآية نزلت يوم بدر، وذلك ضعيف، والصواب أن الوعد أُنجز يوم بدر، قال أَبو حاتم: قرأَ بعض القراءِ: [سَيَهْزِمُ] بفتح الياءِ وكسر الزَّاي (الْجَمْعَ) نصباً،



قال أبو عمرو الداني: قرأ أبو حيْوة: [سَنَهْزِمُ] بالنون وكسر الزَّاي [الْجَمْعَ] بالنصب (وَتُوَلُّونَ) بالتاءِ من فوق.

ثم تُركت هذه الأَقوالُ وأُضرب عنها تهمُّماً بأَمر السَّاعة التي عذابها أَشدُّ عليهم من كل هزيمة وقِتَال، فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، «أدهى» أَفْعَل من الداهية وهي الرَّزيَّةُ العظمى تنزل بالمرءِ، و«أَمَرُّ» من المرارة، واللفظة ها هنا مستعارة لأَنها ليست فيما يُذاق.

ثم أَخبر تعالى عن المجرمين أَنهم في الدنيا في حيرة وإِتلاف وفَقْد هُدى، وفي الآخرة في احتراقٍ وتَسَعُّر من حيث هم صائرون إِليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: في خُسران وجنون، و«السُّعُر» الجنون، وأَكثر المفسِّرين على أَن المجرمين هنا يراد بهم الكفَّار، وقال قوم: المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إِن أَفعال العباد ليست بِقَدَر من الله تعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهم المُتَوَعَّدون بالسَّحب في جهنم، والسَّحْبُ هو الجَرُّ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [إِلَى النَّارِ]. وقوله تعالى: [فَذُوقُوا] استعارة، والمعنى: يقال لهم: ذوقوا، على جهة التوبيخ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ـ فقرأَ الجمهور من الناس: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بالنصب، وقالوا: المعنى: إِنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بِقَدَر، وليست [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ[شَيْءٍ]، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر، وهذا المعنى يقتضي أَن كل شيءٍ مخلوق إِلاَّ ما قام دليل العقل على أَنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة وقرأَ أَبو السَّمَّال ـ ورجَّحه أَبو الفتح ـ: [إِنَّا كُلُّ] بالرفع على الابتداءِ، والخبرُ ﴿ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾، قال أَبو حاتم: «هذا هو الوجه في العربية، وقراءَتنا بالنصب مع الجماعة»[1].

---

(١) يرجِّح أبو الفتح الرفع لأنه من مواضع الابتداء، فهو عنده كقولك: زيدٌ ضربتُه، فـ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ جملة وقعت خبراً عن مبتدأ، ثم دخلت [إنَّ] فنصبت الاسم وبقي الخبر على تركيبه الأصلي، وقد اختار محمد بن يزيد النصب، قال: التقدير: إنَّا فعلنا كذا، فالفعل منتظر بعد «إنَّا»، فلما دلَّ ما قبله عليه حسُن إضماره، وردَّ أبو الفتح بأنه لا معنى لِتَوقُّع الفعل؛ لأن أصل خبر المبتدأ أن يكون اسماً، ومع =



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقرأَها قوم من أَهل السُّنَّة بالرفع، والمعنى عندهم على نحو ما هو عند الأَولين من أَن كلَّ شيءٍ فهو مخلوق بقَدَرٍ سابق، و[خَلَقْنَاهُ] ـ على هذا ـ ليست صفةً لـ[شَيْءٍ]، وهذا هو مذهب أَهل السُّنَّة، ولهم احتجاجٌ قويٌّ بالآية على هذين القولين[1].

وقالت القَدَرِيَّةُ ـ وهم الذين يقولون: لا قَدَر، والمرءُ وحده فاعلٌ أَفْعَالَهُ ـ[2]: القراءَةُ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ﴾ برفع [كُلُّ]، و[خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ[كُلُّ]، أَي: إِنَّ أَمْرَنَا وشأْننا كلُّ شيءٍ خلقناه فهو بقَدَر، أَي بمقدارٍ وعلى حدٍّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك، فيزيلون بهذا التأْويل موضع الحُجَّة عليهم بالآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِنِّي أَجد في كتاب الله تعالى قوماً يُسحبون في

= ذلك فإن أبا الفتح ابن جني يقول: إنَّ الجماعة على قراءة النصب، ومما يُقَوِّيها أنَّ «إنَّ» تطلب الفعل فهي أولى به، والنصب أدَلُّ على العموم في أن المخلوقات لله تعالى، ولو حُذفت [خَلَقْنَاهُ] المفسِّرَة وأُظهرت المضمرة لصار الكلام: إنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شيءٍ بِقَدَر، ولا يصحُّ أن يكون [خَلَقْنَاهُ] صفةً لـ[شَيْءٍ] لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله. والخلاف في أساسه نحوي يرجع إلى الصناعة، والأفضل أن نختار ما يتفق مع المعنى الصحيح.

(١) يقولون: إن الله تعالى قدَّر الأشياء بمعنى أنه عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث شيءٌ إلا وهو صادرٌ عن علمه سبحانه وعن قدرته وإرادته، والخَلْقُ ليس لهم إلاَّ نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وحصل لهم ذلك بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، فقالوا: يا محمد، يكتُبُ علينا الذنبَ ويُعَذِّبنا؟ فقال: أنتم خصماءُ الله يوم القيامة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، وخرجه الترمذي أيضاً وقال: «حديث حسن صحيح»، وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال النبي ﷺ: «كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ، أو الكَيْس والعَجْزُ».

(٢) خرَّج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أُمَّتي ليس لهم في الإسلام نصيب: أهل الإرْجاء والقدر»، وفي صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما تبرأ من القدرية، ولا يُتَبَرَّأُ إلاَّ من كافر. وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أُمَّة مجوس، ومجوس أُمتي الذين يقولون لا قَدَر، إنْ مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».



النَّار على وجوههم لأَنهم كانوا يُكذِّبون بالقَدَر، يقولون: المرءُ يخلق أَفعاله، وإِنِّي لا أَراهم، فلا أَدري أَشَيْءٌ مضى أَم شيءٌ بقي، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خاصمت قريش رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت هذه الآية[١]، قال أَبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجلٌ: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أَفي شيءٍ نستأْنفه أَوْ في شيءٍ قد فُرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق لَهُ، سَنُيَسِّرُه لليُسْرَى، سَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى»[٢]. وقال أَنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «القدرية الذين يقولون الخيرُ والشرُّ بأَيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أَنا منهم ولا هم منِّي»[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أَي: إِلاَّ قَولةٌ واحدةٌ وهي «كُنْ»، وقوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ تفهيم للناس بأَعجل ما يحسُّون، وفي أَشياءَ من أَمر الله تعالى أَوحى من لمح البصر، و«الأَشياعُ»: الفرَقُ المتشابهة في مذهب أَو دين ونحوه، الأَول شيعة للآخر والآخر شيعة للأَول.

ثم أَخبر تعالى أَن كل أَفعال الأُمم المُهْلَكَة مكتوبة محفوظة عليهم إِلى يوم الحساب، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، و[مُسْتَطَرٌ] مُفْتَعل من السَّطْر، تقول: سطرتُ وأَسْطرتُ بمعنى، وروي عن عاصم شدُّ الراءِ من (مُسْتَطَرٌ)، قال أَبو عمرو: وهذا لا يكون إِلاَّ عند الوقوف، لغة معروفة.

وقرأَ جمهور الناس: (وَنَهَرٍ) بفتح الهاءِ والنون على أَنها اسم الجنس يراد به الأَنهار، أَو على أَنه بمعنى سعة في الرِّزق والمنازل، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائمٌ منْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا[٤]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، وأخرج مثله الإمام البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة، فأخذ عوداً فجعل ينكت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا كُتب مقعده من الجنة أو من النار، قالوا: ألا نتّكل؟ قال: اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝﴾ الآية، ورواه مسلم بلفظ أطول من هذا، وكذلك رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقد أخرج أحمد مثله في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النحاسُ عن أنس رضي الله عنه.

(٤) قال قيس بن الخطيم هذا البيت من قصيدة قاله بعدأن أخذ بثأره من قاتلي أبيه وجده، وقد اختلفت رواية الشطر الثاني من البيت، ففي الحماسة، والأغاني، ولباب الآداب، والمثل السائر، واللسان، =

فقوله: «أَنْهَرْتُ» معناه جعلت فتقها كنهر، وقرأ زهير الفُرْقبيُّ[(١)]، والأَعمش: [وَنُهُر] بضم النون والهاءِ على أَنه جمع نهارٍ، إِذْ لا لَيْل في الجنة، وهذا سائغ في اللَّفظ قَلِقٌ في المعنى[(٢)]، ويحتمل أَن يكون جمع نَهَر[(٣)]، وقرأَ مجاهد، وحميد، وأَبو السَّمَّال، والفياض بن غزوان[(٤)]: [نهْرٍ] بسكون الهاءِ على الإِفراد.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يحتمل أَن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب، أَي: في المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أَن يكون من قولك: «عُودٌ صَدْقٌ» أَي جيِّدٌ، و«رجُلٌ صَدْقٌ» أَي خيِّرٌ وذو خلال حسان، وقرأَ جمهور الناس: (في مَقْعَد) على اسم الجنس، وقرأ عثمان البتِّي[(٥)]: [في مَقَاعد] على الجمع، و«المليكُ المقتدرُ» هو الله تبارك وتعالى.

كمل تفسير سورة القمر والحمد لله ربّ العالمين

* * *

= والصحاح، والمخصص، والتاج، ومنتهى الطلب، وخزانة الأدب: (يرى قائِمٌ من دونها)، وفي حماسة المرزوقي، والعيني: (يرى قائماً من دونها)، وفي الموشح، والعكبري: (يَرَى قائمٌ من خلفها). ومعنى (مَلَكْتُ): شدَدْتُ، ومعنى (أَنْهَرْتُ): فتحت بها فتحاً كبيراً وأجريتُ الدم، ومعنى البيت كما قال المرزوقي: «شددتُ بهذه الطعنة كفِّي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيءَ الذي وراءها»، ويرى كثير من النقاد أن هذا البيت فيه مبالغة غير مقبولة، قال ابن قتيبة في (المعاني الكبير): «وهذا من إفراط الشعر».

(١) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم، والتصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جني.

(٢) وعلى أنه جمع نهار يكون مثل «سَحَابٍ وسُحُب»، ومنه قول الشاعر:

لَــوْلا الثَّــرِيــدانِ هَلَكْنَــا بــالضُّمُــرْ ... ثَــرِيــدُ لَيْــلٍ وَثَــرِيــدٌ بــالنُّهُــرْ

فالنُّهُر هنا جمع نهار.

(٣) قال ابن جني: وهذا كما جاء عنهم من تكسير فَعَل على فُعُل، مثل أَسَد وأُسُد، وَوَثَن وَوُثُن.

(٤) في بعض النسخ: «الفياضُ بن عدوان»، ونميل إلى ترجيح ما أثبتناه.

(٥) هو أبو مسلم، وقد اختلفت الأصول في كتابة اسمه، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الرحمن

وهي مكّيّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وقال نافع بن أَبي نُعيم[١]، وعطاءٌ، وقتادة، وكُرَيب[٢]، وعطاءٌ الخراساني[٣]، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدنية نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيرِهِ أن يكتب في الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والأول أَصح، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟، وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءَتها في المسجد حتى قامت إِليه أَندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

[الرَّحْمٰنُ] بناءُ مبالغة من الرحمة، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به، وحكى ابن فُورك عن قوم أنهم يجعلون [الرَّحْمٰن] آية تامة، كأَن التقدير: الرحمنُ ربُّنَا، وقاله

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارىء، المدني، مولى بني ليث، أصله من أصبهان، وقد ينسب لجده، صدوق، ثبت في القراءة، من كبار السابعة، مات سنة تسع وستين. (تقريب التهذيب).

(٢) كُرَيب بن أبي مسلم الهاشمي، مولاهم، المدني، أبو رِشْدين، مولى ابن عباس، ثقة، من الثالثة، مات سنة ثمان وتسعين. (تقريب التهذيب).

(٣) هو عطاء بن أبي مسلم أبو عثمان الخُراساني، واسم أبيه ميسرة، وقيل عبد الله، صدوق، «وقيل»: يَهِمُ كثيراً ويُرسل ويُدلس، من الخامسة، مات سنة خمس وثلاثين، لم يصح أن البخاري أخرج له. (تقريب التهذيب).

الرُّمَّاني وأَن التقدير: اللهُ الرحمنُ، وقال الجمهور: إِنما الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فهو جزءُ آية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تعديد نِعْمة، أي: هوَ مَنٌّ به، وعلَّمه الناس، وخصَّ حُفَّاظه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»(١)، ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق أَن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أَربعة وخسمين موضعاً ما منها موضع صرَّح فيه بلفظة الخلق ولا أَشار إِليه، وذكر الإِنسان على الثُّلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو.

و«الإِنْسَانُ» هنا اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره، و«البَيَانُ»: النطق والفهم والإِبانة عن ذلك بقول، قاله ابن زيد والجمهور، وذلك هو الذي فُضل به الإِنسان من بين سائر الحيوان، وقال قتادة: هو بيان الحلال والحرام والشرائع، وهذا جزءٌ من البيان العام، وقال قتادة: «الإِنسان» هو آدم عليه السلام، وقال ابن كيسان: «الإِنسان» محمد ﷺ، وهذا التخصيص لا دليل عليه، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي عُلِّمه الإِنسان، فكأَن الله تعالى قال: من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان، فحذف هذا كله، ورفع [الشَّمْسُ] بالابتداءِ، وهذا ابتداءُ تعديد نعَم.

واختلف الناس في قوله تعالى: [بِحُسْبَانٍ] ـ فقال مكي، والزهراوي، عن قتادة: هو مصدر كالحساب في المعنى، كالغُفْران والطُّغيان في الوزن، وقال أَبو عبيدة معمر بن المثنى، والضحاك: هو جمع حِسَابٍ، كشِهَابٍ وشُهْبان، والمعنى: إِن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حساباتٌ، وهذا مذهب ابن عباس، وأَبي مالك، وقتادة. وقال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدر أَحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان، وقال مجاهد: الحُسْبان: الفَلَك المستدير، شبَّهه بحسبان الرَّحى وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، قال ابن عباس، والسدي، وسفيان:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، وأبو داود في الوتر، والترمذي في ثواب القرآن، وابن ماجه في المقدمة، والدارمي في فضائل القرآن، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي رواية أخرجها البخاري عن عثمان بن عفان أيضاً قال: قال النبي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».



«النَّجْم»: النباتُ الذي لا ساق له، وسُمِّي نجماً لأنه نَجَم أي ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر يشبَّه به، وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: النَّجم: اسم الجنس من نجوم السماءِ، والنِّسبة التي لها من السماءِ هي التي للشجرة من الأَرض لأَنهما في ظاهرهما، وسُمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها، واختلف الناس في هذا السجود ـ فقال مجاهد والحسن: ذلك في النجم بالغروب ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته، وكذلك في النجم على القول الآخر، وقال مجاهد أَيضاً ما معناه: إن السجود في هذا كله تجوُّز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[1]

وقال تعالى: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وهما جمعان لأَنه راعى اللفظة، لأَنه اسم مفرد اسم للنوع، وهذا كقول الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَنَّ حِبـالَ قَـوْمِـي وَقَـوْمِـكِ قَـدْ تَبَـايَـنَـتَـا انْقِطَـاعَـا[2]

وقرأَ الجمهور: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ بالنصب عطفاً على الجملة الصَّغيرة وهي [يَسْجُدَانِ]؛ لأَن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك، وقرأَ أَبو السَّمَّال: [والسَّماءُ رَفَعَهَا] بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؛ لأَن هذه جملة من مبتدأ وخبر، والأُخرى كذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل الذي سمَّاه النبي ﷺ زيد الخير بعد إسلامه، والبيت بتمامه:

بِجَمْـعٍ تَضِـلُّ الْبُلْـقُ فـي حَجَـراتِـهِ تَـرَى الأُكْـمَ فيـهِ سُجَّـداً لِلْحَـوَافِـرِ

والبَلَق: سوادٌ وبياض في الدابة، والمراد هنا الخيل، والبُلْقة فيها ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، والحَجَرَات: النواحي، وهي جمع حَجْرَة، وفي المثل ـ وهو في حديث علي ـ: «ودَعْ عنك نهباً صِيحَ في حَجراتِه»، أي في نواحيه، والأُكمُ جمع الإكام، والإكام جمع أَكَمٍ، وأَكَمٌ جمع أَكمة وهي المكان المرتفع دون الجبال، والشاهد أن السجود هنا مجازي يدل على الخضوع والذلة.

(٢) هذا البيت من قصيدة للقطامي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي الذي حماه من بني أَسد يوم الخابور وحمله وكساه وأعطاه مائة ناقة، والخطاب هنا لضُباعة بنت زُفَر لأنه كان أسيراً عند والدها، والحبال: العهود والمواصلة التي كانت بين قومه وقومها وهما قيس وتغلب، ولهذا يروى البيت (أَلَم يحزنك أن حبال قيس... وتغلب)، وتباينت: تفرقت، وقد رُوي أن ضُباعة لمَّا سمعت هذا البيت قالت: بَلَى والله قد أَحْزَنني، والشاهد أنه راعى اللفظ حين قال: (تباينتا) أي حبال القومين، وإلا فلو راعى المعنى لقال: (تباينت) لأن الضمير يعود على (الحبال)، وقد روي البيت: (تباينت)، وعلى هذا فلا شاهد فيه.



عنه: [وخَفَضَ الميزان]، ومعنى [وَضَعَ]: أَقَرَّ وأَثْبَت، و«المِيزَانُ»: العَدْلُ فيما قال الطبري، ومجاهد، وأكثر الناس. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: إِنَّهُ الميزان المعروف، وهو جزءٌ من الميزان الذي يعبَّر به عن العدل، ويظهر عندي أَن قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به العدل، وأَن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به الميزان المعروف، وكل ما قيل محتمل سائغ. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان، وأَمَّا ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس، و[أَلاَّ] هو بتقدير: «لِئَلاَّ» أَو مفعولٌ من أَجله، و[تَطْغَوْا] نصب، ويحتمل أَن تكون [أَنْ] مفسرة فيكون [تَطْغَوْا] جزم بالنهي[١]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [لاَ تَطْغَوْا] بغير «أَنْ». وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ﴾ من أَخْسَرَ، أَي نَقَصَ وأَفْسَدَ، وقرأ بلال بن أَبي بُردة: [ولا تَخسِرُوا] بفتح التاءِ وكسر السين من خَسَر، ويقال: خَسَرَ بمعنى نقص وأَفسد كَجَبَرَ وأَجْبَر، وقرأ بلالٌ أَيضا ـ فيما حكى عنه ابن جني ـ: (تَخْسَرُوا) بفتح التاءِ والسين من خَسِر بكسر السين[٢].

واختلف الناس في [الأَنام] ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هم بنو آدم فقط، وقال الحسن بن أَبي الحسن: هم الثقلان الجن والإنس، وقال ابن عباس أَيضاً، وقتادة، وابن زيد، والشعبي: هم الحيوان كله. و«الأَكْمَامُ» في النخل موجودة في موضعين: فجملة فروع النخلة في أَكمام من ليفها، وطلع النخلة في كِمٍّ[٣] من جهة، وقال قتادة: أَكمام النخل رقابها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والكِمُّ من النبات كل ما التفَّ على شيءٍ وستره، ومنه كمائم الزهر، وبه شبه كُمُّ الثوب.

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك في البحر بقوله: «لا يجوز أن تكون [أَنْ] مفسرة لأنه يشترط أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول، وجملة ﴿وضع الميزان﴾ ليس فيها معنى القول.

(٢) قال أبو الفتح: «وهذا ينبغي أن يكون على حذف حرف الجرِّ، أي: تَخْسَرُوا في الميزان، فلما حذف الجر أفضى إليه الفعل قبله فنصبه، كقوله تعالى: ﴿وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، أي: في كلِّ مرصد.

(٣) في المحكم والتهذيب ضُبط بالضَّم، ولكن في المصباح والقاموس والنهاية: كِمُّ الطَّلْعِ وكُلِّ نَوْرٍ: بالكسر.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، الحَبُّ ذو العصف هو القمح والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه، وهي العصيفة إذا يبست، ومنه قول عَلْقمة بنُ عَبَدَة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا حَدُورُهَا مِنْ أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ(١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصف: التِّبن، وتقول العرب: خرجنا نتعصَّف، أَي يستعجلون عصيفة الزرع، وقرأ ابن عامرٍ، وأَبو البرهسم: [وَالْحبَّ] ـ بالنصب عطفاً على [الأَرْضَ] ـ ﴿ذَا العَصْفِ وَالرَّيْحَانَ﴾، إلاَّ أَن أَبا البرهسم خفض النون. واختلفوا في الريحان ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: الرِّزْقُ، ومنه قول الشاعر وهو النَّمِرُ بنُ تَوْلَب:

سَلاَمُ الإِلَهِ وَرَيْحَانُهُ وجَنَّتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ(٢)

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن جبير: هو كلُّ ما قام على ساقٍ، وقال ابن زيد، وقتادة: الريحانُ هو كل مشموم طيب الريح من النبات، وفي هذا النوع نعمة عظيمة، فمنه الأَزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك وقال الفراءُ: العصف فيما يؤكل، والريحانُ كلُّ ما لا يؤكل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾،

---

(١) قال علقمة هذا البيت من قصيدة يبكي فيها فراق الحبيبة، ويصف دمْعَه ويشبِّهه بما يفيض من الدَّلْو العظيمة حين تسرع بها الناقة، فالضمير في «تسقي» يعود على الناقة وقد ذكرها في الأبيات السابقة، والمَذَانب: مدافع الماءِ إلى الرياض، والواحد مَذْنَب، والعصيفة: ورق الزرع، ويروى: «زالت عصيفتها»، والمعنى في «مال» استوى وقارب أن يجف، والمعنى في «زال» أنه جفَّ وسقط وتفرَّق بفعل الرِّيح، وحَدُورها: ما انحدر من هذه المذانب واطمأن في الأرض أي انخفض، والأتِيُّ: السَّيْل القوي، والمطمومُ: المملوءُ بالماءِ. والشاهد أن العصيفة هي ورق الزرع الذي يتفتح عن الثمرة ويسقط. وهذا البيت من شواهد أبي عليٍّ في (مجاز القرآن)، وقد نقل المفسرون كلامه وكذلك نقله صاحب اللسان في (عصف).

(٢) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت وبيت بعده على أن الريحان هو الرزق، قال: والعربُ تقول: سبحان الله وريحانه، قال أهل اللغة: معناه واسترزاقه، وهو عند سيبويه من الأسماء الموضوعة موضع المصادر، تقول: خرجتُ أبتغي ريحان الله، قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب:

سَلامُ الإلَهِ وَرَيْحانُهُ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ
غَمَامٌ يُنَزِّل رِزقَ العِبَادِ فَأَحْيَا البِلادَ وَطَابَ الشَّجَرْ

ومعنى قوله: «وريحانُه: ورزقه». والسماءُ الدِّرَرُ هي التي تصب المطر كثيراً فيأتي بالخيرالكثير.

وهذه القراءَة في المعنى كالأُولى، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على [فَاكِهَةٌ]، وقرأ حمزة، والكسائي وابن محيصن: [وَالحَبُّ] بالرفع ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بخفض [الرَّيْحَانِ] عطفاً على [الْعَصْفِ]، كأَن «الْحَبَّ» هُمَا لَهُ على أَن «العَصْفَ» منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم، و«الريحانُ» منه الحبُّ وهو رزقُ الإنس، والريحانُ ـ على هذه القراءَة ـ لا يدخل فيه المشموم إلاّ بتكلُّف. و«ريحان» هو من ذوات الواو، قال أَبو علي: إمَّا أَن يكون ريحان اسماً وُضع موضع المصدر، وإمَّا أَن يكون مصدراً على وزن فَعْلان كاللَّيَّان وما جرى مجراه، أَصله رَوْحان، أُبدلت الواو ياءً[1] كما أَبدلوا الياءَ واواً في «أَشاوي»، وإمَّا أَن يكون مصدراً مما شذَّ في المعتل كما شذَّ كَيْنُونَة وبَيْنُونة، فأَصله رَيْوَحان، قُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ فجاءَ (رَيِّحان) فخفف، كما قالوا: مَيِّتٌ ومَيْتٌ، وهَيِّن وهَيْن.

و«الآلاءُ»: النِّعم، واحدها إِلَى مثل مِعًى وَأَلَى مثل نَقًى، حكى هذين أَبو عبيدة، وأَلْيٌ مثل أَمْنٍ، وإِلْيٌ مثل حِصْنٍ، حكى هذين الزهراوي، والضمير في قوله تعالى: [رَبِّكُمَا] للجن والإِنس، وساغ ذلك ولم يُصَرَّح لها بذكر على أَحد وجهين: إِمَّا أَنهما قد ذكرا في قوله تعالى: [للأَنَام] على ما تقدم من أَن المراد به الثقلان، وإِمَّا على أَن أَمرهما مفسَّر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿خَلَقَ الجَانَّ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً. وقال الطبري: يحتمل أَن يقال: هذا من باب ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾[2]،

---

(١) وذلك للفرق بينه وبين الرُّوحانِيِّ، وهو كلُّ شيءٍ له رُوحٌ.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (ق): ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فالله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية خازن النار مالك، فَثَنَّى والخطابُ لواحد، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه البيت المشهور في مطلع معلقة امرىء القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقوله أيضاً في مطلع قصيدة أُخرى:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدبِ ... لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

فهو يخاطب واحداً لكن اللفظ جاء للمثنى، وقال سويد بن كراع:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وهو واضح جداً حيث يخاطب فرداً واحداً بلفظ المثنى، قالوا: والعلَّةُ في هذا أن أقلَّ أعوان الرجل في إبله وماله اثنان، وأن أقلَّ الرفقة ثلاثة، فجرى كلام الرجل على ما قد أَلِف من خطابه. أما «يا غلام=

و«يا غلام اضربا عنقه»، وقال منذر بن سعيد: خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان، ويُروى أن هذه الآية لما قرأها النبي ﷺ سكت أصحابه رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن جواب الجن خير من سكوتكم، إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نُكَذِّبُ بآلاءِ ربنا»(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

قال كثير من المفسرين: «الإِنْسَان»: آدم عليه السلام، وقال آخرون: أراد اسم الجنس، وساغ ذلك من حيث إن أباهم مخلوق من الصلصال. واختلف الناس في اشتقاق الصلصال، فقال مكي ـ فيما حُكي ـ والنقاشُ: هو من «صَلَّ اللَّحْمُ وغيره» إذا أَنْتَن، فهي إشارة إلى الحمأة، وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من «صَلَّ» إذا صوَّت، وذلك في الطين لكرمه وجودته، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيِّب وخبيث ومختلف اللون، فمرَّة ذكر في خلقه هذا ومرَّة هذا، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي خُلق منه. والفَخَّار: الطين الطيب إذا مسَّه الماءُ فَخَر أي رَبَا وعَظُم. و«الجان»: اسم جِنْس كالجِنَّة، و«المارج»: اللهبُ المضطرب من النار، قال ابن عباس

= اضربا عنقه» فهو من كلام الحجاج.

(١) أخرج هذا الحديث الترمذيُّ، والحاكم في المستدرك، وزاد السيوطي نسبته إلى ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وهو من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: مالي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتُها على الجنِّ ليلة الجنِّ فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيءٍ من نِعَمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد، وقد صحح الحاكم هذا الحديث كما ذكر السيوطي في الدُّرِّ، كذلك صححه الذهبي، لكن الترمذي قال: غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. وزهير بن محمد هذا قال عنه البخاري: «ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح» وهذا الحديث مما رواه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام، ومع هذا فقد أخرج مثله البزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الإفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما.



رضي الله عنهما: وهو أَحسنُ النار المختلطُ من الألوان الشتَّى، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «كيف بك إذا كنت في حُثالة من الناس قد مَرَجت عهودهم وأَماناتُهم»[1].

وكرر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها، وهذه طريقةٌ من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع، وفي حديث النبي ﷺ، وفي كلام العرب. وذهب قوم منهم ابن قُتَيْبَة وغيره إِلى أَن هذا التكرار إِنما هو لمَّا اختلفت النعم المذكورة كرَّر التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أَحسن، قال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد الغَفْلة والتأْكيد.

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إِضافة الربِّ إِليهما لِعظَمِهما في المخلوقات، وأَنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمسُ وجريها، وحكى النقاش أَن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و«المغربين» كذلك، على ما في ذلك من العِبَر، وكلٌّ مُتَّجه، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إِشارة إِلى الناحيتين بجملتهما، ومتى وقع ذكر المشارق والمغارب فهي إِشارة إِلى مشرق كل يوم ومغربه، ومتى ذكر المشرقان والمغربان فهي إِشارة إِلى نهايتي المشارق والمغارب؛ لأَن ذكر نهايتي الشيءِ ذِكْرٌ لجميعه، وقال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاءِ ومغربه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند (٢ـ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠)، ولفظه كما في المسند أن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من الناس؟ قال: قلت: يا رسول الله كيف ذلك؟ قال: إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم، وكانوا هكذا ـ وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذلك ـ قال: قلت: ما أصنع عند ذلك يا رسول الله؟ قال: اتق الله عزَّ وجلَّ، وخُذ ما تعرف ودع ما تُنكر، وعليك بخاصَّتك، وإيَّاك وعوامَّهم». ويونس هو راوي الحديث عن الحسن عن عبد الله بن عمرو.



﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: أَرسلهما إِرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض، ومنه: مَرَجت الدابةُ، ومنه: الأمر المريج، أَي المختلط الذي لم يتحصل منه شيءٌ، ومنه ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. واختلف الناسُ في البحرين ـ فقال الحسن، وقتادة: بحر فارس وبحر الروم، وقال الحسن أَيضاً: بحر القُلْزم واليمن وبحر الشام، وقال ابن عباس، وابن جبير: بحرٌ في السماء وبحر في الأَرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: هو مطر السماءِ ـ سمَّاهُ بحراً ـ وبحر الأَرض، والظاهر عندي أَن قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ يريد بهما نوعي الماءِ العذب والأُجاج، أَي خلطهما في الأرض وأَرسلهما متداخلين في وضعهما في الأَرض قريب بعضهما من بعض، والعيرة في هذا التأْويل منيرة، وأَنشد منذر بن سعيد:

وَمَمزُوجَةُ الأَمْوَاهِ لاَ العَذْبُ غَالِبٌ عَلَى المِلْحِ طِيباً لاَ وَلاَ المِلْحُ يَعْذُبُ[1]

وأَمَّا قوله تعالى: [يَلْتَقِيَانِ] فعلى التأْويلين الأَوَّلين معناهما: مُعَدَّان للالتقاءِ وحقُّهما أَن يلتقيا لولا البرزخ، وعلى القول الثالث أَنهما يلتقيان كل سنة مرة، فمن ذهب إِلى أَنه بحر يجتمع في السماءِ فهو قول ضعيف، وإِنما يتوجه اللقاءُ فيه وفي القول الرابع بنزول المطر، وفي القول الخامس بالأَنهار في البحر وبالعيون قرب البحر.

و«الْبَرْزَخُ»: الحاجز في كل شيءٍ، فهو في بعض هذه الأقوال أَجرام الأَرض، قاله قتادة، وفي بعضها القدرة، والبرزخُ أَيضاً المُدَّة التي بين الدنيا والآخرة للموتى، فهو حاجز، وقال بعض الناس: إِن ماءَ الأَنهار لا يختلط بالماءِ المِلْح بل هو بذاته باق فيه، وهذا يحتاج إِلى دليل أَو حديث صحيح وإِلاَّ فالعيان لا يقتضيه، وذكر الثعلبي في ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَلغازاً وأَقوالاً باطنة لا يجب أَن يُلتفت إِلى شيءٍ منها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: لا يبغي واحد منهما على الآخر، وقال قتادة أَيضاً، والحسن: لا يبغيان على الناس والعُمران، وهذان القولان على أَن اللفظ من البَغْي، وقال بعض المتأَولين: هي من قولك: بَغَى إِذا طلب، فمعناه: لا يبغيان حالاً من الأَحوال غير حاليهما اللتين خُلقا وسُخِّرا لهما. وقال

---

(١) أي لا يغلبُ العَذْبُ على المِلْح فتصير الأمواهُ كلها عذبة، ولا يغلب المِلْح على العذب فتصير الأمواه كلها ملحة.



ابن عباس، وقتادة، والضحاك: اللؤلؤ: كبارُ الجوهر والمرجانُ: صغاره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً، ومُرَّة الهَمْدَاني[١] عكس هذا، والوصف بالصغر هو الصواب في اللؤلؤ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: المرجان حجر أَحمر، وهذا هو الصواب في المرجان، واللُّؤلُؤُ بناءٌ غريب لا يُحفظ منه في كلام العرب أَكثر من خمسة: اللُّؤلُؤ، والجُؤجُؤ، والدُّؤدُؤ، واليُؤيُؤ ـ وهو طائر ـ والبُؤبُؤ، وهو الأَصل[٢].

واختلف الناس في قوله تعالى: [مِنْهُمَا] ـ فقال أَبو الحسن الأَخفش في كتاب (الحجة): وزعم قومٌ أنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من المِلْح ومن العذب، وردَّ الناسُ على هذا القول لأَن الحِسَّ يخالفه ولا يخرج ذلك إِلاَّ من المِلْح، وقد ردَّ الناسُ على الشاعر في قوله:

فَجَـاءَ بِهَـا مـا شِئْـتَ مِـنْ لَطَمِيَّـةٍ   عَلـى وَجْهِهَـا مَـاءُ الْفُـرَاتِ يَمُـوجُ[٣]

---

(١) هو مُرة بن شَرَاحيل الهَمْداني ـ بسكون الميم بعدها دالٌ غير منقوطة ـ أبو إسماعيل الكوفي، قال في تقريب التهذيب: «هو الذي يقال له: مُرَّة الطيِّب، ثقة عابد، من الثانية، مات سنة ست وسبعين، وقيل بعد ذلك».

(٢) اللُّؤلُؤ: الدُّرُّ، وهو يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لمَّاعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرِّخَويَّات، واحدته: لُؤلُؤة، وجمعه: لآلِىء.

والجُؤجُؤ: مجتمع رُءُوس عظام الصدر، وصدر السفينة وجمعه: جآجىء.

والدُّؤدُؤ: آخر أيام الشهر، ويقال: ليلة دُؤدُؤٌ: شديدة الظلُمة، وجمعه: دَآدِىء، وفي الحديث (ليس عفر الليالي كالدَّآدي)

واليُؤيُؤ: طائر من جوارح الطير كالباشق، وهو طائر صغير قصير الذَّنَب، وجمعه: يَآيِىء.

والبُؤبُؤ: الأصلُ، يقال: فلانٌ في بُؤبُؤ المجد، وقد يكون معناه: وسط الشيءِ، وكذلك من معانيه: إنسَانُ العَيْن، يقال: هو أعزُّ عليَّ من بؤبؤ عيني، أي من إنسانها، وهو في الوقت نفسه وسط العين.

(٣) هذا البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَلي، وهو من أبيات يصف فيها محبوبته ويشبهها بالدُّرَّة الثمينة التي تعب الغواص في الوصول إليها وسط لُجَج الماءِ، ثم جاء بها بعد كثير من التعب والإرهاق، فالضمير في (فجاء) يعود على الغواص وقد ذكره في الأبيات السابقة، وفي (بها) يعود الضمير على الدُّرَّة، واللَّطيمة: عيرٌ تحمل التجارة والعِطر، فإن لم يكن فيها عِطْر فليست بلطيمة، فجعل الشاعر هذه الدُّرَّة تحملها عِيرُ اللَّطيمة، وقوله: (ما شئْتَ مِن لَطَمِيَّةٍ) في موضع الحال، أي جاء بها في هذه الحالة. والفُرَات: العذبُ من الماءِ، ويمُوج: يضطرب ويتحرك، جعل الماءَ العذب يتلاطم فوقها، قالوا: وقد أخطأ هنا، فقد ظنَّ أن الدُّرَّة إذا كانت في الماءِ العَذْب فليس لها شبيه، ولم يعلم أنها لا تكون في الماءِ العذب، ويروى الشطر الثاني: (تدومُ البِحَارُ فَوْقَهَا وتَمُوجُ) أي: تسْكُن فوقها وتتحرك، و(دام) تفيد معنى السكون، ومنه (لا يَبُولَنَّ أحدكم في الماءِ الدائم)، وعلى هذا فلا شاهد في البيت، والرواية =



وقال الجمهور من المتأَولين: إنما يخرج ذلك من الأُجاج في المواضع التي تقع فيها الأَنهار والمياه العذبة، فلذلك قال تعالى: [مِنْهُمَا]، وهذا مشهور عند الغواصين، وقال ابن عباس، وعكرمة: إنما تتكون هذه الأَشياءُ في البحر بنزول المطر لأَن الصدف وغيرها تفتح أَجوافها للمطر، فلذلك قال تعالى: [مِنْهُمَا]، وقال أَبو عبيدة ما معناه: إن خروج هذه الأَشياءِ إنما هو من المِلْح لكنه تعالى قال: [مِنْهُمَا] تَجَوُّزاً، كما قال الشاعر:

. . . . مُتَقَلِّـــداً سَيْفـــاً وَرُمْحَـــا(١)

وكما قال الآخر:

. . . . عَلَفْتُهَـــا تِبْنـــاً وَمَـــاءً بَـــارِدَا(٢)

= الأخيرة هي رواية الديوان.

(١) هذا عجز بيت قاله عبد الله بن الزِّبَعْرى ـ كما في حواشي الكامل ـ والبيت بتمامه كما ذكره الفراءُ في (معاني القرآن):

وَلَقِيـــتُ زَوْجَـــكِ فـــي الـــوَغَـــى ... مُتَقَلِّـــداً سَيْفـــاً وَرُمْحَـــا

والرواية في خزانة الأدب ـ نقلا عن المبرد في الكامل ـ وفي اللسان ـ قَلَد ـ: «يَا لَيْتَ زَوجَك قَد غَدَا»، وتقلَّد الأمر: احتمله، وكذلك تقلَّد السيف، والمعنى في البيت: مُتَقَلِّداً سيفاً وحامِلا رُمْحاً، قيل: إن الرُّمح لا يُتَقَلَّد لكنه لمَّا جمع الرُّمح مع السيف حَمَلَه على مثل لفظه لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد، وهذا هو معنى كلام المبرد، وقد جعل البيت كقول الشاعر الآخر: (شرَّابُ أَلْبَانٍ وسَمْنٍ وأَقِطْ)، فإن اللبن يشرب، ولكن السَّمْنَ والأَقِط لا يشربان وإنما يؤكلان، لكنه لمَّا جمع بينها حمل الأخيرين على مثل لفظ الأول لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد.

(٢) هذا رجزٌ لم يعرف قائله، وفي بعض حواشي نسخة من الصحاح نسب إلى ذي الرُّمَّة، قال في الخزانة: وفتَّشت ديوانه فلم أجده فيه، وقد أورد العلامة الشيرازي، والفاضل اليمني صدراً، وجعلا الجزءَ المذكور هنا عَجُزاً، فصار كالآتي:

لَمَّـــا حَطَطْـــتُ الـــرَّحْـــلَ عَنْهَـــا وارِدَا ... عَلَفْتُهَـــا تِبْنـــاً ومَـــاءً بـــارِداً

وجعله آخرون صدراً، وأوردوا له عَجُزاً، فصار كالآتي:

علفتهـــا تبنـــاً ومـــاءً بـــارداً ... حَتَّـــى شَتَـــتْ هَمَّـــالَـــةً عَيْنَـــاهَـــا

والضمير في (عَلَفْتُهَا) يرجع إلى الدابة المعهودة، والشاهد أنه عطف الماءَ على التِّبن، ولا يقال عن الماءِ عَلَفٌ، ولهذا قالوا: التقدير: وسقيتها ماءً، وقيل: إنه لما جمع الماءَ مع التبن حمله على مثل لفظه، لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد، وهو بهذا كقول الراعي عبيد: =



فمن حيث هما نوعٌ واحدٌ فخروج هذه الأَشياء إنما هو منهما وإِن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأَحدهما، وهذا كما قال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[1]، وإِنما هو في إِحداهن وهي الدنيا إِلى الأَرض، وقال الرُّمَّاني: العذب فيهما كاللقاح للملح، فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وأَهل المدينة: (يُخْرَجُ) بضم الياء وفتح الراءِ (اللُّؤْلُؤُ) رفعاً. وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يَخْرُجُ] بفتح الياءِ وضم الراءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وهي قراءَة الحسن، وأَبي جعفر. وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية حُسين الجعفي عنه ـ: (يُخْرِجُ) بضم الياءِ وكسر الراءِ على إِسناده إِلى الله تعالى، أَي بتمكينه وقدرته (اللُّؤْلُؤَ) نصباً، ورواها عنه أَيضاً بالنون مضمومة وكسر الراءِ.

و«الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السُّفُن، وقرأَ الحسن، والنَّخَعي: [الْجَوَارِي] بإِثبات الياءِ، وقرأَ أَبو جعفر، وشيبة بحذفها، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: [الْمُنْشَآتُ] بفتح الشين، أَي أَنشأَها الله تعالى أَو الناسُ، وقرأَ حمزة، وأَبو بكر ـ بخلاف عنه ـ: [الْمُنْشِآتُ] بكسر الشين، أَي تُنشىءُ هي السَّيْرَ إِقْبَالاً وإِدباراً، و«الأَعْلاَمُ» الجِبالُ وما جرى مجراها من الظِّراب والآكام[2]، وقال مجاهد: ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ هو الذي يقتضي هذا الفرق، وأَما لفظة «المنشآت» فتعمّ الكبير والصغير.

والضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ للأَرض، وكنَّى تعالى عنها ولم يتقدم لها

= إذا ما الْغانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْماً وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ والْعُيُونَا

إذْ أن العيون لا تُزَجَّج مثل الحواجب، ولهذا كان التقدير: وكَحَّلْنَ العُيُونَا، أو يقال: إنه لما جمع العيون مع الحواجب حملها على مثل لفظها لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد. وقالوا: إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، وقد ورد هذا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فإن الرسل من الإنس فقط.

(١) من الآيتين (١٥، ١٦) من سورة (نوح).

(٢) الظِّراب: جمع ظَرِب وهو الجبلُ المنبسط. والآكام: جمع الجمع، والمفرد: أكمة وهي التّل، وجمعها أَكمات وأَكَمٌ، وجمع الأَكم إكامٌ، وجمع الإكام أُكُم، وجمع الأُكُم آكام.



ذِكْرٌ لوضوح المعنى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾(١) إلى غير ذلك من الشواهد، والإشارة بالفناءِ إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، فغلبت عبارة من يعقل فلذلك قال: [مَنْ].

و«الوَجْهُ» عبارة عن الذات لأَن الجارحة منفية في حق الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأَمر، أَي حقيقته وذاتُه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ على صفة لفظة الوجه، وقرأَ عبد الله بن مسعود، وأُبَيٌّ رضي الله عنهما: [ذِي الْجَلاَلِ] على صفة الرَّبِّ تبارك وتعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: [يَسْأَلُهُ] يحتمل أَن يكون في موضع الحال من «الوجه» والعامل فيه [يَبْقَى]، أَي هو دائم في هذه الحال، ويحتمل أَن يكون فعلاً مُسْتَأْنفاً إِخباراً مجرداً، والمعنى: إِن كل مخلوق من الأَشياءِ فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إِن كان مما يُرزق بحالِ حاجةٍ إِلى الله تعالى، فمن كان يسأَل بنطق فالأَمر فيه بيِّنٌ، ومن كان من غير ذلك فحاله يقتضي السؤال فأَسند فعل السؤال إِليه.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أَيْ يظهر شأْنٌ من قدرته التي سبقت في الأَزل في ميقاته من الزمن، من إِحياءٍ وإِماتة ورَفْع وخَفْض وغير ذلك من الأُمور التي لا يعلم نهايتها إِلاَّ هو تعالى وجلَّ، و«الشَّأْنُ» اسم جنس للأُمور، قال الحسين بن الفضل: معنى الآية سوْقُ المقادير إِلى المواقيت، وقد ورد في بعض الأَخبار أَن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة، يُعِزُّ فيها ويُذلُّ، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُعدم، إِلى غير ذلك من الأَشياءِ، لا إِله إِلاَّ هو. وفي الحديث أَن النبي ﷺ قرأَ هذه الآية فقيل: ما هذا الشأْنُ يا رسول الله؟ قال: «يغفرُ ذنباً، ويفرجُ كرباً، ويَرْفعُ

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).



ويَضَعُ»[١]، وذكر النقاش أَن سبب هذه الآية قول اليهود: إِن الله استراح يوم السبت فلا ينفذ فيه شيئاً، تعالى عن قولهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ عبارة عن إِتيان الوقت الذي قدَّر فيه وقضى أَن ينظر في أَمر عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى أَنَّ ثمَّ شغلاً يفرغ منه، وإِنما هي إِشارة وعيد، وقد قال ﷺ لِأَزَبِّ العَقَبَة: «أَما والله لأَفْرُغَنَّ لك ما حييت»[٢]. و«التَّفَرُّغ» من كل آدمي حقيقة، وفي قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ) جَرْيٌ على استعمال العرب، ويحتمل أَن يكون التوعُّد بعذاب في الدُّنيا، والأَول أَبين. وقرأَ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأَبو عمرو، وابن عامر (سنَفْرُغُ) بفتح النون وضم الراءِ[٣]، وقرأَ الأَعرج، وقتادة ذلك بفتح الراءِ والنون، ورويت عن عاصم، ويقال: فَرَغَ بفتح الراءِ، وفَرِغَ بكسرها، ويصح منهما جميعاً أَن يقال: يَفْرَغُ بفتح الراءِ، وقرأَ عيسى بكسر النون وفتح الراءِ، قال أَبو حاتم: هي لغة سُفْلَى مضر، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بالياءِ المفتوحة، وقرأَ حمزة، والكسائي بضم الياءِ، وقرأَ أَبو عمرو بفتحها وضم الراءِ، وقرأَ الأَعمش ـ بخلاف ـ وأَبو حيوة: [سَيُفْرَغُ] بضم الياءِ وفتح الراءِ وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ عيسى بن عمر أَيضاً: [سَنَفْرِغُ] بفتح النون وكسر الراءِ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [سَنَفْرُغَ إِلَيْكُمْ].

و«الثَّقَلَانِ»: الجنُّ والإِنس، يقال لكل ما يعظم أَمره: ثقيل، ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده، والبزار، وابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، وفي قول الله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفَرِّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»، زاد البزّار: «هو يجيب داعياً». (الدر المنثور). وأخرج البزّار مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٦٢) عن كعب بن مالك، وكان ممن شهد بيعة العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وفي الحديث يقول كعب: (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط: يا أهْل الجَبَاجب ـ والجَباجب المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أَزَبُّ العَقَبة، هذا ابن أُزَيْب، اسمع أي عدوَّ الله، أما والله لأفرُغَنَّ لك»، وهو في سيرة ابن إسحاق أيضاً. والأَزَبُّ في اللغة: الكثير الشعر، وقال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث): «هو شيطان اسمه أَزَبُّ العقبة، وهو الحيّة».

(٣) في الأصول: «بضم النون والراءِ»، والتصويب عن كتب القراءة والتفسير.



ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[١]، وقال النبي ﷺ: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»[٢]، ويقال لبيض النعام: ثَقَلٌ، قال لبيد:

فَتَـذَكَّـرا ثَقَـلاً. . . . .[٣]

وقال جعفر بن محمد الصادق[٤]: سُمِّي الجن والإنس ثقلَيْن لأنهما ثقلا بالذنوب، وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار، وقرأ ابن عامر: [أَيُّهُ الثَّقَلاَنِ] بضم الهاءِ.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ فقال الطبري: قال قوم: في الكلام محذوف تقديره: يقال لكم: يا معشر الجن والإنس، قالوا: وهذه حكاية عن حال يوم القيامة، [يوم التنادّ] على قراءة من قرأ بشدّ الدَّال[٥]، قال الضحاك: وذلك أنه يفرُّ النَّاس في أَقطار الأَرض، والجنُّ كذلك، لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أَحاطت بالأرض فيرجعون من حيث جاؤوا، فحينئذ يقال لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. وقال بعض

---

(١) الآية (٢) من سورة (الزلزلة).

(٢) أخرج هذا الحديث مسلم في فضائل الصحابة، والدَّارميُّ في فضائل القرآن، وأحمد في مسنده (٣ـ١٤، ١٧، ٣٦، ٥٩)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعِتْرتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض»، وفي رواية أُخرى ذكرها أيضاً أحمد في مسنده زيادةٌ في أول الحديث هي قوله ﷺ: «إنِّي أُوشك أن أُدعى فأجيب»، وزيادة في آخره هو قوله: «فانظروا بم تخلفوني فيهما».

(٣) هذا أول بيت قاله ثعلبةُ بن صُعَيْر المازني يذكر الظليم والنعامة، وليس من شعر لبيد، وقد قال ثعلبةُ هذا البيت من قصيدة يذكر فيها حبيبته عَمْرَةَ، وكيف وعدته ثم أخلفت وعدها، فتركها وسافر على ناقة شبَّهها بالظليم ـ وهو ذكر النَّعام ـ ثم استطرد يصف الناقة، والبيتُ بتمامه كما ذكره صاحب اللسان:

فَتَـذَكَّـرَا ثَقَـلاً رَثِيـداً بَعْـدَمَـا ... أَلْقَـتْ ذُكَـاءُ يَمِينَهَـا فـي كَـافِـرِ

ورواية البيت كما ذكرها المُفَضَّل الضبيُّ في المُفَضَّلِيَّات: «فَتَذَكَّرَتْ ثَقَلاً. . .» يعني النعامة التي يشبه بها ناقته، والثَّقل: المتاع وكلُّ شيءٍ مصون، وهو يريد هنا بيضها. والرَّثِيدِ: المنضود بعضه فوق بعض، وذُكاءُ ـ بضم الذال ـ: الشمس، والكافر: الليل؛ لأنه يغطي ويستر بظلمته كل شيءٍ، وكل ما غطى شيئاً فقد سَتَره وكَفَره، ومعنى «أَلقت يمينها في كافر» مالت للمغيب، أو تهيأت له.

(٤) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله، المعروف بالصادق، صدوق فقيه، إمام، من السادسة، مات سنة ثمان وأربعين. (تقريب التهذيب).

(٥) وذلك في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (غافر): ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.



المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى: إن استطعتم الفرار من الموت بأن تنفذوا من أقطار السموات والأرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تَنْفُذُوا فتعلموا علْم أقطار السموات والأرض، و«الأَقطارُ»: الجهات، وقوله تعالى: [فَانفُذُوا] صيغته الأمر ومعناه التعجيز. و«السُّلطان» هو القوة على غرض الإنسان، ولا يستعمل إلاّ في الأعظم من الأمر والحجج أبداً من القوي في الأُمور، فلذلك يعبِّر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحُجَّة، وقال قتادة: السلطان هنا الملك، وليس لهم ملك.

و«الشُّوَاظ»: لهبُ النار، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: لا يكون الشواظ إلاّ من النار وشيءٍ معها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك النار كلها لا تُحَسُّ إلاّ وشيءٌ معها.

وقال مجاهد: الشُّواظُ هو اللهب الأخضر المنقطع، ويؤيد هذا القولَ قولُ حسَّان بن ثابت يهجو أُميَّة بن أَبي الصلت:

هَجَوْتُكَ فاخْتَضَعْتَ حَليفَ ذُلٍّ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظ[1]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان بن ثابت في الردِّ على هجاءِ أُمَيَّة بن خلف له، وليس أُمية بن أبي الصلت، والذي قال أُمية بن أبي الصلت هو الثعلبي في تفسيره، وكذلك الماوردي، ولكن ورد في الصحاح، واللسان، والتاج، وكتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري وديوان حسان أن الأبيات في الردّ على أُمية بن خلف حين قال يهجو حسان بن ثابت:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٍ حَسَّانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْناً ... لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمَانِيّاً يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً ... ويَنْفُخُ دائباً لَهَبَ الشُّوَاظ؟

ورواية البيت في الديوان تختلف كثيراً عما هنا، فهو هناك:

مُجَلَّلَةً تُعَمِّمُكُمْ شَنَاراً ... مُضَرَّمَةً تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ

والشنَّار: الأمر المشهور بالشُّنعة والقُبح، ويقال: عارٌ وشنار، وتُعَمِّمُكُمْ: تشملكم جميعاً وتتناول كل فرد منكم، أما رواية البيت كما ذكرها ابن عطية هنا فهي التي وردت في سيرة ابن هشام مع اختلاف يسير عما هنا، فقد وردت هكذا:

هَجَوْتُكَ فاخْتَضَعْتَ لِذُلِّ نَفْسٍ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ =



وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب. وقرأَ الجمهور: (شُوَاظٌ) بضم الشين، وقرأَ ابن كثير وحده[١]، وشبل، وعيسى: [شِوَاظٌ] بكسر الشين، وهما لغتان، وقال ابن عباس، وابن جُبَيْر: النُّحاسُ: الدُّخان، ومنه قول الأَعشى:

يُضِــيءُ كَضَــوْءِ سِــرَاجِ السَّليـ ... ـطِ لَـمْ يَجْعَـلِ اللهُ فيـهِ نُحَـاسَـا[٢]

والسليط: دُهن الشَّيْرَج، وقرأَ جمهور القراءِ: [وَنُحَاسٌ] بالرفع عطفاً على [شُوَاظٌ]، فمن قال إِن النحاس هو المعروف ـ وهو قول مجاهد، وابن عباس أَيضاً ـ قال: ويرسَلُ عليهما نحاسٌ، أَي: يُذاب ويُرْسَل عليهما، ومن قال هو الدخان قال: يُعذبون بدخان يُرسل عليهما. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والنَّخَعي، وابن أَبي إِسحاق: (وَنُحَاسٍ) بالخفض عطفاً على [نَارٍ]، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أَبي عمرو بن العلاءِ، ومن رأَى أَن الشواظ يختص بالنار قدَّر هنا: وشيءٍ من نحاس، وحكى أَبو حاتم عن مجاهد أَنه قرأَ: [وَنِحَاسٍ] بكسر النون والجرِّ، وعن عبد الرحمن بن أَبي بكر أَنه قرأَ: [وَنَحُسُّ] بفتح النون وضم الحاءِ والسين المشددة على أَنه فعل، كأَنه يقول: وَنَقْتُلُ بالعذاب[٣]، وعن ابن جندب أَنه قرأَ: (وَنَحْسٌ) كما تقول: يومٌ نحْسٌ، وحكى أَبو عمرو مثل قراءَة مجاهد عن طلحة بن مصرف، وذلك لغة في نُحاس، وقيل: هو جمع نَحس، ومعنى الآية مستمر في تعجيز الجن والإِنس، أَي: أَنتما بحال من يُرسل عليه هذا فلا تنتصران.

= والشاهد في بيت حسَّان وفي شعر أُميَّة بن خلف استعمال الشواظ بمعنى اللهب.

(١) أي وحده من بين السبعة المشهورين في القراءة.

(٢) هذا البيت للنابغة الجعدي، عبد الله بن قيس، وليس للأعشى، وهو من قصيدة مشهورة للجعدي يقول في مطلعها:

لَبِسْــتُ أُنَــاســاً فَــأَفْنَيْتُهُــمْ ... وأَفْنَيْــتُ بَعْــدَ أُنَــاسٍ أُنَــاسَــا

وهو في الصحاح، والتاج، واللسان، وخزانة الأدب، والكامل. والسليط عند عامة العرب: الزيت، وعند أهل اليمن: دُهْن السِّمْسِم وهو الشَيْرج كما يقول ابن عطية، والنحاسُ: الدخان وهو الشاهد هنا. والضمير في «يُضيءُ» يعود على وجه الفتاة الذي ذكره في البيت السابق وهو:

أَضَــاءَتْ لَنَــا النَّــارُ وجْهــاً أَغَـ ... ـرَّ مُلْتَبِسـاً بـالفُـؤَادِ الْتِبَـاسَـا

(٣) قال أبو الفتح: «نَحُسُّ» أي نَقْتل بالعذاب، يقال: حسَّ القوم يَحُسُّهم حَسّاً إذا أستأصلتهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: تقتلونهم قتلا ذريعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

جواب [إِذَا] محذوف مقصود به الإبهام، كأنه تعالى يقول: فإذا انشقت السماءُ فما أَعظم الهول، وانشقاقُ السماءِ انفطارُها عند القيامة، وقال قتادة: السماءُ اليوم خضراءُ وهي يوم القيامة حمراءُ، فمعنى قوله تعالى: [وَرْدَةً] أَي: كحمرة الورد، وهو النوار المعروف، وهذا قول الزجاج والرمَّاني. وقال ابن عباس، وأَبو صالح، والضحاك: هي من لون الفرس الورد، فأُنِّث لكون السماءِ مؤنثة. واختلف الناس في قوله تعالى: [كَالدِّهَانِ] ـ فقال مجاهد، والضحاك: هو جمع دهن، قالوا: وذلك أن السماءَ يعتريها يوم القيامة أَلوانٌ وذوبٌ وتميُّعٌ من شدة الهول، وقال بعضهم: شبَّه لمعانها بلمعان الدُّهن، وقال جماعة من المتأَولين: الدهان: الجِلْد الأَحمر، وبه شبهها، وأَنشد منذر بن سعيد:

يَبِعْـنَ الـدِّهَـان الحُمْـرَ كُـلَّ عَشِيَّـة بِمَـوْسـمِ بَـدْرٍ أَوْ بِسُـوق عُكَـاظِ[1]

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ نفي للسؤال، وفي القرآن الكريم آيات تقتضي أَن في القيامة سؤالاً وآياتٌ تقتضي نفيه كهذه وغيرها، فقال بعض الناس: ذلك في مواطن دون مواطن، وهو قول قتادة وعكرمة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأَظهر في ذلك ـ: إن السؤال متى أُثبت فهو بمعنى التقرير والتوبيخ، ومتى نُفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام؛ لأَن الله تبارك وتعالى عليم بكل شيءٍ، وقال الحسن، ومجاهد: لا تسأَل الملائكة عنهم لأَنهم يعرفونهم بسيماهم، والسِّيما التي يُعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة العيون في الكفرة، قاله الحسن، ويحتمل أَن يكون غير هذا من التشويهات.

---

(١) قال في اللسان: «الدِّهان: الجِلدُ الأحمر، وقيل: الأملس» فالبيت يصف من يبعن الجلد الأحمر في الأسواق كل عشية، وهو شاهدٌ على أن الدِّهان هو الجلد الأحمر.



واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤخذ كل كافر بناصيته وقدمه فيُطوى ويُجمع كالحطب، ويُلقى كذلك في النار، وقال النقاش: رُوي أن هذا الطيَّ على ناحية الصلب قَعَساً[1]، وقاله الضحاك، وقال آخرون: بل على ناحية الوجه، قالوا: فهذا معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾، وقال قومٌ في كتاب الثعلبي: إنما يُسحب الكفرة سحباً، فبعضهم يُجر بقدميه، وبعضهم بناصيته، فأخبر في هذه الآية أن الأخذ يكون بالنواصي ويكون بالأقدام.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ قبلها محذوف تقديره: يُقال لهم على جهة التوبيخ والتقرير، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [هَذِهِ جَهَنَّمُ التي كُنْتُمَا بِهَا تُكَذِّبان، تَصلَيَانها لا تَموتَانِ فيها وَلاَ تَحْيَيَان]. وقرأ جمهور الناس: [يَطُوفُونَ] بفتح الياءِ وضم الطاءِ وسكون الواو، وقرأ طلحة بن مصرف: (يُطَوَّفُونَ) بضم الياءِ وفتح الطاءِ وشد الواو، وقرأ أَبو عبد الرحمن: [يُطَافُونَ]، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والمعنى في هذا كله أَنهم يتردَّدون بين نار جهنم وجمرها وبين حميم، وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها، و«الحميم»: الماءُ السخن، وقال قتادة: إن العذاب الذي هو الحميم يُغلى منذ خلق الله تعالى جهنم، وأَنَى الشيءُ: حَضَر، وأَنَى اللحم أَو ما يُطبخ أو يُغلى: نضج وتناهى حرُّه والمرادُ منه، ويحتمل أَن يكون من هذا ومن هذا، وكونه من الثاني أَبين، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[2]، ومن المعنى الآخر قول الشاعر:

. . . . أَنَـى وَلِكُـلِّ حَـامِلَـةٍ تَمَـامُ[3]

---

(١) القَعَس: نقيض الحَدَب، وهو خروج الصدر ودخول الظهر، فالمراد أنهم يكونون على هذه الهيئة إذ تطوى أجسامهم بحيث تبرز الصدور وتلتقي النواصي بالأقدام.

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب).

(٣) هذا عجز بيت استشهد به صاحب اللسان في (أنى)، ولم ينسبه، قال: «ابنُ الأنباري: الأنَى من بلوغ الشيء منتهاه، مقصور يكتب بالياء، وقد أَنَى يأني، وقال:

تَمَخَّضَـتِ الْمَنُـونُ لَـهُ بِيَـوْمٍ أَنَـى ولِكُـلِّ حَـامِلَـةٍ تَمَـامُ

أي أدرك وبلغ». وذكره في التاج ونسبه إلى عمرو بن حسان. وتَمَخَّض أصله: تحرَّك وتهيَّأ، والمراد هنا أن المنون أتت له بهذا اليوم الذي كان لا بد أن يأتي، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لا بد أن تُتم حملها وتلد.

ويشبه أَن يكون الأَمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض، والأَولُ أَعمُّ من الثاني.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

[مَنْ] في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ يحتمل أَن تقع على جميع المتصفين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى، ويحتمل أَن تقع لواحد منهم، وبحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية: إن كل خائف له جنتان، وقال بعضهم: إن جميع الخائفين لهم جنتان، و«الْمَقَامُ» هو وقوف العبد بين يدي ربه تعالى، يفسره ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وأَضافَ المقام إلى الله تعالى من حيث هو بين يديه. قال الثعلبي: «مَقَامُ رَبِّهِۦ» قيامُه على العبد، بيانه ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2]، وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد، وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف، وتحريض على الخوف الذي هو أَسرع المطايا إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال قوم: أَراد جنة واحدة وثَنَّى على نحو قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[3]، وقول الحجاج: يا غلام اضربا عنقه، وهذا ضعيف؛ لأَن معنى التثنية متَّجه بلا وجه للفرار إلى هذه الشَّاذَّة، ويؤيد التثنية قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي تثنية (ذات) لأَن أَصل (ذات) ذوات.

و«الأَفْنَان» يحتمل أَن يكون جمع فَنَنٍ وهو الغُصْن، وهذا قول مجاهد، فكأَنه تعالى مدحها بظلالها وتكاثف أَغصانها، ويحتمل أَن يكون جمع فَنٍّ، وهو قول ابن عباس

---

(١) الآية (٦) من سورة (المطففين).

(٢) من الآية (٣٣) من سورة (الرعد).

(٣) الآية (٢٤) من سورة (ق)، والخطاب من الله تعالى لواحد هو مالك خازن النار، لكن الله تعالى جعله لاثنين، وقد جرت عادة العرب على ذلك في كثير من أقوالهم وأشعارهم، وقد سبق التعليق على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه السورة. راجع صفحة ١٦٣ هامش ٢.



رضي الله عنهما، فكأنه تعالى مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها(١). و[زَوْجَانِ] معناه: نوعان، و[مُتَّكِئِينَ] حالٌ، إمَّا من محذوف تقديره: يتنعمون متكئين وإما من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾، و«الاتكاء»: جلسة المتنعِّم المتمتِّع، وقرأ جمهور الناس: (فُرُشٍ) بضم الراء، وقرأ أبو حيوة: [فُرْشٍ] بسكون الراء، وروي في الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذه البطائن من إستبرق فكيف الظواهر؟

قال عليه الصلاة والسلام: «هي من نور يتلألأ»(٢)، و«الإستبرق» ما خشن وحسن من الديباج، و«السُّنْدُسُ» مارقّ منه، وقد تقدم القول في لفظة الإستبرق، وقرأ ابن محيصن: [مِنْ اسْتَبْرَقَ] على أنه فعل والألف وصل(٣).

و«الجَنَى» ما يُجْتَنَى من الثمار، ووصفه بالدنُوّ لأنه فيما رُوي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع(٤) لأنه يدنو إلى مشتهيه.

---

(١) جاءَ الفنن في اللغة بمعنى الغُصن، وشواهده كثيرة في اللغة، ومنها قول الشاعر:

مـا هَـاجَ شَـوْقَـكَ مِـن هَـديلِ حَـمامَـةٍ ... تَـدْعُـو عَلَـى فَنَـنِ الغُصـونِ حَمَـامَـا
تَـدعُـو أبَـا فَـرخَيْـن صَـادفَ ضَـارِيـاً ... ذَا مِخْلَبَيْـن مِـن الصُّقُـورِ قَطَـامَـا

وقول النابغة:

بُكَـاءُ حَمَـامَـةٍ تَـدْعُـو هَـدِيـلاً ... مُفَجَّعَـةٍ عَلَـى فَنَـنٍ تَغَنَّـى

وجاء الفنن بمعنى النوع، وشاهده قول الشاعر:

ومِـنْ كُـلِّ أَفْنَـانِ اللَّـذَاذَةِ والصِّبَـا ... لَهَـوْتُ بِـهِ والعَيْـشُ أَخْضَـرُ نَـاضِـرُ

أي: ومن كل أنواع اللَّذاذة.

(٢) ذكره القرطبي قائلاً: وفي الخبر عن رسول الله ﷺ، ولكن في الدر المنثور ذكر السيوطي الخبر عن ابن عباس وابن جبير، قال: أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: بطائنها من إستبرق فما الظواهر؟ قال: ذاك مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وكذلك قال: أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال: ظواهرها من نور جامد. ونسب ابن كثير هذا إلى سفيان الثوري أو شريك. (راجع تفسير ابن كثير).

(٣) قال أبو الفتح في المحتسب: «هذه صورة الفعل البتَّة، بمنزلة اسْتَخْرَجَ، وكأنه سُمِّي بالفعل وفيه ضمير الفاعل، فحُكي كأنه جملة، وهذا باب إنما طريقه في الأعلام كتأبَّطَ شرّاً وشاب قرناها، وليس الإستبرقُ عَلَماً يُسمَّىٰ بالجملة».

(٤) أخرج الفريابيُّ، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، =



والضمير في قوله تعالى: [فيهنَّ] للفُرُش، وقيل: للجنات؛ إذ الجنَّتان جنات في المعنى.

و«قاصِرَاتُ الطَّرْفِ» هن الحور العين قصرن ألحاظهن على أزواجهن. وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده، وطلحةُ، وعيسى، وأصحابُ علي، وابنُ مسعود رضي الله عنهما: [يَطْمُثْهُنَّ] بضم الميم، وقرأ جمهور القراءِ: (يَطْمِثْهُنَّ) بكسر الميم، والمعنى: لم يَفْتَضِضْهُنَّ[1]؛ لأن الطمْثَ دم الفرج فيقال لدم الحيض: طمثٌ، ويقال لدم الافتضاض: طَمْثٌ، فإذا نفي الطَّمث فقد نُفي القرب منهن على جهة الوطء، قال الفراءُ: لا يقال «طَمَثَ» إلاَّ إذا افتضَّ، وقال غيره: «طَمَثَ» معناه: جامع بكراً أو غيرها.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ ـ فقال مجاهد: الجن قد تجامع نساءَ البشر مع أَزواجهن إذا لم يذكر الزوجُ الله تعالى، فنفى في هذه الآية جميع المجامعات، وقال حمزة بن حبيب: الجِنُّ في الجنَّة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفى في هذه الآية الافتضاض عن البشريَّات والجنِّيَّات، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيداً كأنه تعالى قال: لم يطمثهن شيءٌ، أراد العموم التام لكنه صرَّح من ذلك بالذي يُعقل منه أنه يَطْمِث، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طَمَثَ هذا البعير حبل قط، أي ما مسَّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدماه حبلٌ فهو يقرب من الأَول، وإلاَّ فهو معنى آخر غير ما قدمناه. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: [وَلاَ جَأْنٌ] بالهمز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

= والبيهقي في البعث، عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾، قال: (قريبة)، و﴿ذُلِّلَت قطوفها تذليلاً﴾، قال: (إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاءُوا)، وفي لفظ قال: (ذُلِّلَتْ لهم فيتناولون منها كيف شاءُوا). (الدر المنثور).

(١) الافتضاض هو النكاح بالتَّدمية، (نقله صاحب اللسان عن الفراء).



«الْيَاقُوتُ والمرَجَانُ» من الأَشياء التي قد برع حُسْنُها، واستشعرت النفوسُ جلالها، فوقع التشبيه بها لاَ في جميع الأوصاف لكن فيما يُشبه ويحسن بهذه المشبهات، فالياقوت في امِّلاَسِهِ[١]. وشفوفه، ومنه قول النبي ﷺ في صفة المرأة من نساء أهل الجنة: (يُرَى مخُّ ساقها من وراء العظم)[٢]، والمرجان في امِّلاسِهِ وجمال منظره، وبهذا النحو من النظر سمَّت العربُ النساءَ بهذه الأشياء كدُرَّه بنت أبي لهب، ومَرْجانة أم سعيد، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ آية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة، قال ابن المنكدر، وابن زيد، وجماعة من أهل العلم: هي للبَرِّ والفاجر، والمعنى: إن جزاء من أحسن بالطاعة أن يُحسن إليه بالتنعيم، وحكى النقاش أن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية فقال: «هل جزاءُ التوحيد إلاَّ الجنة»[٣]؟

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، اختلف الناس في معنى ﴿ مِن دُونِهِمَا﴾ ـ فقال ابن زيد وغيره: معناه إن هاتين دون تَيْنك في المنزلة والقدر، والأُولَيان جَنَّتا السابقين

---

(١) مصدر (امِّلس)، وأصل امِّلس هذه: انْمَلَس فأدغم (اللسان).

(٢) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلَّة من حرير حتى يُرى مخها». وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حُلَّة يرى مخ ساقهما من وراءِ الثياب»، قال ابن كثير في تفسيره: «تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه»، وقد روى مسلم عن محمد بن سيرين قال: إمَّا تفاخروا وإمَّا تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساءُ؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّيٍّ في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب». وأخرجه الترمذي في القيامة وفي الجنة، والدارمي في الرقاق. وذكر السيوطي في الدر المنثور زيادة في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجها أحمد، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في البعث والنشور، قال: (ينظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيءُ ما بين المشرق والمغرب، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وضعَّفه، عن ابن عمر. وأخرج مثله ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكذلك أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبغوي في تفسيره، والديلمي في مسنده الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس. (الدر المنثور).



والأخريان جَنَّتَا أصْحَاب اليمين، قال الرُّمَّاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنات الأَربع للخائف مقام ربّه تعالى، وقال الحسن: الأُولَيَان للسابقين والأُخريان للتابعين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: من دونهما في القرب من المُنعَّمين، وهاتان المُؤَخَّرتا الذِّكر أفضل من الأولَيَيْنِ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنَّضْخ والأُخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مُدْهَامَّتَيْن من شدة النِّعمة والأُولَيَيْنِ ذواتا أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مُدْهَامَّة[1]. وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع، ورُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأُولَيَيْنِ.

و[مُدهَامَّتَانِ] معناه: قد علا لونَها دُهْمةٌ وسوادٌ من النضرة والخضرة، كذا فسَّره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[2]. و«النَّضَّاخة»: الفوّارة التي يهيج ماؤُها، قال ابن جبير: المعنى: نضاختان بأنواع الفاكهة، وهذا ضعيف.

وكرر تعالى «النَّخْل والرُّمَّان» لأنهما ليسا من الفاكهة، وقال يونس بن حبيب وغيره، كررهما ـ وهما من أفضل الفاكهة ـ تشريفاً لهما، كما قال تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾.

[خَيْرَاتٌ] جمع «خَيْرَةٍ» وهي أَفضل النساءِ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) رجح الزمخشري هذا القول، وذكر غيره أن الأول أرجح لأنه ذكر فيه جَرْي العينين والنَّضْخ دون الجري، ولقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ وفي المتأخرتين قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾، ولأن الاتكاء في الأولَيَيْنِ على ما بطائنه من ديباج وهو الفُرُش وفي المتأخرتين الاتكاءُ على الرَّفرف وهو كَسْر الخباءِ، والفُرُش المُعَدَّة للاتكاء أفضل ولكن هذه مجرد استدلالات لا تقطع بالحقيقة كما قال ابن عطية رحمه الله.

(٢) الآيتان (٤، ٥) من سورة (الأعلى).

(٣) من قوله تعالى في الآية (٩٨) من سورة البرقة: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.



وَلَقَـدْ طَعَنْـتُ مَجَـامِـعَ الـرَّبَـلاَتِ ... رَبَـلاَتِ هِنْـدٍ خَيْـرَةِ الملكـاتِ[(١)]

وقالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، قال: (خيرات الأخلاق، حسان الوجوه)[(٢)] وقرأ بكر بن حبيب السهمي: [خَيِّراتٌ] بشد الياء المكسورة، وقرأ أبو عمرو بفتح الياءِ.

وقوله تعالى: [مَقْصُورَاتٌ] معناه: محجوباتٌ مصوناتٌ، وكانت العرب تمدح النساء بملازمة البيوت، ومنه قول الشاعر:

. . . . وَتَغفُـلُ عَـنْ إتْيَـانِهِـنَّ فَتُعْـذَرُ[(٣)]

يصف أن جيرانها يَزُرْنَها ولا تزورهن، ويروى أن بيت الأعشى قد ذُمَّ، وهو قوله:

كَـأَنَّ مِشْيَتَهَـا مِـنْ بَيـتِ جَـارَتِهَـا ... مَرُّ السحَـابَـةِ لا رَيْثٌ وَلاَ عَجَـلُ[(٤)]

---

(١) أنشد أبو عبيدة هذا البيت لرجل من بني عديٍّ تَيْم جاهلي، وهو في الصحاح والتاج واللسان، والرَّبَلاتُ: جمع رَبْلَةٍ ورَبَلَة ـ بسكون الباء وفتحها ـ وهي ما حول الضَّرْع والحياء من باطن الفخذ، ومجامع الشيء: أصوله ومكان اجتماعها، يفخر بما فعله مع هند هذه ويصفها بأنها خير الملكات. والشاهد هو وصف المرأة بأنها خَيْرَة، يقال: فلانةُ الخيْرة من المرأتين، أي الأفضل، ويقال: رجلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ، وامرأة خَيْرة وخَيِّرَة، والجمع أَخيارٌ وخِيارٌ، قال تعالى: ﴿أولئك لهم الخيرات﴾ أي الفاضلات من كل شيءٍ.

(٢) هذا جزءٌ من حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور وقال: أخرجه ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن أمِّ سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿حورٌ عينٌ﴾، قال: حُورٌ: بيضٌ، عينٌ: ضخام العيون، شُفر الحوراءِ، بمنزلة جناح النسر ـ وفي لفظ لابن مردويه: شُفر الجفون بمنزلة جناح النسر، قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، قال: رقَّتهن كرقَّة الجلدة التي في داخل البيضة مما يلي القشر، قلت: يا رسول الله فأخبرني عن قول الله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، قال: صفاؤهن كصفاء الدُّر الذي في الأصداف الذي لم تمسُّه الأيدي، قلت: يا رسول الله فأخبرني عن قول الله: ﴿فيهنَّ خيراتٌ حسانٌ﴾، قال: خيرات الأخلاق حسانُ الوجوه. . . الحديث و(شُفر العين) ـ بالضم ـ هو ما نبت عليه الشعر.

(٣) هذا عجز بيت قاله أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، والبيت بتمامه:

وَتَكْسَـلُ عَـنْ جَـارَاتِهَـا فَيَـزُرْنَهَـا ... وَتَغْفُـلُ عَـنْ إتْيَـانِهِـنَّ فَتُعْـذَرُ

والكسل: التثاقل عن الأمر الذي لا ينبغي أن يُتثاقل عنه. وتَغْفُل: تسهو، والشاهد أن الشاعر يمدحها بذلك، إذ ملازمة البيت تدل على الصيانة.

(٤) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة التي بدأها بالحديث عن هريرة، فقال: «وَدِّع هُرَيْرَة إنَّ الرَّكبَ مُرْتَحِلُ»، وقبله يقول:

غَـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ مَصْقُـولٌ عَـوَارِضُهَـا ... تَمْشي الْهُوَيْنَى كما يمْشي الْوَجِي الْوَحِلُ =



فقيل في ذمِّه: هذه جوَّالةٌ خرَّاجةٌ ولاَّجةٌ، ومن مَدْح القَصْر قولُ كُثَيِّر:

وأَنْـتِ الَّتـي حَبَّبْـتِ كُـلَّ قَصِيـرةٍ   إلَـيَّ وَلَـمْ تَشْعُـرْ بِـذاكَ القَصَـائـرُ

أُرِيـدُ قَصِيـرَاتِ الحِجـاَلِ وَلَـمْ أُرِدْ   قِصَارَ الخُطَى، شرُّ النِّساءِ البَحَاتِرُ[1]

وقال الحسن: مقصوراتٌ في الخيام: لَسْن بطوَّافات في الطُّرق.

و«الخِيَامُ»: البيوت من الخشب والثُّمام[2] وسائر الحشيش، وهي بيوت المرتحلين من العرب. وخيام الجنة: بيوت اللؤلؤ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي دُرٌّ مجوَّف، ورواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ، ولا يقال له خيمة، ومن هذا قول جرير:

مَتَـى كـانَ الْخِيَـامُ بـذي طلـوح   سُقيـتِ الْغَيْـثَ أَيَّتُهَـا الخِيَـامُ[3]

= فهو يصفها بأنها بيضاءُ، طويلة الشعر، لامعة الأسنان، تمشي ببطءٍ، كأن مشيتها حين تخرج من بيت جارتها مرور السحابة لابطء فيها ولا سرعة، فهو مشي هادىء رزين. ووجه النقد ذكره المؤلف وإن كان فيما قاله مبالغة، فإن كلمات «جوَّالة... الخ» جاءت في صيغة مبالغة لا تحتملها ألفاظ البيت، ومجرد الزيارة لجارتها لا يعطي هذه الأوصاف. والوَجي هو الذي أصابه وجع في باطن رجله.

(١) هذا الوصف من كُثَيِّر يؤيد المعنى الذي ذكره ابن عطية وهو مدح القَصْر بمعنى الحَجْب في البيت والمنع من الخروج، يقال: امرأةٌ قصيرة وقَصورة بمعنى مقصورة في البيت، ممنوعة من الخروج. وفي حديث أسماء الأشهلية: «إنَّا معشر النساء محصوراتٌ مقصوراتٌ»، والبيتان في اللسان والتاج، والرواية فيهما: «عَنَيْتُ قَصيراتِ الحِجال وَلَمْ أُرِدْ...»، وفي التهذيب: «قَصُورات الحجال»، وفي رواية الفراء للبيت الأول: «لَعَمْري لقد حَبَّبْتِ كلَّ قَصُورَةٍ»، والبيتان أيضاً في «القرطبي» و«غريب القرآن»، و«البحر المحيط». والحجال جمع حَجَلَة وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور. والبَحَاتِرُ جمع بُحترة ـ بضم الباء ـ وهي القصيرة المجتمعة الخَلْق.

(٢) الثُّمامُ: عُشب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة، والنَّورة منه سنبلة مدَلاَّة، وكانوا يستخدمونه في تغطية البيوت التي يصنعونها من فروع الشجر وأخشابه، قيل: كانوا يتخذون ثلاثة أعواد أو أربعة من الخشب ثم يضعون عليها الثُّمام.

(٣) هذا مطلع قصيدة لجرير، والخيمة: بيت من بيوت الأعراب مستدير يبنيه الأعراب من عيدان الشجر، بحيث يقيمون ثلاثة أعوادٍ أو أربعة وينثرون فوقها الثُّمام، ولهذا قال جرير بعد هذا البيت:

تَنَكَّـر مـن مَعَـارِفِهَـا وَمَـالَـتْ   دَعَـائِمُهَـا وَقَـدْ بَلِـي الثُّمَـامُ

وهو نبت تظلل به الخيام. وذو الطلوح: مكان.

يدعو لهذه الخيام إذا كانت في هذا المكان بالري والخير، قال بعض علماء اللغة: «كأنه لم يكن بذي طلوح خيامٌ قط»، وجرير يقول عنها خيام لأنها لم تصنع من شعر، بل أقيمت من خشب وحشيش.



ومنه قول امرىء القيس:

أَمَرْخٌ خِيَامُهُمُ أَمْ عُشُرْ؟[١] . . . . .

فاستفهم: هل هم منجدون أَمْ غائرون؟ لأن العُشُر مما لا ينبت إلاَّ في تهامة والمَرْخُ مما لا ينبت إلاَّ في نجد.

و«الرَّفْرَفُ»: ما تدلَّى من الأَسرة من غالي الثياب والبُسُط، وقال ابن جبير: الرَّفرفُ رياضُ الجنة، والأول أَصوبُ وأَبْيَن، وَوَجْهُ، قولِ ابن جبير أَنه من: رفَّ النَّبت إذا نعُم وحسُن. وما تدلَّى حول الخباء من الخرقة الشفافة [٢] يسمى رفرفاً، وكذلك يسميه الناسُ اليوم، وقال الحسن بن أبي الحسن: الرَّفرف: المرافق، و«العبقري»: بُسطٌ حسان فيها صور وغير ذلك تصنع بعبقر، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العبقري: الزَّرابي، وقال ابن زيد: هي الطنافس، وقال مجاهد: هي الديباج الغليظ، وقرأ زهير الفرقُبي[٣]: [رَفَارِفَ] بالجمع وترك الصرف، وقرأ أَبو طعمة المدني، وعاصم ـ في بعض ما روي عنه ـ: [رَفَارِفٍ] بالصرف، وكذلك قرأ عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه: [رَفَارِفٍ وعَبَاقِرِيٍّ] بالجمع والصرف، ورويت عن النبي ﷺ[٤]، وغلَّط الزجاج والرُّماني هذه القراءَة، وقرأَ أَيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما رُوي عنه: [عَبَاقَرِيَّ] بفتح القاف والياءِ، وهذا على أَن اسم الموضع «عَبَاقَر» بفتح القاف، والصحيح في اسم الموضع «عَبْقَر»، قال امرؤ القيس:

---

(١) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فرسه وخروجه إلى الصَّيد، والبيت بتمامه:

أَمَـــرْخٌ خِيَـــامُهُـــمُ أَمْ عُشُـــرْ ... أَمِ الْقَلْـــبُ فـــي إِثْـــرِهِـــمْ مُنْحَـــدِرْ؟

والمرخ: شجر قصير وكثر في نجد، والعشر: شجر طويل ويكثر بالغور، والشاعر يستفهم كما قال ابن عطية، والشاهد أن الشاعر تحدث عن الخيمة التي تصنع من أشجار المرخ أو العشر ولم تصنع من شعر.

(٢) في بعض الأصول: «من الخرقة الهفافة».

(٣) اختلف الأصول في كتابة هذا الاسم، فهو في بعضها: زهير الفرفلي، وفي بعضها: زهير العرقبي، وفي بعضها: زهير فقط، والتصويب عن المحتسَب لابن جني، وتفسير الطبري.

(٤) أخرج ابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، عن أبي بكر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قرأ: [مُتَّكِئينَ على رَفَارِفٍ خُضْرٍ وعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ].



كـأَن صَليـلَ المَـرْوِ حيـنَ تَشـذُّهُ ... صلِيـلُ زُيُـوفٍ يُنتَقَـدْنَ بِعَبْقَـرَا[١]

قال الخليل والأصمعي: العرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت: عَبْقَرِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومنه قول النبي ﷺ: (فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفْري فَرِيَّهُ)[٢] وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: العَبْقَرِيُّ سيِّد القوم وعينهم، وقال زهير:

بِخَيْـلٍ عَلَيْهَـا جِنَّـةٌ عَبْقَـرِيَّـةٌ ... جَديرونَ يَوْماً أَنْ ينَالُوا فَيسْتَعْلُوا[٣]

ويقال: عَبْقَر مسكنٌ للجن، وقال ذو الرُّمَّة:

---

(١) هذا البيت من قصيدة امرىء القيس المعروفة التي قالها حين توجه إلى قيصر يستنجد به، والتي يقول في مطلعها: «سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا»، وهو في البيت يصف صوت الحصى الذي كان يتطاير تحت أقدام ناقته، والمَرْوُ: حجارةٌ بيضٌ براقةٌ، أوْ أصلب الحجارة تقدح بالنار، والصليلُ: الصوتُ. وتشُذُّهُ: تُفَرِّقُه أو تُنَحِّيه عن طريقها، ويروى بدلاً منها: تُطِيرُهُ، والزُّيُوف: الدراهم الرديئة، وقيل: هي الدراهم الصلبة، ويُنتَقَدْنَ: يُضْرَبْن بالأيدي للاختبار ومعرفة الزائف من الأصلي، وعَبْقَر: موضع باليمن، وهو الشاهد هنا، يقول: إن ناقتي في سرعتها تنثر الحجارة بأخفافها وتفرقها، فيقع بعضها على بعض فتحدث أصواتاً كأصوات الدراهم الصلبة إذا اختبرها الصَّيْرَف، وخصَّ الزُّيوف لأن صوتها أشد لكثرة ما فيها من النحاس.

هذا والبيت في اللسان، والرواية فيه: «تَشُدُّه»، ومعناها بعيد عن معنى البيت.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة، والترمذي في الرؤيا، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما أنا على بئر أَنْزِعُ منها جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدَّلْو فنزَع ذَنُوباً أو ذَنُوبين، وفي نَزْعه ضعف، والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غرباً، فَلَمْ أرَ عبقرياً من الناس يفري فريَّه، فنزَع حَتَّى ضربَ الناسُ بعَطَنٍ) والغَرْبُ: الدَّلْو العظيمة تُتخذ من جلد الثور، ومعنى (يَفْرِي فَرِيَّهُ): يجيد عمله ويأتي فيه بالعجب العُجَاب. و(فَرِيَّهُ) بفتح الفاءِ وكسر الراء وشدِّ الياء المفتوحة، قال ابن الأثير في كتاب النهاية: «وحُكي عن الخليل أنه أنكر التثقيل وغلَّط قائله» فهو يضبطه بسكون الراءوفتح الياء، والعطنُ: مَبْرَكُ الإبل حول الماء، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً لاتساع الناس في زمن عمر رضي الله عنه، وما فتح الله عليهم من الأمصار.

(٣) هذا البيت من قصيدة زهير التي يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرِّي، والتي يقول في مطلعها: (صَحَابكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ)، وقوله «بخَيْل» متعلق بقوله في البيت السابق: «طاروا إلى مُسْتغيثهم»، أي أسرعوا بهذه الخيل، وعبقرية: نسبة إلى عبقر، وهي أرض كان العرب يظنون أن بها الجن وينسبون إليها كل عبقري، وجديرون: خليقون مستحقُّون، فَيَسْتَعْلُوا: يُحققون الظَّفر والعُلُوَّ على العدوِّ، يصفهم بأنهم حين يركبون خيلهم لإنقاذ مستغيث بهم أهلٌ لأن ينتصروا وينالوا ما يريدون.



حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ القُفِّ أَلْبَسَهَا ... مِنْ وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدُ[(١)]

وقرأ الأعرج: [خُضُرٌ] بضم الضاد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ على إتباع «الرَّبِّ»، وقرأ ابن عامر وأهل الشَّام: [ذو الجلال] على إتباع «الاسم»، وكذلك في الأول[(٢)]، وفي حرف أُبيّ، وابن مسعود رضي الله عنهما: [ذي الجلال] في الموضعين، وهذا الموضع ممَّا أُريد فيه بالاسم مُسَمَّاه[(٣)]، والدعاءُ بهاتين الكلمتين حسَنٌ مرجُوُّ الإجابة، وقال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلالِ والإكرام»[(٤)].

كمل تفسير سورة الرحمن والحمد لله ربّ العالمين

* * *

---

(١) البيت في الديوان، وفي اللسان، والتاج، والقرطبي، والبحر المحيط، والقُفُّ: ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته، وهو حجارة غاص بعضها في بعض، لونها أحمر ولا يخالطها من السهولة شيءٌ، ويكون فيه رياض وقيعان، فالروضة حينئذ من القُفِّ الذي هي فيه، ولو ذهبت تحفر فيه غلبتك كثرة حجارتها، والوشي: النَّقش، وعبقر هنا بمعنى المكان الذي تصنع فيه السجاجيد المنقوشة والديباج المزخرف، والتَّجليل: الكساءُ والتغطية، والتَّنجيد: التَّزيين بالفُرُش والسُّتور.

(٢) يعني في قوله تعالى في الآية (٢٧) من هذه السورة: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

(٣) فكأن تقدير الكلام: تبارك ربُّك، ويدلُّ على ذلك إسناد «تبارك» لغير الاسم في مواضع أُخرى، كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وقد قيل: إن الله تعالى ختم نعيم الدنيا في هذه السورة بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لأن البقاء مناسبٌ لما ذُكر من فناء العالم، وختم نعيم الآخرة هنا بما اشتق من البركة والنمو.

(٤) أخرجه الترمذي، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد، والنسائي، وابن مردويه، عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه. (الدر المنثور).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الواقعة

وهي مكيَّة بإجماع ممن يُعتد بقوله من المفسرين، وقيل: إن فيها آيات مدنية أَو ممَّا نزل في السفر[١]، وهذا كله غير ثابت، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من داوم على قراءَة سورة الواقعة لم يفتقر بداً»[٢]، ودعا عثمانُ ابنَ مسعود رضي الله عنهما إلى عطائه فأَبى أَن يأْخذ، فقيل له: خذ للعيال فقال: إنهم يقرءُون سورة الواقعة، وسمعت النبي ﷺ يقول: من قرأَها لم يفتقر أَبداً[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة، وفَهْم ذلك غنًى لا فقر معه، من فهمه شغل بالاستعداد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ

---

(١) أما المدني فآية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، قال ذلك ابن عباس وقتادة، وأما الذي نزل في السفر فأربع آيات، منها آيتان نزلتا في السفر إلى مكة هما قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وآيَتَان نزلتا في السفر إلى المدينة هما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، قاله الكلبيُّ.

(٢) أخرجه أبو عُبَيْد في فضائله، وابن الضريس، والحارث بن أبي أُسامة، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وذكر أبو عمرو بن عبد البر في «التمهيد» و«التعليق» والثعلبي أيضاً أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي. قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أَتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ إني أَمَرْتُهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً».

(٣) انظر ما سبق في هامش رقم (٢).



ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

[الْوَاقِعَةُ] اسمٌ من أَسماءِ القيامة كالصَّاخَّة والآزفة والطَّامة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه كلها أَسماءٌ تقتضي تعظيمها وتشنيع أَمرها، وقال الضحاك: الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصُّور، وقال بعض المفسرين: الواقعة صخرة بيت المقدس تقع عند القيامة، فهذه كلها معان لأَجل القيامة.

و[كَاذِبَةٌ] يحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وخائنة الأَعين، فالمعنى: ليس لها تكذيب ولاَ ردٌّ ولاَ مَثْنَوِيَّة[1]، وهذا قول قتادة والحسن، ويحتمل أَن يكون صفة لمقدَّر، كأَنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة، ويحتمل الكلام ـ على هذا ـ معنييْن: أَحدهما كاذبةٌ أَي مكذوبة فيما أَخبر به عنها، وسمَّاها كاذبة لهذا، كما تقول: قصة كاذبة، أَي مكذوب فيها، والثاني حالٌ كاذبة، أَي لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ، أَي هي خافضة رافعة، وقرأَ الحسن، وعيسى الثقفي، وأَبو حَيْوة: [خَافِضَةً رَافِعَةً] بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ولك أَن تُتابع الأَحوال كما لك أن تُتابع أَخبار المبتدأ، والقراءَة الأُولى أَشهر وأَبرع معنى، وذلك أَن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يُذكر لاستُغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يُتَهَمَّم به[2].

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية ـ فقال قتادة، وعثمان بن عبد الله بن سراقة: القيامة تخفض أَقواماً إِلى النار، وترفع أَقواماً إِلى الجنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الصيحة تخفض صوتها لتُسمع الأَدنى، وترفعه لتُسمع الأَقصى، وقال جمهور من المتأَولين: القيامة تنفطر بها السماءُ والأَرض والجبال، وانهدامُ هذه البنية يرفع طائفة من الأَجرام ويخفض أُخرى، فكأَنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب.

---

(١) أي لا تُثَنَّى ولا تَرْجِع.

(٢) قال أبو حيان في «البَحْر» بعد أن ذكر هذا الكلام نقلا عن ابن عطية: «وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي».

والعامل في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ ﴿وَقَعَتْ﴾؛ لأن هذه بدلٌ من (إذَا) الأُولى، وقد قالوا: إنَّ (وَقَعَت) هو العامل في الأُولى، وذلك لأَن معنى الشرط فيهما قوي، فهي كمَنْ وَمَا في الشرط يعمل فيها ما بعدها من الأَفعال، وقد قيل: إنَّ (إذَا) مضافة إلى (وَقَعَت) فلا يصح أَن تعمل فيها، وإنما العامل فيها فعل مقدر.

ومعنى ﴿رُجَّت﴾: زُلزلت وحُرِّكت بعنف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه ارتَجَّ السهم في الغرض، إذا اضطرب بعد وقوعه، والرَّجة في الناس الأَمر المحرِّك. واختلف اللغويون في معنى ﴿بُسَّت﴾ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: معناه: فُتِّتَتْ كما تُبَسُّ البسيسةُ، وهي السويق، ويقال: بَسَسْتُ الدقيق إذا ثريته بالماءِ وبقي متفتتاً، وأَنشد الطبري في هذا:

لاَ تَخْبِـــزَا خَبْـــزاً وَبُسَّـــا بَسَّـــا[1]

وقال: هذا قول لصٍّ أَعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه. وقال بعض اللغويين: [بُسَّت] معناه: سُيِّرت، قالوا: والخَبْزُ: السَّيْر الشديد وضرب الأَرض بالأَيدي، والبسُّ: السَّيْر الرفيق، وأَنشدوا البيت:

لاَ تَخْبِـــزَا خَبْـــزاً وَبُسَّـــا بَسَّـــا ... وجنِّبَـــاهَـــا نَهْشَـــلاً وعَبْســـا

ذكر هذا أَبو عثمان اللغوي في كتاب «الأَفعال».

---

(١) هذا الرَّجز من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وهو في «المخصص» و«الطبري» و«القرطبي» و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج»، واستشهد به أيضاً الفراء في «معاني القرآن»، وقد اختلفت الروايات في البيت الثاني فهو في الطبري ومعاني القرآن: (مَلْساً بِذَوْدِ الْحَلَسِيِّ مَلْسَا)، وفي اللسان: (وَلاَ تُطِيلاَ بِمُنَاخٍ حَبْسَا)، وفي المخصص: (مَلْساً بِذَوْدِ الحَدَسِيِّ مَلْسَا)، وهكذا تعددت واختلفت روايته، ويقولون: إن الرَّجز قاله لصٌّ من غطفان وأراد أن يخبز، فخاف أنْ يُعجل عن الخبز فأكله عجيناً وقال: (لا تَخْبزا خَبْزاً وبُسَّا بَسَّا)، ويظهر أن المعنى الثاني الذي ذكره ابن عطية للخبز والبَسِّ هو الأقرب، ويؤيد ذلك أن «المَلْس» ضربٌ من السير الرقيق، والذَّوْدُ: الثلاثة إلى العشرة من الإبل، فكأن ما سرقه اللصان كان إبلاً، وأن الحَلَسِيَّ هو صاحبها، وهو يقول لهما: لا تسيرا بالإبل المسروقة سَيْراً شديداً سريعاً، بل سيرا بها في رفق وَلينٍ، وقد زاد في المخصص بعد هذين البيتين بيتين آخرين، وذكرهما أيضاً أبو زيد في «النوادر»، وهما:

مِـــنْ غَـــدْوَةٍ حَتَّـــى كـــأَنَّ الشَّمْسَـــا ... بـــالأُفُـــقِ الْغَـــرْبِـــيِّ تُطْلَـــى وَرْسَـــا

ومعنى «تُطْلَى وَرْسَا» أنها مالت للغروب وأصابتها صُفرته.



و«الْهَبَاءُ»: ما يتطاير في الهواءِ من الأَجزاءِ الدقيقة ولا يكاد يُرَى إلاَّ في الشَّمس إذا دخلت من كُوَّة، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: الهباءُ ما يتطاير من يبس النبات[١]، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: الهباءُ ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب. وقال بن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الهباءُ ما يتطاير من شرر النار فإذا طُفىء لم يوجد شيءٌ. و«الْمُنْبَثُّ» ـ بالثاءِ المثلثة ـ: الشائع في جميع الهواءِ، وقرأَ النَّخعيُّ: [مُنْبَتًّا] بالتاءِ بنقطتين، أَي متقطعاً، ذكر ذلك الثعلبي، والقول الأَول في الهباءِ أَحسن الأَقوال.

والخطاب في قوله تعالى: [وَكُنتُمْ] لجميع العالم؛ لأَن الموصوفين من أَصحاب المشأَمة ليسوا في أُمة محمد ﷺ، و«الأَزْوَاجُ»: الأَنواعُ والضروب، قال قتادة: هذه منازل الناس يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ابتداءٌ و[مَا] ابتداءٌ ثانٍ، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبر [مَا]، والجملة خبر الابتداءِ الأَول، وفي الكلام معنى التعظيم، كما تقول: «زيدٌ ما زيدٌ»، ونظير هذا في القرآن كثير، و«الْمَيْمَنَةُ» أَظهر ما في اشتقاقها أَنها من ناحية اليمين، وقيل: من اليُمْن، وكذلك «الْمَشْأَمَةُ» إمَّا أَن تكون من اليد الشُّؤمى، وإمَّا أَن تكون من الشُّؤم، وقد فُسِّرت هذه الآية بهذين المعنيين؛ إذ أَصحاب المَيْمَنة الميامينُ على أَنفسهم، قاله الحسن والربيع، ويشبه أَن اليُمْن والشُّؤْمَ إنما اشْتُقَّا من اليمين والشمال، وذلك على طريقتهم في السانح والبارِح[٢]، وكذلك اليَمَن والشَّامُ اشْتُقَّا من اليُمْنى والشؤْمَى[٣].

وقوله تعالى: [والسَّابِقُونَ] ابتداءٌ، و[السَّابِقُونَ] الثاني قال بعض النحويين: هو نعت للأَول، ومذهب سيبويه أَنه خبر الابتداءِ، وهذا كما تقول: الناسُ الناسُ، وأَنت أَنت، وهذا على معنى التفخيم للأَمْر وتعظيمه، والمعنى هو أَن تقول: السَّابقُون إلى

---

(١) في بعض النسخ: «ما يتطاير من لُبْس الثياب».

(٢) السانح: الطائر أو الظبي إذا مرَّ من مياسرك إلى ميامنك فولاَّك ميامنه، والعرب يَتَيَمَّنُون به، والبارح: الطائر أو الظبي إذا مرَّ من يمين الرائي إلى يساره، والعرب تتشاءم به.

(٣) في اللسان: «أَشأَم وشاءَم إذا أتى الشأَمَ، ويامَنَ القومُ وأَيْمنوا إذا أَتَوْا اليمن»، وفيه أيضاً: «والشَّأم بلاد تذكَّر وتُؤنَّث، وسُمِّيت بها لأنها عن مشأَمة القبلة».

الإِيمان السَّابِقُونَ إِلى الجنة والرحمة، أُولئك. . . ، ويتَّجه هذا المعنى على الابتداءِ والخبر.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، وهو في موضع الخبر على قول من قال: «السَّابقون» الثاني صفة، و[الْمُقَرَّبُونَ] معناه: من الله تعالى في جنة عدن، قال جماعة من أَهل العلم: وهذه الآية متضمنة أَن العالم يوم القيامة على ثلاثة أَصناف: مؤمنون هم على يمين العرش وهنالك الجنة، وكافرون وهم على شمال العرش وهنالك النار[(١)]، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مرَّ في سورة الكهف في اليمين والشمال[(٢)]، وقد قيل في أَصحاب الميمنة واليمين: إِنهم مَنْ أَخذ كتابه بيمينه، وفي أَصحاب المشأَمة والشمال: إِنهم مَنْ أَخذه بشماله، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إِلى العرش، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَصحاب اليمين أَطفالُ المؤمنين، وقيل: المراد ميمنةُ آدم عليه السلام ومشأَمتُه المذكورتان في حديث الإِسراءِ في الأَسْوِدَة[(٣)].

و«السَّابقون» معناه: قد سبقت لهم السعادة وكانت أَعمالهم في الدنيا سبقاً إِلى أَعمال البرِّ وإِلى ترك المعاصي، فهذا عموم في جميع الناس، وخصَّص المفسرون من هذا أَشياءَ، فقال عثمان بن أَبي سودة[(٤)]: هم السابقون إِلى المساجد، وقال ابن سيرين: هم الذين صلَّوا للقبلتين، وقال كعب: هم أَهل القرآن، وقيل: هم غير هذا مما هو جزءٌ من الأَعمال الصالحة، ورُوي أَن النبي ﷺ سئل عن السابقين فقال: «هم الذين إِذا أُعطوا الحق قبلوه، وإِذا سُئلوه بذلوه وحكموا للناس بحكمهم لأَنفسهم»[(٥)]،

---

(١) والصنف الثالث هم السابقون، ذكر أَصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم، وأَصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم، ثم ذكر السابقين مثبتاً حالهم، فأَخبر أَنهم نهاية في العظمة والسعادة.

(٢) في قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

(٣) جاء في حديث الإِسراء كما رواه مسلم (ج١ ص٣٩٥): (فلما علونا السماءَ الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يساره أَسْوِدَة، قال: فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى)، والرجل هو آدم عليه السلام، والأَسودة التي على يمينه هي أهل الجنة من أولاده، والأَسودة التي على شماله هي أهل النار منهم.

(٤) هو عثمان بن أبي سودة المقدسي، ثقة، من الثالثة.

(٥) ذكره المهدوي، وأخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها، عنه ﷺ أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا=



وقرأ طلحة بن مصرف: [في جَنَّةِ النَّعِيمِ] على الإفراد، و﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، على سُرُر مَوْضُونَةٍ متكئين، وقيل لعامر بن عبد قيس[1] في يوم حلبة: من سبق؟ فقال: المقربون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

«الثُّلَّةُ»: الجماعة والفرقة، وهي تقع للقليل والكثير، واللفظ في هذا الوضع يعطي أَن الجملة من الأَولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبَّر عنها بالقليل، واختلف المتأَولون في معنى ذلك ـ فقال قوم ـ حكى قولهم مكي ـ: المراد بذلك الأَنبياءُ عليهم السلام لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً، وقال الحسن وغيره: المراد السابقون من الأُمم والسابقون من هذه الأمة، وذلك إِمَّا أن يقرن أَصحاب الأَنبياءِ عليهم السلام بجموعهم إِلى أَصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر عدداً لا محالة، وإِمَّا أَن يقرن أَصحاب الأَنبياءِ عليهم السلام ممن سبق في أَثناءِ الأُمم السَّالِفَة إِلى السابقين من جميع هذه الأُمة فأولئك أكثر. وروي أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلة سابقي هذه الأمة على هذا التأْويل، فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فرضوا[2]، ورُوي

= سُئِلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

(١) هو عامر بن عبد الله بن قيس، أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري، وقيل: اسمه الحارث، قال عنه في (تقريب التهذيب): ثقة من الثالثة، مات سنة أربع ومئة وقد جاوز الثمانين.

(٢) أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، وفي آخره: (فقال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم الشطر الثاني»، وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، قال عمر: يا رسول الله: ثُلَّة من الأولين وقليل من الآخرين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمر تعال فاستمع ما قد أنزل الله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، ألا وإنَّ من آدم إليَّ ثُلَّة، وأُمَّتي ثُلَّة، ولن نستكمل ثُلّتنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إِلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له. وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلا. ورواه الحافظ ابن عساكر عن جابر.



عن عائشة رضي الله عنها أَنها تأَوَّلت أَن الفريقين في أُمة كل نبي هي في الصَّدر ثُلَّة وفي آخر الأُمة قليل، وقال النبي ﷺ فيما رُوي عنه: «الفرقتان في أُمتي، فسابقُ أَولِ الأُمة ثُلَّة، وسابقُ سائِرِها إِلى يوم القيامة قليل»[(١)].

وقرأَ الجمهور: [سُرُرٍ] بضم الراءِ، وقرأَ أَبو السَّمال: [سُرَرٍ] بفتح الراءِ، و«الْمَوْضُونَة»: المنسوجة بتركيب بعض أَجزائها على بعض كحلق الدرع، فإِن الدرع موضونة، ومنه قول الأَعشى:

وَمِـــنْ نَسْـجِ داودَ مَـــوْضُـــونَـــةٌ تَسِيـرُ مَـعَ الحَـيِّ عِيـراً فَعِيـراً[(٢)]

وكذلك سقيفة الخوص ونحوه موضونة، ومنه وضينُ الناقة وهو حزامها لأَنه موضون، فهو كقتيل وجريح، ومنه قوله:

إِلَيْـــكَ تَغْـــدُو قَلِقـــاً وَضِينُهَـــا مُعْتَـرِضـــاً فـــي بَطْنِهـــا جَنِينُهَـــا

مُخَـالِفـاً ديـنَ النَّصـارى دِينُهـا[(٣)]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه السُّرر الموضونة هي مَرْمُولَةٌ بالذهب[(٤)]، وقال عكرمة: هي مشبكة بالدُّرِّ والياقوت، و[مُتَّكِئِينَ] و[مُتَقَابِلِينَ] حالان، وفيهما ضمير مرفوع، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مُتَّكِئينَ عليها ناعمين».

---

(١) رواه سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ بلفظ «الثُّلَّتان جميعاً من أُمتي».

(٢) البيت لأعشى بني قيس بن ثعلبة من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، يقول الأعشى في بيت سابق على هذا: إنه أعد للحرب عدتها، ثم يستطرد في هذا البيت فيقول: وأعددت لها درعاً موضونة، وهي التي نُسجت نسجاً مضاعفاً تُحمل فوق الجمال عيراً من ورائها عيرٌ، وداود عليه السلام هو الذي علمه الله تعالى صناعة الدروع.

(٣) الأبيات في التاج واللسان، والوَضِينُ: بطانٌ عريضٌ منسوج من سيور أو شعر، وسمَّت العرب وضين الناقة كذلك لأنه منسوج، والوضين بمعنى الموضون، وقد أنشد أبو عبيدة هذه الأبيات شاهداً على أن الوضين بمعنى الموضون، والكلام في الأبيات عن الناقة التي تعدو نحو الممدوح طمعاً في خيره، ومعنى أن وضينها قلِقٌ أنها هزلت واتسع الوضين عليها فصار قَلِقاً، قال صاحب اللسان عن البيت الأخير: أراد دينه هو لأن الناقة لا دين لها، وهذه الأبيات يُروى أن ابن عمر أنشدها لما اندفع من جَمْع، ووردت في حديثه، وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفات وهو يقول:

«إِلَيْـكَ تعـدو قَلِقـاً وَضِينُهَـا».

(٤) أي: مُزَيَّنَةٌ بالذهب، يقال: رَمَلَ السَّرير بمعنى: زيَّنَه بالذهب.



و«الْوِلْدَانُ»: صغارُ الخدم، عبارة عن أَنهم صغار الأسنان. ووصفهم تعالى بالخُلْد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك؛ إشارة إلى أنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سِنٌّ، وقال مجاهد: لا يموتون، وقال الفراءُ: (مُخَلَّدُونَ) معناه: مُقَرَّطُون بالخَلَدَات، وهي ضرب من الأَقراط، والأَول أَصوب؛ لأَن العرب تقول للذي كبر ولم يشب: إنه مخلَّد.

و«الأَكواب»: ما كان من أَواني الشرب لا أُذن له ولا خرطوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي جرارٌ من فضة، وقال أَبو صالح: مستديرة أَفواهها، وقال قتادة والضحاك: ليست لها عُرى. و«الإِبريقُ»: ما له خرطوم، قال مجاهد: وأُذن، وهو من أَواني الخمر عند العرب، ومنه قول عديٍّ بن زيد:

وَتَـدَاعَـوْا إِلَـى الصَّبُـوحِ فقـامـتْ ... قَيْنَـةٌ فـي يَمِينَهـا إِبْـريـقُ[1]

و«الكَأْسُ»: الآنية المُعَدَّة للشرب بها، بشريطة أَن يكون فيها خمر ونبيذ، أَو بسبيل ذلك، ومتى كان فارغاً فهو مُنْتَسب إلى جنسه زجاجاً كان أَو غيره، ولا يقال لآنية فيها ماءٌ أَو لبن: كأْسٌ.

وقوله تعالى: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: من خمر سائلة، فوزنها مفعول، أَصلها معيون، وهذا تأْويل قتادة، وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ذهب أَكثر المفسرين إلى أَن المعنى: لا يلحق رؤُوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا، وقال قوم: معناه: لا يتفرقون عنها، بمعنى: لا تُقطع عنهم لذَّتهم بسبب من الأَسباب كما يفرق أَهل خمر الدنيا بأَنواع من التفريق، وهذا كما قال: (يتصدَّعُ السحاب عن المدينة)... الحديث[2].

---

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي، وهو في اللسان والتاج، والرواية فيهما: (وَدَعَا بالصَّبُوح يوماً فجاءَت...)، والصَّبوح: شرابُ الصباح وهو خلاف الغَبُوق الذي هو شراب المساء. والقَيْنَة: الجارية، وغَلَب على المغنِّية، والإبريق: الإناءُ الذي له خرطوم، وهو فارسيٌّ معرب، وشاهده هذا البيت، وهناك أبيات كثيرة استعملت هذا اللفظ بالمعنى المذكور.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في المناقب، وأبو داود في الاستسقاء، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٦١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والحديث كما جاء في مسند أحمد أن رجلاً نادى رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وهو يخطب الناس بالمدينة، فقال: يا رسول الله! قحط المطر، وأمحلت الأرض، وقحط الناسُ، فاسْتَسْقِ لنا ربك، فنظر النبيُّ ﷺ إلى السماءِ وما نرى كثير سحاب، =



وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة، وابن جبير، والضحاك: معناه: لا تذهب عقولهم سُكْراً، والنَّزيف: السكران، ومنه قول الشاعر:

. . . . شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَجِ(١)

وقرأ بن أَبي إِسحاق: [ولا يَنْزِفُونَ] بكسر الزاي وفتح الياءِ، من: «نَزَفَ البِئْرَ» إذا استقى ماءَهَا، فهي بمعنى: تمَّ خمرهم ونَفَذت(٢)، هكذا قال أَبو الفتح. وحكاها أَبو حاتم عن ابن أَبي إِسحق، والجحدري، والأعمش، وطلحة، وابن مسعود، وأَبي عبد الرحمن، وعيسى بضم الياءِ وكسر الزاي، قال: ومعناها: لا يفنى شرابهم، والعرب تقول: «أَنزف الرجلُ عَبْرَتَه». وتقول أَيضاً: «أَنْزَفَ» إِذا سكر، ومنه قول الأُبَيْرد:

لَعَمْـرِي لَئِـنْ أَنْـزَفْتُـمْ أَوْ صَحَـوْتُـمُ ... لَبِئْـسَ النَّـدَامَـى كُنْتُـم آلَ أَبْجَـرَا(٣)

= فاستسقى، فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مُطروا حتى سالت مَشَاعبُ المدينة واضطردت طرقها أنهاراً، فما زالت كذلك إلى يوم الجمعة المقبلة ما تُقلع، ثم قام ذلك الرجل أو غيره ونبي الله ﷺ يخطب فقال: يا نبي الله، ادعُ الله أن يحبسها عنَّا، فضحك النبي ﷺ ثم قال: اللَّهمَّ حوالَيْنا ولا علينا، فدعا ربَّه، فجعل السحاب يَتَصَدَّعُ عن المدينة يميناً وشمالاً يُمْطر ما حولها ولا يُمْطر فيها شيئاً).

(١) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في الديوان، وفي اللسان والتاج، وقال ابن بَرِّي: «البيت لجميل بن مَعْمر وليس لعُمَر بن أبي ربيعة»، ولكنه غير موجود في ديوانه، والبيت مع بيتين قبله كما في اللسان، وديوان ابن أبي ربيعة:

قَـالَـتْ: وَعَيْشُ أبـي وَحُـرْمَـةُ إِخْـوَتـي ... لأُنَبِّهَـنَّ الحَـيَّ إنْ لَـمْ تَخْـرُجِ

فَخَـرَجْـتُ خَـوْفَ يَمينهـا فَتَبَسَّمَـتْ ... فَعَلِمْـتُ أنَّ يمينهـا لَـمْ تُحْـرجِ

فَـلَثَمْـتُ فَـاهَـا آخِـذاً بِقُـرُونِهَـا ... شُـرْبَ النَّـزِيـفِ بِبَـرْدِ مـاءِ الحَشْـرَجِ

والقُرون: ضفائر شعرها، والنَّزيف: السكران، أو الذي جفَّ ريقه من العطش، أو المحموم الذي جَفَّ ريقه، والحشرج: الماءُ الذي يجري على الحصى صافياً، أو كوز صغير يشرب منه، أو النقرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو للشرب.

(٢) جملة تحتاج إلى توضيح، والذي قاله أبو حاتم بعد أن استشهد بكثير من الشعر: «فكأنه سبحانه قال: لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يَنْزِفُونَ عُقُولَهم كما يُنزفُ ماءُ البئر».

(٣) أَبْجر: هو أَبْجَر بن جابر العجليّ، وكان نصرانيًّا، والبيت في الصحاح واللسان والتاج، وبعده يقول الأُبَيْرد:

شَـرِبْتُـمْ وَمَـدَّرْتُـمْ وكَـانَ أبُـوكُـمُ ... كَـذاكُـمْ إذا مـا يَشْـرَبُ الكَـأسَ مَـدَّرَا

والشاهد أن أنزف بمعنى سكر بدليل مقابلتها بقوله: صَحَا، يقول: سواءٌ سكرتم أو لم تسكروا فأنتم بئس الندامى يا آل أَبْجَر.



وعطفت «الفاكهة» على «الكأس والأباريق».

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، رُوي أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته إلى كثير مما رُوي في هذا المعنى.

وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: [وَحُورٍ عِينٍ] بالخفض، وهي قراءَة الحسن، وأبي عبد الرحمن، والأعمش، وابن القعقاع، وعمرو بن عبيد. وقرأ أُبيٌّ بن كعب، وابن مسعود: [وحوراً عيناً] بالنصب، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع، كل هذه القراءَات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ، فالخَفْض كأن المعنى: قيل: تنعمون بهذا كله وبحورٍ عينٍ، وكأن المعنى في قراءَة النصب: وتُعطون هذا كله وحُوراً عيناً، وكأن المعنى في الرفع: لهم هذا كله وحُورٌ عِينٌ، ويجوز أن يعطف [وَحُورٌ] على الضمير المستقر في [مُتَّكِئِينَ]، قال أبو علي: ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التوكيد، ويجوز أن يعطف على «الولدان» وإن كان طواف الحور يقلق، ويجوز أن يعطف على الضمير المقدَّر مع قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾. وفي هذا كله نظر، وقد تقدم معنى «حور عين»، وقرأ إبراهيم النَّخعيُّ: [وَحِيرٌ عِينٌ].

وخصَّ (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغَير، وسألت أُمُّ سَلَمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤُهن كصفاءِ الدُّرِّ في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي»[١]، و﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أيْ أن هذه الرُّتب والنعم هي بحسب أعمالهم؛ لأنه رُوي أن المنازل والقسم في الجنة هي مقسَّمة على قدر الأعمال، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل، فأمَّا هذا الفضل وأن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»[٢].

---

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص(١٨٢) عند تفسير قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والمرضى، ومسلم في المنافقين، وابن ماجه في الزهد، والدارميُّ في الرقاق، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُنَجِّي أحداً منكم عَمَلُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّ أن =



و«اللَّغْوُ»: سقط القول من فحش وغيره، و«التَّأْثِيمُ» مصدر بمعنى: لا يُؤَثِّم أحدٌ هناك غيرَه ولا نَفْسَه بقول كأَن يسمع ويتأَلَّم بسماعه. و[قِيلاً] مستثنى، والاستثناءُ متصل، وقال قوم: هو منقطع، و[سَلاَماً] نعت لِلْقِيلِ، كأَنه تعالى قال: إلاَّ قليلاً سالماً من هذه العيوب وغيرها، وقال أَبو إِسحق الزجاج أَيضاً: [سَلاَماً] مصدر وناصبه [قِيلاً]، كأَنه تعالى ذكر أَنهم يقول بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، وقال بعض النحاة: [سَلاَماً] منتصب بفعل مضمر تقديره: اسلموا سلاماً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

«السِّدْرُ» شجرٌ معروف[١]، وهو الذي يقال له: شجر أُم غيلان، وهو من العضاه له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هَجَر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأَنه مخضود، أَي مقطوع الشوك لا أَذى فيه، وقال أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

إِنَّ الْحَدائِقَ فـي الجِنَانِ ظَلِيلَـةٌ ... فيها الْكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضُودُ[٢]

وعبَّر بعض المفسِّرين عن [مَخْضُود] بأَنه الْمُوقَر حملا، وقال بعضهم: هو قطع الشوك، وهو الصواب، أَما إِن وقره هو كرمه، ورُوِي عن الضحاك أَن بعض الصحابة أَعجبهم سِدْرُ وَجٍّ[٣] فقالوا: ليت لنا في الآخرة مثل هذا، فنزلت الآية، ولأَهل تحرير النظر هنا إِشارة في أَن هذا الخضد بإِزاء أَعمالهم التي سلموا فيها: إِذ أَهل اليمين تَوَّابون لهم سلام، وليسوا بسابقين.

و«الطَّلْحُ» كذلك من العضاه شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات

= يتغمدني الله برحمته، سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ والقَصْدَ القَصْدَ تبلغوا»، وفي البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سدِّدُوا وقاربوا واعلموا أنْ لنْ يُدْخل أحدَكم عملُه الجنَّة، وأنَّ أحبَّ الأعمال أدْوَمُهَا إلى الله وإن قَلَّ».

(١) هو شجر النَّبق، والشجرة الواحدة تُسمى: سِدْرة.

(٢) يستشهد بالبيت على أن «مخضود» بمعنى: مقطوع الشوك، والبيت في القرطبي وفي الدر المنثور.

(٣) وَجٌّ: قيل: وادٍ بالطائف، وقيل: موضع بالبادية، وقيل: هو الطائف. (راجع اللسان).

كثيرة مباينة لحال الدنيا، و[مَنْضُودٍ] معناه: مركَّب ثمره بعضه على بعض من أَرضه إِلى أَعلاه. وقرأَ علي بن أَبي طالب، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما، وغيرُهما: [وَطَلْعٍ مَنْضُو]﴾، فقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: إِنما هو (وَطَلْحٍ) فقال: وما لِلطَّلْحِ والجَنَّة؟ فقيل له: أَنصلحها في المصحف؟ فقال: إِن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير. وقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: «الطَّلْحُ»: الموز، وقاله مجاهد وعطاءٌ. وقال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظلُّه بارد طيب.

و«الظِلُّ الْمَمْدُودُ» معناه: الذي لا تنسخه شمسٌ، ويُفَسِّر ذلك قول النبيِّ ﷺ: «إِن في الجنة شجرة يسير الركب الجواد في ظِلِّها مائة سنة لا يقطعها، واقرؤُوا إِن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.»[١] إِلى غير هذا من الأَحاديث في هذا المعنى، وقال مجاهد: هذا الظل هو من طَلْحها وسدرها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أَي: بزوال الإِبَّان[٢] كحال فاكهة الدُّنيا، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بِبُعد التَّناول، ولا بشوك يؤذي في شجراتها، ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَفُرُشٍ﴾ بضم الراءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [وَفُرْشٍ] بسكونها، والفُرُش: الأَسِرَّة، وروي من طريق أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة، وهذا والله أَعلم لا يثبت، وإِنْ قُدِّر فمتأَولٌ خارج عن ظاهره، وقال أَبو عبيدة وغيره: أَراد بالفُرُش النساءَ. و(مَرْفُوعَةٍ) معناه في الأَقدار والمنازل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ظَلَلْتَ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتُمُني ... عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبِ[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في «بدء الخلق» وفي تفسير سورة «الواقعة»، وفي «الرقاق»، وأخرجه مسلم والترمذي في «الجنة»، وابن ماجه في «الزهد»، والدارمي في «الرقاق»، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، ففي البخاري عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به النبيَّ ﷺ، قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظِلِّها مائة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»، وأخرج مثله عن سهل بن سعد، في رواية عن أبي سعيد «إن في الجنة لشجرة يسير الراكبُ الجوادَ المُضَمَّر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها».

(٢) الإبَّان: الأوَان، قال الشاعر: «ولحَصْد الزَّرْع إبَّان»، أي: وقت مُحَدَّدٌ وأوانٌ.

(٣) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن المرأة تسمى فراشاً، وصحيح أن العرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً، لكن هذا لا يتفق مع معنى البيت، إذ كيف يتفق افتراش المخاطب لامرأة هَلْبَاءَ وهي تشتمُ=

ومنه قول الآخر في تَعْديده على صِهْره: «وَأَفْرَشْتُكَ كريمتي»[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾، قال قتادة: الضمير عائد على «الحور العِين» المذكورات قبل، وهذا فيه بُعْد لأن تلك قصة قد انقضت جملة، وقال أبو عبيدة مَعْمر: قد ذكرهُنَّ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ فلذلك رَدَّ الضمير وإنْ لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾[(٢)] ونحوه، و[أَنْشَأْنَاهُنَّ] معناه: خلقناهن شيئاً بعد شيءٍ، وقال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «عجائز كُنَّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً»[(٣)]، وقال عليه الصلاة والسلام لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فحزنت فقال: «إنَّك إذا دخلت الجنة أُنشئت خلقاً آخر»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾، قيل: معناه دائمات البكارة، متى عاود الواطىء وجدها بكراً. و«الْعُرُبُ» جمع عَروب وهي المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها بإظهار محبته، قاله ابن عباس، والحسن، وعبَّر عنهن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بالعواشق، ومنه قول لبيد:

وفـي الحُـدُوجِ عَـروبٌ غَيْـرُ فَـاحِشَـةٍ رَيَّا الرَّوادِفِ يَعْشَى دُونها الْبَصَرُ[(٥)]

= الشاعر عند الرسول؟ وكلمة الهَلْبَاءِ تطلق على المرأة الكثيرة الشعر، وعلى الناقة أو الدابة، وعلى مقعد الإنسان، وكل من الأمرين الأخيرين يمكن فهم البيت على أساسه فهما أقرب من فهمه على الأمر الأول.

(١) هذا واضح الدلالة على أن المرأة تُسمَّى فراشاً، فهو يقول لصهره: لقد جعلتُ كريمتي فراشاً لك، وهي نعمة تستحق الذكر.

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٣) رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وقال الترمذي: غريب، وزاد السيوطي في الدُّرِّ نسبته إلى عبد بن حميد، والبيهقي في البعث، والفريابي، وهناد وابن المنذر، وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه. والشُّمْطُ: جمع شمطاءَ وهي التي اختلط سواد شعرها ببياض ـ وقد ورد وصفهن بذلك في بعض الروايات ـ والعُمْش: جمع عمشاءَ وهي التي ضعف بصرها مع سيلان دمع العين في أكثر الأوقات، والرَّمَص؛ وسخ أبيض يتجمع في موق العين، ويقال: رَمِص فلان فهو أرْمص، وهي رمصاءُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي في الشمائل، وابن المنذر، والبيهقي في البعث، عن الحسن، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها، كذلك أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله تعالى عنها. (الدر المنثور).

(٥) قاله لبيد بن ربيعة العامري من قصيدة له يتغنى فيها بالحياة الصحراوية، ويفتخر بمآثره، والحُدوج: جمع حِدْج وهو مركب للنساء كالهودج يوضع على ظهور الإبل، ويروى البيت: «وفي الخُدور»، =



وقال ابن زيد: العَرُوبُ: الحَسَنَةُ الكلام، وقد تجيءُ الْعَروب صفة ذَمٍّ على غير هذا المعنى، وهي الفاسدة الأَخلاق كأَنها عرَّبت[1]، ومنه قول الشاعر:

وَمَا بَدَلٌ مِنْ أُمِّ عُثْمَانَ سَلْفَعٌ ... منَ السُّودِ وَرْهاءُ العِنانِ عَرِيبُ[2]

وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: [عُرُباً] بضم الراءِ، وقرأَ حمزة، والحسن: [عُرْباً] بسكونها، وهي لغة بني تميم، واختُلف عن نافع، وأَبي عمرو، وعاصم.

وقوله تعالى: [أَتْرَاباً] معناه: في الشكل والقَدِّ حتى يقول الرائي: هم أَتْرابٌ، والتِّرْبُ هو الذي مسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وقت واحد، وقال قتادة: [أَتْرَاباً] بمعنى: سنّاً واحدة، ويروى أَن أَهل الجنة هم على قدر ابن أَربعة عشر عاماً في الشباب والنُّضرة، وقيل: على أَمثال أَبناءِ ثلاث وثلاثين سنة، مُرْداً بيضاً مكحَّلين.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن وغيرُه: الأَوَّلون: سالِفُ الأمم، منهم جماعةٌ عظيمة هم أَصحاب اليمين، والآخِرُون: هذه الأُمَّة، منهم جماعة عظيمة أَهل يمين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

بل جميعُهم إِلاَّ من كان من السَّابقين.

وقال قوم من المتأَولين: هاتان الفرقتان في أُمة محمد ﷺ، وروى ابن عباس

= والعَرُوب: المرأة التي تتحبَّب إلى زوجها، وهو موضع الاستشهاد هنا، وريَّا الرَّوادف: ممتلئة العجيزة، ويَعشى: يكِلُّ ويضعف البصر من شدة الضوء.

(١) التَّعريب: الفُحش وما قَبُح من الكلام، ومنه حديث عطاءٍ: أنه كره الإعراب للمحرم، وهو الإفحاشُ في القول.

(٢) البيت في التاج واللسان، وقد استشهد به على أن المرأة العَرُوب هي «العاصية لزوجها، الخائنة بفرجها، الفاسدة بنفسها»، قال صاحب اللسان حكاية عن ابن سيده: «وأنشد ثعلب هذا البيت ولم يُفسره، قال: وعندي أن «عَروب» في هذا البيت: الضَّحَّاكَةُ، وهم يعيبون النساء بالضحك الكثير، ورواية البيت فيهما تختلف عما هنا، فهي هناك:

فَمَا خَلَفٌ مِنْ أُمِّ عِمْرَانَ سَلْفَعٌ ... مِنَ السُّودِ وَرْهاءُ العِنَانِ عَرُوبُ

والسَّلْفَعُ: السليطة الجريئة. وقيل: هي قليلة اللحم السريعة المشي، وفي الحديث «شرُّهُنَّ السَّلْفعة» أي البَذِيَّةُ الفحّاشة القليلة الحياء، والورهاءُ: الخَرْقَاءُ الحمقاءُ في كل عمل.



رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الثُّلَّتَانِ مِنْ أُمَّتِي»[١]، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثُلَّةٌ أُولى، وسائر الأمة ثُلَّةٌ أُخرى في آخر الزمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

إعراب قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ قد تقدَّم في نظيره[٢]، وفي الكلام هنا معنى الإنحاءِ عليهم وتعظيم مصابهم.

و«السَّمُومُ»: أَشدُّ ما يكون عند الحَرِّ اليابس الذي لا بلل معه.

و«الحَمِيمُ»: الأَسود، وهو بناءُ مبالغة، واختلف الناس في هذا الشيءِ الأَسود الذي يُظِلُّ أَهل النار، ما هو؟ فقال ابن عباس ومجاهد، وأَبو مالك، وابن زيد: هو الدخان، وهذا قول الجمهور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: هو سرادق النار المحيط بأَهلها، فإِنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظلِّهم. وحكى النقاش أَن «اليَحْمُوم» اسمٌ من أَسماءِ جهنم، وقاله ابن كيسان، وقال ابن أَبي بُريدة، وابن زيد أَيضاً في كتاب الثعلبي: هو جبلٌ في النار أَسودُ يَفْزَع أَهلُ النار إِلى ذراه فيجدونه أَشد شيءٍ وأَمَرَّه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: ليس له صفة مدح في الظلال، وهذا كما تقول: ثوب كريم ونسب كريم، تعني بذلك أَن له صفات مدح[٣]، ويحتمل أَن يصفه بعدم الكرم على معنى أَلاَّ كرامة لهم، وذلك أَن المرءَ في الدنيا قد يصبر على سوءِ الموضع لقرينة إكرام يناله فيه من أَحد، فجمع هذا الظلُّ في النار أَنه سَيِّءُ الصفة وهم فيه مُهانون.

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآيتين (١٣، ١٤) من هذه السورة، ص(١٩٢).

(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ص (١٩٠) من هذا المجلد.

(٣) عبارة الطبري أوضح من هذا، فقد قال: «ليس بكريم لأنه يؤلم كل من استظلَّ به، والعربُ تُتبع كلَّ منفي عنه صفة حَمْدٍ نَفْيَ الكرم عنه، فتقول: ما هذا الطعام بطيب ولا كريم، وما هذا اللحم بسمين ولا كريم، وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة».



و«الْمُتْرَفُ»: المنعَّم في سرف وتخوُّض، و(يُصِرُّونَ) معناه: يعتقدون اعتقاداً لا يَنْوُون عنه إقلاعاً، قال ابن زيد: لا يتوبون ولا يستغفرون، و«الْحِنْثُ»: الإِثم، ومنه قول النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ. . .» الحديث[١]، أراد عليه الصلاة والسلام: لم يبلغوا الحُلُم فتتعلَّق بهم الآثام، وقال الخطابي: الحنْثُ في كلام العرب العِدْلُ الثقيل، يشبَّه الإِثم به. واختلف المفسرون في المراد بهذا الإِثم ـ فقال قتادة، والضحاك، وابن زيد: هو الشرك، وهذا هو الظاهر، وقال قوم ـ فيما ذكر مكي ـ: هو الحنث في قَسَمهم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية[٢] في التكذيب بالبعث، وهذا أَيضاً يتضمن الكفر، فالقول به على عمومه أَولى، وقال الشعبي: الحِنْثُ العظِيمُ: اليمين الغَمُوسُ[٣].

وقد تقدم ذكر اختلاف القراءِ في قوله تعالى: [أَئِذَا] و[أَئِنَّا]، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أَصله فيقرأُ: [أَئِذَا] [أَئِنَّا] بتحقيق الهمزتين فيهما على الاستفهام، ورواه أَبو بكر عن عاصم في قوله تعالى: [أئنا لمبعوثون]. والعامل في قوله تعالى: (أَئِذَا) فعل مضمر يدل عليه قوله تعالى: (لَمَبْعُوثُونَ)، تقديره: أَنُبْعَثُ أَو أَنُحْشَرُ؟ ولا يعمل فيه ما بعده لأَنه مضاف إليه، وقرأَ عيسى الثقفي: [مُتْنَا] بضم الميم، وقرأَ جمهور الناس: (مِتْنَا) بكسرها، وهذا على لغة من يقول: مِتُّ أَموت على وزن فَعِل بكسر العين يفعُل بضمها، ولم يُحك منها عن العرب إلاَّ هذه اللفظة وأُخرى هي فَضِل يفضُل. وقرأَ بعض القراءِ: [أَوْ آبَاؤُنَا] بسكون الواو من [أَوْ]، ومعنى الآية استبعاد أَن يبعثوا هم وآباؤُهم على حدٍّ واحد من الاستبعاد، وقرأَ الجمهور: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بتحريك الواو على أَنها واو العطف دخل عليها أَلف الاستفهام، ومعناها شدة الاستبعاد

---

(١) أخرجه البخاري في العلم والجنائز، ومسلم في البرِّ، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي في الجنائز، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، ولفظه فيه: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلميْن يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار»، فقيل: يا رسول الله، فإن كانا اثنين؟ قال: «وإن كانا اثنين»، فقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: يا رسول الله، لم أقدم إلا اثنين، قال: «وإن كانا اثنين»، قال: فقال أُبيٌّ بن كعب أبو المنذر سيِّد القراءِ رضي الله عنه: لم أقدم إلا واحداً، قال: فقيل له: وإن كان واحداً؟ فقال: «إنما ذاك عند الصدمة الأولى».

(٢) من الآية (٣٨) من سورة (النحل).

(٣) اليمين الغموس: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث «اليمينُ الغموسُ تذر الديار بلاقع».

في الآباءِ، كأنهم استبعدوا أن يُبعثوا ثم أتَوْا بذكر مَنِ البعثُ فيهم أبعد، وهذا بيِّن لأهل العلم بلسان العرب.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعلمهم بأن العالم محشور مبعوث ليوم معلوم مؤقت. و[مِيقَات] مِفْعال من الوقت، كميعاد من الوعد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ مخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ يحتمل أن يكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لابتداءِ الغاية، و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ لبيان الجنس، والضمير في [مِنْهَا] عائد على الشجر، و[مِنْ] للتبعيض أو لابتداءِ الغاية، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على المأكول أو على الأكل، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: «لآكِلُونَ مِنْ شَجَرَةٍ» على الإفراد.

و[الْهِيمِ] قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك: هو جمع «أَهْيَم» وهو الجمل الذي أصابه الهُيَام ـ بضم الهاءِ ـ وهو داءٌ معطش يشرب منه الجمل حتى يموت أو يسقم سقماً شديداً، والأنثى هيماءُ، وقال بعضهم: هو جمع هيماءَ كعيْنَاءَ وعِينٍ وبَيْضاءَ وبِيضٍ، وقال قوم آخرون: هو جمع هايم وهايمة، وهو أيضاً من هذا المعنى لأن الجمل إذا أصابه ذلك هام على وجهه وذهب، وقال ابن عباس، وسفيان الثوري: الهِيمُ هنا الرمال التي لا تُرْوَى من الماءِ، وذلك أن الهَيَام ـ بفتح الهاءِ ـ هو الرمل الدِّق الغَمْر المتراكم، وقال ثعلب: الهُيام ـ بضم الهاءِ ـ الرَّمل الذي لا يتماسك. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي: [شَرْبَ الهِيمِ] بفتح الشين، وهي قراءَة الأعرج، وابن المسيَّب، وشعيب بن الحبحاب، ومالك بن دينار، وابن جريج، ولا خلاف أنه مصدر، وقرأ مجاهد: [شِرْبَ الْهِيمِ] بكسر الشين، ولا خلاف أنه اسم، وقرأ أهل المدينة وباقي السبعة: [شُرْبَ الْهِيمِ] بضم الشين، واختلف فيه ـ فقال قوم: هو مصدر، وقال آخرون: هو اسم لما يُشرب.



و«النُّزُلُ»: أَول ما يأْكل الضيف، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية ابن عياش ـ: [نُزْلُهُمْ] بسكون الزاي، وقرأَ الباقون، واليزيديُّ عن أَبي عمرو بضم الزاي، وهما بمعنى كالشُّغْل والشُّغُل.

و«الدِّينُ»: الجزاءُ.

ثم أَخبر تعالى أَنه الخالق، وحضَّ على التصديق على وجه التقريع، ثم ساق تعالى الحجة الموحية للتصديق، كأَن معترضاً من الكفار قال: وِلمَ أُصَدِّق؟ فقيل له: أَفرأَيت كذا وكذا؟ الآيات، وليس يوجد مفطورٌ يخفى عليه أَن المنيَّ الذي يخرج منه ليس فيه عمل ولا إِرادة ولا قدرة، و[أَمْ] في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ ليست المعادِلة عند سيبويه؛ لأَن الفعل قد تكرَّر، وإِنما المعادِلة عنده: أَقام زيدٌ أَم عمرو؟ وهذه التي في هذه الآية معادِلة عند قوم من النحاة. وأَما إِذا تغاير الفعلان فليست بمعادِلة إِجماعاً، وقرأَ الجمهور: ﴿تُمْنُونَ﴾ بضم التاءِ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبو السَّمال: [تَمْنُونَ] بفتح التاءِ، ويقال: «أَمْنى الرجل ومَنَى» بمعنى واحد.

وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ بشد الدال، وقرأَ ابن كثير وحده: [نَحْنُ قَدَرْنَا] بتخفيف الدال، والمعنى فيهما يحتملُ أَن يكون بمعنى: قضينا وأَثبتنا، ويحتمل أَن يكون بمعنى: سوَّينا وعدَّلنا التَّقدُّم والتَّأَخُّر، أَي جعلنا الموت رُتَباً، ليس يموت العالَم دفعة واحدة، بل بترتيب لا يعدوه أَحد، وقال الطبري: معنى الآية: قدرنا بينكم الموت على أَن نبدلَ أَمثالكم، أَي تموت طائفة ونبدلها بطائفة، وهكذا قرناً بعد قرن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أَي على تبديلكم إِن أَردناه، وأَن ننشئكم بأَوصاف لا يصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم، قال الحسن: من كونهم قردة وخنازير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

تأَول الحسن هذا لأَن الآية تنحو إِلى الوعيد، وجاءَت لفظة السبق هنا على نحو قوله ﷺ: «فإِن استطعتم أَلا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم»[1]. وقرأَ جمهور الناس: ﴿النَّشْأَةَ﴾ بسكون الشين، وقرأَ قتادة وأَبو

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت وفي تفسير سورة (ق) وفي التوحيد، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في الجنة، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في مسنده (٤ـ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥)، ولفظه كما جاء في مسند=



الأشهب[١]، وأبو عمرو ـ بخلاف ـ: [النَّشَاءَةَ] بفتحها وبالمدِّ، وقال أكثر المفسرين: أشار إلى خلق آدم عليه السلام ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام، وأنه من طين، وقال بعضهم: أراد تعالى بالنشأة الأولى نشأة إنسان إنسان في طفولته، فيعلم المرءُ نشأته كيف كانت بما يرى من نشأة غيره.

ثم حضَّض تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان، وقرأ الجمهور: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال، وقرأ طلحة: [فَلَوْلاَ تَذْكُرُونَ] بسكون الذال وضم الكاف، وهذه الآية نَصٌّ في استعمال القياس والحضِّ عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش، وبيَّن لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحَبَّ ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً، وقد يُسمَّى الإنسان زارعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾[٢]، لكن معنى هذه الآية: أأنتم تزرعونه زرعاً يتم أم نحن؟ وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولنَّ زرعت، ولكن قل: حَرَثْتُ»، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية[٣].

= أحمد: قال: سمعت قيس بن أبي حازم يحدث عن جرير، قال: كنا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم عزَّ وجلَّ كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على هاتين الصلاتين قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ثم تلا هذه الآية ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قال شعبة: لا أدري قال (فإن استطعتم) أو لم يقل.

(١) هو جعفر بن حيَّان السعدي، أبو الأشهب العطاردي، البصري، مشهور بكنيته، ثقة، من السادسة، مات سنة خمس وستين وله خمس وتسعون سنة. (تقريب التهذيب).

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الفتح).

(٣) أخرجه البزَّار، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعَّفه. (الدر المنثور).



و«الْحُطَامُ»: الْيَابِس المتفتِّت من النبات الصائر إِلى ذَهاب، وبه شبه حطام الدنيا، وقيل: المعنى: تِبْناً لا قَمْحَ فيه، و[تَفَكَّهُونَ] قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تعجبون، وقال عكرمة: تلاومون، وقال الحسن: معناه: تندمون، وقال ابن زيد: تتفجَّعون، وهذا كله تفسير لا يخصُّ اللفظة، والذي يخصُّ اللفظة هو: تطرحون الفكاهة عن أَنفُسكم، وهي المَسَرَّة والجزلُ، ورجلٌ فَكِهٌ إِذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيءٍ، و«تَفَكَّهَ» من أَخوات «تَحَرَّجَ» و«تَحَوَّب». وقرأَ الجمهور: [فَظَلْتُمْ] بفتح الظاءِ، وروَى سفيان الثوريُّ في قراءَة عبد الله كسْرَ الظَّاءِ، قال أَبو حاتم: طُرحت عليها حركة اللام المحذوفة، وذلك رديءٌ في القياس، وهي قراءَة أَبي حَيْوة، وروى أَحمد بن موسى: [فَظَلَلْتُمْ] بلامَيْن الأُولى مفتوحة عن الجحدري، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأُولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ قبله حذف تقديره: «يقولون»، وقرأَ الأَعمش، وعاصم الجُحْدري: ﴿أَئِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزتين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أَن يكون: إِنا المعذبون من الغرام، وهو أَشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾[1]، ومنه قول الأَعشى:

إِنْ يُعَـذِّبْ يَكُـنْ غَـرَامـاً وَإِنْ يُعْـ ... ـطِ جَـزِيـلاً فَـإِنَّـهُ لاَ يُبَـالـي[2]

ويحتمل أَن يكون المعنى: إِنا لمحمَّلون الغَرام، أَي غرمنا في النفقة وذهاب زرعنا، تقول: «غَرِمَ الرجلُ وأَغْرَمْتُه فهو مُغْرم»، وتقدم تفسير «المحروم» وأَنه المحدود[3] المُحَارَف[4].

و«الْمُزْنُ»: السحابُ بلا خلاف، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الفرقان).

(٢) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها الأعشى إياس بن قبيصة الطائي، وهو في الديوان، وفي اللسان والتاج، والرواية فيها كلها: (إن يُعَاقِبْ) بدلا من (إِنْ يُعَذِّبْ). والغرامُ: اللازم من العذاب، والشرُّ الدائم، والوَلوع بالشيءِ، والجزيلُ: الكثير العظيم، يمدحه بِحُبِّ العقوبة والتعذيب إذا فعلهما، وبالكرم الشديد.

(٣) المحدود: القليل الحظ، الممنوع من الخير.

(٤) المحارَف: المحروم يَطْلُبُ فلا يُرزق، ولا يصيب خيراً من أَيِّ وجه توجَّه له.

ونَحْـنُ كَمَـاءِ المُـزْنِ مـا فـي نِصَـابِنَـا كَهَـامٌ وَلاَ فينـا يُعَـدُّ بَخيـلُ[(١)]

و«الأُجَاجُ» أَشدُّ المياه ملوحة، وهو ماءُ البحر الأَخضر. و[تُورُونَ] معناه: تقتدحون من الأَزْنُد، تقول: أَوريت النار من الزنادِ، ووری الزّنادُ نفسه، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر لا سيّما في بلاد العرب، فإن أَزْنُدَهم من شجر ولا سيّما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلخ وما أَشبهه، ولعادة العرب في أَن زنادهم من شجر قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾، وقال بعض أَهل النظر: أَراد بالشجرة نفس النار، كأَنه تعالى يقول: نوعها أَو جنسها، فاستعار الشجرة لذلك، وهو قول فيه تكلُّف. وقرأَ الجمهور: [آنْتُمْ] بالمدِّ، وروي عن أَبي عمرو، وعيسى: [أَنْتُمْ] بغير مدٍّ، وضعَّفها أَبو حاتم.

و[تَذْكِرَة] معناه: تُذكِّر نار جهنم، قاله مجاهد وقتادة، و«المَتَاعُ» ما يُنْتَفَع به، و«الْمُقْوِينَ» في هذه الآية: الكائنون في الأَرض القواءِ، وهي الفيافي، وعبَّر الناسُ في تفسير «الْمُقْوِينَ» بأَشياءَ ضعيفة، كقول ابن زيد: الخائفون ونحوه، ولا يقوم منها إلاَّ ما ذكرناه، ومن قال معناه: المسافرون فهو نحو ما قلناه، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنهما، تقول: «أَصبح الرجل» دخل في الصباح، و«أَصْحَرَ» دخل في الصحراءِ، و«أَقوى» دخل في الأرض القَوَاءِ، ومنه «أَقْوَت الدارُ، أَقوى الطَّلَلُ» أَي صار قواءً، ومنه قول النابغة:

. . . . أَقْوَتْ وطالَ عَلَيْهَا سالِفُ الأَبَدِ[(٢)]

---

(١) هذا البيت للسَّمَوْأَل، وهو من قصيدته المشهورة التي قالها في الافتخار والاعتزاز بالنسب، والتي يقول في مطلعها:

إذَا الْمَـرْءُ لَـمْ يَـدْنَـسْ مِـنَ اللُّـؤمِ عِـرْضُـهُ فكُـلُّ رِداءٍ يَـرْتَـديـهِ جَمِيـلُ

والمُزْنُ: السحابُ الأبيض، واحدته: مُزْنة، والنِّصَابُ: الأَصْلُ، والكَهَام: الضَّعيف المُسِنُّ، وهما استعارة من «النصاب» بمعنى: المُدْية، ومن الكهَام بمعنى: غير القاطع.

(٢) هذا عجز بيت قاله النابغة الذبياني في مطلع قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما بلغه عنه من أنه يحب المُتَجَرِّدَة زوج النعمان، والبيت بتمامه:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالعَلْيَـاءِ فَـالسَّنَـدِ أَقْـوَتْ وَطـالَ عَلَيْهَـا سَـالِـفُ الأَبَـدِ

والعَلْيَاءُ ـ بفتح العين وبالمَدِّ ـ: رأسُ الجبل، والسَّنَد: ما علا عن سفح الجبل، وعَطف السَّنَد بالفاء هنا يفيد أن دار ميّة كانت بالعلياء لكنها متصلة بالسَّنَد، وأَقْوَتْ: أقفرت وصارت خاوية خربة، وهو=



وقول الآخر:

. . . . أَقْــوَى وأَقْفَــرَ بَعْــدَ أُمِّ الْهَيْثَــمِ[(١)]

والفقير والغني إذا أَقْوَيَا سواءٌ في الحاجة إلى النار، ولا شيءَ يغني غناها في البرد، ومن قال: «إن أقوى من الأضداد من حيث يقال أقوى الرجل إذا قويت دابته» فقد أخطأ، وذلك فعل آخر كأترب إذا أثْرَى.

ثم أمر تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ بتنزيه ربِّه عزَّ وجلَّ وتنزيه أسمائه العُلَى عما يقوله الكفرة الذين حُجُّوا في هذه الآيات.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

اختلف الناس في [لَا] من قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ـ فقال بعض النحويين: هي زائدة، والمعنى: فأُقسم، وزيادتها في بعض المواضع معروف[(٢)]، كقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[(٣)]، وغير ذلك، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين: هي نافية، كأنه تعالى يقول: فلا صحة لما يقوله الكفار، ثم

= موضع الاستشهاد هنا، والأبد: الدَّهر، والسالف: الماضي، يقول: طال عليها ما مضى من الدهر فصارت خراباً خاوية.

(١) البيت من معلقة عنترة «هل غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّم»، وهو بتمامه:

حُيِّيــتَ مِــنْ طَلَــلٍ تَقَــادَمَ عَهْــدُهُ   أَقْــوَى وأَقْفَــرَ بَعْــدَ أُمِّ الهَيْثَــمِ

والطَّلَلُ: ما بقي شاخصاً من آثار الديار، والجمع أطْلالٌ وطُلُولٌ، والإقواءُ والإقفار: الخلاءُ، وقد جمع بينهما لضرب من التأكيد، وأُمُّ الهيثم: كنية عَبْلَة، يحييه من بين الأطلال، أي يخصه بالتحية من بين الأطلال، ثم يقول: لقد قدم عهده بأهله، وقد خلا من السكان بعد رحيل حبيبته عنه.

(٢) أي: أمرٌ معروف.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد).



ابتدأ تبارك وتعالى فقال: «أُقْسِم»[١]، وقال بعض المتأولين: هي مؤكدة تعطي في القَسَم مبالغة، وهي كاستفتاح كلام يشبهه في القَسَم لا في شائع الكلام، ومنه قول الشاعر:

فَلاَ وَأَبي . . . . لاَ أَخُونُهَا[٢]

المعنى: «فَوَأَبي»، ولهذا نظائر، وقرأ الحسن والثَّقفي: ﴿فَلأُ قْسِمُ﴾ بغير ألف، قال أبو الفتح: التقدير: فَلأَنا أُقْسِم[٣].

وقرأ الجمهور من القراءِ: [بِمَوَاقِع] على الجمع، وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وأَهْلُ الكوفة: حمزة، والكسائي [بِمَوْقِع] على الإفراد، وهو مرادٌ به الجمع، ونظير هذا كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[٤]، جَمَع من حيث لكل حمار صوت مختص، وأفرد من حيث الأصوات كلها صوتٌ.

واختلف الناس في «النُّجوم» هنا ـ فقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم: هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد ﷺ، وذلك أنه رُوي أن القرآن نزل من عند الله عزَّ وجلَّ في ليلة القدر إلى السماءِ الدنيا ـ وقيل: إلى البيت المعمور ـ جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على محمد ﷺ نجوماً مقطعة في مدَّة من عشرين سنة، ويؤيد هذا القول عودُ الضمير على القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أَنَّ ذكْرَهُ لم يتقدم إلاَّ على هذا التأويل، ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكْر لشُهرة الأمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٥]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٦]، وغير ذلك. وقال جمهور كثير من المفسرين: النجوم هنا

(١) معنى هذا أن النفي محذوف، وهذا المنفي هو اسم (لا) وخبرها، ولهذا قال أبو حيان في البحر: إن هذا لا يجوز بسبب حذف الاسم والخبر، وهذا أمرٌ لا يجوز إلا إذا دلَّ عليهما من الكلام دليل، كأن يقع الكلام جواباً لسؤال، وهو ما لم يحدث هنا.

(٢) في مكان النقط (. . . .) كلمة غير واضحة، والشاهد ذكره ابن عطية، وإذا قدرنا (لا) أداة استفتاح مثل (ألاَ) كان في هذا تنبيه على فضيلة القرآن ليتدبروه، ذكر هذا القرطبي وغيره.

(٣) قال أبو الفتح: «لأن هذا فعل حالٍ ـ أي حاضر ـ ولو أريد الفعل المستقبل للزمت فيه النون فقيل: «لأقسمَنَّ».

(٤) من الاية (١٩) من سورة (لقمان).

(٥) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٦) من الآية (٢٦) من سورة (الرحمن).

الكواكبُ المعروفة، واختُلف في مواقعها ـ فقال مجاهد وأَبو عبيدة: هي مواقعها عند غروبها وطلوعها، وقال قتادة: مواقعها هي مواضعها من السماءِ، وقيل: مواقعها عند الانقضاض إِثر العفاريت، وقال الحسن: مواقعها عند انكدار النجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ تأْكيدٌ للأَمر وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التَّهمم به، وإِنما الاعتراض قوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾، وقد قال قوم: إِن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض، وإِنَّ ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ هو الذي وقع القَسَم عليه، ووصفه بالكرم على معنى إِثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطيطة عنه.

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ بعد اتفاقهم على أَن «الْمَكْنُونَ»: المصونُ ـ فقال ابن عباس، ومجاهد: أَراد الكتاب الذي في السماءِ، وقال عكرمة: أَراد التوراة والإِنجيل، كأَنه تعالى قال: إِنه لكتابٌ كريمٌ ذُكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون، فمعنى الآية ـ على هذا ـ الاستشهاد بالكتب المنزلة، وهذا كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال بعض المتأَولين: أَراد مصاحف المسلمين، وكانت يوم نزلت الاية لم تكن، فهي ـ على هذا ـ إِخبار بغيب، وكذلك هو كتاب مصون إِلى يوم القيامة، ويؤيد هذا لفظة «المَسِّ» فإِنها تشير إِلى المصاحف، وهي مستعارة من مسِّ الملائكة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه ـ فقال بعض من قال إِن الكتاب المكنون هو الذي في السماءِ، قال: المُطَهَّرُونَ هنا: الملائكة، قال قتادة: فأَما عندكم فيمسُّه المشرك النجس والمنافق، قال الطبري: المُطَهَّرُونَ: الملائكة والأَنبياءُ عليهم السلام ومَن لا ذنب له، وليس في الاية ـ على هذا القول ـ حكم مسِّ المصحف لسائر بني آدم، ومن قال بأَنها مصاحف المسلمين قال: إِن قوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ إِخبار مضمنه النهي، وضَمَّةُ السين ـ على هذا ـ إِعرابٌ وقال بعض هذه الفرقة: الكلام نهيٌ، وضمَّة السِّين ضمَّة بناءٍ، قال جميعهم: فلا يمسُّ المصحف من بني آدم إِلاَّ الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأَصغر، قال مالك:

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة).



لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة، وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «ولا يمسُّ القرآن إلاَّ طاهر»(١)، وقد رخَّص أَبو حنيفة وقوم أَن يمسَّه الجنب والحائض على حائل، غلاف ونحوه، ورخَّص بعض العلماءِ في مسِّه في الحدث الأَصغر وفي قراءَته عن ظهر قلب، منهم ابن عباس وعامر الشعبي، لا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخَّص بعضهم للجنب في قراءَته، وهذا الترخيص كله إِنما هو على القول الذي ذكرناه من أَن «المطهرين» هم الملائكة، أَو على مراعاة لفظة المسِّ، فقد قال سلمان رضي الله عنه: لا أَمسُّ المصحف ولكن أَقرأُ القرآن. وقرأَ جمهور الناس: (الْمُطَهَّرُونَ) بفتح الطاءِ والهاءِ المشددة. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ: [الْمُطْهَرُونَ] بسكون الطاءِ وفتح الهاءِ خفيفة، وهي قراءَة عيسى الثقفي. وقرأَ سلمان الفارسي: [الْمُطَهِّرُونَ] بفتح الطاءِ خفيفة وكسر الهاءِ وشدها، على معنى الذين يُطَهِّرُون أَنفسهم، ورويت عنه بشد الطاءِ والهاءِ، وقرأَ الحسن، وعبد الله بن عون، وسلمان الفارسي ـ بخلاف عنه ـ: [الْمُطَّهِّرُون] بمعنى: الْمُتَطَهِّرين، والقول بأَن ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ نهيٌ قولٌ فيه ضعف، وذلك أَنه إِذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله تعالى بعد ذلك: [تَنْزِيلٌ] صفة أَيضاً، فإِذ جعلناه نهياً جاءَ معنى أَجنبياً مُعْتَرضاً بين الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبَّره، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا يَمَسُّهُ»، وهذا يُقَوِّي ما رجَّحته من الخبر الذي معناه: حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلاَّ يَمسَّه إِلاَّ طاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ مخاطبة للكفار، و«الحديث» المشار إِليه هو القرآن المتضمن البعث، وأَن الله تعالى هو خالق الكل، وأَن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه، وغير ذلك، و[مُدْهِنُونَ] معناه: يُلاَيِنُ بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر، مأْخوذ من الدهن لِلينه وامِّلاَسِهِ، وقال أَبو قيس بن الأَسلتْ:

الْحَـزْمُ والقُـوَّةُ خَيْـرٌ مـنْ الـ ... إِدْهَـانِ والفَهَّـةِ والْهَـاعِ(٢)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، قال: في كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم: «ولا تمسَّ القرآن إلا على طهور». (الدر المنثور).

(٢) الحزمُ: ضبطُ الرأي وإتقانه. والإدهانُ والمداهنةُ: المُصانعة واللِّين، ويقومان على الغش والنفاق وإظهار خلاف ما في الضمير، والكذبُ فيه كل ذلك، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، والفَهَّةُ: العِيُّ والعجز عن الإبانة، وقيل: معناها السقطة، قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين قال له يوم السقيفة: ابسط يدك أبايعك: فقال أبو عبيدة: ما رأيت منك فهَّةً في الإسلام قبلها، =



وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي المهاودة فيما لا يحلُّ، والمداراة هي المهاودة فيما يحلُّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [مُدْهِنُونَ]: مكذبون.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أجمع المفسِّرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد: هذا بِنَوْءِ كذا وكذا، وهذا بِنَوْءِ الأَسد، وهذا بِنَوْءِ الجوزاءِ، وغير ذلك، والمعنى: وتجعلون شكر رزقكم، كما تقول لرجل: جعلت يا فلان إحساني إليك أَن سببتني، فالمعنى: جعلت شكر إحساني، وحكى الهيثم بن عدي أَن من لغة أَزد شنوءَة: ما رزْق فلان؟ بمعنى: ما شكْره؟ وكان علي بن أَبي طالب رضي الله عنه يقرؤُها: [وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ]، وكذلك قرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن النبي ﷺ[1] إلا أَن ابن عباس رضي الله عنهما ضم التاءِ وفتح الكاف، وعلي رضي الله عنه فتح التاءَ وسكن الكاف وخفف الذال، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وكــانَ شُكْــرُ الْقَــوْمِ عِنْــدَ المنــنِ ... كــيُّ الصَّحيحـاتِ وفَـقْءُ الأَعْيُـنِ[2]

وقد أَخبر الله تعالى أنه أَنزل من السماءِ ماءً مباركاً فأَنشأَ به جنات وحبَّ الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أَي بهذا الخبر، وقرأَ عاصم في رواية المفضل عنه: [تَكْذِبُونَ] بفتح التاءِ وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وكَذِبهم في مقالهم بيِّنٌ

= أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين؟ والهاعُ: سوءُ الحرص مع الضعف، والبيت في اللسان ـ هيع ـ، وفي (جمهرة أشعار العرب)، والرواية فيهما:

الكَيْــسُ والقُــوَّة خيــرٌ مِــن الْــ ... إِشْفَــاقِ والفَهَّــةِ والْهَــاع

وعلى هذا فلا شاهد فيه. والبيت في الأصمعية (٧٥)، والرواية فيهما: (خير من الإدهان والفكَّة) ـ بالكاف ـ ومعناها: الضعف، وهو أيضاً في (البيان والتبيين) وفي (الحيوان)، وفي (السِّمْط).

(١) أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السُّلميّ رضي الله عنه قال: قرأَ علي رضي الله عنه (الواقعات) في الفجر فقال: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُون»، فلما انصرف قال: إني قد عرفت أنه سيقول قائل: لِمَ قرأها هكذا؟ إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك، كانوا إذا مُطِروا قالوا: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا، فأنزل الله: «وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون».

(٢) لم أجد هذا الرجز إلاَّ في البحر المحيط، والرواية فيه (مَكانُ) بدلا من (وَكَان)، يصفهم بنكران الجميل ومقابلة الحسنة بالسيئة.

لأَنهم يقولون: هذا بنوءِ كذا، وذلك كذب منهم وتخرُّص. وذكر الطبري أَن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: مُطرنا ببعض عثانين الأَسد، فقال له: «كذبتَ بلْ هو رزق الله»[١]، والمنهي عنه المكروه هو أَن يعتقد أَن للطَّالع من النجوم تأْثيراً في المطر، وأَما مراعاة بعض الطوالع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاءِ: يا عباس، يا عم النبي ﷺ: كم بقي من نَوْءِ الثُّريا؟ فقال العباس رضي الله عنه: العلماءُ يقولون إِنها تعترض الأُفق بعد سقوطها سبعاً، قال ابن المسيَّب: فما مضت سبعٌ حتى مُطِروا[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظرُ فيه أَن الله تبارك وتعالى مالك كل شيءٍ، والضمير في ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ لنفس الإِنسان، والمعنى يقتضيها وإِن لم يتقدم لها ذكر، و«الحُلْقُوم» مجرى الطعام، وهذه الحالُ هي نزاع المرءِ للموت. وقوله تعالى: [أَنْتُمْ] إِشارة إِلى جميع البشر، وهذا من الاقتضاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[٣]. وقرأَ عيسى بن عمر: [حِينِئِذٍ] بكسر النون، و[تَنْظُرُونَ] معناه: إِلى المنازع في الموت. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أَن يريد: بقدرتنا وغلبتنا، فعلى الاحتمال الأَول يجيءُ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ من النظر بالعين، وعلى التأْويل الثاني يجيءُ من النظر بالقلب، وقال عامر بن عبد قيس: ما نظرتُ إِلى شيءٍ إِلاَّ رأَيْتُ الله تعالى أَقرب إِليه مني.

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التَّخْصِيص[٤]، و«المَدِينُ»: المملوك، هذا أَصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبَّر عنها بالمُجَازَي أَو المُحَاسَب فذلك هنا قلق، والمملوك يقلَّب كيف شاءَ المالك، ومن هذا المِلك قول الأَخطل:

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن إسماعيل بن أُمية.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، عن سفيان، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي هريرة، والذي ذكر هذا الحديث لسعيد بن المسيّب هو محمد بن إبراهيم فقال ابن المسيّب: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه... إلخ ما ذكره المؤلف.

(٣) من الآية (٢٩) من سورة (النساء).

(٤) في بعض النسخ: «بلفظ التحقيق»، والصواب ما أثبتناه، راجع الهامش رقم (٢) من الصفحة القادمة.

رَبَتْ فَرَبَى فِي حِجْرِهَا ابنُ مَدِينَة   تَـرَاهُ عَلَـى مِسْحَـاتِـهِ يَتَـرَكَّـلُ[(١)]

أَراد: ابن أَمَةٍ مملوكة، وهو عبد يخدم الكَرْمَ، وقد قيل في معنى هذا البيت: أَراد أَكّاراً حَضَرِيًّا لأَن الأَعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة وعمل الكرم، فَنَسَبه إلى المدينة لما كان من أَهلها، فمعنى الآية: فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحُلْقُوم إن كنتم غير مملوكين ولا مقهورين، ودينُ الْمَلِك حُكْمُه وسُلْطَانُه، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراءُ، وذكره مُستوعباً النقاش. وقوله تعالى: [تَرْجِعُونَهَا] سدَّت مَسَدَّ الأَجوبة والبيانات التي تقتضيها التخصيصات[(٢)]، و[إِذَا] من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا﴾ و[إِنْ] المتكررة، وحمل بعض القول بعضاً إِيجازاً واقتضاباً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأَزواج الثلاثة المذكورة في أَول السورة، وحال كل امرىء منهم، فأَما المرءُ من السابقين المقربين فسيلقى عند موته رَوْحاً وريحاناً، و«الرَّوْحُ»: الرحمةُ والسَّعة والفرج والفرح، ومنه: روح الله، و«الرَّيْحان»: الطِّيب، وهو دليل النعيم، وقال مجاهد: الريحان: الرِّزْقُ، وقال أَبو العالية، وقتادة، والحسن: الرَّيحان هو الشجر المعروف في الدنيا، يَلْقَى المُقَرَّب ريحاناً من الجنة،

(١) البيت من قصيدة قالها أبو مالك غياث بن غوث الأخطل، وهي في وصف خمر بَيْسان من قرى فلسطين، وهي أول قصيدة في الديوان، والبيت في اللسان والتاج، والرواية فيهما: (رَبَتْ وَرَبَا في كَرْمِهَا)، والمِسْحاةُ: الفأسُ، ومعنى يتركَّلُ: يضغط عليها برجله أو يتورَّك عليها بها لتنزل في الأَرض. والشاهد أن قوله: (ابن مدينة) يمكن أن يُفهم على أنه أراد: ابن أَمَةٍ مملوكة، وذلك أنه يقال للأَمةِ: مدينة، أي مملوكةٌ، كما يقال للعبد: مَدينٌ، أي مملوك، ويمكن أن يفهم (ابن مدينة) على أنه من أهل الحضر الذين يسكنون المدن، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وفي اللسان: «يقال للرجل الفَطِن العالم بالأمر: ابن بَجْدتها، وابن مدينتها، وابن بلدتها».

(٢) يريد بالتخصيصات أن الله تعالى خَصَّص عجزهم عن ارجاع الروح إلى الجسد وجعله أولاً مُقَيَّداً بوقت بلوغ الحلقوم، كما جعله ثانياً مُعَلَّقاً على انتفاء مربوبيتهم، فهم لا يقدرون على إرجاعها لأن مربوبيتهم موجودة فهم مقهورون ولا قدرة لهم. والمراد بقوله: «سَدَّت مَسَدَّ الأجوبة» أنَّ [تَرْجِعُونَهَا] سدَّ مسدَّ جواب [لَوْلا] الأولى، و[لَوْلا] الثانية في الآيات الكريمة.



وقرأ ابن عباس، والحسن، وجماعة كثيرة: [فَرُوحٌ] بضم الرَّاءِ، وقال الحسن: معناه: روحه تخرج في ريحانة، وقال الضحاك: الريحانُ: الاستراحة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

الريحان ما تنبسط إِليه النفوس، وقال الخليل: هو طرف كل بَقْلة طيبة فيها أَوائل النَّوْر، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما: «هما ريحانتاي من الدنيا»[1]، وقال النَّمر بن تَوْلَب:

سَـــلاَمُ الإِلَـــهِ ورَيْحَـــانُـــهُ وَرَحْمَتُـــــهُ وَسَمَـــــاءٌ دِرَرْ[2]

وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقرأُ: [فَرُوحٌ] بضم الراءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ عبارة تقتضي جملة مَدْح، وصفةَ تَخَلُّصٍ وحصولاً في عالٍ من المراتب، والمعنى: ليس في أَمرهم إِلاَّ السَّلام والنجاة من العذاب، وهذا كما تقول في مدح رجل: أَمَّا فلان فناهيك به، أَو بِحَسْبك أَمْرُه، فهذا يقتضي جملة غير مُفَصَّلة من مدحه، وقد اضطربت عبارات المتأَولين في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ ـ فقال قوم: المعنى: فيقال له: «مُسَلَّم لك أَنك من أَصحاب اليمين»، وقال الطبري: المعنى: فسلام لك أَنت من أَصحاب اليمين، وقيل: المعنى: فسلامٌ لك يا محمد، أَي: لا ترى فيهم إِلاَّ السَّلامة من العذاب، فهذه الكاف في [لَكَ] إِمَّا أَن تكون للنبي ﷺ ـ وهو الأَظهر ـ ثم لكلِّ معتبر فيها من أُمَّته، وإِمَّا أَن تكون لمن يخاطبه من أَصحاب اليمين، وغيرُ هذا مما قيل فيه تكلُّفٌ.

و«المُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ» هم الكفار أَصحاب الشمال والمشأَمة، و«النُّزُلُ» أَوَّلُ شيءٍ يقدم للضيف، و«التَّصْلِيَةُ» أَن تباشر بهم النار، و«الجحيم» معظم النار وحيثُ تراكمها.

ولمَّا كَمُلَ تقسيم أَحوالهم وانقضى الخبر بذلك أَكَّد تعالى الإِخبار بأَن قال لنبيِّه

---

(١) أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة) و(الأدب)، والترمذي في المناقب، ولفظه في البخاري عن ابن أبي نعيم: سمعتُ عبد الله بن عمر، وسأله عن المُحْرِم، قال شُعبة أَحْسِبه يقتل الذباب، فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ، وقال النبي ﷺ: «هُمَا ريحانتاي من الدنيا».

(٢) سبق التعليق عليه في أول سورة الرحمن، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾. ص(١٦٢) هامش رقم (٢) من هذا المجلد.



محمد ﷺ مخاطبة تدخل معه أُمّته فيها: إن هذا الذي أَخبرتك به لَهُوَ حقُّ اليقين، وإضافة الحَقِّ إلى اليقين عبارة فيها مبالغة لأنهما بمعنى واحد، فذهب بعض الناس إلى أنه من باب «دار الآخرة» و«مسْجد الجامع»، وذهبت فرقة من الحُذَّاق إلى أنه كما تقول في أَمر تؤكده: هذا يقين اليقين، أَو صواب الصواب، بمعنى أَنه نهاية الصواب، وهذا أَحسن ما قيل فيه، وذلك لأَن «دار الاخرة» وما أَشبهها يحتمل أَن تقدِّر شيئاً أَضفت الدار إليه ووصفته بالآخرة ثم حذفته وأَقمت الصفة مقامه، كأَنك قلت: «دار الرجعة الآخرة»، أَو دار النشأَة الآخرة»، أَو «الحلقة الآخرة»، وهنا لا يتَّجه هذا، وإنما هي عبارة مبالغة وتأْكيد معناها أَن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ عبارة تقتضي الأَمر بالإعراض عن أَقوال الكفرة وسائر أُمور الدنيا المختصة بها، والإقبال على أُمور الآخرة، وعبادة الله تعالى والدعاءِ إليه، وروى عقبة بن عامر[(٢)] أَنه لما نزل ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[(٣)]، ويحتمل أَن يكون المعنى: سبِّح الله تعالى بذكر أَسمائه العُلَى، و«الاسم» هنا بمعنى الجنس، أَي: بأَسماءِ ربِّك، و«العظيم» صفة للرَّبِّ تعالى، وقد يحتمل أَن يكون «الاسم» هنا واحداً مقصوداً، ويكون «العظيم» صفة له، فكأَنه أَمره أَن يسبحه باسمه الأَعظم وإن كان لم يَنُصَّ عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأَولها فيه التَّسبيحُ وجملةٌ من أَسماءِ الله تعالى، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اسم الله الأعظم موجود في ستِّ آيات من أَول سورة الحديد»، فتأَمل هذا فإنه من دقيق النظر، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأَذهان تدركها.

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قال قتادة: «إن الله تعالى ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين».

(٢) هو عقبة بن عامر الجهني، صحابي مشهور، اختلف في كنيته على سبعة أقوال، أشهرها أبو حماد، ولي أمْرَ مصر لمعاوية ثلاث سنين، وكان فقيهاً فاضلاً، مات في قرب الستين. (تقريب التهذيب).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية، قال النقاشُ وغيره: بإجماع من المفسرين، وقال غيره: هي مكية، ولا خلاف أَن فيها قرآناً مدنيًّا لكن يشبه صدرُها أَن يكون مكيًّا، والله تعالى أَعلم، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أَن اسم الله عزَّ وجلَّ الأَعظم هو في ستٍّ آيات من أَول سورة الحديد، ورُوي أَن الدعاءَ بعد قراءَتها مستجاب[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾.

قال أَكثر المفسرين: التَّسبيح هنا هو التَّنزيه المعروف في قولهم: «سبحان الله»، وهذا عندهم إِخبارٌ بصيغة الماضي مُضمَّنه الدوامُ وأَن التَّسبيح ممَّا ذُكر دائم مستمر، واختلفوا، هل هذا التسبيح حقيقة أَو مجاز على معنى أَن أَثر الصنعة فيها يُنبِّه الرائي على التسبيح؟ قال الزجاج وغيره: والقول بالحقيقة أَحسن، وقد تقدم القول فيه غير مرة، وهذا كله في الجمادات، وأَمَّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أَن تسبيحهم حقيقة، وقال قوم من المفسرين: التسبيح في هذه السورة الصلاةُ، وهذا قول متكلف، فأَمَّا

(١) أخرج أحمد، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «الشُّعب» عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: إنَّ فيهن آية أفضل من ألف آية، ولكن في إسناده بَقِيَّة بن الوليد وفيه مقال معروف، وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان، ولم يذكر العرباض بن سارية، فهو حديث مرسل، وأخرجه ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير، وقد قال ابن كثير في تفسيره: «والآية المشار إليها ـ والله أعلم ـ هي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الآية، وكان يحيى بن أبي كثير يقول: فنراها الآية التي في آخر سورة الحشر.

فيمن يمكن منه ذلك فسائغ، وعلى أَن سجود ظلال الكفار هي صلاتهم، وأَمَّا في الجمادات فيقلق، وذلك أَن خضوعها وخشوع هيئتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة، كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١)

ويبعد أَن تُسمَّى تلك صلاة إِلاَّ على تجوز.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامٌ في جميع المخلوقات، وقال بعض النحاة: التقدير: ما في السموات وما في الأَرض، فـ[مَا] نكرةٌ موصوفةٌ، فلما تكرر موصوفُها حذفها وأَقام الصفة مقامها، وهو العزيز بقدرته، وسلطانه، الحكيم بلطفه وتدبيره وحكمته، ومَلِك السموات والأرض هو سلطانها الحقيقي الدائم؛ لأَن ملك البشر مجازٌ فان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أَي على كل شيءٍ مقدور.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾. الأَول: الذي ليس لوجوده بداية مُفْتَتَحَة، والآخر: الذي ليس له نهاية منقضية. وقال أَبو بكر الوراق: هو الأَول بالأَزلية والآخر بالأَبدية، وهو الأَول بالوجود؛ إِذ كُلُّ موجود فبعده وبه، والآخر إِذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون إِليه منتهاها، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾(٢). و[الظَّاهِرُ] معناه: بالأَدلة ونظر العقول في صنعته، و[الْبَاطِنُ] بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفته التي لا تصل إِلى معرفتها ـ على ما هي عليه ـ الأَوهام، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي بهر ومَلَكَ فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها، فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأَدلة، وليس في باطن الأَمر وفيما خفي على النظرة ممَّا عَسَى أَن يُتوهم غيرُه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام في الأَشياءِ عموماً تامًّا.

وقد تقدم القول في خلق السموات والأَرض، وأَكثر الناس على أَن بدأَة الخلق في

---

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به أكثر من مرة، وأولها عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، والبيت في اللسان والتاج والطبري والقرطبي، وهو بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبُلْق: جمع أبْلق وهو الفرس إذا كان فيه بياض وسواد، والحَجرات: الجوانب، والأكم: التلال.

(٢) الآية (٤٢) من سورة (النجم).



يوم الأَحد، ووقع في مسلم أَن البداية في يوم السبت، وقال بعض المفسرين: الأَيام الستة من أَيام القيامة، وقال الجمهور: من أَيام الدنيا، وهو الأَصوب، و«الاستواءُ على العرش» هو بالغلبة والقهر المستمرَّيْن بالقدرة، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب، وقد تقدم القول في مسأَلة الاستواءِ مستوعباً في طه وغيرها. و﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هو المطر والأَموات وغير ذلك، و﴿مَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك، و﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك، و﴿مَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ هو الأَعمال صالحها وسَيِّئُهَا والملائكة وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ معناه: بقدرته وعلمه وإِحاطته وهدايته، أَجمعت الأُمة على هذا التأْويل فيها، وأَنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في الإِجماع من يقول بأَن هذا أَمر المُشْتَبَه كله، ينبغي أَن يمر ويؤمن به ولا يُفسَّر، وقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إِخراجها عن ظاهرها، قال سفيان الثوري: المعنى: علْمُه معكم، وتأْويلهم هذه حجة عليهم في غيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ خبر يعم جميع الموجودات، و[الأُمُورُ] هنا ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات لأَن الأَمر والشيءَ والموجود أَسماءٌ شائعة في جميع الموجودات أَعراضها وجواهرها، وقرأَ الجمهور: [تُرْجَعُ] بضم التاءِ، وقرأَ الأَعرج، وابن أَبي إِسحاق: [تَرْجِعُ] بفتح التاءِ.

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْـلَ فِى ٱلنَّهَـارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطُول والقِصَر، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأَقطار والأَزمان الأربعة، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأَمله، و[يُولِجُ] معناه: يُدخل، و«ذاتُ الصُدُور»: ما فيها من الأَسرار والمعتقدات وذلك أَغمض ما يكون، وهذا كما قالوا:

«الذِّئب مغبوطٌ بِذِي بطنه»[١]، وكما قال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إِنما هو ذو بطن بنت خارجة».

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية. أَمْرٌ للمؤمنين بالثبوت على الإِمان والنفقة في سبيل الله، ويروى أَن هذه الآية نزلت في غزوة العُسْرة، وهي غزوة تبوك، قاله الضحاك، وقال: الإِشارة بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ إِلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحكمها باقٍ يندب إِلى هذه الأَفعال بقية الدهر. وقوله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تزهيدٌ وتنبيهٌ على أَن الأَموال إِنما تصير إِلى الإِنسان من غيره ويتركها لغيره، وليس له من ذلك إِلاَّ ما تضمنه قول رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إِلاَّ ما أَكلت فأَفنيت، أَو لَبستَ فأَبليت، أَو تصدقت فأَمضيت»[٢]، ويروى أَن رجلاً مرَّ بأعرابي له إِبلٌ فقال له: يا أَعرابي، لمن هذه الإِبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي، فهذا موافق مصيب إِن كان ممن صحب قولَه عملُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية توطئةٌ لدعائهم وإِيجابٌ لأَنهم أَهل هذه الرُّتب الرفيعة، فإِذا تقرر ذلك فلا مانع من الإِيمان، وهذا كما تريد أَن تندب رجلاً إِلى عطاءٍ فتقول له: أَنت يا فلان من قوم أَجوادٍ فينبغي أَن تُكْرم، وهذا مُطَّرد في جميع الأُمور، إِذا أَردتَ من أَحد فعلاً خَلَّقْته بخُلُق أَهل ذلك الفعل وجعلتَ له رتبتهم، فإِذا تقرر في هؤلاءِ أَن رسول الله ﷺ يدعوهم، وأَنهم مِمَّن أَخذ الله ميثاقهم، فكيف

---

(١) ويروى: الذئب يُغبط بغير بطنة، وما في بَطْنه، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشعر:

وَمَـنْ يَسْكُـنِ الْبَحْـرَيْـنِ يَعْظُـمْ طحـالُـه ... ويُغْبَـطْ مـا فـي بَطْنِـهِ وهُـوَ جَـائِـعُ

وقال غيره: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفْرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع، قال الشاعر:

لَكَالذِّئب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهُوَ جَائِعُ.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، ومسلم في الزهد، وأبو داود في الطلاق، والترمذي في الزهد وتفسير سورة التكاثر، والنسائي في الوصايا، وأحمد في مسنده (٢ـ٣٦٨، ٤١٢، ٤ـ٢٤، ٢٦)، ولفظه كما في مسلم: عن مطرف، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: يقول: ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إِلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)، ومعنى «فأمضيت»: نفَّذت ما أردت التصدق به، وفي رواية عن أبي هريرة ذكرها أحمد في مسنده زيادة قوله: (ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس).



يمتنعون من الإِيمان؟ وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾ على بناءِ الفعل الفاعل، وقرأَ أَبو عمرو: [وَقَدْ أُخِذَ] على بناءِ الفعل للمفعول، والآخذُ على كلٍّ قول هو الله تعالى، وهذا الأَخذ كان حين الإِخراج من ظهر آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السُّورة[1]، والمخاطبة ببناءِ الفعل للمفعول أَشد غِلَظاً على المخاطب، ونحوه قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2]، وكما تقول لِامْرِىءٍ: افعل ما قيل لك، فهو أَبلغ من قولك: افعل ما قلتُ لك.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال الطبري: المعنى: إِن كنتم مؤمنين في حالٍ من الأَحوال فالآن، وهذا معنى ليس في لفظ الآية وفيه إِضمار كثير، وإِنما المعنى عندي أَن قول الله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أَن يُقَدَّر بأَثره: فأَنتم في رُتَب شريفة وأَقدار رفيعة إِن كنتم مؤمنين، أَي إِذا دمتم على ما بدأْتُم به.

وقرأَ بعض السبعة: [يُنَزِّلُ] مثقَّلة، وقرأَ بعضهم: [يُنْزِلُ] مخففة، وقرأَها الحسن وعيسى بالوجهين، وقرأَ الأَعمش: [أَنْزَلَ]، والعبد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ، و«الآيَات» آيات القرآن، و«الظُّلُمَات»: الكفر، و«النُّورُ»: الإِيمان، وما في الآية وعْدٌ وتأْنيس مؤكد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

المعنى: وما لكم أَلاَّ تنفقوا في سبيل الله وأَنتم تموتون وتتركون أَموالكم؟ فناب مناب هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عزَّ وجلَّ وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف). المجلد الرابع، صفحة ٨٣.

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (هود).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ الآية، رُوي أَنها نزلت بسبب أَن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أَنفقت نفقات كثيرة حتى قال الناسُ: هؤلاءِ أَعظم أَجراً من كلٍّ من أَنفق قديماً، فنزلت الآية مبينةً أن النفقة قبل الفتح أَعظم أَجراً، وهذا التأويل على أَن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل: إِنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأَول أَشهر، وحكى الثعلبي أَنها نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي نفقاته[1]، وفي معناه قول النبي ﷺ لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «اتركوا لي أَصحابي، فلو أَنفق أَحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

واختلف الناس في الفتح المشار إِليه في هذه الآية ـ فقال أَبو سعيد الخدري، والشعبي: هو فتح الحديبية، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً، ورفعه أَبو سعيد رضي الله عنه إِلى النبي ﷺ أَنَّ أَفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية[3]. وقال

---

(١) ذكر ذلك الواحدي في كتابه «أسباب النزول» عن محمد بن غزوان عن الكلبي، ولكن الكلبي متَّهم بالكذب، كذلك رواه الواحدي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي سنده ضعف، وذكره ابن كثير في تفسيره ثم قال: «هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم». وفضل أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه في سبيل الله أمران معروفان، ولا يقلل من ذلك ضعف هذا الحديث، ففي الصحيح عن النبي ﷺ كثير يؤكد فضله وسبقه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها. فبلغنا أن ذلك قيل للنبي ﷺ فقال: «دَعُوا لي أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحد، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أُسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبُّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

(٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبونعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: لا، ولكنهم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة وألْيَن قلوباً، فقلنا: أهم خير منَّا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مُدَّ أحدكم ولا نصيفه، ألا إن هذا=



قتادة، ومجاهد، وزيد بن أَسلم: هو فتح مكة الذي أَزال الهجرة، وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة»(١)، وقال له رجل بعد فتح مكة: أُبايعك على الهجرة، فقال رسول الله ﷺ: «إِن الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإِن الهجرة لشأْنها شديد، ولكن أُبايعك على الجهاد»(٢)، وحكم الجهاد باق إِلى غابر الدهر، فمن أَنفق في وقت حاجة السبيل أَعظم أَجراً ممن أَنفق مع استغناءِ السبيل، وأَكثر المفسرين على أَن قوله تعالى: [يَسْتَوِي] مسند إِلى [مَنْ] وترك ذكر المعادل الذي لم يسْتَوِ معه لأَن قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قد فَسَّره وبَيَّنه، ويحتمل أَن يكون فاعل [يَسْتَوِي] محذوفاً تقديره: لا يستوي منكم الإِنفاقُ، ويؤيد ذلك أَن ذكره قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَنفَقَ﴾ ابتداءٌ وخبره الجملة الآتية بَعْدُ(٣).

وقرأَ جمهور السبعة: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وهي الوجه لأَن [وَعَدَ] ليس يعوقه عائق عن أَن ينصب الفعل المقدم، وقرأَ ابن عامر: [وكُلٌّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىَ]، فأَمَّا سيبويه رحمه الله تعالى فقدر الفعل خبراً لابتداءٍ، وفيه ضمير عائدٌ، وحذْفُهُ عنده قبيح

= فصل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ الآية. قال ابن كثير بعد أن أورد هذا الحديث: وهذا الحديثُ غريبٌ بهذا السياق، والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد ذكر الخوارج: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. . .» الحديث، ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر، وساق الحديث من هذا الوجه ثم قال: فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية، فإن كان ذاك ـ أي الرواية الأولى ـ محفوظاً كما تقدم فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده.

(١) أخرجه البخاري في الصيد والجهاد ومناقب الأنصار والمغازي، ومسلم في الإمارة، والترمذي في السِّير، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الكفارات، والدارمي في السِّير، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده، ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونِيَّة، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانفروا».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي عن مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، قال: ذهب أهل الهجرة بما فيها، فقلت: على أي شيءٍ تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد، فلقيت أبا مَعْبَد بَعْدُ ـ وكان أكبرهما ـ فسألته، فقال: صدق مجاشع.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾. وقد ذكر أبو حيان هذا الرأي ووصفه بالبعد، وقال: «وهذا فيه تفكيك للكلام، وخروج عن الظاهر لغير موجب».



لا يجري إلاَّ في الشعر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي ... عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ [(١)]

قال: ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير:

. . . . وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ [(٢)]

وعلى الصِّلات كقوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [(٣)]، وذهب غير سيبويه إلى أن [وَعَدَ] في موضع الصفة، كأنه قال: أُولئك وكُلٌّ وعد الله الحسنى، وصاحبُ هذا المذهب جعل في هذا التَّعسُّف في المعنى فِراراً من حذف الضمير من خبر الابتداءِ، و[الْحُسْنَى]: الجنَّة، قاله مجاهد، وقتادة، والوعدُ يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قولٌ فيه وعْدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الاية. قال بعض النحويين: [مَنْ]

---

(١) هذا الرجز قاله أبو النجم العجلي، و«أُمُّ الخيار» هي زوجته، و«الذَّنْب» الذي ادعته عليه وهو لم يصنعه هو الشَّيب والصلع والشيخوخة، يقول: إنها تلومني على شيبتي وشيخوختي وهو ذنب لم أرتكبه أنا، والشعر في خزانة الأدب للبغدادي، وفي كتاب سيبويه، وفي شرح شواهد المغني، وأمالي ابن الشجري ومغني اللبيب، وقد أكثر النحويون والبيانيون الكلام في هذا البيت، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً بين نصب (كلّه) ورفعه، وابن عطية ينقل عن سيبويه أن في الفعل (أصنع) ضمير يعود على المبتدأ وهو (كل)، وأن التقدير: «لم أصنعه»، والحذف عنده قبيح ولا يقبل إلاّ في الشعر، ولكن غير سيبويه يجيز ذلك كالفراء والكسائي وابن مالك، والبيانيون يقولون: إن رفع «كل» أفضل لأنه يقتضي أنه لم يصنع شيئاً من هذا الذي ادعته عليه من ذنوب، فالنفي ينصب على كل ذنب من الذنوب، وأما النصب فيقتضي أنه لم يصنع الذنوب مجتمعة، وهذا لا ينفي أنه قد صنع بعضها، وبعض العلماء ينقض ذلك، راجع خزانة الأدب، والمحتسب، والتسهيل وغيرها. ومثل هذا البيت قوله ﷺ ـ حين قال له ذو اليدين: أَقصُرت الصَّلاة أم نسيت يا رسول الله؟ ـ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ»، أي: لم تقصُر الصلاة ولم أنْسَ.

(٢) هذا عجز بيت قاله جرير يخاطب عبد الملك بن مروان، والبيت بتمامه:

أَبَحْتَ حِمَى تِهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ ... وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ

يقول له: ملكت العرب وأبحت حماها بعد إبائها عليك، وما حميته لا يستطيع أحد أن يستبيحه لقوة سلطانك، وتهامة: ما هبط ونزل من بلاد العرب، ونجد: ما علا وارتفع منها، يعني ملكت جميع البلاد العربية، والبيت شاهد لجواز حذف الهاء من الفعل إذا وقعت جملته نعتاً؛ لأن النعت مع المنعوت كالصِّلة مع الموصول، وحذفها في الصِّلة حَسَن فضارعها النعت في ذلك، وتقدير الكلام: «وما شيءٌ حَمَيْتَه بمُسْتَبَاح»، والبيت في الديوان، وفي الكتاب لسيبويه، وأمالي ابن الشجري، ومغني اللبيب.

(٣) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء).



ابتداءٌ، و[ذَا] خبره، و[الَّذي] صفة، وقال آخرون منهم: [مَنْ] ابتداءٌ، و[ذَا] زائدةٌ مع [الَّذي]، و[الَّذي] خبر الابتداءِ، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أَمر الدين، و«الْقَرْضُ» و«السَّلَفُ» ونحوه: أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءَه، و«التضعيف» من الله تعالى هو في الحسنات، يضاعف الله لمن يشاءُ من عشرة إِلى سبعمائة، وقد ورد أَن التضعيف يزيد على سبعمائة، وقد مرَّ ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوهه من التأويل[1]. وقرأَ أَبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي: [فيُضَاعِفُهُ] بالرفع على العطف أَو على القطع والاستئناف، وقرأَ عاصم، وابن عامر: [فَيُضَاعِفَهُ] بالنصب بالفاءِ في جواب الاستفهام، وذلك قلقٌ، قال أَبو عليٍّ: لأَن السؤال لم يقع عن القرض، وإِنما وقع السؤال عن فاعل القرض، وإِنما تنصب الفاءُ فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأَن قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ بمنزلة أَن لو قال: أَيقرضُ اللهَ أَحدٌ فيضاعفَه، وقرأَ ابن كثير: [فَيُضَعِّفُهُ] مشددة العين مضمومة الفاءِ، وكذلك قرأَ ابن عامر، إِلاَّ أَنه فتح الفاءَ. و«الأَجْرُ الكَرِيم»: الذي يقترنُ به رضًى وإِقبال، وهذا معنى الدعاءِ: «يا كريم العفو»، أَي أَنَّ مع عفوه رضًى ومغنماً، وعفو البشر ليس كذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، و«الرُّؤْية» في هذه الآية رؤْية عين، و«النُّورُ»، قال الضحاك بن مزاحم: هي استعارة، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتُهم الناس إلى الحق وصدقُهم في الأفعال والأَقوال، وقيل: تَتَبُّعهم الرشاد واعتقادُهم به واقتصاصُهم آثاره وعلاماته وأَنواره، وقيل: هي استعارة، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه، وقال الجمهور: بل هو نور حقيقة، ورُوي في هذا

(١) راجع المجلد الثاني صفحة (٥٧) وما بعدها.



عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها أَن كل مؤمن مُظهر للإِيمان يُعطى يوم القيامة نوراً، فَيُطْفَى نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين، حتى إِن منهم من نوره يضيءُ كما بين مكة وصنعاءَ، رفعه قتادة إِلى النبي ﷺ، ومنهم من نوره كالنخلة السَّحُوق(١)، ومنهم من نوره يضيءُ ما يقرب من قدميه، قاله ابن مسعود رضي الله عنه، ومنهم من يهم نوره بالانطفاءِ مرَّةً ويَبينُ مرَّةً، على قدر المنازل في الطاعة والمعصية، وخص تعالى «بين الأَيدي» لأَنه موضع حاجة الإنسان إِلى النور.

واختلف الناس في قوله تعالى: [وَبِأَيْمَانِهِمْ] ـ فقال بعض المتأَولين: المعنى: وعن أَيمانهم، فكأَنه تعالى خصَّ جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أَن يقول: وفي جميع جهاتهم، وقال آخرون منهم: المعنى: وبأَيمانهم كتُبُهم بالرحمة، وقال جمهور المفسرين: المعنى: يَسْعَى نورهم بين أَيديهم، يريد تعالى الضوءَ المنبسط من أَهل النور، وبأَيمانهم أَصْلُه والشيءُ الذي هو مُتَّقد فيه، فمُضَمَّن هذا القول أَنهم يحملون الأَنوار، وكونُهم غير حاملين [لها](٢) أَكرم، أَلا ترى أَن فضيلة عَبَّاد بن بشر، وأُسَيْد بن حُضَيْر(٣) رضي الله عنهما إِنما كانت بنور لا يحملانه؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة. وقرأَ الناسُ: [وَبِأَيْمَانِهِمْ] جمع يمين، وقرأَ سهل بن سعد، وأَبو حيوة: [وَبِإِيمَانِهِمْ] بكسر الأَلف، وهومعطوف على قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، كأَنه تعالى قال: كافِياً بين أَيديهم وكائناً بسبب إِيمانهم.

وقوله تعالى: [بُشْرَاكُمُ] معناه: يقال لهم: بُشْراكم جنات، أَي دخولُ جنات، فحذف المضاف وأَقام المضاف إِليه مقامه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إِلى

---

(١) السَّحُوق: الطويلة، يقال في وصف النخلة والمرأة.

(٢) ما بين العلامتين [. . .] زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) أما «عبَّاد» فهو: عبَّاد بن بشر بن وَقْش ـ بفتح الواو وبالقاف وبالشين المعجمة ـ الأنصاريُّ، من قدماء الصحابة، أسلم قبل الهجرة، وشهد بدراً، وأبلى يوم اليمامة أحسن البلاء فاستشهد بها. كان النبي ﷺ يبعثه إلى القبائل يُصدِّقها ـ أي يجمع الصدقات ـ وجعله على مقاسم حنين، واستعمله على حرسه في تبوك.

وأما «أُسَيْد» فهو: أُسَيْد بن الحُضَيْر بن سِمَاك بن عَتيك الأوسي، صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يعدُّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، وكان يسمَّى الكامل، جرح في أُحد سبع جراحات، وثبت مع النبي ﷺ، وشهد الخندق والمشاهد كلها، وفي الحديث: «نعم الرجل أُسَيْد بن الحضَيْر»، توفي بالمدينة، وله ثمانية عشر حديثاً.



آخر الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [ذَلكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ] بدون «هو».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾، قال بعض النحاة: [يَوْم] بدلٌ من الأول، وقال آخرون منهم: العاملُ فيه مضمر تقديره: اذكر، ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ويجيءُ معنى الفوز أفخم، كأنه تعالى يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، لأن ظهور المرءِ يوم خمول عدوه ومضادِّه أبدع وأفخم، وقولُ المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاءِ أنوارهم كما ذكرنا قبل، وقولهم: «انْظُرُونَا» معناه: انتظرونا، ومنه قول الحطيئة:

وَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمُ إينَـاءَ عَـاشيَـة ... لِلْخمْس طَالَ بِهَا حَبْسي وتِبْسَاسِي[1]

وقرأ حمزة وحده[2]، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [أَنْظِرونَا] بقطع الألف وكسر الظاءِ على وزن أَكْرِم، ومه قول عمرو بن كُلثوم:

أَبَـا هِنْـدٍ فَـلاَ تَعْجَـلْ عَلَيْنَـا ... وأَنْظِـرْنَـا نُخَبِّـرْكَ الْيَقِينَـا[3]

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر لأنه لم يكرم جواره، ويمدح بغيض بن عامر الذي أعطاه وأكرم جواره، والبيت في الديوان، واللسان، والتاج، ومعنى «نظرتكم»: انتظرتكم، وهو موضع الاستشهاد هنا، وإيناءَ: انتظار، والعاشية هي الإبل التي ترعى ليلا وتتعشّى بعد أن شربت، والخِمس بكسر الخاء: نوع من إظماء الإبل إذ يتركونها أربعة أيام بدون أن تشرب ثم يقدمون لها الماء في اليوم الخامس فتشرب حتى تشبع، والتِّبْساس: نوع من مداعبة الإبل بالمسح على ضرع الناقة، وبالصوت الذي يقال فيه: بس بس حتى تدرَّ لبنها، فالشاعر يقول: إنه فعل مثل ذلك مع الزبرقان وقومه، وانتظر طويلاً كالإبل التي تنتظر اليوم الخامس، ولكه لم ينل من عطائهم شيئاً، ورواية البيت في اللسان:

ولَقَـدْ نَظَـرْتُكُـمُ إينَـاءَ صَـادِرَةٍ ... لِلْخِمْسِ طـالَ بِهَـا حـوْزي وتنْسَاسـي

والصادرة: الإبل التي عادت بعد أن شربت في اليوم الخامس. والحوز: السَّوْق قليلاً قليلاً، والتنساس: السوق السريع. وفي رواية أخرى: «ولقد نظرتكم أعْشَاءَ»، ومعناها أيضاً: انتظرتكم انتظار هذه الإبل.

(٢) يعني: وَحْده من بين السبعة المشهورين بالقراءة.

(٣) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وأبو هند: عَمْرُو بن المنذر، وهو في البيت منصوب على النداء، والفاءُ في «فَلَا تَعْجَلْ» تصل ما بعدها بما قبلها، وأَنْظِرْنَا معناه: انتظرنا، أو معناه: أَخّرنا ـ وهو موضع الاستشهاد هنا ـ. ونخبِّرْك: جواب شرط مقدر، أي: أن تنتظرنا أو أن تؤخرنا نخبِّرك اليقين. وقد استشهد الفراءُ بالبيت في «معاني القرآن».



ومعناه: أَخِّرونا، ومنه النَّظِرةُ إلى مَيْسَرَة، وقول النبي ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً» الحديث[1]، ومعنى قولهم «أَخِّرونا»: أَخِّروا مشيكم لنا حتى نلحق فنقتبس من نوركم، و«اقْتَبَسَ الرَّجُلُ واسْتَقْبَسَ»: أَخذ من نور غيره قبساً.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ يحتمل أَن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة، وقوله تعالى: [وَرَاءَكُمْ] حكى المهدوي وغيره من المفسِّرين أَنه لا موضع له من الإِعراب، وأَنه كما لو قال: ارجعوا ارجعوا، وأَنه على نحو قول أَبي الأَسود الدؤلي: «وراءَكَ أَوسع لك»، ولستُ أَعرف مانعاً يمنع أَن يكون العامل فيه [ارْجِعُوا]، والقول لهم: ﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ هو على معنى التوبيخ لهم، أَي أَنكم لا تجدونه، ثم أَعلم عزَّ وجلَّ أَنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز، فيسعى المنافقون في ظلمة، ويأْخذهم العذاب من الله تعالى، وحكي عن ابن زيد أَن هذا السور هو الأَعراف المذكور في سورة الأَعراف، وقد حكاه المهدوي، وقيل: هو حاجز آخر غير ذلك، وقال عبد الله بن عمرو، وكعب الأحبار، وعُبادة بن الصامت، وابن عباس: هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس، وقال زياد بن أَبي سوادة: قام عُبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال: من ها هنا أَخبرنا النبي ﷺ أَنه رأَى جهنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفيه باب يسمى باب الرحمة، سمَّاه في تفسير هذه الآية عُبادة وكعبٌ، وفي الشرق من الجدار المذكور وادٍ يقال له: وادي جهنم: سمَّاه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمرو، وابنُ عباس رضي الله عنهم، وهذا القول في السور بعيد، والله تعالى أَعلم. وقال قتادة، وابن زيد: الرحمةُ الجنةُ، والعذابُ جهنمُ، والسُّور في اللغة الحجاب

---

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، والدارمي في البيوع، ومسلم في الزهد، وابن ماجه في الصدقات، وأحمد في مسنده (١ـ٣٢٧، ٢ـ٣٥٩، ٥ـ٣٥١)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا ـ فأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض ـ: «من أَنْظَر مُعْسراً أو وضع لَهُ وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْن بربوة ـ ثلاثاً ـ ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد مَن وُقي الفِتن، وما من جرعة أحب إليَّ مِن جرعة غيظ يكظمها عبْدٌ، ما كظمها عبْدٌ لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً».

الذي للمدن[1] وهو مذكر، والسُّور أيضاً جمع سُورة وهي القطعة من البناءِ فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأنيثه، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله:

لمَّـا أَتَـى خَبَـرُ الـزُّبَيْـرِ تَـوَاضَعَـتْ ... سُـورُ المَـدينـةِ وَالجِبَـالُ الخُشَّـعُ[2]

وذلك أَن المدينة لم يكن لها قط حجًى، وأيضاً فإن وصفَهُ أَنَّ جميع ما في المدينة من بناءٍ تواضَعَ أَبْلغُ، ومَنْ رَأَى أنه قصد السُّور الذي هو الحِجَى قال: إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أحرى بالتواضع، فإذا كان السُّور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مَرِّ الرياح، وصدر القناة، وغير ذلك مما هو مذكَّر محْضٌ استفاد التأنيث مما أُضيف إليه.

قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾، أي جهة المؤمنين، [وَظَاهِرُهُ] أي جهة المنافقين، والظاهر هنا البادي، ومنه قول الكتاب: «من ظاهر مدينة كذا».

وقوله تعالى: [يُنَادُونَهُمْ] معناه: ينادي المنافقون المؤمنين: أَلم نكن معكم في الدنيا؟ فيرد المؤمنون عليهم: بل كنتم معنا ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة وحُبِّ العاجل والقتال عليه، قال مجاهد: فَتَنْتُمْ أَنفسكم بالنفاق، و[تَرَبَّصْتُمْ] معناه هنا: بإيمانكم، فأَبطأْتم به حتى مُتُّم، وقال قتادة: معناه: تَرَبَّصْتُمْ بنَا وبمحمد ﷺ الدوائر، وشككتم في أَمر الله تعالى، و«الارتيابُ»: التَّشكُّك، و«الأَماني التي غرَّتهم» هي قولهم: سيهلك محمد هذا العام، ستهزمه قريش، ستأخذه الأَحزابُ، إلى غير ذلك من أمانيهم، وطولُ الأمل غرَّارٌ لكل أَحد، و«أَمْر الله الذي جاءَ» هو الفتحُ وظهور الإسلام، وقيل: هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة للعذاب. و«الغَرُورُ»: الشيطان بإجماع من المتأَولين، وقرأ سماكُ ابن حرب بضم الغين، وأَبو حيوة، وينبغي لكل مؤمن أَن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته.

---

(١) في بعض النسخ: «والسور في اللغة الحِجى الذي للمدن»، والحِجى هو الستر أو الحاجز، شُبِّه بالعقل الذي يحفظ الإنسان من الهلاك.

(٢) البيت من قصيدة قالها جرير يهجو بها الفرزدق وغيره من الشعراء، وخَبَرُ ابن الزبير: قتله، وقد استشهد به ابن عطية على أن «السُّور» اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيثه، وقد أنَّثه جرير، وقال صاحب اللسان: «أنَّث السُّور لأنه بعض المدينة، فكأنه قال: تواضعت المدينة»، والألف واللام في «الخُشَّع» زائدة لأن «خشع» خَبَرٌ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ استمرارٌ في مخاطبة المنافقين، قاله قتادة وغيره، وروي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حديث. وهو: أن الله تعالى يُقَرِّر الكافر فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنتَ تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت في صلب أبيك آدم، لا تشرك بي، فأبيت إلاَّ الشِّرك»[1]، وقرأ جمهور القراءِ والناس: [يُؤْخَذُ] بالياءِ من تحت، وقرأ أبو جعفر القارىء: [تُؤْخَذُ] بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة ابن عامر في رواية هشام عنه. وهي قراءَة الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعرج.

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾، قال المفسرون: معناه: هي أولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإنما هي استعارة لأنها من حيث تضُمُّهُمْ وتباشرهم هي تُوَالِيهِم وتكون لهم مكان المولى، وهذا نحو قول الشاعر:

. . . . تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[2]

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والرقاق، ومسلم في المنافقين، وأحمد في مسنده (٣ـ١٢٩)، ولفظه فيه: عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيءٍ كنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلْب آدم، ألاَّ تشرك بي فأبيت إلاَّ أن تُشرك بي».

(٢) هذا عجز بيت مشهور عن النحويين واللغويين، وقد قاله عمرو بن معد يكرب، ويشكك صاحب الخزانة في ذلك، والبيت بتمامه:

وَخَيْـلٍ قَـدْ دَلَفْـتُ لَهَـا بِخَيْـلٍ تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

وهو في خزانة الأدب، والكتاب لسيبويه، الخصائص، والعمدة، والتصريح، والمرزوقي، وابن يعيش، ونوادر أبي زيد، والخيل: الفرسان، ودَلَفْت: زحفت، وجيع: مُوجع، يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلا من تحية بعضهم لبعض، والشاهد فيه جعل الضرب تحية على سبيل الاستعارة.



وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداءُ معنى مستأنف، وروي أنه كثر الضحك والمزاح في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ملَّ الصحابة ملَّة فنزلت الآية. ومعنى ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَحِنْ، يقال: آن الشيءُ يأني إذا حان، ومنه قول الشاعر:

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ[1]

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [أَلَمَّا يَأْنِ] ورُوي عنه أَنه قرأَ: [أَلَمْ يَئِنْ]، وهذه الآية على معنى الحضِّ والتقريع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأُ هذه الآية والفضلُ يحاول معصية فكانت الآيةُ سبب توبته، وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أَنه في صباه حرَّك العود ليضربه فإذا به قد نطق بهذه الآية فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءَه التوفيق[2].

و«الخُشوعُ»: الإخباتُ والتَّطامن، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خصَّ تعالى القلب بالذكر، وروى شداد بن أَوس عن النبي ﷺ أَنه قال: «أَول ما يرفع من الناس الخشوعُ»[3]، وقوله تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَي: لأَجل ذكر الله ووحيه الذي بين أَظهرهم، ويحتمل أَن يكون المعنى: لأَجل تذكير الله تعالى إِيَّاهم وأَمره فيهم، وقرأَ عاصم في رواية حفص: [وَمَا نَزَلَ] مُخَفَّفَ الزاي، وقرأَ الباقون، وأَبو بكر عن عاصم: [وَمَا نَزَّلَ] بتشديد الزاي، على معنى: نَزَّلَ الله من الحق، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية عياش ـ وهي قراءَة الجحدري، وابن القعقاع: ﴿وَمَا نُزِّلَ﴾ بكسر الزَّاي وشدِّها. وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ بالياءِ على ذكر

---

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب، وفي تالج منسوباً إلى عمرو بن حسان بن ثابت، وتمخَّضَ: تحرَّك وتهيَّأ، والمنون: المنية وأَنَى: حان، يقول: إن المنون أتت له بهذا اليوم الذي لا بد أن يأتي، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لا بد أن يتم حَمْلُها.

(٢) ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك المروزي، من بني حنظلة، وحكاية الثعلبي بهذه الصيغة غير منطقية ولا صحيحة، ولهذا جاءت في بعض النسخ بصيغة أُخرى هي: «حرَّك العود ليضربه فسمع قارئاً ينطق بهذه الآية. . .» الخ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس، وقد رمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وزاد في الدر المنثور نسبته إلى ابن المنذر، وعبد بن حميد، وعبد الرزاق.



الغائب، وقرأ حمزة ـ فيما روى عنه سليمان ـ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ على مخاطبة الحضور.
والإشارة في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى ﷺ، ولذلك قال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وإنما شَبَّهَ أَهل عصر نبيٍّ بأَهل عصر نبيٍّ آخر.
و«الأَمَدُ» قيل: معناه انتظار الفتح، وقيل: انتظار القيامة، وقيل: أَمد الحياة، و[قَسَتْ] معناه: صلبت وقَلَّ خيرها وانفعالها للطَّاعات وسكنت إلى معاصي الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأْثور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ الآية مخاطبةٌ لهؤلاءِ المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع، وهذا ضَرْب مَثَل واستدعاءٌ إلى الخير برفق وتقريب بليغ، أَي: لا يبعد عنكم أَيها التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبُّسكم به، فإن الله يُحيي الأَرض بعد موتها، وكذلك يفعل بالقلوب، ويردُّها إلى الخشوع بَعْد بُعْدها عنه، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسُّب من العبد بعد نفورها منه كما يحيي الأَرض بعد أَن كانت ميِّتةً غبراءَ، وباقي الآية بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

قرأ جمهور القراءِ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصَّادالمفتوحة، على معنى المتصدِّقين، وكذا هي في مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ» بالتَّاءِ، وهو يؤيد هذه القراءَة، وأَيضاً فيجيءُ قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ ملائماً في الكلام للصدقة، وقرأ ابن كثير، وأَبو بكر عن عاصم: ﴿إِنَّ المُصَدِّقِين﴾ بتخفيف الصاد، على معنى الذين صَدَّقوا رسول الله ﷺ فيما بَلَّغ عن الله تعالى، وآمنوا به، ويؤيد هذه القراءَة أَنها أَكثر تناوُلاً للأُمَّة لأَن كثيراً ممَّن لا يتصدَّق تعمه اللفظة في التصديق، ثم إن تقييدها بقوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ يردُّ مقصد القراءَتين بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ معطوف على المعنى؛ لأَن معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾: إن الذين تَصَدَّقُوا، ولا يصحُّ هنا عطفٌ لفظيٌّ، قاله أَبو علي في الحُجَّة، وقد تقدَّم معنى «القَرْض» ومعنى «المُضاعفة» التي وعَدَ اللهُ

تعالى بها هذه الأُمَّة، وتقدَّم معنى وصف الأَجْر بالكرم، كل ذلك في هذه السُّورة.

ويؤيد عندي قراءَة من قرأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بشدِّ الصاد أَن الله تعالى حضَّ في هذه السُّورة على الإِنفاق في سبيل الله، ثم ذكر في هذه أَهل الصَّدقة ووعدهم، ثم ذكر أَهل الإِيمان والتصديق في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، وعلى قراءَة من قرأَ: ﴿إِنَّ المُصَدِقِينَ﴾ بتخفيف الصَّاد فَذِكْرُ المؤمنين مكرر في اللفظ، وكون الأَصناف مفردة بأَحكامها من الوعد أَبْيَن، والإِيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإِيمان بجميع الرُّسل عليهم السلام، فلذلك قال تعالى: [وَرُسُلِهِ].

و«الصِّدِّيقُونَ» بناءُ مبالغة من الصدق، أَو من التصديق على ما ذكر الزجاج: «وفِعِّيل لا يكون ـ فيما أَحفظه ـ إِلاَّ من فعل ثلاثي، وقد أَشار بعض الناس إِلى أَنه يجيءُ من غير الثلاثي، وقال: «مِسِّيكٌ» من «أَمْسَكَ»، وأَقول إِنه يقال: مَسَكَ الرجلُ، وقد حُكي: مَسَكَ الشيءَ، وفيه نظر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، اختلف الناسُ في تأْويل ذلك ـ فقال ابن مسعود، ومجاهد، وجماعة: [والشُّهَدَاءُ] معطوف على قوله تعالى: [الصِّدِّيقُونَ] والكلام متصل، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال ـ فقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأَنهم صِدِّيقون وشهداءُ، فكلُّ مؤمن شهيدٌ، قاله مجاهد، وروى البراءُ بن عازب رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «مُؤْمِنُو أُمَّتي شهداءُ»، وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية[1]، وإِنما خصَّ رسول الله ﷺ ذكر الشهداءِ السبعة تشريفاً، ولأَنهم في أَعلى رتب الشهادة، أَلا ترى أَن المقتول في سبيل الله مخصوص أَيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به، وقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأَنهم صِدِّيقون وشُهداءُ لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2]، فكأَنه تبارك وتعالى قال في هذه الآية: هم أَهل الصِّدق والشَّهادة على الأُمم عند ربِّهم، وقال ابن عباس، ومسروق، والضحاك: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، وقوله تعالى: [والشُّهَدَاءُ] ابتداءٌ مستأْنف، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف ـ فقال بعضها: معنى الآية: والشهداءُ فإِنهم صِدِّيقون

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن البراء بن عازب.

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الحج).



حاضرون عند ربِّهم، وعنى بـ«الشُّهَدَاءِ» الأنبياءَ عليهم السلام، فكأن الأنبياءَ عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بأنهم صِدِّيقون، وهذا يفسِّره قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1]، وقال بعضها: قوله تعالى: والشُّهَدَاءُ] ابتداءٌ يريد به الشهداءَ في سبيل الله، واستأنف الخبر عنهم بأنهم عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم، فكأنه تعالى جعلهم صنفاً مذكوراً وحده، وفي الحديث: «إنَّ أهل الجنة العُلْيا يراهم مَنْ دونهم كما ترون الكوكب الدُّرِّيَّ، وإن أبا بكر وعمر منهما وأنعما»[2].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداءِ فقط على الأخير من الأقوال، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة الأُول، وقوله تعالى: [وَنُورُهُم] قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما رُوي مما تقدم ذكره في هذه السورة، وقال مجاهد وغيره: هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها.

ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل الكرامة عقَّب تعالى بذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق، فذكرهم تعالى بأنهم أصحاب الجحيم وسُكَّانه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

هذه آية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضَعَة منزلتها، و[أَنَّمَا] سادَّة مسدَّ المفعولين للعلم لأنها لا تدخل على اثنين، وهي ـ وإن كفَّت عن العمل ـ فالجملة بعدها نافية. و«الحياة الدنيا» في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله، وما كان من الضرورات التي

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، وابن حبان في صحيحه، عن أبي سعيد، وأخرجه الطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة، وابن عساكر عن أبي هريرة وعن أبي عمرو ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث صحيح.

تقيم الأَود وتُعين على الطاعات، فلا مدخل له في هذه الآية، وتأمل حالة الملوك بعد فقرهم يبن لك أَن جميع ترفهم لعبٌ ولهو. و«الزِّينةُ» التَّحسين الذي هو خارج من ذات الشيءِ، و«التفاخر» هو بالأَنساب والأَموال وغيرها، و«التَّكاثُر» هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العِزَّة للكاثر على المذهب الجاهلي[1].

ثم ضرب تعالى مثلاً للدنيا، فالكاف في قوله تعالى: [كَمَثَلِ] في موضع رفع صفة لما تقدم، وصورة هذا المثل أَن الإِنسان ينشأُ في حجر مملكة فما دون ذلك، فيشبُّ ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس، ثم يأْخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أَمْرُه، وتصير أَمواله لغيره وتتغير رسومه، فأَمْره مثل مطر أَصاب أَرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات مُعجب أَنيق، ثم هاج، أَي يَبِسَ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضْمَحَلَّ.

واختلف المتأَولون في لفظة [الْكُفَّار] هنا ـ فقال بعض أَهل التأْويل: هو من الكفر بالله تعالى، وذلك أَنهم أَشد تعظيماً للدنيا، وأَشد إِعجاباً بمحاسنها، وقال آخرون منهم: هو من «كَفَر الْحَبَّ» أَيْ سَتَرَه في الأَرض، وهم الزُّراع، وخصَّهم بالذكر لأَنهم أَهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إِلاَّ المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه، و«هَاجَ الزَّرْعُ» معناه: يَبس واصْفَرَّ، و«حُطام» بناءُ مبالغة، يقال: حطيم وحُطَام بمعنى محطوم أَو محتطم، كعجيب وعُجاب بمعنى معجب أَو مُتَعَجَّب منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، كأَنه تعالى قال: والحقيقة ما هنا... ثم ذكر العذاب أَوَّلاً تَهَمُّماً به من حيث الحذر في الإِنسان ينبغي أَن يكون أَولاً، فإِذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أَمله، فذكَر اللهُ تعالى ما يَحْذَرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرِّضوان، وروي عن عاصم ضمُّ الراءِ من [وَرُضْوَانٌ].

و«مَتَاعُ الْغُرُور» معناه: الشيءُ الذي لا يُعَظِّمُ الاستمتاعَ به إِلاَّ مُغْتَرٌّ، وقال عكرمة وغيره: متاع الغرور: القوارير[2]، لأَن الفساد والآفات تسرع إِليها، فالدنيا كذلك أَو هي أَشد.

---

(١) الكاثر هو الكثير، قال الأعشى:

وَلَسْتَ بالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلكَاثِرِ

(٢) لأنها معرضة للكسر.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حجة عند جميع العلماءِ في الندب إلى الطّاعات، وقد استدل بها بعضهم على أن أَوَّل أَوقات الصلوات أَفضل لأنها تقتضي المسارعة والمسابقة، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أَشياءَ هي على جهة المثال، فقال قوم من العلماءِ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ معناه: كونوا في أَول صف في القتال، وقال آخرون ـ منهم أَنس بن مالك رضي الله عنه ـ: اشهدوا تكبيرة الإِحرام مع الإِمام، وقال آخرون ـ منهم علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ معناه: كن أَول داخل في المسجد وآخر خارج منه، وهذا كله على جهة المثال.

وذكر تعالى العَرْض من الجنة إِذ المعهود أَنه أَقل من الطول، وقال قوم من أَهل المعاني: عبَّر عن المساحة بالعَرْض، ولم يقصد أَن طولها أَكثر ولا أَقل، وقد ورد في الحديث أَن سقف الجنة العرش، وورد في الحديث أَن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وأَن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة[1].

وقوله تعالى: [أُعِدَّتْ] ظاهره أَنها مخلوقة الآن مُعدَّة، ونصَّ عليه الحسن في كتاب النقاش.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾، قال ابن زيد: المعنى: ما حدث من حادث خيرٍ أَو شرٍّ، فهذا على معنى لفظ «أَصاب» لا على عُرف المصيبة فإِن عُرفها في الشرِّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إِنه أَراد عُرْف المصيبة، وخصها

(١) رواه ابن جرير في تفسيره، عن ابن زيد، عن أبيه، وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذرٍّ، وأخرجه الآجُرِّي، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده، والبيهقي وذكر أنه صحيح، ولفظه كما ذكره ابن مردويه أن أبا ذرٍّ سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة».



بالذِّكر لأَنها أَهم على البشر، وهي بعض من الحوادث، فدلَّ على أَن جميع الحوادث خيرها وشرِّها كذلك، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يريد: بالموت والأَمراض وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ معناه: إلاَّ والمصيبة في كتاب، و[نَبْرَأَهَا]: نخلقها، يقال: برأَ اللهُ الخَلق، أَي خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على الأَرض، وقيل: على الأَنفس، قاله ابن عباس، وقتادة، وجماعة، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معان صحاح لأَن الكتاب السابق أَزلي قبل هذه كلها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأَشياءِ كلها في كتاب.

وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: فعل الله تعالى هذا كله وأَعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلَّة اكترائكم بأَمر الدُّنيا، فلاتحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أَحد لا يحزن ويفرح ولكن من أَصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أَصاب خيراً فجعله شكراً، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [أَتَاكُمْ] على وزن فعل ماض، وهذا ملائم لقوله تعالى: [فَاتَكُمْ]، وقرأَ الباقون من السبعة: [آتَاكُمْ] على وزن «أَعْطَاكُمْ» بمعنى: آتاكم اللهُ تعالى: وهي قراءَة الحسن، والأَعرج وأَهل مكة، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «أُوتِيتُمْ»، وهي تؤيد قراءَة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أَن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أَدَّى إِلى الاختيال والفخر، وأَما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشُّكر والتواضع فأَمر لا يستطيع أَحد دفعه عن نفسه، ولا حرج فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

اختلف النحاة في إعراب [الَّذِينَ]، فقال بعضهم: هو في موضع رفع على الابتداءِ والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم، وحذفه على جهة الإِبهام نحو حذف الجواب



في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية[١]، وقال بعضهم: هو رفع على خبر الابتداءِ، تقديره: هم الذين يبخلون، وقال بعضهم: هو في موضع نصب بإضمار «أعني» أو نحوه، وقال بعضهم: هو في موضع نصب صفة لـ[كُلَّ] لأن [كُلَّ] وإن كان نكرة فهو تخصيص لنوع مَّا، يسوغ لذلك وصفُه بالمعرفة، وهذا هو مذهب الأخفش. و[يَبْخَلُونَ] معناه: بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بألسنتهم، ويحتمل أن يريد أنهم يُقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرون، وقرأ الحسن: [بِالْبَخَلِ] بفتح الخاءِ والباءِ، وقرأ جمهور القراءِ وأهل العراق: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بإثبات [هُوَ]، وكذلك في إمامهم، وقرأ نافع، وابن عامر: [فإن الله الغني الحميد] بترك [هُوَ] وهي قراءَة أهل المدينة، وكذلك في إمامهم، وهذا لم يثبت قراءَةً إلاَّ وقد قرىء على النبي ﷺ، قال أبو علي: فهو في القراءَة التي ثبت فيها يَحْسُنُ أَنْ يكون فصلاً ولا يَحْسُنُ أن يكون ابتداءً؛ لأن حذف الابتداءِ غير سائغ.

و«الكتاب» اسم جنس لجميع الكتب المنزلة، و«الميزان»: العدلُ في تأويل أكثر المتأولين، وقال ابن زيد وغيره من المتأولين: أراد الموازين المتصرفة بين الناس، وهذا خير[٢] من القول الأول، وقوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، عبَّر تعالى عن خلقه واتِّخاذه بالإنزال، كما قال تعالى في الثمانية الأزواج من الأنعام[٣]، وأيضاً فإن الأمر بِكَوْن الأشياءِ لما كان يُلقى من السماءِ جعل الكل نزولاً منها، وقال جمهور كثير من المفسرين: الحديد هنا أراد به جنسه من المعادن وغيرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه السَّنْدَان والكَلْبَتَان والميقَعَةُ[٤]. وقال حذَّاقٌ من المفسرين: أراد به السلاحَ، ويترتب معنى الآية: فإن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسلاً، وأنزل كُتُباً وعدلاً

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد).

(٢) في بعض النسخ «وهذا جزء من القول الأول».

(٣) في قوله تعالى في الآية (٦) في سورة الزُّمَر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

(٤) السندان: قطعة من الحديد يطرق الحداد عليها ما يريد تشكيله من الحديد، والكَلْبتان: أداة يأخذ بهاالحداد الحديد من النار (كمَّاشة)، والمِيقعة: المطرقة.

مشروعاً، وسلاحاً، يحارب بها من عاند ولم يَهْتَد بِهَدْيِ الله، فلم يبق عُذْرٌ، وفي الاية ـ على هذا التأويل ـ حضٌّ على القتال وترغيب فيه، وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِيَعْلَمَهُ موجوداً، فالتَّغَيُّر ليس في عِلْم الله تعالى، بل في هذا الحَدَث الذي خرج من العدم إلى الوجود، وقوله تعالى: [بِالْغَيْبِ] معناه: ما سمع من الأوصاف الغائبة عنه فآمن بها لقيام دلالة عليها، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبيِّن أنه لا حاجة به إلى النُّصرة لكنها نافعة من عظَّم بها نفسه من الناس.

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشريفاً لهما بالذِّكر، ولأنهما من أول الرسل عليهم السلام، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما، وقوله تعالى: [وَالْكِتَابَ] يعني الكتب الأربعة فإنها جميعاً في ذريَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فَسَقَ وعَنَدَ، فكذلك ـ بل أَحْرَى ـ جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[قَفَّيْنَا] معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي جاءَ بالثاني في قفا الأَول، فيجيءُ الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأْتي في أَواخر أَبيات الشِّعر، ثم ذكر تعالى عيسى عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً، وقرأَ الحسن: [الأَنْجِيلَ] بفتح الهمزة، قال أَبو الفتح: هذا مثال لا نظير له، و﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ مفعولات [جَعَلْنَا]، والجَعْلُ في هذه الآية بمعنى: الخَلْق، وقوله تعالى: [ابْتَدَعُوهَا] صفة لـ[رَهْبَانِيَّةً]، وخصَّها بأَنها ابتُدعت لأن الرَّأفة والرَّحمة في القلب لا كسْب للإنسان فيهما، وأَمَّا الرهبانية فهي أَفعال بَدَن مع شيءٍ في القلب، ففيها موضع للتَّكسُّب، قال قتادة: الرَّأْفة والرَّحمة من الله تعالى، والرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرَّأْفة والرَّحمة

حبُّ بعضهم في بعض وتوادُّهم، والمراد بالرهبانية رفض النِّساءِ واتخاذ الصَّوامع، والمعتزلة تعرب [رَهْبَانِيَّةً] أنها نصب بإضمار فعل يفسِّره [ابْتَدَعُوهَا]، وليست بمعطوفة على الرَّأفة والرَّحمة، ويذهبون في ذلك إلى أَنَّ الإنسان يخلق أَفعاله، فيعربون الآية على هذا[١]، وكذلك أعربها أبو علي.

ورُوي في ابتداعهم الرَّهبانيَّة أَنهم افترقوا ثلاث فرق: ففرقة قاتلت الملوك على الدين فَغُلبت وقُتلت، وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدِّين ويُبيِّنونه، ولم تُقاتل، فأَخذتها الملوكُ فنشرتها بالمناشير، وقُتلوا، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصَّوامع والدِّيارات، وطلبت أَن تسلم قبل أَن تعتزل فتركت وذاكَ، وتَسَمَّوْا بالرُّهبان[٢]، واسمهم مأْخوذ من الرهب وهو الخوف، وهذا هو ابتداعهم، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاءَ رضوان الله، هذا تأْويل أَبي أُمَامَةَ وجماعة، وقال مجاهد: المعنى: كتبناها عليهم ابتغاءَ رضوان الله، فـ«كَتَبَ» ـ على هذا ـ بمعنى: قَضَى، ويحتمل اللفظ أَن يكون المعنى: ما كتبناها عليهم إلاَّ في عموم المندوبات؛ لأَن ابتغاءَ رضوان الله تعالى بالقُرب والنوافل مكتوب على كل أُمَّة، فالاستثناءُ ـ على هذا الاحتمال ـ متَّصلٌ.

واختلف النَّاسُ في الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، مَن المراد به؟ فقيل: إنَّ الذين ابتدعوا الرَّهبانيَّة لأَنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفَّوْهُ حقَّه، بل غيَّروا وبدَّلوا، قاله ابن زيد وغيره، والكلام سائغ وإن كان فيهم مَن رَعَى، أَي: لم يرعوها بأَجمعهم، وفي هذا التأْويل لزوم الإتمام لكل من بدأَ بتَنَفُّل وتطوُّع، وأَنه يلزمه أَن يرعاه حقَّ رعاية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأَجلوهم، وقال الضحاك وغيره: الضمير للأَخلاف الذين جاءُوا بعد المبتدعين لها، وباقي الآية بيِّنٌ، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ لكِنْ ابْتَدَعُوهَا».

---

(١) في بعض النسخ: «فَيَكْذِبُونَ»، وفي بعضها «فيعذِّبون» بدلا من «فيُعربون الآية على هذا»، ولعلَّ في هذا الكلام ما ينفي تهمة الاعتزال عن ابن عطية، وهي تهمة أَلصقها به بعضهم وأَشرنا إليها مراراً في هذا التفسير، وبخاصة في المقدمة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، من طرق، عن ابن مسعود، وذكره الإمام السيوطي في الدرِّ المنثور وفي أوله زيادة على ما هنا.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾، اختلف النَّاس، مَن المخاطب بهذا؟ فقالت فرقة من المتأولين: خوطب بها أَهل الكتاب، فالمعنى: يا أَيُّهَا الذين آمنوا بعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح عن النبي ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين، رجل من أَهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي» الحديث[١]، وقال آخرون: المخاطبة للمؤمنين من أُمَّة محمد ﷺ، قيل لهم: يا أَيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله، أَي اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، وهذا هو معنى الأَمر أبداً لمن هو متلبِّس بما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أَي نصيبين بالإِضافة إلى ما كان الأُمم قبلُ يعطونه، قال أَبو موسى الأَشعري رضي الله عنه: «كِفْلَيْنِ»: ضعفين بلسان الحبشة، ورُوي أَن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأَحبار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ فقال: ثلاثمائة وخمسون، فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح الذي يقتضي أَن اليهود عملت إِلى نصف النهار على قيراط، والنصارى من الظهر إِلى العصر على قيراط، وهذه الأُمة من العصر إِلى الليل على قيراطين، فلمَّا احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا: نحن أَكثر عملاً وأَقلُّ أَجراً، قال تعالى: هل نقصتكم من أَجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإِنَّه فضلي أُوتيه من أَشاءُ[٢]. و«الكِفْلُ»: الحظُّ والنَّصيب. و«النُّور» هنا إِمَّا أَن يكون وعداً

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، والنسائي، وابن ماجه، وهو عن أبي موسى، وقد ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالصحة، ولفظه كما جاء فيه: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حق الله تعالى وحق سيِّده، فله أجران، ورجل كانت له أَمَةٌ فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران».

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، وأحمد في مسنده (٢ـ١٢٩)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأُعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربَّنا، لِمَ أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً منهم؟ قال الله تعالى: هل ظلمتكم من أُجوركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أُوتيه من أشاءُ».



بالنُّور الذي يسعى بين الأَيدي يوم القيامة، وإِمَّا أَن يكون استعارة للهدى الذي يُمْشَى به في طاعة الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

رُوي أَنه لمَّا نزل هذا الوعد للمؤمنين، حسد أَهلُ الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تعظِّم دينها وأَنفسها، وتزعم أَنها أَحباءُ الله وأَهل رضوانه، فنزلت هذه الآية مُعلمة أَن الله تعالى فعل ذلك وأَعلم به، ليعلم أَهل الكتاب أَنهم ليسوا كما يزعمون، و«لاَ» في قوله تعالى: (لِئَلاَّ) زائدة، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(١)] على بعض التأْويلات. وقرأَ ابن عباس، والجحدري: [لِيَعْلَمَ]، وروى إِبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كَيْ يَعْلَمَ»، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لكَيْلاَ يعْلم»، وروي عن حِطَّان الرقاشي[(٢)] أَنه قرأَ: [لأَن يعلم]، وقرأَ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة: [لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ]، وقرأَ الحسن ـ فيما روى ابن مجاهد ـ: [لَيْلاَ يَعْلَمْ] بفتح الَّلام الأُولى وسكون الياءِ، فأَمَّا فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة، وأَصْلُ هذه القراءَة: «لأَنْ لاَ»، استغني عن الهمزة بلام الجرِّ فحذفت فجاءَ «لَنْ لاَ»، فأُدغمت النون في اللام للتشابه فجاءَ «لَلاَّ»، فاجتمعت أَمثلة فقلبت اللام الواحدة ياءً[(٣)]. وقرأَ الحسن ـ فيما روى مطرف ـ: [لِيْلاَ] بكسر اللام الأُولى وسكون الياءِ، وتعليلها كالتي تقدمت.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ معناه أَنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى، ولا يدخل تحت قدرتهم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [أَلاَّ يَقْدِرُوا] بغير نون. وباقي الآية بَيِّنٌ.

كمل تفسير سورة الحديد والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) من الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء).

(٢) حِطَّان بن عبد الله الرقاشي البصري، ثقة، من الثانية، مات في ولاية بشر على العراق، بعد السبعين، (تقريب التهذيب).

(٣) راجع «المحتسب» لأبي الفتح بن جني ففيه توضيح لذلك وتدليل بالأمثلة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية بإجماع، إلاَّ أَن النقاش حكى أَن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآيةَ مكيٌّ[١]، وروى أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأَ سورة المجادلة كُتب من حزب الله»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا الَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ②﴾.

﴿سَمِعَ اللَّهُ﴾ عبارة عن إِدراك المسموعات على ما هي عليه بأَكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكييف ولا تحديد، (تعالى الله عن ذلك)، وقرأَ الجمهور: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالبيان، وقرأَ ابن مُحَيْصن: [قد سَّمِعَ] بالإِدغام، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [قَدْ يَسْمع اللهُ]، وفيها: [واللهُ قد يَسْمع تحاورَكُمَا].

واختلف الناس في اسم التي تجادل ـ فقال قتادة: هي خوَيْلة بنت ثعلبة، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: هي بنتُ حكيم، وقال بعض الرواة، وأَبو العالية: هي خُوَيْلة بنت دليج، وقال المهدوي: وقيل: خولة بنت دليج، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي جميلة، وقال ابن إِسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: خَوْلَة بنتُ خُوَيْلد، وقال محمد بن كعب القُرَظي، ومنذر بن سعيد: هي خولة بنت ثعلبة.

قال ابن سلام: [تُجَادِلُ]: تقاتل في القول، وأَصْلُ «الجَدْل»: الفَتْل.

---

(١) وقال ذلك الكلبي، وحكى القرطبي أنها مدنية في قول الجميع، إلا رواية عن عطاءٍ أن العشر الأُول منها مدني، وباقيها مكي.

(٢) لم أقف عليه.



وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أَوْسُ بن الصامت الأنصاري[١]، أخو عُبادة بن الصامت، وحكى النقاش ـ وهو في المصنفات ـ حديثاً عن سَلَمة بن صخر البياضي[٢] أنه ظاهر من امرأته إنْ واقعها مدة شهر رمضان، فواقعها ليلة، فسأل قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ فأبَوْا وهابوا ذلك، وعظَّموا عليه جريرته، فذهب هو إلى رسول الله ﷺ بنفسه فسأله واسترشد، فنزلت الآية وقال له رسول الله ﷺ: أتعتق رقبة؟ فقال: والله ما أملك غير رقبتي، فقال: أتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: يا رسول الله وهل أتيتُ إلاَّ في الصوم؟ فقال: أتطعم ستين مسكيناً؟ فقال: لا أجد، فأعطاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فكفَّر بها، فرجع سَلَمة إلى قومه فقال: إني وجدت عندكم الشدَّة والغلظة، ووجدت عند رسول الله ﷺ الرخصة والرفق، وقد أعطاني صدقاتكم[٣].

وأما ما رواه الجمهور في شأن أَوس بن الصامت فاختصاره أَن أَوْساً ظاهر من امرأته خولة بنت خُوَيْلد، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقةً مُؤَبَّدةً، قاله أبو قلابة وغيره، فلما فعل ذلك جاءَت زوجتُه رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أَوساً أَكل شبابي، ونثرتُ له بطني، فلما كبرتُ ومات أَهلي ظاهرَ مني، فقال رسول الله ﷺ: ما أَراك إلاَّ حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله لا تفعل؛ إني وحيدة ليس لي أَهل سواه، فراجعها رسول الله ﷺ بمثل مقالته، فراجَعَتْهُ، فهذا هو مجادلتُها، وكانت في خلال جدالها تقول: اللهم إليك أَشكو حالي وانفرادي وفقري إليه، وروي أَنها كانت تقول: اللهم إن لي منه صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا،

---

(١) هو أوس بن الصامت بن قيس، الخزرجي، الأنصاري، أخو عبادة بن الصامت، ذكروه فيمن شهد بدراً، قال ابن حبان: مات في أيام عثمان وله خمس وثمانون سنة، وقيل: مات سنة أربع وثلاثين بالرملة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. (الإصابة). وقد ذكرت أكثر المصادر والروايات أنه هو الذي ظاهر من زوجته.

(٢) هو سَلَمة بن صخر بن سليمان بن الصِّمة ـ بكسر الصاد وشد الميم كما في المغني ـ الأنصاري، الخزرجي، ويقال: سلمان، ويقال له البَيَاضيُّ، صحابي، قال البغوي: لا أعلم له حديثاً مسنداً إلا حديث الظِّهار. (الإصابة).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، وذكر البغوي أن الذين رَوَوْا عنه حديث الظِّهار هم: سعيد بن المسيَّب، وسليمان بن يسار، وأبو سلمة، وسماك بن عبد الرحمن، ومحمد بن عبد الرحمن. (راجع الإصابة والدر المنثور).



فهذا هو اشتكاؤُها إلى الله، فنزل الوحي ـ عند جدالها ـ على رسول الله ﷺ بهذه الآية، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها، فكانت تقول: سبحان مَنْ وَسِعَ سمعُه الأَصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خَوْلة يخفى علي، وسمع الله تعالى جدالَها، فبعث رسولُ الله ﷺ في أَوْس وقال له: أَتعتق رقبة؟ فقال: والله ما أَملكها، فقال: أَتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله ما أَقدر أَن أَصبر إلاَّ على أَكلات ثلاث في اليوم، ومتى لم أَفعل ذلك غشي بصري، فقال له: أَتطعم؟ فقال: لا أَجد إلاَّ أن يُعينني رسول الله بمعونة وصلاة ـ يريد الدعاءَ ـ، فأَعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودَعَا لَهُ، وقيل: بثلاثين صاعاً، فكفَّر بالإطعام وأَمْسَك أَهله.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «تُحاورُكَ في زوجها»، والمحاورةُ: مراجعةُ القول ومعاطاتُه، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو: [يَظَّهَّرُونَ] بالتشديد، وقرأَ أُبيُّ بن كعب ـ بخلاف عنه ـ: [يَتَظَهَّرُون]، وقرأَ ابن عامر، وحمزة والكسائي: [يَظَّاهَرُونَ]، وقرأَ أُبيُّ بن كعب أَيضاً: [يَتَظَاهَرُونَ]، وقرأَ عاصم، وأَبو جعفر، والحسن، وقتادة: [يُظَاهِرُونَ] بضم الياءِ من قولك «فَاعَلَ»، وهذه مستعملة جدًّا، وقولهم: «الظِّهَارُ» دليلٌ عليها، والمراد بهذا كله قول الرجل لامرأَته: أَنت عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي، يريد: في التحريم، كأَنه إشارة إلى الركوب إذْ عُرْفُه في ظهور الحيوان، وكان أَهل الجاهلية يقولون ذلك، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم، وأَخبر بالحقيقة من أَن الأُمَّ هي الوالدة، وأَما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأُمِّ. وقرأَ جمهور الناس: [أُمَّهَاتهمْ] بنصب الأُمَّهات، وقرأَ عاصم ـ في رواية المفضل عنه ـ: [أُمَّهَاتُهُمْ] بالرفع، وهذا على اللغتين في [مَا]، لغة أَهل الحجاز ولغة تميم، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [مَا هُنَّ بأُمَّهَاتِهِمْ] بزيادة باءِ الجرِّ، وجعل الله تعالى القول بالظهار مُنكراً وزوراً، فهو مُحَرَّم لكنه إذا وقع لزم، هكذا قال فيه أَهل العلم، لكن تحريمه تحريم المكروهات جدًّا، وقد رَجَّى الله بعده بأَنه عَفُوٌّ غفورٌ مع الكفَّارة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾.



اختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ ـ فقال قوم: المعنى: والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية، كأنه تعالى قال: والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام، وقاله القتبي، وقال أهل الظاهر: المعنى: والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثانية، فلا تلزم عندهم كفارة إلاَّ بأن يعيد الرجل التظاهر، قال مُنذر بن سعيد: حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيريُّ قد حكاه عن بُكَير بن عبد الله بن الأَشج(١)، وقال بعض الناس: في هذه الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: «فتحرير رقبة لما قالوا»، وهذا أيضاً قولٌ يُفْسد نَظْم الآية، وحُكي عن الأخفش لكنه غير قوي، وقال قتادة، وطاوس، ومالك، والزهري، وجماعة كبيرة من أهل العلم معنى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي بالوطءِ، المعنى: ثم يعودون لما قالوا إنَّهم لا يعودون إليه، فإذا ظاهر الرجل ثم وَطِىءَ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طَلَّق أَو ماتت امرأته، وقال الشافعي، وأبو حنيفة، ومالك أيضاً، وفريق من أهل العلم: [يَعُودُونَ] معناه: بالعزم على إمساك الزوجة وَوَطْئِهَا والتزام التكفير لذلك، فمتى وقع من المظاهِر هذا العزم فقد لزمت الكفارة ذمته، طلَّق أو ماتت امرأته، وهذان القولان في مذهب مالك، وهما حَسَنان، لزمت الكفارة فيهما بشرطين: ظِهَارٌ وَعَوْدٌ واختلف في «العَوْد»، ما هو؟ فقال الشافعي: العَوْد الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بَعْد الظِّهار، وبِمُضيٍّ ـ بعد الظِّهار ـ ما يمكنه أَن يُطلِّق فيه فلا يُطلِّق.

و«الرَّقَبَة» في الظِّهار لا تكون عند مالك إلاَّ مؤمنة، ردَّ هذا المُطْلَق إلى المُقَيَّد الذي في كفارة القتل الخطأْ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ـ فقال الحسن، والثوري، وجماعة: من قَبْل الوطءِ، وجَعَلَت المسيس ها هنا: الوطءَ، فأَباحت للمظاهِر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأَة كالحيض، وقال الجمهور من أَهل العلم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ عامٌ في نوعَي المسيس: الوطءِ والمباشرة، فلا يجوز لِمُظَاهر أَن يطأَ ولا يقبِّل ولا يلمس بيده ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلاَّ بعد الكفارة، وهذا قول مالك

(١) اختلفت الأصول في كتابة اسمه، فبعضهم كتبه «بكر»، وبعضهم كتبه «بشر»، والصواب أن ابن الأشج اسمه بُكَيْر، قال عنه في «تهذيب التهذيب»: «من أعلم أهل عصره بالحديث»، وقال عنه في «تقريب التهذيب»: «أبو عبد الله، أو أبو يوسف، مولى بني مخزوم، المدني، نزيل مصر، ثقة، من الطبقة الخامسة، مات سنة عشرين».



رحمة الله، وقوله تعالى: [ذَلِكُمْ] إشارة إلى «التَّحرير»، أَي فَعَل ذلك عِظَةً لكم لتنتهوا عن الظِّهَار.

و«المُتَتَابِعُ» في الشهرين صيامُهما، ولا يفرق بين أَيامهما، وجائز أَن يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين يوماً تباعاً، وجائز أَن يصومهما بالأَهلة، يبدأُ مع الهلال ويفطر مع الهلال، فإن جاءَ أَحد شهريه ناقصاً فذلك يجزىءُ عنه، وجائز أَن يبدأَ صومه في وسط شهرين بِبعض الشهر الأَول فيصوم إلى الهلال، ثم يصوم شهراً بالهلال، ثم يُتم الشهر الأَول بالعدد، ولا أَحفظ خلافاً من أَهل العلم أَن الصائم في الظِّهار إن أَفسد التتابع باختياره أَنه يبدأُ صومهما، واختلف الناس إذا أَفسده لعذر غالب كالمرض والنسيان ونحوه ـ فقال أَصحاب الرأْي، والشافعي في أَحد قوليه، والنَّخعي، وابن جبير، والحكم بن عُيينة، والثوري: يبتدىءُ، وقال مالك، والشافعي، وغيره: يَبْني، وأَجمعوا على الحائض أَنها تبني في صومها المُتتابع.

وإطعامُ المساكين في الظِّهار هو بالمُدِّ الهاشمي عند مالك، وهو مُدٌّ وثلث بِمُدِّ النبي ﷺ، وقيل: مُدَّان غير ثُلث، وروى ابن وهب أَنه يطعم مُدَّين بِمُدِّ النبي ﷺ، وفي العلماءِ من يرى إطعام الظِّهار مُدًّا بمُدِّ النبي ﷺ، ولا يُجزىءُ في إطعام الظِّهار إلاَّ إكمال عدد المساكين، ولا يُجزىءُ أَن يُطعم ثلاثين مَرَّتين ولا ما أَشبهه، والطعام هو غالب قوت البلد. وقال مالك، وعطاءٌ، وغيره: إطعام المساكين أَيضاً هو قبل التَّماسِّ حَمْلاً على العتق والصوم، وقال أَبو حنيفة، وجمهور من أَهل العلم: لم يَنُصَّ اللهُ تعالى على الشرط هنا فنحن لا نلزمه، وللمُظَاهر إذا كان من أَهل الإطعام أَن يطأَ قَبْل الكفارة ويستمتع.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام، ثم شدَّد تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، أَي فالتزموها وقفوا عندها، ثم توعَّد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا



خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يَتَمَرَّسُون[1] برسُول الله ﷺ، ويتربصون[2] به الدوائر، ويديرون عليه[3]، ويتمنون فيه المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآياتُ إلى آخر أمر النجوى فيهم.

و«المُحَادَّةُ»: أَن يعطي الإِنسان صاحبه حدَّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله، وقال قوم: هي أن يكون الإِنسان في حدٍّ وصاحبه في حدٍّ مخالف. و«كُبِت الرجلُ» إِذا بقي حزيناً يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه، وقال قوم ـ منهم أبو عبيدة ـ: أَصْلُه: كُبِدُوا، أَيْ أَصابهم داءٌ في أَكبادهم، فأُبدلت الدال تاءً، وهذا غير قوي. و(ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) هم منافقو الأُمم الماضية الذين حادُّوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد: في هذا القرآن، فليس هؤلاءِ المنافقون بأَعذر من المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، العامل في [يَوْمَ] [مُهِينٌ]، ويحتمل أَن يكون فعلاً مضمراً تقديره: اذكر. وقوله تعالى: (وَنَسُوهُ) نسيانٌ على بابه؛ لأَن الكافر لا يحفظ تفاصيل أَعماله، ولما أَخبر تعالى أنه على كل شيءٍ شهيد وَفَّقَ محمداً ﷺ توفيقاً تشاركه فيه أُمته.

وقوله تعالى: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾، يحتمل [نَجْوَى] أَن يكون مصدراً مضافاً إِلى [ثَلاثَةٍ]، كأَنه تعالى قال: مِن سِرَار ثلاثة، ويحتمل [نَجْوَى] أَن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّي بالمصدر، كما قال تعالى في آية أُخرى: ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[4]، أَي أُولُو نجوى، فيكون قوله تعالى: [ثَلاثَةٍ] ـ على هذا ـ بدلاً من [نَجْوَى] أَو صفة، وفي هذا نظر، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أَي بعِلْمِهِ وإِحاطته ومقدرته، وقرأَ جمهور

(١) تمرَّس به: احتك به.
(٢) تربَّص به: انتظر أن يحلَّ به شَرٌّ أو خير، وهم هنا ينتظرون الشرَّ.
(٣) أداره عن الأمر وعليه وداوره: لاوَصَهُ، يقال: أدرتُ فلاناً على الأمر إذا حاولتُ إلزامه إياه، وأدرته عن الأمر إذا طلبتُ منه تركه.
(٤) من الآية (٤٧) من سورة (الإسراء).



الناس: ﴿مَّا يَكُونُ﴾، وقرأ أبو جعفر القارىء، وأبو حَيْوَة: ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتاءَ منقوطة من فوق، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ أَربعَة إلاَّ اللهُ خامسهم]، وكذلك: [إلاَّ اللهُ رابِعُهُم] و[إلاَّ اللهُ سَادِسُهُم]، وقرأ جمهور القراءِ: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ عطفاً على اللفظ المخفوض، وقرأ الحسن، والأَعمش، وابن أَبي إِسحاق: [وَلاَ أَكْثَرُ] بالرَّفع عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: ما يكون نجوى، ومَنْ جعل النجوى مصدراً محضاً قدَّر قبل [أَدْنَى] فعلاً تقديره: ولا يكون أدنى، وقرأ الخليل بن أَحمد: [ولا أكبر] بالباءِ بواحدة من تحت، وباقي الآية بيِّنٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وقرأ جمهور القراءِ: [وَيَتَنَاجَوْنَ] على وزن «يَتَفَاعلون»، وقرأ حمزة، والأَعمش، وطلحة، وابن وثاب: [وَيَنتَجُونَ][١] على وزن «يفتعلون»، وهما بمعنى واحد أَبداً كَيَقْتَتِلُونَ ويتقاتلون، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «وعِصْيَان الرَّسول».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ الآية، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية: السَّامُ عليك يا محمد، وذلك أنه رُوي أَن اليهود كانت تأْتي فتقول: السَّامُ عليك يا محمد ـ والسَّامُ: الموت، وإِيَّاه كانوا يريدون ـ فكان رسول الله ﷺ يقول: وعليكم، فسمعتهم عائشة رضي الله عنها يوماً فقالت: بل عليكم السَّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يكره الفُحْش والتَّفَحُّش، قالت: أَما سمعت ما قالوا؟ قال: أَما سمعتِ ما قُلتُ لهم؟ إِني قلتُ: وعليكم[٢].

---

(١) مضارع «انْتَجَى»، جاءَ في اللسان «انْتَجَى القومُ وتَنَاجَوْا: تَسَارُّوا».

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).



ثمَّ كشف الله تعالى خُبث طويَّتهم والحُجَّة التي إليها يستريحون، وذلك أَنهم كانوا يقولون: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأُمور التي تَسوؤُه ولا يُصيبنا سوءٌ، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك، ولو كان نبيًّا لهلكنا بهذه الأَقوال، وجهلوا أَن أَمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأَخبر الله تعالى بذلك، وأَنها كافِيَتُهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية كلها في المنافقين، ويُشبه أَن يكون في المنافقين من تخلَّق بخُلُق اليهود.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأَلاَّ يكون منهم تناج في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة، وخصَّ تبارك وتعالى «الإِثم» بالذكر لعمومه، و«العُدْوان» لعظمته في نفسه؛ إذا هي ظُلاَماتُ العباد، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعناً على المنافقين إذْ كان تناجيهم في ذلك.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾ على وزن «تَتَفَاعلوا»، وقرأَ ابن محيصن: [فَلاَ تَنَاجَوْا] بحذف التاءِ الواحدة، وقرأَ بعض القراءِ: [فَلاَ تَّنَاجُوا] بتشديد التاءِ لأَنها أُدغمت في التاءِ، وقرأَ الأَعمش وأَهل الكوفة: [فَلاَ تَنْتَجُوا] على وزن «تَفْتَعِلُوا». والناس على ضم العين من [الْعُدْوَان]، وقرأَها أَبو حيوة بكسر العين حيث وقع. وقرأَ الضحاكُ وغيره: [وَمَعْصِيَاتِ الرُّسُلِ] على الجمع فيهما[1].

ثم أَمر تعالى بالتَّناجي في البرِّ والتَّقوى، وذكَّر بالحشر الذي معه الحساب ودخول إحدى الدارين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، ليست [إِنَّمَا] للحصر ولكنها لتأْكيد الخبر، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان التي أَخبر عنها في هذه الآية ـ فقال جماعة من المفسِّرين: أَرادَ: إنما النَّجوى في الإِثم والعُدوان ومعصية الرَّسول من الشيطان، وقال

---

(١) في بعض النسخ: ﴿وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ﴾ على الجمع فيها.



قتادة وغيره: الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود، وقال عبد الله بن زيد بن أسلم: الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة رسول الله ﷺ وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى ذلك، وإنما كانوا يريدون التَّنجح بذلك، وكان المسلمون يظنون أن تلك النجوى في إخبارٍ بعدُوٍّ قاصدٍ ونحوه، وهذان القولان يُعَضِّدهما ما يأتي من ألفاظ الآية، ولا يُعضِّد القول الأول. وقال عطية العوْفي[1] في هذه الآية: نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤه، وفيما يراه النائم فكأنه نجوى يناجى بها، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده.

وقرأ نافع وأهل المدينة: [لِيُحْزِنَ] بضم الياءِ وكسر الزاي، والفعل منسوب إلى الشيطان، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وعاصم، وغيرهم: [لِيَحْزُنَ] بفتح الياءِ وضم الزاي، تقول: «حَزَنْتُ قلْبَ الرَّجلِ» إذا جعلتَ فيه حُزناً، فهو كقولك: «كَحَلْتُ العين»، وهو ضرب من التعدِّي كأن المفعول ظرف، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تَعَدِّي الأفعال، وقرأ بعض الناس: [لِيَحْزَنَ] بفتح الياءِ والزاي، و[الَّذِينَ] على هذه القراءَة رفعٌ بإسناد الفعل إليهم، يقال: حَزِنَ الرجل بكسر الزَّاي.

ثم أخبر تعالى أن الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضارٍّ أحداً إلاَّ أن يكون ضرًّا بإذن الله، أي بأمره وقدره، ثم أمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كلُّه يُقوِّي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون واحد»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) هو عطية بن سعد بن جُنَادة ـ بضم الجيم وبعدها نون خفيفة ـ العَوْفي، الجَدَليُّ، الكوفي، أبو الحسن، صدوقٌ يخطىءُ كثيراً، كان شيعيا، من الطبقة الثالثة، مات سنة إحدى عشرة. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه كما جاء في الدر المنثور: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه».



قرأَ جمهور الناس: [تَفَسَّحُوا]، وقرأ الحسن، وداود بن أَبي هند(١)، [تَفَاسَحُوا]، وقرأَ جمهور القراءِ: [في المجلس]، وقرأَ عاصم وحده، وقتادة، وعيسى: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾.

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها ـ فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: نزلت في مقاعد الحرب والقتال، وقال زيد بن أَسلم، وقتادة: نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي ﷺ، وذلك أَنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إِليه، فيأْتي الرجل الذي له الحق والسنُّ والقدم في الإِسلام فلا يجد مكاناً، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال مقاتل: أَقام رسول الله ﷺ قوماً ليجلس أَشياخ من أَهل بدر ونحو ذلك، فنزلت الآية، وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال: «لا يقم أَحدٌ من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل، ولكن تفسَّحوا يفسح الله لكم»(٢)، وقال بعض الناس: إِنما الآية مخصوصة في مجلس النبي ﷺ وليس في سائر المجالس، ويدل على ذلك قراءَة من قرأَ: [في المجلس]، ومن قرأَ: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ فذلك مرادٌ أَيضاً لأَن لكل أَحد مجلساً في بيت النبي ﷺ وموضعه، فجمع لذلك، وقال الجمهور من أَهل العلم: السبب مجلس النبي ﷺ والحُكم مُطَّردٌ في سائر المجالس التي هي للطَّاعات، ومنه قول النبي ﷺ: «أَحبكم إِلى الله أَلْيَنُكُمْ مناكب في الصلاة ورُكَباً في المجالس»(٣)، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى، وقال: ما أَرى الحكم إِلاَّ يطردُ في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، ويؤيد هذا القول قراءَة من قرأَ: ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾، ومن قرأَ: [في المَجْلِسِ] فذلك ـ على هذا التأْويل ـ اسم جنس، فالسُّنَّة المندوب إِليها هي التَّفَسُّح، والقيامُ منهيٌّ عنه، وحديث النبي ﷺ حديث نهى أَن يقوم الرجلُ فيجلسُ الآخرُ في مكانه، فأَمَّا القيام إِجلالاً فجائز بالحديث، وهو قوله ﷺ

(١) هو داود بن أبي هند، القشيري، مولاهم، أبو بكر أو أبو محمد، البصري، ثقة متقن، من الطبقة الخامسة، مات سنة أربعين، وقيل قبلها. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان والجمعة، ومسلم في السلام، وأبو داود والترمذي في الأدب، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في المسند (٢ـ١٧، ٤٥، ٣٣٨)، ولفظه كما في مسند أحمد «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا».

(٣) لم أقف عليه.



حين أَقبل سعد بن معاذٍ رضي الله تعالى عنه: «قوموا إِلى سيدكم»[(١)]، وواجب على المعظَّم أَلاَّ يُحب ذلك ويأْخذ الناس به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أَحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار»[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ معناه: في رحمته وجنَّته.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ معناه: إِذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، ومنه نُشوز العظام، أَي نباتها، والنشز من الأَرض: المرتفع، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أُمروا بامتثاله، ما هو؟ فقال الحسن، والضحاك، وقتادة: معناه: إِذا دُعوا إِلى قتال أَو طاعة أَو صلاة ونحوه، وقال آخرون: إِذا دعوا إِلى القيام عن النبي ﷺ؛ لأَنه عليه الصلاة والسلام أَحياناً كان يُحب الانفراد في أَمر الإِسلام، فربما جلس قوم وأَراد كل أَحد أَن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ، فنزلت الآية آمرةً بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أَو فعل، وقال آخرون: معناه: انشزوا في المجلس بمعنى التَّفَسُّح؛ لأَن الذي يريد التوسع يرتفع إِلى فوق في الهواءِ، فإِذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع، فيجيءُ [انشُزُوا] في غرض واحد مع قوله تعالى: (تَفَسَّحُوا)، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: [انْشُزُوا] برفع الشين، وهي قراءَة أَبي جعفر، وشيبة، والأَعرج. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [انْشِزُوا] بكسر الشين فيها، وهي قراءَة الحسن، والأَعمش، وطلحة، يقال: نَشَزَ يَنْشُزُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ ويَحْشِر وعَكَفَ يَعْكُف ويَعْكِف. وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ﴾ جواب الأَمر.

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ - فقال جماعة من المتأَولين: المعنى: يرفع الله المؤمنين العلماءَ منكم درجات، فلذلك أَمر بالتَّفَسُّح من أَجلهم، ويجيءُ ـ على هذا ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ بمنزلة

---

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان، وأبو داود في الأدب، وأحمد في مسنده (٣ـ٢٢، ٦ـ١٤٢)، ولفظه فيه: عن أبي أُمامة بن سهل قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار، قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم، قال: فقال النبي ﷺ: لقد قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن معاوية، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.



قولك: جاءَني العاقلُ والكريمُ والشجاعُ، وأنت تريد رجلاً واحداً. وقال آخرون: المعنى: يرفع اللهُ المؤمنين والعلماءَ، الصِّنْفين جميعاً درجات، لكنا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أُخر، ولذلك جاءَ الأمر بالتَّفسُّح عامًّا للعلماءِ وغيرهم. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: المعنى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم»، وتمَّ القولُ، ثم ابتدأ بتخصيص العلماءِ بالدرجات، ونصبهم بإِضمار فعل، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل، وللعلماءِ درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرِّف بن عبد الله بن الشخِّير: «فضل العلم أَحب إِلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»، ثم توعَّد تعالى وحذَّر بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية، رُوي عن ابن عباس، وقتادة في سببها أَنَّ قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة إِلاَّ لتظهر منزلتهم، وكان رسول الله ﷺ سمحاً لا يردُّ أَحداً، فنزلت هذه الآية مشدِّدة عليهم في أَمر المناجاة، وقال مقاتل: نزلت في الأَغنياءِ لأَنهم غلبوا الفقراءَ على مناجاة رسول الله ﷺ وعلى مجلسه. وقال جماعة من الرواة: لم يُعمل بهذه الآية بل نُسخت قبل العمل، لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأَمر إِبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام، وصحَّ عن علي رضي الله عنه أَنه قال: ما عمل بها أَحدٌ غيري، وأَنا كنتُ سبب الرُّخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك لأَني أَردت مناجاة النبي ﷺ في أَمر ضروري، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عَشْر مرَّاتٍ، أُقدِّم في كل مرَّة درهماً، وروي عنه أَنه تصدَّق في كل مرَّة بدينار، قال عليٌّ رضي الله عنه: ثم فهم رسول الله ﷺ أَن هذه العبادة قد شقَّت على الناس، فقال لي: يا عليٌّ، كم ترى أَن يكون حدُّ هذه الصدقة؛ أَتراه ديناراً؟ قلت: لا، قال: فنصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكم؟ قلت: حبَّةٌ من شعير، قال: إِنَّكَ لزهيد، فأَنزل الله تعالى الرخصة للواجدين، وأَمَّا من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أَيامٍ، وقال قتادة: بقي ساعة من نهار، وقرأَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والنحاس، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرج مثله سعيد بن منصور، وابن راهويه، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن علي رضي الله عنه.



الجمهور من الناس: [صَدَقَةً] بالإفراد، وقرأ بعض القراءِ: [صَدَقَاتٍ] بالجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

«الإِشفاقُ»: الفزع من العجز عن الشيءِ المُتَصَدَّق به أَو من ذهاب المال في الصدقة، وله وجوه كثيرة يقال فيها الإشفاق، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت. و﴿تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: رجع بكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، معناه: دوموا على هذه الأَعمال التي هي قواعد شرعكم، ومَنْ قال إِن هذه الصدقة منسوخةٌ بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصِّل كيفية النسخ، وما ذُكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه، والله تعالى أَعلم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾. نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم، وقال الطبري: ﴿مَّا هُم﴾ يريد المنافقين، و[مِنكُمْ] يريد به المؤمنين، و[مِنْهُمْ] يريد به اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل يجري مع قوله تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[1]، ومع قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»[2]، لأَنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه، لكن هذه الآية تحتمل تأْويلاً آخر وهو أَن يكون قوله تعالى: ﴿مَّا هُم﴾ يريد به اليهود، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريد به المنافقين، فيجيءُ فعل المنافقين ـ على هذا التأْويل ـ أَخَسَّ لأَنهم تولَّوْا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا

(١) من الآية (١٤٣) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة، وفيه زيادة على ما هنا (تُعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع». ومعنى العائرة: المترددة.



من أَنفسهم فيلزمهم ذِمامُهم ولا من القوم المُحِقِّين فتكون الموالاة صواباً. وقوله تعالى: [وَيَحْلِفُونَ] يعني المنافقين؛ لأَنهم كانوا إذا وُقفوا على ما يأتون به من بُغض النبي ﷺ وشتمه وموالاة عدُوِّه حلفوا أَنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث، ورُوي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً، وإذا تُتُبِّعت في المصنفات وُجدت كقول ابن أُبَيّ: [لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ] وحلفه على أَنه لم يفعل، وغير ذلك.

و«الْعَذَابُ الشَّدِيدُ» هو عذاب الآخرة، وقرأَ جمهور الناس: [أَيْمَانَهُمْ] جمع يَمين، وقرأَ الحسن: [إِيمَانَهُمْ] أَي ما يظهرونه من الإِيمان.

و«الْجُنَّةُ»: ما يُتَستَّر به ويُتَّقَى المحذور، ومنه «المِجَنُّ» وهو التُّرْسُ، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يكون الفعل غير مُتَعَدٍّ، كما تقول: صَدَّ زيْدٌ، أَي: صدُّوا هم أَنفُسهم عن سبيل الله وعن الإيمان برسوله، ويحتمل أَن يكون الفعل متعدياً، أَي: صدُّوا غيرهم من الناس عن الإِيمان ممَّن اقتدى بهم وجرى في مضمارهم، ويحتمل أَن يكون المعنى: فصدُّوا المسلمين عن قتلهم، وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أَظهروه من الإِيمان صدُّوا به المسلمين عن ذلك، و«الْمُهين»: المُذِلُّ، من الهوان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

رُوي أَن المنافقين فخروا بكثرة أَموالهم وأَولادهم وأَظهروا السرور بذلك فنزلت الآية معلمةً أَن ذلك لا غَناءَ له عنهم ولا مدفع بسببه، والعامل في قوله تعالى: [يَوْمَ] [أَصْحَابُ] على تقدير فعل.

وأَخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أَنهم ستكون لهم أَيمان يوم القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّل إليهم بجهلهم أَنها تنفعهم وتُقبل منهم، وهذا هو حسابُهم أَنهم على شيءٍ، أَي على فِعْل أَيِّ شيءٍ نافع لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ:

قال عليه الصلاة والسلام: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين خُصماءُ الله؟ فتأتي القدرية مسودَّةً وجوههم مزرقة أعينهم، فيقولون: ما عبدنا شمساً ولا قمراً، ولا اتخذنا من دونك إلٰهاً»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صَدَقوا والله ولكن أَتاهم الإِشراك من حيث لا يعلمون، ثمَّ تَلاَ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ معناه: تملَّكهم من كل جهة وغَلَب على نفوسهم، وهذا الفعل ممَّا استُعمل على الأَصل، فإِن قياس التعليل يقتضي أَن يقال: اسْتَحَاذَ، وحكى الفراءُ في كتاب «اللغات» أَن عمر رضي الله عنه قرأَ: [اسْتَحَاذَ].

و[يُحَادُّونَ] معناه: يعطون الحدَّ من الأَفعال والأَقوال، وقال بعض أَهل العلم بالمعاني: معناه: يكونون في حدٍّ غير الحدِّ الذي شرع الله تبارك وتعالى، ثم قضى الله تعالى على مُحادّه بالذل، وأَخبر بأَنه كتب فيما أَمضى من قضائه وقدره في الأَزل أنه يغلب هو ورسله كلَّ من حادَّ الله والرُّسل. وقرأَ نافع، وابن عامر: [وَرُسُلِيَ] بفتح الياءِ، وقرأَ الباقون بسكونها، وقال الحسن: ما أَمر الله تعالى قطُّ رسولاً بالقتال إِلاَّ وأَغلبه وظفَّره بقوته وعزَّته، لا ربَّ سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالبٌ بالحُجَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

نفت هذه الآية أَن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإِيمان ويلتزم شُعبه على الكمال يُوادُّ كافراً أَو منافقاً، ومعنى «يُوَادُّ» يكون بينهما من اللطف بحيث يودُّ كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأْويل قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: اللهم لا تجعل لمشرك قِبَلي يداً فتكون سبباً للمودَّة، فإِنَّك تقول: وتلا هذه الآية. وتحتمل الآية أَن يُراد بها: لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يُوَادُّ من حادَّ الله من حيث هو محادٌّ؛ لأَنه حينئذ يودُّ المحادَّة، وذلك يوجب أَلاَّ يكون مؤمناً.

ويُروى أَن هذه الآية نزلت في شأْن حاطب بن أَبي بلتعة ومخاطبته أَهل مكة،

وظاهر هذه الآيات أَنها متصلة المعنى، وأَن هذه في معنى الذَّم للمنافقين الموالين لليهود، وإِذا قُلنا إِنها في أَمر حاطب جاءَ ذلك أَجنبيًّا في أَمر المنافقين وإِن كان شبيهاً به، و«الإِخوان» هنا إِخوة النَّسب بدليل اقترانه بالآباءِ، وعُرف «الإِخوان» أَنه في الأَودَّاءِ، كما أَن عُرف «الإِخوة» أَنه في النسب، وقد يكون مستعملاً في إِخاءِ الوُدِّ.

و﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ معناه: أَثبته وخلقه بالإِيجاد، وذهب أَبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إِلى أَن المعنى: جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أَنهم مؤمنون، وذلك لأَنهم يرون أن العبد يخلق إِيمانه، وقد صرَّح النقَّاشُ بهذا المذهب، وما أُراه قاله إِلاَّ غير مُحَصِّل لما قال، وأَمَّا أَبو علي الفارسي فَعَن بَصَرٍ به[1]. وقرأَ جمهور القراءِ: [كَتَبَ] على بناءِ الفعل للفاعل، و[الإِيمَانَ] بالنصب، وقرأَ أَبو حَيْوة، وعاصم ـ في رواية المفضل عنه ـ: [كُتِبَ] على بناءِ الفعل للمفعول، و[الإِيمَانُ] بالرفع.

وقوله تعالى: [أُولَئِكَ] إِشارة إِلى المؤمنين الذين تقتضيهم معنى الآية؛ لأَن المعنى: لكنك تجدهم لا يُوادُّون من حادَّ الله، وقوله تعالى: ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾: بِهُدًى وَلُطف ونور وتوفيق إِلٰهي ينقدح من القرآن ومن كلام النبي ﷺ، وقيل: المعنى: بالقرآن، لأَنه روحٌ، وقيل: المعنى: بجبريل عليه الصلاة والسلام.

و«الْحِزْبُ»: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد، و«الْمُفْلِحُ»: الفائز بِبُغْيَتِه، وباقي الآية بيِّنٌ.

كمل تفسير سورة المجادلة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قارن هذا بما نسبه بعضهم إلى المؤلف من ميله إلى الاعتزال، وراجع مقدمة هذا التفسير.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحشر

هذه السُّورة مدنيّة باتفاق من أَهل العلم، وهي سورة بني النَّضير؛ وذلك أَن رسول الله ﷺ كان قد عاهد بني النَّضير على سِلْمٍ وهم يرون أَنه لا تُردُّ له رايةٌ، فلما جرت هزيمة أُحُد ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا، فلما رجع النبي ﷺ من أُحد تبيَّن له معتقد بني النَّضير وغدرهم بعهده وموالاتهم للكفَّار، فجمع إِليهم وحاصرهم وعاهدهم على أَن يُجليهم عن أَرضهم، فارتحلوا إِلى بلاد مختلفة: خيبر والشام وغير ذلك من البلاد، ثم كان أَمر بني قُرَيْظَة مرجعه ﷺ من الأَحزاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾.

قد تقدَّم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في السموات وما في الأرض»، وأَن أَهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أَي أَن آثار الصنعة فيها والإِيجاد لها كالتسبيح وداعية إِلى التسبيح مِمَّن له أَن يسبح، وقال مكي: [سَبَّحَ] معناه: صلَّى وسجد، فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان مناسبتان لما يأْتي بعد من قصة العدو الذين أَخرجهم من ديارهم.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم بنو النَّضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إِسرائيل موازية في القَدْر والمنزلة لبني قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان لأَنهما من ولد الكاهن بن هرون، وكانت أَرضُهم وحصونهم قريبةً من المدينة، ولهم نخل



وأَموال عظيمة، فلما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأَجلاهم على أَن يحملوا من أَموالهم ما أَقلَّته الإبل حاشى الحلقة ـ وهي جميع السلاح ـ، فخرجوا إلى بلاد مختلفة، فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أَن «الْحَشْر» هو الجمع والتوجيه إلى ناحية مَّا ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وغيره: أَراد تعالى حَشْر القيامة، أَي هذا أَوله، والقيام من القبور آخره، وروى الحسن أَن النبي ﷺ قال لهم: «امضوا، هذا أَول الحشر وأَنا على الأَثر»[1]، وقال عكرمة، والزهراوي، وغيرهما: المعنى: لأَوَّل موضع الحشر وهو الشام، وذلك أَن أَكثر بني النضير جاءَت إلى الشام، وقد رُوي أَن حشر القيامة هو إلى الشام، وأَن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا»، قالوا: إلى أَين يا محمد؟ قال: «إلى أَرض المحشر»[2]، وقال قوم ـ في كتاب المهدوي ـ المرادُ الحشر في الدنيا الذي هو الجلاءُ والإخراج، فهذا الذي فعل رسول الله ﷺ ببني النَّضير أَوَّلُه، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأَهل خيبر آخره، وأَخبرت الآية بمغيب، وقد أَخبر النبي ﷺ بجلاءِ أَهل خيبر، ويحتمل أَن يكون آخر الحشر في قول النبي ﷺ في مرضه: «لاَ يَبْقَيَنَّ دينان في جزيرة العرب»، فإن ذلك يتضمن إجلاءَ بقاياهم، قال الخليل ـ فيما حكى الزجاج ـ: سميت جزيرة لأَنه أَحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. وفي هذه الإحاطة نظر.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ معناه: لِمَنَعَتِهم وكثرة عددهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أَنهم يخرجون ويَدَعون أَموالهم لكم، وبحسب ذلك من المنعة والعُدَّة والتَّحصُّن ظنُّوا أَنهم لن يُقْدَرَ عليهم، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يريد: من جُند الله وحزب الله. وقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ عبارة عن إظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيِّز الهزم والذل. وقرأَ الجمهور: [الرُّعْبَ]

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، (الدر المنثور).

(٢) أخرجه البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾: قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ: اخرجوا: قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر.

بسكون العين، وقرأَ أَبو جعفر، وشيبة: [الرُّعُبَ] بضم العين.

واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ - فقال الضحاك، والزجاج، وغيرهما: كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الحِصْن دأباً، فهذا معنى تخريبهم، وقال الزهري وغيره: كانوا لما أُبيح لهم ما تستقل به الإِبل لا يدعون خشبةً حسنةً ولا نجافاً[1] ولا ساريةً إِلاَّ قلعوها وخربوا البيوت عنه. وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من حيث فِعْلُهم بكفرهم داعية إِلى تخريب المؤمنين بيوتَهم، فكأَنهم قد خربوها بأَيدي المؤمنين، وقال جماعة من المفسرين: إِنهم لما أَزمعوا الجلاءَ شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا بمعنى الإِفساد على من يأْتي، وقال قتادة: خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوا هم من داخل، وقرأَ جمهور القراءِ: [يُخْرِبُونَ] بسكون الخاءِ وتخفيف الراءِ، وقرأَ أَبو عمرو وحده، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وقتادة، وعيسى: [يُخَرِّبُونَ] بفتح الخاءِ وشد الرَّاءِ، فقال فريق من العلماءِ اللغويين: القراءَتان بمعنى واحد، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: «خرَّب» معناه: هدم وأَفسد، و«أَخْرَبَ» معناه: ترك الموضع خراباً وذهب عنه.

ثم نبَّه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممَّن له أَن ينظر على نُصرة رسوله ﷺ وصنعه له فيمن حادَّه وناوأَه بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أَي العقول والأَفهام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

أَخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاءً، وكانت بنو النَّضير ممَّن حلَّ بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة والسلام بيسير؛ لأَنهم كانوا من الجيش الذي

(١) النِّجاف: أسكُفَّةُ الباب، أو هو الذي يستقبل الباب من أَعلى الأسْكُفَّة، ويقال له: الدَّوَّارة، والأسْكُفة هي العَتَبَة.

رجع، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم: لا تستحيوا أحداً، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً، وقال لهم بنو إسرائيل: أَنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فقال أَهل ذلك الجيش عند ذلك: ليس لنا أَحب من البلاد التي غلبنا أَهلها، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه، فلم يجر عليهم الجلاءُ الذي أَجراه بختنصر على أَهل الشام، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاءً فنالهم هذا الجلاءُ على يدي محمد ﷺ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأَهل بدر وغيرهم، ويقال: جَلاَ الرجلُ، وأَجلاه غيرُه، وقد يقال: أَجلى الرجل نفسه، بمعنى: جلا.

و«الْمُشَاقَّةُ»: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ سببها أَن بعض أَصحاب النبي ﷺ وضعوا أَيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأَنت تنهى عن الفساد؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة، وذلك في صدر الحرب معهم، فنزلت الآية مُعْلِمةً أَن جميع ما جرى من قطع أَو إمساك فبإذن الله تعالى، وردَّت الآية على قول بني النضير إنَّ محمداً ينهى عن الفساد وها هو ذا يُفسد، فأَعلم الله تعالى أَن ذلك بإذنه وليجزي الفاسقين من بني النضير.

واختلف الناسُ في «اللِّينَةِ» ـ فقال الحسن، ومجاهد، وأَبو زيد، وعمرو بن ميمون: اللِّينة: النخلة، اسمان بمعنى واحد، وجَمْعها لِينٌ وليانٌ، وقال الشاعر:

وَسَالِفَةٌ كَسَحُوقِ اللِّيَانِ ... أَضْرَمَ فيها الْغَوِيُّ السُّعُرْ(١)

(١) هذا البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه للصيد، وفيها يقول مشبهاً فرسه بالجرادة في خِفَّتها وسرعتها: (وأركبُ في الروع خيفانة...)، والبيت في اللسان (سحق) غير منسوب، وقد استشهد به القرطبي، وأبو حيان في البحر المحيط، والسالِفَةُ: أعلى العنق، أو هي ناحيته من مُعَلَّق القُرْط إلى الحاقنة، وسَحُوق اللِّيَان هي النخلة الطويلة الجرداءُ التي لا كَرَبَ لَها، والكَرَبُ هو الأصل العريض للسَّعَفِ إذا يَبس. والغويُّ: الغاوي المُفسد والسُّعُر: شدة الوقود، يشبه عُنق فرسه بالنخلة الطويلة الجرداءِ، ويصفها بأنها شقراءُ اللون، فلذلك ذكر الوقود، والشاهد هنا أنه ذكر اللِّيان، وهو جمع اللِّينة.



وقال آخر:

طِرَاقُ الْخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ لِينَةٍ   نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ[(١)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من اللغويِّين: اللِّينة من النَّخل ما لم تكن عجوة، وقال سفيان بن سعيد الثوري: اللِّينة: الكريمة من النَّخل، وقال أبو عبيدة ـ فيما رُوي عنه ـ وسفيان: اللِّينة: ما تمرها لونٌ، وهو نوعٌ من التمر يقال له: اللَّون، قال سفيان: هو شديد الصُّفرة يشِفُّ عن نواه فيُرى من خارج، وأصلها «لِوْنَة» فأُبدلت لموافقة الكسرة، وقال أَبو عبيدة أيضاً: اللِّين: أَلوان النَّخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا نوى. وقرأ ابن مسعود والأعمش: «أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قُوَّماً عَلَى أُصُولِها»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ الآية... إعلامٌ أَنَّ ما أُخذ من بني النَّضير ومن فَدَك فهو خاصٌّ للنبي ﷺ، وليس على حكم الغنيمة التي يُوجف عليها ويُقاتل فيها، بل على حكم خُمس الغنائم، وذلك أَن بني النضير لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال، فأَخذ منها رسول الله ﷺ لنفسه قوتَ عياله، وقسَّم سائرها في المهاجرين ولم يُعط الأَنصار منها شيئاً، غير أَن أَبا دُجانة سِمَاكُ بنُ خَرَشَة وسَهْلَ بنُ حُنَيْف[(٣)] شكيا فاقة عظيمة فأَعطاهما، هذا قول جماعة من العلماءِ، وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كانت أَموال بني النَّضير ممَّا أَفاءَ الله تعالى على

---

(١) البيت لِذِي الرُّمَّة، وهو في اللسان (ريع)، والرواية فيه: (واقعٌ فَوْقَ رِيعَةٍ)، وعلى هذه الرواية لا يُستشهد به هنا، ولهذا استشهد به الطبري عند تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، وقد استشهد به صاحب اللسان أيضاً في (طرق)، يقال: طائرٌ طِرَاقُ الرِّيش: إذا ركب بعضه بعضاً، والخوافي: ما تحت القوادم في الطائر من الريش، والقوادم: أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر، ومفردها: قادمة، والشاعر هنا يصف بازياً بأن شَعْر خوافيه كثيفٌ بعضه فوق بعض، ويقول: إنه نزل فوق نخلة عالية، وأن الندى يلمع فوق ريشه، ويعني بهذا أنه قضى ليله فوق النخلة العالية، والشاهد ذكر اللِّينة هنا وهي النخلة الطويلة الجرداءُ.

(٢) في القرطبي أن هذه هي قراءة الأعمش، أما قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهي: «ما قطعتم من لِينَةٍ ولا تركتُمْ قَوْمَاءَ عَلى أُصُولِها». أما في البحر فذكر أنها قراءة عبد الله والأعمش وزيد بن علي.

(٣) أما سِماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري فهو المعروف بأبي دُجانة، صحابي، كان شجاعاً، شهد بدراً وثبت في أُحد، وأُصيب بجراحات كثيرة، واستشهد في اليمامة، وكانت له مشية فيها خيلاءٌ، رآه النبي ﷺ في معركة فقال: هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان، وأما سَهْلٌ فهو سَهْل بن حُنيف بن وهب الأنصاري، أبو سعد، صحابي من السابقين، شهد بدراً وثبت يوم أُحد، وآخى النبي ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، شهد مع علي صِفِّين، وتوفي بالكوفة، وله (٤٠) حديثاً شريفاً.



رسوله ﷺ ممَّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكان رسول الله ﷺ ينفق منها على أَهله نفقة سنة، وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله تعالى، قال بعض العلماءِ: وكذلك كل ما فُتح على الأئمة ممَّا لم يوجف عليه فهو لهم خاصة، والوجيف دون التقريب[1]، يقال: وجف الفرس وأَوجفه الراكب، والإِيجاف: سرعة السير والاجتهاد فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ ﴾.

أَهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أَهل الصفراءِ والينبوع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تُسمى قرى عربية، وحكمها مخالف لبني النَّضير، ولم يحبس رسول الله ﷺ من هذه لنفسه شيئاً، بل أَمضاها لغيره؛ وذلك أَنها في ذلك الوقت فتحت، واختلف الناس في صفة فتحها ـ فقيل: غزاها رسول الله ﷺ، وبعث بعثاً إِلى كل مكان فأَطاع وأَعطاه أَهله فكان ممَّا لم يوجف عليه، وكان حكمه حكم الغنائم، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل، وأَعطى رسول الله ﷺ جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأَنصار شيئاً. وقال قتادة، ويزيد بن رومان: كانت هذه القرى قد أُوجف عليها ولكن كان هذا حكم ما لم يوجف عليه، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأَنفال فجعل فيها الخُمس لهذه الأَصناف وبقيت الأَربعة الأَخماس للمقاتلة، وآية هذه السُّورة لم يكن فيها شيءٌ للمقاتلة، وهذا القول يضعف لأَن آية الأَنفال نزلت إِثر بَدْر قبل بني النضير وقبل أَمر هذه القرى بسنة ونيّف، و«القربى» في هذه الآية قرابةُ النبي ﷺ، مُنعوا الصدقة فعُوضوا من الفيءِ.

وقوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ﴾ مخاطبة للأَنصار لأَنه لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت غنى، وقرأَ جمهور الناس: [يَكُونَ] بالياءِ، وقرأَ ابن

---

(١) التقريب: نوع من عَدْو الفرس عدواً بدون إسراع، والوجيف: عدوٌ أقل من التقريب ولكن فيه تحريك وإتعاب للدابة.



مسعود، وأبو جعفر، وهشام عن ابن عامر بالتاءِ، وهي «كان» التامة، وقرأ جمهور الناس: [دُولَةً] بضم الدال ونصب الهاءِ، وقرأ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي: [دَوْلَةً] بفتح الدال ونصب الهاءِ، وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع، وهشام عن ابن عامر: [دُولَةٌ] بضم الدال والهاءِ، وقال عيسى بن عمر: هما بمعنى واحد، وقال الكسائي وحُذَّاق النظرة: الفتح في المُلْك ـ بضم الميم ـ لأَنها الفعلة في الدَّهر، والضم في المِلْك ـ بكسر الميم ـ والمعنى أَنها كالعواري، فيتداول الأَغنياءُ ذلك المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيءٍ، ولا حظَّ في شيءٍ من هذه الأَموال ليتيم غني ولا لابْن سبيل حاضر المال، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأَنفال.

ورُوي أَن قوماً من الأَنصار تكلموا في هذه القرى المُفْتَتَحَة وقالوا: لنا منها سهمنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية... مؤدباً في ذلك وزاجراً، ثم اطَّرد بعْدُ معنى الآية في أَوامر النبي ﷺ ونواهيه، حتى قال قوم: إِن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنةَ الواشمة والمستوشمة... الحديث[1]، ورأَى مُحرماً في ثيابه المخيطة فقال له: اطرح هذا عنك، فقال له الرجل: أَتقرأُ عليَّ بذلك آية من كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فكرَّر لام الجر كما كانت الأُولى مجرورة باللام ليبين أَن البدل إِنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإِشفاق عليهم، وهي إِخراجهم

---

(١) حديث الواشِمَة والمُسْتَوْشِمَة أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد في مسنده، عن علقمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «لعن الله الواشِمات والمُستَوْشِمَات، والمُتَنَمِّصات والمُتَفَلِّجات للحسن المُغَيِّرَات خلق الله». فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أُم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت! فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول: فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه، قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها. واللفظ للبخاري، والوشْم: غرز الإبرة في البدن وذرُّ النِّيلج عليه حتَّى يزرقَّ أُثره أو يخضَر، والتَّنَمُّص: نتف شعر الوجه بالخيط. والتَّفليج: أن تفرِّق المرأة بين أسنانها طلباً للزينة.



من ديارهم وأَموالهم، وجميع المهاجرين إِمَّا أخرجهم الكفار وإِمَّا أَحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت، ووصفهم بالفقر وإِن كان لهم بعض أَمْوال وهي حال الفقراءِ في اللغة، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله تعالى: [يَبْتَغُونَ] في موضع الحال، والفضلُ والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة، ونَصْرُ الله هو نَصْر شرعه ونبيِّه ﷺ.

و«الصَّادقون» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأَفعال لأَن أَفعالهم في أَمر هجرتهم إِنما كانت وفق أَقوالهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾.

﴿الذين تبوءوا﴾ هم الأنصار، والضمير في [قَبْلِهِمْ] للمهاجرين، و«الدَّار» هي المدينة، والمعنى: تَبَوَّءُوا الدَّار مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، فتأَمَّله. والإيمان لاَ يُتَبَوَّأُ لأَنه ليس مكاناً، ولكن هذا من بليغ الكلام، ويتخرج على وجوه كلُّها جميل حَسَن(١).

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأَنصار بأَنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم، وبأَنهم يُؤثِرُون على أَنْفُسهم، وبأَنهم قد وُقُوا شُحَّ أَنفُسهم؛ لأَن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَن هؤلاءِ الممدوحين قد وُقُوا الشُّحَّ.

و«الْحَاجَةُ»: الحَسَد في هذا الموضع، قاله الحسن، ويعمُّ بعْدُ جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي ﷺ في إِعطاءِ المهاجرين أَموال بني النَّضير والقرى. و[أُوتُوا]

(١) قيل: إنه نصب بفعل آخر غير «تبوَّأ»، والتقدير: والذين تَبَوَّءُوا الدار واعتقدوا الإيمان، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، ويكون من باب: «علفتها تبناً وماءً بارداً»، أي: وسقيتها ماءً، ذكر ذلك أبو عليٍّ والزمخشري، وقيل: هو من باب حذف المضاف، والتقدير: تبوَّءُوا الدارَ ومواضعَ الإيمان، وقيل: هو على طريق المَثَل، كما تقول: تَبَوَّأَ من بني فلان الصميم.



معناه: أُعطوا، والضمير المرفوع بأن لم يُسَمَّ فاعله هو للمهاجرين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية... صفة للأنصار، وقد روي ـ من غير ما طريق ـ أَنها نزلت بسبب رجل من الأَنصار ـ قال أَبو المتوكِّل: هو ثابت بن قيس، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكي: كنية هذا الرجل أَبو طلحة، وخلط المهدوي في ذكر هذا الرجل ـ نَدَبَ رسولُ الله ﷺ إلى ضيافة مهاجري، فانتدب الأَنصاري ولم يكن له مال فذهب بالضيف وقال لامرأَته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلاَّ قُوت الصِّبية، فقال لها: نَوِّمي صبيانك، وأَطفئي السراجَ، وقدِّمي ما عندنا للضيف ونوهمه أَنَّا نأْكل، فَفَعَلا ذلك، فَلَمَّا غدَا على رسول الله ﷺ قال: «عجب الله من فعلك البارحةَ»، ونزلت الآية في ذلك[1].

والايثارُ على النفس أَكْرم خُلُق، وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عمٍّ لي في الجرحى ومعي شيءٌ من ماءٍ، فوجدته، فقلت: أَسقيك؟ فأَشار أَن نعم، فإِذا رجل يصيح: آهِ، فأَشار بن عمِّي أَن انطلق إِليه، فإِذا هو هشام بن العاص، فقلت: أَتشرب؟ فإِذا آخر يقول: آهِ، فأَشار هشام أَن انطلق إِليه، فجئته فإِذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إِلى هشام فإِذا هو قد مات، فرجعتُ إِلى ابن عمي فإِذا هو قد مات، فعجبت من إِيثارهم رحمهم الله تعالى، وقال أَبو يزيد البسطامي: قَدِم علينا شاب من بَلْخ فقال لي: ما حدُّ الزُّهد عندكم؟ فقلت: إذا فقدنا صَبَرْنا، وإِذا وجدنا شَكَرْنا، قال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شَكَرْنا، وإِذا وجدنا آثَرْنا.

وروي أَن سبب هذه الآية أن النبي ﷺ لمَّا قسَّم هذه القرى في المهاجرين قال للأَنصار: «إِن شئتم قسمتم للمهاجرين من أَموالكم وديارکم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإِن شئتم أَمسكتم أَموالكم وتركتم لهم هذه»، فقالوا: بل نقسم لهم من أَموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت هذه الآية[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماءِ والصفات، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: ألا رجلٌ يضيف هذا اللَّيْلَةِ رحمه الله تعالى؟ فقال رجل من الأنصار ـ وفي رواية: فقال أبو طلحة الأنصاري: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، الحديث كما ذكره ابن عطية.

(٢) ذكره الزمخشري في تفسيره دون سند، وذكره القرطبي قائلا: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال=



و«الْخَصَاصَةُ»: الفاقة والحاجة، وهو مأخوذ من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخلَّلُها النقص والاحتياج، و«شُحُّ النَّفس» هو كثرة طَمَعِها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأَمل، هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوءٍ، وقد قال رسول الله ﷺ: «من أَدى الزكاة المفروضة، وقرى الضيف، وأَعطى في النائبة، فقد برىء من الشُّح»(١).

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه ـ فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إِلى هذا، وعلى هذا التأْويل كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول: اللهم قِني شُحَّ نفسي، لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك فقال: إِذا وقَّيته لم أَفعل سوءًا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

شُحُّ النفس فقر لا يُذْهِبُهُ غِنى المال بل يزيده وينصب به.

وقال ابن زيد، وابن جبير، وجماعة: من لم يأْخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برىء من شُحِّ النفس، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: شُح النفس هو أَكل مال الغير بالباطل، وأَما منع الإِنسان ماله فهو بُخل، وهو قبيح ولكنه ليس بالشُّح، وقرأَ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [شِحَّ] بكسر الشين. و[يُوقَ] وزنه «يُفْعَل»، من وقَى يقي، مثال: وَزَن يَزِنُ، وقرأَ أَبو حيوة: [يُوَقَّ] بفتح الواو وشد القاف، و[الْمُفْلِحُونَ]: الفائزون ببغيتهم.

واختلف الناس في تأْويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ـ فقال الفراءُ: أَراد الفرقة الثالثة من الصحابة، وهي التي آمنت أَو كبرت في آخر مُدَّة النبي ﷺ، وقال جمهور العلماءِ: أَراد من يجيءُ من التابعين وغيرهم إِلى يوم القيامة، فوصف الله تبارك

= النبي ﷺ، وذكر ابن إسحاق في السيرة طرفاً منه جاءَ فيه أن النبي ﷺ قسَّم أموال بني النضير على المهاجرين الأولين إلا أنه أعطى سَهْل بن حُنيف وأبا دُجانة سِماك بن خراشة، وهذا يتفق مع ما ذكره الزمخشري، لكن الزمخشري ذكر أيضاً أنه أعطى معهما الحرث بن الصِّمة.

(١) أخرجه عبد بن حميد، عن مجمع بن يحيى بن جارية، قال: حدثني عمي خالد بن يزيد بن جارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «برىء من الشح من أدَّى الزكاة، وقَرى الضيف، وأدَّى في النائبة». (الدر المنثور)، وزاد في الجامع الصغير نسبته إلى أبي يعلى في مسنده، والطبراني في الكبير، ثم رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن.

وتعالى القول الذي ينبغي أَن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأَول. وإِعراب [الَّذِينَ] رفع عطفاً على [هُمْ] أَو على [والَّذِينَ] أو رفع بالابتداءِ. وقوله تعالى: [يَقُولُونَ] حالٌ فيها الفائدة، والمراد: والذين جاءُوا قائلين كذا، أَو يكون [يَقُولُونَ] صفة.

ولهذه الآية قال مالك وغيره: إِنه من كان له في أَحد من الصحابة قول سوءٍ أَو بغض[١] فلا حظَّ له في الغنيمة أَدباً له، وجاءَ بعض العارفين إِلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبُّوا أَبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال لهم: أَمِنَ المهاجرين الأَولين أَنتم؟ قالوا: لا، قال: أَفَمِن الذين تبوَّءُوا الدار والإِيمان أَنتم؟ قالوا: لا، قال: فقد تبرأْتم من هذين الفريقين، وأَنا أَشهد أَنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية... فقوموا، فَعَل الله تعالى بكم وفَعَل، وقال الحسن: أَدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدريًّا كلهم يحدثني أَن النبي ﷺ قال: «من فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَة الإِسلام من عنقه»[٢]، فالجماعة أَلاَّ تسبُّوا الصحابة، ولا تُماروا في دين الله تعالى، ولا تُكفِّروا أَحداً من أَهل التوحيد بذنب.

و«الْغِلُّ»: الحِقْد والاعتقاد الرديءُ، وقرأَ الأَعمش: [في قُلُوبِنَا غِمْراً]، والغِمْر: الحِقْد: وقد تقدم الاختلاف في قراءَة: [رَؤُوف].

---

(١) في بعض النسخ: «أو نقص».

(٢) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٣٠)، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن الحرث الأشعري، وفي آخره كما جاء في مسند أحمد: «وأنا آمركم بخمس، اللهُ أمرني بهن، بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَا جهنم ـ قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلَّى؟ قال: وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم ـ فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ». والرِّبْقَة في الأصل: عُروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تُمسكها، فاستعارها للإسلام يعني ما يَشُدُّ به المسلم نفسه من حدود الإسلام وأحكامه، وأمَّا قوله ﷺ: «فهو من جُثَا جهنم» فقد قال ابن الأثير في كتاب النهاية، «الجُثَا: جمع جُثْوة بالضم، وهو الشيءُ المجموع» فكأن المعنى: من جماعة جهنم، وتروى الكلمة جُثِيّ، وتروى: جُثَى، وقال أبو عبيدة: قد يكون المعنى: إنه ممن يجثو على الركب في جهنم. ورويت اللفظة في مسند أحمد «جُثَاءِ» بالهمزة.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النَّضير وقالوا لهم: اثبتوا في معاقلكم فإنَّا معكم كيفما تقلبت حالكم، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم، وكانوا كَذَبَة فيما قالوا من ذلك، ولذلك لم يخرجوا حين أُخرج بنو النَّضير بل قعدوا في ديارهم، وقوله تعالى عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ معناه: ولَئِن حاولوا نصرهم فإنهم ينهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أحداً منهم.

وجاءَت الأَفعال غير مجزومة في قوله تعالى: ﴿ لَا يَخْرُجُونَ ﴾ و﴿ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ لأَنها راجعة على حكم أنفُسهم لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر(١).

ثم خاطب تعالى أُمة محمد ﷺ مُخبراً أَن اليهود والمنافقين أَشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأَنهم لا يتوقعون عاجل الشَّر من المؤمنين ولا يؤمنون بآجل العذاب من الله تعالى، وذلك لقلَّة فهمهم للأُمور وتوفيقهم للحق.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

---

(١) علق أبو حيان في البحر على ذلك فقال: «وأيُّ نظر في هذا وقد جاءَ على القاعدة المتَّفق عليها من أنه إذا تقدم القَسَم على الشرط كان الجواب للقسم وحُذف جواب الشرط، وكان فعله بصيغة المُضيّ أو مجزوماً بلم، وله شرط وهو ألا يتقدمه طالب خبر، واللام في [لَئِنْ] مُؤذنة بِقَسَم محذوف قبله فالجوابُ له».

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لبني النضير وجميع اليهود، هذا قول جماعة من المفسِّرين، ويحتمل أن يريد بذلك اليهود والمنافقين؛ لأن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متمكن بيِّن، ومعنى الآية: لا يقاتلونكم في جيش بِفَحْصٍ[١]، و«القُرَى»: المدن، قال الفراءُ: هذا جمع شاذٌّ، قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ، وهو مثل: ضَيْعَةٍ وضُيَع.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وكثير من المكيِّين: [جِدَارٍ] على معنى الجنس، وقرأ كثير من المكيِّين، وهارون عن ابن كثير: [جَدْرٍ] بفتح الجيم وسكون الدال، ومعناه: أصل بنيان كالسُّور ونحوه، وقرأ الباقون من القراءِ: [جُدُرٍ] بضم الجيم والدال، وهو جمع جِدَارٍ، وقرأ أبو رجاءٍ، وأبو حَيْوة: [جُدْرٍ] بضم الجيم وسكون الدال، وهو تخفيف في جمع جِدارٍ، ويحتمل أن يكون من جدر النخيل، أي من وراءِ نخلهم إذ هي ممَّا يُتَّقى به عند المضايقة[٢].

وقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي في غائلتهم وإحَنِهم[٣]، وفي قراءَة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم أَشَتُّ]، وهذه حال الجماعات المتخاذلة، وهي المغلوبة أبداً في كل ما تحاول، واللفظة مأْخوذة من الشتات وهو التفرُّق ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معناه: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قَيْنُقَاع؛ لأَن النبي ﷺ أَجلاهم عن المدينة قبل بني النَّضير، وكانوا مِثْلاً لَهُم، وقال قتادة ومجاهد؛ الذين من قبلهم أَهلُ بدر الكفَّار؛ فإنهم قبلهم ومِثْلٌ لهم في أَن غُلبوا وقُهروا، وقال بعض المتأَولين: الضمير في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين، وهم منافقو الأُمم المتقدِّمة؛ وذلك أَنهم غُلبوا ونالتهم الذِّلَّة على وجه الدهر، فهم مثل لهؤلاءِ، ولكن قوله تعالى: [قَرِيباً] إمَّا أَن يكون في زمن موسى عليه السلام، وإلاَّ فالتَّأْويل المذكور يضعف، إلاَّ أَن يجعل [قَرِيباً]

---

(١) يريد: بأرض منبسطة مكشوفة، وفي اللسان ذكر أن فحص الأُرْدن: ما انبسط منه وكشف من نواحيه.

(٢) في بعض النسخ: «عند المصافقة»، والمصافقة هي الضرب.

(٣) الغائلة: الحقد الباطن والشَّر، والإحَن: الحقائد والأضغان، ومفردها إحْنَة، يقال: إنَّ الإحَن تجرُّ المِحَن.

ظرفاً للذَّوْقِ، فيكون التقدير: ذاقوا وبَالَ أَمرهم قريباً من عصيانهم وبحدثانه، ولا يكون المعنى أَنَّ المثلَ قريب في الزَّمن مِنَ المُمَثَّل له، وعلى كل تأويل فـ[قَرِيباً] ظرفٌ أَو نعت لظرف. و«الْوَبَالُ»: الشِّدَّة والمكروه وعاقبة السوءِ، و«الْعَذَابُ الأَلِيمُ» هو في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معناه: مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النَّضير كمثل الشيطان والإِنسان، فالمنافقون مثلهم الشَّيطان، وبنو النَّضير مثلهم الإِنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأَوِّلين إِلى أَن الشَّيطان والإِنسان في هذه الآية اسْمَا جِنْس؛ لأَن العرف أَن يَعمل هذا الشَّياطينُ بناس، كما يغوي الشَّيطان الإِنسان ثمَّ يفرُّ عنه بعد أَن يُورِّطه، كذلك أَغوى المنافقون بني النضير وحرَّضوهم على الثُّبوت ووعدوهم النصر، فلما غدر بنو النَّضير وكشفوا عن وجوههم، تركهم المنافقون في أَسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص أَن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العُبَّاد مخصوص، وذكر الزجاج أَن اسمه برصيصا، قالوا: إِنَّه استُودع امرأَةً، وقيل: سيقَتْ إِليه ليشفيها بدعائه من الجنون، فسوَّل له الشَّيطان الوقوع عليها، فحملت، فخشي الفضيحة، فسوَّل له قَتْلَها ودَفْنها، ففعل، ثم شهره، فلمَّا استُخرجت المرأَة وحُمِل العابد شرَّ حمل، وهو قد قال: إِنها ماتت فقُمتُ عليها ودفنتها، فلما وُجدت مقتولة علموا كذبه، فتعرَّض له الشَّيطان وقال له: اكفر واسجد لي وأَنا أُنجِّيك، ففعل، وتركه عند ذلك وقال: إِنِّي بريءٌ منك. وهذا كله حديث ضعيف، والتأْويل الأَول هو وجه الكلام، وقول الشيطان «إِنِّي أَخاف الله» رياءٌ وسُمعة، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف اللهَ تعالى حق معرفته، ولا يحجزه خوفُه عن سوءٍ يوقع فيه ابن آدم من أَول إِلى آخر.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ الآية، يحتمل الضمير أَن يعود على المخصوصيْن المذكوريْن، ويحتمل أَن يعود على اسمي الجنسين، أَي: هذا هو عاقبة كل شيطان وإِنسان يكون أَمرهما هكذا، وقرأَ الحسن، وعمرو بن عبيد: [عَاقبَتُهُمَا] بالرفع، وقرأَ الجمهور: ﴿عَاقِبَتَهُمَا﴾ بالنصب، وموضع [أَنَّ] يخالف إِعراب «العاقبة» في القراءَتين، وقرأَ ابن مسعود، والأَعمش: [خَالِدَانِ] بالرفع على أَنه خبر [أَنَّ] والظَّرف ملغى، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إِلغاءُ الظرف مرتين، قاله الفراءُ، وذلك جائز عند سيبويه على التأْكيد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممَّن لا تخفى عليه خافية، وقرأ جمهور الناس: (وَلْتَنْظُرْ) بسكون اللام وجزم الراءِ على أَصل لام الأمر، وقرأ يحيى بن الحارث، وأَبو حيوة، وفرقة كذلك بلام الأَمر، إلاَّ أنها كسرت على أَصل لام الأمر، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما رُوي عنه ـ: [وَلِتَنْظُرَ] بنصب الراءِ على لام «كيْ»، كأَنه تعالى قال: وأَمرنا بالتقوى لتنظر، أَو كأَنه تعالى قال: اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر.

وقوله تعالى: (لِغَدٍ) يريد يوم القيامة، قال قتادة: قرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غداً، وذلك لأَنها آتية لا محالة، وكلُّ آتٍ قريب، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله: (لِغَدٍ) لِيَوْم الموت لأَنه لكل إِنسان كغده، ومعنى الآية: ما قدمت من الأَعمال، فإِذا نظرها الإِنسان تزيَّد من الصَّالحات وكفَّ عن السَّيِّئات، وقال مجاهد، وابن زيد: الأَمس الدُّنيا وغدُ الآخرة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بالتاءِ من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا، وقرأ أَبو حيوة: [ولا يكونوا] بالياءِ من تحت، كناية عن «نَفْس» التي هي اسم الجنس، و﴿الذين نسوا الله﴾ هم الكفَّار، والمعنى: تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالنَّاسين، وعبَّر تعالى عمَّا خصَّهم به من الضَّلالة بـ «أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»، سمَّى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجْهٍ مَّا، وهذا أَيضاً هو الجزاءُ بالذنب على الذنب، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى، فعاقبهم الله تعالى بأَن جعلهم ينسون أَنفسهم، قال سفيان: المعنى: حظَّ أَنفسهم، ويعطي لفظ هذه الآية أَن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه، وقد قال علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه: اعرف نفسك تعرف ربك، ورُويَ عنه أَنه قال أَيضاً: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربَّه. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: [وَلاَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ] بزيادة «لا».



وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية... موعظةٌ للإنسان، وذمٌ لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدَّع من خشية الله تبارك وتعالى، وإذا كان الجبل على عِظَمِهِ وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم ليفعل، لكنه يُعرض ويصُدُّ على حقارته وضعفه، وضرب الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه، وقرأ طلحة بن مصرف: [مُصَدِّعاً] على إدغام التاءِ في الصاد.

قوله عزّ وجلّ:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

لمَّا قال تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية، و«الْغَيْبُ»: ما غاب عن المخلوقين، و«الشَّهَادَةُ»: ما شهدوه، وقال حرب المكي: الغيب الآخرة، والشهادة الدُّنيا، وقرأ جمهور الناس: [الْقُدُّوسُ] بضم القاف، وهو فعْلٌ من تَقَدَّسَ إذا تَطَهَّر، وحظيرة القدس الجنة لأَنها طاهرة، ومنه: رُوحُ القُدس، والأَرض المقدَّسة، وبيت المقدس، ورُوي عن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه أنه قرأَ: [الْقَدُّوسُ] بفتح القاف، وهي لغة. و«السَّلَامُ» معناه: الذي سُلِم من جوره، وهذا اسم على حذف مضاف، أَي ذو السلام، لأَن الإِيمان به وتوحيده وأَفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها. و«الْمُؤْمِنُ» اسم فاعل من «آمَنَ» بمعنى «أَمَّنَ»، وقال أَحمد بن يحيى ثعلب: معناه: المُصَدِّقُ المؤمنين في أَنهم آمنوا، قال النحاسُ: أَو في شهادتهم على الناس في القيامة، وقال ناسٌ من المتأَولين: معناه: المُصَدِّقُ نفسه في أقواله الأَزلية، لا إِله غيره، و«المُهَيْمِنُ» معناه: الأَمين والحفيظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مؤرج: المهيمن: الشاهد بلغة قريش، وهذا بناءٌ لم يجيءْ منه في الصفات إِلاَّ مُهَيْمِن ومُسَيْطِر ومُبَيْقِر ومُبَيْطِر، وجاءَ منه في الأَسماءِ «مُحَيْمِر» وهو اسم وادٍ و«مُدَيْبِر». و«الْجَبَّارُ» هو الذي لا يدانيه شيءٌ ولا يلحق رتبته، ومنه «نخلةٌ جبارةٌ» إِذا لم تلحق، وأَنشد الزهراويُّ:



أَطَـافَـتْ بِـهِ جِيـلانُ عِنْـدَ قِطَـافِـهِ وَرَدَّتْ إِلَيْـهِ المـاءَ حَتَّـى تَجَبَّـرَا[1]

و[الْمُتَكَبِّرُ] معناه: الذي له التكبُّر حقاً.

ثم نزَّه تعالى نفسَه عن إشراك الكفار به الأَصنامَ التي ليس لها شيءٌ من هذه الصِّفات، و[الْبَارِىءُ] بمعنى: الخالق، بَرَأَ اللهُ تعالى الخَلْقَ، أَي أَوجدهم، و[الْمُصَوِّرُ] هو الذي يوجد الصُّور، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: [الْمُصَوَّرَ]، على إعمال [الْبَارِىءُ] فيه، وهي حسنة، يُراد بها الحُسْن في الصور، وقال قوم عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: إنه قرأ: [الْمُصَوَّرِ] بفتح الواو وكَسْر الراءِ، على قولهم: «الحَسنُ الوَجْهِ».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَي: ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إِله إلاَّ هو، وهذه الأَسماءُ هي التي حصرها رسول الله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وتسعين اسماً، مائة إلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة»[2]، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسْنَدَةً، واختلف الرواة في بعضها، ولم يصحَّ فيها شيءٌ إلاَّ إِحصاؤُها دون تَعْيين، وباقي الآية بيِّنٌ.

كمل تفسير سورة الحشر والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) هذا البيت لامرىء القيس، وهو من قصيدته التي قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً به على بني أسد، وهو في الديوان، واللسان، والتاج ـ مادة جيل ـ والشاعر يصف هنا وفي الأبيات التي قبل هذا نخيلا ارتفع وعلا، وكثرت فروعه، وَتَدَلَّت القنوان منه بالبسْر الأحمر وجيلان ـ بكسر الجيم ـ قوم كان كسرى يرسلهم عمالا إلى البحرين، ـ وقد تضبط (جَيلان) بفتح الجيم ـ يقول: طافت بهذا النخل جيلان عند قطافه، وجمعت حوله الماءَ حتى ارتفع في السماءِ عالياً، والشاهد على هذا في قوله: «تجَبَّرا»، ولكن الرواية في الديوان وفي التاج «حتى تحيَّرا» بالحاءِ والياءِ، وقد اختلفت الروايات في البيت، فروي:

أُتِيـــحَ لَـــهُ جَيْـــلانُ عِنْـــدَ جَـــذَاذِهِ وردَّدَ فيـــه الطَّـــرْفَ حَتَّـــى تَحَيَّـــرَا

ورواية التهذيب: «عند جداره»، ورواية شرح القاموس: «عند قطافه»، ورواية الديوان: «وردَّدَ فيه العَيْنَ حتى تَحَيَّرَا»، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت، والتحيُّر يرجع إلى الطرف، فقد تحير في ارتفاع النخل وكثرة فروعه.

(٢) حديث «إن لله تسعة وتسعين اسماً» ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: إنه حديث صحيح، وقد أخرجه الترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ هذا والأسماءُ مذكورة في مسند الترمذي وغيره مع اختلاف الرواة في بعضها كما قال ابن عطية رحمه الله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الممتحنة[(١)]

وهي مدنيّة بإجماع من المفسِّرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾.

«الْعَدُوُّ» اسم يقع للجمع والمفرد، والمراد به ها هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أَبي بَلْتَعَة[(٢)]، وذلك أن رسول الله ﷺ أَراد الخروج إلى مكة عام الفتح، فورَّى عن ذلك بِخَيْبَر، فشاع في الناس أَنه خارج إلى خيبر، وأَخبر هو جماعة من أَصحابه بقصده إلى مكة، منهم حاطب بن أَبي بَلْتَعَة، فكتب حاطب إلى قوم من كفَّار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ إيَّاهم، فجاءَ الخبر إلى رسول الله ﷺ بذلك فبعث عليًّا والزُّبيرَ وثالثاً، قيل هو المقداد، وقيل أَبو مَرْثَد[(٣)]، وقال: انطلقوا حتى تأْتوا

(١) قيل: اسم السورة [المُمْتَحَنَة] بفتح الحاءِ، إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، امرأة عبد الرحمن بن عوف، وقيل: هي [المُمْتَحِنَة] بكسر الحاءِ؟ إذْ أُضيف الفعل إلى السورة مجازاً.

(٢) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابي جليل، شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشد الرماة، وكانت له تجارة واسعة، بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس حاكم مصر، كان أحد فرسان قريش وشعرائها، مات في المدينة. (الإصابة).

(٣) المقداد بن عمرو بن ثعلبة، البهراني، ثم الكندي، ثم الزهري، تبنَّاه الأسود بن عبد يغوث الزهري فنسب إليه فقيل: المقداد بن الأسود، صحابي مشهور، من السابقين، لم يكن ببدر فارساً غيره، مات سنة ثلاث وثلاثين، وأما أَبو مَرْثَد فهو كنَّاز بن الحصين بن يربوع الغنوي، أبو مَرْثَد ـ بفتح الميم وثاءِ بعد الراءِ الساكنة، صحابي بدريٌّ مشهور بكنتيه، مات سنة اثنتي عشرة للهجرة (تقريب التهذيب)، وأما عليٌّ والزبير فغنيَّان عن التعريف.



روضة خاخ[1] فإن بها ظعينة[2] معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، واسمها سارة، مولاة لقوم من قريش، وقيل: بل كانت امرأةً من مزينة ولم تكن سارة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتَّشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً، فقال بعضهم: ما معها كتاب، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كُذب، والله لتخرجن الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَّكِ، فقالت: اعرضوا عني، فحلَّته من فروة رأسها، وقيل: أخرجته من حجزتها، فجاءُوا به رسول الله ﷺ[3]، فقال لحاطب: من كتب هذا؟ فقال أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليَّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه، ولكني كنت امرءًا ملصقاً في قريش ولم أكن من أَنْفُسها، فأحببت أن تكون لي عندهم يَدٌ يَرْعَوْنَني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يُدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت الآية لهذا السبب[4]. وروي أن حاطباً كتب: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسيل، وأُقسم بالله لو غزاكم وحده لنُصر عليكم فكيف وهو في جَمٍّ كثير».

و[تُلْقُونَ] في موضع الصِّفة لِـ[أَوْلِيَاءَ]، و«أَلْقَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر، فدخول الباءِ وزوالها سواءٌ، وهذا نظير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[6]، وروى المعلى عن عاصم أنه قرأ: ﴿وقد كفروا لما﴾ بلام.

---

(١) مكان بين مكة والمدينة، على بعد اثني عشر ميلا من المدينة.

(٢) الظعينة: المرأة في الهودج.

(٣) قيل: كان في الكتاب ما يأتي: «إن رسول الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأُقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز له موعده فيكم، فإن الله وليُّه وناصره».

(٤) أخرجه أحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وأبو عوانة، وابن حبان، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل، عن علي رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٥) من الآية (٣٩) من سورة (طه).

(٦) من الآية (١٥١) من سورة (آل عمران).

وقوله تعالى: [يُخْرِجُونَ] في موضع الحال من الضمير في [كَفَرُوا]، والمعنى: يُخرجون الرّسول ويُخرجونكم، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مرّ، وتضييق الكفّار على النبي ﷺ والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج، وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ مفعول من أَجله، أي أَخرجوكم من أَجل أَن آمنتم بربكم، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ شرط جوابه متقدمٌ في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي فلا تتَّخذوا عدُوِّي وعدوكم أَولياءَ، و[جِهَاداً] نصب على المصدر، وكذلك [ابْتِغَاءَ]، ويجوز أَن يكون ذلك مفعولاً من أَجله، و«الْمَرْضَاةُ» مصدرٌ كالرِّضى، و[تُسِرُّونَ] بدلٌ من [تُلْقُونَ]، ويجوز أَن يكون في موضع خبر ابتداءٍ كأنه تعالى قال: أنتم تُسِرُّون، ويصح أن يكون فعلاً مرسلاً ابتدأَ به القول، والإِلْقاءُ بالمودَّة معنىً مَّا، والإِسرارُ بها معنى زائد على الإلقاءِ، فترجح بهذا أَن [تُسِرُّونَ] فعلٌ ابتُدىء به القول، أَي تفعلون ذلك وأَنا أَعلم، وقوله تعالى: [أَعْلَمُ] يحتمل أَن يكون «أَفعل»، ويحتمل أَن يكون فعلاً لأَنك تقول: «علمتُ بكذا» فتُدخل الباءَ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَاْ أَعْلَمُ﴾ الآية... جملةٌ في موضع الحال، وقرأَ أَهل المدينة: [وَأَنَا] بإِشباع الأَلف في الإِدراج، وقرأَ غيرهم: [وَأَنَا] بطرح الأَلف في الإِدراج.

والضمير في [يَفْعَلْهُ] عائد على الاتخاذ المذكور، و[سَوَاءَ] يجوز أَن يكون مفعولاً بـ[ضَلَّ]، وذلك على تعَدِّي [ضَلَّ]، ويجوز أَن يكون ظرفاً على غير التعدِّي لأنه يجيءُ بالوجهين، والأَول أَحسن في المعنى، و«السَّوَاءُ»: الوسط، وذلك لأَنه تتساوي نسبته إلى أَطراف الشيءِ، و«السَّبِيلُ» هنا شرعُ الله تعالى وطريق دينه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾.

أَخبر الله تعالى أَن مداراة هؤلاءِ الكفَّار غير نافعة في الدُّنيا وأَنها ضارَّة في الآخرة،



ليبيِّن فساد رأْي مصانعتهم، فقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أَي: إِن يتمكَّنوا منكم وتَحْصُلُوا في ثِقَافِهِم ظهرت العداوة وانبسطت أَيديهم بضرركم وقَتْلكم، وأَلسنتُهم بسَبِّكم، وهذا هو السُّوءُ، وأَشد من هذا كله أَنهم إِنما يُقْنِعُهم منكم أَن تكفروا، وهذا هو وُدُّهم.

ثم أَخبر تعالى أَن هذه الأَرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة، فالعامل في [يَوْمَ] قوله تعالى: [تَنْفَعَكُمْ]، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي: العامل فيه [يَفْصِلُ] وهو ممَّا بعده لا ممَّا قبله.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والعامة: [يُفْصَلُ] بضم الياءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الصَّاد مفتوحة، وقرأَ ابن عامر، والأَعرج، وعيسى: [يُفَصَّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشد الصاد منصوبة، واختُلف ـ على هاتين القراءَتين ـ في إِعراب قوله تعالى: [بَيْنَكُمْ] ـ فقيل: نُصب على الظرف، وقيل: رُفع على ما لم يُسَمَّ فاعله إِلاَّ أَن لفظه بقي منصوباً لأَنه كذلك كثر استعماله، وقرأَ عاصم، والأَعمش: [يَفْصِلُ] بفتح الياءِ وسكون الفاءِ وكسر الصاد خفيفة، وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن وثاب: [يُفَصِّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ الصاد المكسورة، وإِسناد الفعل في هاتين القراءَتين إِلى الله تعالى، وقرأَ النَّخعي، وطلحة بن مصرِّف: [نُفَصِّلُ] بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاءِ وشدِّ الصَّاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتحذير.

وقرأَ جمهور السبعة: [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة، وقرأَ عاصم وحده: [أُسْوَةٌ] بضمها، وهما لغتان، والمعنى: قُدوة وإِمام، و«إِبْرَاهِيمُ» ﷺ هو خليل الرحمن عزَّ وجلَّ، واختلف الناس في «الذين معه» ـ فقال قوم من المتأَولين: أَراد من آمن به من الناس، وقال الطبري وغيره: أَراد الأَنبياءَ الذين كانوا في عصره عليه السلام وقريباً من عصره، وهذا القول أَرجح لأَنه لم يُرْوَ أَن إِبراهيم عليه السلام كان له أَتباع مؤمنون في مكافحته نمروذ، وفي البخاري أَنه عليه الصلاة والسلام قال لسارة حين رحل بها إِلى الشام مهاجراً من بلد النمروذ: ما على الأَرض من يعبد الله غيري وغيرك، وهذه الأُسوة مفيدة في التَّبري من الإِشراك وهو مُطَّرد في كل ملَّة، وفي نبينا ﷺ أُسوة حسنة على الإِطلاق لأَنها في العقائد وفي أَحكام الشرع كلها.

وقرأَ جمهور الناس: [بُرَءَاءُ] على وزن فُعَلاءَ، والهمزة الأُولى لام الفعل، وقرأَ عيسى الثقفي: [بِرَاءٌ] على وزن فِعال بكسر الفاءِ ككريم وَكِرَامٍ، وقرأَ يزيد بن القعقاع:

[بُرَاءُ] على وزن فُعال بضم الفاءِ كَتُؤَام، وقد رُويت عن عيسى قراءَة ـ قال أَبو حاتم: زعموا أَنه عيسى الهمداني ـ، «ويَجوُز»: [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباءِ، يُوصفُ به الجمع والإِفراد[١].

وقوله تعالى: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ معناه: كذَّبْناكم في أَقوالكم ولم نؤمن بشيءٍ منها، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزَّ وجلَّ: «فهو مؤمن بي كافر بالكوكب»[٢]، ولم يُلحق العلامة في [بَدَا][٣] لأَن تأْنيث العداوة والبغضاءِ غير حقيقي.

ثم استثنى تعالى استغفار إِبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه، فذكر أَنه كان عن موعدة، وقد فسَّرنا ذلك في موضعه، وهذا استثناءٌ ليس من الأَول، والمعنى عند مجاهد، وقتادة، وعطاءٍ الخرساني، وغيرهم أَن الأُسوة لكم في هذا الوجه لا في الآخر لأَنه كان في علَّة ليست في نازلتكم، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ من التَّبري والقطيعة التي ذكرت، أَي لم تبق صلة إِلاَّ كذا.

وقوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ الآية... حكايةٌ عن قول إِبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه أَنه هكذا كان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) يريد أن يقول: قال أبو حاتم: زعموا أن عيسى الهمداني قرأ: [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباءِ، ويجوز أن يكون كلام أبي حاتم صحيحاً.

(٢) هذا جزءٌ من حديث رواه مسلم في الإيمان، والبخاري في الأذان والاستسقاء والمغازي والتوحيد، وأبو داود في الطب، ومالك في باب الاستسقاءِ من الموطإ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن زبير بن خالد الجُهَني: قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَة في إثر السماءِ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

(٣) في أكثر النسخ: ولم تُلحق العلامة في [بُرَءَاءُ]، وهو خطأ من النُّسَّاخ. والمراد أن علامة التأنيث لم تلحق بالفعل [بَدَا] لأن التأنيث في «العداوة والبغضاء» مجازيٌ.



قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ الآية... حكايةٌ عن إبراهيم عليه السلام ومن معه، والمعنى: لا تغلِّبهم علينا فنكون لهم فتنةً وسببَ ضلالة لأنهم يتمسَّكون بكفرهم ويقولون: إنما غلبناهم لأنا على الحق وهم على الباطل، نحا هذا المعنى قتادة، وأبو مجلز، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُسَلِّطهم علينا فيفتنونا عن أَديانِنا، فكأنه قال: لا تجعلنا مفتونين، فعبَّر عن ذلك بالمصدر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَرجح الأَقوال لأَنهم إِنما دعَوْا لأَنفُسهم، وعلى منحى قتادة إِنما دعوا للكفَّار، أَما إِن مقصدهم إِنما هو أَن يندفع عنهم ظهور الكفَّار الذي بسببه فُتن الكفَّار، فجاءَ في المعنى تحليق بليغ، ونحوه قول النبي ﷺ: «بئس الميت سعد»[1] ليهود؛ لأَنهم يقولون: لو كان محمد نبيًا لم يمت صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الآية... خطاب لأُمة محمد ﷺ، وقوله سبحانه: [لِمَنْ] بدل من قوله: [لَكُمْ]، وكرر حرف الجر ليتحقَّق البدل، وذلك عُرف هذه المبدلات، ومنه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[2]، وهو في القرآن كثير، وأَكثر ما يلزم من الحروف اللام، ثم أَعلم تعالى باستغنائه عن العبادة، وأَنه الحميد في ذاته وأَفعاله، لا يُنقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق.

ورُوي أَن هذه الآيات لما نزلت وأَزمع المؤمنون امتثال أَمرها وصَرْم حبال الكفرة وإِظهار عداوتهم، لحقهم تأَسف على قراباتهم أَن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض، ومسلم، ومالك في موطئه في الوصية، وهو عن سعد بن أبي وقاص، قال: (مرضتُ بمكة مرضاً فأشفين منه على الموت، فأتاني النبي ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله، إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قال: قلت: فالشَّطْرُ؟ قال: لا، قلت: الثُّلُث؟ قال: الثلث كبير، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس، وإنَّك لن تُنفق نفقةً إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك، فقلت: يا رسول الله، أُخَلَّف عن هجرتي، فقال: لنَ تُخَلَّف بعدي فتعمل عملا تُريد به وجه الله إلا ازددت به رفعة ودرجة، ولعلَّ أن تُخَلَّف بعدي حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة»، قال سفيان: وسعد بن خولة رجلٌ من بني عامر بن لؤي.

(٢) من الآية (٨) من سورة (الحشر)، وقوله سبحانه [لِلْفُقَرَاءِ] بدل من قوله قبلها ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهما معطوفان على مجرور باللام.



بينهم الوُدُّ والتواصل، فنزلت ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ الآيةُ مُؤنسةً في ذلك، ومُرَجِّيَةً أَن يقع، فوقع ذلك بإسلامهم في الفتح، وصار الجميع إخواناً، ومن ذكر أَن هذه المودَّة تزوُّج النبي ﷺ أُم حبيبة بنت أَبي سفيان وأَنها كانت بعد الفتح فقد أَخطأَ؛ لأَن النبي ﷺ تزوجها وقت هجرة الحبشة، وهذه الآيات نزلت سنة ثمانٍ من الهجرة، ولا يصح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما إلاَّ أَن يسوقَه مثالاً وإِن كان متقدماً لهذه الآية لأَنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأَ من المودَّات، و«عَسَى» من الله واجبة الوقوع إن شاءَ الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

اختلف الناس في هؤلاءِ الذين لم ينْه عنهم أَن يتبرَّءُوا منهم ـ فقال مجاهد: هم المؤمنون من أَهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوءٍ لتركهم فرص الهجرة، وقال آخرون: أَراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أَهل مكة وغيرهم، وقال الحسن، وأَبو صالح: أَراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب كفاراً إِلاَّ أَنهم كانوا مظاهرين للنبي ﷺ، مُحبِّين فيه وفي ظهوره، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُزَيْنَة، وقال قوم: أَراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أَخرج ولا أَظهر سوءًا، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال، وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أَراد النساءَ والصبيان من الكفرة، وقال: إِن الآية نزلت بسبب أُمِّ أَسماءَ حين استأْذنت النبي ﷺ في برِّها وصلتها فأَذن لها، وكانت المرأَة خالتها فيما رُوي فسمَّتها في حديثها أُمًّا، وقال أَبو جعفر بن النحاس، والثعلبي: أَراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة، وهذا قول ضعيف، وقال مُرَّة الهمداني، وعطية العوفي: نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباسُ رضي الله تعالى عنه، وقال قتادة: نسختها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل، وهذا هو بدل

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة).

الاشتمال، و«الإِقْسَاطُ»: العدلُ، و[ظَاهَرُوا] معناه: عاونوا، و«الَّذِينَ قَاتَلُوا في الدِّين وأَخرجوهم» مَرَدَةُ قريش.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ الآية... نزلت إِثْر صلح الحديبية، وذلك أَن الصُّلْح تَضمَّن أَنْ يَرُدَّ المؤمنون إلى الكفَّار كلَّ من جاءَ مسلماً من رجل أَو امرأَة، فنقض الله تعالى من ذلك أَمر النساءِ بهذه الآية، وحكم بأَن المهاجرة المؤمنة لا تُرَدُّ إلى دار الكُفْر بل تبقى تستبرىء وتتزوج، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي أَنفق، وأَمر أَيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرَّت امرأَته من المؤمنين، وحكم تعالى بهذا في النازلة، وسمَّاهُنَّ تعالى مؤمنات قبل أَن يُتَيَقَّن ذلك لأَنه ظاهر أَمرهن، و[مُهَاجِرَاتٍ] نصب على الحال، و[امْتَحِنُوهُنَّ] معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن.

واختلف الناس في هذا الامتحان، كيف كان؟ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: كان بأَن تُسْتَحْلف المرأَة أَنها ما هاجرت لبغض زوجها، ولا بجريرة جَرَّتها، ولا بسبب من أَعراض الدنيا سوى حبِّ الله تعالى ورسوله ﷺ والدَّار الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الامتحان أن تُطالب بأَن تشهد أَن لا إِلٰه إلاَّ الله وأَن محمداً رسول الله، فإِذا فعلت ذلك لم تُرد، وقال فريق منهم عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: هو أَن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان، فإِذا أَقرَّت المرأَة بذلك فهو امتحانها، وقيل: إِن هذه الآية نزلت في أُميمة بنت بشر امرأَة حسَّان بن الدحداحة، وفي كتاب الثعلبي أَنها نزلت في سُبيعة بنت الحارث[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ إِشارةٌ إِلى الاسترابة ببعضهن، وحضٌّ على امتحانهن، وذكر تعالى العلة في أَلاَّ يُرَدَّ النساءُ إلى الكفَّار وهي امتناع الوطءِ وحُرْمته، وقرأَ طلحة: ﴿لاَ هُنَّ يَحْلِلْنَ لَهُمْ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ

(١) في «أسد الغابة» أن اسمها «سعيدة بنت الحارث الأسلمية».

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

أَمر الله تعالى بأَن يُؤْتى الكفَّار مهور نسائهم اللاتي هاجرن مؤمنات، ورفع الجناح في أَن يتزوجن بعد إِيتاءِ أُجورهن، وأَمر المسلمين بفراق الكافرات وأَلاَّ يمسكوا بعصَمِهِنَّ، فقيل: الآيات في عابدات الأَوثان ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً، وقيل: هي عَامة نُسخ منها نساءُ أَهل الكتاب.

و«العِصَمُ» جمع عصمة، وهي أَسباب الصحبة والبقاءِ في الزوجية، وكذلك العصمةُ في كل شيءٍ هي السبب الذي يُعتصم به ويعتمد عليه، وقرأَ جمهورُ السبعة والناسُ: [تُمْسِكُوا] بضم التاءِ وكسر السين وتخفيفها، من «أَمسك»، وقرأَ أَبو عمرو[1] وحده، وابن جبير، ومجاهد، والأَعرج، والحسن ـ بخلاف: ﴿وَلاَ تُمَسِّكُوا﴾، من «مسَّك» بالشد في السين، وقرأَ الحسن، وابن أَبي ليلى، وابن عامر ـ في رواية عبد الحميد ـ: [وَلاَ تَمَسَّكُوا] بفتح التاءِ والميم وفتح السين وشدها، وقرأَ الحسن: [وَلاَ تَمْسِكُوا] بفتح التاءِ وسكون الميم وكسر السين مخففة، ورأَيت لأَبي علي الفارسي أَنه قال: سمعتُ الفقيه أَبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: إِنه في الرجال والنساءِ، فقلت له: النحويون لا يرون هذا إِلاَّ في النساء؛ لأَن «كَوَافر» جمع «كافرة»، فقال: وايْش يمنع من هذا؟ أَليس الناسُ يقولون: طائفة كافرة وقرية كافرة؟ فَبُهِتُّ وقلت: هذا تأْييد[2].

وأَمر الله تعالى أَن يُسأَل أَيضاً الكافرون أَن يدفعوا الصدقات التي أَعطاها المؤمنون لمن فرَّ من أَزواجهم إِلى الكفار، وقرر الحكْم بذلك على الجميع، فروي عن ابن شهاب أَن قريشاً قالت: نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأَحدٍ صداقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأُخرى ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ الآية، فأَمر الله تعالى المؤمنين أَن يدفعوا إِلى من فرَّت زوجته ففاتت بنفسها إِلى الكفار صداقه الذي أَنفق، قال ابن عباس

(١) يعني: وحده من بين السبعة المشهورين، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف.
(٢) علَّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام أبي علي الفارسيِّ بقوله: «وهذا الكوفي معتزلي فقيه، وأبو علي معتزلي، فأعجبه هذا التخريج، وليس بشيءٍ؟ لأنه لا يقال «كافرة» في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها أو يكون محذوفاً مُراداً، أما بغير ذلك فلا يُجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث».



رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ: خمس نسوة من نساءِ المهاجرين رجعن عن الإسلام ولَحِقْنَ بالمشركين: أُمُّ الحكم بنت أَبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد[١]، وفاطمة بنت أَبي أُميَّة أُخت أُمِّ سَلَمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعَبْدة بنت عبد العزيز، كانت تحت هشام بن العاص. وأُم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأَعطاهم النبي ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة[٢].

واختلف الناس، من أَي مال يُدفع إِليه الصداق؟ فقال محمد بن شهاب الزهري: يُدفع إِليه من الصدقات التي كانت تدفع إِلى الكفار بسبب من هاجر من أَزواجهم، أَراد الله تعالى دفعها إِليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى [فَعَاقَبْتُمْ]، وسنبين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد، وقتادة: يُدفع إِليه من غنائم المغازي، وقال هؤلاءِ: المعاقبة هي الغزو والمغنم، وتأَوَّلوا اللَّفظة بهذا المعنى، وقال الزهراوي أَيضاً: يُدفع إِليه من أَيِّ وجوه الفيءِ أَمكن.

و«المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوءِ بسوءٍ، ولكنها بمعنى: فَصِرْتُم منهم إِلى الحال التي صاروا إِليها منكم، وذلك بأَن يفوت إِليكم شيءٌ من أَزواجهم، وهكذا هو التعقيب على الحمل والدواب، أَن يركب هذا عُقْبَة وهذا عُقْبَة، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: «وَإِنْ فَاتَكُم أَحَدٌ من أَزواجكم»، ويقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أَي: جاءَ فعْل كل واحد منهما بعقب فعْل الآخر، ويقال: أَعقب الرجل، ومنه قول الشاعر:

وَحَارَدَتِ النُّكْدُ الْجِلادُ ولَمْ يَكُنْ ... لِعُقْبَةِ قِدْرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ[٣]

---

(١) هو عياضُ بن شداد بن غَنْم بن زهير بن أَبي شداد القرشي الفهري، شهد المواقع كلها، وكان يُسَمَّى: زاد الراكب لأنه كان يؤثر رفقته بزاده.

(٢) لم يذكر هنا غير أربع، والذي في كتاب الثعلبي أنهن ستُّ نسوة، ويضاف إلى ما هنا: بَرْوع بنت عُقبة، كانت تحت شمَّاس بن عثمان، وشَهْبَة بنت غَيْلان، ولم يذكر اسم زوجها.

(٣) هذا البيت للكميت، وهو في الديوان والتاج واللسان، وهو في وصف الإبل، ومعنى حارَدَتْ: انقطعت ألبانها أو قلَّت، يقال: ناقة مُحَارِدٌ ومحارِدَةٌ: بمعنى: شديدة الحِرَادِ، والنُّكْدُ: التي ماتت أولادها، والجلاد: الغِلاظُ الجلودِ، القصارُ الشُّعورِ، الشِّدادُ النصوص، وهذا النوعُ من الإبل أقوى وأصبر وأقلُّ=



ويقال: عقَّب ـ بشدِّ القاف ـ أي أَصاب عُقْبى، والتَّعقيب: غزْوٌ إِثْر غزْو، ويقال: عَقَب ـ بتخفيفها ـ، ويقال: عَقِب ـ بكسرها ـ، كلُّ ذلك بمعنى يقرُب بعضه من بعض، ويجمع ذلك قُربى. وقرأَ جمهور الناس: [عَاقَبْتُمْ]، وقرأَ الأَعرج، ومجاهد، والزهري، وعكرمة، وحميد: [عَقَّبْتُمْ] بالتشديد في القاف، وقرأَ الأَعرج أَيضاً وأَبو حيوة، والزهراوي أَيضاً: [عَقَبْتُمْ] بفتح القاف خفيفة، وقرأَ النَّخَعي، والزهري أَيضاً: [عَقِبْتُمْ] بكسر القاف، وكلها بمعنى: غَنِمْتُمْ، ورُوي عن مجاهد: [أَعْقَبْتُمْ] بأَلف مقطوعة قبل العين، وهذه الآية كلُّها قد ارتفع حكمها. ثم ندب تعالى إِلى التقوى وأَوجبها، وذكر العِلَّة التي بها تجب التقوى وهي الإِيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإِنعامه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

هذه بيعة النساءِ في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسمَّاهم تبارك وتعالى: «المؤمنات» بحسب الظاهر من أَمرهن، ورفضُ الإِشراك هو محض الإِيمان، وقتل الأَولاد هو من خوف الفقر والفاقة، وكانت العرب تفعل ذلك، وقرأَ الحسن، وأَبو عبد الرحمن: [يُقَتِّلْنَ] بضم الياءِ وفتح القاف وكسر التاءِ مشدَّدة.

و«الإِتْيانُ بالبهتان» قال أَكثر المفسِّرين: معناه أَن تَنْسُب إِلى زوجها ولداً ليس هو له، واللَّفظ أَعم من هذا التخصيص، وإِن الفِرْية بالقول على أَحد من الناس بعظيمة لِمَنْ

= لَبَناً من نوع آخر أغزر لَبَناً وأضعف ويقال له: الخور، والعُقْبَة من التَّعقيب، وهو أن يأتي شيءٌ بعد شيءٍ، يقال: عَقَب هذا هذا إذا جاء بعده، ويقال أيضاً: أعْقَبَ هذا هذا، فهو عُقْبَةٌ له، والبيت شاهد على أن أعْقَبَ بمعنى عَقَبَ، فالشاعر يقول: مُعْقِبٌ، والقِدْر: إناءٌ يُطبخ فيه ـ وهي مؤنثة وقد تذكَّر ـ، يقول: لقد جفَّت ألبان الإبل حتى لم يبق شيءٌ يأخذه أحد من المستعيرين بعد آخرهم، أي لم يبق بعد الآخر آخر ثان.



هذا[1]، وإن الكذب فيما اؤْتُمِنَّ عليه من الحيض والحمل لِفِريةُ بهتان، وبعض أقوى من بعض، وذلك أَن بعض الناس قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ يراد به اللسان في الكلام، والفم في القُبلة ونحوها، و«بين الأَرْجُل» يراد به الفروج، وولَّد الإِلحاق ونحوه. و«المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه، قال أَنس، وابن عباس، وزيد بن أَسلم رضي الله عنهم: هو النَّوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أَوامر الشريعة فرضها وندبها.

ويُروى أَن جماعةً من النساءِ فيهن هند بنت عتبة ـ بايَعْن رسول الله ﷺ، فقرأ عليهن الآية، فلما قَرَّرهن على أَلاَّ يُشْرِكن قالت هند: وكيف نطمع أن تقبل منَّا ما لم تقبله من الرجال، بمعنى أن هذا بَيِّنٌ لزومه، فلما وقف على السَّرقة قالت: والله إِني لأُصيب الهنة من مال أَبي سفيان لا أَدري ما يحلُّ لي من ذلك، فقال أَبو سفيان ـ وكان حاضراً ـ: ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي، وقال لها رسول الله ﷺ كُلي وولدك بالمعروف، وقد تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر، قولها: «إِن أَبا سفيان رجل مسِّيك»، فلما وقف على الزِّني قالت: يا رسول الله وهل تزني الحُرَّة؟ قال لها رسول الله ﷺ: لا، ما تزني الحُرَّة، وذلك أَن الزِّنى في قريش إِنما كان في الإِماءِ في أَغلب الأَمر، وفيما يعرِف مثل هند، وإِلاَّ فالبغايا قد كُنَّ أَحراراً، فلما وقف على قتل الأَولاد قالت: نحن ربَّيناهم صغاراً، وقتلتهم أَنت ببدرٍ كباراً، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أَنفسنا أَن نعصيك[2]. ويروى أَن جماعة نساءِ بايعن النبي ﷺ فقلن: يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية. فلما فرغن قال رسول الله ﷺ: فيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ، فقُلْن: اللهُ ورسوله أَرحم بنا منَّا بأَنفُسنا.

وقوله تعالى: [فَبَايِعْهُنَّ] معناه: امْض معهن صفقة الإِيمان بأَن يُعْطِينَ ذلك من أَنْفُسهن ويُعْطَيْن عليه الجنة، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله ﷺ النساءَ بعد الإِجماع على أَنه لم تمسَّ يده الشريفة يد امرأَة أَجنبية ـ فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها

---

(١) يعني أن الافتراء على أحد من الناس بالقول أنه ارتكب عظيمة من الأمور لَهِيَ من هذا النوع.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، عن الشعبي رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

هذا وحديث المبايعة مذكور في البخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أُم عطية.

أَنها قالت: إِنه بايع النساءَ قولاً[(١)]، وقال: «إِنما قولي لمائة امرأَة كقولي لامرأَةٍ واحدة»[(٢)]، وقالت أَسماءُ بنت يزيد بن السَّكن: كنتُ في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسُطْ يدك نبايعك، فقال لي ﷺ: «إِنِّي لا أُصافح النساءَ لكن آخُذُ عليهن ما أَخذ الله عليهن»[(٣)]، وذكر النقاش حديثاً أَن النبي ﷺ مدَّ يده المكرمة من خارج بيت، ومدَّ نساءٌ من الأَنصار أَيديهن من داخله فَبَايَعْن[(٤)]، وما قَدَّمتُه أَثبت، وروي عن الشعبي أَنه ﷺ لفَّ ثوباً كثيفاً على يده، وجاءَ نسوة فَلَمَسْنَ يده كذلك[(٥)]، ورُوي عن

---

(١) روى البخاري عن عُرْوَةَ أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال عُرْوَةَ: قالت عائشة: فمن أَقَرَّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مسَّت يَدُه يَدَ امرأة في المبايعة قط، ما يُبايعُهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»، هذا لفظ البخاري، وقد أخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور). وأخرجه أيضاً أحمد (٦ـ١٥٣) والترمذي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن سعد، وأحمد والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أُمَيْمة بنت رقيقة، ولفظه كاملا أنها قالت: أتيتُ النبي ﷺ في نساءٍ لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: «ألاَّ نُشْرِكَ باللهِ شَيْئاً» حتى بلغ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتن وأطقتُنَّ، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أُصافح النساءَ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة». (الدر المنثور).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وابن مردويه، عن أسماءَ بنت يزيد رضي الله عنها، قالت: بايعتُ النبي ﷺ في نسوة فقال: «إنِّي لا أُصافحكن، ولكن آخذ عليكن ما أخذ الله». (الدر المنثور).

(٤) أخرج أحمد، وابن سعد، وأبو داود، وأبو يعلى، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن إسماعيل بن عطية، عن جدته أُم عطية رضي الله عنها، قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، فأرسل إليهن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام على الباب فسلم، فقال: أنا رسول رسول الله ﷺإليكن، تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين. . . الآية؟ قلنا: نعم، فمدَّ يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت، قاله إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: نهانا عن النياحة.

وهذه الرواية عن أُم عطية تفيد أن الذي تكلم مع النساء ومدَّ يده هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما رواية النقاش التي ذكرها ابن عطية فتفيد أن النبي مدَّ يده المكرَّمة، ونلحظ أن ابن عطية علَّق على رواية النقاش بقوله: «وما قدمتُهُ أثبت».

(٥) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، عن الشعبي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يبايع النساءَ ووضع على يده ثوباً، فلما كان بعدُ كان يخير النساءَ فيقرأُ عليهن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾=



الكلبي أَنَّه قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلمس النساءُ يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهُنَّ[١]، وذكر النقاش وغيره أَن النبي ﷺ بايعه النساءُ بمكَّةَ على الصَّفَا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصافحهن[٢]، ورُوي من حديث عمرو بن شعيب، عن أَبيه، عن جدِّه، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عروة بن مسعود الثَّقفي أنه ﷺ غَمَس يده في إِناءٍ فيه ماءٌ، ثم دفعه إِلى النساءِ يغمسن أَيديهن فيه[٣].

ثم أَمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهنَّ، ورجَّاهُنَّ في غُفرانه ورحمته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابن زيد، والحسن، ومنذر بن سعيد: هم اليهود لأَن غضب الله عزَّ وجلَّ قد صار عُرفاً لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم في هذه الآية كفار قريش؛ لأَن كل كافر فعليه غضب الله تعالى لا يردُّ ذلك ثبوت غضب الله على اليهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا سيَّما في المَرَدَة ككفَّار قريش، إِذ أَعمالهم معصية ليست بمجرد ضلال بل فيها مناورات[٤] مقصودة، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ﴾ يتبيَّن الاحتياج إِلى هذا الخلاف، وذلك أَن اليأس من الآخرة إِمَّا أَن يكون بالتكذيب بها، وهذا هو يأْس كفار مكة، وإِمَّا أَن يكون باليأْس عن الحظ فيها والنعمة مع التصديق بها، وهذا هو يأْس اليهود، فمن قال إِن القوم المشار إِليهم هم كفَّار مكَّة قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من صاحب قبر؛ لأَنه إِذا مات له حميم

= ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ الآية. . . ثم ذكر حضور هند امرأة أبي سفيان وكلامها. (الدر المنثور).

(١) راجع الهامش رقم (٤) من الصفحةالسابقة، هذا وقد أخرجه أيضاً ابن جرير الطبري عن أُم عطية رضي الله عنها.

(٢) في تفسير ابن كثير أن مقاتل بن حيان قال: أُنزلت هذه الآية يوم الفتح، بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعُمر بايع النساءَ يُحَلِّفهن عن رسول الله ﷺ. . . ثم قال ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم. ثم ساق روايته، فيها خبر هند بنت عتبة.

(٣) أخرجه ابن سعد، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايع النساءَ دعا بقدح من ماءٍ فغمس يده فيه ثم يغمسن أيديهن، فكانت هذه بيعته.

(٤) اختلفت الأصول في هذه الكلمة، ففي بعضها جاءت: «شرارات» وفي بعضها كانت «سرارات».



قال: هذا آخر العهد به، لن يُبعث أبداً، فمعنى الآية أن اعتقاد أَهل مكَّة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاءِ موتاه، وهذا هو تأْويل ابن عباس، والحسن، وقتادة في معنى قوله تعالى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾. ومن قال إن القومَ المشار إِليهم هم اليهود قال: معنى قوله تعالى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من الرَّحمة إذا ماتَ وكان صاحب قبر، وذلك أَنه يُروى أَن الكافر إذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة أن لو كان مؤمناً، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه[1]، فهو يائس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه، وهذا تأْويل مجاهد، وابن جبير، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾، فمعنى الآية أن يأَس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع عِلمهم بها كيأْس ذلك الكافر في قبره، وذلك لأَنهم قَدْ رِينَ على قُلوبهم، وحملهم الحسد على ترك الإِيمان، وغلب على ظنونهم أَنهم مُعَذَّبون، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي ﷺ.

و[مِنْ] في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ على القول الأَول لابتداءِ الغاية، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أَو للتبعيض، يتوجَّهان فيها، وبيان الجنس أَظهر.

كمل تفسير سورة الممتحنة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) حديث إن الميت يعرض عليه مقعده. الخ. أخرجه البخاري في الجنائز وبدء الخلق والرقاق، ومسلم في الجنة، والترمذي في الجنائز، وكذلك كل من النسائي، ومالك في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٢ـ١٦، ٥١، ١١٣، ١٢٣)، ولفظه كما في مسند أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم أحد إلا يعرض عليه بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى تبعث إليه».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الصف

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمهدوي عن عطاءٍ ومجاهد: إنها مكِّيَّة، والأَول أَصح لأَن معاني السُّورة تعضده، ويشبه أَن يكون فيها المكي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾.

قد تقدَّم القول غير مرَّة في تسبيح الجمادات، و«الْعَزِيزُ» في سلطانه وقدرته، و«الحكيم» في أَفعاله وتدبيره، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ـ فقال ابن عباس، وأَبو صالح: نزلت بسبب أَن جماعة قالوا: لَوَددنا أَن نعرف أَحب الأَعمال إِلى ربنا حتى نعتني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأَعلمهم بفضله لديه، وأَنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص، وكان إِذْ فُرض قد تكرَّهه قوم منهم، وفرَّ من فرَّ يوم أُحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب أَن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أَنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، ويقولون فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين لأَن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أَفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم.

وحكم هذه الآية باق غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مَذِق



الكلام[١]، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه بأَن يكونوا غير مُجَلِّحين بالنفاق[٢]، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين، أَي: في زعمكم وما تُظهرون، والقول الأَول يترجَّح بما يأتي بعد من أَمر الجهاد والقتال.

و«الْمَقْتُ»: البغض من أَجل ذنب أَو ريبة أَو دناءَة يصنعها الممقوت، هذا حدُّ المقت، فتأَمَّله، و[مَقْتاً] نصب على التمييز، والتقدير كَبُر فِعْلكم مقتاً، والمراد: كبر مَقْتُ فِعْلكم، فحذف المضاف إِليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تقول: تَفَقَّأَ شحماً بطنُك، ثم تقول: تَفَقَّأَ بطنُك شحماً، و﴿ أَن تَقُولُوا ﴾ يحتمل أَن يكون بدلاً من المقدر، ويحتمل أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمَر، ويحتمل ـ على غير هذا التقدير ـ أَن يكون فاعلاً بـ[كَبُرَ]، وقول المرءِ ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى، ولذلك فرَّ كثير من العلماءِ من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت.

ثم أَكَّد تعالى الإِخبار بمحبته للمقاتلين صفًّا، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإِرادة لأَن الإِرادة لا يصح أَن يقع ما يخالفها، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً، وقال بعض الناس: قتال الرَّجَّالة[٣] أَفضل من قتال الفرسان لأَن التَّراصَّ فيه يتمكن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف خَفِيَ على قائله مقصد الآية، وليس المراد نفس التصافِّ، وإِنما المقصد الجِدُّ في كل أَوطان القتال وأَحواله، وقصد بالذِّكْر أَشدَّ الأَحوال وهي الحالة التي تحوج إِلى القتال صفًّا متراصًّا، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأَحوال، وقضت الآية بأَن الذين يبلغ جِدُّهم إِلى هذه الحال حريُّون أَلاَّ يُقَصِّروا عن حال، و«الْمَرْصُوصُ»: المصفوف المُتَضَام، وقال أَبو بَحْرِيَّة[٤]: «إِذا رأيتموني أَلتفت في

---

(١) من معاني كلمة «الْمَذْق»: الكذب وعدم الإخلاص.

(٢) يعني: ركبوا رُءُوسهم في النفاق ومضوا فيه إلى غايته.

(٣) جمع راجِلٍ وهو الذي يقاتل وهو على رجليه.

(٤) اختلفت النسخ في كتابة اسمه، فهو في بعضها: أبو يحيى، وفي بعضها: أبو بحيرة، والصواب ما أثبتناه، وهو عبد الله بن قيس الكندي السَّكوني التراغمي أبو بحريَّة الحمصي، شهد خطبة عمر بالجابية، وروى عن معاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وأبي عبيدة بن الجراح وأبي هريرة، وروى عنه ابنه وخلق كثير، قال ابن عبد البَرّ: «هو تابعي ثقة»، وقال الحافظ في التقريب: «حمصي مشهور مخضرم، =

الصف فجزُّوا فؤادي»[١]، ومنه قول الشاعر:

بِالشَّامِ بَيْنَ صَفَائِحٍ صُمٍّ تَرَصَّصُ بِالْجَنُوبِ[٢]

وقال منذر بن سعيد، والفراءُ، وغيرهما: المرصوصُ: المعقود بالرصاص، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظه.

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، ذكَّرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيَّهم على علم منهم بنبوَّته، وَزَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم، فاحذروا أيها المؤمنون أن يُصَيِّركم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم، وقال أبو أُمامة: هم الخوارج، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم الحرورية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى أنهم أشباههم في أنهم لما زاغوا أزاغ الله تعالى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ تقرير، والمعنى: تؤذونني بِتَعَنُّتِكم وعصيانكم واقتراحاتكم، وهذه كانت أفعال بني إسرائيل.

وانظر أنه تعالى أسند الزَّيْغ إليهم لكونه فعل حطيطة[٣]، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤]، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[٥] فقد أسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رِفْعة، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٦]، و«زَاغَ» معناه: مالَ، وصار عُرفها في الميل عن

= ثقة، مات سنة سبع وسبعين» رضي الله عنهم أجمعين.

(١) الذي في الطبري: «فجَئُوا لحيي»، وهي من وَجَأَه إذا دَفَعَه بجُمْع كفِّه في الصدر أو العُنق.

(٢) الصَّفائح: جمع صفيحة وهي كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما، والصُّم: المُصْمتة الصُّلْبة، وتَرَصَّصُ: أُحْكِمَ جمْعه وضُمَّ بعضه إلى بعض، وكلُّ ما أُحْكِم وضُمَّ فقد رُصَّ، وهو موضع الاستشهاد هنا، ولم أقف على هذا البيت في المراجع التي بين يديَّ.

(٣) نزول في المكانة وتحقير.

(٤) من الآية (١٩) من سورة (الحشر).

(٥) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة).

(٦) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء).

الحق، و﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ معناه: طبع عليها وختم وكثر مَيْلُها عن الحق، وهذه هي العقوبة على الذنب بالذنب، وأمال ابن أبي إسحاق [زَاغوا].

قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

المعنى: واذكر يا محمد إذ قال عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وهذا مثال آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش، وحكي عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وعن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب. و[مُصَدِّقاً] حال مؤكدة، و[مُبَشِّراً] عطف عليه، وقوله: ﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾ وقوله: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة لـ[رَسُولٍ]، و«أَحْمَد» فعل سمِّي به، ويحتمل أن يكون أَفْعل كأسود، وهو في هذه الآية للكلمة لا الشخص، وليست على حدِّ قولك: جاءَنا أحمد؛ لأنك ها هنا أوقعت الاسم على مسمَّاه، وفي هذه الآية إنما أراد: اسمه هذه الكلمة، وذكر أبو علي هذا العرض، ومنه ينفك إعراب قوله تعالى: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[1]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ: [من بعديَ] بفتح الياءِ، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: ﴿مِنۢ بَعْدِي﴾ بسكون الياءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية... يحتمل أن يريد عيسى عليه السلام، وتكون الآية وما بعدها تمثيلاً بأُولئك لهؤلاءِ المعاصرين لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله: [أَحْمَد]، ثم خرج إلى ذكر أحمد، لمَّا تطرَّق ذكره فقال تعالى مخاطبة للمؤمنين: فلمَّا جاءَ أحمد هؤلاءِ الكفار قالوا: هذا سحر مبين، و«البيِّنَات» هي الآيات والعلامات، وقرأ جمهور الناس: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ إشارة إلى ما جاءَ به، وقرأ ابن مسعود، وطلحة، والأعمش، وابن وثاب: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ إشارة إليه بنفسه.

(١) من الآية (٦٠) من سورة (الأنبياء).



وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تعجيب وتقرير، أي لا أَحد أَظلم منه، و«افتراءُ الكذب» هو قولهم: «هذا سحرٌ» وما جرى مجرى هذا من الأَقوال بغير دليل، وقرأَ الجمهور: [يُدْعَى] على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ طلحة بن مصرف: [يَدَّعِي] بمعنى: ينتمي وينتسب، ومن ذلك قول الشاعر:

فَـرَمَيْـتُ فَـوْقَ مُـلاءَةٍ مَحْبُـوكَـةٍ ... وَأَبَنْـتُ لِـلأَشْهَـادِ حَـزَّةَ أَدَّعِـي[1]

والمعنى ـ على هذه القراءَة ـ إِنما هو إِشارة إِلى الأَنبياءِ عليهم السلام، لمَّا حكى عن الكفار أَنهم قالوا: «هذا سِحْرٌ» بيَّن بعد ذلك أَن العقل لا يقبله، أَي: وهل أَظلم من هذا الذي يزعم أَنه نبيٌّ ويدَّعي إِلى الإِسلام وهو مع ذلك مُفْتَر على ربِّه؟ وهذا دليل واضح لأَن مسالك أَهل الافتراءِ والْمَخْرَقَة[2] إِنما هي دون هذا وفي أُمور خسيسة، وضبط النقاشُ هذه القراءَة [يُدَّعَى] بضم الياءِ وفتح الدال المشددة على ما لم يسمَّ فاعله.

والضمير في [يُرِيدُونَ] للكفار، واللام في قوله تعالى: [لِيُطْفِئُوا] لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأَن التقدير: يريدون أَن يطفئوا، و«أَن» مع الفعل في تأْويل المصدر، فكأَنه تعالى قال: يريدون إِطفاءَ، وأَكثر ما تلزم هذه اللامُ المفعولَ إِذا تقدَّم، تقول: لِزيدٍ ضربت ولِرُؤْيتك قصدت. و«نورُ الله» هو شرعه سبحانه وبراهينه، وقوله تبارك وتعالى: [بِأَفْوَاهِهِمْ] إِشارة إِلى الأَقوال، أَي بقولهم: سِحْر وشِعْر وتكَهُّن وغير ذلك.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم، وابن محيصن، والحسن وطلحة، والأَعرج: [واللهُ مُتِمٌّ] بالتنوين [نُورَهُ] بالنصب، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأَعمش: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بالإِضافة، وهي في معنى الانفصال، وفي هذا نظر.

---

(١) قال هذا البيت ساعدةُ بن العَجْلان الهذليُّ يرثي أخاه مسعوداً حين قتله ضَمْرة بن بكر، وهو من قصيدة مطلعها:

لَمَّـا سَمِعْـتُ دُعَـاءَ ضَمْـرَةَ فيهِـمُ ... وَذَكَـرْتُ مَسْعُـوداً تَبَـادَرَ أَدْمُعِـي

المُلاءَةُ: الملْحفة، ومحبوكة: مشدودة محكمة، وأَبَنْتُ للأَشْهَادِ: أعلنتُ للملأ والحضور، وحَزَّة: حين، وأَدَّعي: أَنْتَسِب، يقول: إنه رَمَى هذه الرمية فأصابت الملاءَة المحبوكة على عَدُوِّه، وإنه أعلن عن نفسه بقوله: خُذْها وأنا ابن فلان، والشاهد هنا أن «أَدَّعي» بمعنى: أَنْتَسِب وأَنتمي.

(٢) المَخْرقة: الاختلاق والافتراءُ، قال أبو الهيثم: «الاختراق والاختلاق والاختلاص والافتراءُ واحد».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

هذا تأكيد لأمر الرِّسالة وشدٌّ لأزْرها، كما يقول الإنسان لأمر يثبته ويُقَوِّيه: أنا فعلتُه، أَي: فمن يقدر على معارضته فليعارض، و«الرَّسولُ» المشار إليه هو محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لفظ يصلح للعموم، وأَن يكون المعنى: أَلاَّ يبقى موضع فيه دين غير الإِسلام، وهذا لا يكون إلاَّ عند نزول عيسى عليه السلام، قاله أَبو هريرة، ومجاهد، ويحتمل أَن يكون المعنى: أَن يظهره حتى لا يوجد دين إلاَّ والإِسلام أَظهر منه، وهذا قد كان وَوُجد.

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضَّهم على الجهاد بهذه التجارة التي بيَّنها، وهي أَن يعطي المرءُ نفسه وماله ويأخذ ثمناً جنة الخُلْد، وقرأَ جمهور الناس والقراءِ: [تُنْجيكُمْ] بتخفيف النون وكسر الجيم دون شدٍّ، وقرأَ ابن عامر وحده[1]، والحسن، والأَعرج، وابن أَبي إِسحاق: [تُنَجِّيكُمْ] بفتح النون وشدِّ الجيم. وقوله تعالى: [تُؤْمِنُونَ] لفظه لفظ الخبر ومعناه الأَمر، أَي: آمنوا، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [أَلِيمٌ، آمِنوا باللهِ وجاهِدُوا]. وقوله تعالى: [تُؤْمِنُونَ] فعل مرفوع تقديره: ذلك أَنه تؤمنون[2]، وقال الأَخفش: هو عطف بيان على [تِجَارَةٍ]، قال المبرد: هو بمعنى: آمنوا على الأَمر، ولذلك جاءَ [يَغْفِرْ] مجزوماً، وقوله تعالى: [ذَلكُمْ] إِشارة إِلى الجهاد والإِيمان، و[خَيْرٌ] هنا يحتمل أَن يكون للتفضيل، فالمعنى: من كلِّ عمل، ويحتمل أَن يكون إِخباراً أَن هذا خيرٌ في ذاته ونفسه.

والجزمُ في قوله تعالى: [يَغْفِرْ] على الجواب للأَمر المقدر في [تُؤْمِنُونَ]، أَو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ من الحضِّ والأَمر، وإِلى نحو هذا ذهب الفراءُ، ورُوي

---

(١) أي: من السبعة.

(٢) علّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله: «وهذا ليس بشيءٍ لأن فيه حذف المبتدأ وحذف «أنه» وإبقاء الخبر، وهذا لا يجوز». البحر المحيط (٨ـ٢٦٣).



عن أَبي عمرو ابن العلاءِ أَنه قرأَ: [يَغْفِلَّكُمْ] بإِدغام الراءِ في اللام، ولا يجوِّز ذلك سيبويه، وقوله تعالى: [وَمَسَاكِنَ] عطف على [جَنَّاتٍ]، و«طيبُ المساكن»: سَعَتُها وجمالُها، وقيل: طيبُها المعرفةُ بدوام أَمرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، وأَيُّ طيب مع الفناءِ والموت؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: [وَأُخْرَى]، قال الأَخفش: هي في موضع خفض عطفاً على [تجَارَة]، وهذا قولٌ قلقٌ قد ردَّ عليه ناسٌ واحْتَجَّ له آخرون، والصحيح ضعفه لأَن هذه «الأُخرى» ليست ممَّا دلَّت عليه، إِنما هي ممَّا أُعطي ثمناً وجزاءً على الإِيمان والجهاد بالنفس والمال. وقال الفراءُ: [وَأُخْرَى] في موضع رفع، وقال قوم: [أُخْرَى] في موضع نصب بإِضمار فعل، كأَنه تعالى قال: يغفرْ ذنوبكم ويُدخلْكم جنات ويمنحْكُم أُخرى وهي النصر والفتح القريب، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [نصراً من الله وفتحاً] بالنصب فيهما، ووصفها تعالى بأَن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا، وقد وكلت النفس بحب العاجل، ففي هذا تحريض، ثم قوَّاه تعالى بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه الأَلفاظ في غاية الإِيجاز وبراعة المعنى.

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إِلى النصرة، ووضع لهم هذا الاسم وإِن كان العُرْف قد خصَّ به الأَوس والخزرج، وسمَّاهم الله تعالى به. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وعيسى: [أَنْصَاراً] منَّوناً [للهِ]، وقرأَ الباقون[1]، والحسن، والجحدري بالإِضافة، وفي حرف عبد الله[2]: [أَنتم أَنصار الله].

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا، وهم الحواريُّون، والحواريون

---

(١) أي: من السبعة.

(٢) في بعض النسخ: «وفي حرف أُبَيٍّ».

خُلْصان[١] الأَنبياءِ عليهم السلام، سُمُّوا بذلك لأنه ردَّد اختيارهم وتصفيتهم وكذلك ردَّد تخيل الحواري، واللفظتان من «الحَوَر»، وقيل: سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا غسَّالين[٢] نصروا عيسى عليه السلام، واستُعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد: حواري، وقال النبي ﷺ: «وحواري الزبير»[٣]، وافتراق طوائف بني إسرائيل هو في أَمر عيسى عليه السلام، قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية وكلُّهم قالوا: هو الله، والإسرائيلية وهم قالوا: هو ابن الله، والنسطورية وهم قالوا: هو إِله، وأُمُّه إِله، والله تعالى ثالثهما، تعالى الله سبحانه عن أَقوالهم عُلُوًّا كبيراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، قيل: ذلك قبل محمد ﷺ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام، ردَّ الله تعالى الكرَّة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي أُلقي عليه الشبه، وقيل: ذلك لمحمد ﷺ، أَصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإِيمانه بمحمد ﷺ، وذلك لأنه لا يؤمن أَحد حق الإِيمان بعيسى عليه السلام إِلاَّ وفي ضمن ذلك الإِيمان بمحمد ﷺ؛ لأَنه بشَّر به وحرَّض عليه، وقيل: كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحُجَّة وإِن ظلُّوا مفترقين في البلاد، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا، وقرأَ مجاهد، وحُميد، والأَعرج، وابن محيصن: [فَآيَدْنَا] مخفَّفة الياءِ ممدودة الأَلف.

كمل تفسير سورة الصَّف والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) الخُلْصان: الخالِصُ من الأخْدان، يستوي فيه الواحد والجمع. (المعجم الوسيط).

(٢) المشهور أنهم كانوا قَصَّارين، أي يدقُّون الثياب ويبيِّضونها.

(٣) أخرجه الشيخان، كما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: (تفسير ابن كثير، ومجمع الزوائد ٩ـ١٥١)، كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة، ولفظه كما جاء في البخاري ـ باب فضائل الصحابة ـ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبيٍّ حواريَّ، وإنَّ حواريَّ الزُّبير بن العوام».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الجمعة(١)

وهي مدنيَّة، وذكر النقاش قولاً أنها مكِّيَّة، وذلك خطأٌ ممَّن قاله؛ لأَن أَمر اليهود لم يكن إلاَّ بالمدينة، وكذلك أَمْر الجمعة لم يكن قط بمكَّة، أَعني إِقامتها وصلاتها، وأَمَّا أَمْر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة، وذكر النقاش عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا جلوساً عند رسول الله ﷺ حين نزلت سورة الجمعة(٢)، وهذا أَيضاً ضعيف؛ لأَن أَبا هريرة رضي الله عنه إِنما أَسلم أَيَّام خيبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

تقدَّم القول في مثل أَلفاظ الآية الأُولى بأَجمعها، واختلفت القراءَة في إِعراب الصفات في آخرها، فقرأَ جمهور الناس: [ٱلْمَلِكِ] بالخفض نعتاً [لِلَّهِ]، وكذلك

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»، وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن مردويه.

(٢) ذكر الإمام ابن كثيرفي تفسيره أن هذا الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وزاد الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره السيوطي: (كنا جلوسا عند النبي ﷺ حين أُنزلت سورة الجمعة، فتلاها فلما بلغ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال له رجل: يا رسول الله، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على رأس سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريَّا لناله رجال من هؤلاء»، وتأمل قول المؤلف: إن هذا ضعيف.



ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق[١]، ومسلمة، وأبو الدينار: [الْمَلِكُ] بالرفع على القطع، وكذلك ما بعده، وفتح أبو الدينار القاف من [الْقَدُّوسِ].

و«الأُمِّيُّونَ» يراد بهم العرب، والأمِّي في اللغة: الذي لا يكتب ولا يقرأ، منسوب إلى «أمِّ القرى» وهي مكَّة، وهذا ضعيف؛ لأن الوصف بالأمِّيين ـ على هذا ـ يقف على قريش. وإنما المراد جميع العرب، وفيهم قال النبي ﷺ: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا»[٢]، وهذه الآية تعديد نعم الله تعالى عليهم فيما أولاهم، و«الآياتُ المتْلُوَّةُ»: القرآن، و[يُزَكِّيهِمْ] معناه: يطهِّرهم من الشِّرك، وينمِّي الخير فيهم، و«الكتاب»: الوحي المتْلُوُّ، و«الحِكْمَةُ»: السُّنَّةُ التي هي على لسانه عليه الصلاة والسلام.

ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، و﴿آخَرِينَ﴾ في موضع خفض عطفاً على [الأُمِّيِّينَ]، أو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدِّمة، واختلف الناس في المَعْنِيِّين بقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ﴾ ـ فقال أبو هريرة رضي الله عنه وغيره: أراد فارس، وقد سُئل رسول الله ﷺ: من الآخرون؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: «لو كان الدين في الثريَّا لناله رجال من هؤلاءِ»، خرجه مسلم[٣]، وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: أراد الرُّوم والعجم، فقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ ـ على هذين القولين ـ إنما يريد به: في البشرية والإيمان، كأنه تعالى قال: وآخرين من الناس، وقال مجاهد أيضاً، وعِكْرِمة، ومقَاتل: أراد التابعين من أبناءِ العرب[٤]، فقوله تعالى: [مِنْهُمْ] يريد

---

(١) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، الكوفي، قال عنه في التقريب: «ثقة، مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وله مائة سنة».

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢ـ٤٣، ٥٢، ١٢٢، ١٢٩)، ولفظه فيه أن الأسود بن قيس قال: سمعت سعيد بن عمرو بن سعيد يحدِّث أنه سمع ابن عمر يحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وعقد الإبهام في الثالثة ـ، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين».

(٣) راجع الهامش رقم (٢) من الصفحة السابقة.

(٤) روى ابن أبي حاتم عن سهل الساعديِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أُمَّتي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم تلا: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، قال الإمام القرطبي: والقول الأول أثبت.



به النَّسب والإيمان، وقال ابن زيد ومجاهد والضحاك وابن حبان: أراد بقوله تعالى: [وآخَرِينَ] جميع طوائف الناس ويكون [مِنْهُمْ] في البشرية والإيمان على ما قلناه، وذلك أنَّا نجد بعثه عليه الصلاة والسلام إلى جميع الخلائق، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لأهل اليمن: أنتم هم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ نفيٌ لما قَرُب من الحال، والمعنى أنهم مزمعون أن يلحقوا بهم، وهي «لم» زيدت عليها «ما» تأكيداً، قال سيبويه: «لَمَّا» نَفي قولك: «قد فعل»، و«لَمْ» نفي قولك: «فعل» دون «قَدْ».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الآية... تَبيينٌ لموقع النعمة وتخصيصه إيَّاهم بها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

الذين حُمِّلوا التوراة هم بنو إسرائيل والأحبار المعاصرون لرسول الله ﷺ، و[حُمِّلُوا] معناه: كُلِّفُوا القيام بأوامرها ونواهيها، فهذا كما حمل الإنسان الأمانة، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإن كان مُشْتَقًّا منه، وذكر تعالى أنهم لم يَحْملوها، أي: لم يُطيقوا أمرها ويَقِفوا عند حدِّها حين كذبوا بمحمد ﷺ والتوراةُ تنطق بِنُبُوَّته، فكأن كل خير لم ينتفع به من حُمِّله، كمثل حمارٍ عليه أسفارٌ فهي عنده والزِّبل وغير ذلك بمنزلة واحدة.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر: [حَمَلُوا] بفتح الحاءِ والميم مخففة، وقرأ المأمون العباسي: «يُحَمَّل» بضم الياءِ وفتح الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة، وفي مصحف ابن مسعود: [كَمَثَلِ حِمَارٍ] بغير تعريف، و«السِّفْرُ»: الكتابُ المجتمع الأوراق مُنَضَّدة، ثم بيَّن تعالى حال مثلهم وفساده بقوله سبحانه: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾، والتقدير: بئس المثل مثل القوم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ﴾ الآية. رُوي أنها نزلت بسبب أن



يهود المدينة لمَّا ظهر رسول الله ﷺ خاطبوا يهود خيبر في أَمره، فذكروا نُبُوَّته، وقالوا لهم: إن رأَيتم اتِّباعه أَطعناكم، وإِن رأَيتم خلافه خالفناه معكم، فجاءَهم جواب أهل خيبر يقولون: نحن أَبناءُ إبراهيم خليل الرحمن، وأَبناءُ عُزَيْر ابن الله، ومنَّا الأَنبياءُ، ومتى كانت النُّبوَّة في العرب؟ نحن أَحق بالنبوة من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا سبيل إِلى اتباعه، فنزلت الآية بمعنى: إِنكم إِذا كنتم من الله بهذه المنزلة فقُربه وفِراقُ هذه الحياة الخسيسة أَحب إِليكم فتمنوا الموت إِن كنتم صادقين تعتقدون في أَنفسكم هذه المنزلة.

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم لا يَتَمَنَّوْنه ولا يلقونه إِلاَّ كرهاً لعلمهم بسوءِ حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه، هذا هو اللازم من أَلفاظ الآية، وروى كثير من المفسِّرين أَن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد ﷺ، وآية باهرة، وأَعلمه أَنه إِن تمنى أَحد منهم الموت في أَيام معدودة ماتَ وفارق الدُّنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنوا الموت في جهة التعجيز وإِظهار الآية، فما تمنَّاه أَحدٌ خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد ﷺ[1].

ثمَّ توعَّدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثمَّ بما بعده من الرَّدِّ إِلى الله تعالى، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [تَفِرُّونَ منْهُ مُلاَقِيكُمْ] بإِسقاط [فَإِنَّهُ].

وقوله تعالى: [فَيُنَبِّئُكُمْ] أَي: إِنباءَ مُعَاقِبٍ مُجازٍ عليه بالتعذيب، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق: [فَتَمَنَّوِا المَوتَ] بكسر الواو، وكذلك يحيى بن يَعْمَر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾.

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال: إن رأيتُ محمداً عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»، أخرجه الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي.



النداءُ بالجمعة هو في ناحية المسجد، وكان على الجدار في مسجد رسول الله ﷺ، وقال السائب بن يزيد[١]: كان للنبي ﷺ مؤذن واحد على باب المسجد، وفي مصحف أَبي داود: وكان بين يديه وهو على المنبر أَذان، وهو الذي استعمل بنو أُمَيَّة، وبقي بقرطبة إِلى الآن، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداءَ على الزوراءِ يُسمع الناس، فقوم عبَّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأَنهم لم يتعدُّوا الذي كان بين يدي النبي ﷺ، وقومٌ عبَّروا عنه بالثالث. وقرأَ ابن الزبير، والأَعمش: [الْجُمْعَةِ] بإِسكان الميم، وهي لغة.

والمأْمور بالسَّعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحرُّ الذَّكَر، ولا جمعة على مسافر في طاعة، فإِن حضرها أَحسن وأَجْزَته، واختلف الناس في الحدِّ الذي يلزم منه السَّعي ـ فقال مالك: ثلاثة أَميال من منزل الساعي إِلى المنادي، وقال فريق: من منزل الساعي إِلى أَول المدينة التي فيها النداءُ، وقال أَصحاب الرأْي: يلزم أَهل المدينة كلها السَّعي من سمع النداءَ ومن لم يسمع وإِن كانت أَقطارها فوق الثلاثة أَميال، وقال أَبو حنيفة: ولا يلزم مَنْ منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة، وإِنما بينهما مجرى نهر، ولا تجوز لهم إِقامتُها لأَن مْنْ شروطها الجامع والسُّلطان القاهر والسُّوق القائمة، وقال بعض أَهل العلم: السعي من خمسة أَميال، وقال الزهري: من ستَّة أَميال، وقال أَيضاً: من أَربعة أَميال، وقاله ابن المنكدر، وقال ابن عمر، وابن المسيَّب، وابن حنبل: إِنما يلزم السعي من سمع النداءَ، وفي هذا نظر.

والسَّعي في الآية ليس الإِسراع في المشي كالسَّعي بين الصَّفا والمروة، وإِنما هو بمعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[٢]، فالقيامُ والوضوءُ ولبسُ الثوب والمشيُ سعيٌ كلُّه إِلى ذكر الله تعالى، قال الحسن، وقتادة، ومالك، وغيرهم: إِنما

(١) هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثُمامة الكندي، ويعرف بابن أُخت النَّمِر، صحابي صغير، له أحاديث قليلة، وحُجَّ به في حجة الوداع وهو ابن سبع سنين، وولاه عمر سوق المدينة، مات سنة إحدى وتسعين، وقيل: قبل ذلك، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. (تقريب التهذيب).

(٢) الآية (٣٩) من سوة (النجم)، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾، فالسعي في هذه الآيات هو العمل، ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلمى:

سَعَى بَعْدَهُم قَومٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُوا ... فَلَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يُلامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

فمعنى «سعى» في كل هذه الأمثلة: عَمِل.



تُؤْتَى الصلاة بالسَّكينة، والسَّعيُ هو بالنِّيَّة والإرادة والعمل[١]، و«الذِّكْرُ» هو وعظ الخطبة، قاله ابن المسيَّب، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ الملائكة على أبواب المسجد يوم الجمعة، يكتبون الأول فالأول، فإذا خرج الإمامُ طُويت الصُّحف وجلست الملائكة يستمعون الذِّكر»، والخطبة عند جمهور العلماءِ شرط في انعقاد الجمعة، وقال الحسن: هي مستحبَّة، وقرأ عمر بن الخطاب، وعليٌّ، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾[٢]، وقال ابن مسعود: لو قرأتُ: [فَاسْعَوْا] لأسرعتُ حتى يقع ردائي.

واختَلف الناسُ في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع: ما الحكم فيه؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءًا ـ فقال الشافعي: يمضىٰ، وقالَ مَرَّةً: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات مضى. وقال مالك: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات أَصلح بالقيمة، واختُلف في وقت التقويم ـ فقيل: وقت القبض، وقيل: وقت الحكم.

وقوله تعالى: [ذَٰلِكُمْ] إشارة إلى السعي وترك البيع، وقوله سبحانه: [فَانْتَشِرُوا] أَجمع الناس على أَن مقتضى هذا الأمر الإباحة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أَنه للإباحة في طلب المعاش، وأَن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾[٣]، إلاَّ ما رُوي عن أَنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ذلك الفضلُ المُبْتَغَى هو عيادة مريض أَو صِلَة صديق أَو اتباع جنازة»[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا ينبغي أَن يكون المرءُ بقيةَ يوم الجمعة[٥]، ويكون تخيُّره[٦] صبح يوم

(١) وقيل: إن معنى «السَّعْي» هنا هو القَصْدُ، قال الحسن: والله ما هو بِسَعْي على الأقدام ولكنه سَعْي بالقلوب والنِّيَّة، وقيل: إن السَّعْي في الآية هو سَعْيٌ على الأقدام، وهو الدرجة العالية، فهو فضل وليس بشرط، أما السَّعْيُ بمعنى الجري والاشتداد فيه فهو غير مراد.

(٢) هذه القراءَة تبين أن المراد مجرد العمل والمضي فيه لا أنه السعي بالجري والاشتداد فيه.

(٣) من الآية (٢) من سورة (المائدة).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس رضي الله عنه.

(٥) يعني: ينبغي أن يكون في عيادة المريض أو صلة الصديق أو اتباع الجنازة أو ما شابه ذلك من الفضل.

(٦) يقصد تخيُّر العمل وأن ذلك يكون صباح يوم السبت.

السبت، قاله جعفر بن محمد الصادق، وقال مكحول: الفضل المُبْتَغى: العلم، فينبغي أَن يطلب إِثر الجمعة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ الآية، نزلت بسبب أَن رسول الله ﷺ كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأَقبلت عيرٌ من الشام تحمل مِيرَةً[1]، وصاحبُ أَمْرها دِحْيةُ بن خليفة الكلبي، قال مجاهد: وكان من عُرفهم أَن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفض أَهل المسجد إِلى رؤْية ذلك وسماعه، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَنا أَحدهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم تَمُرَّ بي تسميتهم في ديوان فيما أَذكره[2]، إِلاَّ أَني سمعت أَبي رحمه الله تعالى يقول: هم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختُلف في الحادي عشر، فقيل: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقيل: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: بقي معه ثمانية نفر، وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «لولا هؤلاءِ لكانت الحجارة سُوِّمت على المُنْفَضِّين من السماءِ»[3]، وفي حديث آخر «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أَحدٌ لسال عليكم الوادي ناراً»[4]، وقال قتادة: بلغنا أَنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات؛ لأَن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة، بسبب أَن المراحل كانت تُعطي ذلك، وقال تعالى: [إِلَيْهَا] ولم يقل: «إِليهما»

---

(١) المِيرَةُ: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٢) روى أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد حديثاً مرسلا فيه أَسماؤهم، وجاء فيه أن رسول الله ﷺ لم يبق معه إلا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وابو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود في إحدى روايتين، وفي الرواية الأخرى عمار بن ياسر رضوان الله عليهم أجمعين.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان، وقد ذكر فيه قصة العير التي قدمت مع دحية يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر، وفي آخره: (فقال النبي ﷺ عند ذلك ـ لولا هؤلاء ـ يعني الذين بقوا في المسجد عند النبي ﷺ ـ لقصدت إليهم الحجارة من السماءِ، ونزل ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾) (الدر المنثور).

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن، وأخرج مثله عن قتادة، كذلك أخرج مثله البيهقي في شُعب الإيمان. (الدر المنثور).



تقديماً للأهم إذ كانت هي سبب اللهو ولم يكن اللهو سببها[(١)]، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «ومِن التجارة لِلَّذين اتَّقوا والله خير الرازقين».

وتأَمَّلْ أَن قُدِّمت التجارة مع الرؤْية لأَنها أَهمُّ، وأُخِّرت مع التفضيل لتقع النفس أَولاً على الأَبْيَن.

وفي هذه الآية قيام الخطيب، وأَول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه، وأَول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه. و«الرَّزَّاق» صفة فعل، وقد يتصف بها بعض البشر تجوُّزاً إذا كان سبب رزق الحيوان، والله تعالى خير الرازقين.

كمل تفسير سورة الجمعة والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وقرىء [إلَيْهِمَا] بالتثنية للضمير، كقوله تعالى: ﴿إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، وتخريجه على أن يُتجوَّز بـ[أَوْ] فتكون بمعنى «الواو».».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنيَّة بإجماع، وذلك أَنها نزلت في غزوة بني المصطلق[1] بسبب أَن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول كان منه في تلك الغزوة أَقوال، وكان له أَتباع يقولون قوله، فنزلت السُّورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من حَلِفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأَنهم كَذَبة، وذكر تعالى فيها ما تأَخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأْتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات إِن شاءَ الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين، وذلك أَنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: نشهد إِنَّك لرسول الله، وهم في إِخبارهم هذا كاذبون؛ لأَن حقيقة الكذب أَن يخبر الإِنسان بضد ما في قلبه، وكسرت الأَلف من [إِنَّ] في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة، وقوله تعالى: [يَشْهَدُ] وما جرى مجراها من أَفعال اليقين والعلم تجابُ بما يجاب به القَسَم، وهي بمنزلة القَسَم.

وقرأَ الناس: [أَيْمَانَهُمْ] جمع يمين، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ:

---

(١) سبب النزول ذكره الواحدي في كتابه «أسباب النزول»، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة، وكذا أخرجه الطبري من طريقه، وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبي إسحق عن زيد بن أرقم، ورواها الترمذي، والنسائي، والحاكم من طريق أبي سعد الأَزْدي.

[إِيمَانَهُمْ] بكسر الأَلف، أي: هذا الذي يُظهرون، وهذا على حذف مضاف تقديره: إِظْهار، و«الْجُنَّةُ»: ما يُتَسَتَّر به في الأَجرام والمعاني، وقوله تعالى: [فَصَدُّوا] يحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ، تقول: «صدَّ زيدٌ»، ويحتمل أَن يكون متعدِّياً كما قال:

صَـــدَدْتِ الْكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو . . . . (١)

فالمعنى: صدُّوا غيرهم ممن كان يريد الإِيمان، أَو من المؤمنين في أَن يقاتلوهم أَو ينكروا عليهم، وتلك سبيل الله تعالى فيهم، وقد تقدَّم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: [ذَلِكَ] إِشارةٌ إِلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم، ويحتمل أَن تكون الإِشارة إِلى سوءِ ما عملوا، فالمعنى: ساءَ عملهم بأَن كفروا بعد إِيمان.

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ إِمَّا أَن يراد به: منهم من كان آمن ثم نافق بعد صِحَّةٍ من إِيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإِمَّا أَن يريدهم كلهم، فالمعنى: ذلك بأنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في باطن أمرهم، فسمَّى ذلك الإِظهار إِيماناً، وقرأَ بعض القراءِ: [فَطَبَعَ] على بناءِ الفعل للفاعل، وقرأَ جمهور القراءِ: (فَطُبِعَ) بضم الطاءِ على بنائه للمفعول بغير إِدغام، وأَدغم أَبو عمرو[٢]، وقرأَ الأَعمش: [فطبع الله]، وعبَّر الله تعالى بالطبع على ما خلق في قلوبهم من الريب والشَّك وخَتَم عليهم به من الكفر والمصير إِلى النار.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ توبيخٌ لهم: لأَنهم كانوا رجالاً أَجمل شيءٍ وأَفصحه، فكان منظرهم يروق وقَوْلُهم يخلب، لكن الله تعالى جعلهم كالخُشُب المُسَنَّدة إِذْ لا أَفهام لهم نافعة، ولا نظر يصيب، فذلك المنظر لا مَخْبَر له كالخُشُب المُسَنَّدة، إِنما هي أَجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها،

---

(١) هذا صدر بيت هو الخامس في معلقة عمرو بن كلثوم في كثير من الروايات، وأسقطه وبيتين بعده أبو بكر الأنباري في «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات»، والبيت بتمامه:

صَـــدَدْتِ الْكَـــأْسَ عَنَّـــا أُمَّ عَمْـــرو وَكَـــانَ الْكَـــأْسُ مَجْـــرَاهَـــا الْيَمِينَـــا

والرواية في «موسوعة الشعر العربي»: «صَبَنْتِ الكَأسَ» بمعنى: صَرَفْتِ، وعلى هذا فلا شاهد فيه، يقول: صرفت الكأس عنا يا أُم عمرو؟ وكان مجرى الكأس على اليمين فأجريتها على اليسار. يعني أنها تعمدت إبعادها عنه.

(٢) يعني أدغم عَيْن[فَطُبِعَ] في عين [عَلَى].



لا تَثْبُت بنفسها، ومنه قولهم: «تساند القوم» إذا اصطفُّوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أَن يُشَبِّه اصطفافهم في الأَندية باصطفاف الخُشُب المُسَنَّدة، وخلوهم من الأَفهام النافعة بخُلوِّ الخشب من ذلك، وقال رجل لابن سيرين: رأَيتني في النوم محتضناً خشبة، فقال ابن سيرين: أَظنك من أَهل هذه الآية، وتلا ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾.

وقرأَ عِكْرمة، وعطية: [يُسْمَعْ] بالياءِ مضمومة، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم: [خُشُبٌ] بضم الخاءِ والشين، وقرأَ قنبل، وابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: [خُشْبٌ] بضم الخاءِ وسكون الشين، وهي قراءَة البَرَاءِ بن عازب رضي الله عنه، واختيار أَبي عُبَيد، وقرأَ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيَّب: [خَشَبٌ] بفتح الخاءِ والشين، وذلك كله جمع «خَشَبَة» بفتح الخاءِ والشين، فالقراءَتان أَولاً كما تقول: بَدَنَةٌ وبُدُنٌ وبُدْنٌ، قاله سيبويه، والأَخيرة على الباب في ثَمَرَة وثَمَر.

وكان عبد الله بن أُبَيٍّ من أَبهى المنافقين وأَطولهم، ويدل على ذلك أَنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أَمر المنافقين وكيف سترهم الإِسلام.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ فَضْحٌ أَيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف، وذلك أَنهم كانوا يتوقعون أَن يأْمر النبي ﷺ ـ عن الله ـ بقتلهم، قال مقاتل: فكانوا متى سمعوا نُشدان ضالة، أَو صياحاً بأَيِّ وجه كان، أَو أُخبروا بنزول وحي، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأْنهم، وجرى هذا اللَّفظ مثلاً في الخائف، ونحوه قول الشاعر:

يُـــرَوِّعُـــهُ السِّـــرَارُ بِكُـــلِّ أَرْضٍ ... مَخَـــافَـــةَ أَنْ يكُـــونَ بِـــهِ السِّـــرَارُ[1]

وقول جرير:

مَـازِلْـتَ تَحْسَـبُ كُـلَّ شَـيْءٍ بَعْـدَهُـمْ ... خَيْــلاً تَكُــرُّ عَلَيْهِــمُ وَرِجَــالاً[2]

---

(١) السِّرَارُ: المُسَارَّة والمناجاة، وفي حديث عمر أنه كان يحدثه عليه الصلاة والسلام كأخي السِّرار، لخفض صوته، ويُرَوِّعه: يُفزعه ويُخيفه، يقول: إنه يخاف من المناجاة وخفي الأصوات خشية أن يكون هذا السِّرارُ خاصّاً به. ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان جرير، وقد نسبه الزمخشري والقرطبي إلى الأخطل، وذكر صاحب البحر المحيط أن ابن عطية نسبه إلى جرير، وأن الزمخشري نسبه للأخطل. وحَسِبَ الشيءَ يَحْسَبه: ظنّه، وكرّ=



ثم أخبر تعالى بأنهم هم العدو، وحذَّر منهم، و«العَدُوُّ» يقع للواحد وللجمع. وقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ يتضمن الإقصاءَ والمنابذة وتمني الشَّر لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يُصرفون، فيحتمل أن تكون [أنَّى] استفهاماً، كأنه تعالى قال: كيف يُصرفون؟ أوْ: لأيِّ سبب لا يرون رُشْد أنفسهم؟ ويحتمل أن تكون [أنَّى] ظرفاً لـ[قاتَلَهُمُ] كأنه تعالى قال: قاتَلَهُم اللهُ كيف انصرفوا وصُرفوا، فلا يكون في القول استفهام على هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

كان من أمر عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناسُ إلى ماءٍ سبق إليه المهاجرون، وكأنهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغَلَبة، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لأصحابه: قد كنتُ قلت لكم في هؤلاءِ الجلابيب ما قلتُ فلم تسمعوا مني، وكان المنافقون ومَنْ لا يتحرى، يُسَمُّون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

أَرَى الْجَلاَبِيبَ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا ... وابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ[1]

= يكُرُّ: رجع إلى الهجوم، وهو خلاف الفَرِّ، يصوِّر خوفه الذي يوقع في ظنِّه أن كل شيءٍ عدوٌّ يهاجمهم. ورجالا في البيت معطوفة على «خيلا».

هذا والمعنى المقصود في البيتين كثير مطروق في الشعر العربي، وقد غالى المتنبي فيه حين قال:

وَضَاقَتِ الأرْضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُمْ ... إذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلا

(١) البيت في ديوان حسَّان، والرواية فيه: «أَمْسَى الْخَلاَبِيسُ...» ومعناها: المُتَفَرِّقون الذين يأتون من هاهُنا وهاهُنا، والرواية في اللسان، والتهذيب، وشرح الشواهد الكبرى للعيني، والأغاني، ومعجم ما استعجم، وسمط اللآلىء، وتاريخ الطبري: «أمْسَى الجلابيب»، وبَيْضَة البَلَدِ هي بيضة النعامة تتركها في الصحراءِ لا راعي يرعاها ولا حامي يحميها، فهي مثال للذِّلة والهوان، وابن الفُرَيْعَة هو حسَّان، قال=

فقال النبي ﷺ: أَتحضُّ علينا يا حسَّان؟ ثم إِن الجَهْجَاهَ الغفاريَّ ـ وكان أجيراً لِعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وَرَد إِلى الماءِ بفرس لِعُمر، فازدحم هو وسِنانُ بن وبرة الجهني ـ وكان حليفاً للأَوس ـ، فكسع الجَهْجَاهُ سِناناً، فغضب سِنَان وتَثَاورا، ودعا الجهجاه بالمهاجرين، ودعا سِنان بالأَنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دَعوى الجاهلية»، فلما أُخبر بالقصة قال: «دعوها فإِنها مُنْتِنَة»، واجتمع في الأمر عند عبد الله بن أُبَيِّ قوم من المنافقين ـ كان فيهم زَيْدُ بن أَرقم[1] فتًى صغيراً لم يُتَحَفَّظ منه ـ، فقال عبد الله بن أُبيِّ: أَوَ قَدْ تداعوا علينا؟ والله ما مَثَلنا ومَثَلهم إِلاَّ كما قال الأُوَّلُ: «سمِّن كلبك يَأْكُلْكَ»[2]، وقال لهم: لئن رجعنا إِلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها الأَذلَّ، وقال لهم: إِنما يقيم هؤلاءِ المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم لهم وإِنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لَفَرُّوا، فذهب زيد بن أَرقم إِلى عمِّه ـ وكان في حِجره ـ وأَخبره، فأَتى به رسول الله ﷺ فأَخبره، وقال له رسول الله ﷺ: «يا زيد، غضبتَ على الرجل، أَو لعلَّك وهمتَ»؟ فأَقسم زيدٌ ما كان شيءٌ من ذلك، ولقد سمع من عبد الله بن أُبَيِّ

= في القاموس: «وحسَّان بن ثابت يُعرف بابن الفُرَيْعة كجُهينة، وهي أُمُّه»، ويعني حسَّان بكلامه في البيت أن أذل الناس وسفلتهم قد عزُّوا وكثروا بعد هذه الذِّلَّة وأنه وهو ابن الفُرَيْعَة الذي كان ذا ثروة وثراءٍ قد أُخِّر عن شرفه القديم، واستُبِد بالأمر من دونه، فهو بمنزلة بيضة البلد التي تبيضها النعامة ثم تتركها للضياع في الفلاة فلا تحضنها ولا ترعاها، وقد روي عن أبي العباس أن العرب تقول للرجل الكريم: هو بيضة البلد يمدحونه، ويقولون للآخر: هو بيضة البلد يَذُمُّونه، فهو من الأضداد ـ راجع اللسان ـ.

(١) هو زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي جليل، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع عليٍّ رضي الله عنه، وله في كتب الحديث سبعون حديثاً، ومات سنة ستٍّ وستين، وقيل: ثمان وستين. (تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب، وخزانة البغدادي).

(٢) هذا مثل معروف، ويُروى: «أَسْمِنْ كلبك. . .»، قالوا: أول من قاله هو حازم بن المنذر الحماني، وذلك أنه وجد طفلاً صغيراً فحمله إلى بيته وأمر أَمَةً له أن ترضعه فأرضعته حتى فُطم وأدرك وراهق، فجعله راعياً لغنمه، وسمَّاه جحيشاً، فكان يرعى الشاة والإبل، ثم أحبته ابنة لحازم يقال لها: راعوم، وأحسَّ حازم بالعلاقة بينهما فرصدهما ثم تبعهما حتى رآهما في موقف سوءٍ، فقال: «سمِّن كلبك يأكلك»، فأرسلها مثلاً، وشدَّ على جحيش بالسيف فأفلت منه ولحق بقومه همدان، وانصرف حازم إلى ابنته وهو يقول: «موتُ الحُرَّة خير من العِرَّة» فأرسلها مثلاً، فلما وصل إليها وجدها قد ماتت مختنقة فقال: «هان علي الثُّكل لِسُوءِ الفِعْل» فأرسلها مثلاً، ثم أنشأ يقول أبياتاً منها:

قَـدْ هَـانَ هَـذَا الثُّكْـلُ لَـوْلا أَنَّنِـي ... أَحْبَبْـتُ قَتْلَـكِ بِـالحُسَـامِ الصَّـارِمِ

وَلَقَـدْ هَمَمْـتُ بِـذَاكَ لَـوْلا أَنَّنِـي ... شَمَّـرْتُ فـي قَتْـلِ اللَّعِيـنِ الظَّـالِـمِ



ما حكى، فعاتب رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبَيّ عند رجال من الأنصار، فبلغه ذلك فجاءَ وحلف ما قال، وكذَّب زيداً، وحلف معه قوم من المنافقين، فكذَّب رسولُ الله ﷺ زيداً وصدَّق أَيْمان عبد الله بن أُبي، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياءً من الناس، فنزلت هذه السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد وقال: لقد صدَّقك الله يا زيد ووفت أُذُنك، فخزي عند ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول، ومقته الناس، ولامه المؤمنون من قومه، وقال بعض منهم: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك فيستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال لهم: لقد أَشرتم عليَّ بالإيمان فآمنت، وأَشرتم عليَّ أَن أُعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأْمروني بالسُّجود لمحمد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا هي قصص هذه السُّورة موجزاً.

و«تعال» نداءٌ يقتضي لفظه أَنه دعاءُ الأَعلى للأَسفل، ثم استعمل في كل داعٍ لما فيه من حسن الأَدب، وقرأَ نافع، والمفضَّل عن عاصم: [لَوَوْا] بتخفيف الواو، وهي قراءَة الحسن ـ بخلاف ـ، ومجاهد، وأَهل المدينة، وقرأَ الباقون، وأَبو جعفر، والأَعمش: [لَوَّوْا] بشد الواو على تضعيف المبالغة، وهي قراءَة طلحة، وعيسى، وأَبي رجاءٍ، وزِرٍّ، والأَعرج، وقرأَ بعض القراءِ هنا: [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد، والجمهور بضمها.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. رُوي أَنه لمَّا نزلت: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1] قال رسول الله ﷺ: «لأَزيدنَّ على السبعين»[2]، وفي حديث آخر «لو علمتُ أَني إِنْ زدتُ غُفر لهم لزِدْتُ»[3]، فكأَنه عليه الصلاة والسلام رجا أَن هذا

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (التوبة).

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة وأخرج مثله ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد. (الدر المنثور).

(٣) أخرج هذا الحديث أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت عُمر يقول: لما توفي عبد الله بن أُبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلتُ: أَعَلى عدوِّ الله عبد الله بن أُبيٍّ القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أُعَدِّد أيامه ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ قال: يا عمر أَخِّر عني، إنِّي قد خُيِّرت، وقد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فلو أعلم أني إن زدْتُ على السبعين غُفر له لزدتُ عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ، ومشى=

الحدَّ ليس على جهة الحتم جملة، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه، فلما فعل ابن أُبَيٍّ وأَصحابه ما فعلوا شدَّد الله تعالى عليهم في هذه السُّورة، وأَعلم أنه لا يغفر لهم دون حدٍّ في الاستغفار[(١)]، وفي قول النبي ﷺ: «لو علمتُ أَني لو زدتُ غُفر لهم» نصٌّ على رفض دليل الخطاب[(٢)].

وقرأ جمهور الناس: [أَسْتَغْفَرْتَ] بالقطع وأَلف الاستفهام، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [اسْتَغْفَرْتَ] بمدَّة على الهمزة، وهي أَلف التسوية، وقرأ أَيضاً بوصل الأَلف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف؛ لأَنه في الأُولى أَثبت همزةَ الوصل وقد أَغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حَذَفَ همزةَ الاستفهام وهو يريدها، وهذا مما لا يُستعمل إِلاَّ في الشِّعر.

وقوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ إشارة إِلى عبد الله بن أُبي ومَنْ قال بقوله، قاله عليُّ ابن سليمان[(٣)]، ثمَّ سفَّه تعالى أَحْلاَمَهم في أَن ظنُّوا أَن إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين، ونسوا أَن حرمان الرِّزق بيد الله تعالى، إِذا انسد بابٌ انفتح غيره. وقرأَ الفضل بن عيسى الرَّقاشي[(٤)]: [حَتَّى يُنْفِضُوا] بضم الياءِ وتخفيف الضاد، يقال: أَنْفَضَ الرجلُ إِذا فني طعامُه فنفض وعاءَه. و«الخزائن» موضع الإِعداد، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن، ونجد في الحديث (خزنة الريح)[(٥)]، وفي القرآن ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا

= معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبتُ لي ولِجُرْأَتِي على رسول الله ﷺ وآله، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ: (الدر المنثور).

(١) يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وإذا ترتب التخيير في هذه الآية صحَّ أن ذلك التَّخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

(٢) لأن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ عَلِمْتُ» فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يُتَعَلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجلَّ، وفي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وابن عطية بما قاله هنا يشير إلى ما قاله مالِكٌ رحمه الله في مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب. (راجع المجلد الرابع ص ٣٧٢ من هذا التفسير).

(٣) قال عنه في التقريب: «شامي مجهول، من الطبقة السابعة».

(٤) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرَّقاشي، أبو عيسى البصري الواعظ، مُنكر الحديث، ورمي بالقَدَر، من الطبقة السادسة.

(٥) التعبير بلفظ «خَزَنَة» كثير في الحديث الشريف، ومنه ما رواه أحمد في مسنده (٢ـ٣٦٦) عن أبي هريرة=



مِن بَرَدٍ﴾[١]، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة، وأن هذه الأشياءَ إيجادُها عند ظهورها، وجائز ـ وهو الأظهر ـ أن منها أشياءَ مخلوقة موجودة يصرِّفها الله تعالى حيث يشاءُ، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا، ومعناه في التفسير قال: عتت على الخُزَّان[٢]، وفي الحديث: «ما انفتح باب من خزائن الريح على قوم عادٍ إلاَّ قدر حلقة الخاتم، ولو انفتح من خزائن الريح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا»[٣]، وقال رجل لحاتم الأصمِّ: من أين تأكل؟ فقرأ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وقال الجُنَيْد: «خزائن السماءِ الغيوب، وخزائن الأرض القلوب».

وقرأ الجمهور: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ بضم الياءِ وكسر الراءِ، بمعنى أن العزيز يُخرج الذليل ويُبعده، وقرأ أبو حاتم: [لَنَخْرُجَنَّ] بنون الجماعة مفتوحة وضم الراءِ [الأعَزَّ] نصباً ﴿مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ أيضاً نصباً على الحال، وذكرها أبو عمرو الداني عن الحسن[٤]، ورُويت هذه القراءَة: [لَنُخْرِجَنَّ] بضم النون وكسر الراءِ، وقرأ قوم ـ فيما حكى الفراءُ والكسائي، وذكرها المهدوي ـ: ﴿لَيَخْرُجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ بفتح الياءِ وضم الراءِ

= رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجاً ـ أو قال زوجين ـ من ماله، ـ أراه قال: في سبيل الله ـ دَعَتْهُ خَزَنة الجنة: يا مُسْلم، هذا خير هلُمَّ إليه»، وما رواه أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودِّع فقال: أنا محمد النبي الأمي، قالها ثلاث مرات ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خَزَنَة النار وحملة العرش. . .» الخ، أمَّا ما أشار إليه ابن عطية فلم أقف عليه بهذا اللفظ، لكنه ورد بلفظ (خزائن) في الحديث الذي سيذكره المؤلف بعد هذا مباشرة.

(١) من الآية (٤٣) من سورة (النُّور).

(٢) في بعض النسخ: «ومعنا في التفسير. . . الخ»، وعلى كل فالتعبير قلِقٌ مما يدل على أن فيه تحريفاً من النساخ.

(٣) أخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا فيها إلا مثل الخاتم. . .» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسجونة في الأرض الثانية، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي ربِّ، أُرسل عليهم من الريح قدر منخر ثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومَنْ عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهي التي قال الله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

(٤) قال أبو حيان في البحر بعد أن ذكر هذه القراءة: «ونَصَبَ [الأعَزَّ] على الاختصاص، كما قال: «نحن العربَ أقرى الناس للضيف»، ونصب [الأذلَّ] على الحال.



ونصب [الأَذَلَّ] على الحال، بمعنى أَنَّنا نحن الذين كنَّا أَعِزَّةً سنخرج أَذِلاَّءَ[1]، وجاءَت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ، وقد حكى سيبويه: «ادخلوا الأَوَّل فالأَوَّل».

ثم أَعلم الله تعالى أَن العزَّة لله سبحانه، وللرسول ﷺ، وللمؤمنين، وفي ذلك وعيد، وروي أَن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ ـ وكان رجلاً صالحاً ـ لمَّا سمع الآية جاءَ إِلى أَبيه وقال له: أَنت والله يا أَبت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، فلما وصل إِلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب السِّكَّة التي يسلكها أَبوه، وجرد السيف ومنعه الوصول، وقال: والله لا دخلت إِلى منزلك إِلاَّ أَن يأْذن لك في ذلك رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أُبَيٍّ في أَذل حال، وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فبعث إِليه أَن خلِّه يمضي إِلى منزله، فقال: أَما الآن فنعم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾.

الإِلْهَاءُ: الاشتغال بشهوة ولذَّة، و«ذِكْرُ اللهِ» هنا عامٌّ في التوحيد والصلاة والدعاءِ وغير ذلك من فرض ومندوب، هذا قول الحسن وجماعة من المفسِّرين، وقال الضحاك، وعطاءٌ وأَصحابُه: المراد بالذِّكر الصلاةُ المكتوبة، والأَول أَظهر، وكذلك قوله تعالى: و﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قال جمهور من المتأَولين: المراد الزكاة، وقال آخرون: ذلك عامٌّ في مفروض ومندوب، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي علاماتُه وأَوائل أَمره، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ طلباً للكرَّة والإِمهال، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: [أَخَّرْتَنِ] بغير ياءٍ، وسماه تعالى قريباً لأَنه آت، وأَيضاً فإِنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط، وليس يتسع الأَمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه، وفي مصحف أُبي: [فَأَتَصدَّقَ]، وقوله تعالى: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ظاهره العموم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الحجُّ، ورُوي عنه أَنه قال في

(١) تعبير الفراء أدقُّ وأوضح، قال: «كأنك قلت: لَيَخرُجَن العزيزُ منها ذليلاً».



مجلسه يوماً: «ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إلاَّ طلب الكَرَّة عند موته»، فقال له رجل: أما تتَّقي الله؟ أَمُؤمن يطلب الكَرَّة؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: نعم وقرأ الآية[١].

وقرأ جمهورُ السبعة والناسُ: [وَأَكُنْ] بالجزم عطفاً على الموضع؛ لأَن التقدير: إن تُؤَخِّرني أَصَّدَّق وأَكُنْ من الصَّالحين، هذا مذهب أَبي علي الفارسي، فأَمَّا ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا، وهو أَنه جزم على تَوَهُّم الشَّرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع هنا لأَن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط، كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾[٢]، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ لأَنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً، وكذلك من قرأَ: [وَيُكَفِّرْ] بالجزم عطفاً على موضع ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣]، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن أَبي إِسحاق، ومالك بن دينار، وابن محيصن، والأَعمش، وابن جبير، وعُبَيْد الله بن الحسن العنبري: [وأَكُونَ] بالواو نصباً، قال أَبو حاتم ـ وكان من العلماءِ الفصحاءِ ـ: [وَأَكُونَ] بالنصب عطفاً على [فَأَتَصَدَّقَ]، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو: إِنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره، ورجَّحها أَبو علي، وفي مصحف أُبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: «فَأَتَصَدَّقَ وَأَكُونَ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ حضٌّ على المبادرة ومسابقة الأَجل بالعمل الصَّالح، وقرأَ السبعة والجمهورُ: [تَعْمَلُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة لجميع الناس، وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على تخصيص الكفَّار بالوعيد.

كمل تفسير سورة المنافقون والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) روى الترمذي عن الضحاك بن مُزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «من كان له مالٌ يبلِّغه حَجَّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يَفْعَل، سأل الرجعة عند الموت»، فقال رجل: يا ابن عباس اتَّق الله، إنما سأل الرجعة الكفار، فقال سأتلو عليك بذلك قرآناً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ . . . إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المالُ مائتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحجَّ؟ قال: الزَّادُ والراحلة.

(٢) من الآية (١٨٦) من سورة (الأعراف).

(٣) من الاية (٢٧١) من سورة (البقرة). هذا والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم ـ وهو أساس الخلاف بين الفارسي وسيبويه ـ أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مُؤثِّر، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأَثَرُه موجود، ومن هذا نرى أنه خلاف مبني على مجرد التقدير.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التغابن

قال بعض المفسِّرين: هي مدنية، وقال آخرون منهم: هي مكية إلاَّ من قوله تعالى وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ إلى آخر السُّورة فإنه مدني[1]، وذكر الثعلبي عن ابن عمران أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلاَّ وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عُمومٌ معناه التنبيه، و«الشيءُ» هو الموجود.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ تعديد نعمة، والمعنى: فمنكم كافر لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله، ومنكم مؤمن بالله، والإيمان بالله تعالى شكر لنعمته، فالإشارة ـ على هذا التأويل في الإيمان والكفر ـ هي إلى اكتساب العبد، هذا قول جماعة من المتأولين، وحجتهم قول النبي ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة»[3]،

---

(١) وقال الضحاك: هي مكيّة.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاءِ، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره في «فتح القدير»: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن»، وقال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح، وهو غريب جداً بل مُنكَر»، وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن. هذا وفي اللسان قال: «والشَّبكة: الرأسُ، وجمعها شَبَك»، والشَّبْكُ في الأصل: الخلط والتداخل.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، =

وقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[(١)]، وكأن العبارة في قوله تعالى: [فَمِنْكُمْ] تعطي هذا كله، وكذلك يقوِّيه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقيل: المعنى: خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل الخِلْقَة، فهي جملة في موضع الحال، فالإشارة ـ على هذا ـ في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه، وهذا تأويل ابن مسعود، وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما، ويجري مع هذا المعنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ أحدكم يكون في بطن أُمه نطفة أربعين يوماً، ثم علقة أربعين يوماً، ثم مضغه أربعين يوماً، ثم يجيءُ مَلَك فيقول: يا ربِّ، أذكر أم أُنثى؟ أَشقيٌّ أَم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأَجل، فيكتب ذلك في بطن أُمه»[(٢)]، فقوله في الحديث: «أَشقيٌّ أَم سعيد»؟ هو في هذه الآية ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر: «إنه طبع يوم طبع كافراً»[(٣)]، وما رَوى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله فرعون في البطن كافراً، وخلق يحيى بن زكرياءَ مؤمناً»[(٤)]، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: معنى الآية: فمنكم كافرٌ بالله مؤمن بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأَنه أَعرف من جهة الكثرة.

وقوله تعالى: [بِالْحَقِّ] أَي: حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى،

= فأبواه يُهَوِّدانه أَو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تحسُّون فيها من جدعاءَ؟» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرءُوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ....﴾ الآية. ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ: «ليست نَسَمة تُولد إلا وُلدت على الفطرة»، وفي رواية لمسلم «كل إنسان تلده أُمُّه على الفطرة».

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الرُّوم).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وبن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، ولفظه كما في ابن جرير والدر المنثور: «إذا مكث المنيُّ في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب، فيقول: يا رب، أَذَكَر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أَشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ»، وقرأ أبو ذَرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٣) أخرجه مسلم في القَدَر وفي الفضائل، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في تفسير سورة الكهف، وأحمد في مسنده (٥ـ١١٩، ١٢١)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخَضر طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً».

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: قال النبي ﷺ: «خلق الله فرعون في بطن أُمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً».

وقرأ جمهور الناس: [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد، وقرأ أبو رُزَيْن: [صِوَرَكُمْ] بكسرها، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة لأن أعضاءَ ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أعضاءُ الحيوان وبزيادات كثيرة فُضِّل بها، ثم هو مفضَّل بحسن الوجه وجمال الجوارح، وحُجَّة هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١)، وقال بعض العلماءِ: النعمة المُعَدَّدَة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حَسُن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أجرى على لغة العرب لأنها لا تعرف الصور إلاَّ الشكل.

وذكر تعالى علمه بما في السموات والأرض، فعلم أعظم المخلوقات، ثم تدرَّج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعَلَن، ثم تدرَّج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر، و«ذاتُ الصَّدْر»: ما فيه من خطرات واعتقادات، كما يقال: «الذئب مغبوطٌ بذي بطنه»(٢)، والصدر هنا عبارة عن القلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ جزمٌ، أَصله: يأتيكم، قال سيبويه: «واعلم أن الآخر إذا كان يُسكَّن في الرفع حذف في الجزم»، والخطاب في هذه الآية لقريش، ذُكِّروا ما حلَّ بعادٍ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم، و«وَبَالُ الأَمْرِ»: مكروهُهُ وما يسوءُ منه.

---

(١) الآية (٤) من سورة (التِّين).

(٢) هذا مثل معروف، ويروى: الذئب يُغبط بغير بطنة»، و«يُغبط ما في بطنه»، قال أبو عبيدة: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية، قال الشاعر:

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طحَالُهُ ... وَيُغْبَطْ مَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعُ

وقال غيره: إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع، وقال الشاعر:

لَكَالذِّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعُ



وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم، ثم ذكر تعالى من مقالات أُولئك الماضين ما هو مشبه لقول الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر، ونُبوَّة أَحد من بني آدم، وحسَد الشخص المبعوث. وقوله: [أَبَشَرٌ] رفع بالابتداءِ، وجمع الضمير في [يَهْدُونَنَا] من حيث كان «البَشَر» اسم هذا النوع الآدمي، كأنهم قالوا: أناسٌ هداتُنَا؟ وقوله تعالى: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ عبارة عمَّا ظهر من هلاكهم وأَنهم لن يضرُّوا الله شيئاً فبان أَنه كان غنيًّا أَولاً، وبسبب ظهور هلاكهم بعد أَن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغَنَاءِ مُستنداً إلى اسم الله تعالى؛ لأَن بناءَ «اسْتَفْعَلَ» إنما هو لطلب الشيءِ وتحصيله بالطلب.

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يخصُّ قريشاً ثم هي بعْدُ تعُمُّ كل كافر بالبعث، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «الزَّعْم كنية الكذب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بئس مطيَّةُ الرجل زعموا»[1]، ولا توجد «زَعَم» مستعملة في فصيح من الكلام إلاَّ عبارة عن الكذب أَو قول انفرد به قائله فيريد قائله أَن يلقي عهدته على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: «زَعَم الخليل» إنما يجيءُ فيما ينفرد به الخليل.

ثم أَمره الله تعالى أَن يجيب نفيهم بما يقتضي الردَّ عليهم وإيجاب البعث وأَن يُؤكد ذلك بالقَسَم، ثم توعَّدهم في آخر الآية بأَنهم يُخبَرون بأَعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هذا دعاءٌ إلى الله تعالى وتبليغٌ وتحذيرٌ، و«النُّور»: القرآن. والعامل في [يَوْمَ]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، وأبو داود، عن حذيفة، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.



يحتمل أَن يكون [تُنَبَّؤُنَّ]، ويحتمل أَن يكون [خَبِيرٌ]، وهو تعالى خبير في كل يوم لكن يخصُّ ذلك اليوم لأَنه يومٌ تضرهم فيه خِبْرة الله تعالى بأُمورهم، وقرأ جمهور السبعة: [يَجْمَعُكُمْ] بضم العين، وقرأَ أَبو عمرو بسكونها، ورُوي عنه أَنه أَشمَّها الضمَّ، وقرأَ سلام ويعقوب: [نَجْمَعُكُمْ] بالنون وضم العين، وهذا على جواز تسكين الحركة وإِن كانت للإِعراب، كما قال جرير:

. . . . فَلَمْ تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ[1]

و«يوم الجمع» هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن؛ وذلك أَن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظًّا أَو منزلةً، فإِذا وقع الجزاءُ عيَّر المؤمنون الكافرين لأَنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره، وليس هذا الفعل في «التَّغابن» من اثنين، بل هو كَتَواضَعَ وتَحَامَلَ[2].

وقرأَ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: [نُكَفِّرْ] بنون، وكذلك [نُدْخِلْهُ]، وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، والحسن ـ بخلاف ـ وطلحة، وقرأَ الباقون[3]، والأَعمش، وعيسى، والحسن في الموضعيْن بالياءِ، على معنى: يُكَفِّر الله، والأَول هو نون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ يحتمل أَن يريد المصائب التي هي رزايا، وخصها بالذِّكر لأَنها الأَهمُّ على الناس والأَبيَنُ أَثراً في نفوسهم، ويحتمل أَن يريد جميع الحوادث من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أَن الحكم واحد في أَنها بإِذن الله تعالى، و«الإِذْنُ» في

---

(١) هذه الجملة آخر بيت قاله جرير يهجو بني العم الذين أعانوا عليه الفرزدق، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

مَـا لِلْفَـرَزْدَقِ مِـنْ عِـزٍّ يَلُـوذُ بِـهِ ... إلا بَنُـو الْعَـمِّ فـي أَيْـدِيهِـمُ الْخُشُـبُ

سِيـرُوا بَنِـي الْعَـمِّ فـالأَهْـوَازُ مَنْـزِلُكُـمْ ... وَنَهْـرُ تِيـرَى فَلَـمْ تَعْـرِفْكُـمُ الْعَـرَبُ

ونهر تيرى بلدٌ من نواحي الأهواز.

(٢) وقيل: بل هو تغابن بين أهل الجنة وأهل النار، وذلك أن أهل الجنة غبنوا أهل النار، لأن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأهل النار أخذوا النار، على طريق المبادلة، فوقع الغَبْن لأجل مبادلة الخير بالشر، والجيِّد بالرديء، والنعيم بالعذاب، يقال: غَبَنْتُ فلاناً إذا بايَعته أو شارَيْته فكان النقص عليه والغلبة لك، وكذلك أهل الجنة وأهل النار، وإذا قيل إنه لم تقع بينهما معاملة حتى يكون هناك غَبْن قيل: هو تمثيل للغبن في الشراء والبيع، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾.

(٣) أي: من السبعة.



هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال فيه المفسِّرون: المعنى: من آمن بالله تعالى وعرف أَن كل شيءٍ بقضاءِ الله وقدره وعلمه، هانت عليه مُصيبتُه، وسلَّم الأَمر لله تعالى. وقرأ سعيد بن جبير، وطلحة بن مُصَرِّف: [نَهْدِ] بالنون، وقرأ الضحاك: [يُهْدَ] بضم الياءِ وفتح الدال [قَلْبُهُ] رفعاً، وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار: [يَهْدَأْ قَلْبُهُ][1] برفع القلب، ورُوي عن عكرمة أَنه سكَّن بدل الهمزة أَلفاً، على معنى أَن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكُن نفسه، ويُرشد الله تعالى المؤمن به إِلى الصَّواب في الأُمور. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عموم مطلق على ظاهره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ عطف على قوله: [فَآمِنُوا]، وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ إِلى آخر الآية وعيدٌ وتبرئة لمحمد ﷺ إِذا بلَّغ، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ إِلى آخر السُّورة، قُرْآنٌ مَدَنيٌّ، اختلف الناس في سببه ـ فقال عطاءُ بن أَبي رباح: إِنه نزل في عوف بن مالك الأَشجعي، وذلك أَنه أَراد غزواً مع النبي ﷺ، فاجتمع أَهله وأَولاده فثبَّطوه وشكوا إِليه فراقه، فلم يَغزُ، ثم إِنه ندم وهَمَّ بمعاقبتهم، فنزلت الآية بسببه محذِّرة من الأَزواج والأَولاد وفتنتهم، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾.

وقال بعض المفسِّرين: سبب الآية أَن قوماً آمنوا بالله تعالى وثَبَّطهم أَزواجهم وأَولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إِلاَّ بعد مُدَّة، فوجدوا غيرهم قد تفقَّه في الدِّين،

---

(١) بفتح الياءِ وبهمزة ساكنة في آخر الفعل، من الهدوء، ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط».

فندموا وأَسفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأَولادهم.

ثم أَخبر تعالى أَن الأَموال والأَولاد فتنة تشغل المرءَ عن مراشده، وتحمله من الرَّغبة في الدُّنيا على ما لا يحمده في آخرته، ومنه قوله ﷺ: «الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنة»(١)، وخرَّج أَبو داود حديثاً في مُصنَّفه أَن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة حتى جاءَ الحَسَن والحُسَين رضي الله تعالى عنهما، وعليهما قميصان أَحمران يَجُرَّانهما، يَعْثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر حتى أَخذهما وصعد بهما، ثم تلا هذه الآية وقال: إِني رأَيت هذين فلم أَصبر، ثم أَخذ في خطبته(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاءِ، فأَما فتنة الجهال الفسقة فمؤديةٌ إِل كل مَهْلَكة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولنَّ أَحدكم: اللهم اعصمني عن الفتنة، فإِنه ليس يرجع أَحد إِلى أَهلٍ ومالٍ إِلاَّ وهو مشتمل على الفتنة، ولكن لِيَقُل: اللهم إِني أَعوذ بك من مُضِلاَّت الفِتَن»، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما: كيف أَصبحتَ؟ قال: أَصبحتُ أُحبُّ الفتنة وأَكره الحقَّ، فقال عمر: ما هذا؟ قال: أُحبُّ ولدي وأَكره الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

---

(١) أَخرجه أبو يَعْلَى في مسنده، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير «الولد ثمرة القلب، وإِنَّه مَجْبَنَة مَبْخَلَة مَحْزَنة»، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث ضعيف، وأخرجه البزَّار عن أبي سعيد بهذا اللفظ ثم قال؟: «لا نعرفه إلا بهذا الإسناد»، وقال أحمد: حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد من كندة، فقال: «هل لك من ولد»؟ قلت: غلام وُلد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد، ولوددت أن بمكانه سبع القوم، فقال: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قُبِضُوا»، ثم قال: «ولَئِن قلتَ ذاك إنهم لَمَجْبَنَة مَحْزَنَةٌ»، قال الإمام ابن كثير في تفسيره: تفرَّد به أحمد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، عن بُرَيْدة رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (الدر المنثور).



قال قتادة وفريق من الناس: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخٌ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(١)، ورُوي أن الأمر نزل بحقِّ التُّقَاة فشق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وذهبت فرقة منهم أبو جعفر النحاس إلى أنه لا نَسْخ في الآيتين، وأن قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ مقصده: فيما استطعتم، ولا يُعقل(٢) أن يطيع أحدٌ فوق طاقته واستطاعته، فهذه على التأويل مُبيِّنة لتلك، وتحتمل هذه الآية أن تكون: فاتَّقوا الله مُدَّة استطاعتكم التقوى، وتكون [مَا] ظرفاً للزمان كله، كأنه يقول: حياتَكُمْ وما دام العمل ممكناً.

قوله تعالى: [خَيْراً]، ذهب بعض النحاة إلى أنه نصب على الحال، وفي ذلك ضعف، وذهب آخرون منهم إلى أنه نصب بقوله سبحانه: [أَنفِقُوا]، قالوا: والخير هنا المالُ، وذهب فريق آخرون منهم إلى أنه نعت لمصدر محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً، ومذهب سيبويه أنه نصب بإضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: [أَنفِقُوا].

وقرأ أبو حيوة: [يُوَقَّ] بفتح الواو وشدِّ القاف، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: [شِحَّ] بكسر الشين، وتقدم تفسيره في سورة الحشر، وقال الحسن: نظرك إلى امرأة لا تملكها من الشُّحِّ، وقيل: يا رسول الله، ما يُدخلُ العَبْدَ النَّارَ؟ قال: «شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وجُبْنٌ هالعٌ، وإعجاب المرءِ بنفسه»، ذكره النقاش(٣)، والحديث في المصنفات أن النبي ﷺ قال: «إذا رأَيتَ شُحًا مُطاعاً وهوًى مُتَّبعاً وإعجابَ كلِّ ذي رأْي برأْيه، فعليك بِخُوَيْصة نفسك»(٤).

وقرأ جمهور السبعة: [يُضَاعِفْهُ]، وقرأ ابن كثير وابن عامر: [يُضَعِّفْهُ](٥)، وذهب

---

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (آل عمران).

(٢) في بعض النسخ: «ولا يُقصد».

(٣) وأخرج البخاري في تاريخه، وأبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «شرُّ ما في رجل شحٌّ هالعٌ وجُبْن خالعٌ»، ذكر ذلك السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث حسن، وزاد في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والبيهقي.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، وأبو داود في الملاحم، وابن ماجه في الفتن.

(٥) اختلفوا في حذف الألف من [يُضَاعِفْهُ] هنا وفي البقرة، واختلفوا في تضعيف العين، راجع كتاب «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري.

بعض العلماءِ إِلى أَن هذا الحضَّ هو على أَداءِ الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إِلى أَن الآية في المندوب إِليه، وهو الأَصح إِن شاءَ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ إِخبارٌ بمجازاته تعالى على الشيءِ، وأَنه يحط به عمن شاءَ الله العظيم، لا ربَّ غيره.

كمل تفسير سورة التغابن والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبديد شمْل في الإسلام، وروى أبو موسى الأَشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تطلِّقوا النساءَ إلاَّ من ريبة، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»[1]، وروى أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلاَّ منافق»[2].

واختُلف في البداية بالنبي ﷺ ثم قوله تعالى بعد ذلك [طَلَّقْتُمْ] ـ فقال بعض النحويين ـ حكاه الزهراوي ـ: ذلك خروج من مخاطبة أفرادٍ إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود، وقال آخرون منهم: إن في نداءِ النبي ﷺ أُريدت أُمته معه، فلذلك قال تعالى: [طَلَّقْتُمْ]، وقال آخرون منهم: إن المعنى: يَأَيُّهَا النبي قل لهم: إذا طلقتم، وقال آخرون: إنه من حيث يقول الرجل العظيم: «فَعَلْنا، وَضَعْنَا»، خوطب النبي ﷺ في هذه

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، عن أبي موسى رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه، ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»، ورمز له بالضعف.

بـ[طَلَّقْتُمُ] إظهاراً لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أُبَيٍّ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾(١) إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذلك النبي ﷺ في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي في هذا أَنهما خطابان مفترقان، خوطب النبي ﷺ على معنى تنبيه لسماع القول وتَلَقِّي الأَمر، ثم قيل له: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، أَي أَنت وأُمَّتُك(٢)، فقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ابتداءُ كلام كما لو ابتدأَ السُّورة به، وطلاق النساءِ حَلُّ عِصْمتهن، وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أَي: لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن، وقرأَ عثمان، وابن عباس، وأُبَيُّ بن كعب، وجابر بن عبد الله، ومجاهد، وعليُّ بن الحسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين: [في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ]، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، أَي لاستقبالها، وروى ابن عمر القراءَتين عن النبي ﷺ(٣)، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه: [لِقُبُلِ طُهْرِهِنَّ].

ومعنى هذه الآية اَلاَّ يطلِّق أَحد امرأَته إلاَّ في طُهْر لم يمسَّها فيه، هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره مِمَّن قال: إنَّ «الأَقْراءَ»: الأَطهارُ، فيطلق عندهم المطلِّق في طُهْر لم يمسَّ فيه، وتعتد به المرأَة ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطهر الثالث مُعْتَدَّة به، فإذا رأَت أَول لحيضة الثالثة حلَّت، ومن قال بأَن «الأَقراءَ»: الحيضُ ـ وهم العراقيون ـ قال: [لِعِدَّتِهِنَّ] معناه أن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حِيض كوامل، فإذا رأَت الطهر بعد الثالثة حلَّت، ويخفُّ عند هؤلاءِ مسَّ في طهر الطلاق أَو لم يمسّ، وكذلك مالكٌ يقول: «إن طلَّق في طُهْر قد مسَّ فيه مضى الطلاق»، ولا يجوز

(١) من الآية (٧) من سورة (المنافقون).

(٢) يقول بعض العلماء: إن الخطاب له والمعنى له وللمؤمنين، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

(٣) أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وأخرج ابن الأنباري، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وقُبُل الشيءِ هو إقباله وأوّله.



طلاق الحائض لأنها تطول العِدَّة عليها، وقيل: بَلْ تَعْتَد، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أَن يجوز ولو رضيته[(١)]، والأَصل في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: طلقتُ امرأَتي وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لِعُمَر: «مُرْهُ فليراجعها ثم لِيُمْسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إِن شاءَ، فتلك العِدَّة التي أَمر الله تعالى بها أَن يُطَلَّق لها النساءَ»[(٢)]، وروى حذيفة أَنه عليه الصلاة والسلام قال: «طلِّقوا المرأَة في قُبُلِ طُهْرِهَا»[(٣)]. ثم أَمر تعالى بإِحصاء العِدَّة لما يلحق ذلك من أَحكام الرَّجعة والسُّكنى والميراث وغير ذلك[(٤)].

ثم أَخبر تعالى بأَنهن أَحق بسُكنى بيوتهن التي طُلِّقن فيها، فنهى عن إِخراجهن وعن خروجهن[(٥)]، وسُنَّة ذلك أَلاَّ تبيت المرأَة المطلَّقة «بعيدة»[(٦)] عن بيتها ولا تغيب عنه نهاراً إِلاَّ في ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف، وذلك لحفظ النسب والتَّحرز بالنساءِ، فإِن كان البيت ملكاً للزوج أو بِكِراءٍ منه فهذا حُكْمه، فإِن كان لها فعليه الكراءُ، فإِن كانت قد أَمتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب: اللزم رعاية لانفصال مُكارمة النكاح، والسقوط من أَجل أَن العِدَّة من سبب النكاح.

---

(١) الرأي الذي عليه علماء المسلمين أن مَنْ طلَّق في طُهْر لم يُجامع فيه نفذ طلاقُه وأصاب السُّنَّة، فإن طلَّق حائضاً نفذ طلاقُه وأخطأ السُّنَّة، ويرى سعيد بن المسيَّب أن الطلاق في الحيض لا يقع لأنه خلاف السُّنَّة، وإلى ذلك ذهب الشِّيعة.

(٢) أخرجه مالك، والشافعي، وعبد الرزاق في المصنف، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو يعْلَى، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن مردويه عن ابن عمر أيضاً ولكن من طريق أبي الزبير. (الدر المنثور).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) وهذا في المدخول بها؟ لأن غير المدخول بها لا عدَّة عليها لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

(٥) أي: لا يجوز للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدَّة، ولا يجوز لها هي أن تخرج إلا للضرورة، فإن خرجت فهي آثمة، لكن العدة لا تنقطع بخروجها. قال الإمام القرطبي: «والرجعية والمبتوتة في هذا سواءٌ، وهذا لصيانة ماءِ الرجل، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، فهي إضافة إسكان وليست إضافة تمليك»، على أن هناك خلافاً بين الفقهاءِ وتفريقاً بين الرجعية والمبتوتة، وبين الخروج نهاراً والخروج ليلاً، وموضعه كتب الفقه.

(٦) ما بين العلامتين سقط من الأصول.



واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ ـ فقال قتادة، والحسن، ومجاهد: ذلك الزِّنى، فيخرجن للحَدِّ، وهو قول الشعبي، وزيد بن أَسلم، وحمَّاد، والليث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك الْبَذَاءُ على الأَحْماءِ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حِفْظاً للنسب، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إِلاَّ أَن يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الفاحشةُ جميعُ المعاصي، فمتى سرقت أَو زنت أَو أَربت في تجارة أَو غير ذلك فقد سقط حقها في السُّكنى، وقال ابن عمر، والسُّدي: الفاحشةُ الخروج عن البيت خروج انتقال، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى، وقال قتادة أَيضاً: المعنى: أَن يأْتين بفاحشةٍ في نشوز عن الزوج فيطلِّق بسبب ذلك فلا يكون عليه سكنى، وقال بعض الناس: الفاحشةُ متى وردت معرَّفة فهي الزِّنى، ومتى جاءَت منكرة فهي في المعاصي، فمرة يراد بها سوءُ عِشْرة الزوج ومرة غير ذلك.

وقرأَ عاصم: [مُبَيَّنَةً] بفتح الياءِ المشددة[1]، تقول: بانَ الأَمْرُ وبَيَّنته على التضعيف على التعدية، وقرأَ الجمهور بكسرها، تقول: بانَ الأَمرُ وبَيَّن بمعنى واحد، إِلاَّ أَن التضعيف للمبالغة، ومن ذلك قولهم: قد بَيَّنَ الصُّبْحُ لذي عينين.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ إشارة إلى جميع أَوامره في هذه الآية، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، قال قتادة وغيره: يريد به الرَّجعة، أَي: أَحْصُوا العِدَّة، وامْتثلوا هذه الأَوامر المثَقِّفَة لنسائكم، الحافظة لأَنسابكم، وطَلِّقوا على السُّنَّة، تجدوا المَخْلَص إِن ندمتم، فإِنكم لا تدرون لعلَّ الرَّجعة تكون بعد، والإِحداثُ هنا بيِّن التوجيه، عبارةٌ عَمَّا يوجد من التراجع، وجوَّز قوم أَن يكون المعنى: أَمْراً من النَّسْخ، وفي ذلك بُعْدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يريد به آخِرَ الْقُرْءِ، و«الإِمْسَاكُ بالْمَعْرُوفِ» هو حُسْنُ العِشْرة في الإِنفاق وغير ذلك، و«الْمُفَارَقَةُ بِالْمَعْرُوفِ» هي أَداءُ المهر والمتعةُ ودفْعُ جميع الحقوق والوفاءُ بالشروط وغير ذلك حسب نازلة نازلة، وقوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ يريد: على الرجعة، وذلك شرط في صحة الرجعة،

---

(١) لعلها قراءَة أبي بكر عنه، أما قراءة حفص عن عاصم فهي بكسر الياءِ المشددة كما هو ثابت في المصحف.

وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يُشْهِد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد: على الرَّجعة وعلى الطلاق؛ لأن الإِشْهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة، وتَقْييد تاريخ الإِشهاد من الإِشهاد، وقال النَّخَعي: العَدْلُ مَنْ لم تظهر منه ريبة، وهذا قول الفقهاءِ، والعَدْل حقيقةً الذي لا يخاف إلاَّ الله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أَمْرٌ للشهود، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ إشَارةٌ إلى إقامة الشهادة، وذلك أَن جميع فصول الأَحكام والأُمور فإنما تدور على إقامة الشهادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وكثير من المتأَولين: هو في معنى الطلاق، أَي: ومن لا يتعدى في طلاق السُّنَّة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل اللهُ له مخرجاً إن ندم بالرَّجعة، ويرزقه ما يطعم أَهله، ويوسع عليه، ومن لا يَتَّق الله فربَّما طلَّق وبَتَّ وندم فلم يكن له مخرجٌ، وزال عنه رزق زوجته، وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا، فقال لِمُطَلِّقٍ ثلاثاً: إنك لم تتق الله تعالى، فبانت منك امرأَتُك ولا أَرى لك مخرجاً، وقال ابن عباس أَيضاً: معنى ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: يخلِّصه من كرب الدنيا والآخرة، واختلفت أَلفاظ رُواة هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن هذا هو المعنى.

وقال بعض رواة الآثار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأَشجعي، وذلك أَنه أُسر ولدُه، وقُدر عليه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأَمره بالتقوى، فقيل: لم يلبث أَن تَفَلَّت ولدُه، وأَخذ قطيع غنم للقوم الذين أَسروه، وجاءَ أَباه، فسأَل عوف رسول الله ﷺ: أَتطيب له تلك الغنم؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، ونزلت الآية في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الآية كلُّها عظةٌ لجميع الناس، و«الحَسْبُ»: الكافي المرضي، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أَكثر الآيات حضًا على التفويض، وروي أَن رجلاً قال لِعُمر رضي الله عنه: وَلِّني مِمَّا ولاَّكَ اللهُ تعالى، فقال له عمر: أَتقرأُ القرآن؟ قال: لا، قال عمر: فإني لا أُولي من لا يقرأُ القرآن، فتعلم الرجلُ رجاءَ الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلَّف عن عمر، ثم لَقِيَه يوماً فقال له عمر رضي الله عنه: ما أَبطأَ بك؟ قال: تعلمتُ القرآن فأَغناني اللهُ عن عمر وعن بابه، ثم قرأَ هذه الآية من هذه السُّورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بيانٌ وحضٌ على التوكل، أي: لا بد من نفوذ أَمر الله تعالى توكَّلْتَ أَيُّها المرءُ أَم لم تتوكَّل، قاله مسروق، فإن توكَّلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة، وإن لم تتوكل وكلَكَ إلى عجزك وتَسَخُّطك، وأَمره عزَّ وجلَّ في الوجهين نافذ.

وقرأ داود بن أَبي هند[1] ـ ورويت عن أَبي عمرو ـ ﴿بَالِغٌ أَمْرُهُ﴾ برَفْع الأَمر[2]، وحذف مفعول تقديره: بالغٌ أَمْرُهُ ما شاءَ، وقرأَ جمهور السبعة، والناسُ: ﴿بَالِغٌ أَمْرَهُ﴾ بنصب الأَمر[3]، وقرأَ حفصٌ والمفضل عن عاصم: ﴿بَالِغُ أَمْرِهِۦ﴾ على الإضافة وترك التنوين في [بَالِغُ]، ورويت عن أَبي عمرو، والأعمش، وهي قراءَة طلحة بن مصرف. وقرأَ جمهور الناس: [قَدْراً] بسكون الدال، وقرأَ بعض القراءِ: [قَدَراً] فتح الدال، وهذا كله حضٌّ على التوكل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

«اللّائي» هو جمع ذات فيما حكى أَبو عبيدة، وهو ضعيف، والذي عليه الناس أَنه جمع «التي»، وقد يجيءُ جمعاً لـ«الذي»، واليائساتُ من المحيض على مراتب، فيائسة هو أَول يأسها فهذه ترفع إلى السُّنَّة ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيائسة لأَنها لا تدري لعل الدم يعود، ويائسة قد انقطع عنها الدم لأَنها طعنت في السن ثم طُلِّقت وقد مرت عادتها بانقطاع الدم إلاَّ أَنها ممن يخاف أَن تحمل نادراً، فهذه التي في الآية

(١) هو داود بن أبي هند القشيري، مولاهم، أبو بكر أو أبو محمد، البصري، ثقة مُتْقِن، كان يهم بآخرة، من الطبقة الخامسة، مات سنة أربعين، وقيل: مات قبلها، (تقريب التهذيب).

(٢) مع تنوين [بَالِغٌ].

(٣) مع التنوين في [بَالِغٌ] أيضاً.



على أَحد التأْويلين في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، وهو قول من جعل الارتياب بأَمر الحول، وهو الأَظهر، ويائسة قد هرمت حتى تيقن أَنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية لأَنها لا ترتاب بحملها، لكنها في حكم الأَشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت، وهي في الآية على تأْويل من يرى أَن قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ معناه في حكم اليائسات، وذلك أَنه روى إِسماعيل بن أَبي خالد أَن قوماً منهم أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه، وخلاَّد بن النعمان[1] لمَّا سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[2] قالوا: يا رسول الله، فما عِدَّة من لا قُرْءَ لها من صِغَر أَو كِبَر؟ فنزلت هذه الآية، فقال قائل منهم: فما عِدَّةُ الحامل؟ فنزلت ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[3]، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في تأْويل ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

و«أُولات» جمع ذات، وأَكثر أَهل العلم على أَن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدَّات من الوفاة، والحُجَّةُ حديث سُبَيْعة الأَسْلمية، قالت: «كنت تحت سعد بن خولة، فتوفي في حَجَّة الوداع»، ووضعت حملها قبل أَربعة أَشهر، فقال لها النبي ﷺ: «قد حَلَلْتِ»، وأَمرها أَن تتزوج[4]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: نزلت سورة النساءِ القُصرى بعد الطُولى، يعني أَن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزل بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[5]، وقال علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: إنما هذه في المطلقات، وأَمَّا في الوفاة فعدَّة الحامل آخر الأَجلين، فإِنْ وضعت قبل أَربعة أَشهر وعَشْر تمادت إِلى آخرها، والقول الأَول أَشهر، وعليه الفقهاءُ، وقرأَ الضحاك: [أَحْمَالَهُنَّ] على الجمع.

---

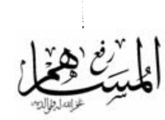
(١) جاءَ في الإصابة أنه خلاد بن النعمان الأنصاري، وأن مُقاتل أبو سليمان ذكر في تفسيره أنه سأل النبي ﷺ عن عِدَّة التي لا تحيض، فنزلت ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية.

(٢) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، من طريق الثوري، عن إسماعيل، هكذا قال السيوطي في «الدر المنثور»، وليس في النص الذي أورده ذِكْرٌ لمن سأل الرسول ﷺ.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن سُبَيْعة الأسلمية، وفيه أنها وضعت بعد وفاة زوجها بخمس وعشرين ليلة وأخرج مثله ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن مردويه، عن أبي السنابل بن بعكك، وفيه أن سُبَيْعة وضعت بعد وفاة زوجها بثلاث وعشرين ليلة، وفي رواية لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن المسور بن مَخْرمة أنها لم تمكث إلا ليالي يسيرة. (الدر المنثور).

(٥) من الآية (٢٣٤) من سورة (البقرة).



وأَمر الله تعالى إِسكان المطلَّقات، ولا خلاف في التي لم تُبَت، وأَمَّا الْمَبْتُوتة فمالِك رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب، ولا يرى لها نفقة لأَن النفقة بإِزاءِ الاستمتاع، وهو قول الأَوزاعي، والشافعي، وابن أَبي ليلى، وأَبي عُبَيْد، وابن المسيَّب، وعطاءٍ، والشَّعبي، وسليمان بن يسار. وقال أَصحاب الرأي والشُّورى: لها السَّكن والنَّفقة، وقال جماعة من العلماءِ: ليس لها سُكْنى ولا نفقة.

و«الوُجْدُ»: السَّعة في المال، وضمُّ الواو وفَتْحها وكسرها هي كلها بمعنى واحد، وقرأَ الجمهور: [وُجْدِكُمْ] بضم الواو بمعنى السَّعة في الحال، وقرأَ الأَعرج ـ فيما ذكر عِصْمة ـ: [وَجْدِكُمْ] بفتح الواو، وذكرها أَبو عمرو عن الحسن، وأَبي حَيْوة، وقرأَ الفيَّاض بن غزوان، ويعقوب بكسر الواو، وذكرها المهدوي عن الأَعرج، وعمرو بن ميمون.

وأَمَّا الحامل فلا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها، بُتَّتْ أَو لم تُبت؛ لأَنها مُبَيَّنة في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفَّى عنها زوجها على قولين لعلماءِ الأُمة، فمنعها قوم، وأَوجبها في التركة قوم، وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأَجر مع الكسوة وسائر المؤن التي بَسْطُها في كتب الفقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾، أَي: ليأْمُر كل واحد صاحبه بخير، ولا شك أَن من أَمر بخير فهو أَسرع إِلى فعل ذلك الخير، وليقبل كل أَحد ما أُمِر به من المعروف فالقبول والامتثال هو الائتمار، وقال الكسائي: [ائتَمِرُوا] معناه: تشاوروا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1]، ومنه قول امرىء القيس:

. . . . وَيَعْدو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ[2]

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (القصص).

(٢) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس في مطلع قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إِلى الصيد، والبيت بتمامه:

أَحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ

والخَمِرْ: الذي خالطه داءٌ أَو وجع أَو سُكْر، ويعدو: يرجع، و«ما يَأتمِرْ»: ما يدبِّره ويريد أَن يوقعه بغيره، يقول مخاطباً الحارث بن عمرو: إِنه يشعر بحالة غير عادية، كأَنه مريض أَو سكران، وإِن ما يدبره الإِنسان لغيره من شرور يعود عليه هو.



وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: تشطَّطت المرأة في الحدِّ الذي يكون أُجرةً على الرِّضاع فلِلزَّوج أن يسترضع أُخرى بما فيه رفقُهُ، إلاَّ إنْ لم يقبل المولود غير أُمِّه فتجبر حينئذ على رضاعه بأُجرة مِثْلها ومِثْل الزوج في حالهما أَو غناهما. ثم خصَّ الله تعالى أَهل الجِدَة على الإنفاق وأَهل الإقتار على التوسط، كلٌّ بقدر حاله، وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يتكلَّف هو ما لا يُطيق.

واختلف العلماءُ في الذي يعجز عن نفقة امرأته ـ فقال مالك، والشافعي، وأَحمد، وإِسحاق، وأَبو هريرة، وابن المسيَّب، والحسن يُفرَّق بينهما، وقال أَصحاب الرأْي، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وجماعة: لا يُفرَّق بينهما، ثم رجَّى تعالى باليُسْر تسهيلاً على النفوس وتطييباً لها.

وقرأَ الجمهور: [وَيُعْظِمْ] بالياءِ، وقرأَ الأَعمش: [وَنُعْظِمْ] بالنون، واختُلف عنه[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

«كَأَيِّنْ» هي كاف الجرِّ دخلت على «أَيّ»، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن كثير، وعُبَيْد عن أَبي عمرو: [وَكَائِنٍ] ممدودة مهموزة، كما قال الشاعر:

وَكَـائِـن بـالأَبَـاطِـحِ مِـنْ صَـدِيـقٍ . . . .[(٢)]

---

(١) لاحظ أن هذا تأخر عن موضعه.

(٢) البيت لجرير، وهو من قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف، وقد ذكر المؤلف صدر البيت فقط، والبيت بتمامه:

وَكَـائِـن بـالأَبَـاطِـحِ مِـنْ صَـديـقٍ ... يَـرَانـي لَـوْ أُصِبْـتُ هُـوَ الْمُصَـابَـا

والأباطح: جمع أبطح، وهو مَسيلٌ واسع للماء فيه دقاق الحصى، والمصيبة: ما أصاب من الدهر،=



وقرأ بعض القراءِ: [وَكَايِن] بتسهيل الهمزة، وفي هذين الوجهين قَلْب؛ لأَن الياءَ قبل الأَلفات. و«الْعُتُوُّ»: تَرْكُ الائتمار والقبول.

وقوله تعالى: [فَحَاسَبْنَاهَا] قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أَي: ثَمَّ هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة، وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى ﴿حاسبناها حسابا شديدا﴾ لَمْ نغتفر لهم زَلَّة بل أُخذوا بالدقائق من الذنوب. وقرأ نافع، وأَبو بكر، وابن ذكوان: [نُكُراً] بضم الكاف، وأَسكنها الباقون، وهي قراءَة عيسى، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يظهر منه أَنه بيان لوجه خُسران عاقبتهم، فيتأَيد بذلك أَن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا.

ثم ندب تعالى أُولي الأَلباب إِلى التَّقوى تحذيراً، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لـ«أُولي الأَلْبَابِ»، وقرأَ نافع، وابن عامر: [نُدْخِلْهُ] بالنون، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وقرأَ الباقون بالياءِ، وقوله تعالى: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا﴾، اختلف الناسُ في تقرير ذلك ـ فقال قوم من المتأَولين: المراد بالاسمين القرآن، و«رَسُولاً» بمعنى رسالة، وذلك موجود في كلام العرب، وقال آخرون: [رَسُولاً] نعت أَو كالنعت لقوله سبحانه: [ذِكْراً]، فالمعنى: ذِكْراً ذا رسولٍ، وقيل: «الرسول» ترجمة عن «الذِّكْر» كأنه بدلٌ منه، وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد ﷺ، والمعنى: ذا ذِكْرٍ رسولاً، وقال بعض حُذَّاق المتأَولين: الذِّكْرُ اسمٌ من أَسماءِ الرسول عليه الصلاة والسلام، واحتج بهذه القاضي أَبو بكر الباقلاني في تأْويل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1]، وقال بعض النحاة: معنى الآية: ذِكْراً بعث رسولاً، فهو منصوب بإِضمار فعل، وقال أَبو علي الفارسي: يجوز أَن يكون [رَسُولاً] معمولاً للمصدر الذي هو الذِّكْر[2].

= يتكلم عن التعاون والوفاء والمساندة بين الأصدقاء في وقت كبر فيه وذهب شبابه، يقول في مطلع القصيدة:

سَئِمْتُ مِنَ الْمُوَاصَلَةِ الْعِتَابَا ... وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا

(١) من الآية (٢) من سورة (الأنبياء).

(٢) وقيل: الذِّكْرُ هنا هو الشرف، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ثم بيَّن الله تعالى هذا الشرف بقول: [رَسُولاً]، وقيل: إن الرسول هنا هو جبريل، فيكون هو والذِّكر مُنَزَّلين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَبْيَن الأقوال عندي معنًى أَن يكون «الذِّكر» القرآن، و«الرَّسولُ» مُحَمَّداً ﷺ، والمعنى: بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحا هذا المنحى السُّدِّي.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، وأَبو بكر: [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياءِ، وقرأَها بكسر الياءِ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأَعمش، وعيسى. وسائر الآية بَيِّنٌ، والرزقُ المشار إِليه رزق الجنة لدوامه ودُرُوره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

لا خلاف بين العلماءِ أَن السموات سبعٌ لأَن الله تعالى قال: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[(١)]، وفسَّر رسول الله ﷺ أمرهن في حديث الإسراءِ، وقال عليه الصلاة والسلام لسعدٍ رضي الله عنه: «حكمت فيهم بحكم الملِك من فوق سبع أَرْقِعَة»[(٢)]، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع، وأَمَّا الأَرض فالجمهور على أَنها سبع أَرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأَن المماثلة إنما هي في العدد، ويستدل بقول رسول الله ﷺ: «من غصب شبراً من أَرضٍ طُوِّقه من سبع أَرضين»[(٣)]، إِلى غير هذا ممَّا وردت به روايات، وروي عن قوم من العلماءِ أَنهم قالوا: الأَرض واحدة، وهي مماثِلةٌ لكل سماءٍ بانفرادها

---

(١) من الآية (٣) من سورة (المُلْك).

(٢) جاء ذلك في حادثة نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه، وقد ذكره ابن هشام في السيرة، قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمرو عن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقَّاص الليثي، قال: قال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكَمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، والأرقعة السموات، والواحدة رقيع.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ومسلم في المساقاة، ولفظه كما في البخاري، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن ـ وكانت بينه وبين أُناس خصومة في أرض ـ فدخل على عائشة رضي الله عنها فذكر لها ذلك فقالت: يا أبا سَلَمة، اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظلم قيدَ شبر طُوِّقه مِنْ سبع أرضين». ذكر السيوطي في الجامع الصغير أن أحمد أخرجه هو والبخاري ومسلم عن عائشة وعن سعيد بن زيد، ثم رمز له بأنه صحيح.

في ارتفاع جرمها، وفي أَن فيها عَالماً يَعْبُد، كما في كل سماءٍ عالم يَعْبُد.

وقرأ الجمهور: [مِثْلَهُنَّ] بالنصب، وقرأ عاصم: [مِثْلُهُنَّ] بالرفع[1]، و«الأَمْرُ» هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى مَنْ يعقل ومن لا يعقل، فإِن الرِّياح والسَّحاب وغير ذلك مأمورٌ كله، وباقي السُّورة حضٌّ على توحيد الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم معناه الخصوص، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ عموم على إطلاقه.

كمل تفسير سورة الطلاق والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قراءة عاصم ـ في رواية حفص ـ بالنصب مثل الجمهور.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾.

رُوي في الحديث عن زيد بن أَسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أَن رسول الله ﷺ لما أَهدى إِليه المقوقس مارية القبطية اتخذها سُرِّية[٢]، فلما كان في بعض الأَيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ـ وقيل: بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها ـ جاءَ رسول الله ﷺ إِلى بيت حفصة فوجدها قد مرَّت لزيارة أبيها، فبعث رسول الله ﷺ في جاريته، فَقَالَ معها[٣]، فجاءَت حفصة فوجدتهما، فأَقامت خارج البيت حتى أَخرج رسول الله ﷺ مارية وذهبت، فدخلت حفصة غَيْرَى متغيرة، فقالت: يا رسول الله، أَما كان في نسائك أهون عليك منِّي؟ أَفي بيتي وعلى فِراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ مترضِّياً لها: أُيرضيك أَن أُحرِّمها؟ قالت: نعم، فقال: إِنِّي قد حرَّمتُها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقال مع ذلك: والله لا أطؤها أَبداً، ثم قال: لا تخبري بها أَحداً، فمن قال: إِن ذلك كان في يوم عائشة قال: اسْتَكتمها خوفاً من غضب عائشة، وحُسْن عِشْرة لها، ومن قال: بل كان في يوم حفصة قال: اسْتَكْتمها

(١) وتُسَمَّى سورة «النَّبيِّ».

(٢) قال أهل اللغة في الجارية التي يتسرَّاها مالكها لم سُمِّيت سُرِّية؟: نُسبت إِلى السِّرِّ ـ وهو الجماع ـ وضُمَّت السِّين للفروق بين الحرَّة والأمة، فقيل للحرة التي تنكح سرا: سِرِّية، وقيل للمملوكة التي يتسراها صاحبها: سُرِّية. وقيل: سُمِّيت سُرِّية لأنها موضع سرور الرجل.

(٣) أي: قضى معها وقت القيلولة.



لنفس الأَمر، ثم إِن حفصة قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشِّرها بالأَمر، ولم تر في إِفشائه إِليها حرجاً، واسْتَكْتَمَتْهَا، فأَوحى الله بذلك إِلى نبيِّه ﷺ، ونزلت الآية[١].

ورُوي عن عِكْرِمة أَن هذا نزل بسبب أُم شريك التي وهبت نفسها للنبي ﷺ[٢]، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى عُبَيْد بن عُمر عن عائشة رضي الله عنها أَن هذا التحريم المذكور في الآية إِنما هو بسبب شراب العسل الذي شربه عند زينب بنت جحش، فتمالأَت عائشة وحفصة وسودة على أَن تقول له من دنا منها: أَكلت مغافير ـ والمغافير صمْغُ العُرْفط ـ وهو حلوٌ ثقيل الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكني شربت عسلاً، فقلن له: جَرَسَتْ نحلُه العُرْفط، فقال رسول الله ﷺ: لا أَشربُه أَبداً، وكان يكره أَن توجد منه رائحة ثقيلة، فدخل ـ بعد ذلك ـ على زينب رضي الله عنها فقالت له: أَلا نسقيك من ذلك العسل؟ فقال: لا حاجة لي به، قالت عائشة رضي الله عنها: تقول سَوْدة حين بلغها امتناعه: والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي[٣].

---

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج مثله ابن سعد، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وأخرج مثله عبد بن حميد، عن قتادة، قال ابن العربي: «إن من روى أنه ﷺ حرَّم مارية فإنه أمثل في السَّند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يُدَوَّن في الصحيح، ورُوي مرسلا». ونقل ابن كثير في تفسيره هذا الحديث عن ابن جرير، عن زيد بن أسلم، وعن الهيثم بن كليب، عن عمررضي الله عنه، ثم قال: «وهذا إسناده صحيح، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتاب السِّتَّة، وقد اختاره الحافظ الضياءُ المقدسي في كتابه المستخرج.

(٢) قال ابن كثير: «وهذا قولٌ غريب»، وقال ابن العربي عن هذا أنه أضعف الأقوال، قال: «أما ضعفه في السَّند فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبي ﷺ للموهوبة ليس تحريماً لها، لأن من ردَّ ما وُهب له لم يحرم عليه، إنما حقيقة التحريم أنه يكون بعد التحليل»، هذا وأُم شريك هذه اختلف في اسمها، فقيل: غُزَيَّة، وغَزِيَّة، وقيل: غُزَيْلة، وقيل: ليلى بنت حكيم، وشهرتها: أُم شَريك بنت جابر الأسدية.

(٣) أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال القرطبي: «وهو أصحُّ الأقوال»، وقال ابن كثير: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسَل كما في البخاري عند هذه الآية»، ثم ساق كلام البخاري، وذكر بعد ذلك أن مُسْلماً روى هذا الحديث في كتاب الطلاق. ومعنى (جَرَسَتْ نَحْلَةُ العُرْفُط): رَعَتْ نحلُه شجر العُرْفُط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحُه في العَسَل الذي شربْتَه يا رسول الله، والجَرْسُ هو الأكل، والمغافير: بَقْلة أو صمغة=



والقول الأَول ـ أن الآية نزلت بسبب مارية ـ أَصحُّ وأَوضح، وعليه تفقَّه الناسُ في الآية، ومتى حرَّم الرجل مالاً أَوْ جاريةً دون أَن يعتق أَو يشترط عتقاً أَو نحو ذلك فليس تحريمه بشيءٍ، واختلف العلماءُ إِذا حرَّم زوجته بأَن يقول: «أنتِ عليَّ حرامٌ» أَو: «الحلاُل عليَّ حرام»، ولا يستثني زوجته ـ فقال مالك: هي ثلاث في المدخول بها، وينوى في غير المدخول بها، فهو ما أَراد من واحدة أَو اثنتين أَو ثلاث، وقال عبد الملك بن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، ولا ينوى في شيءٍ، وقال أَبو المصعب وغيره ـ ورواه ابن خُوَيْز منداد عن مالك ـ: إِنَّها واحدة بائنة في المدخول بها، ورُوي عن عبد العزيز بن الماجشون أَنه قال: يحملها على واحدة رجعية، وقال غير واحد من أَهل العلم: التحريم لا شيءَ، وإِنما عاتب اللهُ رسوله ﷺ فيه ودلَّه على تَحِلَّة اليمين المبينة في المائدة لقوله: «قد حرَّمتها ووالله لا أَطؤها أَبداً»، وقال مسروق: ما أُبالي أَحرَّمتها أَو قصعة من ثريد، وكذلك قال الشعبي: «ليس التحريم بشيء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[٢]، ومُحَرِّم زوجته قد سمَّى حراماً ما جعله الله حلالا، وحرَّم ما أَحلَّ الله له». وقال أَبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابن مسعود، وابن عباس وعائشة، وابن المسيَّب، وعطاءٌ، وطاوس، وسليمان بن يسار، وابن جُبَيْر، وقتادة. وأَبو ثور الأَوزاعي، والحسن، وجماعة: التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى، والتَّحِلَّة إِنما هي من أَجل التحريم، ولم يقل رسول الله ﷺ: «والله لا أَطؤها»، وقال أَبو قلابة: «التحريم ظهار»، وقال أَبو حنيفة، وسفيان، والكوفيون: «هو ما أَراد من الطلاق، فإِن لم يُرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء»، وقال آخرون: «هو ما أراد من الطلاق، فإِن لم يُرد طلاقاً فهي يمين».

ودعا الله تعالى نبيَّه ﷺ باسم النُّبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خَصَّه بها دون البشر وقدَّره، كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أَحلَّ الله تعالى له.

= متغيرة الرائحة، فيها حلاوة، والعُرْفُط: نبتٌ له ريحٌ كريح الخمر.

(١) من الآية (١١٦) من سورة (النحل).

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (المائدة).



وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في [تُحَرِّمُ]، و«المَرْضَاةُ» مصدر كالرِّضَى، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورَحِمَه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ أَي: بيَّن وأَثبت، وقال قوم من أَهل العلم: هذه إشارة إلى تكفير التحريم، وقال آخرون: هي إشارة إلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم. و«التَّحِلَّةُ» مصدر، وَزْنها «تَفْعِلَة»، وأدغم لاجتماع المثلين، وأَحال في هذه الآية على الآية التي فسَّر فيها الإطعام في كفَّارة اليمين بالله تعالى، و«المَوْلَى»: المُوَالي النَّاصرُ العاضِدُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ﴾ الآية معناه: اذكر يا محمد ذلك على وجه التأَنيب والعتب لهن، وقال الجمهور: «الحديث» هو قوله ﷺ في أَمْر مارية، وقال آخرون: إنما هو قوله عليه الصلاة والسلام: إنما شربتُ عسلاً، و«بَعْضُ أَزْوَاجِهِ» هي حَفْصة رضي الله عنها، و[نَبَّأَتْ] معناه: أَخبرت، وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ طلحة: [أَنبَأَتْ]، وكان إخبارها لعائشة رضي الله عنها، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتا فيه، وقال ميمون بن مهران: الحديث الذي أَسرَّ إلى حفصة أَنه قال لها: وأَبشري بأَن أَبا بكر وعمر يملكان أَمر أُمتي من بعدي خلافةً، وتعدَّت «نَبَّأَ» في هذه الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى واحد لأن ذلك يجوز في أَنبأَ ونبَّأَ إذا كان دخولهما على غير الابتداءِ والخبر، فمتى دخلت على الجملة تعدَّت إلى ثلاثة مفعولين، ولا يجوز الاقتصار، وقوله سبحانه: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أَي أَطلعه.

وقرأَ الكسائي وحده، وأَبو عبد الرحمن، وطلحة، والحسن، وقتادة: [عَرَفَ] بتخفيف الراءِ، وقرأَ الباقون وجمهور الناس: [عَرَّفَ] بشدها، والمعنى في اللفظة مع التخفيف: جار بالعَتْب واللوم، كما تقول لإنسان يؤذيك: قد عرفتُ لك هذا، ولأَعرفنَّ لك هذا، بمعنى: لأُجازينَّك عليه، ونحوه في المعنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[1] فعِلْم الله تعالى زعيم بمجازاتهم، وكذلك معرفة النبي ﷺ، والمعنى مع الشَّدِّ في الرَّاءِ: أَعلم به وأَبَتَّ عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أَي تكرُّماً وحياءً وحُسْن عِشْرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وروي أَن رسول الله ﷺ طلَّق حينئذ حفصة رضي الله عنها، ثم إن الله تعالى

(١) من الآية (٦٣) من سورة (النساء).



أَمره بمراجعتها، ورُوي أَن رسول الله ﷺ عاتبها ولم يطلِّقها، فلما أَخبر رسول الله ﷺ بالخبر وأَنها أَفشته إِلى عائشة ظنت أَن عائشة فضحتها، فقال: «من أَنبأَكَ هذا»؟ على جهة التثبُّت، فلما أَخبرها أَن الله تعالى أخبره سكتت وسلمت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلتُ لعمر: من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: حفصة وعائشة، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ معناه: مالت عن المَعْدَلة والصواب، والصَّغَا: الميْلُ، ومنه صاغية الرجل، وهم حواشيه الذين يميلون إِليه، ومنه: أَصْغَى إِليه بسمعه، وأَصْغَى الإِناءُ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه: [فقد زاغت قُلُوبُكُمَا]، والزَّيْغُ: المَيْل، وعُرْفه في خلاف الحق، قال مجاهد: كنا نرى «صَغَتْ» شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءَة ابن مسعود: «زاغت»، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ، ومن حيث لا لَبْس في اللفظ، وهذا نظير قول الشاعر:

. . . . ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ[1]

---

(١) هذا البيت من رجز الشاعر الإسلامي الخطام المجاشعي، يقول:

وَمَهْمَهٍ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ

والمَهْمَه: القفْر المخوف، والقَذَفُ ـ بفتح القاف والذال وقد تكونان بالضم ـ هو البعيد من الأرض، وفي رواية فَدفَيْن، والفدفد: الأَرض المستوية، والمَرْتُ ـ بفتح الميم وسكون الراء بعدهما تاءٌ ـ هو الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات، والظَّهْر: ما ارتفع من الأرض، وهو يستشهد بالبيت على جواز معاملة المثنى على أنه جمع، والعرب يقولون: أقلُّ الجمع اثنان؟ لأن التثنية جمع شيءٍ إلى مثله، قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله «ما أحسن وجوههما»؟ فقال: الاثنان جماعة، وعلى هذا جاءَ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾، وقال الزجاج نقلا عن بعض النحويين: إنما جُعلت تثنيةُ ما في الإنسان منه واحد، جَمْعاً؛ لأن أكثر أعضائه فيه منها اثنان، فحمل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك.



ومعنى الآية: إِنْ تُبْتما فقد كان منكما ما ينبغي أَن يُتاب منه، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى، وإِنما ترتَّب جواباً في اللفظ، و﴿إن تظاهرا﴾ معناه: تتعاونا، فأُدغمت التاءُ في الظاءِ بعد البدل، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس بتاءَين على الأَصل، وقرأ الكوفيون، وطلحة، وأَبو رجاءٍ، والحسن بتخفيف الظاءِ على حذف التاءِ الواحدة، ورُوي عن أَبي عمرو أَنه قرأ بتشديد الظاءِ والهاءِ دون أَلف، و«الْمَوْلَى»: الناصر والمعين، وقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أَن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله: [هُوَ]، فيكون ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية، ويحتمل أَن يكون [جِبْرِيلُ] رفعاً بالابتداءِ وما بعده عطف عليه و[ظَهِيرٌ] الخبر، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية، ويختص بأَنه مولى الله سبحانه وتعالى.

واختلف الناس في «صَالح المؤمنين» ـ فقال الطبري وغيره من العلماءِ: ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح، وقال الضحاك، وابن جبير، وعكرمة: المراد أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ[١]، وقال مجاهد نحوه، وقال أَيضاً: وعليٌّ رضي الله عنه، وروى عليٌّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنه قال: «صالح المؤمنين علي بن أَبي طالب»[٢] ذكره الثعلبي، وقال قتادة، والعلاءُ بن زياد، وغيرهما: هم الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، وإِنما يترتب ذلك بأَن تكون مظاهرتهم بأَنهم قدوة وأُسوة، فهم عونٌ بهذا المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أَن يكون اسم جنس مفرد، ويحتمل أَن يريد: «وصالحوا» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[٣] وغير ذلك.

ويروى عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، لا تكترث بأَمر نسائك، والله معك وجبريل معك وأَبو بكر معك وأَنا معك، فنزلت الآية موافقة نحواً من قول عمر[٤]. قال المهدوي: رُوي أَن

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرج مثله الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن عليٍّ رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن أسماء بنت عُمَيْس. (الدر المنثور).

(٣) الآية (١٨) من سورة (العلق).

(٤) رواه البخاري، عن أنس رضي الله عنه، كذلك رواه ابن أبي حاتم عنه. (الدر المنثور).

هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه، وكذلك روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي ﷺ: «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن أَن يُبَدِّله أَزواجاً خيراً منكن»، فنزلت الآية على نحو قوله[١]، وقال عمر رضي الله عنه: قالت لي أُم سلمة: «يا بْن الخطاب أَدخلتَ نفسك في كل شيءٍ حتى دخلتَ بين الرسول ﷺ وبين نسائه»، فأَخذتني أَخْذاً كسرتني به، وقالت لي زينب بنت جحش: يا عمر: أَما يقدر رسول الله ﷺ أَن يعظ نساءَه حتى تعظهن أَنت؟

وقرأَ الجمهور: [طَلَّقَكُنَّ] بفتح القاف وإِظهارها، وقرأَ أَبو عمرو ـ في رواية عباس عنه ـ بإِدغامها في الكاف وشدها، قال أَبو علي: وإِدغام القاف في الكاف حَسَن، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والكوفيون، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وابن محيصن: [أَنْ يُبْدِلَهُ] بسكون الباءِ وتخفيف الدال، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر: [أَنْ يُبَدِّلَهُ] بفتح الباءِ وشدِّ الدال، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل.

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإِن كان بعضها يتضمن بعضا، فالإِسلام إِشارة إِلى التصديق والعمل، والإِيمانُ تخصيص وتنبيه على شرف وقعه، و«قانتاتٌ» معناه: مطيعات، و«السَّائحات» قيل: معناه صائمات، قاله أَبو هريرة، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وذكر الزجاج أَن النبي ﷺ قاله: وقيل: معناه: مهاجرات، قاله زيد بن أَسلم، وقال ابن زيد: ليس في الإِسلام سياحة إِلاَّ الهجرة، وقيل: معناه: ذاهبات في طاعة الله تعالى، وشبه الصائم بالسائح من حيث ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش بفقد الطعام، وقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة، وليست هذه الواو مما يمكن أَن يقال فيها: واو الثمانية؛ لأَنها ها هنا ضرورية ولو سقطت لاختلَّ المعنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا

---

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه مسلم في صحيحه، وأخرجه عبد بن حميد، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة، وقوله تعالى: [وَأَهْلِيكُمْ] معناه: بالوصية لهم والتقديم والحمل على طاعة الله تعالى، وفي حديث «لا تزني فيزني أَهلك»، وفي حديث آخر «رحم الله رجلا قال: يا أَهلاه، صلاتَكُم، صيامكُم، مِسْكِينَكُم، يَتِيمَكُمْ»[1]، وقرأ الجمهور: [وَقُودُهَا] بفتح الواو، وقرأ مجاهد، والحسن، وطلحة، وعيسى، والفياض بن غزوان، وأَبو حيوة بضمها، وقيل: هما بمعنى، وقيل: الضم مصدر والفتح اسم، ويروى أن الحجارة هي حجارة الكبريت وقد تقدم في البقرة، ويروى أَنها جميع أَنواع الحجارة، وفي بعض الحديث أَن عيسى بن مريم عليه السلام سمع أَنيناً بفلاة من الأَرض، فتتبَّعه حتى بلغ إِلى حجر يَئِنُّ ويحزن، فقال له: مالك أَيُّها الحجر؟ قال: يا روح الله إِني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فخفت أَن أَكون من تلك الحجارة، فعجب منه عيسى عليه السلام وانصرف، ويشبه أَن يكون هذا المعنى في التوراة أَو في الإِنجيل، فذلك الذي سمع الحجر إِذا عُبِّر عنه بالعربية كان هذا اللفظ.

ووصْف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة، كما قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]، و«الشِّدَّةُ»: القوَّة، وقيل: المراد شدَّتهم على الكفَّار فهي بمعنى الغلظة. ثم وصفهم تعالى بالطواعية لربهم، وكرَّر المعنى تأْكيداً بقوله سبحانه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي قوله تعالى:

(١) لم أقف على هذا الحديث والذي قبله، والحديث الواضح في معنى الآية هو الذي رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»، وهذا لفظ أبي داود، ومثله في معنى الآية ما أخرجه ابن مردويه، عن زيد بن أسلم، قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قالوا: يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً؟ قال: تأمرونهم بما يحبه الله وتنهَوْنهم عمَّا يكره الله».

(٢) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران).



﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ما يقتضي أَنهم يدخلون الكفار النَّار بجد واختيار ويغلظون عليهم، فكأَنه قال بعد تقرير هذا المعنى: فيقال للكفار: «لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ»، أَي أَن المعذرة لا تنفعكم، وإِنما تجزون بأَعمالكم، فلا تلوموا إِلاَّ أَنفسكم.

ثم أَمر عباده بالتوبة، والتوبةُ فرض على كل مسلم، و«تاب» معناه: رجع، فتوبة العبد رجوعه من المعصية إِلى الطاعة، وتوبة الله تعالى على العبد إِظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية للطاعة، وقبول توبة الكافر يُقطع على الله تعالى بها إِجماعاً من الأُمة، واختلف الناس في توبة العاصي ـ فجمهور أَهل السُّنَّة على أَنه لا يُقطع بقبولها ولا ذلك على الله تعالى بواجب، والدليل على ذلك دعاءُ كل أَحد من التائبين في قبول التوبة، ولو كان مقطوعاً به لما كان للدعاءِ معنًى في قبولها، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة، وروي عن الحسن الأَشعري أَنه قال: التوبة إِذا توافرت شروطها قطع على الله تعالى بقبوله لأَنه أَخبر بذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تمسُّك بظواهر القرآن، وعلى هذا القول أَطبقت المعتزلة، والتوبة: الندم على فارط معصية، والعزم على ترك مثلها في المستقبل، هذا من المتمكن، وأَما غير المتمكن كالمجبوب في الزنى فالندم وحده يكفيه، والتوبة عبادة كالصلاة وغيرها، فإِذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأُولى لا تفسدها عودة، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات.

و«النَّصُوحُ» بناءُ مبالغة من النُّصح، أَي توبة نصحت صاحبها وأَرشدته، وقرأَ الجمهور: [نَصُوحاً] بفتح النون، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع، والحسن، والأَعرج، وعيسى: [نُصُوحاً] بضم النون، وهو مصدر، يقال: نصح يَنْصَح نصَاحةً ونُصُوحاً، قاله الزجاج، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور ونحوه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التوبة النَّصوحُ هي أَن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أَن يعود، وقال أَبو بكر الوراق: هي أَن تضيق عليك الأَرض بما رحبت كتوبة الذين خُلِّفوا.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ الآية ترجية، وقد رُوي أَن «عَسَى» من الله تعالى واجبة، والعامل في [يَوْمَ] هو [يُدْخِلُكُمْ]، ورُوي في معنى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله

النبي﴾ أن محمداً ﷺ تضرَّع في أمر أُمَّته فأَوحى الله تعالى إِليه: إِن شئت جعلتُ حسابهم إِليك، فقال: يا ربِّ أَنت أَرحم بهم، فقال الله تعالى: إِذاً لا أُخزيك فيهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾، والخِزْيُ المكروُه الذي يترك الإِنسان حيران خجلاً مهموماً بأَن يرى نقصه أَو سوءَ منزلته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يحتمل أَن يكون معطوفاً على [النَّبِيّ] فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أَن يكون ابتداءً، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ جملة هي خبره، ويبقى النبي ﷺ مخصوصاً مُفضلاً بأَنه لا يَخزى، وقد تقدم القول في نظير قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وقرأَ سهل بن سعد: [بِإِيْمَانِهِمْ] بكسر الهمزة، وقولُهم: ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ قال الحسن بن أَبي الحسن: هو عندما يرون من انطفاءِ نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره، وقيل: يقوله من أُعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية تأكيد لأَمر الجهاد وفرضه المتقدم، والمعنى: دُمْ على جهاد الكافرين بالسيف، وجاهد المنافقين بإِقامة الحدود عليهم، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم، ولم يعين الله تعالى لرسوله ﷺ منافقاً يقع القطع بنفاقه؛ لأَن التشهد الذي كانوا يُظهرون كان مُلْبساً لأَمرهم، مُشبهاً لهم بالعصاة من الأُمة، و«الغِلْظَةُ عليهم» هي فظاظة القلب والانتهار وقلة الرفق بهم، وقرأَ الضحاك: [وَأَغْلِظْ] بكسر اللام وقطع الأَلف.

وهذان المثلان اللَّذان للكفار والمؤمنين معناهما أَن من كفر لا يُغني عنه من الله شيءٌ، ولا ينفعه وَزَرٌ[1] ولو كان متعلقاً بأَقوى الأَسباب، وأَن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أَسوإِ منشأ وأَخسِّ حال، وقال بعض الناس: إِن في

---

(١) الوَزَر: الملجأُ والمُعْتَصَم.



المثلين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابُهُنَّ، وفي هذا بُعْد لأَن النَّص أَنه للكفار يُبعد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأَتين ـ فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أَن امرأَة نوح كانت تقول للناس: إِنه مجنون. وأَن امرأَة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف، فتخبر به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتُلي الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا، وقال الحسن ـ في كتاب النقاش ـ: خانتاهما بالكفر والزنى وغيره، وقرأَ الجمهور: [يُغْنِيَا] بالياءِ، وقرأَ بشر بن عبيد: [تُغْنيَا] بالتاءِ من فوق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

امرأَة فرعون اسمها «آسية»، وقولها: [وَعَمَلِهِ] معناه: وكُفْره وما هو عليه من الضلالة، هذا قول كافة المفسِّرين، وقال جمهور من المفسِّرين: معناه: من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، ورُوي في هذا أَن فرعون اتَّصل به إِيمانها بموسى عليه السلام، وأَنها تحب أَن تغلب، فبعث إِليها قوماً فقال: إِن رأَيتم منها ذلك فابطحوها في الأَرض، وَوَتِّدُوا يديها ورجليها، وأَلقوا عليها أَعظم حجر، وإِن لم تروا ذلك فهي امرأَتي، قال: فذهب القوم، فلما أَحسَّت الشَّرَّ منهم دعت بهذه الدعوات؛ فقبض الله تعالى روحها، ووضع أُولئك الحجر بشخص لاروح فيه، ورُوي غير هذا مما يطول فاختصرته لعدم صحته. وقال آخرون ـ في كتاب النقاش ـ: [وَعَمَلِهِ] كناية عن الوطءِ والمضاجعة، وهذا ضعيف.

واختلف الناس في الفرج التي أَحصنت مريم عليها السلام ـ فقال الجمهور: هو فرج الدِّرْع الذي كان عليها، وأَنها كانت صبيَّة، وأَن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الدِّرع، وقال قوم: هو الفرج الجارحة، ولفظة [أَحْصَنَتْ] ـ إِذا كان فرج الجارحة ـ متمكنة حقيقة، والإِحصانُ: صَوْنُه، وهي فيه مستعملة، وإِذا قدرناه فرج الدِّرْع فلفظة [أَحْصَنَتْ] مستعارة من حيث أَحصنته وصانته ومن حيث سار مسلكاً لولدها.



وقوله تعالى: [فَنَفَخْنَا] عبارة عن فعل جبريل عليه السلام، ونَفْخ جبريل عليه السلام حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أن النَّفْخ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يُسير الشيءَ برفق ولطف، وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بَيْتُ الله، وناقة الله، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله.

وقرأَ الجمهور: [وَصَدَّقَتْ] بشدِّ الدال، وقرأَ أَبو مجلز بتخفيفها، وقرأَ جمهور الناس: [بِكَلِمَاتِ] على الجمع، وقرأَ الجحدري: [بِكَلِمَةِ] على الإفراد، فأَما الإفراد فيُقَوِّي أَنْ يريد أَمر عيسى عليه السلام، ويحتمل أَن يريد اسم جنس وهو التوراة، ومن قرأَ بالجمع فيُقَوِّي أنه يريد التوراة، ويحتمل أَن يريد أَمر عيسى عليه السلام. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم، ونافع: [وَكِتَابِهِ] على التوحيد، وقرأَ أَبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع: (وَكُتُبِهِ) بضم التاءِ على الجمع، وقرأَ أَبو رجاءٍ بسكون التاءِ: [وَكُتْبِهِ]، وذلك كله مُراد به التوراة والإنجيل.

و«الْقَانِتُونَ»: العابدون، والمعنى: كانت من القوم القانتين في عبادتها وحال دينها.

كمل تفسير سورة التحريم، والحمد لله ربِّ العالمين

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المُلك[(١)]

وهي مكية بإجماع، وكان رسول الله ﷺ يقرؤها كل ليلة عند أَخْذ مضجعه، ورواه جماعةٌ مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ورُوي عنه أنه قال: «إنها لتُنَجِّي من عذاب القبر، وتجادل عن حافظها حتى لا يُعَذَّب»[(٢)]، ويروى أن في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أجاد وأَطيب[(٣)]، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «وَدِدْتُ أن سورة (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) في قلب كل مؤمن»[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾.

«تبَارَكَ» تفَاعَلَ، من البركة، وهي التَّزيُّد في الخيرات، ولم يستعمل «يتبارك»

---

(١) وتسمى الواقية، والمُنْجية.

(٢) أخرج الترمذي، والحاكم، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءَه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة «المُلْك» حتى ختمها، فأتي النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المُنْجية، تنجيه من عذاب القبر»، قال الترمذي: حديث حسن غريب. (الدر المنثور).

(٣) أخرج الطبراني، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود، قال: كنّا نسميها في عهد رسول الله ﷺ المانعة، وإنها لفي كتاب الله سورة المُلْك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب. (الدر المنثور).

(٤) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ـ واللفظ له ـ والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أُتحفك بحديث تفرح به ؟ قال: بلى، قال: اقرأ (تَبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المُنْجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن تنجِّيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوَدِدْتُ أنها في قلب كل إنسان من أمتي». (الدر المنثور).

ولا «متبارك». وقوله تعالىٰ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ عبارة عن تحقيق الْمُلْك؛ وذلك أَن اليَدَ في عُرف الآدميِّين هي آلة التملُّك، فهي مستعارة لذلك، و«الْمُلْكُ» على الإطلاق هو الذي لا يَبِيدُ ولا يختل منه شيءٌ، وذلك هو مُلكُ الله تعالىٰ، والمرادُ في هذه الآية: ملك الملوك، فهي بمنزلة قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[(١)] ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، فالشيءُ معناه في اللغة: الموجود.

و«الموتُ والحياةُ» معنيان يتعاقبان جسم الحيوان، يرتفع أَحدهما بحلول الآخر، وما جاءَ في الحديث من قوله ﷺ: «يُؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أَمْلح فيذبح على الصراط»[(٢)]، فقال أَهل العلم: ذلك تمثال كبش يُوقع اللهُ تعالىٰ العِلْم الضروري لأهل الدارين أَنه الموت الذي خافوه في الدنيا، ويكون ذلك التمثال حاملاً للموت لا عَلَى أَنه يحلُّ الموت فيه، فتذهب عنه حياتُه، ثم يقرن الله تعالىٰ بذبح ذلك التمثال إِعدام الموت، وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، أَي: ليختبركم في حال الحياة ويُجازيكم بعد الموت، وقال أَبو قتادة ـ ونَحْوه عن ابن عمر ـ: قلتُ: يا رسول الله، ما معنى قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فقال: «يقول تعالىٰ: أَيكم أَحسن عَقْلاً، وأَشد لله تعالىٰ خوفاً، وأَحسنكم في أَمْره ونَهْيه نظراً، وإِن كانوا أَقلَّكُم تطوعاً»، وقال ابن عباس، وسفيان الثوري، والحسن بن أَبي الحسن: أَيّكم أحسن عملاً: أَزهدكم في الدنيا. وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ دالٌّ على فعل، تقديره: فينظر أَو يعلم أَيكم، وقال جماعة من المتأولين: الموتُ والحياة عبارة عن الدنيا والآخرة، سمَّى هذه موتاً من حيث فيها الموت، وسمَّى تلك حياة من حيث

(١) من الآية (٢٦) من سورة (آل عمران).

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم، ومسلم في الجنة، والترمذي في تفسير سورة مريم، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٧، ٤٢٣، ٣/ ٩)، ولفظه كما في المسند «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يُؤتى بالموت يوم القيامة كبشاً أملح، فيقال: يا أهل الجنة، تعرفون هذا؟ فيطَّلعون خائفين مشفقين، قال: يقولون: نعم، قال: ثم ينادى أهل النار: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، قال: فَيُذبح، ثم يقال: خلود في الجنة، خلود في النار»، وفي رواية البخاري «ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلة الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لا موت فيها، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف مضاف كعَدْل وزَوْر، وقدَّم الموت في اللفظ لأنه متقدم في النفس هيبة وغلظة.

و﴿طِبَاقًا﴾ قال الزجاج: هو مصدر، وقيل: هو جمع طَبْقَة أو جمع طبق مثل رحْبة ورحاب أو جبل وجبال، والمعنى: بعضها فوق بعض، وقال أبان بن تغلب: سمعت أعرابياً يذم رجلاً فقال: شرُّه طباق، وخيرُه غير باق، وما ذكر بعض المفسرين في السموات أن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كلُّه لم يثبت بذلك حديث، ولا يعلم أحد من البشر حقيقة لهذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ معناه: من قِلَّةِ تناسب ومن خروج عن الاتفاق، والأمر المتفاوت هو الذي يجاوز الحدود التي له زيادةً أو نقصاً، وقرأ جمهور القراءِ: [مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن مسعود، وعلقمة، والأسود، وابن جبير، وطلحة، والأعمش: [من تَفَوُّتٍ][1]، وهما بمعنى واحد[2]، وقال بعض العلماءِ: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معنيٌّ بهِ السموات فقط، وهي التي تضمن اللفظ، وإيَّاها أراد بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، وإيَّاها أراد بقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ الآية، قالوا: وإلاَّ ففي الأرض فطور، وقال آخرون: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معني به جميع ما خلق الله تعالىٰ من الأشياءِ فإنَّها لا تفاوت فيها ولا فطور جارية على غير إتقان، ومتى كانت فطورٌ لا تفسد الشيءَ المخلوق من حيث هو ذلك الشيءُ بل هي إتقان فيه فليست تلك المرادة في الآية، وقال منذر بن سعيد: أمر الله تعالىٰ بالنظر إلى السماءِ وخلقها ثم أمر تعالىٰ بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خَلَلاً أو نقصاً فإن بصره ينقلب خاسئاً حسيراً، و«رَجْعُ البصر» تَرْديدُهُ في الشيءِ المُبْصَر. وقوله تعالىٰ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ معناه: مَرَّتين، ونصبه على المصدر، و«الخاسِيءُ»: المُبْعَد بِذُلٍّ عن شيءٍ أراده وعرض عليه، ومنه الكلب الخاسىءُ، ومنه قول النبي ﷺ لابن صيَّاد: «اخْسَأْ، فلن تعدو قدرك»[3]، ومنه قوله تعالىٰ في الكفار

---

(١) بدون ألف وبشد الواو.

(٢) وهذا كثير في اللغة، ومنه: تباعُد وتبعُّد، وتعاهُد وتعهُّد، وتحامُل وتحمُّل، وتصاغُر وتصغُّر، وتضاعُف وتضعُّف، وتظاهر وتظهُّر. فالمعنى واحد في كل مثال من هذه الأمثلة.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الجنائز والجهاد والقدر والأدب، وأخرجه كل من مسلم والترمذي في الفتن، وأبو داود في الملاحم، والدارمي في المقدمة، وأحمد في مسنده (١/ ٣٨٠، =

الحريصين على الخروج من جهنم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾[1]، وكذلك هذا البصر يحرصُ على رؤية فُطُورٍ أَو تَفَاوُتٍ فلا يجد ذلك فينقلب خاسئاً، و«الحَسِيرُ»: المُعْيي الكالُّ، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَى أن كُنَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى ... وَلاَ زالَ مِنْهَا ظَالِعٌ وَحسيرُ[2]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾.

أَخبر الله تعالىٰ أنه زيَّن السماءَ الدنيا إِلَيْنا ـ أَي التي تلينا ـ بمصابيح وهي النجوم، فإِن كان جميع النجوم في السماءِ الدنيا فهذا اللفظ عامٌّ للكواكب، وإِن كان في سائر السموات كواكب فإِمَّا أَن يريد كواكب سماءِ الدنيا فقط، وإِما أَن يريد الجميع على أَن ما في غيرها لمَّا كانت هي تشفُّ عنه ويظهر منها فقد تزينت به بوجه ما، ومَنْ تكلف القول لمواضع الكواكب وفي أَي سماءٍ هي فقوله ليس من الشريعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا﴾ معناه: وجعلنا منها، وهذا كما تقول: أَكرمتُ بني فلان وصنعت بهم، وأَنت إِنما فعلت ذلك ببعض دون بعض، ويوجب هذا التأويل في الآية أَن الكواكب الثابتة والبروج وكل ما يُهتدى به في البر والبحر فليست برواجم،

= ٣/٢٦٨، ٤/١٧٠، ٥/١٤٨)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن عبد الله قال: كنا نمشي مع النبي ﷺ. فمرّ بابن صياد، فقال: إني قد خبأتُ لك خبأ، قال ابن صياد: دُخ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، قال: «لا، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله». قال العلماء: الدُّخُّ هو الدخان، ولم يكملها، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أضمر له آية من سورة الدخان، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾.

(١) من الآية (١٠٨) من سورة (المؤمنون).

(٢) الوَجَى: الحفا، وقيل: يكون قبل الحفا، وقيل: بل هو أشدُّ من الحفا، والنَّوَى: البُعْد والفراق والانتقال إلى مكان بعيد، والظَّالع: الذي أُصيب بالعرج من أَلم في رجله، والحسير: الذي كلَّ وتعب وأصبح عاجزاً عن السير، يقال: حَسَرت الدابّةُ والناقةُ حَسْراً: أَعْيَت وكلَّت، وهو موضع الاستشهاد هنا، يطلب للنُّوق الوجى والظَّلع والإِعياء لأنهن كن عوناً على فراق الأحبة.



وهذا نص في حديث السير، وقال قتادة: خلق الله تعالىٰ النجوم للسماءِ زينة ورجوماً للشياطين. وليُهتدى بها في البر والبحر، ومن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلَّف وأَذهب حظَّه من الآخرة. و﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ معناه أَعددنا، والضمير في ﴿لَهُمۡ﴾ عائد على الشياطين.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ بالرفع على الابتداءِ، والخبر في المجرور المتقدم، وقرأَ الحسن ـ في رواية هارون عنه ـ: [عَذَابَ جَهَنَّمَ] بالنصب على معنى: وأَعتدنا للذين كفروا عَذَابَ جهنَّم، فالواو عاطفة فعل على فعل، وتضمنت هذه الآية أَن عذابَ جهنم للكفار المخلَّدين، وقد جاءَ في الأَثر أَنه يمرُّ على جهنَّم زُمَرٌ تخفق أَثوابُها، قد أَخلتها الشفاعة، فالذي يقال في هذا أَنَّ «جَهَنَّمَ» تختص به الطبقة العُلْيا من النار، ثم قد تسمَّى الطبقات كلها «جَهَنَّمَ» باسم بعضها، وهذا كما يقال «نجم» للثريَّا، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس، فالذي في هذه الآية جَهَنَّمُ بأسرها، أَي جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا لأَنها مقرُّ العصاة. و«الشَّهِيقُ» أَقبح ما يكون من صوت الحمار، فاحتدام النار وغليانها يصوِّت مثل ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾، أَي: يُزَايِل بعضُها بعضاً لشدة الاضطراب، كما قال الشاعر في صفة الكلب يحتدم في جريه:

يكـادُ يَخْـرجُ مِـنْ إهـابِـهْ[1]

وقرأَ الضحاك: [تَمَايَزُ] بالألف، وقرأَ طلحة: [تَتَمَيَّزُ] بتاءين، وقرأَ الجمهور: ﴿تَمَيَّزُ﴾ مخففة التاءِ، وقرأَ البزيُّ وقومٌ: [تَكَادُ تَّمَيَّزُ] بضم الدال وشدّ التاءِ على أَنها «تَتَمَيَّزُ» وأَدغم إِحدى التاءَيْن في الأُخرى، وقرأَ قوم بإِدغام الدال في التاءِ، وهذا فيه إِدغام الأَقوى في الأَضعف، وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ معناه: على الكفرة بالله تعالىٰ، وقوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ الفوج هو الفريق من الناس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾[2]، والآية تقتضي أَنه لا يُلقى فيها أَحدٌ إِلاَّ سُئل ـ على جهة التوبيخ

---

(١) الإهاب: الجلْد المغلَّف لجسم الحيوان قبل أن يُدبغ، وهذا نوع من التجوُّز يدل على شدة النشاط في العَدو، وجمع الإهَاب: أُهُبٌ.

(٢) من الآية (٢) من سورة (النصر).

ـ عن النُّذُر، فأَقَرُّوا بأَنهم جاءوهم وكذبوهم، وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَآ ﴾ حَصْرٌ، فإِذاً الآية تقتضي في الأَطفال من أَولاد المشركين وغيرهم وَمَنْ نُقَدِّره صاحب فترة أَنهم لا يدخلون النار لأَنهم لم يأْتهم نذير.

(واختلف الناس في أَمر الأَطفال، فاجتمعت الأَمة على أَولاد الأَنبياءِ عليهم السلام أَنهم في الجنة)(١)، واختلفوا في أَولاد المؤمنين ـ فقال الجمهور: هم في الجنة، وقال قوم: هم في المشيئة. واختلفوا في أَولاد المشركين ـ فقالت فرقة: هم في النار، واحتجوا بحديث روي «هم من آبائهم»(٢)، وتأَول المخالف هذا الحديث أَنه في أَحكام الدنيا، وقال آخرون: هم في المشيئة، وقال آخرون: هم في الجنة واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مساءَلة الخزنة، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التعبير يتضمن أَنهم في الجنة(٣)، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأَبواه يهوِّدانه أَو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»(٤)، والأَطفال لم يبلغوا أَن يُصنع بهم شيءٌ من هذا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ يحتمل أَن يكون من قول الملائكة للكفار حين أَخبروا عن أَنفسهم أَنهم كذبوا النُّذُر، ويحتمل أَن يكون من كلام الكفار للنُّذُر.

---

(١) سقطت العبارة التي بين العلامتين (. . . .) في جميع النسخ، ولم تثبت إلا في النسخة التونسية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد، وكذلك أخرجه أبو داود في الجهاد، وابن ماجه في الفتن، ولفظه كما في صحيح مسلم عن الصعب بن جَثَّامة أن النبي ﷺ قيل له: لو أن خيلاً أغارت من الليل فأصابت من أبناء المشركين، قال: «هم من آبائهم»، وفي رواية ذكرها مسلم أيضاً «هم منهم»، وواضح من الحديث أن هذا الحكم في الدنيا. ولهذا أثبتنا الحديث كما في صحيح مسلم، وإلا فقد ورد في النسخ الأصلية «هم مع آبائهم»، وزاد بعض النسخ «هم مع آبائهم في النار».

(٣) هو حديث طويل ذكره الإمام البخاري في آخر كتاب التعبير عن سمرة بن جندب، وفيه يقص النبي ﷺ قصة رؤيا رآها في المنام، وفيها أنه رأى رجلاً طويلاً وحوله ولدان، وفسَّر الملكان ما رأى فقالا: إن هذا الرجل هو إبراهيم عليه السلام، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال الراوي: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين». ومعنى ذلك أنهم في الجنة لأنهم ماتوا على الفطرة.

(٤) أخرجه أبو يعْلى في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في السنن، عن الأسود بن سريع، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى: وقال الكفار للخزنة في محاورتهم: لو كنا نسمع أَو نعقل سَمْعاً أَو عقلاً يُنتفع به ويغني شيئاً لآمَنَّا ولم نستوجب الخلود في السعير.

ثم أَخبر تعالىٰ محمداً ﷺ أَنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُحْقًا﴾ نصب على جهة الدعاءِ عليهم، وجاز ذلك فيه وهو من قِبَل الله تعالىٰ من حيث هذا القول فيهم مستقر أَزلاً وجوده لم يقع ولا يقع إلاَّ في الآخرة، فكأَنه لذلك في حيِّز المتوقَّع الذي يدعى فيه، كما تقول: سحقاً لزيد وبُعداً، وانتصب في هذا كله بإِضمار فعل، وأَمَّا ما وقع وثبت فالوجه فيه الرفع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾(1) و﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾(2)، وغير هذا من الأَمثلة. وقرأَ الجمهور: ﴿فَسُحْقاً﴾ بسكون الحاءِ، وقرأَ الكسائي: [فَسُحُقاً] بضم الحاءِ، وهما لغتان.

ثم وصف تعالىٰ أَهل الإِيمان وهم الذين يخشون ربهم، وقوله تعالىٰ: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: بالغيب الذي أُخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحا إِلى هذا قتادة، والمعنى الثاني: يخشون ربهم إِذا غابوا عن أَعين الناس، أَي في خلواتهم، ومنه تقول العرب: «فلان سالم الغيب»، أَي لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأَول مَدْح بالإِخلاص والإِيمان، والثاني مَدْح بالأَعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أَحرى أَن يفعلوها علانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ مخاطبة لجميع الخلق، قال ابن عباس

---

(١) الآية (١) من سورة (المطفِّفين).

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الأعراف)، والآية (٤) من سورة (الرعد)، والآية (٣٢) من سورة (النحل)، والآية (٥٥) من سورة (القصص)، والآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر).



رضي الله عنهما: سببها أَن المشركين قال بعضهم لبعض: أَسِرُّوا قولكم لا يسمعكم إلا محمد، فالمعنى: إِن الأمر سواءٌ عند الله تعالىٰ لأَنه يعلم ما هجس في الصدر دون أَن يُنطق به، فكيف إِذا نُطق به سراً أَو جهراً، و«ذَاتُ الصُّدور»: ما فيها، وهذا كما يقال: «الذِّئْبُ مَغْبُوطٌ بِذي بَطْنِهِ»[1]، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾، اختلف الناس في إعراب (مَنْ) ـ فقال بعض النحاة: إِعرابها رفع، كأَنه تعالىٰ قال: أَلا يعلم الخالق خلقه؟ فالمفعول على هذا محذوف، ومنهم من قال: إِعرابها نصب، كأَنه تعالىٰ قال: أَلا يعلم الله من خَلَق؟ وقال مكيٌّ: وتعلَّق أَهل الزَّيغ بهذا التأَويل؛ لأَنه يعطي أَن الذين خلقهم الله تعالىٰ هم العباد من حيث قال: (مَنْ)، فتخرج الأَعمال عن ذلك، لأَن المعتزلة تقول: العباد يخلقون أَعمالهم، وتعلُّقهم بهذا التأْويل ضعيف، والكلام مع المعتزلة في مسأَلة خلق الأَعمال مأَخذه غير هذا؛ لأَن هذه الآية لا حجة فيها لهم ولا عليهم.

و«الذَّلُولُ» فَعولٌ بمعنى مفعول، أَي مذلولة، فهي كرَكُوبٍ وحَلوبٍ، يقال: ذلولٌ بيِّن الذِّلِّ، بكسر الذال، وذليلٌ بيِّن الذُّلِّ، بضم اللام.

واختلف المفسرون في معنى «المناكب»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: مناكبها: أَطرافها، وهي الجبال، وقال منذر بن سعيد: جوانبها، وهي النواحي، وقال مجاهد: هي الطُّرُق والفجاج، وهذا قول جارٍ مع اللغة؛ لأَنها تنكبُ يمنةً ويسرةً وينكبُ الماشي فيها، فهي مناكب[2].

وهذه الآية تعديد نِعَمٍ في تقريب التصرف للناس، وفي التمتع في رزق الله تعالىٰ، و«النُّشور»: الحياة بعد الموت.

---

(١) هذا مثل يقال في الذئب لأنه ليس يُظَنُّ به الجوع، بل تُظَنُّ به البِطنة لكثرة عدوانه على الناس والماشية، ويروى: الذئب يُغبط بغير بِطنة، وذو بطنة، قال الشاعر:

ومَـنْ يَسْكُـن البَحْـرَيْـن يَعْظُـمْ طحـالُـهُ ... ويُغْبَـط مـا فـي بَطْنِـهِ وَهْـوَ جـائِـعُ

وقيل: إنما قيل هذا في الذئب لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع.

(٢) وقيل: بل أشبه تفسير هو تفسير من قال: جبالُها، لأن قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ معناه: سهَّل لكم السلوك فيها، فأمكن لكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ في التذليل. وقد روي أن بشير بن كعب كانت له سُرِّية، فقال لها: إن أخبرتني ما مناكب الأرض فأنت حرة، فقالت: مناكبها: جبالها، فصارت حُرة، فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال له: دع ما يَريبُكَ إلى ما لا يريبك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ بهمزتين محققتين من غير مدٍّ، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع: [النُّشُورُ آمِنتُمْ] بهمزة ومدٍّ، وقرأَ ابن كثير: [النُّشُورُ وآمِنتُمْ]، يُبدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمَّة، ويمدُّ بعد الواو.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جارٍ على عُرف تلقِّي البشر أَوامر الله تعالىٰ، ونزول القدر بحوادثه ونِعَمه ونِقَمه وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأَيدي والوجوه في الدعاءِ إِلى تلك الجهة والناحية. و«خَسفُ الأَرْض»: أَن تذهب سفلاً. و﴿تَمُورُ﴾ معناه: تتموَّج وتذهب كما يذهب التراب الموَّار في الريح، وكما يذهب الدَّم الموَّارُ، ومنه قول الأَعرابي: «وغادرت التراب موراً».

و«الْحاصِب»: البَرَدُ وما جَرى مجراه؛ لأَنه في اللغة الرِّيحُ ترمي بالحصباءِ، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلينَ شمالَ الشَّامِ تَرْجُمُهُمْ ... بِحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُور[1]

وقرأَ جمهور السبعة: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاءِ، وقرأَ الكسائي وحده: [فَسَيَعْلَمُونَ] بالياءِ، وقرأَ السبعة وغيرهم: ﴿نَذِيرِ﴾ بغير ياءٍ، على طريقتهم في الفواصل المشبهة بالقوافي، وقرأَ نافع في رواية وَرْش وحده [نذيري] بياءٍ على الأَصل، وكذلك في ﴿نَكِيرِ﴾، و«النَّكير»: مصدرٌ بمعنى الإِنكار، و«النَّذيرُ» كذلك، ومنه قول حسَّانِ بن ثابت:

---

(١) هذا البيت من قصيدة للفرزدق يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد بن المهلَّب، والحاصب: الريح الشديدة تحمل الحصباء، وهو موضع الاستشهاد هنا، و«نديف القُطن» هو القطن حين يُطرق بالمِنْدف، فيصير نديفاً، ورواية البيت في الديوان:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

فَــأَنْــذَرَ مِثْلَهَــا نُصْحــاً قُــرَيْشــاً مِنَ الــرَّحْمــنِ إِنْ قَبِلــتْ نَــذِيــرِي(١)

ثم أَحال على العبرة في أمر الطير وما أَحْكَمَ مِنْ خِلْقتها، وذلك يُبيِّن عجز الأَصنام والأَوثان، و﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ جمع «صافَّة» وهي التي تبسط جناحيها وتصُفُّهما حتى كأَنها ساكنة، و«قَبْضُ الجناح» ضَمُّه إِلى الجنب، ومنه قول أَبي خراش:

. . . . يَحُثُّ الْجَنَاحَ بِالتَّبَسُّطِ والْقَبضِ(٢)

وهاتان حالان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأُخرى. وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل، وذلك كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

بَــاتَ يُعَشِّيهــا بِعضْــبٍ بــاتِــرِ يَقْصِــدُ فــي أَسْــوُقِهَــا وَجــائِــرِ(٣)

(١) قال حسان بن ثابت هذا البيت من أبيات له في يوم قريظة بعد أن حاصرهم النبي ﷺ ونزلوا على حكْم سعد بن معاذ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبْي الذراري، وفي أول هذه الأبيات يقول حسان:

لَقَــدْ لَقِيَــتْ قُــرَيْظَــةُ مَــا سَــاءَهَــا وَمَــا وَجَــدَتْ لِــذُلٍّ مِــنْ نصيــر

ورواية البيت في الديوان: «فَأَرْدَفَ مِثْلَهَا»، أما في سيرة ابن هشام وفي شرح شواهد المغني فالرواية «فَأَنذَرَ مِثْلَها». والشاهد هنا استعمال كلمة النذير بمعنى الإنذار. قال صاحب اللسان: «والجيِّد أن الإنذار المصدر، والنذير الاسم».

(٢) هذا عجز بيت لأبي خراش الهذلي، والبيت بتمامه:

يُبَــادِرُ جُنْــحَ الليْــلِ فَهْــوَ مُهَــابِــذٌ يَحُــثُّ الجنــاحَ بــالتَّبَسُّــطِ وَالْقَبْــضِ

والمُهابذة: الإسراع، ويروى بدلاً منها: «فهو مُوائِلٌ»، ومعنى وَاءل: لجأ وخَلص، ويقَال: وَاءل الطائر أيضاً بمعنى: بادَرَ، والتَّبَسُّط: مدُّ الجناحين، والقَبْضُ: ضمُّهما إلى الجانبين، وهما حالان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى كما قال المؤلف، والبيت في ديوان الهذليين، واللسان، والقرطبي.

(٣) هذا البيت من الأبيات التي لم يعرف قائلها، ويُعَشّيها: يطعمها العَشَاء ـ بفتح العين ـ وهو الطعام الذي يؤكل في وقت العشاء، ويروى بدلاً منها «يُغَشِّيها» بالغين المعجمة، وهو من الغِشاء كالغِطاءِ وزناً ومعنى، أي يشملها ويعمُّها، والضمير المؤنث هنا للإبل، والبيت في وصف إنسان كريم أسرع إلى عقر إبله لضيوفه، والعضب: السيف، وباتر: قاطع حاد، وهو صفة للعضب، وجملة (يقصد) صفة ثانية له، و(جائر) صفة ثالثة، ومعنى (يقصد): يتوسط ولا يجاوز الحدَّ، والأَسْوُق: جمع ساق، جمع قلَّة، وهي ما بين الركبة والقدم، وجائر: ظالم مجاوز للحدِّ، ويروى (أسْؤق) بهمز الواو، والبيت في خزانة الأدب، وأمالي ابن الشجري، والعيني، والأشموني، وهو شاهد على جواز عطف اسم الفاعل (جائر) على الفعل المضارع (يقصد). وللنحويين فيه كلام كثير.



وقرأ طلحة بن مصرف: [أَمَنْ] بتخفيف الميم في هذه، وقرأ التي بعدها مُثَقَّلة كالجماعة، و«الْجُنْدُ» أعوان الرجل على مذهبه، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ خطاب لمحمد ﷺ بعد تقدير: قل لهم يا محمد: أَمَّن هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذا أَيضاً توقيف على أَمر لا مدخل للأصنام فيه، والإشارة بالرِّزْق إلى المطر لأَنه أَعظم الأَرزاق، ثم أَخبر تعالىٰ عنهم أَنهم لَجُّوا وتمادوا في التمنع عن طاعة الله تعالىٰ، وهو العُتُوُّ، و«النُّفُورُ» البُعْدُ عن الحقِّ بسرعة ومبادرة، يقال: نَفَر عن الأمر نُفُوراً، ونَفَر إلى الأمر نَفيراً، ونَفَرت الدابّةُ نِفَاراً.

واختلف أَهل التأْويل في سبب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا﴾ الآية ـ فقال جماعة من رُوَاة الأَسباب: نزلت مثلاً لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولأَبي جهل بن هشام، وقال ابن عباس، وابن الكلبي وغيرهما: نزلت مثلاً لمحمد ﷺ ولأبي جهل بن هشام، وقال ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، والضحاك: نزلت للمؤمنين والكافرين على العموم، وقال قتادة: نزلت مخبرةً بأَحوال القيامة، وأَن الكفار يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامة، وقيل للنبي ﷺ: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: «الذي أَمشاه في الدنيا على قدميه قادر أَن يمشيه في الآخرة على وجهه»[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فَوَقَفَ الكفَّارُ على ما بين الحالتين حينئذ، ففي الأَقوال الثلاثة الأُول المَشْيُ مجازٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق وفي تفسير سورة الفرقان، ومسلم في المنافقين، والترمذي في تفسير سورة الإسراء، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣). ولفظه كما في البخاري عن قتادة: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال: «أَلَيْس الذي أمشاه على الرجلَيْن في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة»؟ قال قتادة: بَلى وعِزَّةِ ربِّنا.

بتخيُّل، وفي القول الرابع هو حقيقة تقع يوم القيامة.

ويقال: «أَكبَّ الرجلُ» إذا ردَّ وجهه إلى الأَرض، و«كبَّه غيره»، قال عليه الصلاة والسلام: «وهل يكُبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلاَّ حصائد أَلسنتهم»(١)؟ فهذا الفعل خلاف للباب، أَفْعَل لا يتعدَّى، وفَعَل يتعدَّى، ونظيره «قشعت الريحُ السحاب فانقشع». و[أَهْدىَ] في هذه الآية «أَفْعَل» من الهدى.

وقرأ طلحة: [أَمَنْ يَمْشِيْ] بتخفيف الميم، وأَفرد تعالىٰ السمع لأَنه اسم جنس يقع للقليل والكثير، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بفعل مضمر، و(ما) مصدرية، وهي في موضع رفع، وقوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقتضي ظاهره أَنهم يشكرون قليلاً، فهذا إِمَّا أَن يُريد به ما عَسى أَن يكون للكافر من شكر، وهو قليل غير نافع، وإِما أَن يريد نفي الشكر عنهم جملةً فعبَّر بالعلَّة، كما تقول العرب: «هذه أَرض قَلَّما تُنبت كذا» وهي لا تُنبته البَتَّةَ، ومن شُكْر رسول الله ﷺ على هذه النعمة أَنه كان يقول في سجوده: «سَجَدَ وَجْهي للَّذي خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والزكاة والمناقب والأحكام، ومسلم في الإيمان والمساجد والزكاة، وأبو داود في السنة، والترمذي في الديات والإيمان، والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في السِّير، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، منها (٥/ ٢٣١)، ولفظه كما في مسند أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: لقد سألتَ عن عظيم، وإنه لَيَسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: رأسُ الأمر وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألاَ أُخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كُفَّ عليك هذا، فقلت: يا رسول الله، وإنَا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلم به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ، وهل يكبُّ الناسَ على وجوههم في النار ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟.

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين وفي السجود، والترمذي في الجمعة والدعوات، والنسائي في التطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مواضع مختلفة من مسنده، ولفظه كما جاء فيه (١/ ٩٤، ٩٥)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكي وَمَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين لا شريكَ له وبذلك أمرتُ وأنا من المسلمين ـ قال أبو النَّضر: وأنا أول المسلمين ـ اللهم لا إله إلا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب=



و﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ معناه: بثَّكم، و«الحَشْرُ» المشارُ إليه هو بعث القيامة، وإليه أشار بقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾، فأخبر تعالىٰ أنهم يستعجلون أمر القيامة ويُوقَفُون على الصدق في الإخبار بذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يخبرهم أن عِلْم يوم القيامة والوَعْدَ الصِّدق هو مما ينفرد الله تعالىٰ به، وأن محمداً ﷺ إنما هو نذير، يَعْلَمُ ما عُلِّم، ويُخبر بما أُمر أن يخبر به.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾، الضمير للعذاب الذي تَضمَّنه الوعد، وهذه حكاية حالٍ تأتي، والمعنى: فإذا رأوْهُ، و﴿ زُلْفَةً ﴾ معناه: قريباً وقال الحسن: عياناً، وقال ابن زيد: حاضراً، و﴿ سِيٓـَٔتْ ﴾ معناه: ظهر فيها السوءُ، وقرأ جمهور الناس: ﴿سِيئَتْ﴾ بكسر السين، وقرأ أبو جعفر، والحسن، ونافع أيضاً، وابن كثير، وأبو رجاءٍ، وشيبة، وابن وثَّاب، وطلحة بالإشمام بين الضم والكسر، وقرأ جمهور الناس: ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ بفتح الدال وشدِّها، على وزن تَفْتَعلون، أي: تتداعون أَمره بينكم، وقال الحسن: تدَّعون أنه لا جنَّة ولا نار، وقرأ أبو رجاءِ، والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن يسارٍ،

= إلاّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئها، لا يصرف عني سيِّئها إلا أنت، تباركت وتعاليتَ، أستغفرك وأتوب إليك». وكان إذا ركع قال: «اللهم لك ركعتُ، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظامي وعصبي»، وإذا رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما وملء ما شئتَ من شيء بعد»، وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمتُ، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صوره، فشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»، فإذا سلَّم من الصلاة قال: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنتَ المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنتَ».

وسلام: ﴿تَدْعُونَ﴾ بسكون الدال، على معنى: تستعجلون، كقولهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[١]، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[٢]، وغير ذلك.

ورُوي في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ الآية.. أنهم كانوا يَدْعون على محمد ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل: بل كانوا يتآمرون بينهم بأن يُهلكوهم بالقتال ونحوه، فقال الله تعالىٰ له: قل لهم: أرأيتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتَمَّ ذلك فينا، أَو رأَيتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يُهلكنا مَنْ يُجيركم من العذاب الذي يوجبه كفركم على كل حال؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفصٌ عن عاصم: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ بنصب الياءَيْن، وأَسكن الكسائي، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ الياءَ في [مَعِيْ]، وقرأَ حمزة بإسكان الياءَين، وروى الحسن عن نافع أَنه أَسكن الياءَ من ﴿أَهْلَكَنِي﴾، وقال أَبو علي: التحريك في الياءَيْن حسنٌ وهو الأَصل، والإِسكان ـ كراهية الحركة في حرف اللين ـ للنجاة من ذلك.

وقرأَ الكسائي وحده: [فسيعلمون] بالياءِ، وقرأَ الباقون بالتاءِ على المخاطبة، ثم وقفهم تعالىٰ على مياههم التي يعيشون منها إِن غارت ـ أَي ذهبت في الأَرض ـ من يجيئُهم بماءٍ كثير كاف، و«الغَوْرُ» مصدر يوصف به على معنى المبالغة، ومنه قول الأَعرابي: «وغادرت الترابَ مَوْراً والماءَ غَوْراً». و«الْمَعِينُ» فَعيلٌ من «مَعَنَ الماءُ» إِذا كثُر أَو مفعولٌ من «العَيْن»، أَي: جارٍ كالعين، أَصله مَعْيُون، وقيل: هو من «العَيْن» لكن من حيث يُرى بعين الإِنسان، لا من حيث يشبه العَيْن الجارية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَعِينٌ: عذبٌ، وعنه ـ في كتاب الثعلبي ـ مَعِينٌ: جارٍ، وفي كتاب النقاش: مَعِينٌ: طاهِرٌ، وقال بعض المفسرين وابْنُ الكلبي: أُشير في هذا الماءِ إِلى بئر زمزم وبئر ميمون، ويُشبه أَن تكون هاتان عُظْم ماءِ مكة، وإِلاَّ فكانت فيها آبارٌ كثيرة كخُم والجفر وغيرهما.

كمل تفسير سورة الملك والحمد لله رب العالمين

---

(١) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

(٢) جاء ذلك في قوله تعالىٰ في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال): ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة القلَم

وهي مكّيَّة، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾.

[نٓ] حرف مقطَّع في قول جمهور المفسرين، فيدخله من الاختلاف ما يدخل أَوائل السور، ويختص هذا الموضع من الأَقوال بأَن قال ابن عباس ومجاهد: [نٓ] اسم الحوت الأَعظم الذي عليه الأَرضون السبع فيما يروى، وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: [نٓ] اسم للدواة، فهذا إما أَن يكون لغة لبعض العرب أَو تكون لفظة أَعجمية، قال الشاعر:

إِذَا مَـا الشَّـوْقُ بَـرَّحَ بـي إِلَيْهِـمْ ... أَلْقَـتِ النُّـونُ بـالـدَّمْـعِ السَّجُـوم[2]

فمن قال بأَنه اسم الحوت جعل «الْقَلَمَ» الْقَلَمَ الذي خلقه الله تعالىٰ وأَمره فكتب الكائنات، وجعل الضمير في [يَسْطُرُونَ] للملائكة، ومن قال بأَن [نٓ] اسم للدواة جعل «الْقَلَمَ» هو المتعارف بأَيدي الناس، نصَّ ذلك ابن عباس، وجعل الضمير في

---

(١) نقل الماوردي عن ابن عباس وقتادة: هي مكّيَّة من أولها إلى قوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الآية ١٦ ـ ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ـ الآية ٣٣ـ مدنيّ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ـ الآية ٤٧ـ مكّيٌّ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ـ الآية ٥٠ـ مدنيٌّ، وما بقي مكّيٌّ.

(٢) الدَّمع السَّجوم: السائل المنصب من العين قليلاً كان أو كثيراً. (اللسان).

﴿يَسْطُرُونَ﴾ للناس، فجاءَ القسم ـ على هذا ـ بمجموع أَمر الكتاب الذي هو قوامٌ لِلعلوم والمعارف وأُمور الدنيا والآخرة، فإِن القلم أَخو اللسان ومطية الفطنة ونعمة من الله تعالىٰ عامة، وروى معاوية ابن قُرَّة أَن النبي ﷺ قال: «نٓ لوحٌ من نور»[(١)]، وقال ابن عباس أَيضاً وغيره: ﴿نٓ﴾ حرف من حروف الرحمن، وقالوا: إِنه تَقَطَّع في القرآن إِلى «آلر» و«حٰمٓ» و«نٓ».

وقرأَ عيسى بن عمر ـ بخلاف ـ: (نُونَ) بالنصب، والمعنى: اذكر نونَ، وهذا يَقْوى مع أَن يكون اسماً للسورة، فهو مؤَنث سُمِّي به مؤنث، ففيه تأَنيث وتعريف ولذلك لم ينصرف، وانصرف «نُوحٍ» لأَن الخِفَّة بكونه على ثلاثة أَحرف غلبت على علَّة العُجْمة، وقرأَ ابن عباس، وابن أَبِي إِسحاق، والحسن: [نُونِ] بكسر النون، وهذا كما تقول في القسم: اللهِ، وكما قالوا: جَيْرِ[(٢)]، وقيل: كُسرت لاجتماع الساكنين، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: [نُونْ] بسكون النون، وهذا على أَنه حرف منفصل فحقُّه الوقوف عليه، وقرأَ قوم منهم الكسائي: ﴿نُ وَٱلْقَلَمِ﴾ بالإِدغام دون غُنَّة، وقرأَ آخرون بإِدغام وبِغُنَّة، وقرأَ الكسائي ويعقوب، وأَبو بكر عن عاصم بالإِخفاءِ بين الإِدغام والإِظهار، و[يَسْطُرُونَ] معناه: يكتبون سطوراً، فإِن أَراد الله تعالىٰ الملائكة فهو كتب الأَعمال وما يؤمرون به، وإِن أَراد تعالىٰ بني آدم فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هو جواب القسم، و[مَا] ها هنا عاملة لها اسم وخبر، وكذلك هي متى دخلت الباءُ في الخبر، وقوله تعالىٰ: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ اعتراض، كما تقول لإِنسان: أَنت ـ بحمد الله ـ فاضل.

وسبب هذه الآية أَن قريشاً رمت رسول الله ﷺ بالجنون، وهو سَتْر العقل، بمعنى أَن كلامه خطأٌ ككلام المجنون، فنفى الله تعالىٰ ذلك عنه، وأَخبره بأَن له الأَجر، وبأَنه على الخلق العظيم تشريفاً له ومدحاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير، عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال: لوحٌ من نور، وقَلَمٌ من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة». (الدر المنثور) و(تفسير الطبري).

(٢) جَيْرِ بمعنى اليمين، يقال: جَيْرِ لا أفعل كذا وكذا، قال الجوهري: «قولهم جَيْرِ لا آتيك ـ بكسر الراء ـ يمينٌ للعرب، ومعناها حَقًّا»، راجع الصحاح واللسان.



واختلف الناس في معنى [مَمْنُون] ـ فقال أكثر المفسرين: هو الواهن المنقطع، يقال: «حبل ممنون» أي ضعيف، وقال آخرون: معناه: غير مَمْنُون عليك، أي: لا يكدِّره منٌّ به، وقال مجاهد: معناه: غير مُسَرَّد ولا محسوب محصَّل، أي: بغير حساب، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «خُلُقُهُ القرآن»[1]، أي آدابه وأوامره، وقال عليٌّ رضي الله عنه: الخُلُق العظيم أدب القرآن، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخُلُق بالدِّين والشرع، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أمَا إنَّ الظاهر من الآية أن الخُلُق هو الذي يضادُّ مقصد الكفار في قولهم: «مجنون» أي غير محصِّل لما يقول، وإنما مدحه تعالىٰ بكرم السجية وبراعة القريحة والمَلَكَة الجميلة وجودة الضرائب[2]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت لأُتَمِّم مكارم الأخلاق»[3]، وقال جُنَيْد: «سُمِّيَ خُلُقه عظيماً إذ لم يكن له هِمَّة سوى الله تعالىٰ، عاشر الخَلْق بخُلُقه وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخَلْق وباطنه مع الحق»، وفي وصيَّة بعض الحكماءِ: «عليك بالتَّخَلُّق مع الخَلْق، وبالصدق مع الحق، وحُسْن الخُلُق خير كلُّه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن المؤمن لَيُدْرك بحُسْن خُلُقه درجة قائم الليل صائم النهار»[4]، وقال: «ما شيءٌ أثقل في الميزان من خُلُق حسن»[5]،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حُميد، ومسلم، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن سعد بن هشام، قال: أتيت عائشة فقلت: يا أُمَّ المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقه القرآن، أما تقرأُ القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وأخرج مثْلَه ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي الدرداء، وأخرج مثْلَه ابنُ مردويه عن عبد الله بن شقيق العقيلي، وأخرج مثله ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي، وأخرج ابن مردويه عن زينب بنت يزيد بن وسق قالت: كنتُ عند عائشة إذ جاءها نساء أهل الشام، فقلن: يا أُمَّ المؤمنين، أخبرينا عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: كان خُلُقُه القرآن، وكان أشدَّ الناس حياء من العواتق في خدرها. (الدرُّ المنثور).

(٢) من معاني الضَّرْب: المشاركةُ في الأمر والإسراعُ فيه.

(٣) أخرجه الإمام مالك في موطئه، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١)، ولفظه فيه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّم صالح الأخلاق».

(٤) أخرجه أبو داود: وابن حبَّان في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، وقد رمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، ولفظه كما جاء فيه «إن المؤمن ليدرك بحُسْن الخُلُق درجة القائم الصائم».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٤٢)، والترمذي في البر، ولفظه كما في مسند أحمد: عن عطاءِ بن=

وقال: «أَحبُّكم إِليَّ أَحاسنكم أخلاقاً»[1]، والعدل والإحسان والعفو والصِّلة من الخُلُق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾، أَي أنتَ وأُمَّتك، و﴿يُبْصِرُونَ﴾ أَي هُم، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ فقال أَبو عثمان المازني: الكلام تامٌّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾، ثم استأنف قوله تعالىٰ: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، وقال الأَخفش: بل الإِبْصار عامل في الجملة المستفهم عنها، في معناها، وأَما الباءُ فقال أَبو عُبَيْدة مَعْمَر، وقتادة: هي زائدة، والمعنى: أَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ[2]؟ وقال الحسن، والضحاك: [الْمَفْتُونُ] بمعنى الفتنة، كما قالوا: «ماله معقول»[3] أَي عَقْل، وكما قالوا: «اقْبَلْ مَيْسُوره ودَعْ مَعْسُوره»، فالمعنى: بِأَيِّكم هي الفتنة والفساد الذي سَّموه جنوناً؟ وقال آخرون: المعنى: بِأَيِّكُم فُتن الْمَفْتون؟ وقال الأَخفش: المعنى: بأَيِّكم فِتْنَةُ المفتون؟ ثم حذف المضاف وأُقيم المضاف إِليه مقامه، وقال مجاهد، والفراءُ: الباءُ بمعنى «في» أَي: في أَيِّ فريق منكم النوعُ المفتون؟ وهذا قول حَسَنٌ قليل التكلُّف، ولا نقول إِنَّ حرفاً بمعنى حرف، بل نقول: إِن هذا المعنى يُتَوَصَّل إِليه بـ«في» وبالباءِ أَيضاً. وقرأَ ابن أَبي عبلة: ﴿فِي أَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

= نافع أَنهم دخلوا على أُمِّ الدرداءِ فأخبرتهم أنها سمعت أبا الدَّرداءِ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل شيءٍ في الميزان ـ قال ابن أبي بكير: أثقل شيءٍ في الميزان ـ يومَ القيامة الخُلُقُ الحسن».

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، وفي المناقب، والترمذي في البر، وأحمد في مسنده (٤/ ١٩٣)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المُتَفَيْقهون المُتَشَدِّقون».

(٢) وزيادة الباء كثيرة في كلام العرب، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ومنه قول الراجز:

نَحْـنُ بَنُـو جَعْـدَةَ أَصْحـابَ الْفَلَـج ... نَضْـرِبُ بـالسَّيْـف ونَـرجُـو بـالْفَـرَجْ

أي: ونرجو الفَرَج، هذا والفَلَجُ ـ بفتح الفاء واللام ـ: مدينةٌ بأرض اليمامة كانت لبني جعدة ـ (راجع الخزانة، وشواهد المغني، والاقتضاب).

(٣) من كلام العرب: «ما لفُلان مجلودٌ ولا معقول»، أي ماله عقلٌ ولا جلادة، وقال الراعي:

حَتَّـى إِذَا لَـم يَتْـرُكُـوا لِعِظَـامِـهِ ... لَحْمـاً ولاَ لفُـؤَاده مَعْقُـولا

أي عقلاً.



وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآية وعيدٌ، والعامل في قوله سبحانه: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ هو [أَعْلَمُ]، وقد قوَّاه حرف الجر فلا يحتاج إلى إضمار فعل، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يريد قريشاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات لرسول الله ﷺ: لو عبدتَ آلهتنا وعظَّمتها لعبدنا إلٰهك وعظَّمناه، ووَدُّوا أن يداهنهم رسول الله ﷺ ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أيضاً إلى قوله ودينه، و«الإِدْهان»: الملاينة فيما لا يحلُّ، والمُدَاراة: الملاينة فيما يحِلُّ، وقوله تعالىٰ: [فَيُدْهِنونَ] معطوف وليس بجواب؛ لأنه لو كان لنصب.

و«الْحَلاَّف»: المُرَدِّد لِحَلِفِهِ الذي قد كثر منه، و«الْمَهِينُ»: الضعيف العقل والرأي، قاله مجاهد وهو من «مَهُن» إذا ضعف، والميمُ فاءُ الفِعْل[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الْمَهين: الكذَّاب.

و«الْهَمَّازُ»: الذي يقع في الناس، وأصل الهَمْز في اللغة الضَّرْبُ طعناً باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استُعير للذي ينال بلسانه، قال منذرٌ: وبعينه وإشارته، وسُمِّيت الهمزة لأن في النطق بها حِدَّة وعجلة فشُبِّهت بالهمز باليد، وقيل لبعض الأعراب: أتهمز الفأرة؟ فقال: الهِرَّةُ تَهْمزها، وقيل لآخر: أتَهْمز إسرائيل؟ فقال: إنِّي إذاً لَرَجُل سوءٍ.

و«النَّميمُ» مصدرٌ كالنَّميمة، وهو نقل ما يُسمع ممَّا يسوءُ ويحرِّش النفوس، وروى حذيفة أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة قتَّاتٌ»[2]، وهو النمَّام، وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف هي أجناسٌ لم يرد بها رجلٌ بعينه، وقالت طائفة: بل نزلت في مُعَيَّن، واختلف فيه ـ فقال بعضهم: هو الوليد بن المغيرة، ويؤيد ذلك غناهُ وأنه أشهرهم بالمال والبنين، وقال الشعبيُّ وغيره: هو الأخنس بن شُرَيق، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة في حلقه كزنمة الشاة، وأيضاً فكان من ثقيف مُلصقاً في قريش، وقال

---

(١) «مَهُن» ـ بضم الهاءِ ـ معناها: ضعف، ومنها هذه الآية، ومنها أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿خلق من ماء مهين﴾ أي من ماءٍ قليل ضعيف، ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الأدب، والترمذي وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، وذكر ابن كثير في تفسيره أن عبد الرزاق أخرجه أيضاً عن حذيفة، وقال أيضاً: رواه الجماعة إلا ابن ماجه.



ابن عباس في كتاب الثعلبي: هو أبو جهل، وذكر النقاش عُتبة بن ربيعة، وقال مجاهد: هو الأسْود بن عبد يغوث، وظاهر اللفظة عموم من بهذه الصفة، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمان لا سيما لولاة الأُمور.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال كثير من المفسرين: الخَيْر هنا المال، فوصفه بالشُّحِّ، وقال آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يُمنع إيمانَه وطاعتَه فقد مُنع الخير، و«المعتدي»: المتجاوز لحدود الأشياءِ، و«الأثيم» فَعيل من الإثم بمعنى آثِم، وذلك من حيثُ أَعمالُه قبيحة تُكسب الإثم.

و«العُتُلُّ»: القويُّ البِنْية، الغليظُ الأعضاءِ، المُصَحَّح، القاسي القلب، البعيدُ الفهم، الأَكولُ الشَّروبُ الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار، وَكل ما عبَّر به المفسرون عنه من خلال النقص فمن هذه التي ذكرتُ تَصْدُر، وقد ذكر النقاشُ أَن النبي ﷺ فسَّر «العُتُلّ» بنحو هذا[١]، وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعَتْلُ: الدَّفْع بشدة، ومنه العَتَلَة ـ وقوله تعالىٰ: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ معناه: بعد ما وصفناه به، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإِلاَّ فكونه عُتُلاًّ هو قبل كونه صاحب خير يمنعه.

و«الزَّنيمُ» في كلام العرب: الملصق في القوم وليس منهم، وقد فسَّر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال مُرَّة الهَمْدَاني: إنما ادَّعاه أَبوه بعد ثماني عشرة سنة، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

---

(١) ذكر الماوردي عن شَهْر بن حَوشب عن عبد الرحمن بن غنم ـ ورواه ابن مسعود ـ أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة جوَّاظٌ ولا جَعْظَريٌ ولا العُتُلُّ الزَّنيمُ»، فقال رجلٌ: ما الجوَّاظُ؟ وما الجَعْظريُّ وما العُتُلُّ الزَّنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجوَّاظُ: الذي جمع ومنع، والجَعْظَريُّ: الغليظ، والعُتُلُّ الزَّنيمُ: الشديدُ الخَلْق، الرحيبُ الجوف، المُصَحَّح الأكولُ الشَّروب الواجدُ للطعام، الظلُوم للناس»، وذكره الثعلبيُّ عن شدَّاد بن أوس.



وَأَنْـتَ زَنيـمٌ نِيـطَ فـي آلِ هـاشِـمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ(١)

وقول حسان أيضاً:

زَنيـمٌ تَـداعـاهُ الـرِّجـالُ زِيَـادَةً كَمَا زِيدَ في عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ(٢)

فقال كثير من المفسرين: هذا هو المراد بالآية، وذلك أن الأخنس بن شُرَيْق كان من ثقيف حليفاً لقريش، وقال ابن عباس: أراد بالزنيم أَنَّ له زَنَمَةً في عنقه كزَنَمَة الشَّاة، وهي الهَنَةُ التي تتعلق في حلقها، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بِزَنَمتِهِ، وقال أَبو عبيد: يُقال لِلتَّيْس: زَنيمٌ؛ إِذْ له زَنَمَتان، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته: (كأَن زَنَمَتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَةٍ)(٣) ورُوي أَن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة، كان له زَنَمَةٌ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا نزلت هذه الصفات لم نعرف صاحبها حتى نزل ﴿زَنِيمٍ﴾ فعُرف بِزَنَمَته، وقال بعض المفسرين: الزَّنيم: المريب القبيح الأفعال.

واختلفت القراءة في قوله تعالىٰ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ـ فقرأ ابنُ كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأَهل المدينة: ﴿أَنْ كَانَ﴾ على الخبر،

---

(١) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وهو في ديوان حسان بن ثابت سابع أبيات ثمانية قالها حسان في هجاء أبي سفيان دفاعاً عن النبي ﷺ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه لحسان: «اهْجُه وجبريل معك، أيّدك الله بروح القُدُس، اذهب إلى أبي بكر يعلِّمك من تلك الهنات»، ورواية الديوان: «وكنْتَ دعياً»، وفي اللسان: «وأنْتَ دَعيٌّ»، وفي الأغاني: «وأنت هَجينٌ»، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت، والزنيم: المُسْتَلْحَق في قوم ليس منهم ولا يُحتاج إليه، ونيط: ألحق بالقوم وليس منهم، والقَدَحُ الفَرْدُ هو القدح الذي يُعَلَّق في آخر الرَّحْل بعد الفراغ من الترحال، وفي الحديث: «لا تجعلوني كَقَدح الراكب»، أي لا تؤخروني في الذكر.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان حسّان، وقال في اللسان: «وأنشد ابن بَرِّي للخطيم التَّميمي، جاهلي: (زَنيمٌ تداعاه الرجالُ) البيت، ووجدت حاشية صُورتُها: الأعرف أن هذا البيت لحسَّان، قال: وفي الكامل للمبرد روى أبو عُبَيْد وغيره أن نافعاً سأل ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ؟ ما الزَّنيمُ ؟ قال: هو الدعيُّ المُلزق، أما سمعتَ قول حسان ابن ثابت (زَنيمٌ تَداعَاهُ الرِّجال) البيت» ـ والأكارع: جمع كُراع ـ أو هو جمع الجمع ـ والكُراعُ من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، والأديم: الجلد، ومعنى (تداعاه الرجال) أنه مجهول الأب يدَّعيه كل واحد لنفسه.

(٣) هكذا في الأصول، وجاء في لسان العرب: «ومن كلام بعض فِتْيان العرب يَنْشُدُ عَنْزاً في الحرم: وكأَنَّ زَنَمَتَيْها تَتْوَا قُلَيْسِيَةٍ»، وفي القاموس: «تَتْوا القَلَنْسُوة»، وفي شرح القاموس: «والصوابُ تَتْوَا الفُسَيْلة»، والفُسيلة: النَخلة الصغيرة تُقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس، ومعنى (تَتْواهَا) ذؤابتاها.



وقرأ حَمزة: [أَأَنْ كانَ] بهمزتين مُخفَّفتين على الاستفهام، وقرأ ابن عامر، والحسن، وابن أَبي إِسحاق، وعاصم، وأَبو جعفر: [آنْ كانَ] على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية، والعامل في [أَنْ] فعل مضمر تقديره: كَفَر أَو جَحَد أَو عَنَد، ويُفسِّر هذا الفعلَ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ الآية، وجاز أَن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله تعالىٰ: ﴿أَن كَانَ﴾ في منزلة الظَّرف؛ إِذ يُقدَّر باللام، أَي: لأن كان، وقد قال فيه بعض النحاة: إِنه في موضع خفض باللام كما لو ظهرت، فكما عمل المعنى في الظرف المتقدم كذلك يعمل في هذا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، فالعامل في [إِذَا] معنى قوله تعالىٰ: «إِنَّكُمْ لَفي خَلْقٍ جَدِيدٍ تُبعثون»، أَو نحوه من التقدير، ولا يجوز أَن يعمل [يُنَبِّىءُ][2] في [إِذَا] لأَنه مضاف إِليه قد أَضيف إِذاً إِلى الجملة، ولا يجوز أَن يعمل في [إِنَّ]، قال: لأنها جواب لِـ [إِذَا] ولا تعمل فيما قبلها.

وأَجاز أَبو عليٍّ أَن يعمل فيه [عُتُلٍّ] وإِن كان قد وُصف[3]، ويصح ـ على هذا النظر ـ أَن يعمل فيه [زَنيم] لا سيَّما على قول من يفسره بالقبيح الأَفعال، ويجوز أَن يعمل في ﴿أَن كَانَ﴾ «تُطِيعُهُ» التي يقتضيها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، وهذا على قراءة الاستفهام يَبْعُد، وإِنما يتَّجه: لاَ تُطِعْه لأَجْل كونه كذا، وَلَهُ ـ على كُلِّ وَجْه ـ مفعولٌ من أَجله، وتأَمل. وقد تقدم القول في «الأَساطير» في غير ما موضع.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ معناه: على الأَنف، قاله المبرد، وذلك أَن الخرطوم يستعار في أَنف الإِنسان، وحقيقته في مخاطم السباع، ولم يقع التوعُّد في هذه الآية بأَن يُوسَمَ هذا الإِنسان على أَنفه بِسِمَةٍ حقيقةً، بل هذه عبارةٌ عن فعل يشبه الوسْم على الأَنف، واختلف الناس في ذلك الفِعْل ـ فقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف، أَن يُضرب به في وجهه وعلى أَنفه فيجيءُ ذلك كالوسْم على الأَنف، وحلَّ به ذلك يوم بَدر، وقال محمد بن يزيد المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم، وهو تعذيب بنارٍ على أُنوفهم، وقال آخرون: ذلك في يوم القيامة، أَن يُوسَم على أَنفه بِسِمَةٍ

---

(١) من الآية (٧) من سورة (سبأ).

(٢) في بعض النسخ: «ولا يجوز أن يعمل (تُتْلَى)»، وهذا يناسب المعنى إذا كان الكلام عن الآية التي في سورتنا هذه (القلم)، ولكن الكلام عن آية سورة (سبأ) ويتفق معها ما أثبتناه هنا.

(٣) قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين».



يُعرف بها كُفْره وانحطاط قدره، وقال قتادة وغيره: معناه: سَيُفعل به في الدنيا من الذَّم والمقت والإشهار بالشَّر ما يبقى فيه ولا يخفى به، فيكون ذلك كالوسْم على الأَنف ثابتاً بيِّناً، وهذا المعنى كما تقول: «سأُطَوِّقُكَ طوق الحمامة» أي: أُثبت الأَمر بيِّناً فيك، ونَحْوَ هذا أَراد جرير بقوله:

لمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَق مِيسَمِي . . . .[1]

وفي الوَسْم على الأَنف تشويه، فجاءت استعارة في المذمَّات بليغة جداً، وإذا تأَملت حال أَبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سُوءِ الأُحدوثة رأَيتَ أَنهم قد وُسِمُوا على الخراطم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾، يريد تعالىٰ قريشاً، أي: امتحنَّاهم، و«أَصحابُ الجنَّة» ـ فيما ذُكر ـ قومٌ إِخوة، كان لأَبيهم جنَّةٌ وحرثٌ مُغِلٌّ، فكان يُمْسك منه قُوتَه ويتصدق على المساكين بباقيه، وقيل: بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجَدِّه[2] فيجزيهم منه[3]، فمات الشيخ، فقال ولده: نحن جماعة، وفِعْل أَبينا كان خطأً، فلنذهب إِلى جنَّتنا، ولا يدخلها علينا مسكين ولا نعطي منها شيئاً، قال: فبيَّتوا أَمرهم وعَزْمهم على هذا، فبعث الله طائفاً بالليل من النار أَو غير ذلك فاحترقت، فقيل: أَصبحت سوداءَ، وقيل: بيضاءَ كالزرع اليابس المحصود، فلما أَصبحوا إِلى جَنَّتهم لم يروها فحسبوا أَنهم قد أَخطؤوا الطريق، ثم تَبَيَّنوها فعلموا أَن الله تعالىٰ أَصابهم فيها، فتابوا حينئذ وأَنابوا وكانوا مؤمنين من أَهل الكتاب، فشبَّه الله تعالىٰ قريشاً بهم في أَنه

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدته المعروفة: (لمنَ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَعْـددتُ للشُّعـراءِ سُمَّـاً نـاقِعـاً ... فَسَقَيْـتُ آخِـرَهُـم بكـأْس الأَوَّلِ
لَمـا وضَعْـتُ عَلـى الفَـرَزدَقِ مِيسَمـي ... وَضَغَـا البَعِيـثُ جَدعْـتُ أَنفَ الأَخطَلِ

والوَسْم أَثرُ الكَيِّ، وهو يريد هنا أنه رماه بقصائد من الشعر تركت أثرها في سُمعته وكرامته كما يترك الميسَمُ أثره في الجلد، و«ضَغَا»: صاح من الألم وتذلَّل كالكلب حين يُضرب فيعوي ويصرخ من شدة الألم، و«جدعت أنفه»: قطعته، وجرير في هذا البيت يهاجم ثلاثة من فطاحل الشعراء ويقول: إنه فضحهم وأذلهم أمام الناس بما قاله فيهم من الشعر.

(٢) جَدَّ الشيء: قطعه عند الحصاد.

(٣) أي: يكافئهم منه، يقال: جزى فلاناً حقَّه، أي أعطاه.

امتحنهم بمحمد ﷺ وهداه كما امتحن أُولئك بفعل أَبيهم وبأَوامر شرعهم، فكما حلَّ بأُولئك العقاب في جنتهم كذلك يحلّ بهؤلاءِ في جميع دنياهم وحياتهم، ثم التوبة معروضة لمن بقي منهم كما تاب أُولئك، وقال كثير من المفسرين: السنون السبع التي أَصابت قريشاً هي بمثابة ما أَصاب أُولئك في جَنَّتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أَي لَيَجُدُّنها، وصرام النخل جَدُّ ثمره، وكذلك في كل شجرة، و﴿مُصْبِحِينَ﴾ معناه: إذا دخلوا في الصباح، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ معناه وَلا يتوقفون في ذلك ولا يَنْثنونَ عن رأَي منع المساكين، وقال مجاهد: معناه: ولا يقولون «إن شاءَ الله»، بل عزموا على ذلك عَزْم من يملك أَمره. و«الطَّائف»: الأَمر الذي يأَتي بالليل، ذكر هذا التَّخصيص الفراءُ، ويردُّه قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[1]، و«الصَّريمُ» قال الفراءُ ومنذر وجماعة: أَراد به الليلَ، من حيث اسْوَدَّت جُثثهم، وقال آخرون: أَراد به الصبح، من حيث ابْيَضَّت كالحصيد، قاله سفيان الثوري، و«الصَّريمُ» يقال لِلَّيل ولِلنَّهار من حيث كلٌّ واحد منهما ينصرم من صاحبه، وقال ابن عباس: الصريمُ: الرماد الأَسود بلُغة جذيمة، وقال ابن عباس أَيضاً وغيرُه: الصريم: رملةٌ باليمن معروفة لا تُنْبت، فشبَّه جُثَثَهم بها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

«تَنَادَوْا» معناه: دَعَا بعضُهم بعضاً إِلى المضيِّ لميعادهم، وقرأَ بعض السبعة: [أَنُ اغْدُوا] بضم النون، وبعضهم بكسرها، وقد تقدم هذا مراراً، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ يحتمل أَن يكون من «صِرام النخل»، ويحتمل أَن يريد: إن كنتم أَهل عزم وإِقدام على رأَيكم، من قولك: «سيف صارم».

و﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ معناه: يتكلمون كلاماً خفيًّا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[2]،

---

(١) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف).

(٢) من الآية (١١٠) من سورة (الإسراء).



وكان هذا التخافت خوفاً من أن يشعر بهم المساكين، وكان لفظهم الذي يتخافتون به ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: [لاَ يَدْخُلَنَّهَا] بسقوط [أَنْ].

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يحتمل أن يريد به: على مَنْع، من قولهم: «حارَدَتِ الإِبِلُ» إذا قلَّتْ أَلبانُها فَمَنَعَتْها، و«حاردت السَّنَةُ» إذا كانت شهباءَ لا غلَّة لها، ومنه قول الشاعر:

وَحَـارَدَتِ النُّكْـدُ الْجِـلادُ وَلَـمْ يَكُـنْ لِعُقْبَـةِ قِـدْرِ الْمُسْتَعِيـرِينَ مُعْقِـبُ(١)

ويحتمل أن يريد بالحَرْد: القصدَ، وبذلك فسَّر بعض اللغويين، وأنشد عليه:

أَقْبَـلَ سَيْـلٌ جـاءَ مِـنْ عِنْـد اللهْ يَحْـرِدُ حَـرْدَ الْجَنَّـةِ الْمُغِلَّـهْ(٢)

أَي: يقصد قصدها، ويحتمل أن يريد بالحرَدْ: الغضبَ، يقال: «حِردَ الرجلُ يحْرِدُ حَرَداً» إذا غضب، ومنه قول الأشهب بنَ رُمَيْلَة:

أُسـودُ شَـرىً لاَقَـتْ أُسـودَ خَفِيَّـة تَساقَوا عَلَى حَرْد دِماءَ الأَساوِدِ(٣)

---

(١) هذا البيت للكُميت الشاعر، وهو في اللسان، والرواية في الأصول: (لِعُقْبَةَ قِدْرُ المُسْتَعِير بْنِ مُعْقب)، وقد صوب محقق لسان العرب البيتَ، وأثبته كما ذكرناه (دار المعارف ـ القاهرة)، والنُّكْدُ: الإبل التي ماتت أولادها، والجلادُ: الغلاظُ الجلود، القصارُ الشعور، الشِّدادُ الفصوص، وهي أقوى وأصبر وأقل لبناً من الخُور، والخُورُ أغزر لبناً وأضعف قوة، وعُقبة القدر: ما التزق بأسفلها من تابل وغيره، وأعْقب الرجلُ: ردَّ إليك ذلك، يصف سوء الحال ويقول: إن الإبل القوية مَنَعت ألبانَها، وإن الرجل أصبح لا يردُّ ما استعاره حتى ولو كان «عُقْبة القدْر».

(٢) هذا البيت في اللسان، والقرطبي والكامل، وهو غير منسوب، وقد ذكر شاهداً على أن الحَرد يكون بمعنى القَصْد، جاء في اللسان: «وتقول للرجل: قد أقبلتُ قِبَلَكَ، وقَصَدْتُ قصدكَ، وحَردكَ» ثم ذكر البيت، ولكن الرواية فيه: (وجاء سيْلٌ كانَ من أمر الله)، والجَنةُ المُغلَّة: ذاتُ الغَلَّة. والبيت أيضاً في «معاني القرآن» للفراء، و«الكامل» للمبرد، و«مجاز القرآن» لأبي عبيْدة.

(٣) وهذا البيت أيضاً في اللسان، ذكره شاهداً على أن الْحَردَ يكون بمعنى الغضب والغيظ، ثم ذكر خلاف اللغويين في ضبط «الحَرْد» إذا كان بهذا المعنى، فبعضهم يقوله بفتح الراء، وآخرون يجعلونه بسكونها، ويُروى البيت بألفاظ أُخرى في الشطر الثاني:

أُســـودُ شَــرًى لاقَـــتْ أُســـودَ خَفِيَّـــةٍ تَســـاقَيْـــنَ سُمًّـــا كُلُّهُـــنَّ حَـــوارِدُ

والشَّرَى: مكان مشهور بكثرة الأسود، وقيل: بل هذا التعبير يذكر للتدليل على الشجاعة، يقال للشجعان: ما هُم إلا أسود الشَّرى، والخَفِيَّةُ: غَيْضة مُلْتَفَّةٌ يتخذها الأسد عرينه، وهي خَفيَّتُه، والشَّرى=



وقوله تعالىٰ: [قادِرينَ] يحتمل أَن يكون من القُدْرة، أَي: هم قادرون في زعمهم، ويحتمل أَن يكون من التقدير، كأَنهم قد قَدَرُوا على المساكين، أَي ضيَّقوا عليهم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أَي محترقةً، حسبوا أَنهم قد ضلُّوا الطريق، وأَنها ليست تلك، فلما تَحقَّقوها علموا أَنها قد أُصيبت، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أَي: قد حُرمنا غلَّتها وبركتها، فقال لهم أَعْدلهم قولاً وعقلاً وخُلقاً، وهو الأَوسط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾[2]، أَي عُدُلاً خياراً، و[تُسَبِّحونَ] قيل: هي عبارة عن طاعة الله تعالىٰ وتعظيمه والعمل بطاعته، وقال مجاهد وأَبو صالح هي كانت لفظة الاستثناءِ عندهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يردُّ عليه قولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾. فبادَرَ القومُ وتابوا عند ذلك، وسبَّحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

[يَتَلاوَمونَ] معناه: يجعل كل واحد اللوم في حيِّز صاحبه ويُبَرِّىءُ نفسه، ثم أَجمعوا على أَنهم طغوا، أَي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين ثم انصرفوا إِلى رجاءِ الله تعالىٰ وانتظار الفرج من لَدُنه في أَن يبدلهم بسبب تَوْبتهم وإِنابتهم خيراً من تلك الجنة.

وقرأَ جمهور القراءِ: (يُبْدِلَنَا) بسكون الباءِ وتخفيف الدال، وكذلك قرأَ الحسن،

= والخَفِيَّةُ اسمان علمان لموضعين كما جاء في اللسان، والشاهد في البيت قوله: (عَلَى حَرْدٍ)، أي: على غضب وغيظ، وعلى الرواية الثانية قوله: (كُلُّهُنَّ حواردُ)، أي: كلُّهن غضب وغيظ، والبيت أيضاً في الكامل، ومجاز القرآن، والسمط، والعيني، والخزانة، ومعجم ما استعجم.

(١) من قوله تعالىٰ في الآية (٧) من سورة (الطلاق): ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٤٣) من سورة (البقرة): ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وابن محيصن، والأعمش، وقرأ نافعٌ، وأبو عمرو بالتثقيل وفتح الباءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ابتداءُ مخاطبة للنبي ﷺ في أمر قريش، والإشارة بـ [ذَلِكَ] إلى العذاب الذي نزل بالجنة أي: كذلك العذابُ هو العذابُ الذي ينزل بقريش بغتة، ثم عذابُ الآخرة أشد عليهم من عذاب الدنيا، قال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود.

ثم أخبر تعالىٰ أن المتقين لهم عند ربهم جنات النعيم، فروي أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش: إن كان ثَمَّ جنات نعيم فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ وقوله تعالى: (ما لَكُمْ) توبيخ آخر، ابتداءٌ وخبر، جملة منحازة، وقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ جملة منحازة كذلك، و[كَيْفَ] في موضع نصب بـ[تَحْكُمُونَ].

وقوله تعالىٰ: [أَمْ] هي المقدرة بـ «بل وألف الاستفهام»، و[كتابٌ] معناه: مُنَزَّل من عند الله، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، قال بعض المتأولين: هو استئناف قول على معنى: إن كان لكم كتاب فلكم فيه مُتَخَيَّر، وقال آخرون: [إِنَّ] معمولة لـ [تَدْرُسُونَ]، أي: في الكتاب: إِنَّ لكم ما تختارون من النعيم، وكُسرت الألف من [إِنَّ] لدخول اللام في الخبر، وهي في معنى «أَنَّ» بفتح الألف، وقرأ طلحة، والضَّحاك: [أَنَّ لكم] بفتح الألف، وقرأ الأعرج: [أَئِنَّ لكُم] على الاستفهام.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مخاطبة للكفار، كأنه يقول: هل أقسمنا لكم قَسَماً فهو عهد لكم بأنا نُنَعِّمكم يوم القيامة وما بعده؟ وقرأ جمهور القراءِ: [بالغَةٌ] بالرفع على الصفة لـ [أيمانٌ]، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بالِغَةً] بالنصب



على الحال، وهي حال من نكرة مخصصة بقوله تعالىٰ: [عَلَيْنا][(١)]، وقرأ الأعرج: [أَئِنّ لكم]، وكذلك في التي تقدمت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

ثم أمر الله تعالىٰ محمداً ﷺ ـ على جهة إقامة الحجة عليهم ـ أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك، من هو؟ والزَّعيمُ: الضَّامن للأمر والقائم به.

ثم وقفهم تعالىٰ على أمر الشركاءِ عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيءٍ من هذا، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: [أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فَلْيَأْتوا بِشِرْكِهِمْ] بكسر الشين دون ألف، والمراد بذلك ـ على القراءتين ـ الأصنام، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ قيل: هو استدعاءٌ وتوقيف في الدنيا، أي: ليُحضروهم حتى نرى هل هم بحال من يضرُّ وينفع أمْ لا، وقيل: هو استدعاءٌ وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قال مجاهد: هي أول ساعة من القيامة، وهي أفظعها، وتظاهر حديث عن النبي ﷺ «أنه ينادي مناد يوم القيامة: ليتبع كلُّ أحد ما يعبد، قال: فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، وكذلك كلُّ عابد لكل معبود، ثم تبقى هذه الأُمة وَغُبَّرات أهل الكتاب[(٢)] معهم منافقوهم وكثير من الكفرة، فيقال لهم: ما شأنكم؟ لم تقفون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: ننتظر ربَّنا، قال: فَيجيئُهم الله في غير الصورة التي عرفوه بها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال: فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون نعم أنتَ ربُّنا، ويخرون للسجود، فيسجد كل مؤمن وترجع أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً»[(٣)]. هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه ألفاظ بزيادة أو نقصان، وعلى كل

---

(١) وهذا كما أجاز العلماء نصب (حَقًّا) على الحال من (مَتاعٌ) في قوله تعالىٰ: ﴿مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وقد قيل أيضاً: إن (بالِغَةً) حال من الضمير في (لَكُم) لأنه خبر عن (أَيمانٌ) ففيه ضمير منه، وقيل: إنها حال من الضمير في (عَلَيْنَا) إن قُدرت (عَلَيْنَا) وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأَيمان، لأن فيه ضميراً منه كما يكون إذا كان خبراً عنه.

(٢) غُبَّر كل شيء: بقيَّته وآخره، والجمع غُبَّراتٌ.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، وفي تفسير سورة (ن)، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الرقاق، وابن جرير في تفسيره، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث طويل ذكره المؤلف مختصراً ـ=

وَجْه مما ذكرتُه من كشف الساق وما في الآية أيضاً من ذلك فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يُري اللهُ تعالىٰ ذلك اليوم، حتى يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي لله تعالىٰ وحده، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وبَدَا مِنَ الشَّرِّ الْبَرَاحُ(١)

ومنه قول الآخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فشُدُّوا . . . . (٢)

وقول الآخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءَ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا(٣)

= والصياصي: جمع صيصَة وهي قَرْن البقر ونحوه.

(١) البيت لِجَدِّ طرفة، وهو في اللسان، ومعاني القرآن، والقرطبي، والبحر المحيط، وديوان الحماسة، والخصائص، والمحتسب، وجَدُّ طرفة هذا اسمه سعْدُ بن مالك، ورواية الفراء في معاني القرآن كما هنا: (البراحُ)، ولكن في اللسان والقرطبي: (وبدا من الشَّر الصُّراحُ).

قال في اللسان: «الساق في اللغة: الأمر الشديد، وكَشْفه مَثَلٌ في شدة الأمر، كما يقال للشحيح: «يَدُه مغلولةٌ»، ولا يَد ثَمَّ ولا غُلّ، وإنما هو مثلٌ في شدة البخل، وكذلك هذا، لا ساقَ هنا ولا كَشْف، وأصْله أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد يقال: شمَّر عن ساعده وكشف عن ساقه، للاهتمام بذلك الأمر العظيم»، ثم نقل عن ابن سيده أن هذا لا يَدفع أن الساق إذا أريدت بها الشدة فإنما هي مشبَّهة بالساق هذه التي تعلو القدم، وأنه إنماقيل ذلك لأن الساق هي الحاملة للجُملة، المُنْهضة لها، فذكرت هنا تشبيهاً وتشنيعاً. هذا والبَرَاح: البَيِّن الواضح، والصُّراح: الخالص الواضح.

(٢) هذا بيت من الرجز وبعده يقول الراجز:

. . . . وجَدَّت الْحَرْبُ بِكُم فَجِدُّوا

وتَشْمير الإزار والثوب: رَفْعُه، وشَمَّر عن ساقه: خَفَّ وجَدَّ في الأمر أو أراده وتهيَّأ له، والشِّدَّة: الصَّلابة، وهي ضدُّ اللين، والمراد هنا: كونوا أقوياء، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾، وقوله: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ والجدُّ: الاجتهاد، وجَدَّ به الأمْرَ: اشْتَدَّ، فالمعنى: اشتدت الحرب فاجتهدوا فيها.

(٣) هذا الرجز في اللسان، وأساس البلاغة، والقرطبي، والبحر المحيط، ولم ينسبه أحد منهم، وقبله يقول الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِن إشْفَاقِهَا وَمِنْ طِرادِي الطَّيْرَ عن أرْزاقِهَا

والشاهد في قوله: «قد كشفت عن ساقها»، والعُراقُ ـ بضم العَيْن ـ: العظم بغير لحم، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق بالفتح، فالمعنى: تَبْري اللحم عن العظم.



وأَصل ذلك أَنَّ من أَراد الجِدَّ في أَمر يُحاوله فإنه يكشف عن ساقه تشميراً وجدًّا، وقد مدح الشعراءُ بهذا المعنى، فمنه قول دُرَيْد:

كَمِيشُ الإزار خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ صَبورٌ عَلَى الأَعْداءِ طَلاَّعُ أَنْجُدِ(١)

وعلى هذا من أَراد الجِدَّ والتشمير في طاعة الله تعالىٰ، قال عليه الصلاة والسلام: «إِزْرَةُ المؤمن إلى نصف ساقِه»(٢).

وقرأَ جمهور الناس: (يُكْشَفُ) بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ ابن مسعود: [يَكْشِفُ] بفتح الياءِ وكسر الشِّين على معنى: يكشفُ اللهُ، وقرأَ ابن عباس: [تَكْشِفُ] بفتح التاءِ على أَن القيامة هي الكاشفة وقرأَ ابن عباس أَيضاً: [تُكْشَفُ] بضم التاءِ على معنى: تكشف القيامة والشِّدة الحال الحاضرة، وحكى الأَخفش عنه أَنه قرأَ: [نَكْشِفُ] بالنون مفتوحة وكسر الشين، ورويت عن ابن مسعود.

وقوله تعالىٰ: [وَيُدْعَوْنَ] ظاهرُهُ أَن ثَمَّ دعاءٌ إلى سجود، وهذا يردُّه ما قد تقرر في الشرع من أَن الآخرة ليست بدار عمل، وأَنه لا تكليف فيها، وإذا كان هذا فإنما الداعي ما يرونه من سجود المؤمنين فيريدون أَن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون، وقد ذهب بعض العلماءِ إلى أَنهم يُدعون إلى السجود على جهة التوبيخ، وخرَّج بعض الناس من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَنهم كانوا يستطيعون قبل ذلك، وذلك غير لازم،

---

(١) هذا البيت لدُرَيْد بن الصِّمة، وهو في اللسان، والشعر والشعراء، والكامل، والأصمعيات (الأصمعية ٢٨)، وقد قال دُرَيْد هذه القصيدة في رثاء أخيه عبد الله، والخبر في العقد الفريد، وفي ديوان المعاني، وكَمِيشُ الإزار: فعيل بمعنى مفعول، وهو من قولهم: كمش ذَيْلَه بمعنى: قَلَّصَه، وفي اللسان: «رجل كميش الإزار: مُشَمِّره»، ويؤيد هذا المعنى وَصْفُه بعد ذلك بخروج نصف ساقه من الثياب، و«صبُور على الأعداء» معناها أنه صبور في الحرب لا يسلِّم بسهولة ولا يَفِرُّ، بل يبقى في المعركة مهما طال وقتها حتى ينتصر، ويروى بدلاً من «الأعداء»: «العَزَّاء» وهي الشِّدة، و«طَلاَّعُ أَنْجد»: ركَّاب لصعاب الأمور، أو المتطلع للأمور السامية، والأَنْجد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع وغَلُظ من الأرض، أو هو الطريق في الجبل.

(٢) أَخرجه أَبو داود، ومالك في «اللباس» وأحمد في مسنده (٣/ ٥، ٦/ ٣١)، ولفظه كما في مسند أحمد: عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، أنه سمع أبا سعيد سُئل عن الإزار فقال: على الخبير سقطتَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إزرَةُ المؤمن إلى أَنصاف الساقين، لا جناح أو لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار، لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره بَطَراً». والإِزرَةُ بالكسر: الحالة وهيئة الاتزار، وهذا مثل الرِّكْبة والجِلْسة.

وعقيدة الأَشعرية أَن الاستطاعة إِنما تكون مع التَّلَبُّس بالفعل لا قَبْله، وهذا القَدْر كاف من هذه المسأَلة ها هنا.

و﴿خاشِعَةً﴾ نصب على الحال، وجوارحهم كلُّها خاشعة، أَي ذليلة، ولكنه تعالىٰ خصَّ الأَبصار بالذكر لأَن الخشوع فيها أَبْيَن منه في كل جارحة. وقوله تعالىٰ: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معناه: تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم، وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون ممَّا نال عظام ظهورهم من الاتصال والعُتُوِّ، وقال بعض المتأَولين: السُّجود هنا عبارة عن جميع الطاعات، وخص السُّجود بالذكر من حيث هو عُظْم الطاعات، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآ خرة، وقال إِبراهيم التميمي[١]، والشعبي: أَراد بالسجود الصلوات المكتوبة، وقال ابن جُبَيْر: المعنى: كانوا يسمعون النداءَ للصلاة و«حيَّ على الفلاح» فلا يجيئون، وفُلج الربيع بن خُثَيْم[٢] فكان يُهادَى بين رجلين إِلَى المسجد، فقيل له: إِنك لمعذور، فقال: من سمع «حيَّ على الفلاح» فليجب ولو حَبْواً، وقيل لابن المسيَّب: إِن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك، فقال: أَسْمَع «حيَّ على الفلاح» فلا أُجيب؟ والله لا فعلتُ. وهذا كله قريب بعضُه من بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وعيد، ولم يكن ثَمَّ مانع ولكنه كما تقول: «دعني مع فلان»، أَي: سأُعاقبه، و[مَنْ] في موضع نصب عطفاً على الضمير في [ذَرْني]، أَو نصب على المفعول معه، و«الحديث» المشار إِليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب. و«الاسْتِدْراج» هو الحمل من رتبة إِلى رتبة حتى يصير المحمول إِلى شرٍّ، وإِنما يُستعمل الاستدراج في الشَّر، وهو مأَخوذ من الدرج، قال سفيان الثوري: تُسبغ

---

(١) هو إِبراهيم بن سالم بن أَبي أُمية التَّميمي، المدني، أبو إِسحاق المعروف ببَرَدَان ـ بفتح الباء والراء ـ، صدوق، من السادسة، مات سنة ثلاث وخمسين، وهناك إِبراهيم بن أَدهم بن منصور العَجلي، أَبو إِسحاق البلخي الزاهد، من الطبقة الثامنة، مات سنة اثنتين وستين، إِذ يقال له أَيضاً: التميمي، ولكنا نميل إِلى أن المقصود هو الأول.

(٢) هو الرَّبيع بن خُثَيْم (بضم الخاء وفتح الثاء ـ، وضبطه في الخلاصة «خَيثم» بفتح الخاء وسكون الياء وفتح الثاء) بن عائذ بن عبد الله الثوري، أَبو يزيد الكوفي، ثقة، عابد، مخضرم، من الطبقة الثانية، قال له عبد الله بن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأَحَبَّك، مات سنة إِحدى وستين، وقيل: بل سنة ثلاث وستين. (تقريب التهذيب).



عليهم النعم ويمنعون الشكر، وقال غيره: كلما زادوا ذنباً زيدوا نعمة، وفي معنى الاستدراج قول النبي ﷺ: «إن الله تعالىٰ يُمْلي للظالم حتى إذا أَخذه لم يُفلته»[1]، وقال الحسن: «كم من مُسْتَدْرج بالإِحسان إِليه ومغرور بالسَّتْر عليه».

و﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ معناه: أُؤخرهم مُلاوة من الزمان، وهي البرهة والقطعة، يقال: مُلاوة بضم الميم وفتحها وكسرها، و«الكَيْدُ» هنا عبارة عن العقوبة التي تحلُّ بالكفار من حيث هي على كيْد منهم، فسَمَّى العقوبة باسم الذنب، و«الْمَتين»: القوِيُّ الذي له متانة، ومنه الْمَتْنُ: الظَّهْر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه «أَمْ» التي تتضمن الإِضراب عن الكلام الأَول لا على جهة الرفض له، لكن على جهة التَّرْك والإِقبال على ما سواه، وهذا التوقيف هو لمحمد ﷺ، والمراد به توبيخ الكفار؛ لأَنه لو سأَلهم أَجراً فأَثقلهم عدم ذلك لكان لهم بعض العُذْر في إِعراضهم وفرارهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ معناه: هل لهم علم بما يكون فيدَّعون مع ذلك أَن الأَمر على اختيارهم جار؟

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر لِحُكْمه، وأَن يمضي لما أُمِر به من التبليغ واحتمال الأَذى والمشقة، ونَهَى عن الضَّجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام، ثم ذكر تعالىٰ القصة باقتضاب وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الحوت وهو مكظوم، أَي غيظه في صدره، وحقيقة «الكظم» هو الغيظ والحزن والندم، فحمل المكظوم عليه تجوزاً وهو في الحقيقة كاظم، ونحو هذا قول ذي الرُّمَّة:

---

(١) أَخرجه البخاري في تفسير سورة (هود)، وكذلك الترمذي، أَما مسلم فأَخرجه في البر، وابن ماجه في الفتن، ولفظه كما جاء في البخاري: عن أَبي موسى رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.



وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حَزَناً عَانِي الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُوم[١]

وقال النَّقاش: المكظوم الذي أُخِذ بكظمه وهو مجاري القلبِ، ومنه سُمِّيت «الكاظِمَة» وهي القناة في جوف الأرض[٢].

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾، أسند الفعلَ دون علامة تأنيث لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، وقرأ ابن مسعود، وأُبَيُّ بن كعب، وابن عباس: ﴿لَوْلاَ أَنْ تداركَتْهُ﴾ على إظهار العلامة، وقرأ ابن هرمز[٣]: [لَولاَ أَن تَدَّارَكَهُ] بشدِّ الدال على معنى: تَتَداركه، وهي حكاية حال تأتي فلذلك جاءَ بالفعل مستقبلاً. بمعنى: لولا أن يقال فيه: تتداركه نعمة من ربِّه، ونحوه قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾[٤]، فهذا وجه هذه القراءَة، ثم أُدغمت التاءُ في الدال. و«النِّعمة» هي الصفح والتَّوب والاجتباءُ الذي سبق له عنده، و«العَرَاءُ»: الأرض الواسعة التي ليس فيها شيءٌ يُوَارِي من بناءٍ أَو نبات أَو غيره من جبل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

فَـرَفَعْـتُ رِجْـلاً لا أَخَـافُ عِثَـارَهَـا ونبـذتُ بـالأَرْضِ الْعَـراءِ ثيـابـي[٥]

وقد نُبذ يونس عليه السلام بالأَرض العَرَاءِ غير مذموم. و«اجْتَبَاهُ» معناه: اختاره واصطفاه.

---

(١) الحَزَنُ والحُزْن بمعنى واحد، قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، وقد فرق بعض اللغويين بينهما تفرقة لا تخرجهما عن أن المعنى فيهما ضد الفرح، والمكظوم: الحزين الذي يخفي حزنه ويكتمه فيسبب له ألماً أكثر، وهو موضع الاستشهاد هنا. وقد كثر الكلام في معنى القَرح وفي التفريق بينه وبين الجرح، والمعنى في النهاية واحد.

(٢) هكذا جاءت كلمة «الكاظمة» في الأصول، والذي في لسان العرب أن «الكاظمة» موضع، قال امرؤ القيس:

إِذَا هُـنَّ أَقْسَـاطٌ كَـرِجْـلِ الـدَّبَـى أَو كَقَطَـا كَـاظِمَـةَ النَّـاهِـل

أما القناة التي في جوف الأرض فتسمَّى «الكِظامة»، قال في اللسان: «قناة في باطن الأرض يجري فيها الماءُ، وفي الحديث أن النبي ﷺ أتى كِظَامَةَ قوم فتوضأ منها ومسح على خفَّيه، الكِظامة كالقناة، وجمعها كظائم».

(٣) في بعض النسخ زيادة «والحسن» أي أن الحسن قرأ بها أيضاً.

(٤) من الآية (١٥) من سورة (القصص).

(٥) هذا البيت لقيس بن جَعْدة، وهو من شواهد أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وذكره صاحب اللسان، واستشهد به الطبريُّ في تفسيره، وقيْسٌ هذا رجلٌ من خُزاعة، وهو أَحد الفَرَّارين في الحروب، والعثار: السقوط، وفي المثل «مَن سَلَكَ الجَدَدَ أَمِنَ العِثار»، والنَّبْذُ: الطَّرحُ والإلقاء بعيداً، والعَراء: وجه الأرض الخالي، وهو موضع الاستشهاد هنا.

ثم أَخبر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بحال نظر الكفار إليه، وأَنهم يكادون من الغيظ والعداوة يُزْلقونه فَيُذْهبون قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضم الياءِ، من «أَزْلَقَ»، وقرأَ نافع وحده: [لَيَزْلِقُونَكَ] بفتح الياءِ من «زَلِقَت الرِّجْل»، يقال: زَلِقت الرجل ـ بكسر اللام ـ وَزَلَقْتُهُ ـ بفتحها ـ، مثل «حَزِنَ» و(حَزَنْتُهُ)، و«شَتِرَتِ العَيْنُ» و«شَتَرْتُهَا»[١]، وفي مصحف ابن مسعود: [لَيُزْهِقُونَكَ] بالهاءِ، وروى النَّخَعِيُّ أَن في قراءة ابن مسعود: [لَيُنْفِذُونَكَ][٢]، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر:

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِي مَجْلِسٍ نَظَراً يُزِيلُ مَوَاطِىءَ الأَقْدامِ[٣]

وذهب قوم من المفسرين ـ وذكره الفراءُ ـ إِلى أَن المعنى: يأْخذونك بالعين، وذكر أَن اللَّقْع بالعين[٤] كان في بني إِسرائيل، قال ابن الكلبي: كان رجل يتجوع ثلاثة أَيام ثم لا يتكلم على أَي شيءٍ إِلاَّ أَصابه بالعين، فسأَله الكفار أَن يصيب النبي ﷺ فأَجابهم إِلى ذلك لكن عصم الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ، وقال الزجاج: كانت العرب إِذا أَراد أَحدهم أَن يعتانَ[٥] أَحداً تجوَّع ثلاثة أَيامٍ، وقال الحسن: دواءُ من أَصابته العين أَن يقرأَ هذه الآية، و«الذِّكْرُ» في الآية القرآنُ. ثم قرر تعالىٰ أَن هذا القرآن العزيز ذِكْرٌ للعالمين من الجنَّة والإِنس، وَوَعْظٌ لهم، وحُجَّةٌ عليهم، فالحمد لله الذي أَنعم علينا به، وجعلنا من أَهله وحملته، لا ربَّ غيره.

تم تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

---

(١) الشَّتْرُ: انقلاب في جفن العَيْن، وقيل: هو استرخاء الجفن الأسفل.

(٢) معناها: يصرعونك، قال ذلك مجاهد، وقال بعضهم: إذا زلق السَّهْم وزهق قيل له: نفذ، فالمعنى في نفذ هو المعنى في زلق وزهق، وكأنه تعالىٰ يقول: إنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالبغضاء يكاد يسقطك.

(٣) البيت في اللسان، والتاج، والقرطبي، والبحر المحيط، ولم ينسبه أحد منهم، والمُقَارضة تكون في العمل السَّيِّىء والقول السَّيِّىء يقصد الإنسان به صاحبه، وقد تكون في الخير قليلاً، والمعنى هنا: ينظر بعضهم إلى بعض بالبغضاء والعداوة نظراً يزلزل مواضع الأقدام، ويروى «يُزِلُّ» بدلاً من «يزيل»، والمعنى واحد.

(٤) يقال: لَقَعه ببَعْرة، أي رماه بها، ولقعه بعَيْنه، أي عانه، بمعنى: أصابه بعينه. (اللسان).

(٥) أي: يصيبه بالعين، يقال: عان فلانٌ الرجلَ يَعينه عيناً فهو عائن، والمصاب مَعين، وفي الحديث الشريف «العين حقٌّ» ـ أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ، ويقال: اعتانَ لنا فلان: أي صار لنا عيناً وجاسوساً، ولكنه استعمل اعتان بمعنى عانَ هنا.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الحاقة

وهي مكية بإجماع. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: خرجت يوماً بمكة معترضاً لرسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فجئت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلما سمعت سرْد القرآن قلت في نفسي: إنه لشاعر كما تقول قريش، حتى بلغ إلى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾، ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله تعالىٰ في قلبي الإسلام[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

«الحاقَّةُ» اسم فاعل من «حقَّ الشيءُ يَحِقُّ» إذا كان صحيح الوجود، ومنه ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، والمراد به البعثُ والقيامة، قاله ابن عباس وغيره، وسُمِّيت القيامة حاقة لأنها حقَّقت لكل عامل عمله، وقال بعض المفسرين: «الحاقَّةُ» مصدر كالعاقبة والعافية، فكأنه قال: ذات الحق، وقال ابن عباس وغيره: سُمِّيت القيامة حاقة لأنها تبدي حقائق الأشياءِ، واللفظة رفع بالابتداءِ، و[ما] رفع بالابتداءِ أيضاً، و[الْحَاقَّةُ] الثانية خبر [ما]، والجملة خبر الأُولى، وهذا كما تقول: «زيدٌ ما زيدٌ»، على معنى التعظيم له وإبهام التعظيم أيضاً ليتخيَّل السامع أقصى جهده.

---

(١) أخرج هذا الخبر الإمام أحمد في مسنده (الدرُّ المنثور).

(٢) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر)، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مبالغةٌ في هذا المعنى، أَي أَن فيها ما لم تَدْره من أَهوالها وتفصيل صفاتها، و[ما] تقرير وتوقيف، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ابتداءٌ وخبر في موضع نصب بـ [أَدْرَاكَ]، و[ما] الأُولى ابتداءٌ، وخبرها [أَدراك ما الحاقَّةُ]، وفي [أَدْراكَ] ضمير عائد على [ما]، هو ضمير الفاعل.

ثم ذكر تعالىٰ تكذيب ثمود وعاد بهذا الأَمر الذي هو حق مشيراً إِلى أَن مَن كذَّب بذلك ينزل به مثل ما نزل بأُولئك. و«القارعة» من السماءِ: القيامةُ أَيضاً لأَنها تقرع القلوب بصفاتها. و«ثمود» اسم عربيٌ معرفة، فإِذا أُريد به القبيلة لم ينصرف، وإِذا أُريد به الحيُّ انصرف، وأَما «عاد» فكونه على ثلاثة أَحرف وساكن الأَوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف.

و«الطَّاغِيَةُ» قال قتادة: معناه الصيحة التي خرجت عن حَدِّ كل صيحة، وقال قوم: المرادُ: بسبب الفئة الطاغية، وقال آخرون منهم مجاهد، وابن زيد: المعنى: بسبب الفعْلة الطاغية التي فعلوها، وقال ابن زيد ما معناه: «الطَّاغية» مصدر كالعاقبة، فكأَنه تعالىٰ قال: بطغيانهم، وقاله أَبو عبيدة، ويُقوِّي هذا قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[1]، وأَولى الأَقوال وأَصوبها الأَول؛ لأَنه مناسب لما ذكر في عاد إِذ ذكر فيه الوجه الذي وقع به الهلاك، وعلى سائر الأَقوال لا يتناسب الأَمران؛ لأَن طغيان ثمود سبب، والريح لا تناسب ذلك لأَنها ليست بسبب الإِهلاك بل آلته كما هي الصيحة.

و«الصَّرْصَرُ» يحتمل أَن يكون من «الصرِّ» أَي البرد، وهذا قول قتادة، ويحتمل أَن يكون من «صَرَّ الشيءُ» إِذا صوَّت، قال قوم. وصوت الريح صرير، كأَنه يحكي هذين الحرفين. و«العاتِيَةُ» معناه: الشديدة المخالفة، وكانت الريح قد عَتَتْ على الخُزَّان بخلافها، وعَتَتْ على قوم عاد بشدتها. وروي عن علي بن أَبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قالا: إِنه لم تنزل من السماءِ قطرة ماءٍ قط إِلا بمكيال على يد مَلَك، ولا هبت ريح قط إِلاَّ كذلك، إِلاَّ ما كان من طوفان نوح عليه السلام وريح عاد، فإِن الله تعالىٰ أَذن لهما في الخروج دون إِذن الخُزَّان.

---

(١) الآية (١٠) من سورة (الشمس).



و«التَّسْخيرُ»: استعمال الشيءِ باقتدار عليه، ورروي أَن الريح بدأَت بهم صبح يوم الأَربعاءِ لثَمَان بقين لشوال، وتمادت بهم إِلى آخر يوم الأَربعاءِ تكملة الشهر. و[حُسُوماً] قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وأَبو عبيدة: معناه: كاملة تباعاً لم يتخللها غير ذلك، وهذا كما تقول العرب: «ما لقيته حَوْلاً مُجَرَّماً» قال الشاعر:

عَـوازِبُ لَـمْ تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـمْ تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّمِ(١)

---

(١) هذا البيت لطُفَيْل الغَنَوي، الشاعر الجاهلي الذي عرف بوصفه للخيل حتى قال عنه في المؤتلف: «طُفيل الخيل»، جاء في كتاب الأمالي لأبي علي إسماعيل القالي: وقرأتُ على أَبي بكر بن دريد لطُفَيْل الغنوي يصف إبلاً:

عَـوَازِبُ لَـم تَسْمَـعِ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّمِ
سِـوَى نَـار بَيْـضٍ أَوْ غَـزَالٍ صَـريمـةٍ ... أَغَـنَّ مِـنَ الْخُنْـسِ الْمَنَـاخِـرِ تَـوْأَمِ
إذا راعِيَـاهَـا أَنْضجَـاهُ تَـرَامَيَـا ... بِـهِ خِلْسَـةً أَو شَهْـوَةَ الْمُتَقَـرِّمِ

ونسبه في «الشعر والشعراء» لطُفَيْل أيضاً، وقال: إنه سبق به وجاء الحطيئة فأخذه منه وقال:

عَـوَازِبُ لَـم تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تُحْلَـبْ إلاَّ نَهَـاراً ضَجُـورُهَـا

يعني: لم تُحلب التي تضجر من الحلْب في البرد، ولكن تحلب إذا طلعت عليها الشمس، وكان ابن قتيبة قد سبق في ترجمته للحطيئة في كتاب (الشعر والشعراء) قد نسب هذا البيت الأخير هنا للحطيئة، وقال: إنه سبق به، وجاء ابن مقبل بعده فأخذه عن الحطيئة، وقال:

عَـوازِبُ لَـمْ تَسْمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... وَلَـم تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـولٍ مُجَـرَّمِ

وهو البيت نفسه الذي نسبه إلى طفيل الغنوي، وهكذا ناقض ابن قتيبة نفسه في كتاب واحد، فنسب البيت إلى طُفيلٍ الغَنَوي مرة، ونسبه إلى ابن مقبل مرة أُخرى، وجعل البيت سابقاً على بيت الحطيئة مرة ولاحقاً له مرة أُخرى، لكن رواية القالي في كتاب الأمالي تُرجِّح أن البيت لطفيل الغنوي.

وعوازب: بعيدات عن البيوت، والنُّبُوح: أَصوات الناس وضجيج السكان في الحيِّ، والمُقامة: حيث يقيم الناس، وتِمُّ الحول: تمامه وكماله، والمُجَرَّم: المكمل، يقول: إن هذه الإبل لقوم من أَهل العزة والمنعة، ولهذا فهي ترعى وتمضي بعيداً حيث شاءت لا تُمنع ولا تخاف، ولبُعدها هذا فإنها لم تسمع أصوات الناس ولا ضجيج السكان في الحي، ولم ترَ ناراً سوى نار بيض نعام يصيبه راعيها فيشويه، أو لحم غزال صغير ضئيل يصيده ثم يشويه أيضاً، والصَّريمة: القطعة من الإبل، وأغن: في صوته غُنة، والأخنس: القصير الأنف، وكل ظبي فهو أَخنس، والتوأم: الذي وُلد مع غيره ولهذا كان صغير الجسم، وإذا صغر جسمه صغرت النار التي توقد لشوائه، وقوله: (تراميا به) يعني الغزال، يترامى الراعيان لحمه عند الأكل. وخلْسة: اختلاساً، والمُتَقرِّم: شديد الشهوة إلى اللحم.

هذا وقد جاء في الأصول «المحرم» بالحاء بدلاً من «المجَرَّم» بالجيم.



وقال الخليل: أَيْ شُؤماً ونحساً، وقال ابن زيد: حُسوم: جمع حاسم كجالسٍ وقاعد، ومعناه أَن تلك الأَيام قطَّعتهم بالإِهلاك، ومنه: حسم العِلَل، ومنه: الحسام. والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يحتمل أَن يعود على الليالي والأَيام، ويحتمل أَن يعود على «دارهم وحِلَّتِهم» لأَن معنى الكلام يقتضيها وإِن لم يُلفظ بها. قال الثعلبي: وقيل: يعود على الريح، وقد تقدم القول في التشبيه بأَعجاز النخل في سورة «اقْتَربت السَّاعة»، و«الْخاوِيةُ»: السَّاقطة التي قد خلت أَعجازها بلًى وفساداً.

ثم وقف تعالىٰ على أَمرهم توقيف اعتبار بقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، واختلف المتأَولون في [باقية] ـ فقال قوم منهم ابن الأنباري: هي هنا مبالغة كَعلاَّمة ونسَّابةٍ، والمعنى: من باقٍ، وقال ابن الأَنباري أَيضاً: معناه: من فئة باقية، وقال آخرون: [باقية] مصدر، فالمعنى: من بقاءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن، والناس: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بفتح القاف وسكون الباءِ، أَي الأُمم الكافرة التي كانت قبله، ويؤيد ذلك ذكره بعد قصة نوح في طغيان الماءِ؛ لأَن قوله: ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ قد تَضَمَّنهم فَحَسُن اقتضاب أَمرهم بعد ذلك دون تصريح، وقرأَ أَبو عمرو والكسائي، وعاصم ـ في رواية أَبان ـ والحسن ـ بخلاف عنه ـ وأَبو رجاءٍ، والجحدريُّ، وطلحة: ﴿وَمَنْ قِبَلَهُ﴾ بكسر القاف وفتح الباءِ، أَي أَجْناده وأَهل طاعته، ويؤيد ذلك أَن في مصحف أُبيٍّ بن كعب: [وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ]، وفي حرف أَبي موسى الأَشعري: [وَمَنْ تِلْقَاءَهُ]، وقرأَ طلحة بن مصرف: [وَمَنْ حَوْلَهُ]. و[قِبَلُ الإِنسان]: ما يليه في المكان، وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة: عندي وفي ذِمَّتي وما يَليني بأَيِّ وجه وَلِيَني.

و«المؤتفكات»: قرى قوم لوط عليه السلام، وكانت أَربعاً فيما رُوي، وائتُفِكتْ: قُلِبت وصار عاليها سافلها فائتَفكَتْ هي فهي مُؤْتَفِكَة، وقرأ الحسن هنا: [والمُؤْتَفِكَةُ] على الإفراد، و«الْخَاطِئَة» إمَّا أَن يكون صفةً لمحذوف، كأَنه قال: بالفِعْلَة الخاطئة، وإما أَن يريد المصدر، أَي بالخطأِ في كفرهم وعصيانهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أَن يكون «الرسول» اسم جنس، كأَنه قال: فعصى هؤلاءِ الأَقوام والفِرق أَنبياءَ الله تعالىٰ الذين أَرسلهم إِليهم، ويحتمل أَن يكون «الرسول» بمعنى الرسالة، وقال الكلبي: يعني موسى عليه السلام، وقال غيره ـ في كتاب الثعلبي ـ: يعني لوطاً عليه السلام. و«الرابية»: النامية التي قد عظمت جداً، ومنه: الربا، وَرَبَا المال، ومنه ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[١].

ثم عدد تعالىٰ على الناس نعمته في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ والمراد: طغى الماءُ في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح عليه السلام، والطغيان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأَشياءِ، ومعناه: طغى على خُزَّانه في خروجه، وعلى البشر في أَن أَغرقهم، قال قتادة: عَلاَ على كل شيءٍ خمسة عشر ذراعاً، و«الجارية»: السفينة.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ عائد على الفعلة، أَي: مَن تذكَّرها ازدجر، ويحتمل أَن يعود على [الْجَارِيَة]، أَي: مَنْ سمعها اعتبر، و«الجاريَةُ» يراد بها سفينة نوح عليه السلام، قاله مُنذر، وقال المهدوي: المعنى: في السُّفن الجارية، وقال قتادة: أَبقى الله تعالىٰ تلك السفينة حتى رأَى بعضَ عيدانها أَوائل هذه الأُمَّة، وغيرُها من السفائن التي صنعت بعدها قد صارت رماداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عبارة عن الرجل الفَهِم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفَهْم وتدبُّر، قال أَبو عمران الجوني: [واعيَة] عَقَلت عن الله عزَّ وجلَّ، ويروى أَن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «إِني دعوت الله أَن يجعلها أُذنك يا علي»، قال عليٌّ رضي الله عنه: فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته[٢].

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الحج)، وتكررت في الآية (٢٩) من سورة (فصلت).

(٢) ذكره الثعلبي، عن الحسن، وأَخرج نحوه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، =



وقرأ الجمهور: (تَعِيَهَا) بكسر العين على وزن «تَلِيَهَا»، وقرأ ابن كثير ـ في رواية الحلواني ـ وقنبل، وابن مصرف: [وَتَعْيَهَا] بسكون العين، جعل الياءَ التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من «كَتِف»؛ إذْ حرف المضارعة لا يفارق الفعل فَيُسكَّن تخفيفاً، كما يقال: «كَتْف»، ونحو هذا قول الشاعر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لَنَا سَوِيقاً[(١)]

على أَن هذا البيت منفصل، فهو أَبعد، لكن ضرورة الشعر تسامح به.

ثم ذكَّر تعالىٰ بأَمر القيامة، و«الصُّورُ»: القرنُ الذي يُنفخ فيه، قال سليمان بن أَرقم: بلغني أَن رسول الله ﷺ سُئل عن الصور فقال: «هو قرن من نور، فمه أَوسع من السموات»[(٢)] والنفخة المشار إِليها في هذه الآية نفخة القيامة التي للفزع، ومعها يكون الصعق ثم نفخة البعث، وقيل: هي نفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ثم نفخة البعث، والإِشارة بآيتنا هذه إِلى نفخة الفزع لأَن حمل الجبال هو بعدها، وقرأَ الجمهور: (نَفْخَةٌ) بالرفع، لمَّا نعت صح رفعه[(٣)]، وقرأَ أَبو السَّمال بالنصب.

وقرأَ جمهور القراءِ: [وَحُمِلَت] بتخفيف الميم، بمعنى: حملتها الرياح والقدرة، وقرأَ ابن عامر فيما روي عنه: [وَحُمِّلَت] بشدِّ الميم، وذلك يحتمل معنيين: أَحدهما أَنها حاملةٌ حَمَلَتْ قدرةً لله تعالىٰ وعُنفاً وشدة تُفَتِّتها، فهي مُحَمَّلة حاملة، والآخر أَن تكون محمولة حَمَلَتْها ملائكةٌ أَو قدرةٌ.

= وابن مردويه، عن مكحول قال: لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سأَلتُ ربي أن يجعلها أُذُنَ عليٍّ»، قال مكحول: فكان عليٌّ يقول: «مَا سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته».

(١) السويقُ: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمِّي بذلك لانسياقه في الحلق، والجمع أَسْوقة، وقد ذكر ابن عطية أَن التسكين في البيت ضرورة شعرية تسمح به.

(٢) الذي في كتب السنة الصحيحة عن عبد الله بن عمرو أَن أَعرابياً سأَل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قَرْن يُنفخ فيه»، هكذا أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٩٦٢، ١٩٣، وأَخرجه الترمذي في القيامة وفي تفسير سورة الزُّمَر، والدارمي في الرقاق، وليس فيه هذه الزيادة التي ذكرها سليمان بن أرقم، وقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه «تقريب التهذيب» أن سليمان بن أرقَم هذا ضعيف.

(٣) ذكر أبو حيان الأندلسي رأي ابن عطية هذا وعلق عليه بقوله: «ولو لم يُنْعت لصحَّ، لأن «نفخة» مصدر محدود، ونعتُه ليس بنعت تخصيص، إنما هو نعت توكيد». راجع البحر المحيط (الجزء الثامن صفحة ٣٢٢).



وقوله تعالىٰ: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال: [فَدُكَّتَا] وقد ذكر جمعاً، وساغ ذلك لأَن المذكور فرقتان، وهذا كما قال الشاعر:

أَلَـمْ يَحْـزُنْـكِ أَن حِبـالَ قَـوْمـي ... وَقَـوْمِـكِ قَـدْ تَبـايَنَتـا انْقِطـاعـا[١]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾[٢]، و«دُكَّتا» معناه: سُوِّي جميعهما، كما يقال: «ناقة دكاءُ» إذا ضعفت فاستوت حدبتها مع ظهرها.

و«الْوَاقِعَةُ»: القيامة والطَّامَّة الكبرى، وقال بعض الناس: هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، و«انشقاق السماءِ» هو تفطُّرها وَتَمَيُّزُ بعضها من بعض، وذلك هو الوهن الذي ينالها، كما يقال في الجُدْران البالية المشقَّقة: واهية، و«الْمَلَكُ» اسم جنس يريد به الملائكة، وقال جمهور المفسرين: الضمير في [أَرْجائِها] عائد على السماءِ، أَي الملائكةُ على نواحيها وما لَمَّ به[٣] منها، و«الرَّجا» الجانب من الحائط والبئر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

كَـأَنْ لَـمْ تَـرَي قَبْلـي أَسيـراً مُقَيَّـداً ... وَلاَ رَجُلاً يُرْمَى بِهِ في الرَّجَوَانِ[٤]

---

(١) هذا البيت هو الرابع من قصيدة للقطَاميِّ (عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبي) يمدح بها زُفر بن الحارث الكلابي، لأن زُفر هذا قد أنقذه من الموت بعد أن أسره قومه في موقعة الخابور، وزاد بأن حَمَلَه وكساه وأعطاه مائة ناقة، والكلام في القصيدة مُوجَّه إلى «ضُباعة» بنت زفر، والشاعر يركز على ما حدث بين قبيلته تغلب وقبيلة زفر وهي قيس من عداء ومن انقطاع لِصِلات المودَّة، والحبال هي العهود والمواثيق التي كانت بين القبيلتين، وتباينت: تفرقت، وقد روي أن ضباعة لمَّا سمعت هذا البيت قالت: «بَلَى والله لقد حَزَنني». والشاهد أن الشاعر قال عن الحبال وهي جمع: «تباينتا» بلفظ التثنية، والذي سوّغ ذلك أنه يتكلم عن قبيلتين.

(٢) من الآية (٣٠) من سورة (الأنبياء)، وقد قال تعالىٰ: ﴿كَانَتَا﴾ مع أن الكلام عن السموات والأرض لأنهما صنفان: السموات، والأرض، وهذا الأسلوب كثير مستعمل في القرآن الكريم وفي الشعر العربي.

(٣) «لَمَّ به» مثل «أَلَمَّ به»، فالمعنى فيهما: أتاه فنزل به. «راجع كتب اللغة والمعاجم».

(٤) هذا البيت للمرادي، وذكره صاحب اللسان في «رجا» مع بيت قبله، وهما:

لَقَـدْ هَـزِئَـتْ مِنّـي بِنَجْـرانَ إذ رَأَت ... مَقَـامِـيَ فـي الْكَبْلَيْـنِ أُمُّ أَبـانِ
كَـأن لَـمْ تَـرَي قَبْلـي أَسيـراً مُكَبَّـلاً ... وَلاَ رَجُـلاً يُـرمَـى بـه فـي الـرَّجَـوَانِ

والرَّجوان: مُثَنَّى «رجا» المقصور، وهو ناحية الشيء، وخصَّ بعض اللغويين به ناحية البئر من =



أَي: يُلْقني في بئر فلا أَجد ما أَتمسَّك به، وقال الضحاك [أَيضاً][(١)] وابن جبير: الضمير في [أَرْجائِهَا] عائد على الأَرض وإِن لم يتقدم لها ذكر قريب لأَن القصة واللفظة تقتضيان إِفهام ذلك، وفسَّرا هذه الآية بما روي أَن الله تعالىٰ يأَمر ملائكة السماءِ الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأَرض، ثم يأَمر ملائكة السماءِ الثانية فيصفون خلفهم، ثم كذلك ملائكة كل سماءٍ، فكلما بدا أَحد من الجن والإِنْس وجد الأَرض قد أُحيط بها[(٢)]، قالوا: فهذا تفسير هذه الآية، وهو أَيضاً معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(٣)]، وهو أَيضاً تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[(٤)] على قراءة من شدَّ الدال، وهو تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[(٥)].

واختلف الناس في الثمانية الحاملين العرش ـ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أَحد عِدَّتهم، وقال ابن زيد: هم ثمانية أَملاك على هيئة الوعول، وقال جماعة من المفسرين: هم على هيئة الناس، أَرجُلهم تحت الأَرض السابعة ورؤُوسهم وكواهلهم فوق السماءِ، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «هُمُ اليوم أَربعة، فإِذا كان يوم القيامة قواهم الله تعالىٰ بأَربعة سواهم»[(٦)] والضمير في قوله تعالىٰ: [فَوْقَهُمْ] قيل: هو للملائكة الحَمَلة، وقيل: للعالم كله، وكل قدرة كيفما تصورت فإِنما هي بحول الله تعالىٰ وقوته.

= أعلاها إلى أسفلها وحافتيها، ويقال: «رُمي به في الرجوان» والمعنى: اسْتُهين به فكأنه رُمي هناك، أي في المهالك، و«المَكبَّل» كما في رواية اللسان هو الذي قُيِّد، والكَبْل هو القيد، وقد جاء لفظه في رواية ابن عطية هنا.

(١) زيادة في الأصول لا حاجة إليها.

(٢) الخبر في تفسير ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) الآية (٢٢) من سورة (الفجر).

(٤) من الآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة (غافر).

(٥) من الاية (٣٣) من سورة (الرحمن).

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ، ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن إسحاق، وهو خبر مقطوع في الروايتين.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

الخطاب بقوله تعالىٰ: [تُعْرَضُونَ] لجميع العالم، وروي عن أَبي موسى الأَشعري، وابن مسعود أَن في القيامة عَرْضتين، فيهما معاذير، وتوقيف، وخصومات، وجدال، ثم تكون عرضةٌ ثالثة تتطاير فيها الصحف بالأَيمان والشمائل. وقرأَ حمزة والكسائي: [لا يَخْفَى] بالياءِ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن وثَّاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى، وقرأَ الباقون بالتَّاءِ على مراعاة تأَنيث [خافِيَةٌ]، وهي قراءة الجمهور، وقوله تعالىٰ: [خافِيَةٌ] معناه: ضمير ولا مُعتقد.

و«الَّذين يُعطون كُتُبهم بأَيمانهم» هم المُخلَّدُونَ في الجنة أَهل الإِيمان، واختلف أَهل العقل والعلم في الفرقة التي ينفذ عليها الوعيد من أَهل المعاصي، متى تأَخذ كُتُبها؟ فقال بعضهم: الأَظهر أَنها تأْخذها مع الناس، وذلك يؤنسها مدة العذاب، قال الحسن: فإِذا أُعطي كتابه بيمينه لم يقرأْه حتى يأْذن الله له، فإِذا أَذن له قال: ﴿هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتابِيَه﴾، وقال آخرون: الأَظهر أَنه إِذا أُخرجوا من النار، والإِيمانُ يؤنسهم في وقت العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو ظاهر هذه الآية لأَن من يسير إِلى النار كيف يقول هاؤم اقرؤوا كِتابيه؟

وأَما «هاؤُم» فقال قوم: أَصله «هاؤمُوا» ثمَّ نقله التخفيف والاستعمال، وقال آخرون: هذه الميم ضمير الجماعة. وفي هذا كله نظر، والمعنى على كل وجه: تعالوا، فهو استدعاءٌ للفعل المأْمور به، وقوله: ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ هو استبشارٌ وسرور.

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ الآية عبارة عن إِيمانه بالبعث وغيره، قال قتادة: ظنَّ هذا ظنًّا يقينياً فنفعه، وقومٌ ظَنُّوا ظنَّ شك فشقوا به، و[ظَنَنْتُ] هنا واقعة موقع «تيَقَّنْتُ»، وهي في مُتَيَقَّن لم يقع بعد ولا خرج إِلى الحسِّ، وهذا هو باب الظَّن الذي يقع موقع اليقين،

وقرأ بعض القراءِ: [كِتَابِيَهْ] و[حِسَابِيَهْ] و[مَالِيَهْ] و[سُلْطَانِيَهْ] بالهاءِ في الوصل والوقف اقتداءً بخط المصحف، وهي في الوصل بِنيَّة الوقف لأَنها هاءُ السَّكْت فلا معنى لها في الوصل، وَطَرَحَ الهاءَات في الوصل لا في الوقف الأَعمشُ وابن أَبِي إِسحاق، قال أَبو حاتم: قراءتنا إِثبات الهاءات في الوقف وطرحها في الوصل، وبذلك قرأَ ابن أَبي محيصن، وسلام، قال الزهراوي: إِثبات الهاءِ في الوصل لَحْنٌ لا يجوز عند أَحد عَلِمْتهُ.

و[راضِيةٍ] معناه: ذات رضى، فهو بمعنى مرضية، وليست بناءَ اسم فاعل، و[عَالِيَةٍ] معناه: في المكان والقدر وجميع وجوه العُلُوِّ.

و«القُطوف» جمع قطف، وهو ما يُجتنى من الثمار ويقطف، ودُنُوُّها هو أَنها تأْتي طوع التمني فيأْكلها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها. و[أَسْلَفْتُمْ] معناه: قدَّمتم، و«الأَيام الخالية» هي أَيام الدنيا لأَنها في الآخرة قد خلت وذهبت، وقال وكيع، وابن جبير، وعبد العزيز بن رفيع: المراد: بما أَسلفتم من الصوم. وعُمُومُها في كل الأَعمال أَولى وأَحسن.

و«الذين يُؤْتون كُتُبهم بِشَمَائِلهم» هم المُخَلَّدُونَ في النار أَهل الكفر، فيتمنَّوْن أَن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيءٌ. وقوله: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ إِشارة إِلى مَوْتة الدنيا، أَي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ يحتمل أَن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ، ويحتمل أَن يريد النفي المحض، و«السُّلْطَانُ» في الآية: الحُجَّةُ، على قول عكرمة ومجاهد، وقال بعضهم ـ ونحا إِليه ابن زيد ـ: تنطق بذلك ملوك الدنيا الكفرة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والظاهر عندي أَن سلطان كل أَحد هو حاله في الدنيا من عَدَد وعُدَدٍ، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يُؤَمَّنَّ الرجل في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إِلا بإِذنه»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، وأبو داود في الصلاة، والترمذي في المواقيت والأدب، والنسائي في الإمامة، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد في مسنده (١/١٨٤، ٥/٢٧٢)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن أبي مسعود الأنصاري البدريِّ، عن النبي ﷺ، قال: «يَؤُم القومَ أَقرؤُهم لكتاب الله تعالىٰ وأَقدمهم قراءة، فإن كانت قراءتهم سواء فليؤمهم أقدمهم هجرة، فإن كانت هجرتهم سواء فليؤمهم=

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾.

المعنى: يقول الله تعالىٰ، أَو الملك ـ بِأَمْرِهِ ـ للزبانية: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، أَي: اجعلوا في عنقه غلاً، قال ابن جريج: نزلت في أَبي جهل.

و[ذَرْعُهَا] معناه: مبلغ كَيْلها، وقد جعل الله تعالىٰ السبعمائة، والسبعين، والسبعة، مواقف ونهايات لأَشياءَ عظام، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أَن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأَشياءِ التي جعل الله تعالىٰ فيها السبعين نهاية، وقرأَ السدي: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعِينَ﴾ بالياءِ، وهذا على حذف خبر الابتداءِ، واختلف الناس في قدر هذا الذراع[1] ـ فقال ابن عباس، ومحمد بن المنكدر، وابن جريج: هو بذراع الملك وقال نوف البكالي وغيره: في الذراع سبعون باعاً، في كل باع كما بين الكوفة ومكة. وهذا يحتاج إِلى سند. وقال حذاقٌ من المفسرين: هي بالذراع المعروفة منا، وإِنما خوطبنا بما نعرفه ونحصِّله، وقال الحسن: الله أَعلم بأَيِّ ذراع هي، وقال سويد بن نجيح ـ في كتاب الثعلبي ـ: بلغني أَن جميع أَهل النار في تلك السلسلة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو وُضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص. وقوله تعالىٰ: [فَاسْلُكُوهُ] معناه: فأَدْخِلوه، ومنه قول أَبِي وجزة السعديِّ يصف حمر وحش:

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى منْهُنَّ في مَسَك ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهداج[2]

= أَكبرهم سناً، ولا يَؤُمُّ الرجلُ في أَهله ولا في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته في بيته إلاَّ أَن يأذن لك أو إلاَّ بإذنه».

(١) الذراع: اليد، وهي مؤنثة، وقد تذكَّر، (راجع اللسان).

(٢) يصف أَبو وجزة حُمر الوحش فيقول في هذا البيت وفي بيت قبله:

مـازِلْـنَ يَنْسُبْـنَ وهْنـاً كُـلَّ صـادقَـةٍ ... بـاتَـتْ تُبـاشِـرُ عُـرْمـاً غَيْـرَ أَزْواجِ
حَتَّـى سَلَكْـنَ الشَّـوَى مِنْهُـنَّ فـي مَسَـكٍ ... مِـنْ نَسْـلِ جَـوَّابَـةِ الآفـاقِ مِهْـداجِ

والشوى: اليَدان والرِّجلان، وسَلَكْن: أَدخَلْن، وهو موضع الاستشهاد هنا والمسَك: الذَّبْل من العاج كهيئَة السِّوار تجعله المرأة في يديها، فهو مثل الأسورة، وفي الحديث أنه ﷺ رأى على عائشة مَسَكتين من فضة، والذَّبْل: قرون الأوعال، وجوَّابة الآفاق هي السحابة التي تحركها الرياح فتتحرك=

ورُوي أَن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره، فهي في الحقيقة التي تُسلك فيه، لكن الكلام جرى مجرى قولهم: أَدخلتُ القَلَنْسُوَةَ في رأسي، وفمي في الحجر، ورُوي أَن هذه السلسلة تُلوى حول الكافر حتى تغمُّه وتضغطه، فالكلام ـ على هذا ـ على وجهه، وهو المسلوك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ المراد به: على إِطعام طعام المسكين، وإِضافة الطعام إِلى المسكين من حيث له إِليه نسبةٌ مَّا، وخُصَّت هذه الخَلَّة من خلال الكافر بالذكر لأَنها من أَضَرِّ الخلال في البشر، إِذا كثرت في قوم هلك مساكينهم.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: [حَميمٌ] ـ فقال جمهور المفسرين: هو الصديق اللطيف المودة، فنفى الله تعالىٰ أَن يكون للكافر هنالك من يواليه، ونفى أَن يكون له طعام إِلاَّ من غسلين، وقال محمد بن المستنير: الحميمُ الماءُ الحارُّ، فكأَنه تعالىٰ أَخبر أَن الكافر ليس له ماءٌ ولا شيءٌ مائع ولا طعامٌ إِلاَّ من غسلين، وهو ـ فيما قال اللغويون ـ ما يجري من الجراح إِذا غُسلت، قال ابن عباس: هو صديد أَهل النار، وقال قتادة وابن زيد: الغِسْلين والزَّقوم أَخبث شيءٍ وأَبْشَعُه، وقال الضحاك، والربيع هو شجر يأَكله أَهل النار، وقال بعض المفسرين: هو شيءٌ يجري من ضريع لأَن الله تعالىٰ قد أَخبر أَنه ليس لهم طعام إِلاَّ من ضريع[1]، وفي أُخرى إِلاَّ مِن غِسْلين، فهما شيءٌ واحدٌ أَو اثنان متداخلان، ويحتمل أَن يكون الإِخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ويكون الغِسْلين والضريع متباينين على ما يفهم في لسان العرب. وخبر [لَيْسَ] في [لَهُ]، وقال المهدوي: ولا يصح أَن يكون [ها هنا].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد يصح ذلك إِن شاء الله تعالىٰ.

= وتسير في آفاق السماء، ونسلها هو المطر، لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلقحه فيمطر، من نسلها، والريح المِهْداج هي التي لها صوت وحنين، وهو من الهَدَجَة، وهو حنين الناقة على ولدها، يقول: إن حمر الوحش وردت الماء ليْلاً وأثارت القَطَا التي صاحت: قَطَا قَطَا، فخبرت باسمها فكانت صادقة، هذه الحمر دخلت في الماء الذي نسلته الريح بأرجلها وأيديها حتى صار لها مثل السوار الذي تضعه المرأة في يديها. أما العُرم فهو بيض القطا، وهي تضعه في أعداد فردية فلا يكون أزواجاً كما قال.

(١) وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. الآية (٦) من سورة (الغاشية).



و«الخاطىءُ»: الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك، و«المخطىءُ» الذي يفعله غير متعمد، وقرأ الحسن، والزهري: [الْخَاطِيُونَ] بالياءِ دون همز، وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف عنه ـ: [الْخَاطُونَ] بضم الطاءِ دون همز.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، قال بعض النحاة: (لَا) زائدة، والمعنى: فأُقْسِم، وقال آخرون مِنهم: [لَا] ردٌّ لما تقدم من أقوال الكفار، والبداية [أُقْسِمُ]، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَلأُقْسِمُ﴾ لأن لام القسم معها ألف القَسَم[1].

قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾. قال قتادة بن دعامة: أراد الله تعالىٰ أن يعُمَّ القسم جميع مخلوقاته، وقال غيره: أراد الأَجساد والأَرواح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول حسن عام.

وقال ابن عطاءٍ: ما تُبصرون من آثار القدرة وما لا تُبصرون من آثار القدرة، وقال قومٌ: أراد بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ الملائكةَ.

و«الرَّسُولُ الكريم» هو جبريل عليه السلام في تأويل جماعة من العلماءِ، ومحمد ﷺ في قول آخرين، وأُضيف القول إليه لأنه هو الذي تلاه وبلَّغه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

نَفى تعالىٰ أن يكون القرآن قول شاعر كما زعمت قريش، ونصب [قَليلاً] بفعل

---

(١) قال أبو الفتح في تخريج هذه القراءة: «هذا فعل الحال، وهناك مبتدأٌ محذوف، أي: لأنا أُقْسِمُ، فدلَّ على أن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو على حاضر الحال»، وتبع الزمخشري أبا الفتح فيما قال، لكن أبا حيان الأندلسي عارضهما فقال: «إنما ذهبا إلى ذلك لأنه فعل حال، وفي القَسم عليه خلاف، والذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أن يقسم عليه». (راجع المحتَسب لابن جني، وتفسير الزمخشري، والبحر المحيط).

مضمر يدل عليه [تُؤْمِنونَ]، و(مَا) يحتمل أَن تكون نافية فينتفي إِيمانهم أَلْبَتَّةَ، ويحتمل أَن تكون مصدرية ويتصف بالقِلَّة إِمَّا الإِيمان وإِما العَدَد الذين يؤمنون، فعلى اتصاف إِيمانهم بالقلة فهو الإِيمان اللغوي؛ لأَنهم قد صدَّقوا بأَشياءَ يسيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إِذْ كانوا يصدقون أَن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأَمر به رسول الله ﷺ صواب، ثم نَفَى تعالىٰ أَن يكون [القرآن] قول كاهن كما زعم بعضهم. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، والحسن، والجحدري: ﴿قَلِيلاً مَا يُؤْمِنونَ﴾ و﴿قَلِيلاً ما يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياءِ فيهما، وقرأَ الباقون بالتاءِ من فوق، ورجَّح أَبو عمرو قراءة التاءِ من فوق بقوله: ﴿فَمَا مِنكُم﴾، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب: «مَا تَتَذَكَّرُونَ» بتاءين. و[تَنْزِيلٌ] رُفع بالابتداءِ، أَيْ: هو تنزيلٌ.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن محمداً لو تقوَّلَ علينا شيئاً لعاقبه بما ذَكَر، والتقوُّل أَن يقول الإِنسان عن آخر: إِنه قال شيئاً لم يفعله، وقرأَ ذكوان وابنه محمد[1] ﴿وَلَو يَقُولُ عَلَيْنَا﴾ بالياءِ وضم القاف، وهذه القراءَة مُعرِّضة بما صرحت به قراءةِ الجمهور، ويُبيِّن التعريض قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ اختلف في معناه ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [بالْيَمَينِ]: بالقُوَّة[2]، ومعناه: لَنِلْنا عقابه بقوة منا، أَو يكون المعنى: لنزعنا منه قوته، وقال آخرون: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسْجَن[3] أَو يُقام لعقوبة: قد أُخذ بيده وبيمينه.

و«الْوَتِين» نياط القلب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عِرْقٌ غليظ تصادفه شفرة الناحر، ومنه قول الشَّماخ:

إِذَا بَلَّغْتِنِـــي وَحَمَلْـــتِ رَحْلِـــي ... عَـرابَـةَ فـاشْـرَقـي بِـدَمِ الْـوَتيـنِ[4]

---

(١) ذكوان هو أبو صالح السَّمَّان الزيات، المدني، ثقة ثبت، كان يجلب الزيت إلى الكوفة، من الطبقة الثالثة، مات سنة إحدى ومائة، أما ابنه محمد، فهو ابن أبي صالح السَّمان، صدوق، من السادسة، قال عنه في تقريب التهذيب: «يَهِم».

(٢) ومنه قول الشماخ بن ضرار:

إِذَا مـــا رَايَـــةٌ رفِعَـــتْ لِمَجْـــدٍ ... تَلَقَّـــاهـــا عَـــرَابَـــةُ بـــاليَمِيـــنِ

(٣) في بعض النسخ: «لمن يُسَخَّر».

(٤) كان الشماخ قد خرج يريد المدينة، فصحب عَرَابَةَ بن أوس الأنصاري، فسأله عرابَة عما يريد بالمدينة، فقال: أردت أن أَمْتار لأهلي، وكان مع عرابة بعيران، فأنزل الشماخ وأكرمه، وأوقر له بعيريه تمراً=



فمعنى الآية: لأذهبنا حياته معجَّلاً. و«الحاجِزُ»: المانع، وجمع [حاجِزينَ] على معنى أَحد؛ لأنه يقع على الجمع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «لم تحلَّ الغنائم لأَحد سود الرؤوس قبلكم»[1].

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ عائد على القرآن، وقيل: على محمد ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ وعيدٌ، وكونُه حسرة على الكافرين هو من حيث كفروا به ويَرَوْن من آمن به يُنَعَّم وهم يُعَذَّبون.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، ذهب الكوفيون إلى أَنها إِضافة الشيءِ إِلى نفسه، كدار الآخرة ومسجد الجامع، وذهب البصريون والحُذَّاق إِلى أَن الحق مضاف إِلى الأَبلغ من وجوهه، وقال المبرد: إِنما هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين.

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتسبيح باسمه العظيم، وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته، والمُضِيُّ لأَدائها وإِبلاغها وروي أَن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم»، واستحبَّ التزامَ ذلك جماعةٌ من العلماءِ، وكره مالك لزوم ذلك لئلا يُعَدّ فرضاً واجباً.

تم تفسير سورة الحاقة والحمد لله رب العالمين

* * *

= وبُراً، فقال فيه أبياتاً منها هذا البيت، والخطاب فيه للناقة، والرَّحْل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وكل ما يُعد للرحيل، وعرابة هذا صحابي جليل، والوتين: هو العرق الذي وصفه ابن عطية، وشَرِق يَشْرَق بمنى: غَص، يقول لناقته: إذا أنت أوصلتني إلى عرابة فقد تحققت كل آمالي، ولا حاجة بي إليك، ولا يهمني أن أريق دمك.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنفال، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم، كانت تنزل النار من السماء فتأكلها»، لأن يوم بدر أسرع الناس في الغنائم فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾. راجع مسند أحمد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المعارج[(١)]

وهي مكية، لا خلاف بين الرواة في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

قرأ جمهور السبعة: (سَأَلَ) بهمزة محققة، قالوا: والمعنى دَعَا داعٍ، والإشارة إلى من قال من قريش: «﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»[(٢)]، وروي أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، وإلى من قال: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا»[(٣)]. وقال بعضهم: المعنى: بحث باحث واستفهم مُسْتَفْهِم، قالوا: والإشارة إلى قول قريش: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»[(٤)]؟ وما جرى مجراه، قاله الحسن وقتادة.

فأَمَّا من قال: المعنى: دَعَا داعٍ فالباءُ في قوله تعالىٰ: [بِعَذابٍ] على عُرفها، وأَمَّا من قال: المعنى: استفهم مُسْتَفْهِمٌ فالباءُ تُوَصِّل توصيل «عَنْ»، كأنه تعالىٰ قال: «عن عذاب»، وهو كقول علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ[(٥)]

---

(١) في بعض النسخ: تفسير سورة سأل سائل.

(٢) جاء ذلك في الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

(٣) جاء ذلك في الآية (١٦) من سورة (ص).

(٤) جاء ذلك في الآية (٤٨) من سورة (يونس).

(٥) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام بعد وقعة «يوم=

وقرأ نافع، وابن عامر: [سالَ] ساكنة الألف، واختلف القراءُ فيها، فقال بعضهم: هي «سأل» المهموزة إلا أنها سهلت، كما قال:

. . . . لا هَنـاكِ الْمَـرْتَـعُ[1]

ونحو ذلك، وقال بعضهم: هي لغة من يقول: «سِلْتُ أَسَالُ وَيَتَسَاوَلَان»[2]، وهي لغة مشهورة حكاها سيبويه فتجيءُ الألف منقلبة عن الواو التي هي عين كقال وخاف، وأما قول الشاعر:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ الله فاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ[3]

= حليمة»، والتي بدأها بقوله: (طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ)، والأدواء: جمع داء، ويريد هنا طباعَهنَّ الخفية التي هي بمنزلة المرض فيهن، يقول: إنه خبير بطباع النساء وبوسائل معالجتهن، ثم ذكر بعد ذلك شيئاً من خبرته بهن، والشاهد أن الباء في «بالنساء» بمعنى «عن»، والمعنى: فإن تسألوني عن النساء.

(١) هذه الجملة وردت في آخر بيت للفرزدق، والبيت بتمامه:

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ البغالُ عَشِيَّةً فَـارْعَـيْ فَـزَارَةُ لاَ هَنَـاكِ الْمَـرْتَـعُ

وهو في الديوان، والكتاب لسيبويه، والخصائص لابن جني، والمحتسَب له أيضاً، وفي شرح شواهد الشافية، وفي ابن يعيش، والمقتضب، وابن الشجري، والمقرب، وقد قال الفرزدق هذا البيت حين عُزل مَسْلَمَة بن عبد الملك، وتولى بعده عُمَر بن هُبَيْرة الفزاري، فهجا الفرزدق الفزاريِّين، ودعا عليهم هنا ألا يَهْنَئُوا بولايته. والبغال في البيت هي البغال التي حملت مسلمة عند عَزله، يقول: إن البغال قد حملت مسلمة عشية، وأصبحت أنت يا فزارة صاحبة الأمر، فتصرفي في الأمور، وتمتعي بالخيرات، لا هنئت بها ولا نعمت، والشاهد إبدال الألف من الهمزة في «هناك»، وهي في الحقيقة ضرورة شعرية، وكان من الصحيح أن تجعل بَيْن بَيْن لأنها متحركة لا ساكنة.

(٢) في بعض النسخ: «سَالَ يَسَالُ»، وقد قال الزمخشري حين ذكر هذه اللغة: «وهما يتسايلان»، ونحسبه خطأً من الناسخ لأن الزمخشري يعرف أن الكلمة واوية هنا.

(٣) هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري، وهو بيت وحيد قاله حسَّان يعيِّر هذيلاً وكانت قد سألت رسول الله ﷺ أن يُباح لها الزنى، والشاهد فيه إبدال الهمزة ألِفاً من باب التسهيل وليس على لغة من قال: «سِلْت أَسَالُ»، قال الشنتمري: «لأن البيت لحسان وهذه ليست لغته».

ومثل بيتي الفرزدق وحسان قول القُرَشي زيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه حين طلبتا الطلاق منه:

تِلْكَ عِرْسَايَ تَنْطِقَانِ عَلَى عَمْـ ـدٍ إلى اليَوْمِ قَولَ زُور وَهَتْرِ
سَالَتَانِي الطَّلاقَ أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مالي، قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

وكون الشاعر من قريش ينفي أنه على لغة «سِلْتُ ولا يَسَالُ»، بل هو من بَاب التخفيف بإبدال الهمزة ألفاً.



فإن سيبويه قال: هو على لغة تسهيل الهمزة، وقال غيره: هو على لغة من قال: «سِلتُ»، وقال بعضهم في الآية: هي من «سَالَ يَسيلُ» إذا جرى، وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت وغيره: في جهنم وادٍ يسمَّى «سائلاً»، والإِخبارُ هنا عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل ـ إن لم يصح أمر الوادي ـ أن يكون الإِخبار عن نفوذ القَدَر بذلك العذاب، فاستعير له لفظ السَّيْل لمَا عُهد من نفوذ السيْل وتصميمه.

وقرأ ابن عباس: [سَالَ سَيْلٌ] بسكون الياءِ[1]، وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وابن مسعود: [سَالَ سالٍ] مثل «قال»، أُلْغيت الياءُ من الخَطِّ تخفيفاً، والمراد «سايل» إذ سؤال الكفار عن العذاب ـ حسب قراءَة الجماعة ـ إنما كان على أنه كذب، فوصفه الله تعالىٰ بأنه واقع وعيداً لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، قال بعض النحويين: اللام تُوَصِّل المعنى توصيل «عَلَى»[2]، وروي أن في مصحف أُبَيٍّ بن كعب: قوله تعالىٰ [عَلَى الْكَافِرِينَ]، وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قائلاً قال: لِمَنْ هذا العذاب الواقع؟ فقيل: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

و«الْمَعَارِجُ» في اللغة: الدَّرَجُ في الأَجرام، وهي هنا مستعارة في الرُّتب والصفات الحميدة، قاله ابن عباس، وقتادة، وقال ابن عباس: «المعارج»: السمواتُ تعرج فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماءٍ، وقال الحسن: هي المراقي في السماءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ معناه: تصعد، على أصل اللغة في اللفظة. و«الرُّوحُ» عند جمهور العلماءِ هو جبريل عليه السلام، خصَّصه بالذكر تشريفاً، وقال مجاهد: الرُّوحُ: ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة، وقال بعض المفسرين: هو اسم الجنس في أَرواح الحيوان.

واختلف المتأَولون في قوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ـ فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحُذَّاق: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم من

(١) قال أَبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة: «السَّيْل هنا: الماءُ السائل، وأَصله المصدر، من قولك: سال الماءُ سيلاً، إلاَّ أنه أُوقع على الفاعل ـ أي قُصد به معنى اسم الفاعل ـ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً».

(٢) يعني أن اللاَّم بمعنى «عَلَى».



أَيامكم هذه، ومقدار المسافة ـ إن لو عرجها آدميٌّ ـ خمسون أَلف سنة، وقاله ابن إسحاق، فمَنْ جعل «الروح» جبريلَ ونوعاً من الملائكة قال: المسافة هي من قعر الأَرض السابعة إِلى العرش، قاله مجاهد، ومَن جعل «الروح» جنس أَرواح الحيوان قال: المسافة بين وجه هذه الأرض إِلى منتهى العرش علُوًّا، قاله وهب بن مُنَبِّه، وقال قوم: المعنى: تعرج الملائكة والروح إِليه في يوم كان مقداره في نفسه خمسين أَلف سنة من أَيامكم، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم ـ فقال عكرمة، والحكم: أَراد الله تعالىٰ مدة الدنيا فإِنها خمسون أَلف سنة، لا يدري أَحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إِليه في مدة الدنيا وبقاءِ هذه البنية، ويتمكن ـ على هذا ـ في «الرُّوح» أَن يكون اسم جنس أَرواح الحيوان. وقال ابن عباس وغيره: بل اليوم المشار إِليه هو يوم القيامة ـ ثم اختلفوا ـ فقال بعضهم: قدره في الطول قدر خمسين أَلف سنة، وهذا هو ظاهر قول النبي ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ جعل الله له صفائح من نار يوم القيامة تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين أَلف سنة»[1]. وقال ابن عباس، وأَبو سعيد الخدري: بل قَدْرُه في هَوْله وشدته ورزاياه للكفار قدر خمسين أَلف سنة، وهذا كما تقول في اليوم العصيب: إِنه كَسَنة، ونحو هذا، قال أَبو سعيد: قيل: يا رسول الله، ما أَطولَ يوماً مقداره خمسون أَلف سنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنه ليخفُّ على المؤمن حتى يكون أَخفَّ عليه من صلاة مكتوبة»[2]، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خمسين أَلف سنة من أَيام الدنيا.

وقد ورد في يوم القيامة أَنه كأَلف سنة، وهذا يشبه أَن يكون في طوائف دون طوائف.

والعامل في قوله تعالىٰ: [يَوْمٍ] ـ على قول من يقول إِنه يوم القيامة ـ قوله تعالىٰ:

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أَخرجه مسلم في الزكاة، وأحمد (٢/ ٢٦٢)، وهو عن أَبي هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حَقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَت أُعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين أَلف سنة، حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار»، بلفظ مسلم.

(٢) أَخرجه أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن حبان، والبيهقي في البعث، عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (الدر المنثور).



[مِنْ دافعٍ]، وعلى سائر الأقوال [تَعْرُجُ]. وقرأَ جمهور القراءِ: [تَعْرُجُ] بالتاءِ من فوق، وقرأَ الكسائي وحده: [يَعْرُجُ] بالياءِ لأَن التأنيث غير حقيقي، وبالياءِ من تحت قرأَ ابنُ مسعود لأنه كان يُذَكِّر الملائكة، وهي قراءة الأعمش.

ثم أَمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبر الجميل، وهو الذي لا يلحقه عَتْبٌ من فَشَلٍ ولا شكٍّ ولا قِلَّةُ رضى ولا غير ذلك، والأَمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة، وقيل: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يعني يوم القيامة؛ لأَنهم يكذِّبون به فهو في غاية البعد عندهم، وإِنه تعالىٰ يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكلُّ آت قريب، وقال بعض المفسرين: الضمير في [يَرَوْنَهُ] عائد على العذاب، وقوله تعالىٰ: [يَوْمَ] نصب بإِضمار فعل على البدل من الضمير المنصوب، و«الْمُهْلُ»: عَكَرُ الزيت، قاله ابن عباس وغيره، فهي[1] لسوادها وانكدار أَنوارها تشبه ذلك، والمُهْل أَيضاً ما أُذيب من فضة ونحوها، قاله ابن مسعود وغيره[2]، فتجيءُ له أَلوان وتميُّع مختلط، والسماءُ أَيضاً للأَهوال التي تدركها تصير مثل ذلك، و«الْعِهْنُ» الصوف دون تقييد، وقال بعض اللغويين: هو الصوف المصبوغ أَلواناً، وقيل: المصبوغ أَي لون كان، وقال الحسن: هو الأَحمر، واستدل من قال إِنه المصبوغ أَلواناً بقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ[3]

وحَبُّ الْفَنَا هو عِنَب الثَّعلب، وكذلك هو عند طيبه وقبل تحطيمه أَلوان، بعضه أَحمر، وبعضه أَصفر، وبعضه أَخضر؛ لاختلافه في النضج، وتشبَّه الجبال به على هذا لأَنها جُدد بِيضٌ وحُمْرٌ وسودٌ، فيجيءُ التشبيه من وجهين: أَحدهما في الأَلوان، والثاني

---

(١) أي السماء.

(٢) في بعض النسخ: قاله ابن عباس وغيره.

(٣) هذا بيت من معلقة زهير بن أَبي سُلْمى، والتي بدأها بقوله: (أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَم تَكَلَّمِ)، وزهير في هذا البيت وأبيات معه يصف بعض النسوة في سفرهن على الإبل في هوادج من الصوف قد أُلقيت عليها أستار رقيقة حمراء اللون تشابه الدم في حمرتها، والفُتاتُ: اسمٌ لما انفَتَّ من الشيء، أي تقطع وتفرق، وأَصله من الفَتِّ والتقطيع والتفريق، والفعل منه فَتَّ يفتُّ، والعِهْن: الصوف المصبوغ أَلواناً، والفَنَا: عِنَب الثعلب، والتَّحطم: التَّكَسُّر، يقول: كأن قطع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلته هؤلاء النسوة ـ حبُّ عنب الثعلب إذا كان غير مُحَطم، لأنه إذا حُطِّم زايله لونه الأحمر.

في الانتقاش، ومن قال إن «الْعِهْنَ» هو الصوف دون تقييد جعل التشبيه في الانتقاش وتخلخل الأَجزاءِ فقط، قال الحسن: والجبال يوم القيامة تسير بالريح ثم يشتد الأَمر بها فتصير كالعِهْن، ثم لا يزال الأَمر بها فتصير هباءً مُنْبَثًّا.

وقرأَ السَّبعة والحسن والمدنيون وطلحة والناس: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل، و«الْحَمِيمُ» ـ في هذا الموضع ـ: القريبُ والوليُّ، فالمعنى: ولا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجدها عنده، قال قتادة: المعنى: ولا يسأله عن حاله لأَنها ظاهرة، قد بصر كل أَحد حالة الجميع وشُغل بنفسه، وقرأَ ابن كثير ـ من طريق السُّدِّي ـ وأَبو جعفر وشيبة ـ بخلاف عنهما ـ وأَبو حيوة: [ولا يُسْأَلُ] على بناءِ الفعل للمفعول، فالمعنى: ولا يُسأَل إِبصاره؛ لأَن كل مجرم له سيما يُعرف بها، وكذلك كل مؤمن له سيما خير، وقيل: المعنى: لا يُسأَل عن أَعماله وذنوبه ليؤخذ بها وَلِيُّهُ وَوَزَرُه.

و[يُبَصَّرُونَهُمْ] ـ على هذه القراءات ـ قيل: معناه: في النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في المحشر يبصر المجرم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه، تقول: بَصُر فلان بالشيءِ وبَصَّرتُه به: أَرَيْتُه إِيَّاه، ومنه قول الشاعر:

إِذَا بَصَّرْتُكِ الْبَيْدَاءَ فَاسْرِي ... وَأَمَّا الآنَ فَاقْتَصِدي وَقِيلِي[1]

وقرأَ قتادة: [يُبْصِرُونَهُمْ] بسكون الباءِ وكسر الصاد خفيفة، وقال مجاهد: [يُبْصِرُونَهُمْ] معناه: يُبصر المؤمنون الكفار في النار، وقال ابن زيد: يُبصر الكفارُ من أَضلَّهم في النار عبرةً وإِشفاقاً عليهم وخزياً لهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) بَصَّرها: جعلها تعرف وتدرك أحوالها ودروبها، والسُّرى: السَّير ليلاً، والاقتصاد: عدم الإفراط في الجهد، وقِيلي: استريحي في وقت القيلولة، أي وقت الظهر، يقول لناقته: إذا أنا دَلَلْتُك على الطريق فأسرعي بالسير ليلاً في الصحراء، أما الآن ونحن في وقت القيلولة فاستريحي وقللي جهدك.



المُجْرِم ـ في هذه الآية ـ: الكافر، بدليل شدة الوعيد وذِكْرِ «لَظَى»، وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الابتداءِ. وقرأ جمهور الناس: [يَوْمِئِذٍ] بكسر الميم، وقرأ الأَعرج بفتحها، ومن حيث أُضيف إلى غير متمكن جاز فيه الوجهان، وقرأ أبو حيوة: ﴿مِّنْ عَذَابِ﴾ منوّناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، «والصاحبة» ـ هنا ـ: الزوجة.

و«الْفَصِيلَةُ» ـ في هذه الآية ـ: قرابة الرجل الأَدنون، مثال ذلك بنو هاشم مع النبي ﷺ، والفصيلة في كلام العرب أَيضاً: الزوجة، ولكن ذِكْر «الصاحبة» في هذه الآية لم يُبق في معنى الفصيلة إلاَّ الوجه الذي ذكرناه. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الفاعل هو الفداءُ الذي تضمنه قوله سبحانه: ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾، فهو كالمتقدم الذكر، وقرأ الزهري: [تُؤْوِيهُ] و[تُنْجِيهُ] برفع الهاءين.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ رَدٌّ لقولهم وما ودُّوه، أَي: ليس الأَمر كذلك، ثم ابتدأ الإِخبار عن «لَظَى» وهي طبقة من طبقات جهنم، وفي هذا اللفظ تعظيم لأَمرها وهولها. وقرأ السبعة، وأَبو جعفر والحسن، والناس: [نَزَّاعَةٌ] بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم: [نَزَّاعَةً] بالنصب، فالرفع على أَن يكون [لَظَى] بدلاً من الضمير المنصوب و[نَزَّاعَةٌ] خبر [إنَّ]، أَو على إِضمار مبتدأ، أَي: هي نزاعةٌ، أَو على أَن يكون الضمير في [إِنَّهَا] للقصة و[لَظَى] ابتداءً، و[نَزَّاعَةٌ] خبرٌ، أَو على أَن يكون [لَظَى] خبر [إِنَّ] و[نَزَّاعَةٌ] بدلاً من [لَظَى] أَو على أَن يكون [لَظَى] خبراً و[نَزَّاعَةٌ] خبرٌ بعد خبر، وقال الزجاج: [نَزَّاعَةٌ] رفع بمعنى المدح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول بأَنها خبر ابتداءٍ تقديره: هي نَزَّاعَةٌ؛ لأَنه إِذا تضمن الكلام معنى المدح أَو الذم جاز لك القطع رفعاً بِإِضمار مبتدأ، أَو نصباً بِإِضمار فعل. ومن قرأ بالنصب فذلك إِمَّا على مدح [لَظَى] كما قلنا، وإِمَّا على الحال من [لَظَى] لما فيها من معنى التَّلَظِّي، كأَنه تعالىٰ قال: كلاً، إِنَّها النار تَتَلَظَّى نزاعةً، قال الزجاج: فهي حال مؤكدة.

و«الشَّوَى» جِلْد الإنسان، وقيل: جلد الرأس والهامة، قاله الحسن، ومنه قول الأَعشى:



قَـــالَـــتْ قُتَيْلَـــةُ مَـــا لَـــهُ   قَـــدْ جُلِّلَـــتْ شَيْبـاً شَـــوَاتُـــهُ ؟[١]

ورواه أبو عمرو بن العلاءِ: «سَرَاتُه»، فلا شاهد في البيت على هذه الرواية، قال أبو عبيدة: سمعتُ عربياً يقول: «اقشعرَّت شَوَاتي». والشَّوى أيضاً قوائم الحيوان، ومنه «عَبْلُ الشَّوَى»[٢]، والشَّوى أيضاً كلُّ عضو ليس بمقتل، ومنه «رَمَى فأَشْوَى»[٣] إذا لم يُصب المقتل، وقال ابن جبير: الشَّوى: العَصَب والعقِب، فنارُ «لَظَى» تُذهب هذا من ابن آدم وتنزعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها ـ فقال ابن عباس وغيره: هي حقيقة، تدعوهم بأَسمائهم وأَسماءِ آبائهم، وقال الخليل بن أَحمد: هي عبارة عن حرصها عليهم واسْتُدنائِهَا لهم وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: [تَدْعو] معناه: تُهلك، تقول العرب: «دعاك الله» أَي أَهلكك، وحكاه الخليل عن العرب.

و«أَوْعَى» معناه: جعله في الأَوعية، تقول: وعيتُ العلم وأَوْعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر:

الْخَيْـرُ يَبْقَـى وَإِنْ طَـالَ الـزَّمَـانُ بِـهِ   والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ[٤]

وهذه إِشارة إِلى كفار أَغْبياء جعلوا جمع المال وكيد أَمرهم ومعنى حياتهم،

---

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد قيل: هو من الأبيات المنسوبة للأعشى، واستشهد به أيضاً أبو عبيدة في «مجاز القرآن»، والشوى: جِلْدة الرأس، والمفرد: شواة، وقد أنشد الأخفش هذا البيت لأبي عمرو بن العلاء فقال له: صحفتَ، وإنما هي: سَرَاتُهُ ـ بالسين ـ أي جوانبه، فسكت الأخفش ثم قال لمن حوله: بل هو الذي صحف وهي شواته.

(٢) الشَّوَى: جلدة الرأس، والشَّوَى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع، والشَّوَى: الشيءُ اليسير الهيِّن، وفي اللغة شواهد كثيرة لهذه المعاني، والعَبْل: الضخم من كل شيءٍ، هو عبل الذراعَيْن، وفرسٌ الشَّوَى: ضخم القوائم.

(٣) أي: رَمَى فأصاب الأطراف وهي ليست بمقتل.

(٤) هذا البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو من قصيدة له مطلعها:

طَـافَ الْخَيَـالُ عَلَيْنَـا لَيْلَـةَ الْـوَادِي   مِـنْ أُمِّ عَمْـرٍو، وَلَـم يُلْمِـمْ لِمِيعَـادِ

وهو في الديوان، واللسان، وقال محقق الديوان: إن هذا البيت لم يرد إلاَّ في الخزانة والأغاني، وأوعَيْتَ: حفظتَ في وعاءٍ، وهو الشاهد هنا، والمعنى: إن الخير يبقى على الزمن مهما طال، وإن الشر هو أخبث ما حفظت وادخرت من زاد، هذا والقصيدة كلها فيها اضطراب في ترتيبها وعدد أبياتها تجده في المراجع المختلفة.

فجمعوه من غير حِلٍّ، ومنعوه من حقوق الله تعالىٰ، وكان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول: سمعتُ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عموم لاسم الجنس، لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأن الأمر فيهم وكيد كثير، و«الهَلَعُ» فزعٌ واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع، ونحوُهُ قوله عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ ما في العبد شُحٌّ هالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ معناه: إلاَّ المؤمنين الذين أَمْرُ الآخرة أَوكد عليهم من أَمر الدنيا، والمعنى: إن هذا المعنى فيهم يقِلُّ لأَنهم يجاهدونه بالتقوى. وقرأَ الجمهور: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ بالإِفراد، وقرأَ الحسن: [على صَلَوَاتِهم] بالجمع، وقوله تعالىٰ: [دَائِمُونَ]، قال الجمهور: المعنى: مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأَوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأَما النافلة فالدوام عليها هو الإِكثارُ مِنْهَا بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أَحبُّ العمل إِلى الله ما داوم عليه صاحبه»[2]، وقال ابن مسعود: الدوامُ: صلاتُها لوقتها، وترْكُها كُفْر، وقال عقبة بن عامر: [دائِمُون]: يَقِرُّون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ومنه الماءُ الدائم[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١﴾.

---

(١) أَخرجه أبو داود في الجهاد، وأَحمد في المسند (٢/ ٣٠٢)، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، والهَلَع: شدةُ الجزع الذي يجعل الإنسان غير قادر على التصرف بحكمة أمام الخير والشر. والخالع: الذي كأنه يخلع فؤاده لِشدَّته.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، ومسلم في المسافرين، وأبو داود في التطوع، والنسائي في قيام الليل، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، وهو عن عائشة رضي الله عنها، وقد اختلفت أَلفاظُهُ باختلاف الروايات، وفي البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فقال: من هذه ؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها قال: مَهْ، عليكم بما تُطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملُّوا، وكان أحبَّ الدِّين إليه ما داوم عليه صاحبه. (كتاب الإيمان).

(٣) أي: الماءُ الساكن، كما جاءَ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبولنَّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه».



قال قتادة، والضحاك، وقوم: «الحقُ المعلومُ» هو الزكاة المفروضة. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: هذه الآية في الحقوق التي سوى الزكاة، وهي ما ندبت الشريعةُ إليه من المواساة، وقد قال ابن عمر، والثعلبي، ومجاهد، وكثير من أَهل العلم: إن في المال حقاً سوى الزكاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الأَصحُّ في هذه الآية؛ لأَن السورة مكية وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة.

و«السائل»: المتكفِّف، و«المحرومُ»: الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعايتهُ لدنياه، قالت عائشة رضي الله عنها: هو الذي لا يكاد يتيسَّر له مكسبه، وقال بعض أَهل العلم: المحروم من احترق زرعه، وقال بعضهم: المحروم من ماتت ماشيته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه أَنواع الحرمان، لا أَن الاسم يلزمُ هذا خاصَّةً.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: المحرومُ: الكَلْبُ، أَراد ـ والله أَعلم ـ أَن يعطي مثالاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأَجر حسب الحديث المأَثور[1]، وقال الشعبي: أَعياني أَن أَعلم من المحروم، وحكى عنه النقاشُ أَنه قال وهو ابن سبعين سنة: سأَلتُ عنه وأَنا غلامٌ فما وجدتُ شفاءً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رحم الله تعالىٰ الشعبي فإنه في هذه المسأَلة محروم، ولو أَخذه اسم جنس فيمن عَسُرت مطالبه كان له، وإنما كان يطلب نوعاً مخصوصاً كالسائل.

و«يَوْمُ الدِّين» هو يوم القيامة، سُمِّي بذلك لأَنه يوم المجازاة، والدِّين: الجزاءُ،

---

(١) جاء هذا في حديث مشهور، رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، ومالك، وأحمد، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثَّرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثْلُ الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أَجراً؟ قال: في كل كبدٍ رَطْبة أَجْرٌ»، واللفظ للبخاري.

تقول العرب: «كما تُدِينُ تُدان»[1]. ومنه قول الفِنْد الزمَّانيِّ:

وَلَـــمْ يَبْـــقَ سِـــوَى الْعُـــدْوا ... نِ دِنَّـــاهُـــمْ كَمَـــا دَانُـــوا[2]

و«الإشفاق»: الخوف من أمر يتوقع؛ لأن نيل عذاب الله تعالىٰ للمؤمنين متوقَّع، والأكثر ناج بحمد الله تبارك وتعالىٰ، لكن عذاب الله عزَّ وجل لا يأمنه إلاَّ من لا بصيرة له. و«الفروج» في هذه الآية هي الفروج المعروفة، والمعنى: [يحفظونها][3] من الزنى، وقال الحسن بن أبي الحسن: أراد فروج الثياب، وإلى معنى الوطءِ يعود، ثم استثنى تعالىٰ الوطءَ الذي أباحه الشرعُ في الزوجات والمملوكات. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾، حسَّن دخول «عَلَى» في هذا الموضع قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، فكأنه تعالىٰ قال: إلاَّ أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيمانهم.

وقوله تعالىٰ: [ابْتَغى] معناه: طلب، وقوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: سوى ما ذُكر، كأنه أمْر قد حُدَّ فيه حَدٌّ فمن طلب بُغيته وراءَ الحدِّ فهو كمستقبل حدٍّ في

---

(١) هذا مثل معروف، ومعناه: كما تُجازي الناسَ تُجازَى منهم، يعني: إن فعلتَ حسناً كان جزاؤك من الناس حسناً، وإن فعلت سيئاً كان جزاؤك سيئاً، ويجوز أن يجري كلا الأمرين على الجزاء، أي: كما تجازي أنت الناسَ على صنيعهم مَعَك كذلك تُجازَى على صنيعك معهم، قال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي يخاطب الحارث بن أبي شَمِر الغسَّانيَّ وكان قد اغتصب ابنته:

يَـا أَيُّهـا الْمَلِـكُ الْمَخُـوفُ أَمَـا تَـرَى ... لَيْـلاً وَصُبْحـاً كَيْـفَ يَخْتَلِفَـانِ؟
هَـلْ تَسْتَطِيـعُ الشَّمْـسُ أَن تَـأْتِـي بِهَـا ... لَيْـلاً وَهَـل لَـكَ بـالْمَلِيكِ يَـدَانِ؟
يَـا جَـارِ أَيْقِـن أَنَّ مُلْكَـكَ زَائِـلٌ ... واعْلَـم بـأَنَّ كَمَـا تَـدِيـنُ تُـدَانُ

ونلاحظ أن في البيت الأخير إقواءً.

(٢) الفِنْد الزمَّانيُّ اسمه شَهْلُ بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان، والفِنْد: القطعة من الجبل، وهو واحد من فرسان ربيعة المعدودين، والبيت من قصيدة قالها في حرب البسوس، وأورد أبو تمام قطعة من أوَّلها في الحماسة، وهو أيضاً في خزانة الأدب للبغدادي وفي المغني، ومن أبيات هذه القصيدة:

صَفَحْنَـا عَـنْ بَنِـي ذُهْـلٍ ... وقُلْنَـا: الْقَـوْمُ إِخْـوانُ
فَلَمَّـا صَـرَّحَ الشَّـرُّ ... فَـأَضْحَـى وَهْـو عُـرْيَـانُ
وَلَـمْ يَبْـقَ سِـوَى الْعُـدْوا ... نِ دِنَّـاهُـمْ كَمَـا دانُـوا

يقول: عفونا عنهم، فلما انكشفت حقيقتهم وظهر الشرُّ واضحاً لم يبق أمامنا إلاَّ أن نقاتلهم ونعتدي عليهم كما اعتدوا علينا.

(٣) زيادة لتوضيح المعنى.



الأجرام وهو يتعدى وراءَه إلى خَلْفه، و«العادون»: الذين يتجاوزون حدود الأشياءِ التي لها حدود، كان ذلك في الأجرام أو في المعاني.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

«الأَمانات» جمع أَمانة، وجَمَعها لأَنها تكون متنوعة من حيث هي في الأموال والأَسرار، وفيما بين العبد وربِّه سبحانه فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه، قال الحسن: الدين كلُّه أَمانة، وقرأ ابن كثير وحده من السبعة: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإِفراد، و«العَهْدُ»: كلُّ ما تقلده الإِنسان من قول أَو فعل أَو مودة، إِذا كانت هذه الأَشياءُ على طريق البرِّ فهو عهد ينبغي رَعْيُه وحفظه، وقد قال النبي ﷺ: «حُسْن العهد من الإِيمان»[1]. و[رَاعُونَ] جمع راع أَي حافظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ معناه ـ في قول جماعة من المفسرين ـ أَنهم يحفظون ما يشهدون فيه ويتيقَّنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكون لهم فيه تقصير، وهذا هو وصف من تمثيل النبي عليه الصلاة والسلام «عَلَى مِثْلِ الشمس فاشْهد»[2]، وقال آخرون: معناه: الذين إِذا كانت عندهم شهادة ورأَوْا حقاً يدرس، أَو حُرمة الله تعالىٰ تُنْتَهَك قاموا بشهادتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم في هذه الآية أَن الله تعالىٰ وحده لا شريك له، وروي عن النبي ﷺ أَنه قال: «خير الشهداءِ الذي يأَتي بشهادته قبل أَن يُسْأَلها»[3]. واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذيْن ذكرنا في الآية: أَحدهما أَن يكون يحفظها متقنة فيأَتي بها ولا يحتاج أَن يستفهم

(١) الذي في البخاري في كتاب الأدب: «باب حُسْنُ العَهْد من الإِيمان»، وتحته حديث عن عائشة، وغيرتها من خديجة رضي الله عنهما، وفي الترمذي: «ما جاء في حسن العهد». والذي ورد في العهد عن الرسول ﷺ قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام، وأحمد في مسنده ٥/ ١٩٣، ومُسْلم في كتاب الأقضية، عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُخبركم بخير الشهداءِ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها، أو يُخبر بشهادته قبل أن يُسألها».



عن شيءٍ منها ولا أَن يعارض، والثاني إِذا ما رأَى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إِحياءِ الحقِّ شهادةٌ، وروي أَيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سيأَتي قوم يَخُونون ولا يُؤْتمنون، ويَشهدون ولا يُسْتشهدون، ويظهر فيهم السِّمَن»[١]، واختلف الناس في معنى هذا الحديث ـ فقال بعضهم: هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أَسمائهم في وثائق الناس، وينصبون لذلك الحبائل من زيٍّ وهيئة، وهم غير عدول في أَنفسهم، فيغرُّون بذلك ويضرُّون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا في ابتداءِ الشهادة لا في أَدائها، ويجيءُ قوله عليه الصلاة والسلام: «وَلاَ يُستشهدون»، أَي: وهم غير أَهل لذلك.

وقال آخرون من العلماءِ: هم شهود الزُّور، يؤدونها والمشهود عليهم لم يُشهدهم ولا الآخر[٢].

وقرأَ حفص عن عاصم: (بشَهادَاتِهِمْ) على الجمع، وهي قراءَة أَبي عبد الرحمن، والباقون [بشَهَادَتِهِمْ] على الإِفراد الذي هو اسم الجنس. و«المحافظة على الصلاة»: إِقامتها في أَوقاتها بشروط صحتها وكمالها، وقال ابن جريج: يدخل في هذه الآية التطوع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ الآية. نزلت لأَن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة أَحياناً ويقرأُ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومُون من مجالسهم مسرعين إِليه يتسمَّعون قراءَته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك. و[قِبَلَكَ] معناه: فيما يَليك، و«المهطع»: الذي يمشي مسرعاً إِلى شيءٍ قد أَقبل عليه ببصره، قال ابن زيد: لا يطرف.

---

(١) أَخرجه البخاري في الشهادات، وفضائل الصحابة، والأَيمان، وأبو داود في السُّنة، والترمذي في الفتن، والنسائي في الأَيمان، وأَحمد في مسنده ٤/٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠، ولفظه كما في البخاري: عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عمران: لا أدري أَذكَر النبي ﷺ بَعْدُ قرنين أو ثلاثة ـ قال النبي ﷺ: إن بعدكم قوماً يخونون ولا يُؤْتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، ويَنْذرُون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السِّمَن» ومعنى قوله: «ويظهر فيهم السِّمَن» أنهم يتعاطون أسباب السِّمَن ويتوسعون في المآكل والمشارب التي تسبب السِّمَن. (راجع اللسان وكتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير).

(٢) في بعض النسخ: «هم شهود الزُّور لأنهم يؤدونها والحالُ لم تُشهدهم ولا المشهود عليهم».

و[عِزِينَ] جمع عِزَة، قال بعض النحاة: أَصلها عِزْوَة، وقال آخرون منهم، أَصلها عِزْهة وجمعت بالواو والنون عِوَضاً مما انحذف منها نحو سنة وسنون، ومعنى العِزَة: الجمع اليسير، فكأَنهم قالوا: ثلاثةً ثلاثةً، أَو أَربعةً أَربعةً، ومنه قول الراعي:

أَخَليفَـةَ الـرَّحْمـنِ إِنَّ عَشِيـرَتـي ... أَمْسَـى سَـراتُهُـمُ إِلَيْـكَ عِـزِينـاً[١]

وقال أَبو هريرة رضي الله عنه: خرج النبي ﷺ على أَصحابه وهم حِلَقٌ متفرقون فقال: «ما لي أَراكم عِزِينَ»[٢]؟

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ نزلت لأَن الكفار قالت: إن كانت ثَمَّ آخرةٌ وجَنَّة فنحن أَهلها وفيها؛ لأَن الله تعالىٰ لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إِلاَّ لرضاه عنا. وقرأَ السبعة، والحسن، والجمهور: [يُدْخَلَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ على البناءِ للمفعول، وقرأَ المفضل عن عاصم، وابنُ يَعْمر، وأَبو رجاءٍ، وطلحة: [يَدْخُلَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] رَدٌّ لقولهم وطمعهم، أَي: الأَمر ليس كذلك.

ثم أَخبر تعالىٰ عن خلقهم من نطفة قذرة، وأَحال في العبارة عنها على علم الناس، أَي: مَنْ خُلق من ذلك فليس بنفس خَلْقه يُعطى الجنة، بل بالأَعمال الصالحة إِن كانت، وقال قتادة في تفسيرها: إِنما خُلقتَ من قَذَرٍ يا ابْنَ آدم فاتَّق الله تعالىٰ، وقال أَنَسٌ: كان أَبو بكر رضي الله عنه إِذا خطبنا ذكر مَنَاتِنَ ابنِ آدم، ومُرُورَهُ في مجرى البول مرتين، وكونَهُ نطفة في الرَّحِمِ ثم عَلَقة ثم مُضْغة إِلى أَن يخرج فيتلوَّث في نجاستِه طفلاً، فلا يُقلع أَبو بكر رضي الله عنه حتى يتقذَّر أَحدنا نفسه.

---

(١) الشاعر هو حُصَيْن بن معاوية، من بني نُمَير، وكان يقال لأَبيه في الجاهلية: معاوية الرئيسُ، وكان سيداً، وإِنما قيل له: «الراعي» لأنه كان يصف راعي الإِبل، وقيل: سُمِّي «راعي الإِبل» ببيت قاله. والسرَاةُ: الأَشراف الكرام، وهي جمع سَرِيٍّ التي تعطي معنى المروءة والسخاء والشرف، وَعِزِينَ: متفرقون جماعات جماعات. وهي موضع الشاهد في البيت.

(٢) أَخرجه ابن مردويه عن أَبي هريرة، وأَخرج عبد بن حميد عن عُبادة بن أَنس قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فقال: «ما لي أراكم عزين حِلَقاً حِلَق الجاهلية، قعد رجل خلف أَخيه»، وأَخرج عبد بن حميد، ومسلم، وأَبو داود، والنسائي، وابن مردويه مثلَه عن جابر بن سمرة. (الدر المنثور).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قرأ الجمهور: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ وذلك على أن تكون [لا] زائدة، أو على أن تكون رداً لفعل الكفار وقولهم، ثم يقع الابتداءُ بالقَسَم، وقرأ ابن كثير: [فَلأُ قْسِمُ] دون ألف مفردة.

و«المشارقُ والمغارب» هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيثُ تَغْرُب لأنها مختلفة عند التفصيل، فلذلك جمع، وقرأ عبد الله بن مسلم، وابن محيصن: [بِرَبِّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ] على الإفراد، ومتى ورد المشرق والمغرب على الإفراد فهي عبارة عن موضع الشروق وموضِع الغروب بجملته وإن كان يتفصل، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن طرفي موضع الشروق وطرفي موضع الغروب. وأقسم الله تعالىٰ في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن تُبَدِّلَ خيراً من ذلك العالم، وأنه لا يسبقه شيءٌ إلى إرادته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ ﴾ الآية وعيدٌ، وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية السيف، ورُوي عن ابن كثير أنه قرأ: [يَلْقَوْا] بغير ألف، وهي قراءَة أبي جعفر، وابن محيصن.

و﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ ﴾ بدل من قوله تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَهُمُ ﴾، وقرأ الجمهور: (يَخْرُجُون) بفتح الياءِ وضمِّ الراءِ، وروى أبو بكر عن عاصم ضمَّ الياءِ وفتحَ الراءِ.

و«الأَجْداثُ»: القبور. و«النُّصُب»: ما نُصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من عَلَم أو بناءِ أو صَنَم لأهل الأصنام، وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها: الأنصاب، ويقال لشبكة الصائد: نُصُب، وقال أبو العالية: ﴿ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴾ معناه: إلى غايات يستبقون، وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم: (نَصْب) بفتح النون[1]، وهي قراءَة أبي جعفر، ومجاهد، وشيبة، وابن وثاب، والأعرج، وقرأ

(١) مع سكون الصاد، نص على ذلك كل من القرطبي وأبي حيان في تفسيريهما.



الحسن، وقتادة ـ بخلاف عنهما ـ: [نُصْب] بضم النون[1]، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: [نُصُب] بضم النون والصاد، وهي قراءة الحسن عن أَبي العالية، وزيد بن ثابت، وأَبي رجاءٍ. وقرأ مجاهد، وأَبو عمران الجوني: [نَصَب] بفتح النون والصاد.

و[يُوفِضُونَ] معناه: يسرعون، ومنه قول الراجز:

لأَنْعَتَــنْ نَعـامَــةً مِيفــاضــا خَرجاءَ ظَلَّت تَطْلُبُ الإِضاضَا[2]

و[خاشِعَةً] نصب على الحال ومعناه: ذليلةً منكسرة، و[تَرْهَقُهُمْ] معناه: تظهر عليهم وتُلِحُّ وتُضَيِّق نفوسهم، ومن هذه اللفظة «الْمُرَهَّق» من السادة بحوائج الناس[3]، و«المُرْهَقُ» بالدَّيْن[4]، «وخُلُقٌ فيها رَهَق»، أَيْ إِسراعٌ إِلى الناس، و«سَيْفُ فلان فيه رَهَق»، ومنه «مراهقة الأَحلام»، و«إِرهَاقُ الصلاة» أي مزاحمة وقتها[5].

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) مع سكون الصاد، قال ذلك أَبو حيان في «البحر المحيط».

(٢) هذا الرجز في اللسان (أَضَضَ ـ وَوَفَضَ)، واستشهد به أبو حيان الأندلسي في «البحر»، وكذلك ذكره الفراء في «معاني القرآن». ولم ينسب أحدٌ هذا الرجز، والنعامةُ الميفاضُ: المُسْرِعةُ، والخَرْجَاءُ هي التي فيها لونان سوادٌ وبياضٌ، وقيل: التي لون سوادها أكثر من بياضها يقال: اخْرَجَّت النعامةُ فهي خَرجاء، والإضاضُ هو الملجأ، قال الفراءُ: «تطلب الإضاضا» معناه: تطلب موضعاً تدخل فيه وتلجأ إليه، وفي الطبري واللسان «تغدو» بدلاً من «تطلب». يصف الشاعر النعامة بأنها سريعة، وبأن لونها بين السواد والبياض، وبأنها خائفة تطلب ملجأً تلجأُ إليه.

(٣) قال في اللسان: الْمُرَهَّقُ: الذي يغشاهُ السؤالُ والضِّيفان، قال ابن هَرْمة:

خَيْـرُ الـرِّجـال الْمُـرَهَّقُـونَ كَمَـا خَيْـرُ تـلاعِ الْبـلادِ أَكْلَـؤُهَـا

(٤) وفي اللسان أيضاً: رَهقَه دَيْنٌ فهو يَرْهَقُه إذا غَشِيَهُ.

(٥) وفيه أيضاً: «وأَرْهَقْنَا الصلاةَ»: أَخَّرناها حتى دنا وقتُ الأُخرى، وفي حديث ابن عمرو: «وأرهقنا الصلاةَ ونحن نتوضأُ» أَي أخرناها عن وقتها حتى كدنا نُلحقها بالصلاة الأُخرى، ورهِقَتْنا الصلاةُ رَهَقاً: حانت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة نوح

وهي مكية بإجماع من المتأولين، قال أُبَيُّ بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

نوحٌ عليه السلام هو نوح بن لامك[(٢)]، وقد مرَّ ذكره وذكر عمره ﷺ، وصُرف «نوحٌ» مع عُجمته وتعريفه لِخِفَّته وسكون الوسط من حروفه.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، يحتمل أَن تكون [أَنْ] مفسِّرة لا موضع لها من الإِعراب، ويحتمل أَن يكون التقدير: بأَن أَنذر قومك، وهي ـ على هذا ـ في موضع نصب عند قوم من النحاة، وفي موضع خفض عند آخرين، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [إِلَى قَوْمِهِ أَنْذِرْ قَوْمَكَ] دون «أَن»، و«العذاب الذي تُوُعِّدوا به» يحتمل أَن يكون عذاب الدنيا، وهو الأَظهر والأَليق بما يأَتي بعد، ويحتمل أَن يكون عذاب الآخرة.

وقرأَ جمهور السبعة: [أَنُ اعْبُدوا] بضم النون من [أَن] إِتباعاً لضمة الباءِ وتَرْكاً لمراعاة الحائل لخفَّة السكون، فهو كأَن ليس ثَمَّ حائل، وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَبو عمرو ـ في رواية عبد الوارث ـ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ بكسر النون، وهذا هو الأَصل في التقاءِ

---

(١) لم أَقف عليه.

(٢) هو نوح بن لامك بن مُتَوَشْلخ بن أَخنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد بن مهلايل بن أَنوش بن قَينان بن شيث بن آدم عليه السلام. هكذا ذكر المفسرون.



الساكنين من كلمتين، و[يَغْفِرْ] جواب الأمر، وقوله سبحانه: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال قوم: [مِنْ] زائدة، وهذا نحوٌ كوفي، وأَما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما زيادتها في الواجب، وقال قوم: هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأَنه ليس هنا جنس يُبَيَّن، وقال آخرون: هي بمعنى «عن»، وهذا غير معروف في أَحكام «مِنْ»، وقال آخرون: هي لابتداءِ الغاية، وهذا قول يَتَّجه، كأَنه يقول: يبتدىءُ الغُفران من هذه الذنوب العظام التي لهم، وقال آخرون: وهي للتبعيض، وهذا عندي أَبين الأَقوال، وذلك أَنه لو قال: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لعَمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأَخر عن إِيمانهم، والإِسلام يجبُّ ما قبله، فهي بعضٌ من ذنوبهم، فالمعنى: يغفر لكم من ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أَراد: يغفر لكم من ذنوبكم المهمَّ الموبق الكبير؛ لأَنه أَهم عليهم، وبه ربما كان اليأسُ عن الله تعالىٰ قد وقع لهم، وهذا قولٌ مُضَمَّنه أَن [منْ] للتبعيض، والله تعالىٰ الموفق. وقرأَ أَبو عمرو: [يَغْفِر لَكُمْ] بالإِدغام، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه؛ لأَن الراءَ حرف مكرر فإِذا أُدغم في اللام ذهب التكرير واختلَّ المسموع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾ مما تَعَلَّلت المعتزلة به في قولهم: «إِن للإِنسان أَجلين»، وذلك أَنهم قالوا: لو كان واحداً مُحَدَّداً لما صحَّ التأْخير إِن كان الحدُّ قد بلغ، ولا المعاجلة إِن كان الحدُّ لم يبلغ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس لهم في الآية تعلُّق؛ لأَن المعنى أَن نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم مِمَّن يؤخر أَو ممن يعاجل، ولا قال لهم إِنكم تؤخرون عن أَجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأَزل أَنهم إِمَّا مِمَّن قُضي له بالإِيمان والتأْخير، وإِمَّا مِمَّن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة، ثم تشدَّد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾.

وقد حكى مكيٌّ القول بالأَجلين ولم يُقَدِّرْ قدره. وجواب [لَوْ] مُقدَّر يقتضيه المعنى، كأَنه قال: فما كان أَحزمكم وأَسرعكم إِلى التوبة لو كنتم تعلمون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ



إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه، وقوله: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ عبارة عن استمرار دعائه وأنه لم يَنِ فيه قط. ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول لابنه: يا بني احذر هذا الرجل فإن أبي قد حذرني إياه ويقول إنه مجنون. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [دُعَائِيَ] بالهمز وفتح الياءِ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بسكون الياءِ دون همز، وروى شبل عن ابن كثير: [دُعَايَ] بنصب الياءِ دون همز مثل «هدايَ»، وقرأ عاصم أيضاً، ويعقوب، وسلام بهمزة وياءٍ ساكنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ معناه: ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران، وقوله سبحانه: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم وشدة رفضهم لأقواله ودعائه، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾، ومعناه: جعلوها أغطية على رؤوسهم. و«الإِصرارُ»: الثبوت على معتقد مّا، وأكثر استعماله في الذنوب.

ثم كرر ﷺ صفة دعائه لهم بياناً وتوكيداً، و[جِهاراً] يريد علانيةً في المحافل، و«الإِسرارُ» ما كان من دعائه الأفراد بينه وبينهم على انفرادٍ، وهذا غاية الجد. وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ. . . يُرْسِلِ السَّماءَ﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أُمة، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعةً ثم انصرف، فقال له قوم: ما رأيناك اسْتَسْقيت يا أمير المؤمنين، فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجاديح السماءِ[1]، ثم قرأ هذه الآية رضي الله عنه، وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له: استغفر الله تعالىٰ، وشكا إليه آخر الفقر فقال له: استغفر الله سبحانه، وقال له آخر: ادع الله تعالىٰ أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله تعالىٰ، فقيل له في ذلك فنزع بهذه الآية. والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو

(١) مجاديحُ السماء: أنواؤها، يقال: أرسلت السماءُ مجاديحها، والمفرد: مِجْدح وهو نجم من النجوم كانت العرب تزعم أنها تمطر به، وعمر رضي الله عنه أراد بقوله أن يُبْطل الأنواءَ وأن يكذب بها، وأن يقول لهم: إن الاستغفار هو الذي يُستسقى به وليست النجوم.



عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإِخلاص والصدق في الأَقوال والأَعمال، وكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه.

ورُوي أَن قوم نوح عليه السلام كان قد أَصابتهم قحوط وأَزمة فلذلك بدأَهم في وعده بأَمر المطر ثم ثنَّى بالأَموال والبنين، قال قتادة: لأَنهم كانوا أَهل حب للدنيا وتعظيم لأَمرها، فاستدعاهم الله تعالىٰ إِلى الآخرة من الطريق التي يحبونها. و«مِدْرار» مفعال من «الدَّرِّ» كمذكار وميقات، وهذا البناءُ لا تلحقه هاءُ التأَنيث.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

وعدهم بالأَموال والبنين والجنات والأَنهار لمكان حبهم للدنيا، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ـ فقال أَبو عبيدة وغيره: معناه: تخافون، ومنه قول الهذلي:

إِذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا ... وَخَالَفَها في بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلِ[1]

قالوا: و«الوَقَارُ» بمعنى العظمة والسلطان، فكأَن الكلام ـ على هذا ـ وعيدٌ وتخويفٌ. وقال بعض العلماءِ: [تَرْجونَ] على بابها في الرجاءِ، وكأَنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله تعالىٰ وللقائه، و[وَقَاراً] يكون ـ على هذا التأْويل ـ منهم، كأَنه

(١) هذا البيت لأَبي ذُؤَيب الهُذلي، واسمه خُويلد بن خالد بن مُحَرِّث، وهو من قصيدته المشهورة (أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ)؟

وفيه يصف الشاعر كيف يجمع الرجل الماهر عسل النحل من أعلى الجبل. ومعنى (لَم يَرج) لم يخف، وهو موضع الاستشهاد هنا، وخَالَفَهَا: جاء إلى عَسَلِها وهي ترعى بعيداً، و«نُوب» معناها: تنتاب المرعَى فتأكل ثم ترجع فتصنع العسل، و«عوامل» تعمل العسل، وكان الشاعر يتحدث عن حبيبته فقال: إن حديثها مثل العسل الممزوج باللبن، ثم بدأ يتحدث عن العسل، وأن النحل تعيش في أعلى قمة في الجبل فلا يستطيع الوصول إليها إلا حاذق ماهر، يصعد إليها على الحبال، وإذا لسعته النحل فإنه لا يخاف هذا، وهو يتحين الوقت الذي تخرج فيه إلى المرعى بعيداً فيأتي إلى عسلها ليجمعه من بيت كل من فيه يعمل.



يقول: تُؤَدَةً منكم وتمكُّناً في النظر؛ لأَن الكفر مُضَمَّنه الخفة والطيش وركوب الرَأس.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد: هي إشارة إلى التدريج الذي للإنسان في بطن أُمِّه من النطفة والعلقة والمضغة، وقال جماعة منْ أَهل التأْويل: هي إشارة إلى العبرة في اختلاف أَلوان الناس وخَلْقهم وخُلُقهم ومِلَلِهِم، و«الأَطوارُ»: الأَحوال المختلفة، ومنه قول النابغة:

فَـإِنْ أَفـاقَ فَقَـدْ طَـارَتْ عَمَـايَتُـهُ ... وَالْمَـرءُ يُخْلَـقُ طَـوْراً بَعْـدَ أَطْـوَارِ[1]

وقرأَ الجمهور: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالتَّاءِ، وقرأَت فرقة بالياءِ على فعل الغائب، و[طِبَاقاً] قيل: هو مصدر، أَي مطابقة، جعل كل واحدة طبقاً للأُخرى، ونحوه قول امرىءِ القيس:

. . . . طَبَّــقَ الأَرْضَ تَحَــرَّى وَتَــدِرْ[2]

وقيل: هو جمع «طبق»، وهو نعت لـ «سَبْع»، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [طباقٍ] بالخفض على النعت لـ [سَمَوات]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ ساغ ذلك لأن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع، ويُروى أَن القمر في السماءِ الدنيا، وقال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن الشمس والقمر أَقفاؤهما إلى الأَرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماءِ، وهذا الذي تقتضيه لفظة السراج، وقيل: إن الشمس في السماءِ الخامسة، وقيل: في الرابعة، وقال عبد الله بن

(١) هذا البيت من قصيدة نابغة بني ذبيان التي بدأها بقوله: (عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ)، يصف بيت «نُعْم» حبيبته بعد أن رحلت عنه ولم تترك غير الذكريات الحلوة، والضمير في (أفاق) يعود على قلبه، والعَمَاية: الضَّلال، يقول: لَولاَ ما كان بيني وبين نُعْم من صلات ومحبة لأقصر قلبي عن حبها، فإن أَفاق من الهوى فلا عجب في ذلك فقد طالت ضلالته، والمرءُ يمكن أن يتبدل وتتغير أحواله، فهو كقول الآخر: (صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله).

(٢) هذا عَجُز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يصف فيها مطراً دام عليهم يوماً وليلة، والبيت بتمامه:

دِيَمــــةٌ هَطْـــلاءُ فيهـــا وَطَـــفٌ ... طَبَّـــقَ الأَرْضَ تَحَـــرَّى وَتَـــدِرْ

والدِّيمة: المطر الذي دام يوماً وليلة، أو يدوم طويلاً في سكون، وهَطْلاء: تتابع ماؤُها متفرقاً، والوَطَفُ: القُرْب من الأرض مع كثرة الماء، فالسحابة التي ينزل منها المطر قريبة من الأرض وغزيرة الماءِ، وطَبَّق الأرْضَ: عمها وشملها كلها، وتحرَّى: تقصد حِرَاهم وهو الفناءُ، ومعنى تَدِر: تعتمد المكان وتثبت فيه.



عمرو: هي في الشتاءِ في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ استعارة، من حيث أَخذ آدم عليه السلام من الأَرض ثم صار الجميع نَابتاً منه، وقوله: [نَباتاً] مصدر جار على غير المصدر، والتقدير: فَنَبَتُّم نباتاً، و«الإِعادة فيها» هي بالدفن فيها الذي هو عُرف البشر، و«الإِخراجُ» هو بالبعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاءِ.

وقوله تعالىٰ: [بِسَاطاً] يقتضي ظاهره أَن الأَرض بسيطة وغير كُرويَّةٍ، واعتقاد أَحد الأَمرين غير قادح في الشرع بنفسه اللهم إِلاَّ أَن يترتب على القول بالكرويَّة نظر فاسدٌ، وأَما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالىٰ، وهو الذي لا يلحق به فساد أَلبَتَّةَ، واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماءِ البحر المحيط بالمعمور فقال: لو كانت الأَرض كرويَّة لما استقر الماءُ عليها. و«السُّبُلُ»: الطُّرق، و«الفجاجُ»: الواسعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

المعنى: فلما لم يطيعوا وييئس نوح عليه السلام من إِيمانهم قال نوح: ربِّ إِنهم عصوني واتَّبعوا أَشرافهم وغُواتهم، فعبَّر عنهم بأَن أَموالهم وأَولادهم زادتهم خساراً، أَيْ خُسراناً.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ في رواية خارجة عنه ـ: [وَوُلْدُهُ] بضم الواو وسكون اللام، وهي قراءة ابن الزبير، والحسن، والأَعرج، والنخعي، ومجاهد. وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر: [وَوَلَدُهُ] بفتح الواو واللام وهما بمعنى واحد كبُخْل وبَخَل، وهي قراءة أَبي عبد الرحمن، والحسن، وأَبي رجاءٍ، وابن وثاب، وأَبي جعفر، وشيبة، وقرأَ: [وَوِلْدُهُ] بكسر الواو الجحدريُّ، وزرٌّ، والحسن، وابن أَبي إِسحاق، وطلحة، قال أَبو عمرو: «وُلْدٌ» بضم الواو وسكون اللام: العشيرة والقوم، وقال أَبو حاتم: يمكن أَن يكون «الوُلْد» بضم الواو جمع «الوَلَد» وذلك كخُشْب وخَشَب، وقال حسَّان بن ثابت:

يــا بِكْــرَ آمِنَــةَ الْمُبَــارَكِ ذِكْــرُهُ مِـنْ وُلْـدِ مُحْصَنَـةٍ بِسَعْـدِ الأَسْعُـدِ[١]

وقرأ جمهور الناس: (كُبَّاراً) بشد الباءِ، وهو بناءُ مبالغة نحو حسّان، قال عيسى: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

والمــرءُ يُلْحِقُــهُ بِفتيــانِ النَّــدَى خُلُـقُ الْكَـرِيـمِ وَلَيْـسَ بـالْـوُضَّـاءِ[٢]

بضم الواو، وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ، وعيسى بن عمر: [كُبَاراً] بتخفيف الباءِ، وهو بناءُ مبالغة إِلاَّ أَنه دون الأَول، وقرأَ ابن مُحَيْصِنٍ ـ فيما روى عنه أَبو الإِخريط وهب بن واضح ـ: [كِباراً] بكسر الكاف، قال ابن الأَنباري: هو جمع كبير، فكأَنه جعل [مَكْراً] مكان ذُنوب وأَفاعيل ونحوه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ إِخبارٌ عن تواصيهم بأَصنامهم على العموم، ما كان منها مشهور المكانة، وما كان منها يختص بواحد من الناس، ثم أَخذوا يَنُصُّون على المشهور من الأَصنام، وهذه الأَصنام رُوي أَنها أَسماءُ رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صوَّرهم أَهل ذلك العصر من حجر وقالوا: ننظر إِليها فنذكر أَفعالهم، فهلك ذلك الجيل وكثُر تعظيم الآخر لتلك الحجارة ثم كذلك حتى عُبدت ثم انتقلت تلك الأَصنام بأَعيانها ـ وقيل: بل بالأَسماءِ فقط ـ إِلى قبائل من العرب، فكانت «وَدٌّ» في كلب بدُومَة الجندل، وكانت «سُوَاعُ» في هُذَيْل، وكانت «يَغُوثُ» في مُراد، وكانت «يَعُوقُ» في هَمَدان، وكانت «نَسْرُ» في ذي الكَلاَعِ مِنْ حِمْيَر.

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان في رثاء النبي ﷺ، ويقول في مطلعها:

مَــا بــالُ عَيْنــي لاَ تَنَــامُ كَــأَنَّمَــا كُحِلَــت مــآقيهــا بِكُحْــلِ الأَرْمَــدِ

وآمنة هي أم النبي عليه الصلاة والسلام، وهي بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، والقصيدة في الديوان وفي سيرة ابن هشام والرواية فيهما: «المباركُ بِكْرها»، وكذلك ورد فيها: «ولدته محصنة» بدلاً من «من وُلْدِ مُحْصَنَة»، وعلى هذا فلا شاهد فيه. والْمُحْصَنَةُ: العفيفة، وفي القرآن الكريم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ والأَسْعُدُ: جمع سَعْد، وهو اسم لطائفة معروفة من النجوم سُمِّي كل واحد منها سَعْداً، وأُضيف أو وُصف بما يميزه عن غيره، ويقال فيها «السُّعود»، كذلك يقال: «سَعْد السُّعُود»، والشاعر يصف الرسول ﷺ بأنه نجم هذه النجوم.

(٢) هذا البيت لأبي صَدَقَةَ الدُّبَيْري، وهو في اللسان ـ وضأ ـ، والوضاءة هي الحسن والنظافة والبهجة، يقال: هذا رجل وضيء، وهو من قوم أوضياء وَوِضاء وَوُضَّاء، وجمع وُضَاء: وُضَّاءون، ومعنى البيت أن الإنسان ينسب إلى الكرام ويكون منهم بالخلق الكريم لا بالحسن والنظافة.

(٣) يعني أن قوله تعالىٰ: ﴿مَكْراً﴾ معناه «ذنوب»، ولهذا جاء وصفه بالجمع وهو ﴿كِباراً﴾ على هذه القراءة.

وقرأ نافع وحده ـ ورُويت عن عاصم ـ: [وُدًّا] بضم الواو، وقرأ الباقون(١)، والأَعمش، والحسن، وطلحة، وشيبة، وأَبو جعفر ـ بخلاف عن الثلاثة ـ: [وَدًّا] بفتح الواو، قال الشاعر:

حَيَّــاكَ وَدٌّ فَــإِنَّــا لا يَحِــلُّ لَنَــا ... لَهْوُ النِّساءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا(٢)

فيقال: إنه أَراد ذلك الصنم، ويروى بضم الواو وفتحها.

وقرأ الأَعمش: [ولا يغوثاً ويعوقاً] بالصرف، وذلك وهْم لأَن التعريف لازم ووزن الفعل. وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ هو إِخبار نوح عليه السلام عنهم، وهو منقطع مما حكاه عنهم، وهو منقطع مما حكاه عنهم، والمعنى: وقد أَضل هؤلاءِ القائلون كثيراً من الناس والأَتباع والعوام، ثم دعا عليهم إِلى الله تعالىٰ بأَلاَّ يزيدهم إِلاَّ ضلالاً، وذكر الظَّالمين لتعُمَّ الدعوةُ كل من جرى مجراهم. وقال الحسن ـ في كتاب النقاش ـ: أَراد بقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الأَصنام المذكورة، وعبَّر عنها بضمير من يعقل من حيث يعاملها جمهور أَهلها معاملة من يعقل ويسند إِليها أَفعال العقل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ ابتداءُ إِخبار من الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، أَي إِن دعوة نوح عليه السلام أجيبت فآلَ أَمْرُهم إِلى هذا، و[ما] في قوله تعالىٰ: [مِمَّا] زائدة، فكأَنه تعالىٰ قال: من خطيئاتهم أُغرقوا، وهي لابتداءِ الغاية، وقرأَ [مما خَطِيئَتِهِمْ] على الإِفراد الجحدريُّ والحسن، وقرأَ أَبو عمرو وحده، والحسن، وعيسى، والأَعرج، وقتادة ـ بخلاف عنهم ـ: [مما خَطَاياهُمْ] على تكسير الجمع، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ يعني جهنم، وعبَّر عن ذلك بفعل المضي من حيث الأَمر متحقق، وقيل: أَراد عرضهم على النار غُدُوًّا وعشِيًّا عبَّر عنه بالإِدخال، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا﴾ أَي: لم يجد المغرقون أَحداً سوى الله تعالىٰ ينصرهم ويصرف عنهم بأَس الله.

---

(١) أي الباقون من السبعة المعروفين.

(٢) وَدٌّ هو الصَّنَم الذي لقوم نوح ثم صار في قبيلة كلب بدومة الجندل، وقيل: كان لقريش صنم يدعونه وُدًّا، ومنه سُمِّيَ «عَبْدُ وُدٍّ»، والكلمة تنطق بفتح الواو وبضمها، وقد تقال بالألف «أُدٌّ»، ومعنى (إن الدِّين قد عَزَم) أن أصحاب الدِّين قد عزموا، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي عَزَم أصحابه، وقد يكون المعنى: جدَّ الأمر وجدَّ الدين، يقول الشاعر بعد أن حَيَّا الصنم: إن الدِّين قد جَدَّ بنا وألزمنا أن نبتعد عن لهو النساءِ.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

رُوي عن محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وابن زيد أَنَّ نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إِلاَّ بعد أَن أَخرج الله تعالىٰ كل مؤمن من أَصلابهم، وأَعقم أَرحام النساءِ قبل العذاب بسبعين سنة، قال قتادة وبعد أَن أَوحى إِليه أَنه لن يُؤمن من قومك إِلا من آمن، وقد كان قبل ذلك طامعاً فيهم حدباً عليهم، وفي حديث النبي ﷺ أَنه ربَّما ضربه ناسٌ منهم أَحياناً حتى يُغشى عليه فإِذا أَفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإِنهم لا يعلمون[1]. و«دَيَّار» أَصله دَيْوارٌ، وهو فَيْعال من الدوران، أَي من يجيء ويذهب، يقال منه: دَوَّارٌ ووزنه فعَّال، ودَيَّارٌ ووزنه فَيْعالٌ وأَصله دَيْوَارٌ، وهذا كالْقَوَّام والقَيَّام.

وقرأَ جمهور الناس: (وَلِوَالِدَيَّ)، وقرأَ أُبَيُّ بن كعب: [ولأَبَوَيَّ]، وقرأَ سعيد بن جبير: (وَلِوَالِدِي) بكسر الدال، يخص أَباه بالدعوة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكْفُر لنوح أَبٌ ما بينه وبين آدم عليهما السلام، وقرأَ يحيى بن يَعْمَر، والجحدريُّ: [وَلِوَلَدَيَّ] بفتح اللام والدال وشدِّ الياءِ مفتوحة، وهي قراءة النَّخَعي، يخصُّ بالدعاءِ ابنيه، وبَيْتُه هو المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقال ابن عباس أَيضاً: بَيْتُه شريعته ودينه، استعار لهما بَيْتاً، كما يقال: قُبَّة الإِسلام وفُسْطاطُ الدين، وقيل: أَراد سفينته، وقيل: أَراد داره، وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تعميم بالدعاءِ لمؤمني كل ملَّة، وقال بعض العلماءِ: إِن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأَغرق بدعوته أَهل الأَرض الكفار لَجَدير أَن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين. و«التَّبارُ» الهلاك وَذَهاب الرسم، وقرأَ حفصٌ عن عاصم، وهشامٌ وأَبُو قرة عن نافع: [بَيْتِيَ] بتحريك الياءِ، وقرأَ الباقون بسكونها.

تم تفسير سورة نوح والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والمرتدين، ومسلم في الجهاد، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما جاء في البخاري عن شقيق، عن عبد الله: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدْمَوهُ فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، ولم يصرح بأنه نوح عليه السلام، بل جاءَ في كل هذه المراجع: (ويحكي نبياً من الأنبياءِ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الجنّ

وهي مكِّيَّةٌ بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ من «أَوْحَى يُوحِي»، وقرأ أبو إياس جُوَيَّةُ بن عائذ: [قُلْ وَحِيَ] من «وَحَى يَحي»، و«وَحَى» و«أَوْحَى» بمعنى واحد، وقال العجَّاج:

وَحَى لَهَا الْقَرارَ فَاسْتَقَرَّتِ[1]

وقرأ أيضاً جُوَيَّة فيما روى عنه الكسائيُّ ـ: [قُلْ أُحِيَ]، أَبدلت الواو همزة كما أَبدلوها في وسادة وإسادة، وغير ذلك، وكذلك قرأ ابن أَبي عبلة[2]، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل ألف في السورة من «أَنَّ» و«أَنَّه» إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، وحكى عن أَبي عمرو أنه كان يكسر من أَوَّلها إِلى قوله تعالىٰ: ﴿وأَنْ لَوِ

(١) هذا البيت من قصيدة قالها العجاج في وصف الخالق سبحانه وتعالىٰ وأعماله ويوم الحساب وأهواله، وقيل إنه أنشدها أمام أبي هريرة رضي الله عنه، وفيها يقول:

الْحَمْـــدُ لله الَّـــذي تَعَلَّـــتِ	بِـــأَمْـــرِه السَّمـــاءُ واسْتَقَلَّـــتِ
بِـــإِذْنِـــهِ الأَرْضُ ومـــا تعنَّـــتِ	أَرْسَـــى عَلَيْهَـــا بـــالجِبـــالِ الثُّبَّـــتِ
وَحَـــى لَهَـــا الْقَـــرَارَ فَـــاسْتَقَـــرَّتِ	رَبُّ الْبِـــلادِ والْعِبـــادِ الْقُنَّـــتِ

فقال له أبو هريرة: إنك تؤمن بيوم الحساب، هذا والعجاج من شعراء النصرانية.

(٢) قال أبو الفتح في «المحتسب»: «وأصله «وُحِيَ»، فلما انضمت الواو ضماً لازماً همزت، على قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾... وتقول على هذا: أُحِيَ إليه فهو مُوحِيٌّ إليه، فتَرُدُّ الواو لزوال الضمة عنها، ومثله: أُعِدَ فهو موعود، وأُرِثَ فهو مَوْرُوثٌ».



اسْتَقامُوا﴾ فإنه كان يفتح هذه وما بعدها إلى آخر السورة، فعلى ما حكى يلزم أن تكون الألف مكسورة في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، وليس ما ذَكَر بثابت. وذكر أبو عَليّ الفارسي أن ابن كثير، وأبا عمرو فتَحَا أربعة أحرف من السورة وكَسَرا غير ذلك ـ ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ ـ وأن نافعاً وعاصماً ـ في رواية أبي بكر والمفضل ـ وافقا في الثلاثة الأولى وكَسَرَا ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ مع سائر ما في السورة، وذكر أن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرؤون كل ما في السورة بالفتح إلاَّ ما جاءَ بعد قولٍ أو فاءِ جزاءٍ، وكذلك حفص عن عاصم، فترتب إجماع القراءِ على فتح الألف من ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا﴾، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾، وذكر الزهراوي عن علقمة أنه كان يفتح الألف في السورة كلها.

واختلف الناسُ في الفتح من هذه الألفات وفي الكسر اختلافاً كبيراً يطول حصره وتقصِّي معانيه ـ قال أبو حاتم: أما الفتح فعلى «أُوحِيَ» فهو كله في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، وأما الكسر فحكاية وابتداءٌ وبعد القول.

وهؤلاءِ النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله ﷺ يقرأُ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ[1]، وقد تقدم قصصهم في سورة «الأحقاف» في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[2]، وكان سبب ذلك حراسة السماءِ من استراق السمع.

وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ الآيات هو خطاب منهم لقومهم الذين تولَّوْا إليهم منذرين، و﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ معناه: ذو عجب؛ لأن العجب يقع من سامع القرآن لبراعته

---

(١) أخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم، والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في «الدلائل»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: أُحيل بيننا وبين خبر السماءِ وأُرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماءِ إلا شيءٌ حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماءِ، فانصرف أولئك الذين ذهبوا نحو تهَامَةَ إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماءِ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا، إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نُشرك بربنا أحداً، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإنما أُوحي إليه قول الجن.

(٢) من الآية (٢٩).



وفصاحته ومُضَمَّناته، وليس نفس القرآن هو العجب، وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ بضم الراءِ وسكون الشِّين، وقرأَ عيسى الثقفي: [إلى الرَّشَدِ] بفتح الراءِ والشين، ومن كسر الهمزة من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ فعلى القطع، وتعطف الجملة على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، ومن فتح الأَلف من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ فقد اختلفوا في تأَويل ذلك، فقال بعضهم: هي عطف على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، فيجيءُ على هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ ممَّا أُمِر أَن يقول إِنَّه أُوحي إِليه، وليس يكون من كلام الجن، وفي هذا قلق، وقال بعضهم: بل هي عطف على الضمير في [بِهِ]، كأَنهم يقولون: فآمنا به وبأَنه تعالىٰ جَدُّ ربنا، وهذا القول أَبْيَن في المعنى لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إِعادة الخافض، وذلك لا يحسن.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم وإِضافته إِلى «الرَّبِّ» تعالىٰ، وقال جمهور المفسرين: معناه: عظمته، وروي عن أَنس أَنه قال: كان الرجل إِذا قرأَ البقرة وآل عمران جَدَّ في أَعيننا، أَي عَظُم، وقال أَنس بن مالك، والحسن: جَدُّ رَبِّنَا: غناه، فهذا هو من الجَدِّ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وَلاَ ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[(١)] وقال مجاهد: ذِكْرُهُ، وقال بعضهم: جلالُه، وقال ابن عباس: قَدْرُه وَأَمْرُهُ، وهذا كله مُتَّجه لأَن الجَدَّ هو حظ المجدود من الخيرات والأَوصاف الجميلة، وَجَدُّ الله تعالىٰ هو الحظُّ الأَكمل من السلطان القاهر والطبقات العليّة والعظمة، ومن هذا قال اليهودي حين قدم رسول الله ﷺ المدينة: «يا بني قيلة هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون»[(٢)] أَي حظكم من الخيرات وبختكم، وقال علي بن الحسين، وأَبو جعفر الباقر، وابنه جعفر، والربيع بن أَنس: ليس لله تعالىٰ جَدٌّ، وهذه مقالة قوم جهلة من الجن جعلوا الله تعالىٰ جَدًّا، أَي أَبًا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان والاعتصام والقدر والدعوات، ومسلم في الصلاة والمساجد، وأبو داود في الصلاة والوتر والأدب، والترمذي في الصلاة، والنسائي في السهو، والدارمي في الصلاة، ومالك في القدر من موطئه، وأحمد في مسنده (٣/ ٨٧، ٤/ ٩٣، ٩٧، ٩٨، ١٠١)، ولفظه كما جاء فيه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: سمع الله لمن حمده، قال: «اللهم ربنا لك الحمد مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرض وَمِلْءَ ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثناءِ والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»، ومعنى ذلك أن من كان له حظٌّ في الدنيا لم ينفعه ذلك الحظُّ في الآخرة.

(٢) جاء هذا في حديث طويل عن هجرة النبي ﷺ ورواه البخاري في مناقب الأنصار عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.



أَب، قال كثير من المفسرين: هذا قول ضعيف، وقولهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ يدفعه، وكونهم على شريعة متقدمة ـ فيما روي ـ وفهمهم للقرآن، وقرأ محمد بن السميفع اليماني: [جَدَى ربِّنَا] وهو الجَدْوى والنَّفع، وقرأ عكرمة: [جَدٌّ رَبُّنَا] بفتح الجيم وضم الدال وتنوينها ورفع الرب، كأَنهم يقولون: تعالىٰ عظيم هو ربُّنا، و«رَبُّنَا» بدلٌ، والجَدُّ: العظيم في اللغة، وقرأ حميد بن قيس[1]: [جُدُّ رَبِّنَا] بضم الجيم، ومعناه: العظيم، حكاه سيبويه وَأَضَافَهُ إلى «الرَّبِّ» فكأَنه قال: «عَظِيم ربِّنَا»، وهذه إِضافة تجريد، يرفع النحاةُ هذا الاسم إِذا أُضيفت الصفة إِلى الموصوف، كما تقول: «جاءني كريمُ زَيْدٍ» تريد: زيدٌ الكريم، ويجري مجرى هذا عند بعضهم قول المتنبي:

. . . . عَظيــمُ الْمُلْــكِ فــي الْمُقَــل[2]

أَراد: المُلْك العظيم، قال بعض النحاة: وهذا المثال معترض لأَنه أَضاف إِلى جنس فيه العظيم والحقير، وقرأَ عِكْرِمة أَيضاً: [جَدًّا رَبُّنَا] بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع «الرَّبِّ»، نصب [جَدًّا] على التميز كما تقول: «تَفقَّأْتُ شحْماً[3] وتَصَبَّبْتُ عرقاً»، وقرأَ قتادة: [جِدًّا ربُّنا] بكسر الجيم وشدِّ الدال ورفع الرَّبِّ، فنصب [جدًّا] على الحال، ومعناه: حقيقة ومتمكناً، وهذا معنى غير الأَول، وقرأَ أَبو الدرداءِ: [تَعَالَى ذِكْرُ ربِّنَا]، وروي عنه «جلالُ رَبِّنا».

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾، لا خلاف أَن هذا قول الجن، وكَسْرُ الأَلف فيه

(١) هو حميد بن قيس المكيُّ الأعرج، أبو صفوان القارىء، قال عنه في «تقريب التهذيب» ليس به بأس، وعدَّه من الطبقة السادسة، وقال: إنه مات سنة ثلاثين، وقيل: بعدها.

(٢) هذا جزءٌ من بيت قاله المتنبي في قصيدة له وردت في الديوان تحت عنوان: (أنا الغريقُ فما خوفي من البلل)؟ وهي قصيدة قالها في مدح سيف الدولة، والبيت بتمامه:

مُطَـاعَـةُ اللَّحـظِ فـي الألحـاظِ مـالِكَـةٌ لِمُقْلَتَيْهَـا عَظِيـمُ الْمُلْـكِ فـي الْمُقَـلِ

واللحْظُ: النظر بجانب العين من الخارج، والمقلة: العين، يصف جمال عينيها ونظراتها فيقول: إن لَحظها مُطاعٌ بين ألحاظ النساء الحسان، إذا دعا أحداً إلى هواها أجاب مطيعاً، فهي مالكة بين ذوات القناع تعلوهن جمالاً ودلالاً، ومُقْلتاها مالكتان في دولة المُقَل لهما من دون هذه الدولة الأمر النافذ، وابن عطية يستشهد بأن كلمة «عظيم» صفة لكلمة «المُلْك» وهي مضافة إليها، فهي من إضافة الصفة إلى الموصوف، ولقد اعترض بعض النحاة على ذلك بما ذكر المؤلف.

(٣) الفَقْءُ: الشَّقُّ، يقال: فقأَ الثمرة فقأً: شقَّها، وتَفَقُّؤاً مصدر تَفَقَّأَ، ومعنى تَفَقَّأْتُ شحماً: امتلأتُ شحماً حتَّى تشقَّق جلدي.



أَبْيَن، وفتْحها لا وَجْه له إلا اتباع العطف على الضمير، كأَنهم قالوا: وآمَنَّا الآن بأَن سفيهنا كان قوله على الله شططاً، والسَّفيه المذكور قال جمهور من المفسرين: هو إبليس لعنه الله، وقال آخرون: هو اسم جنس لكلِ سفيه منهم، ولا محالة أَن إبليس صدر في السفهاءِ، وهذا القول أَحسن، و«الشَّطَطُ»: التَّعدي وتجاوز الحدِّ بقول أَو بفعل، ومنه قول الأعشى:

أَتَنْتَهُــونَ ؟ وَلاَ يَنْهَــى ذَوي شَطَــطٍ   كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيه الزَّيْتُ والفُتُلُ[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ هو كلام أُولئك النفر من الجن، لا يحتمل غير ذلك، وكسر الأَلف فيه أَبْين، والمعنى: إنا كنا نظن قبل إيماننا أَن الأَقوال التي كنا نسمع من إبليس وغواة الجن والإِنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب؛ لأَنا كنا نظن بهم أَنهم لا يكذبون على الله تعالىٰ ولا يرضون ذلك، وقرأَ جمهور الناس: (تَقُولَ) بالتاءِ وضم القاف مخففة، وقرأَ الحسن، والجحدري، وابن أَبي بكرة، ويعقوب: [تَقَوَّلَ] بفتح التاءِ والقاف والواو مشددة، والتَّقَوُّل خاص بالكذب، والقول عامٌ له وللصدق ولكن قولهم: [كَذِباً] يردُّ القول هنا إِلى معنى التَّقَوُّل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

هذه الأَلف من [أَنَّهُ] اختلف في فتحها وكسرها والكسر أَوجه، والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أَسفارها وتغرُّبها في الرعي وغيره، فإِن جمهور المفسرين رَوَوْا أَن الرجل كان إذا أَراد المبيت والحلول في وادٍ صاح بأَعلى صوته: يا عزيز هذا

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي بدأها بقوله: «وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرتَحِلُ»، وفيها يفتخر بشجاعة قومه ويخاطب يزيد بن مسهر الشيباني بأن يبلغ قومه بهذه الشجاعة وبأنهم فعلوا الأفاعيل في بني أسد وغيرهم، ثم يقول: إذا علمتم ذلك هل تنتهون عن قتالنا ؟ إنه لا يَنْهى العدو المتجاوز للحدود إلاّ الطعنُ القوي الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفتائل. والشَّطَطُ: تجاوز الحد والمبالغة في العدوان، وهو موضع الاستشهاد هنا.



الوادي إِني أَعوذ بك من السفهاءِ الذين في طاعتك، فيعتقد بذلك أَن الجنيَّ الذي بالوادي يمنعه ويحميه، فروي أَن الجن كانت تقول عند ذلك: ما نملك لكم ولا لأَنفسنا من الله شيئاً، قال مقاتل: أَول من تعوَّذ بالجن قوم من أَهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فَشَا ذلك في العرب، وروي عن قتادة أَن الجن كانت لذلك تحتقر بني آدم وتزدريهم لما يرون من جهلهم، فكانوا يزيدونهم مخافة، ويتعرضون للتخيُّل لهم بمنتهى طاقتهم، ويغوونهم في إِرادتهم لما رأَوا رقَّة أَحلامهم، فهذا هو الرهق الذي زادته الجنُّ بني آدم، وقال مجاهد، والنَّخعي، وعبيد بن عمير: بنو آدم زادوا الجن رهقاً وهو الجرأَة والانتحاءُ عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإِعجاب لأَنهم قالوا: سدنا الجن والإِنس، وقد فسَّر قوم الرهق بالإِثم، وأَنشد الطبري في ذلك بيت الأَعشى:

لاَ شَـيْءَ يَنْفَعُنـي مِـنْ دونِ رُؤْيَتِهَـا ... هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لَمْ يُصِب رَهَقَا ؟[1]

وقال: معناه: ما لم يغش محرماً، فالمعنى: زادت الجنُّ الإِنس إِثماً لأَنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾ يريد بني آدم الكفار، ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مخاطبة لقومهم من الجن، وقولهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما بعث الحشر من القبور، والآخر بعث آدميٍّ رسولاً، و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ﴾ مخففة من الثقيلة، وهي تسدُّ مَسَدَّ المفعولين، وذكر المهدوي تأويلاً أَن المعنى: وأَن الجنَّ ظنُّوا كما ظننتم أَيها الإِنس، فهي مخاطبة من الله تعالىٰ.

وقولهم: ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ﴾ معناه: الْتَمَسْنا، ويظهر بمقتضى كلام العرب أَنها استعارة لتجريبهم أَمرها وتعرضهم لها، فسمَّى ذلك لَمْساً إِذ كان اللَّمْس غاية غرضهم، ونحو هذا قول المتنبي:

---

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة يصف هواه ووجده بمحبوبته، ومطلعها: (نام الْخَلِيُّ وبِتُّ اللَّيْلَ مُرتَفِقاً)، والبيت في اللسان، والقرطبي، والبحر، وفتح القدير. والوامق: المحبُّ، وفي بعض الروايات (يشتفي عاشق)، وفي اللسان: «والرَّهَق: غشيان المحارم من شرب الخمر ونحوه، قال ابن بَرِّي: وكذلك فَسَّر الرهق في شعر الأعشى بأنه غِشْيانُ المحارم وما لا خير فيه في قوله: لا شيءَ ينفعني... البيت»، وقد يُفسَّر الرهق في البيت بأنه الضعف والتذلل للمحبوب، والأقوال في معنى الرهق كثيرة، فقد قيل: هو الفساد، وقيل: الظلم، وقيل: السفه، وقيل: الذلة والضعف، وقيل: السرعة إلى الشرِّ، وقيل: العظمة والطغيان. وقيل غير ذلك، راجع اللسان.

تَعَدَّ الْقُرَى وَالْمُسْ بنا الْجَيْشَ لَمْسَةً   نُبَارِ إِلَى مَا تَشْتَهي يَدَكَ الْيُمْنَى(١)

فعبَّر عن صدم الجيش بالجيش وحربه باللَّمس، وهذا كما تقول: «الْمس فلاناً في أَمر كذا» أَي جرب مذهبه فيه، و[مُلِئَتْ] إما أَن تكون في موضع المفعول الثاني لـ ﴿وَجَدْنَآ﴾، وإِما أَن يقصر الفعل على مفعول واحد وتكون [مُلِئَتْ] في موضع الحال، وكان الأَعرج يقرأُ: [مُلِيَتْ] بغير همز، و«الشُّهُبُ» كواكب الرجم، و«الْحَرَسُ» يحتمل أَن يريد الرمي بالشهب وكرَّر المعنى بلفظ مختلف، ويحتمل أَن يريد الملائكة.

و[مَقَاعِدَ] جمع مقعد، وقد فسَّر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن أَنهم كانوا واحداً فوق واحد، فمتى أُحْرِق الأَعلى طلع الذي تحته مكانه، فكانوا يسترقون الكلمة فيبلغونها إِلى الكهان ويزيدون معها، ويزيد الكهان للكلمة مائة كذبة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ الآية.. قطع على أَنه كل من استمع الآن أَحرقه شهاب، فليس هنا بَعْدُ سَمْعٌ، إنما الإِحراق عند الاستماع، وهذا يقتضي أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه لم يكن بمستأصل، وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً، فلما جاءَ الإِسلام اشتد الأَمر حتى لم يكن فيه يُسْر ولا سماحة، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ لأَصحابه وقد رأَوْا كوكباً راجماً: «ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟»، قالوا: كنا نقول: وُلد ملك مات ملك، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الأَمر كذلك»، ثم وصف صعود الجن(٢).

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي يحثُّ سيف الدولة على لقاءِ الروم في السَّنْبوس سنة أربعين وثلاثمائة (٩٥١م)، وكان قد عزم على لقائهم ثم بلغه عدتهم أربعين ألفاً فتهيب أصحابه الموقف، لكن المتنبي تحدث عن بطولات العرب والمسلمين وعن أمجادهم، وقال: إنا نقصد للموت كما يقصد الحبيب لقاء محبوبه، ومعنى (تَعَدَّ القُرَى): تجاوزها، والخطاب لسيف الدولة، و(نُبَار) معناها: نسابق، يقول لسيف الدولة: تجاوز القرى العامرة إلى الصحراء وَأَلْقَ بنا جيش الروم حتى نلامسه ملامسة فستجدنا نسابق يَدَكَ اليُمْنى ونسبقها إلى ما تشتهي نَفْسُك وهو هزيمة الروم والسيطرة على بلادهم، ولعلَّه يعني أن النصر بنا يكون أسرع إليك مما لو تناولته بيدك أنت، والشاهد أنه عبَّر عن صدام الجيش بالجيش مستخدماً لفظة اللَّمْس.

(٢) هذا الحديث أَخرجه الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهم، كما أَخرجه مسلم من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس، ومعقل بن عبيد الله، أربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، كما رواه النسائي في التفسير من حديث الزبيدي، عن الزهري، ورواه الترمذي عن الحسين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، ولفظه كما في مسند أَحمد: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال =



وقد قال عَوْف بن الخَرِع ـ وهو جاهلي ـ:

فَانقَضَّ كالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَخالُهُ طُنُبَا[١]

وهذا في أَشعارهم كثير. و[رَصَداً] نعت للشِّهابِ، ووصفه بالمصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية... معناه: لا ندري، أَيُؤْمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أَم يكفرون به فينزل بهم الشَّرُّ؟

= عبد الرزاق: من الأنصار ـ فَرُمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية»؟ قالوا: كنا نقول: يُولد عظيم أو يموت عظيم ـ قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرْمَى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالىٰ إذا قضى أَمْراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أَهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماءٍ سماءً حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فَيُرْمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»، قال الإمام ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث: هكذا رواه الإمام أحمد.

وقد روى البخاري عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ عن عكرمة أنه قال: سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالىٰ الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فَيُصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»، قال ابن كثير: «انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة به، والله أعلم».

(١) هذا البيت لأوس بن حَجَر، وليس لعوف بن الخرع، وهو في أول قصيدة في ديوان أَوس، وهو في وصف ثور وحشي يخوض معركة مع كلاب صَيْد أطلقها عليه صاحبها، والدُّرِّيُّ ـ بضم الدال المشددة أو بكسرها أو بفتحها ـ هو الكوكب المضيءُ الثاقب، منسوب إلى الدُّرِّ ـ وفيه كلام كثير ـ ورواية الديوان: دِرِّيءٌ، وهو أيضاً الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان ـ هكذا قال صاحب اللسان ـ والنَّقع: الغبار الثائر اللامع، والطُّنُبُ: الفسطاطُ المضروب ـ الخيمة المنصوبة ـ وتَخاله: تحسبه، يشبهه بالكوكب اللامع الذي ينقض من السماء، ويشبه الغبار الذي أثاره في هجومه على الكلاب بالخيمة المنصوبة، أما بيت عوف المقصود فهو قوله:

فَـرَدَّ عَلَيْنـا العَيْـرَ مِـنْ دونِ إِلْفِـهِ أَو الثَّـوْر كـالـدُّرِّي يَتْبَعُـهُ الـدَّمُ



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

هذا كله من قول الجن إلى آخر قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير الصالحين، كأنهم قالوا: ومنا قوم أو فرقة دون صالحين، وهي لفظة تقع أحياناً موقع «غير»، و«الطَّرائِقُ»: السِّيَر المختلفة، و«القِدَدُ» كذلك هي الأشياءُ المختلفة كأنه قَدْ قُدَّ بعضها من بعض وفصل، قال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أهْواءً مختلفة، وقال غيرهم: فرق مختلفون، قال الكميت:

جَمَعْتَ بالرَّأيِ مِنْهُمْ كُلَّ رافِضَةٍ إذْ هُمْ طَرائِقُ في أَهْوائِهِمْ قِدَدُ[1]

قولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾، الظَّن هنا بمعنى العلم، وهذا إخبارٌ منهم عن حالهم بعد إيمانهم كما سمعوا من محمد ﷺ، و«الْهُدَىٰ» يريدون به القرآن، سمَّوه هدى من حيث هو سبب الهدى، و«الْبَخْسُ»: النقص، و«الرَّهَقُ»: تحميل ما لا يطاق وما يثقل من الأنكاد ويَفدح، وقال ابن عباس: البَخْسُ نقص الحسنات، والرَّهق الزيادة في السيئات، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب: [فلا يَخَفْ] بالجزم دون ألف.

وقسَّم الله تعالىٰ بعد ذلك حالَ الناس في الآخرة على نحو ما قسَّم قائلُ الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، و«القاسِطُ»: الظالم، قاله مجاهد، وقتادة، والناس، ومنه قول الشاعر:

قَوْمٌ هُمُ قَتَلوا ابْنَ هِنْد عَنْوَةً عَمْراً وَهمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمانِ[2]

---

(١) الرَّوافض: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا فكل طائفة منهم رافِضَةٌ، والنِّسبة إليهم، رافضيٌّ، والطرائق: الفِرَقُ المختلفة، والآراءُ والمذاهب المتباينة، ومفردها: طريقة، وأوضح معانيها: السُّنَّة والمذهب والرأيُ وما هو عليه، والقِدَّةُ: الفرْقَةُ والطريقة من الناس إذا كان هَوَى كل واحد على حدَةٍ، يقول الشاعر: جَمعْتَهم على رأي واحد بعد أن كانوا فرقاً مختلفة.

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها الفرزدق يمدح بني تغلب ويهجو جريراً، وقد بدأها بقوله: (يا بن المراغةِ=

والمُقْسِط: العادل، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة، ويُرَغِّب في الإسلام من لم يدخل فيه، فالوجه أن يكون ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ مخاطبةً من الله تعالىٰ لمحمد ﷺ، ويؤيده ما بعده من الآيات. و﴿تَحَرَّوْا﴾ معناه: طلبوا باجتهادهم، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تَتَحَرَّوْا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها»[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ نظير قوله تعالىٰ: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: (اسْتَقَامُوا). قال أبو مِجْلز، والفراءُ، والربيع بن أَنس، وزيد بن أَسلم، والضحاك ـ بخلاف عنه ـ: هو عائد على قوله سبحانه: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ﴾، و«الطريقة» طريقة الكفر، أَي: لو كفر من أَسلم من الناس لأَسقيناهم ماءً إملاءً لهم واستدراجاً، وقال ابن عباس، وقتادة، وابن جبير، ومجاهد: الضمير عائد على «القاسطين»، والمعنى: على طريقة الإسلام والحق، وهذا المعنى نحو قوله تعالىٰ:

= والهجاءُ إذا التقت أعناقُه. . .)، وقبل البيت يقول:

مـا ضَـرَّ تَغْلِـبَ وائـلٍ أَهَجَـوتَهَـا ... أَمْ بُلْـتَ حَيْـثُ تَنَـاطَـحَ الْبَحْـرانِ ؟
يـا بْـنَ الْمَـراغَـة إنَّ تَغْلِـبَ وائِـلٍ ... رَفَعُـوا عِنـانـي فَـوقَ كُـلِّ عِنـانِ

وابنُ هِنْد هو عَمرو بن المنذر اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية، وكان شديد البأس، قتله عمرو بن كلثوم أَنَفة وغَضَباً لأمِّه حين أرادت أم الملك أن تستخدمها. في خبر طويل يروى في كتب الأدب. وعَنْوَةً: قَهْراً، وقَسَطُوا: جارُوا، وهي موضع الاستشهاد، فإن (قَسَطَ) بمعنى (جَارَ)، و(أَقْسط) بمعنى (عَدَلَ).

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، وفي فضل الصلاة في المسجد الحرام. ومسلم في المسافرين. والنسائي في المواقيت. ومالك في القرآن من الموطأ، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٥، ٢/ ١٣، ١٩، ٣٣)، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة أن يتحرى بها طلوع الشمس وغروبها.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (البقرة)، ثم تكررت في الآية (٦) من سورة (التحريم).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٢)، وهذا القول أَبْيَن، لأن استعارة الاستقامة للكفر قلقة.

وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [وأن لَوُ استقاموا] بضم الواو، وقال أبو الفتح: هذا تشبيه بواو الجماعة ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾(٣)، والماءُ الغَدَقُ هو الماءُ الكثير، وقرأ جمهور الناس: (غَدَقاً) بفتح الدال، وقرأ عاصم ـ في رواية الأعمش عنه ـ بكسرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إن كان المسلمون فمعناه: لنختبرهم، وإن كان القاسطون فمعناه: لنمتحنهم ونستدرجهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حيث يكون الماءُ فَثَمَّ المال، وحيث المالُ فَثَمَّ الفتنة»، ونزع بهذه الآية، وقال الحسن، وابن المسيَّب، وجماعة من التابعين: كانت الصحابة مطيعين سامعين، فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر وثب بعثمان رضي الله عنه فَقُتل وثارت الفِتَنُ. و[يَسْلُكْهُ] معناه: يُدْخله، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: (يَسْلُكْهُ) بفتح الياءِ، أَي: يسلكه الله، وقرأ بعض التابعين: [يُسْلِكْهُ] بضم الياءِ، من أَسْلَكَ، وهما بمعنى، وقرأ باقي السبعة: [نَسْلُكْهُ] بنون العظمة، وقرأ ابن جبير: [نُسْلِكْهُ] بنون مضمومة ولام مكسورة، و[صَعَداً] معناه: شاقًّا، تقول: «فلان في صَعَدٍ من أَمره» أَي في مشقة، و«هذا أَمر يتصَعَّدني»، قال عمر رضي الله عنه «ما تصعَّدني شيءٌ كما تتصَعَّدني خطبة النكاح»، وقال ابن عباس، وأَبو سعيد الخدري: صَعَد: جبل في النار، وقرأ قوم: [صُعُداً] بضم الصاد والعين، وقرأ الجمهور بفتح الصَّاد والعين، وقرأ ابن عباس، والحسن بضم الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

ومَنْ فَتَح الأَلف من ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ جعلها عطفاً على قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ﴾، ذَكَرَهُ سيبويه، و«المساجد» قيل: أَراد بها البيوت التي للعبادة والصلاة في كل مِلَّة، وقال الحسن: أَراد كل موضع سُجد فيه، كان مخصوصاً لذلك أَو لم يكن؛ إذ الأَرض كلها مسجد لهذه الأُمة، ورُوي أَن هذه الآية نزلت بسبب تغلُّب قريش على

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (المائدة).
(٢) من الآية (٦٦) من سورة (المائدة).
(٣) من الآية (١٦) من سورة (البقرة).

الكعبة حينئذ، فقيل لمحمد ﷺ: المواضع كلها لله تعالىٰ فاعبده حيث كان، وقال ابن عطاءٍ: المساجد: الآراب[١] التي يُسجد عليها، واحدها مَسْجَد ـ بفتح الجيم ـ، وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية لأن الجن قالت: يا رسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك؟ فنزلت الآية ليخاطبهم بها على معنى: إنَّ عبادتكم حيث كنتم مقبولة، وقال الخليل بن أحمد: معنى الآية: ولأن المساجد لله فلا تدعوا ـ أي لهذا السبب ـ، وكذلك عنده ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾[٢]، وكذلك عنده ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٣]، والمساجد المخصوصة بيِّنة التمكن في كونها لله تعالىٰ، فيصح أن تفرد للصلاة والدعاءِ وقراءة العلم وكل ما هو خالص لله تعالى، وألاَّ يتحدث فيها في أمور الدنيا، ولا يتجرّ، ولا تُتَّخذ طرقاً، ولا يُجعل فيها لغير الله تعالىٰ نصيب، ولقد قعدتُ للقضاءِ بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية ثم رأَيت فيه من سوءِ خُلق المتخاصمين وصياحهم وَأَيْمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأَيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأَحكام فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يحتمل أَن يكون خطاباً من الله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون إِخباراً عن الجن، وقرأَ بعض القراءِ ـ على ما تقدم ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بفتح الأَلف، وهذا عطف على قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، و«الْعَبْدُ» على هذه القراءَة، قال قوم: هو نوح عليه السلام، والضمير في [كادُوا] لِكُفَّار قومه، وقال آخرون هو محمد ﷺ، والضمير في [كادُوا] للجن، والمعنى أَنهم كادوا يَتَقَصَّفُون[٤] عليه لاستماع القرآن، وقرأَ آخرون: [وَإِنَّهُ] بكسر الهمزة، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في [كادوا] يحتمل أَن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه، ويحتمل أَن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على ردِّ أَمره، ولا يتَّجه أَن يكون «العبد» نوحاً عليه السلام إِلاَّ على تحامل في تأْويل نَسَق الآية، وقال ابن جبير: معنى الآية أَنها قول الجن لقومهم يحكون، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في [كادوا] لأَصحابه الذين يطوعون له

---

(١) الآراب: جمع إِرْب وهو العُضُو، يقال: السجود على سَبْعَة آراب، أي أعضاء.

(٢) الآيات (١، ٢، ٣) من سورة (قريش).

(٣) من الآية (٩٢) من سورة (الأنبياء).

(٤) يَتَقَصَّفُون: يجتمعون عليه مع تدافع شديد حتى يقصف بعضهم بعضاً من شدة الزحام، وفي حديث أَبي بكر رضي الله عنه: «كان يصلي ويقرأُ القرآن فَتتقَصَّفُ عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم»، أي يزدحمون.

ويقتدون به في الصلاة، فهم عليه لِبَدٌ، وهي الجماعات، شُبِّهت بالشيءِ المتلبِّد بعضه فوق بعض، ومنه قول عبد مناف بن ربع:

صَابُوا بِسِتَّةِ أَبْيَاتٍ وَأَرْبَعَةٍ حَتَّى كَأَنَّ عَلَيْهِمْ جَانِياً لُبَدَا(١)

يريد الجراد، سماه جانِياً لأَنه يَجْني الأَشياءَ بأَكله، [ويروى جابياً بالباءِ لأَنه يجبي الأَشياءَ بأَكله](٢).

وقرأَ ابن عباس وجمهور السبعة: [لِبَداً] بكسر اللام، جمع لِبْدَة، وقال ابن عباس: أَعواناً، وقرأَ ابن عامر ـ بخلاف عنه ـ ومجاهد، وابن محيصن: [لُبَداً] بضم اللام وتخفيف الباءِ المفتوحة، وهو جمع أَيضاً، ورُوي عن الجحدري [لُبُداً] بضم اللام والباءِ، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [لِبَّداً] بكسر اللام وشدِّ الباءِ المفتوحة، وقرأَ الجحدري والحسن ـ بخلاف عنهما ـ: [لُبَّداً] بضم اللام وشدِّ الباءِ، وهو جمع «لأَبد»، فإن قدرنا الضمير للجن فبِتَقَصُّفهم(٣) عليه لاستماع الذكر، وهذا تأويل ابن عباس والضحاك، وإن قدرناه للكفار فبتمالئهم عليه وإقبالهم على أَمره بالتكذيب والردِّ، وهذا تأويل الحسن وقتادة. و[يَدْعُوهُ] معناه: يعبده.

وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ﴿قالَ إنَّما أَدْعُو رَبِّي﴾، وهي قراءَة جمهور السبعة، وهذه قراءة تؤيد أَن «العَبْدَ» هو نوح عليه السلام، وقرأَ عاصم، وحمزة، وأَيوب، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾، وهذه تؤيد أَنه محمد ﷺ، وإن كان الاحتمال باقياً من كليهما، واختلف القراءُ في فتح الياءِ من [رَبِّي] وفي سكونها.

ثم أَمر تعالىٰ محمداً ﷺ بالتبري من القدرة، وأَنه لا يملك لأَحد ضراً ولا رشداً، بل الأَمر كله لله تعالىٰ، وقرأَ الأَعرج: [رُشُداً] بضم الراءِ والشين، وقرأَ أُبَي بن كعب:

---

(١) البيت من قصيدة قالها عبد مناف بن ربع الهُذَلي، وهو في ديوان الهُذَلِيِّين، وفي اللسان ـ صابَ وَجَبأ ـ، ومعنى صَابُوا بهم وَقَعُوا بهم، والجاني هو الجراد، سمِّي بذلك لأنه يجني الثمار، أو يجني على القوم في طعامهم، أما رواية جابياً بالباء فالمراد أَيضاً الجراد، قال صاحب اللسان نقلاً عن التهذيب: «الجابِئُ: الجرادُ، يُهمز ولا يُهمز، وجبأ الجرادُ: على البلد، قال الهذلي: صابوا بِستَّةِ... البيت»، واللُّبَدُ: الكثير، يقال: مالٌ لُبَدٌ أي كثير لا يُخافُ فناؤه كأنه التَبَدَ بعضه على بعض، وفي التنزيل العزيز ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، أي كثيراً جماً.

(٢) ما بين العلامتين [....] سقط من أكثر النسخ.

(٣) أي: باجتماعهم وازدحامهم حوله.



[لا أَملِكُ لكُمْ غيًّا ولا رشداً]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أَي: من عند سواه، و«المُلْتَحَدُ»: الملجأُ الذي يُمالُ إِليه ويُرْكن، ومنه الإِلحادُ والميل، ومنه اللَّحْدُ الذي يُمال به إِلى أَحد شِقَّي القبر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

اختلف الناس في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ ـ فقال الحسن ما معناه: إنه استثناءٌ منقطع، والمعنى: لن يُجيرني من الله أَحدٌ إِلاَّ بلاغاً، فإِنِّي إِن بلَّغتُ رحمني بذلك، والإِجارة للبلاغ مستعارة إِذْ هو سبب إِجارة الله تعالىٰ ورحمته، وقال بعض النحاة: على هذا المعنى هو استثناءٌ مُتَّصل، والمعنى: لن أَجد مُلْتحداً إِلاَّ بلاغاً، أَي شيئاً أَميل إِليه وأَعتصم به إِلاَّ أَن أُبلِّغ وأُطيع فيجيرني الله. وقال قتادة: التقدير: لا أَملك إِلاَّ بلاغاً فأَما الإِيمان والكفر فلا أَملكه، وقال بعض المتأَولين: ﴿إِلَّآ﴾ بتقدير الانفصال، و[لَنْ] شرط، و[لا] نافية، كأَنه يقول: ولن أَجد مُلتحداً إِن لم أُبلغ من الله ورسالاته، و[من] في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لابتداءِ الغاية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ يريد الكفر بدليل الخلود المذكور، وقرأَ طلحة بن مصرف: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ على معنى: فجزاؤه أَنَّ له.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾، ساق الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ أَضْعَفُ﴾ يحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع رفع على الاستفهام والابتداءِ، و[أَضْعَفُ] خبرها، ويحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع نصب بقوله: [فَسَيَعْلَمونَ]، و[أَضْعَفُ] خبر ابتداءِ مضمر.

ثم أَمره الله تعالىٰ بالتَّبَرِّي من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وُعدوا به، و«الأَمَدُ: المُدَّة والغاية، و[عَالِمُ] يحتمل أَن يكون بدلاً من [رَبِّي]، ويحتمل أَن يكون خبر ابتداءِ مضمر على القطع، وقرأَ السُّدي: [عَلِمَ] على الفعل ونصب الباءِ[1]، وقرأَ

(١) أي من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْغَيْبَ﴾.



الحسن: ﴿فَلَا يَظْهَرُ﴾ بفتح الياءِ والهاءِ [أَحَدٌ] بالرفع، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ معناه: فإنه يُظْهِرُ على ما شاءَ مما هو قليل من كثير، ثم يبثُّ الله تعالىٰ حول ذلك الملك الرسول حَفَظَةً رصداً لإبليس وحزبه من الجن والإِنس.

وقوله تعالىٰ: [لِيَعْلَمَ]، قال قتادة: معناه: ليعلم محمد أَن الرسل قد أَبلغوا رسالات ربهم وحُفظوا ومُنع منهم، وقال سعيد بن جُبير: معناه: ليعلم محمد أَن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل ـ عليه السلام ـ وخَلْفه قد أَبلغوا رسالات ربهم، وقال مجاهد: معناه: ليعلم من كذَّب أَو أَنكر أَن الرسل قد بلَّغت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا العلم لا يقع إلاَّ في الآخرة.

وقيل: المعنى: لِيَعْلَمَ الله رُسُلَه مبلغين خارجين إلى الوجود، لأَنَّ علمه سبحانه بكل شيءٍ قد تقدم، وقرأَ الجمهور: (لِيَعْلَمَ) بفتح اللام، أَي: ليعلم الله تعالىٰ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [لِيُعْلِمَ] بضم الياءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [رِسالَةَ رَبِّهِمْ] على التوحيد، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وَأُحِيطَ] على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ معناه: كل شيءٍ معدود، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ﴾ الآية مُضَمَّنة أَنه تعالىٰ قد علم ذلك، فعلى هذا الفعل المضمن انعطف (أَحاط ـ أَحصى)، والله تعالىٰ المُرْشد بمَنِّه وكرمه.

كمل تفسير سورة الجن والحمد لله رب العالمين

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المُزمل

وهي مكية كلها في قول المهدويِّ وجماعة[1]، وقال الجمهور: هي مكية إلاَّ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل بالمدينة[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداءٌ للنبي ﷺ، واختلف الناس، لِمَ نودي بها؟ فقالت عائشة، والنَّخعي، وجماعة: لأنه كان في وقت نزول الآية مُتزمِّلاً بكساءٍ، والتَّزمُّل: الالتفاف في الثياب بِضَمٍّ وتشمير، ومنه قول امرىءِ القيس:

كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانِينِ وَدْقِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ[3]

وخفض «مُزَمَّلِ» في هذا البيت هو على الجوار، وإنما هو نعت لـ «كَبِيرُ»، فهو عليه

---

(١) منهم الحسن، وعكرمة، وعطاءٌ، وجابر.

(٢) وقيل: بل هي مكية إلاَّ آيتان منها، قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها.

(٣) هذا البيت من معلقة امرىء القيس، وهو أحد أبيات وصف فيها المطر والبرق والرعد وصفاً رائعاً، وهذه الرواية للبيت رواية الأصمعي، وقال: هُمَا أَبَانَانِ، جبلٌ أبيض وجبل أسود، وهما لبني عبد مناف، وأفانين: ضروب، والوَدْقُ: المطر، وفي رواية غير الأصمعي (كأنَّ ثَبِيراً في عَرانِينِ وَبْلِهِ)، وثبير: جبل بمكة، وعرانين الشيءِ: أوائله، والوَبْلُ المطر العظيم، والبِجادُ: كساءٌ من أكسية الأعراب يصنع من وبر الإبل وصوف الغنم ويكون مخططاً، ومُزَمَّلٌ: مُلْتَف، يقول الشاعر: إن المطر قد ألبس الجبل فكأنه مما ألبسه كبير أناسٍ ملتف في ثيابه، ومُزَمَّل صفة كبير، ولكنه أجراه على إعراب كلمة «بجاد» للمجاورة، كما تقول العرب: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، يخفضون خَرِباً لمجاورته للضَّب وهو صفة للجحر.



الصلاة والسلام ـ على قول هؤلاءِ ـ إنما دُعي بهيئة في لباسه، وقال قتادة، كان تَزَمَّل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى: يَا أَيُّها المستعد للعبادة المتزمِّلُ لها، وهذا القول أَمدح له ﷺ، وقال عكرمة: معناه: يا أَيها المتزمِّلُ للنبوَّة وأَعبائها، أَي: المُشَمِّر المجِدُّ، وقال جمهور المفسرين والزهري بما في البخاري من أَنه عليه الصلاة والسلام لمَّا جاءَه المَلَك في غار حراءَ وحاوره بما حاوره رجع رسول الله ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وعلى هذا نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، وفي مصحف ابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب: [يَا أَيُّهَا المُتَزَمِّلُ]، وقرأَ بعض الناس: [يا أيها المُزَمَّلُ] بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدها، والمعنى: الذي زمَّله أَهلُه أَو زُمِّل للنبوة، وقرأَ عكرمة: [يا أيهاالمُزَمِّلُ] بكسر الميم وشدها وتخفيف الزاي، أَي: المُزَمِّل نفسه.

واختلف الناس في هذا الأَمر بقيام الليل كيف كان؟ فقال جمهور أَهل العلم: هو أَمر على جهة الندب قد كان لم يُفرض قط، ويؤيد هذا الحديثُ الصحيح أَن رسول الله ﷺ قام ليلة في رمضان خلف حصير الحجرة، فصلَّى وصلَّى بصلاته ناس، ثم كثروا من الليلة القابلة، ثم غص المسجد بهم في الثالثة أَو الرابعة فلم يخرج رسول الله ﷺ، فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال: «إِنِّي إنما تركت الخروج لأَني خفت أَن تفرض عليكم»، وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكلمهم إِلاَّ بعد أَن أَصبح[1] وقال آخرون: كان فرضاً في وقت نزول هذه الآية، واختلف هؤلاءِ ـ فقال بعضهم: كان فرضاً على النبي ﷺ خاصة وبقي كذلك حتى توفي ﷺ، وقيل: بل نُسخ عنه ولم يمت إِلاَّ والقيام تطوع، وقال بعضهم: كان فرضاً على الجميع، ودام الأَمر ـ على ما قال

---

(١) روى هذا الحديث الشيخان، البخاري في باب الأدب، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، ولفظه كما في البخاري: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: احْتَجَرَ رسول الله ﷺ حُجيرة مُخَصَّفَةً أو حصيراً، فخرج رسول الله ﷺ يُصلي إليها فَتَتَبَّع إليه رجالٌ وجاؤوا يُصلُّون بصلاته، ثم جاؤوا ليلةً فحضروا وأَبطأَ رسول الله ﷺ عنهم فلم يخرج إليهم، فرفعوا أَصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مُغضباً، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيُكتب عليكم، فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خَيْرَ صلاةِ المرءِ في بيته، إلاَّ الصلاةَ المكتوبة.

وأخرج ابن جرير الطبري مثلَه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة، وفيه أن النبي ﷺ قال للناس حين خرج مُغْضَباً: «يا أيُّها الناس اكْلَفوا من الأَعمال ما تُطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ من الثواب حتى تَمَلُّوا من العمل، وخير الأَعمال ما دمتم عليه»، ومعنى اكلفوا: تَحَمَّلوا.



سعيد بن جبير ـ عشر سنين، وقالت عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما: دام عاماً، ورُوي عنها أيضاً أنه دام ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالىٰ فنزلت: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ فخفف عنهم، وقال قتادة: بقي عاماً أو عامين. وقرأ أبو السمال: [قُمُ الليل] بضَم الميم لاجتماع الساكنين، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس.

وقوله تعالىٰ: (نِصْفَهُ) يحتمل أن يكون بدلاً من قوله سبحانه: (قَليلاً)، ويحتمل أن يكون بدلاً من (اللَّيْل)، وكيف تقلَّب المعنى فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيئاً أو أقل شيئاً. فالأكثر عند العلماءِ لا يزيد على الثلثين، والأقل لا ينقص عن الثُّلث، ويقوي هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بيت ميمونة رضي الله عنها، قال: فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله ﷺ[1]. ويلزم على هذا البدل الذي ذكرناه أن يكون الليل قد وقع عليه الوصف بـ «قليل»، وقد يحتمل عندي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن يكون استثناءً من القيام، فيجعل الليل اسم جنس، ثم قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي الليالي التي تُخل بقيامها عند العُذر ونحوه، وهذا النظر يحسن مع الندب جداً، وقد تكلم الجرجاني في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد، أكثره غير صحيح، وقرأ الجمهور: ﴿أَوُ انقُصْ﴾ بضم الواو، وقرأ الحسن، وعاصم، وحمزة بكسر الواو، وقرأ عيسى بالوجهين، والضميران في (مِنْهُ)، (عَلَيْه) عائدان على «النصف».

وقوله تعالىٰ: [وَرَتِّل] معناه في اللغة: تمهَّل وفرِّق بين الحروف لِتَبين، والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرقُّ القلب ويفيض عليه النور والرحمة، قال ابن كيسان: المراد تفهُّمه تالياً له، ومنه: «الثَّغْرُ الرَّتِل» أي الذي بينه فُسَح وفُتوح، ورُوي أن قراءَة رسول الله ﷺ كانت بَينةً مُتَرَسِّلةً، لو شاءَ أحدٌ أن يعد الحروف لعدها[2].

---

(١) أخرجه أبو داود، والبيهقي في السُّنَن، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بتُّ عند خالتي ميمونة فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرتُ قيامه في كل ركعة بمقدار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، والله أعلم.

(٢) في رواية لأبي داود في كتاب الأدب: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل»، وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مُليكة عن بعض أزواج النبي ﷺ أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ فقالت: إنكم لا تستطيعونها، فقيل لها: أخبرينا بها، فقرأَتْ قراءةً ترسَّلت فيها، وروى أنسٌ أن النبي ﷺ كان يَمُدُّ صوته بالقراءة مداً.



و«القول الثقيل» هو القرآن، واختلف الناس، لم سمَّاه ثقيلاً ؟ فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم حتَّى أنه كان إِذا أُوحي إِليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذه أَن تَرُضَّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال أَبو العالية والقرظي: بل سَمَّاه ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإِعجازه ووعيده ونحو ذلك، وقال حُذَّاق العلماءِ: معناه: ثقيل المعاني من الأَمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ونحوه ومزاولة الأَعمال الصالحة دائماً، قال الحسن: «إِن الهَذَّ خفيف ولكن العمل ثقيل»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، قال ابن جبير، وابن زيد: هي لفظة حبشية، تَنَشَّأَ الرجلُ إِذا قام من الليل، فـ «ناشئة» ـ على هذا ـ جمع «ناشىءٍ» أَي قائم، و﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ معناه: ثبوتاً واستقلالاً بالقيام، ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أَي بخُلُوِّ أَفكارهم وإِقبالهم على ما يقرءُونَه، قال ابن عباس وأَنس بن مالك، وعلي بن الحسين: ناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاءِ، وقالت عائشة، ومجاهد: الناشئة القيامُ بعد النوم، ومن قام أَول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة الليل، وقال ابن جبير، وابن زيد، وجماعة: ناشئة الليل ساعاته كلها، لأَنها تنشأ شيئاً بعد شيءٍ، وقال ابن عباس، وابن الزبير، وأَبو مجلز، والحسن: ما كان بعد العشاءِ فهو ناشئة الليل وما كان قبلها فليس بناشئة، قال ابن عباس: كانت صلاتهم أَول الليل فهي أَشدُّ وَطأً، أَي أَجْدَرُ أَن تخصوا ما فرض الله عليكم من القيام؛ لأَن الإِنسان متى نام لم يدر متى يستيقظ، وقال الكسائي: ناشئة الليل أَوله، وقال ابن عباس، وابن الزبير أَيضاً: الليل كله ناشئة، و﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ ـ على هذا ـ يحتمل أَن يكون: أَشد ثبوتاً، فيكون نسب الثبوت إِليها من حيث هو للقائم فيها، ويحتمل أَن يريد أَنها صعبة القيام لمنعها النوم، كما قال: «اللهم اشدد وطأَتك على مضر»[2]، فذكرها تعالىٰ بالصعوبة ليُعْلَمَ عِظَم الأَجر فيها، كما قد وُعِدَ عليه الصلاة

---

(١) الْهَذُّ: سرعة القراءَة، يقال: هو يَهُذُّ القرآن ويهُذُّ الحديث هذاً، أَي يسرده، قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: قرأتُ المفصَّل الليلة، فقال: أَهذًّا كهذِّ الشعر ؟ أَراد: أَتهذُّ القرآن هذًّا فتسرع فيه كما تسرع في قراءَة الشعر ؟

(٢) هذا جزء من حديث أَخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء والأدب، ومسلم في المساجد، وأَبو داود في الصلاة والوتر، والنسائي في التطبيق، وابن ماجه في الإقامة، وأَحمد في مسنده (٢/٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١)، ولفظه كما جاءَ فيه عن أَبي هريرة رضي الله عنه=

والسلام على الوضوءِ على المكاره والمشي في الظلام إلى المساجد ونحوه، وقرأَ الجمهور: (وَطْأً) بفتح الواو وسكون الطاءِ، وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وابن الزبير، وابن عباس: [وِطَاءً] على وزن فِعَالٍ، والمعنى: مُوَافَقَةً؛ لأَنه بخُلوِّ البال من أَشغال النهار يُوافِقُ قلبُ المرءِ لسانَه وفِكْرُهُ عبارَتَهُ، فهذه مواطأَةٌ صحيحة، وبهذا المعنى فسَّر اللفظَ مجاهدٌ وغيرُهُ، وقرأَ قتادة ـ في رواية حسين ـ: [وِطْأً] بكسر الواو وسكون الطاءِ والهمزة مقصورة[١]، وقرأَ أَنس بن مالك: [وَأَصْوَبُ قِيلاً]، فقيل له: إنما هو(أَقْوَمُ) فقال: أَقْوَمُ وأَصْوَبُ وَأَهْيأُ واحدٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾، أَي تصرفاً وتردُّداً في أُمورك كما يتردَّد السابح في الماءِ، ومنه سمِّي الفَرَسُ سابحاً لِتَثَنِّيه واضطرابه، وقال قومٌ من أَهل العلم: إنما معنى الآية التَّنبيه على أَنه إن فات حزب الليل بنوم أَو عذر فليخلف بالنهار؛ فإن فيه سبحاً طويلاً. وقرأَ يحيى بن يَعْمَر: [سَبْخاً طويلاً] بالخاءِ المعجمة، ومعناه: خِفَّة لك من التكاليف، والتَّسبيخ: التخفيف، ومنه قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في السارق الذي سرقها فكانت تدعو عليه: «لا تُسَبِّخي عنه»[٢]، فمعناه: لا تُخَفِّفي عنه. قال أَبو حاتم: فسَّر يحيى السَّبْخَ بالنَّوْم.

وقال سهلٌ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ يُراد به: بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداءِ صلاتك. و(تبَتَّلْ) معناه: انْقطع من كل شيءٍ إلاَّ منه، وافرغ إليه، وقال زيد بن أَسلم: التَّبتُّل: رفض الدنيا، ومنه: تَبَتَّل الحبلُ، وقولهم في المطلَّقة: بَتْلَة[٣]، ومنه: البتول، و(تَبْتِيلاً) مصدر على غير الصَّدْر[٤].

= «لما رفع النبي ﷺ رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الصبح قال: اللهم أَنج الوليد بن الوليد، وسَلَمة بن هشام، وعياش بن أَبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(١) يعني غير محدودة كالقراءة السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢١٥) وأبو داود في الوتر والأدب، ومنه قول الشاعر:

فسبِّـخْ عَلَيْـكَ الهَـمَّ واعْلَـم بـأَنَّـهُ إذا قـدَّر الـرحمَـنُ شيئـاً فكـائـنُ

(٣) في اللسان: «ومنه: طَلَّقها بَتَّةً بَتْلَةً، قال ذو الرمة:

رَخيمـاتُ الكَـلاَمِ مُبَتَّـلاتٌ جَـواعِـلُ فـي البَـرَى قَصَبـاً خِـدالاَ

أَراد: مُبَتَّلات الكلام مقطَّعات له».

(٤) لأن صدر الكلام يقتضي أن يقول: «تبَتُّلاً» ليتفق مع قوله سبحانه: ﴿وَتَبَتَّل﴾ لكنه قال: ﴿تَبۡتِيلاً﴾ لأن معنى =

وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ [رَبِّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ] بالخفض على البدل من (رَبِّكَ)، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ بالرفع على القطع، أَي: هو ربُّ، أَو على الابتداءِ والخبر ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، وقرأَ ابن عباس، وأَصحاب عبد الله: [رَبُّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِب] بالجمع، و«الوكيلُ»: القائم بالأُمور الذي توكل إِليه الأَشياءُ.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الآية، قيل: هي مُوَادعة منسوخة بآية السيف، والمراد بالآية قريش. وقال بعض العلماءِ: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ منسوخ، وأَما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أَحياناً ويبقى حكمه فيما يتوجه من الهجر الجميل بين المسلمين، قال أَبو الدَّرْداءِ: إِنا لنكشر في وجوه قوم وإِن قلوبنا لتلعنهم، والقول الأَول أَظهر؛ لأَن الآية إِنما هي في كفارِ قريشٍ وردِّهم رسالته وإِعلامِهم بذلك، ولا يمكن أَن يكون الحكم في هذا المقام باقياً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم، ولم يتعرض أَحدٌ لمنعه منهم لكنه إِبلاغٌ بمعنى: لا تشغل بهم فكراً، وَكِلْهُم إِليَّ. و«النَّعْمَةُ»: غضارة العيش وكثرة المال(١)، والمُشار إِليهم كفار قريش أَصحاب القليب ببدر، ويُروى أَنه لم يكن بين نزول هذه الآية وبين بدر إِلاَّ مدة يسيرة نحو عام، وليس الأَمر كذلك، والتقدير الذي يُعَضِّده الدليل من أَخبار رسول الله ﷺ يقتضي أَن بين الأَمرين نحو عشر سنين، ولكن ذلك قليل أُمْهلوه.

و(لَدَيْنَا) بمنزلة: عندنا، و«الأَنكَالُ» جمع نِكْلٍ وهو القيد من الحديد، ويروى أَنها قيود سودٌ من نار. و«الطعام ذو الغُصَّة»: شجرة الزَّقُّوم، قاله مجاهد وغيرهُ، وقيل:

= تبَتَّلَ: بتَّل نفسه، فجيءَ على المعنى مراعاة لحق الفواصل.

(١) النَّعْمة بالفتح: التَّنَعُّم، وبالكسر الإِنْعام وما يُنْعم به، وتأتي بالضمة ومعناها المَسَرَّةُ.



شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكل مطعوم هناك فهو ذو غصة، وروي أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فَصُعق(١). والعامل في قوله تعالىٰ: [يَوْمَ] الفعلُ الذي تضمنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾، وهو استقرار أو ثبوت. و«الرَّجفان»: الاهتزاز والاضطراب من فزع وهول، و«الْمَهِيلُ»: اللَّين الرخو الذي يذهب بالريح وَيجيءُ، فهي تُهيله، والأصل مَهْيُول، استثقلت الضمة على الياءِ فسُكِّنت، واجتمع ساكنان فحذفت الواو، وكسرت الهاءُ بسبب الياءِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ﴾ الآية.... خطاب للعالم لكن المُواجَهُون قريش، وقوله تعالىٰ: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(٢)، وتمثيله لهم أَمرهم بفرعون وعيدٌ، كأَنه تعالىٰ يقول: فحالهم من العذاب والعقاب إن كفروا سائرةٌ إِلى مثل حال فرعون. وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ يريد تعالىٰ موسى عليه السلام، والأَلف واللام للعهد، و«الْوَبِيلُ»: الشديد الرديءُ العُقبى، يقال: كلأٌ وَبيلٌ ومستوبلٌ إِذا كان ضاراً لمن يرعاه(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كيف تجعلون واقياً لأَنفسكم، و[يَوْماً] مفعول بـ[تتَّقُون]، وقيل: هو مفعول بـ[كَفَرتُمْ] على أَن تجعله بمنزلة «جحدتم»، فـ[تتَّقُونَ] ـ على هذا ـ من التقوى، أَي تتَّقون عقاب الله، ويجوز أَن يكون [يَوْماً] ظرفاً، والمعنى: تتَّقون عقاب الله يوماً، و[يَجْعَلُ] يصح أَن يكون مُسْنَداً إِلى اسم الله تعالىٰ، ويصحُّ أَن يكون مسنداً إِلى اليوم، وقوله تعالىٰ: [الْوِلْدَانَ] يريد به صغار الأَطفال، وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤُوسهم من شدة الهول، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهمِّ المفرط كهول البحر ونحوه، وقال آخرون من المتأَولين: هو تجوز وإِبلاغ في

---

(١) أخرج أَحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حَميد، ومحمد بن نصر، عن حمران أن النبي ﷺ قرأ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، فلما بلغ ﴿أَلِيمًا﴾ صعق. وأَخرج أبو عبيد في فضائله، وأَحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في نَعت الخائفين، وابن جرير، وابن أَبي داود في الشريعة، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في شُعب الإيمان، من طريق حمران بن أعين، عن أَبي حرب بن أَبي الأسود أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأُ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ فصُعق.

(٢) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٣) يقال: ماءٌ وبيلٌ: أي وخيم غير مريءٍ، وكلأٌ مُسْتَوبَل وطعام وَبيل ومُسْتَوبل: إذا لم يُمْرىء ولم يُسْتمرأ.

وصف هول ذلك اليوم، وواحد الوِلدان: وليد، وواحد الشِّيب أَشْيَب.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، قيل: هذا على النسب، أَي ذات انفطار، كامرأَة حائض وطالق، وقيل: السماءُ تُذَكَّر وتؤَنَّث، وينشد في التذكير:

فَلَـوْ رَفَـعَ السَّمـاءُ إِلَيْـهِ قَـوْمـاً ... لَحِقْنَـا بـالسَّمـاءِ مَـعَ السَّحَـاب[1]

وقيل: من حيث لم يكن تأَنيثها حقيقياً جاز أَن تسقط علامة التأَنيث لها، وقيل: لم يُرِدْ باللفظة قصد السماءِ بعينها، وإِنما أَراد ما علا من مخلوقات الله تعالىٰ، كأَنه قَصَد قَصْدَ السَّقْف فذكَّر على هذا المعنى، قاله منذر بن سعيد، وأَبو عبيدة مَعْمر، والكسائي، و«الانْفِطارُ»: التَّصَدُّع والانشقاق على غير نظامٍ يُقصد، والضمير في [بِهِ] قال مُنْذِرٌ وغيره: هو عائد على اليوم، وقال مجاهد: هو عائد على الله تعالىٰ، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[2] أَي بالغَمام الذي هو ظُلَلٌ يأْتي الله تعالىٰ فيها، والمعنى: يأْتي أَمره وقدرته، وكذلك ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أَي بأَمره وسُلطانه، والضمير في قوله تعالىٰ: [وَعْدُهُ] ظاهر أَنه لله تعالىٰ، ويحتمل أَن يكون لليوم لأَنه يضاف إِليه من حيثُ هو فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الإِشارة بـ [هذه] يحتمل أَن تكون لما ذكر من الأَنكال والجحيم والأَخذ الوبيل

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراءِ في «معاني القرآن»، وكذلك استشهد به صاحب اللسان والطبري، والقرطبي في تفسيره، وأبو حيان في «البحر المحيط»، ولم ينسبه أحد، ورواية القرطبي والبحر: «لحقنا بالسماءِ وبالسحاب». قال الفراءُ: السماءُ تُذكَّر وتُؤَنَّث، وهي هنا في وجه التذكير، وقال صاحب اللسان: «وسماءُ كل شيءٍ: أعلاه، مذكر، والسماء: سقف كل شيءٍ وكل بيت». وقال الزجاج: «السماءُ كلُّ ما علاك فأَظَلَّك، ومنه قيل لسقف البيت سماءٌ»، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الفرقان).



ونحوه، ويحتمل أَن تكون إِلى السورة بأَجمعها، ويحتمل أَن تكون إِلى القرآن بمعنى أَن الأَقوال المنصوبة فيه تذكرة، والتَّذْكِرة مصدر كالذكر، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الآية ليس معناه إِباحة الأَمر وضده، بل يتضمن معنى الوعيد والوعد، و«السَّبيل» هنا سبيل الخير والطاعة.

قوله تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ الآية، نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أَمر قيام الليل إِمَّا على الوجوب أَو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه، ومعنى الآية: إِنَّ الله يعلم أَنك تقوم أَنت وغيرك من أُمتك قياماً مختلفاً، مَرَّةً يكثر ومرَّةً يقلُّ، ومرَّةً أَدنى من الثلثين ومرَّةً أَدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إِنما هو لله تعالىٰ، وأَما البشر فلا يُحصي ذلك، فتاب الله عليهم، أَي رجع بهم من الثقل إِلى الخفة، وأَمرهم بقراءة ما تيسَّر منه، ونحو هذا تعطي عبارة الفراءِ ومنذر، فإِنهما قالا: [تُحْصُوهُ]: تحفظوهُ، وهذا التأْويل هو على قراءة من قرأَ: ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ بالخفض عطفاً على «الثُّلُثَيْن»، وهي قراءة أَبي عمرو، ونافع، وابن عامر، وأَمَّا من قرأَ ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على [أَدْنَى] ـ وهي قراءة باقي السبعة ـ فالمعنى عنده آخر، وذلك أَن الله تعالىٰ قد قدَّر أَنهم يُقَدِّرون الزمان على نحو ما أَمر به في قوله سبحانه: ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾، فلم يبق إِلاَّ أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ﴾ [بمعنى][1]: لن تُطيقوا قيامه لكثرته وشدته، فخفف الله تعالىٰ عنهم فضلاً منه لا لِعِلَّة جهلهم بالتقدير وإِحصاءِ الأَوقات، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير، فإِنهما قالا: [تُحْصُوهُ]: تُطيقوهُ، وقرأَ جمهور القراءِ والناس: (وَثُلُثَهُ) بضم اللام، وقرأَ ابن كثير في رواية شبل عنه: [وثُلْثَهُ] بسكون اللام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ إِباحةٌ، هذا قول الجمهور، وقال ابن جبير وجماعةٌ: هو فرض لا بُدَّ منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرض، ولو قَدْر حلْب شاة، إِلاَّ أَن الحسن قال: من قرأَ مائة آية لم يحاجَّه القرآن، واستحسن هذا جماعة من العلماءِ، قال بعضهم: والركعتان بعد العتمة مع الوتر تدخلان في حكم هذا الأَمر وامتثاله، ومَنْ زاد زادَهُ الله تعالىٰ ثواباً.

و[أَنْ] في قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والتقدير أَنَّه يكون، فجاءت

---

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المراد.



السِّين عوضاً من المحذوف، وكذلك جاءَت في قول أَبي مِحْجَن:

وَلاَ تَـدْفِنَنِّـي بِـالْفَـلاَةِ فَـإِنَنـي أَخَـافُ إِذا مـا مِـتُّ أَنْ لاَ أَذُوقُهَـا[١]

و«الضَّرْبُ في الأَرض» هو السفر للتجارة، وضَرْبُ الأَرض هو المشي للتَّبَرُّز والغائط[٢]، فذكر الله تعالىٰ أَعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل، وهي المرض والسفر في تجارة أَو غزو، فخفف عنهم القيام لهذا، وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأَرض للتجارة وسَوْقٌ لها مع سفر الجهاد، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَحبُّ الموت إِليَّ بَعْد القتل في سبيل الله أَن أَموت بين شعبتي رَحْلي[٣] أَضرب في الأَرض أَبتغي من فضل الله.

ثم كرر الله تعالىٰ الأَمر بقراءة ما تَيَسَّر منه تأْكيداً، والصلاة والزكاة هنا المفروضتان، فمن قال إِن القيام بالليل غير واجب قال: معنى الآية: خذوا من هذا النَّفْل ما تَيَسَّر وحافظوا على فرائضكم، ومن قال إِنَّ شيئاً من القيام واجب قال: قد قَرَنَه الله تعالىٰ بالفرائض لأَنه فرض.

وإِقراضُ الله تعالىٰ هو استلاف العمل الصالح عنده، وقرأ جمهور الناس: ﴿هُوَ

---

(١) هذا ثاني بيت في قصيدة معروفة لأبي مِحْجَن الثَّقفي، وقبله يقول:

إِذَا مِـتُّ فـادْفِنِـيٌ إِلَـى جَنْـب كَـرْمَـةٍ تُـرَوِّي عِظَـامـي بَعْـدَ مَـوْتـي عُـروقُهَـا

والخطاب موجه إلى ابنه يأمره بذلك، وفي الأبيات مبالغة على حُبِّه للخمر، والْفَلاَةُ: الأرض المُهْلِكة التي لا عَلَم بها ولا ماء، ومعنى هذا أنه لا كَرْمَ فيها، فكأنه يأمره أَلاَّ يدفنه إلا بمكان ينبت فيه العنب، وكان أَبو مِحْجَن هذا فارساً شجاعاً في الجاهلية والإسلام إلاَّ أنه كان مولعاً بشرب الخمر، وقد حدَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله في ذلك أخبار طويلة في كتب الأدب، وفيها كلام كثير عن معنى «الخوف» في كلامه، فارجع إليه في «خزانة الأدب»، وفي «الحاشية الهندية» للدماميني عند تعليقه على قول ابن هشام في كتاب «المغني»: «الخوف في هذا البيت يقين». والشاهد هنا أَنَّ (أَنْ) مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد الخوف بمعنى اليقين، واسْمُها ضمير الشأن محذوف، وخَبَرُها جملة (أَن لا أذوقُها).

(٢) تَبَرَّزَ: خرج إلى البَرَاز، وهو الأرض الواسعة الخالية من الشجر ونحوه، والغائط: المنخفض الواسع من الأرض، يقال: ذهب إلى الغائط وجاء منه، كناية عن التَّبَرُّز، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

(٣) الرَّحْل: مَسْكن الإنسان وما يستصحبه من الأثاث، وفي الحديث الشريف: «إذا ابتَلَّت النعال فالصلاة في الرِّحال».

خَيْرًا﴾ على أَن يكون [هُوَ] فَصْلاً، وقرأ محمد بن السميفع، وأَبو السَّمال: [هُوَ خَيْرٌ] على أَن يكون [هُوَ] ابتداءً و[خَيْرٌ] خبره والجملة تَسُدُّ مَسَدَّ المفعول الثاني لـ[تَجِدُوهُ].

ثم أَمَرَ الله تعالىٰ بالاستغفار، وأَوجب لنفسه صفة الغفران، لا إِلـٰه غيره، قال بعض العلماءِ: فالاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية ومن قوله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعهدتُ أَبِي رحمه الله تعالىٰ يستغفر إِثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام وَيأْثِرُ[2] في ذلك حديثاً، فكأَن هذا الاستغفار من النقص وتقلُّب الفكر أَثناءَ الصلاة، وكان السلف الصالح يصلون إِلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إِلى صلاة الصبح.

كمل تفسير سورة المزمل والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

---

(١) الآيتان (١٧، ١٨) من سورة (الذاريات).

(٢) يقال: أَثَرَ الحديثَ بمَعْنى نقله ورواه عن غيره، ومضارع (أَثَرَ) هذه هو (يَأْثُرُهُ ويَأْثِرُهُ) بضم الثاء وبكسرها (راجع لسان العرب).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المُدّثر

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩﴾.

اختلفت القراءَةُ في [الْمُدَّثِّر] على نحو ما ذكرناه في [الْمُزَّمِّل]، وفي حرف أُبَيِّ بن كعب: «الْمُتَدَثِّر» ومعناه: المُتَدَثِّر بثيابه، والدِّثارُ: ما يتغطَّى الإِنسان به من الثياب.

واختلف الناس، لم ناداه بالمدَّثِّر؟ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أَنه ﷺ لمَّا فرغ من رؤية جبريل عليه السلام على كرسيٍّ بين السماءِ والأَرض فرُعب منه ورجع إِلى خديجة، قال: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[1]، وقالت عائشةُ،

(١) أخرجه البخاري عن وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فقال أَبو سَلَمَة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلتُ له مثل الذي قلتَ، فقال جابر: لا أُحَدِّثك إلاَّ ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بِحِراء، فلما قضيتُ جواري هبطت، فنوديتُ فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أَر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أَرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أَرَ شيئاً، فرفَعْتُ رأسي فرأيتُ شيئاً، فأَتيتُ خديجة فقلتُ: دَثِّروني وصبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فدثَّروني وصبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③﴾، هكذا ساقه البخاري من هذا الوجه، ورواه مسلم من طريق عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن أَبي سَلَمة، قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أَنا أَمشي إذ سمعت صوتاً من السماءِ، فرفعت بصري قِبلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بِحِراءَ قاعد على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه ـ أي خفتُ وفزعتُ ـ حتى هويت إلى الأرض، فجئتُ إلى أَهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فأُنزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ . .﴾ إلى ﴿فاهْجُرْ﴾. وهذا السياق هو المحفوظ، ويقتضي أن الوحي قد نزل أولاً بقوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، لقوله في الحديث=



والنَّخعيُّ، وقتادة: نُودِي وهو في حال تدثُّر فدعي بحالٍ من أَحواله، ورُوي أنه كان تدثَّر في قطيفة، وقال آخرون: معناه: يا أيُّها النائم، وقال عكرمة: معناه: يا أيُّها المدَّثِّر للنبوة، وأثقالها.

واختلف الناس في أَول ما نزل من كتاب الله تعالىٰ، فقال جابر بن عبد الله، وأَبو سَلَمة، والنَّخعي، وجماعة: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ الآيات، وقال الزهري والجمهور: هو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وهذا هو الأَصح، وحديث صدر البخاري نصٌّ في ذلك[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ بِعْثة إِلى جميع الخلق، قال قتادة: المعنى: أَنذر عذاب الله ووقائعه بالأمم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ معناه: عَظِّمْه بالعبادة وبثَّ شرعه، ورُوي عن أَبي هريرة أَن بعض المؤمنين قال: بِمَ نفتتح صلاتَنا؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

= «فإذا المَلَك الذي جاءني بِحِرَاءَ»، ثم حدثت فترة، ثم نزل الوحي وتتابع. وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أن هذا الحديث قد أخرجه الطيالسي وعبد الرزاق، وأحمد، والبخاري، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن الضَّريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في المصاحف، ورواية أحمد في مسنده (٣/ ٣٢٥) تشبه في لفظها لفظ رواية مسلم، وقد أَخرج البخاري أيضاً الحديث من طريق عُقَيْل بلفظ مسلم.

(١) هذا حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أَول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤْيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤْيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِراءَ فيتحنَّث فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن يَنْزِع إلى أَهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءَه الحق وهو في غار حراءَ، فجاءَه الملَك فقال: اقرأ، قال: ما أَنا بقارئ، قال: فأخذني فَغَطني حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الْجَهْد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؟ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنتِ خُوَيْلد، فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني، فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلاَّ، والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحِم، وتَحْمل الكَلَّ، وتَكْسب المعدوم، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق...» إلى آخر الحديث، وقد أورد الإمام السيوطي هذا الحديث في «الدُّر المنثور» وذكر أن ممن أَخرجه عبد الرزاق، وأَحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقي من طريق ابن شهاب، عن عروة بن الزبير عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وهذا الحديث واضح الدلالة على أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هو أول ما نزل من القرآن كما ذكر ابن عطية رحمه الله.



واختلف المتأَولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ـ قال ابن سيرين، وابن زيد ابن أَسلم، والشافعي، وجماعة: هو أَمْرٌ بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الأَلفاظ استعارة في تنقية الأَفعال والنفس واعرض، وهذا كما تقول: فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر: دنس الثوب، ومنه قول الشاعر:

وَإِنِّـي بِحَمْـدِ اللهِ لا ثَـوْبَ فَـاجِـرٍ لَبِسْـتُ وَلاَ مِـنْ غَـدْرَةٍ أَتَقَنَّـعُ[1]

وقال الآخر:

لاَ هُـمَّ إِنَّ عَـامِـرَ بْـنَ جَهْـمِ أَوْذَمَ حَجًّـا فـي ثِيَـابٍ دُسْـمِ[2]

أَي دَنِسَة، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: ولا تلبسها على غدر ولا فجور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: المعنى: لا تلبسها من مكسب خبيث، وقال النَّخَعيُّ: المعنى: طهِّرها من الذنوب، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وقال طاووس: المعنى: قصِّرها وشمِّرها فذلك طُهْرة للثياب.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿والرِّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ حفص عن عاصم، والحسنُ، ومجاهدٌ، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَبو عبد الرحمن والنَّخَعي، وابن وثَّاب، وقتادة، وابن أَبي إِسحاق، والأَعرج: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ بضم الراءِ، فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأَصنام والأَوثان، وقيل: للأَصنام عموماً، قاله عكرمة، ومجاهد، والزهري، وقال ابن عباس: الرُّجْزُ: السُّخط، فالمعنى: اهجر ما يُؤَدي إِليه ويوجبه،

---

(١) هذا البيت قاله غيلان بن سَلَمة الثَّقفي، وهو في اللسان ـ ثوب ـ وفي الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والبحر المحيط، والدُّر المنثور، وفتح القدير، وقد نقل في اللسان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «معنى الآية: لا تَلْبس ثيابكَ على معصية، ولا على فجور كُفْر»، واحتج بقول الشاعر: إنِّي بِحَمْدِ الله... البيت. ويروى البيت «وَلا من خَزيَةٍ» بدلاً من «وَلاَ من غَدْرَةٍ»، والخِزْيَة: البَلِيَّةُ والخَصْلة يستحي منها الإنسانُ، والغَدْرَةُ: نقض العهد وتَرك الوفاء به، والتَّقَنُّعُ: التغطي بثوب أو نحوه، والمراد هنا أنه لم يفعل شيئاً يستحي منه ويتوارى خجلاً من الناس.

(٢) هذان بيتان من الرَّجز أوردهما صاحب اللسان ـ وذم ـ شاهداً على أن (أَوذَم) بمعنى أَوْجَبَ، يقال: أَوْذَم على نفسه حَجًّا أو سفراً: أَوجبه، والثياب الدُّسْمُ هي المتلطِّخة بالذنوب، يقول الشاعر: إن عامر بن جَهْم قد أحرم بالحجِّ وهو مُدَنَّس بالذنوب. والبيتان أيضاً في القرطبي وفي البحر المحيط، ولم ينسبهما أحدٌ ممن ذكرهما، والشاهد أن الراجز هنا كنَّى عن دَنَس النفس بالثياب الدَّنسة.



وقال الحسن: كل معصية رجزٌ، وروى جابر أن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية بالأوثان[(١)].

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ ـ فقال ابن عباس وجماعة: معناه: لا تُعْطِ عطاءً لِتُعْطَى أكثر منه، فكأنه من قولهم: «مَنَّ إذا أعطى»، وقال الضحاك: وهذا خاص بالنبي ﷺ ومباح لأمته لكن لا أَجْر لهم فيه، قال مكِّيٌّ: وهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا معنى أجنبي من معنى هذه السورة.

وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾: لا تقل: دعوتُ فلم أُجَبْ، ورُوي عن قتادة أن المعنى: لا تُدِلَّ بعملك[(٣)]، ففي هذا التأويل تحريض على الجِدِّ وتخويف، وقال ابن زيد: معناه: ولا تَمْنُن على الناس بِنبُوَّتك تستكثر بأَجْر أَو كسبٍ تطلبه منهم، وقال الحسن بن أَبي الحسن: معناه: ولا تَمْنُن على الله تعالىٰ بِجِدِّك تَستكثر أَعمالك ويقع لك بها إِعجاب، فهذه كلها من المنِّ الذي هو تعديد اليد وذكْرها، وقال مجاهد: معناه: ولا تَضْعُف تستكثر ما حَمَّلْناكَ من أَعباءِ الرسالة أَو تستكثر من الخير، فهذا من قولهم: «حَبْلٌ منين» أَي ضعيف[(٤)]. وفي قراءة ابن مسعود: [وَلاَ تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرِ]، وقرأَ الأَعمش: [تَسْتَكْثِرَ] بنصب الراءِ على تقدير «أَنْ» مضمرة، وضعَّف أَبو حاتم الجزم، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [وَلاَ تَمْنُنْ فَتَسْتَكْثِرْ] بالفاءِ العاطفة والجزم، وقرأَ أَبو السَّمال: [ولا تَمُنَّ] بنون واحدة مشددة.

---

(١) جاء هذا في حديث جابر الذي رواه الإمام أحمد من طريق ابن شهاب عن أَبي سلمة بن عبد الرحمن، يقول: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أَمشي سمعت صوتاً من السماءِ فرفعت بصري قِبَل السماءِ فإذا الملك الذي جاءَني بِحِرَاءَ الآن قاعد على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض، فَجُثِثْتُ منه فرقاً ـ أي فزعت ورُعبت ـ حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني، فزملوني، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، قال أَبو سَلَمة: الرُّجْزُ: الأوثان، ثم حمي الوحيُ وتَتَابع، اهـ. وهذه الرواية تفيد أن هذا التفسير من أبي سلمة.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (الرُّوم).

(٣) من قولهم: «أَدَلَّ عليه» بمعنى: وَثِق بمحبته فأفرط عليه، وهي بمعنى تَدَلَّل عليه.

(٤) ذكر ابن عطية ستة أقوال في الآية، وذكر القرطبي فيها أحد عشر تأويلاً.

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾، أي لوجه ربك وطلب رضاه، كما تقول: فعلتُ كذا لله تعالىٰ، والمعنىٰ: على الأذى من الكفار، وعلى العبادة، وعن الشهوات، وعلى تكاليف النبوة، قال ابن زيد: وعلى حرب الأحمر والأسود، لقد حمل ﷺ أمراً عظيماً.

و«النَّاقور»: الذي ينفخ فيه، وهو الصور، قاله ابن عباس وعكرمة، وقال خُفافُ ابنُ نَدْبة:

إِذَا نَاقُورُهُم يَوْماً تَبَدَّى ... أَجاب النَّاسُ مِنْ شَرْقٍ وغَرْبِ[(١)]

وهو «فاعول» من النَّقر، وقال أبو حبَّان[(٢)]: أَمَّنا زُرارة بنُ أَوْفى[(٣)] فلما بلغ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ خرَّ ميتاً، وروي أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ»؟ ففزع الصحابة فقالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[(٤)].

و﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ معناه: فيه عُسْرٌ في الأُمور الجارية على الكفار، فوصف الله تعالىٰ اليوم بالعُسْر لكونه ظرف زمان له، وكذلك تجيءُ صفته باليسر، وقرأ الحسن: [عَسِرٌ] بغير ياءٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ

---

(١) الناقورُ هو الصُّور الذي ينفخ فيه، والنَّقْرُ في كلام العرب: الصوت، يقول خُفاف: إن هؤلاءِ القوم لهم مكانتهم بين الناس، فإذا تنادوا يوماً لأمر أجابهم كل من في الشرق والغرب، والشاعر اسمه خُفافُ بن عُمَيْر بن الحارث بن الشريد السُّلَميُّ، واسم أُمِّه نَدبة ـ بفتح النون وبضمها، وإليها يُنسب، وهو أحد أَغربة العرب، أي من سودانهم، وهم ثلاثة: عنترة، والسُّلَيْك السَّعْدي، وخُفاف هذا.

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم، فهو في بعضها (أبو جناب)، وفي بعضها (أبو خُفاف)، وفي بعضها (أبو حِبَّان) ـ وهذا يتفق مع ما في القرطبي ـ، وجاء في الدر المنثور عن ابن سعد، والحاكم أن الذي قال ذلك هو (بَهْزُ بن حكيم)، قال: فكنت فيمن حمله.

(٣) هو زُرَارَةُ ـ بضم أوله ـ ابن أوفى العامري، الْحَرَشي، أبو حاجب البصري، قاضي البصرة، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني: «ثقة، عابد، من الطبقة الثالثة، مات فجأة في الصلاة سنة ثلاث وتسعين».

(٤) رواه ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد الإمام السيوطيُّ في «الدُّر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة، والطبراني، وابن مردويه.



﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ وعيدٌ محضٌ، والمعنى: أنا أكفي عقابه وشأنه كله، ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، فيروى أنه كان يلقَّب بالوحيد لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته، فذكر «الوحيد» في الآية في جملة النِّعم التي أُعطي، وإن لم يثبت هذا، فقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه: مُنفرداً قليلاً ذليلاً، فجعلت له المال والبنين[1]، فجاءَ ذكْر الوحْدة مقدمةً حَسُن معها موقع المال والبنين، وقيل: المعنى: خلقته وحدي لم يشركني فيه أحد، فـ[وَحِيداً] حال من التاءِ في [خَلَقْتُ][2].

و«الْمَالُ الممدودُ» قال مجاهد، وابن جُبير: هو أَلف دينار، وقال سفيان: بلغني أنه أَربعة آلاف، وقاله قتادة، وقيل: عشرة آلاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا مدٌّ في العدد.

وقال النعمان بن سالم: هي الأَرض لأَنها مُدَّت، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المال الممدود: الرَّيع الْمُسْتَغَلُّ مشاهرةً، فهو مَدٌّ في الزمان لا ينقطع.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ معناه: حضوراً متلاحقين، قال مجاهد وقتادة: كان له عشرة من الولد، وقال ابن جبير: كان له ثلاثة عشر، و«التَّمْهِيدُ» التَّوْطئة والتَّهيئة، قال سفيان: المعنى: بسطتُ له العيشَ بَسْطاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ وصفٌ لجشع الوليد ورغبتهِ في الازدياد من الدنيا، وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] زَجْرٌ وردٌّ على أُمنية هذا المذكور، ثم ذكر تعالىٰ عنه أنه كان معانداً مخالفاً لآيات الله وعِبَره[3]، يقال: بعير عنودٌ للَّذي يمشي مخالفاً للإبل، ويحتمل أن يريد بالآيات آيات القرآن، وهو الأَصح في التأويل بسبب كلام الوليد في

---

(١) فتكون (وَحيداً) حالاً من الضمير المحذوف العائد على (مَن) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾.

(٢) وقيل: يجوز أن يكون حالاً من ضمير النصب في (ذَرْنِي)، ويكون المعنى: ذرني وحدي معه فأنا أَجزيك في الانتقام منه.

(٣) في بعض النسخ: «وَغِيَره»، وكأنه من تغيُّر الحال، إذ يقال: لا أراني اللهُ بك غيَراً، أي أحوالاً متغيرة.



القرآن بأنه سحر، و«أُرْهِقُهُ» معناه: أُكلفه بمشقة وعُسر، و«صَعَود» عقبة في نار جهنم، وروى ذلك أَبو سعيد الخدريُّ عن النبي ﷺ[١]، كلما وُضع عليها شيءٌ من الإنسان ذاب، والصعود في اللغة: العَقَبة الشاقة.

قوله تعالىٰ مخبراً عن الوليد: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآية. روى جمهور من المفسرين أَن الوليد سمع من القرآن ما أَعجبه وَمَدَحه، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أَن يُقارب الإسلام، ودخل إِلى أَبي بكر الصديق رضي الله عنه مراراً، فجاءَه أَبو جهل فقال: يا وليد، أَشعرتَ أَنَّ قريشاً قد ذَمَّتْك بدخولك إِلى ابن أَبي قحافة، وزعَمَتْ أَنك إِنما تقصد أَن تأكل طعامه؟ وقد أَبغضتك لمقاربتك أَمر محمد، وما يخلصك عندهم إِلاَّ أَن تقول في هذا الكلام قولاً يُرضيهم، ففتنه أَبو جهل فافتتن، وقال: أَفْعَل ذلك، ثم فكَّر فيما عسى أَن يقول في القرآن، فقال: أَقول هو شعر، ما هو بشعر، أَقول: هو كاهن، ما هو بكاهن، أَقول: هو سحر يُؤْثر، هو قول البشر[٢]، أَي ليس مُنَزَّلاً من عند الله تعالىٰ، قال أَكثر المفسرين: فقوله تعالىٰ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاءٌ عليه وتَقْبيح لحاله، أَي أَنَّه ممن يستحق ذلك. ورُوي عن الزهري وجماعة غيره أَن الوليد حاجَّ أَبا جهل وجماعة من قريش في أَمر القرآن، وقال: إِن له والله لحلاوة، وإِن أَصله لَغَدِقٌ[٣]، وإِنَّ فرعه لَجَنَاةٌ[٤]، وإِنه ليحكم ما تحته، وإِنه ليَعْلُو ولا يُعْلى، ونحو هذا من الكلام، فخالفوه فقالوا له: هو شِعر، فقال: والله ما هو بِشِعر، ولقد عرفنا الشِّعر هَزَجَهُ وَبسيطه[٥]، قالوا: فهو كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، ولقد رأَينا الكهان وزَمْزَمَتهم[٦]، قالوا: فهو مجنون، قال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأَينا

(١) أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أَبي الدنيا، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي. (الدُّرُّ المنثور).

(٢) ذكره الواحدي بسنده في «أسباب النزول» عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير في تفسيره، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل.

(٣) من قولهم: أَغْدقت الأرضُ: أَخصبت، والعيشُ: اتَّسع، والمطر: كَثُر، فالمراد أنه كثير الخير والبركة.

(٤) الْجَنَاةُ: كلُّ ما يُجْنَى ويجمع من الشجر، والمراد أنه كثير الخير قريبه لمن يريد أن ينتفع به.

(٥) الهَزَج: نوع من بحور الشعر العربيِّ، سمِّي بذلك لتقارب أَجزائه، ولأن نغمته فيها ترنم خفيف مُطْرِب، والبسيط أيضاً أحد بحور الشعر الكثيرة الشيوع.

(٦) الزَّمْزَمة: صوتٌ مُبهم يديره الكاهن في حَلْقه وخيشومه، لا يُحرك فيه لساناً ولا شفة.

الجنون وخنقه[١]، قالوا: هو سِحْر، قال: أَمَّا هذا فيشبه أنه سِحْر، ويقول أقوال نَفْسه[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فيحتمل قوله تعالىٰ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أن يكون دعاءً عليه على معنى تقبيح حاله، ويحتمل أن يكون دعاءً مقتضاه استحسان منزعه[٣] الأول في مدحه القرآن، وفي نَفْيه الشِّعر والكهانة والجنون عنه، فيجري هذا مجرى قول النبي ﷺ لأبي جندل بن سهيل: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ»[٤]، ومجرى قول عبد الملك بن مروان: قاتل الله كُثَيِّراً، كأنه رآنا حين قال كذا[٥]، وهذا معنى مشهور في كلام العرب.

ثم وصف تعالىٰ إِدْباره واستكباره وأَنَّه ضلَّ عند ذلك وكفر، وإذا قلنا إن ذلك دُعاءٌ على مُسْتَحسن فعله فيجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيما احتَجَّ به للقرآن فرأى ما فيه من عُلُوِّ مرتبة محمد ﷺ فَعَبَس لذلك وبَسَرَ، أَيْ قطَّب وقَبَضَ ما بَيْن عينيه وارْبَدَّ وجهه حسداً له، فأَدْبَرَ، أَي ارْتَكَسَ في ضلاله، وزال إقباله أَوَّلاً ليهتدي وَلَحِقَتْه الكبرياءُ، وقال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَر، ومعناه: يُرْوى ويُحْمَل[٦]، أي يحمله محمد عن غيره، وعلى التأويل الأَول أن الدعاءَ عليه دعاءٌ على مُسْتَقْبَح فِعْله يجيءُ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ معنىً

---

(١) من الاختناق، وهو ما يفعله الإنسان بنفسه من تضييق الحَلْق.

(٢) ذكره الطبري بنحو من هذا.

(٣) أي مَيلَه واتجاهه الأول من مدح للقرآن ونفي للشعر عنه.

(٤) جاء هذا في حديث طويل عن صلح الحُدَيْبِيَة وما تبعه من أحداث، وقد أخرجه البخاري في كتاب الشروط، وأبو داود في الجهاد، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣١)، وفي الحديث أَنَّ «أبا بصير» وهو رجل من قريش أسلم وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلَيْن في طلبه طبقاً لما تمَّ الاتفاق عليه في عهد الحديبية، فسلمه النبي ﷺ للرجلين، ولكن أبا بصير احتال عليهما وقتل أحد الرجلين، ثم عاد إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذِمَّتك، قد رَدَدْتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال ﷺ: «وَيْلُ أُمِّه مِسْعَر حَرب لو كان له أَحد»، فلما سمع ذلك عرف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه سيردُّه إلى قريش فخرج حتى أتى سيفَ البحر، وخرج أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، واجتمع معهما نفر كثير... إلخ الحديث، وكلام الرسول ﷺ كان عن أَبي بصير.

(٥) يأتي هذا التعبير «قاتَلَ اللهُ فلاناً» بمعنى: لَعَنه أو قَتَله أو عاداه، وقد يأتي بمعنى التعجب من الشيء كقولهم: «تَرِبَت يَدَاه».

(٦) في بعض النسخ: «ويحتمل».



معاداً بعينه؛ لأن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يقتضيه[١]، لكنه إخبارٌ بترديده النَّظر في الأمر، وقد رُوي أن النبي ﷺ دعا الوليد، فقال له: أنْظُرْ وأُفكِّرُ، فلما فكَّر قال ما تقدم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

[سَقَر] هو الدرك السادسُ من جهنَّم على ما رُوي، و«أُصْلِيهِ» معناه: أجعله فيها مباشراً لنارها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ هو على معنى التَّعجب من عظم أمرها وعذابها، ثم بيَّن تعالىٰ ذلك بقوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾، المعنى: لا تُبقي على من أُلْقي فيها ولا تَذَرُ غايةً من العذاب إلاَّ أَوصلته إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأَبُو رَزِين، وجمهور الناس: معناه: مُغَيِّرَةٌ للبشرات، مُحرقة للجلود، مُسودة لها، فـ «الْبَشَرُ» جمع بشرة، وتقول العرب: لاحت النارُ الشيءَ إذا أَحرقته وسوَّدته، وقال الشاعر:

لاَحَــهُ الصَّيْــفُ والغَيــارُ وَإِشْفــا ... قٌ عَلَــى سَقْبَــة كَقَــوْسِ الضَّــالِ[٢]

وأَنشد أَبو عبيدة:

. . . . يــاابْنَــةَ عَمِّــي لاَحَنــي الْهَــوَاجِــرُ[٣]

---

(١) هكذا في الأصول، ولعله يريد: لأن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ كلام يقتضيه.

(٢) البيت للأعشى، وهو من قصيدته المعروفة «ما بُكاءُ الكبير بالأَطلال»، واستشهد به صاحب اللسان في «سَقَبَ» و«ضيل» والضمير في «لاحَهُ» يعود على حمار الوحش الذي ذكره في البيت السابق، ومعنى لاَحَه: غَيَّر لونه إلى سوادٍ، يقال: لاَحَهُ السَّفر والبَرْد والسُّقم والحُزْن والعطش بمعنى غيَّره، والغِيارُ: الغنيمة يأتي بها الإنسان لأهله، والمراد هنا أن الحمار الوحشي قد غيره الصيف والتعب في الغنيمة التي يأتي بها لرفيقته من الأُتُن وهي «السَّقْبَةُ»، وفي الديوان بدلاً من الغيار «الصِّيَالُ»، والمراد: المواثبة والعِراكُ مع غيره من الحمر دفاعاً عن هذه الأتان، والسَّقْبَة: الجحشة التي لا تلِدُ إلا ذكوراً، أو تضع أكثر ما تضع من الذكور، وفي الديوان «صَعْدَة» وهي الأَتَان أيضاً، والضَّالُ: شجر السِّدْر من شجر الشوك، وينبت في السهول والوعُور، وقوسُ الضَّال إذا بُرِيَتْ جَزلةً ليكون أَقوى لها، وإنما يحتمل ذلك منها لِخفَّةِ عودها، ذكر ذلك في اللسان، ثم استشهد بالبيت على ذلك، يشبه الشاعر الأتان بهذا القوس بعد أن وصف حمار الوحش بالسواد والتغير من أجل دفاعه عنها.

(٣) هذا عجز بيت استشهد به القرطبي أيضاً، والبيت بتمامه: =



وقال الحسن، وابن كيسان: [لَوَّاحَةٌ] بناءُ مبالغة من «لاحَ يَلوحُ» إذا ظهر، فالمعنى أَنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها، وقرأَ عطية العوفي: [لَوَّاحَةً] بالنصب.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ابتداءٌ وخبره مقدم في المجرور، ولا خلاف بين العلماءِ أَنهم خزنة جهنم المحيطون بأَمرها، الذين إِليهم جماع أَمر زبانيتها، وقد قال بعض الناس: إِنهم على عدد حروف «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ» لأَن بها تقووا، ورُوي أَن قريشاً لما سمعت هذا كثر إِلغاطهم[١] فيه وقالوا: لو كان هذا حقّاً فإِن العدد قليل، فقال أَبو جهل: هؤلاءِ تسعة عشر وأَنتم الدَّهْم[٢]، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم؟ وقال أَبو الأَشدّ ابن الجمحي[٣]: أَنا أجهضهم[٤] عن النار، إِلى غير هذا من أَقوالهم السخيفة، فنزلت في أَبي جهل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[٥] الآية. وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان[٦]: [تسعةَ عْشَرَ] بسكون العين من [عَشَرَ] لتوالي الحركات، وقرأَ أَنس بن مالك، وأَبو حيوة: [تسعةُ عشَرَ] برفع التاءِ، ورُوي عن أَنس بن مالك أَنه قرأَ: ﴿تسعة أعشر﴾، وضعفها أَبو حاتم[٧].

= تقــولُ مــا لاَحَــكَ يــا مُسَــافِــرُ ... يــابْنَــةَ عَمِّــي لاَحَنــي الْهَــوَاجِــرُ

والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر في وقت الظهيرة، تسأله: ماذا غيَّركَ أيها المسافر؟ فيقول لها: غيرني يا بنت عَمِّي شِدَّة الحرِّ في وقت الظهيرة، والبيت أَيضاً في «مجاز القرآن»، وفي «الألوسي».

(١) أَلْغَطَ القومُ: صوَّتوا أصواتاً مختلفة مبهمة لا تفهم.

(٢) الدَّهم ـ بفتح الدال ـ: العَدَدُ الكثير، يقال: جاءَ دهم من الناس، وجيش دهم أي كثير.

(٣) في بعض النسخ: «أبو الأَسْود»، وما أثبتناه، هنا يوافق ما في حاشية الجمل، واسمه أُسَيْد بن كِلْدة الجُمحي، كان شديد البأس، وكان من أعداءِ النبي ﷺ.

(٤) أي أُعجلهم عنها، وفي الحديث الشريف: «فأَجهضوهم عن أثقالهم يوم أُحد».

(٥) الآية (٢٤) من سورة (القيامة).

(٦) في بعض النسخ: «طلحة بن شبل»، وما أثبتناه يوافق ما في «المحتسب» ج٢ صفحة ٣٣٨.

(٧) قال أَبو الفتح في المحتسب: أما «تِسْعَةَ عْشَرَ» بفتح هاء تسعة وسكون عين عشر ـ فلأجل كثرة الحركات، وأن الاسمين جُعلا كاسْمٍ واحد، فلم يوقف على الأول منهما فيُحتاج إلى الابتداء بالثاني، فلما أُمِنَ ذلك أُسكن تخفيفاً أوله، وجعل ذلك أمارة لقوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه، وقال أَبو حاتم في «تِسْعَةَ أَعْشُرَ»: لا وجه له نعرفه، إلاّ أن يعني تسعة أَعْشرَ جمع العَشْر أو شيئاً غير الذي وقع في قلوبنا.



وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ تبيين لفساد أقوال قريش، أي: إنا جعلناهم خلقاً لا قِبَل لأحد من الناس بهم، وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنةً للكفار، لِيَقع منهم من التعاطي والطمع في المغالبة ما وقع، ويستيقن أهل الكتاب ـ التوراة والإنجيل ـ أَن هذا القرآن من عند الله تعالىٰ؛ إذ يجدون هذه العِدَّة في كتبهم المنزَّلة التي لم يقرأها محمد ﷺ ولا هو من أهلها، ولكن كتابه يصدق ما بين يَدَيْه من كتب الأنبياءِ صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ إذ جميع تلك حق يتعاضد، مُنَزَّل من عند الله تعالىٰ، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، وبورود الحقائق من عند الله عزَّ وجلَّ يزداد كلُّ من آمن إيماناً، ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب ومن المؤمنين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية... نوعٌ من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر، أي: جاروا وضلُّوا ولم يهتدوا لمقصد الحق، فجعلوا يستفهم بعضهُم بعضاً عن مراد الله تعالىٰ بهذا المثال استبعاداً أن يكون هذا من عند الله تعالىٰ، قال الحسين بن الفضل: السورة مكِّيَّة ولم يكن بمكة نفاقٌ، وإنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: بهذه الصفة وهذا الرَّيْن[1] على القلوب يُضل، ثُمَّ أخبر تعالىٰ أنه يهدي من يشاءُ من المسلمين المؤمنين لما ورد، وذلك لعلمهم بالقدرة، ووقوف عقولهم على كُنْه[2] سلطان الله تعالىٰ، فهم موقنون مُتَصَوِّرون صحة ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام وكُتُبُ الله تعالىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إعلاماً بأن الأمر كُلَّه لله سبحانه، وأنه فوق

---

(١) الرَّيْن: الغطاء والحجاب الكثيف.

(٢) الكُنْهُ: جوهر الشيء وحقيقته.



ما يُتَوَهَّم، وَأَنَّ الخبر إِنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها، والسماءُ[١] عامرة بأَنواع من الملائكة، كلُّهم في عبادة متصلة، وخشوع دائم وطاعة، لا فترة في شيءٍ من ذلك ولا دقيقة واحدة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، قال مجاهد: الضمير في قوله تعالىٰ: [هِيَ] للنار المذكورة، أَيْ يُذَكَّرُ بها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالىٰ، وقال بعض الحذَّاق: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يراد بها الحالُ والمخاطبة والنِّذَارة، قال الثعلبي: وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يراد نارُ الدنيا، أَي: إِن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة.

وقوله تعالىٰ وجلَّ: [كَلاَّ] ردٌّ على الكافرين وأَنواع الطاعنين على الحق، ثم أَقسم تعالىٰ بالقمر، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه، وقدرة الله تعالىٰ في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل، وكذلك هو القسم بالليل والصبح، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إِلى الله تعالىٰ، مالك الكلِّ، وَقِوامِ الوجود، ونُورِ السموات والأَرض، لا إِله إِلاَّ هو العزيز الغفار.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [إِذَا دَبَرَ] بفتح الدال والباءِ[٢]، وهي قراءة ابن عباس، وابن الزبير، وابن المسيب، ومجاهد، وعطاءٍ، ويحيى بن يَعْمَر، وأَبي جعفر، وشيبة، وأَبي الزِّناد، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وطلحة. وقرأَ نافع، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ بتسكين الدال وفعل رباعي، وهي قراءة سعيد بن جبير، وأَبي عبد الرحمن، والحسن ـ بخلاف عنهم ـ والأَعرج، وأَبي شيخ، وابن محيصن، وابن سيرين. قال يونس بن حبيب: «دَبَرَ» معناه: انقضى، و«أَدْبَرَ» معناه: تولَّى، وفي مصحف ابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب: [إِذَا أَدْبَرَ] بالأَلف في [إِذَا][٣] والفعل رباعي، وهي قراءة الحسن، وأَبي رُزَيْن، وأَبي رجاءٍ، ويحيى بن يَعْمَر، وسأَل مجاهدُ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما عن «دَبَرَ اللَّيْلُ»، فتركه حتى إِذا سمع المنادي الأَول للصبح قال له: يا مجاهد

(١) في بعض النسخ: «والمملكة عامرة»، وفي بعضها: «والسماء كلها عامرة».

(٢) الذي في الأصول «دَبَرَ» بفتح الدال والباء، ولم تُذكر (إِذَا)، وذكرناها لأنها بالألف، وهي تختلف عن قراءة عاصم برواية حفص (إِذْ) الثابتة في المصحف. واعتمدنا في ذلك على ما ذكره القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط.

(٣) زاد في بعض النسخ «وفتح الدال»، وهذا خطأٌ من النساخ لأن الفعل الرباعي لا تفتح معه الدال.

هذا حين دَبَر الليل، وقال قتادة: «دَبَرَ الليل»: وَلَّى، وقال الشاعر:

وَأَبِي الَّذي تَركَ الْمُلُوكَ وَجَمْعَهُمْ ... بِهُضَامَ هامِدَةً كَأَمْسِ الدَّابِرِ[1]

والعربُ تقول في كلامها: «كأَمْسِ الْمُدْبِرِ». قال أَبو علي: فالقراءتان جميعاً حسنتان.

وأَسْفر الصُبح: أَضاءَ وانتشر ضوْءُهُ قبل طلوع الشمس بكثير، والإِسْفارُ رُتَب: أَوَّل ووسط وآخر، ومن هذه اللفظة السَّفر والسِّفْر والسَّفِيرُ[2]، وسفرت المرأَة عن وجهها، وكلها ترجع إِلى معنى الظُّهور والانجلاءِ، وقرأَ عيسى بن الفضل، وابن السّميفع: [إِذا سَفَر]، فكأَن المعنى: طرح الظُّلمة عن وجهه، وضعَّفها أَبو حاتم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾، قال قتادة، وأَبو رزين، وغيرهما الضمير لجهنم، ويحتمل أَن يكون الضمير للنذارة وأَمْر الآخرة، فهو للحال والقصة، وتكون هذه الآية مثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[3]، و«الْكُبَر» جمع كبيرة، وقرأَ جمهور القراءِ: [لإِحْدَى] بهمزة في أَلف «إِحْدَى»، ورُوي عن ابن كثير أَنه قرأَ: [لاَحْدَى] دون همزة، وهي قراءة نصر بن عاصم، قال أَبو علي: التخفيف في «إِحْدَى

---

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب، ذكره شاهداً على أن الدابر بمعنى الذاهب، قال: «وأَمْسِ الدَّابرُ: الذَّاهب، وقالوا: مضى أَمْسِ الدَّابر وأَمْسِ المُدْبر، وهذا من التَّطوعِ المُشَامّ للتأكيد لأن اليوم إذا قيل فيه أَمْسِ فمعلوم أَنه دَبَر، لكنه أكّده بقوله: الدَّابر، قال الشاعر: وأَبي الذي. . . البيت»، والرواية فيه: «بصُهاب» بدلاً من «هضام» والهضام: الأرض المنخفضة التي تغيب عن النظر لانخفاضها. أَمَّا «صُهابُ» فموضع جعلوه اسماً للبقعة، وأَنشد الأصمعي هذا البيت شاهداً على ذلك. راجع اللسان ـ دَبَرَ وصَهَبَ.

(٢) السَّفرَ: الصُّبْحُ وَالفَجرُ، قال الأخطل:

إِنــي أَبِيــتُ وَهَــمُّ اللَّيْــلِ يَبْعَثُــهُ ... مِن أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّى يُفْرِجَ السَّفَرُ

أَي: أبيت أَسْري إلى انفجار الصبح.

والسِّفْر ـ بالكسر ـ: الكتابُ، وقيل: هو الكتاب الكبير، وقيل: هو جزءٌ من التوراة، والجمع أَسفار.

والسفيرُ: الرسولُ والمصلح بين القوم، والجمع سفراءُ، يقال: سفرتُ بين القوم إذا سعيتَ بينهم في الإصلاح. «راجع اللسان».

(٣) الآيتان (٦٧، ٦٨) من سورة (ص).



الكُبَرِ» أَن تجعل الهمزة فيها بَيْن بَيْن، فأَمَّا حذف الهمزة فليس بقياس، وقد جاءَ حذفها، قال أَبو الأَسود الدؤَليُّ لزياد:

يَـا أَبَـا الْمُغِيـرَةِ رُبَّ أَمْـرٍ مُعْضِـلٍ ... فَـرَّجْتُـهُ بـالنُّكْـرِ مِنِّـي والـدَّهَـا[1]

وأَنشد ثعلب:

إِنْ لَـمْ أُقَـاتِـلْ فَـالْبِسُـونِـي بُـرْقُعَـاً ... وَفَتَخَـاتٍ فـي الْيَـدَيْـنِ أَرْبَعَـا[2]

قوله تعالىٰ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾، قال الحسن بن أَبي الحسن لاَ نذير أَدْهى من النار، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] حال من الضمير في [إِنَّهَا]، أَوْ من قوله تعالىٰ: [لإِحْدَى]، وكذلك أَيضاً على الاحتمال في أَن تكون [إِنَّها] يراد بها قصة الآخرة وحال المعاد. وقال أَبُو رَزِين: الله جلَّ ذِكْره هو النذير، فهذا القول يقتضي أَن [نَذِيراً] مفعول لفعل تقديره: اعبدوا نذيراً للبشر، أَو ادعو نذيراً للبشر، وقال ابن زيد: النذيرُ محمد ﷺ، فهذا القول يقتضي أَن [نذيراً] معمول لفعل تقديره، نادِ نذيراً، أَو بلغ نذيراً، ونحو هذا، ويحتمل أَن يكون [نَذِيراً] مصدراً مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[3]؟ وهو اختيار الخليل في هذه الآية، ذكره الثعلبيُّ، قال: ولذلك يوصف به المؤنث. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [نَذِيرٌ] بالرفع على إِضمار «هو».

قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، قال الحسن: هو وعيد نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[5].

---

(١) أبو الأسود هو عَمْرو بن سفيان بن جندل، من التَّابعين، وكانت له أَخبار مع زياد بن أَبيه قال فيها شعراً، والأمْرُ المُعْضل هو الشديد المُعْجِز، والنُّكْرُ: الدهاء والفطنة، والدَّهَا: العَقْلُ وجودةُ الرأي والبصرُ بالأُمور، يقول: إنه بعقله وفطنته يتغلب على الصعاب والمشكلات، والشاهد حذف الألف في «أَبَا».

(٢) البُرْقُع: بضم القاف وبفتحها: غطاءٌ تغطي به البدوية وجهها، ولا يظهر منه سوى العينين، والفَتَخَات: جمع فَتْخَة وَفَتَخَة، وهي حَلْقة تلبس في الإصبع كالختم ولا فصَّ فيها، وكانت نساء الجاهلية يلبسنها في أصابعهن العشر، وقد تكون في أصابع الرجلين، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: القُلْبُ والفَتَخَةُ. والشاهد في البيت هنا حذف الهمزة في «فَالْبِسُوني».

(٣) من الآية (٤٥) من سورة (سبأ).

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف).

(٥) من الآية (٢٤) من سورة (الحجْر).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هو بيانٌ في النِّذارة، وإعلام بأَن كل أَحد يسلُك طريق الهدى والحق إذا حقَّق النظر، أَو بعينه يتأَخَّر عن هذه الرتبة لغفلته وسوءِ نظره.

ثم قوَّى تعالىٰ هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ إذْ لزم بهذا القول أَن المقصِّر مرتهن بسوءِ عمله، وقال الضحاك: المعنى: كلُّ نفس حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتهن الله تعالىٰ أَحداً من أَهل الجنة إن شاءَ الله تعالىٰ. والهاءُ في [رَهِينَةٌ] للمبالغة، أَو على تأَنيث اللفظ لا على معنى الإنسان.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ استثناءٌ ظاهر الانفصال، وتقديره: لكن أَصحاب اليمين؛ وذلك لأَنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَصحاب اليمين في هذه الآية أَطفال المسلمين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة عليهم السلام، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وقال الحسن، وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بِمُرْتَهَنين. ثم ذكر تعالىٰ حال أَصحاب اليمين، وأَنهم في جنات يسأَل بعضهم بعضاً عمَّن غاب من معارفهم، فإذا علموا أَنهم مجرمون في النار قالوا لهم ـ أَو قالت الملائكة ـ: «ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ»، و«سَلَكَ» معناه: أَدْخل، ومنه قول أَبي وَجزة السعديِّ:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفاقِ مِهْداجِ[1]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ

---

(١) قال أبو وَجْزة هذا البيت في وصف حُمُر الوحش، ومعنى سَلَكْنَ: أَدْخَلْنَ، وهو الشاهد هنا، والشَّوَى: اليدان والرجلان، والمَسَكُ: الأسورةُ من العاج وغيره، وقد استعاره أَبو وَجْزَةَ فجعل ما تُدخل فيه الأُتُنُ أَرجلها من الماء مَسَكاً، أي سواراً حول أطرافها. وَجَوَّابةُ الآفاق هي السحابة التي تطوف بالآفاق، جعل الماء نَسْلاً لها لأن الريح تستدرُّ السحاب وتُلْقِحُهُ فيمطر، فالماء من نسلها، والمهداجُ من الهَدَجَة، وهو حنين الناقة على ولدها، يقول: إن الأُتُن أتت في طلب الماء ليلاً، وإنها أَدخلت أرجلها في ماءٍ فالتفت حولها كالأساور، وهو ماءٌ تنزله الريح من السحابة التي لها صوت كصوت الناقة حين تَحِنُّ على ولدها.



حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم، وفي نَفْي[1] الصلاة يدخل الإِيمان بالله تعالىٰ، والمعرفةُ به، والخشوع له والعبادة. والصلاةُ تنتظم مُعْظَمَ الدين وأَوامرَ الله تعالىٰ وواجبات العقائد. وإِطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعيةً وكل احتمال تندب إِليه الشريعة بقول أَو فعل. والخَوْضُ مع الخائضين عُرْفُه في الباطل، قال قتادة: المعنى: كُلَّما غوى غاوٍ غَوَوْا معه، والتكذيبُ بيوم الدين كُفْرٌ صراحٌ بالله تعالىٰ.

و«اليقينُ» معناه عندي: صحةُ ما كانوا يكذبون به من الرجوع إِلى الله تعالىٰ والدار الآخرة، وقال المفسرون: «اليقينُ»: الموت، وذلك عندي ـ هنا ـ مُتَعَقَّبٌ؛ لأَن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حيٌّ، فإِنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية فهو الشيءُ الذي كانوا يكذبون به وهم أَحياءٌ في الدنيا فتيقنوه بعد الموت، وإِنما يُفَسَّر اليقين بالموت في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2].

ثم أَخبر تعالىٰ أَن شفاعة الشافعين لا تنفعهم، فتقرَّر من ذلك أَنَّ ثَمَّ شافعين، وفي صحة هذا المعنى أَحاديث، قال ﷺ: «تشفع الملائكة ثم النبيُّون ثم العلماءُ ثم الشهداءُ ثم الصالحون، فَيُشَفَّعون، ثم يقول الله تعالىٰ: شفع عبادي وبقيت شفاعة أَرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان له إِيمان»[3]. وروى الحسن أَنَّ الله يُدخل بشفاعة رجل من هذه الأُمة إِلى الجنة مثل ربيعة ومضر، وفي رواية أَبي قُلابة: أَكثر من بني

---

(١) في إحدى النسخ: «وفي معنى الصلاة».

(٢) الآية (٩٩) من سورة (الحِجْر).

(٣) حديث الشفاعة حديث طويل، وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، وفي لفظ البخاري في كتاب التوحيد: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امْتُحِشُوا، فَيُلْقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماءُ الحياة... الحديث»، وفي لفظ أَحمد (٣/ ٩٤): «ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، قال: فيقبض قبضة من النار، أو قال قبضتين، ناس لم يعملوا خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حِمماً، قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة... إلخ». ومعنى (امتحشوا) أنهم تناولهم اللهب فأحرق جلودهم فكشف العظم وشيَّط أعاليه.



تميم(١). وقال الحسن: كنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته(٢).

ثم قال تعالىٰ وجلّ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، أي والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة؟ وقوله تعالىٰ في صفة الكفار المعرضين في تَوَلٍّ واجتهادٍ في نفور: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ إثبات لجهالتهم، لأن الحُمُر من جاهل الحيوان جداً، وقرأ الأعمش: [حُمْرٌ] بإسكان الميم، وفي حرف ابن مسعود: «حُمُرٌ نافِرَةٌ»، وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاءِ، وقرأ الباقون بكسر الفاءِ، واختلف عن نافع، وعن الحسن، والأعرج، ومجاهد، فأمَّا فتح الفاءِ فمعناه: استنفرها فزعُها من القَسْورة، وأما كسْر الفاءِ فعلى أن «نَفَرَ» و«اسْتَنْفَرَ» بمعنى واحد، بمنزلة «عَجِبَ» و«اسْتَعجبَ» و«سَخِرَ» و«اسْتَسْخرَ»، فكأنها نفرت هي، ويُقَوِّي ذلك قوله تعالىٰ: [فَرَّتْ]، وبذلك رجح أبو علي قراءة الكسر(٣).

واختلف المفسرون في معنى «الْقَسْوَرَة» ـ فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعريُّ، وقتادة، وعِكْرمة: القَسْوَرة: الرُّماةُ، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، وجمهور من اللغويين: القَسْورة: الأسدُ، وقال الشاعر:

مُضَمَّـــرٌ تَحْـــذَرُهُ الأَبْطـــالُ كَـــأَنَّـــهُ الْقَسْـــوَرَةُ الـــرِّئْبَـــالُ(٤)

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ قال: يقولون: كلما غَوَى غاوٍ غوينا معه، وفي قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ قال: تعلموا أن الله يُشَفِّع المؤمنين يوم القيامة بعضهم في بعض، قال: وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن في أُمَّتي رجلاً ليُدخلن الله الجنة بشفاعته أكثر من بني تميم»، وقال الحسن: «أكثر من ربيعة ومُضر».

(٢) في آخر الحديث في الهامش السابق: «قال: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»، وأخرجه أبو داود في الجهاد.

(٣) قال الفراءُ في «معاني القرآن»: وهما جميعاً كثيرتان في كلام العرب ـ يعني اللغتين ـ ثم أنشد دليلاً على الكسر:

أَمْسِـــكْ حِمـــارَكَ إِنَّـــهُ مُسْتَنْفِـــرٌ فـــي إِثْـــرِ أَحْمِـــرَةٍ عَمَـــدْنَ لِغُـــرَّبِ

و(غُرَّب) جبل دون الشام في بلاد بني كلب، وعنده عين ماء يقال لها: الغُرَّبة، والبيت في القرطبي وفي المحيط وفي اللسان.

(٤) الضُمور: الهزالُ والتصاق البطن بالظهر، وهو دليل على سلامة الجسم، والقسورة: الأسد، وهذا هو المعروف فيه، وإن كان اللغويون قد ذكروا فيه أقوالاً كثيرة، فهو الرَّامي والصائد، والكلب، والعزيزُ يَقْتَسِر غيره ويقهره، والرئبال: واحد من أسماءِ الأسد، يُهمز ولا يُهمز، ولم أقف على قائل البيت.



وقال ابن جبير: القَسْوَرة: رجالُ القنص، وقاله ابن عباس أيضاً، وقيل: القَسْورةُ: رِكْزُ الناس، وقيل: القَسْورة: الرجال الشداد، قال لبيد:

إِذَا مَـا هَتَفْنَـا هَتْفَـةً فـي نَـدِيِّنَـا أَتَانَا الرِّجالُ الْعَانِدونَ الْقَسَاوِرُ[١]

وقال ثعلب: القَسْوَرة: سوادُ أَوّل الليل خاصة لا آخره. واللفظة مأخوذة من القَسْر الذي هو الغَلَبة والقهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ معناه: من هؤلاءِ المعرِضين، أَي يريد كل إِنسان منهم أَن ينزل عليه كتاب من الله تعالىٰ، وكان هذا من قول عبد الله بن أَبي أُمية وغيره، ورُوي أَنَّ بعضهم قال: إِن كان يُكتب في صحفٍ ما يُعمل فلتعرض تلك الصحف علينا، فنزلت هذه الآية. و[مُنَشَّرَةً] معناه: غير مطويةٍ، منشورة، وقرأَ سعيد بن جبير: [صُحْفاً] بسكون الحاءِ، وهي لغة تميمية، وقرأَ: [مُنْشَرَةً] بسكون النون وتخفيف الشين، وهذا على أَن يشبه «نَشرَ الثَّوبَ» بـ «أَنْشَر اللهُ الميتَ»؛ إِذ الطيُّ كالموت، وقد عكس التيميُّ التشبيه في قوله:

رَدَّتْ صَنَـائِعُـهُ عَلَيْـهِ حَيَـاتَـهُ فَكَـأَنَّـهُ مِـنْ نَشْرِهَـا مَنْشُـورُ[٢]

ولا يقال في الميت يَحْيَا: مَنْشُورٌ إِلاَّ على التشبيه بالثوب، وأَما محفوظ اللغة فهو

(١) هذا بيت من «متفرقات» نسبت إلى لبيد، وذكرت في آخر الديوان، والرواية فيه «الصائِدُونَ» بدلاً من «العائِدُونَ» وهو في القرطبي «العائدون»، وفي البحر المحيط «الصائدون» وفي فتح القدير «العابدون». ويحاول بعض الشراح توضيح معنى «الصائد» بأنه من الصَّيَد وهو مَيْل العنق من الكبر أَو من المرض، أما «العائدون» و«العابدون» فلا نجد لهما هنا معنى، وأما «العاندون» فهي جمع عاند وهو الباغي الذي يردُّ الحق مع العلم به، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، قالوا في تفسيره: هو الطاغي المجاوز للقدر، الذي يعرف الشيءَ فيميل عنه ويأباه. والنَّدِيُّ: المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه، فإذا تفرقوا عنه فليس بنديٍّ، ومثله النادي، والقساور: جمع قسورة وهو الأسد في الأصل، والمرادُ به هنا الرجال الأشداءُ. يقول: إذاما صِحْنَا صيحة القوة في مجتمعنا خضع لنا الرجال الأشداءُ المتكبرون الذين لا يخضعون لأحدٍ كبراً وعناداً.

(٢) الصنائع: جمع صنيعة، وهي ما أعطيته وأسديته من معروف أو يد إلى إنسان. ونَشْرُ الصنائع: إِذاعَتُها وشهرتها بين الناس، ومنشور هنا بمعنى أَنَّه حيٌّ، يقول: إن ما صنعه من معروف وخير ذاع في الناس وانتشر حتى ردَّ على الممدوح حياته فكأنه هو نفسه حيٌّ بين الناس، والشاهد هنا أَن الشاعر شبَّه إحياءَ الممدوح بنشر المعروف والخير، وهذا عكس المألوف وهو تشبيه الثوب المطوي بالميت كأنه ميت بطَيِّه، فإذا نُشِر صار حيّاً.



«نَشَرْتُ الصحيفةَ» و«أَنْشَرَ اللهُ الميِّتَ»، وقد جاءَ عنهم «نَشَرَ اللهُ الميِّتَ».

وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] ردٌّ على إرادتهم، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، المعنى: هذه العلَّةُ والسبب في إعراضهم، فكأن جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم من الهدى حتى هلكوا. وقرأ أبو حيوة: [تَخافونَ] بالتاءِ من فوق، ورويت عن ابن عامر. ثم أعادَ تعالىٰ الردَّ والزجر بقوله تعالىٰ: [كَلاَّ]، وأخبر أن هذا القول والبيان وهذه المحاورة بجملتها تذكرة، فمن شاءَ وفَّقه لذكْر معاده، ثم أخبر أن ذكْر الإنسان معاده، وجَرْيَه إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالىٰ، وليس يكون شيءٌ إلاَّ بها.

وقرأ نافع، وأهل المدينة، وسلام، ويعقوب: [تَذْكُرُونَ] بالتاءِ من فوق، وقرأ أبو جعفر، وعاصم، وأبو عمرو، والأعمش، وطلحة، وابن كثير، وعيسى، والأعرج: [يَذْكُرُونَ] بالياءِ من تحت، ورُوي عن أبي جعفر بالتاءِ من فوق وشدِّ الذَّال، كأنه «تَتَذَكَّرُون» فأدْغم.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ خبر جزم، معناه أن الله تعالىٰ أَهْلٌ بصفاته العُلَى، ونِعَمه التي لا تُحصى، ونِقَمه التي لا تُدفع، لأن يُتَّقى ويُطاع، ويُحْذَرَ عصيانُه وخلافُ أمره، وأنه تعالىٰ بفضله وكرمه أَهْل لأن يغفر لعباده إذا اتَّقوه. وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام: «يقول ربكم جلَّت عظمته: أَنا أَهلٌ أَن أُتَّقى فلا يجعل معي إله غيري، ومن اتَّقى أَن يَجْعل معي إلهاً غيري فأَنا أَغفر له»[1]، وقال قتادة: هو أَهلٌ لأَن تُتَّقى محارمُه، وأَن يغفر الذنوب.

كمل تفسير سورة المدَّثِّر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد، والدارميُّ، والترمذي وحَسَّنه، والنسائي، وابن ماجه، والبزَّار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عديٍّ وصححه، وابن مردويه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكر ابن كثير في تفسيره أن البغويَّ وغيره رواه من حديث سهيل بن عبد الله القطعي به، وذكر أيضاً عن الترمذي أنه قال: «حسن غريب وسُهَيْل ليس بالقوي»، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه، وابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون: سُئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ قال: «يقول الله: أنا أَهلٌ أَن أُتقى فلا يُجعل معي شريك، فإذا اتُّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أهل أن أَغفر ما سوى ذلك».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة القيامة

وهي مكية بإجماع من أَهل التأويل، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: من سأَل عن القيامة أَو أَراد أَن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأْ هذه السورة، وقال المغيرة بن شعبة[1]: يقول الناس: القيامة القيامة، وإِنما قيامةُ المرءِ موتُه، ورُوي أَيضاً عن ابن جبير أَنه حضر جنازة رجل فقال: أَمَّا هذا فقد قامت قيامتُه، ورُوي مثله عن علقمة، ذكره الثعلبي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقيامة الرجل في خاصته ليست بالقيامة الجامعة لجميع الخلق بعد البعث، لكن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كأَنه قال هذا لمن يستبعد قيام الآخرة، ويظن طول الأَمد بينه وبينها، فتوعَّده بقيامة نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قرأَ جمهور السبعة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقرأَ ابن كثير، والحسن ـ بخلاف عنه ـ والأعرج: [لأُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ * وَلأُقْسِمُ][2] فأَما القراءة الأُولى فاختلف في تأْويلها ـ فقال ابن جبير: [لَا] استفتاح كلام بمنزلة «أَلَا»، وأَنشدوا على ذلك:

---

(١) هو المغيرةُ بن شُعبة بن مسعود بن معتِّب الثَّقفي، صحابي مشهور، أَسلم قبل الحُدَيْبيَةَ وولي أَمر البصرة ثم الكوفة، مات سنة خمسين على الصحيح. (تقريب التهذيب).

(٢) قال الطبري في تفسيره: «والقراءة التي لا أَستجيز غيرها في هذا الموضع «لا» مفصولةً».



فَـلاَ وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ الْعَـامِـرِيِّ   لا يَـدَّعـي الْقَـوْمُ أَنِّـي أَفِـرْ[(١)]

وقال أَبو علي: [لاَ] صلةٌ زائدة كما زيدت في قوله تعالىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)]، ويُعترضُ هذا بأَنَّ هذه في ابتداءِ كلام، ولا تُزادُ «لا» و«ما» ونحوهما من الحروف إلاَّ في تضاعيف كلام، فينفصل عن هذا بأَن القرآن كلَّه كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا. وقال الفراءُ: [لاَ] نفْيٌ لكلام الكفار وزَجْرٌ لهم وردٌّ عليهم. ثم استأَنف تعالىٰ ـ على هذه الأَقوال الثلاثة ـ قوله تعالىٰ: ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وأَقْسم الله تعالىٰ بيوم القيامة تنبيهاً منه لعظمته وهوله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾، القول في [لاَ] على نحو ما تقدم.

وأَما القراءة الثانية فتحتمل أَحد أَمرين: إِمَّا أَن تكون اللام دخلت على فعل الحال، والتقدير: لأَنَا أُقسم، فلا تلحق النون لأَن النون إِنما تدخل في الأَكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل، فهي تلزم المستقبل في الأَكثر، وإِما أَن يكون الفعل خالصاً للاستقبال، فكان الوجه والأَكثر أَن تلحق النون، إِمَّا الخفيفة وإِمَّا الثَّقيلة، لكن قد ذكر سيبويه أَن النون قد تسقط مع إِرادة الاستقبال وتُغني اللام عنها، كما قد تسقط اللام وتُغني النون عنها، وذلك في قول الشاعر:

وَقتيـلُ مُـرَّةَ أَثْـأَرَنَّ فَـإِنَّـهُ   فَـرْغٌ، وَإِنَّ قَتِيلَهُـمْ لَـمْ يُثْـأَرِ[(٣)]

---

(١) هذا البيت لامرىء القيس قاله من قصيدة يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصَّيْد، وقد بدأها بقوله:

أَحَـارِبْـنَ عَمْـرٍو كَـأَنِّـي خَمِـرْ   وَيَعْـدُو عَلَـى الْمَـرْءِ مـا يـأْتَمِـرْ
فَـلاَ وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ العَـامِـرِيِّ   لاَ يَـدَّعِـي الْقَـوْمُ أَنـي أَفِـرْ

يخاطب الحارث بن عمرو بقوله: إني أُحِسُّ بأني مريض أَو أُصبت بالسُّكر، والمرءُ يرجع إليه ما يريد هو أن يوقعه بغيره، ثم يخاطب ابنة العامريِّ بأنه رجل شجاع، ولا يملك أحد أن يدعي عليه بأنه جبان يفر من المواجهة، وقد استدلوا بهذا البيت على أن «لا» أداة استفتاح بمنزلة «أَلاَ».

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد).

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها عامر بن الطُّفيل بعد أن هُزم قومه أمام غطفان في يوم يُسَمَّى يوم الرَّقَم، وقد قُتل أَخوه حنظلة بن الطفيل في هذا اليوم، وهو الذي يُسميه قتيل مُرَّة، وعامِرُ هذا فارس أدرك الإسلام ولم يُسلم، والرواية الصحيحة للبيت كما في المفضليات ٣٦٤ والأصمعيات ٢٥٢ وخزانة الأدب ٤/٢١٦ هي مع بيت قبله:

وَلأَثْـأَرَنَّ بِمَـالِـكٍ وَبِمَـالِـكٍ   وَأَخـي الْمَـرْوْراةِ الَّـذي لَـمْ يُسْنَـدِ =



المراد: لأثْأَرَنَّ.

وأَمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فقيل: [لاَ] نافية، وإن الله تعالىٰ أَقسم بيوم القيامة ونَفَى أن يُقسم بالنفس اللَّوامة، نصَّ عليه الحسن، وقد ذهب هذا المذهب قومٌ ممن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ وذلك قلِقٌ، وهو في القراءة الثانية أَمكن، وجمهور المتأَولين على أَن الله تعالىٰ أَقسم بالأَمرين.

واخْتُلف في «النَّفْسِ اللَّوَّامة»، ما معناه؟ فقال الحسن: هي اللَّوَّامة لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه، فهي ـ على هذا ـ ممدوحة، ولذلك أَقسم الله تعالىٰ بها، وقال ابن عباس، وقتادة: هي الفاجرة الجشعة اللَّوَّامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأَعْراضها، فهي ـ على هذا ـ ذميمة، وعلى هذا التأويل يحسن نَفْي القسم بها، والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر، وقال ابن جبير ما معناه: إنَّ القَسَم بها من اسم الجنس لأَنها تلوم على الخير والشر، وقيل: المرادُ نفس آدم عليه السلام لأَنها لم تزل لائمة له على فعله الذي أَخرجه من الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأَمارة بالسوءِ فإِنَّها لوامة في الطرفين، مرةً تلوم على ترك الطاعة، ومرةً تلوم على فوت ما تشتهي، فإِذا اطمأَنت خلصت وصفت.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ، و«الإِنسان» اسم الجنس، وهذه أَقوال كانت لكفَّار قريش، فعليها الرَّدُّ. وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بالنون ونصب الميم من العظام، وقرأَ قتادة بالتاءِ ورفع الميم من العظام، ومعنى ذلك: في

= وَقَتِيـــلِ مُـــرَّةَ أَثْـــأَرَنَّ فَـــإِنَّـــهُ ... فَـــرَغٌ وَإِنَّ أَخـــاهُـــمُ لَـــمْ يُقْصَـــدِ

فإِن القصيدة دالية وليست رائية، أما أَخو المَرَوْراة فهو أخوه الثاني «الحكم بن طفيل» الذي خَنق نفسه لما شعر بالهزيمة ومات في مكان يُسمَّى «المَرَوراة»، وإِليه نسب بهذه الصيغة. ومعنى «فَرْعٌ»: رأسٌ عالٍ في الشرف، ولم يقصد: لم يُقتل، يقال: «أَقْصَدْتُ الرجلَ» إذا قتلته. ويروى (فرِغٌ) بمعنى هَدَر، والثَّأْرُ هو قتل القاتل، والبيت شاهد على أَن الفعل المضارع قد يخلو من اللام استغناءً بالنون، والأَكثر في اللغة أن يجتمعا فيقال: لأَثْأَرَنَّ. وكلمة (قتيل) يجوز فيها الرفع والنصب والجرّ، وتعليل ذلك واردٌ في كتب النحو واللغة.



القيامة وبعد البعث من القبور، وقرأ أَبو عمرو بإِدغام العين في العين.

ثم قال تعالىٰ: (بَلَى)، وهي إِيجابُ ما نُفي، وبابُها أَن تأْتي بعد النفي، والمعنى: بل نجمعها قادرين، فنصب (قَادِرِينَ) على الحال، وقرأَ ابن أَبي عبلة: [قَادِرُونَ] بالرفع. وقال القتبي: ﴿ نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ معناه: نُتقِنُهَا سَوِيَّةً، والبنان: الأَصابع، وكأَن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناءِ، والإِرمام قيل لهم: إِنها تجمع ويُسَوَّى أَكثرها تفرقاً وأَدَقُّها أَجزاءً وهي عظام الأَنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث. وقال ابن عباس وجمهور المفسرين ﴿ نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾: نجعلها في حياته هذه بضعة أَو عظماً واحداً كخُفِّ البعير لا تفاريق فيه، فكأَن المعنى: قادرين الآن في الدنيا على أَن نجعلها دون تفرُّق فتقل منفعته بيده، فكأَن التقدير: بَلَى نحن أَهل أَن نجمعها، قادرين الآن على إِزالة منفعته بيده، ففي هذا توعُّدٌ ما. والقول الأَول أُجري مع رصف الكلام، ولكن على هذا القول الآخر جمهور من العلماءِ[1].

قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾. قال بعض المتأَولين: الضمير في [أَمَامَهُ] عائد على الإِنسان، ومعنى الآية أَن الإِنسان إِنما يريد شهواته ومعاصيه ليمْضي فيها أَبداً قدماً راكباً رأْسه ومطيعاً أَمله ومُسَوِّفاً بتوبته. قاله مجاهد، والحسن، وعكرمة، وابن جبير، والضحاك والسدي، وقال السُّدي: المعنى: ليظلم على قدر طاقته، وقال الضحاك: المعنى: يركب رأْسه في طلب الدنيا دائماً. وقوله تعالىٰ: [لِيَفْجُرَ] تقديره: لكي يفجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أَن الضمير في [أَمامَهُ] عائد على «يوم القيامة»، والمعنى أَنَّ الإِنسان هو في زمان وجوده أَمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه، فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه، ونظير قوله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ ﴾ قول قَيْس بنِ سَعْدٍ:

---

(١) من أسرار البلاغة القرآنية هنا أن الآية وهي تردُّ على إنكار الكفار لجمع العظام، لم تكتف ببيان قدرة الله تعالىٰ على جمعها، بل ذكرت شيئاً آخر أدق من مجرد الجمع وأدلَّ على القدرة وهو التسوية، ثم إن العلم الحديث قد اكتشف سرَّ البصمة التي في أطراف الأصابع، وهي علامة من علامات القدرة الإلهية ذكرتها الآية قبل العلم وأهله بمئات السنين.



أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ[(١)]

و[بَلْ] في أول الآية إضرابٌ على معنى الترك لا على إبطال الكلام الأول، وقد تجيءُ «بَلْ» لإبطال الكلام الذي قبلها.

وسؤال الكافر ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؟ هو على معنى التكذيب والهُزْءِ، كما تقول لِمُحَدِّثٍ بأمر تُكَذِّبه: متى يكون هذا؟ و«أَيَّانَ» لفظة بمعنى «متى»، وهي مبنيَّة لتضمنها معنى الاستفهام، فأشبهت الحروف المُضَمَّنَة المعاني، وكان حقُّها أَن تُبْنَى على السكون، ولكن فتحت النون لالتقاءِ الساكنين: الألفُ وهي.

وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجحدري، وعاصم، والأعمش، وأبو جعفر، وشيبة: [بَرِقَ] بكسر الراءِ بمعنى: شَخَص وشق وحار[(٢)]، وقرأ نافع، وعاصم ـ بخلاف ـ وعبد الله بن أَبي إسحاق، وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم: [بَرَقَ] بفتح الراءِ بمعنى: لَمَعَ وصار له بَرْقٌ عند الموت، والمعنى متقارب في القراءَتين، وقال أبو عبيدة: بَرَقَ بالفتح: شَقَّ، وقال مجاهد: هذا عند الموت، وقال الحسن: هذا في يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ على أنه فاعل، وقرأ أبو حيوة: [وخُسِفَ] بضم الخاءِ وكسر السين ﴿ٱلْقَمَرُ﴾ مفعول لم يُسَمَّ فاعله، يقال: خَسَفَ القمرُ وخَسَفَه اللهُ، وكذلك الشمس، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين: الخسوف والكسوف بمعنى واحد، وقال ابن أبي أُوَيْس[(٣)]: الكسوفُ: ذهاب بعض النور،

---

(١) هذا البيت قاله قَيْسُ بنُ سَعْد بن عُبادة الخزرجي الأنصاري، وهو صحابي جليل، وقد قاله مع بيت آخر أمام معاوية بن أبي سفيان، فقد طاول رومياً أمام معاوية ـ أو غيره من الأمراء ـ فتجرَّد قيس من سراويله وألقاها إلى الرومي، فَفَضَلَتْ عنه، فقال بيتين يعتذر بهما عن فعلته، وهما:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
وَأَلاَّ يَقُولُوا: غَابَ قَيْسٌ وَهَذِهِ سَرَاوِيلُ عَادِيٍّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

والسراويل كلمة أعجمية عُرِّبت وَأُنِّثت، ومثل هذا في التعدية بإلى قول كثيِّر:

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

(٢) المراد أنه نظر أمامه وفتح عينيه ولم يَطْرِف، وقد قيل: إن الكسر لا يكون إلاَّ في التحيُّر، وإن الفتح لا يكون إلاَّ الضياءَ، وقال أهل اللغة: هما بمعنى واحد.

(٣) هو إسماعيل بن عبد الله بن أُوَيْس بن مالك بن أبي عامر الأَصْبَحي، أبو عبد الله بن أبي أويس المدني، =

والخسوف: ذهاب جميعه، وروى عروة وسفيان أَن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت»(١).

قوله تعالىٰ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، غلب التذكير على التأْنيث وقيل: ذلك لأَن تأْنيث الشمس غير حقيقي، وقيل: المراد: وجُمع بين الشمس والقمر، وكذلك قرأَ ابن أَبي عبلة، ولذلك أَسقط علامة التأْنيث، وفي مصحف عبد الله بن مسعود «وَجُمع بين الشَّمْسِ والقَمَرِ». واختلف المتأَولون في معنى الجمع بينهما ـ وقال عطاءُ بن يسار: يُجمعان فيقذفان في النار، وقيل: في البحر فيصير نار الله العظمى، وقيل: يُجمع الضَّوْءَان فيُذهب بهما.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ بفتح الميم والفاءِ عَلَى المصدر، أَي: أَين الفرارُ؟ وقرأَ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وأَيوب السختياني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، ويحيى بن يَعْمَر، وحمَّاد بن سلمة، وأَبو رجاءٍ، وعيسى، وابن أَبي إِسحاق: [أَيْنَ المَفِر] بفتح الميم وكسر الفاءِ، على معنى: أَين موضع الفرار؟ وقرأَ الزهري: [أَيْنَ المِفَرُّ] بكسر الميم وفتح الفاءِ، بمعنى: أَين الْجَيِّد الفِرار.

و[كَلاَّ] زَجْرٌ يقال للإِنسان يومئذ، ثم يعلم أَنه لا وَزرَ له، أَي لا ملجأَ ولا معين، وعبَّر المفسرون عن «الوزر» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: «وهو كان وزر فُرَّار العرب في بلادهم فلذلك استعمل» والحقيقة أَنه الملجأُ جبلاً كان أَوْ حصناً أَو سلاحاً أَوْ رجُلاً أَو غيره. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ معناه: إِلى حُكم ربك ونحوه من التقدير، و«الْمُسْتَقَرُّ» رفع بالابتداءِ، وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم، وتقدير الكلام: الْمُسْتَقَرُّ ثابتٌ أَو كائن إِلى ربك يومئذ، والمُسْتَقَرُّ موضع الاستقرار.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ قسمة تستوفي كل عمل، أَي: يُعْلَم بكل ما فعل،

= صدوق، أَخطأَ في أَحاديث من حفظه، من الطبقة العاشرة، مات سنة ست وعشرين. (تقريب التهذيب).

(١) أَخرجه مسلم في كتاب الكسوف، قال: أخبرنا يحيى بن يحيى، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنة عن الزهري، عن عروة، قال: لا تقل: كسفت الشمس ولكن قل: خسفت الشمس. وفي البخاري في كتاب الكسوف أيضاً: باب هل يقول: كسفت الشمس أو خسفت. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾.

ويجده محصلاً، وقال ابن عباس، وابن مسعود: المعنى: بما قدم في حياته وأَخَّر من سُنَّة[١] يعمل بها بعده، وقال ابن عباس أَيضاً: بما قدم من المعاصي وأَخَّر من الطاعات، وقال زيد بن أَسلم: بما قدم من ماله لنفسه وبما أَخَّر منه للوارث.

وقوله تعالىٰ: [بَلْ] إضرابٌ بمعنى التَّرك، لا على معنى إِبطال القول الأَول، و[بَصِيرَةٌ] يحتمل أَن يكون خبراً عن «الإِنسان» ولحقته هاءُ التأْنيث كما لحقت «علاَّمة، ونسَّابة»، والمعنى: إِنه فيه وفي عقله وفطرته حُجَّة وشاهد مبصر على نفسه، ولو اعتذر عن قبيح أَفعاله فهو يعلم قُبْحها، وكذلك لو استتر بسُتُوره واختفى بأَفعاله ـ على التأْويلين في المعاذير ـ، ويحتمل [بَصِيرَةٌ] أَن يكون ابتداءً وخبره في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، والهاءُ للتأْنيث، ويراد بالبصيرة جوارحُه، والملائكة الحفظة، وهذا هو تأْويل ابن عباس رضي الله عنهما. و«الْمَعَاذِيرُ» هنا، قال الجمهور: هي الأَعذار، جمع «مَعْذِرَة»، وقال السُّدي، والضحاك: هي السُّتُور بلُغَة اليمن، يقولون لِلسِّتْر: المعذار[٢]، وقال الحسن: المعنى: بل الإِنسان على نفسه بَلِيَّةٌ ومحنة، كأَنه ذهب إِلى البصيرة التي هي طريقة الدَّم وداعية طلب الثأْر[٣]. وفي هذا نظر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

الضمير في [به] عائد على كتاب الله تعالىٰ، ولم يَجْر له ذِكْر ولكن القرائن تُبَيِّنه،

---

(١) في بعض النسخ: «وأَخَّر من شُبهة».

(٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

وَلَكِنَّهَا ضَنَّتْ بِمَنْزِلِ سَاعَةٍ ... عَلَيْنَا وَأَطَّتْ فَوْقَهَا بِالْمَعَاذِرِ

(٣) في اللسان: «والبصيرة: مقدار الدرهم من الدَّم، والبصيرةُ: الثأْرُ، وقيل: البصيرة من الدَّم ما لم يَسِل، وقيل: هو الدفعة منه، وقيل: البصيرةُ دمُ البكر، قال:

راحُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ ... وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

يعني بالبصائر دم أَبيهم، يقول: تركوا دم أَبيهم خلفهم ولم يَثْأَروا به وطلبتهُ أنا».



فهذا كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾[(٢)]، يعني النفس.

واختلف المتأَولون في السبب الموجب أَن يُؤمر رسول الله ﷺ هذا الأَمر ـ فقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أَداءِ الرسالة والاجْتهاد في ذات الله تعالىٰ، ربما أَراد النطق ببعض ما أُوحي إِليه قبل كمال أَداءِ الوحي، فأُمر أَلاَّ يعجل بالقرآن من قبل أَن يُقضى إِليه وحيه، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى، وقال الضحاك: كان سببها أَن رسول الله ﷺ كان يخاف أَن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق، فنزلت الآية في ذلك، وقال كثير من المفسرين ـ وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التَّنزيل شِدَّة، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أَن يذهب عنه ما يُوحَى إِليه لحينه، فنزلت الآية بسبب ذلك، وأَعْلمه الله تعالىٰ أَنه يجمعه في صدره[(٣)].

وقوله تعالىٰ: [وَقُرْآنَهُ] يحتمل اَن يريد به: وقِرَاءَتَه، أَي تقرؤه أَنتَ يا محمد، والقرآنُ مصدر كالقراءَة، ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عنوانُ السُّجودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وَقُرْآنا[(٤)]

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص).

(٢) من الآية (٢٦) من هذه السورة (القيامة).

(٣) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والطبراني، وابن مردويه، وأَبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدَّة، وكان يحرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. قال: يقول: إن علينا أَن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، يقول: إذا أَنزلناه عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، فاستمع له وأَنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، بيِّنه بلسانك، وفي لفظ، علينا أن نقرأَه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أَتاه جبريل أَطْرَقَ، وفي لفظ: اسْتَمَعَ، فإذا ذهب قرأَ كما وعده الله عزَّ وجلَّ.

(٤) هذا البيت لحسان بن ثابت، وقد جاء في الديوان ضمن أبيات قالها حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجاء في اللسان أَيضاً منسوباً إلى حسان مرتين، وقال ابن عبد البَرِّ: هذا البيت يختلف فيه، فهو يُنسب لغير حسان، وقال بعضهم هو لعمران بن حطان، والأَشْمط: الذي اختلط سواد شعره ببياض، والقرآن: القراءة، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، يصف الشاعر عثمان رضي الله عنه بكثرة العبادة التي تظهر في السجود الطويل، وقضاء الليل في التسبيح وقراءة القرآن.

ويحتمل أَن يريد: علينا جَمْعه وتأْليفه في صدرك، فهو مصدرٌ من قولك: «قَرَأْتُ» أَيْ جَمَعْتُ، ومنه قولهم في المرأَة التي لم تلد: «ما قرأَت نَسْلاً قط»[1]، ومنه قول الشاعر:

ذِراعَـــيْ بَكْـــرَةٍ أَدْمـــاءَ بِكْـــر هِجَـانِ اللَّـوْنِ لَـمْ تَقْـرَأْ جَنينَـا[2]

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾، أَي قرأَه الملَك الرسول عنا، وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبِعْ﴾ يحتمل أَن يريد: بذهنك وفكرك، أَي فاستمع قراءَته، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أَن يريد: فاتَّبع في الأَوامر والنواهي، قاله ابن عباس أَيضاً، وقتادة، والضحاك. وقرأَ أَبو العالية: [وَقَرَتَهُ فَإِذَا قَرَتَهُ فَاتَّبِعْ قَرَتَهُ] بفتح القاف والراءِ والتاءِ من غير همز ولا أَلف في الثلاثة[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، قال قتادة وجماعة معه: معناه: أَن نُبيِّنه لك ونُحَفِّظكَهُ، وقال كثير من المتأَولين: معناه: أَن تُبيِّنه أنت، وقال قتادة أَيضاً: معناه: أَن نُبيِّنَه حلالَه وحرامَه ومُجمله ومُفَسَّره.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ رجوع إِلى مخاطبة قريش، يردُّ عليهم وعلى أَقوالهم في ردِّ الشريعة بقوله تعالىٰ: [كَلاَّ]، أَي: ليس ذلك كما تقولون، وإِنما أَنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأَنتم تحبونها حُبًّا تتركون معه الآخرة والنَّظَرَ في أَمرها، وقرأَ الجمهور: [تُحِبُّونَ] بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن

---

(١) هكذا في الأصول إلاَّ في نسخة واحدة فقد جاءت الجملة «ما قَرَأَتْ سلىً قط». وهذا يتفق مع ما في اللسان، ومعناها: ما حَمَلَتْ ملقوحاً.

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم المعروفة، والرواية المشهورة: (ذراعَيْ عَيْطَل)، والعَيْطَل: الطويلة العُنق، والأَدْماءُ: البيضاءُ، والبكرُ: الفتيَّة، و«هجان اللون» معناه: بيضاء، والهجان أَيضاً: الكريم، و«لم تقرأ جنينا» معناه: لم تحمل قطُّ، أو لم تَضُمَّ في رحمها ولداً، ويروى الشطر الثاني (تَرَبَّعت الأَجارع والمتونا)، ومعناه: قضت الربيع في الأجارع وهو من الرمل ما لم يبلغ أن يصير حَبْلاً، أي رملاً مستطيلاً شبيهاً بالحبل. والشاهد أن «تقرأ» في البيت بمعنى «تجمع»، أو «تضم»، ومنه قولهم: «قرأتُ الماءَ في الحوض» أي جَمَعْتُهُ.

(٣) نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه القراءة عن ابن عطية ثم قال: «ولم يتكلم ـ ابن عطية ـ على توجيه هذه القراءة الشاذة، ثم قام أبو حيان بتوجيه القراءات توجيهاً غير واضح أو مقنع، وعلى كلٍّ فهي قراءة شاذة».



عامر، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وقتادة: [يُحبُّونَ] بالياءِ على ذكْر الغائب، وكذلك [تَذَرُونَ].

ولما ذكر تعالىٰ الآخرة أَخبر بشيءٍ من حال أَهلها، فقوله تعالىٰ: [وُجُوهٌ] رفع بالابتداءِ، والابتداءُ بالنكرة لأَنها تخصصت بقوله تعالىٰ: [يَوْمَئِذٍ] و[نَاضِرَةٌ] خبر [وُجُوه] ـ وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر، وقال بعض النحويِّين: [ناضِرَةٌ] نعت لـ [وُجُوه]، و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ خبر عن [وجوه]، فعلى هذا كثر تخصيص «الْوُجُوه» فَحَسُن الابتداءُ بها، و[ناضِرَةٌ] معناه: ناعمة، والنُّضرة: النعمة وجمال البشرة، قال الحسن: وحق لها أَن تنضر وهي تنظر إِلى الخالق جل وتعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، حمل هذه الآية جميعُ أَهل السُّنة على أَنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالىٰ، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد، كما هو تعالىٰ معلوم موجود لا يُشبه الموجودات، كذلك هو مَرْئِيٌّ لا يشبه المرئيات في شيءٍ، فإِنه ليس كمثله شيءٌ، لا إِله إِلاَّ هو. وروى عُبادة بن الصامت أَن النبي ﷺ قال: «حَدَّثتكم عن الدَّجال أَنه أَعور، وإِن ربكم ليس بأَعور، وإِنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[١]، وقال ﷺ: «إِنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامُون في رؤيته»[٢]، وقال الحسن: تنظرون إِلى الله تعالىٰ بلا إِحاطة، وأَما المعتزلة الذين ينفون

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد وفي حجة الوداع، ومسلم وابن ماجه في الفتن، وأبو داود في الملاحم، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣، ٣٧، ٣٨/٥)، ولفظه كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: كنا نتحدث بِحَجَّة الوَداع والنبي ﷺ بين أَظْهُرنا ولا ندري ما حَجَّة الوداع، فحمد الله وأَثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأَطنب في ذكره، وقال: ما بعث الله من نبي إِلاَّ أَنذر أُمته، أَنذره نوحٌ والنبيُّون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ـ ثلاثاً ـ، إنَّ ربكم ليس بأعور، وإِنه أَعور عين اليمنى، كأن عينه عِنَبَة طافية، أَلا إن الله حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم... الحديث)، وهو طويل.

(٢) روى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً. كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أَلاَّ تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. متفق عليه، وخرَّجه أيضاً أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة أَن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: إنكم ترون ربكم كذلك، وقد أخرج هذا الحديثَ أيضاً الدارقطني عن أبي هريرة، وأَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والدارقطني، والحاكم، =

رؤية الله تعالىٰ فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى: إلى رحمة ربِّها ناظرة، أو إلى ثوابه أَو مُلكه، فقدَّروا مضافاً محذوفاً، وهذا وجه سائغ في العربية، كما تقول: «فلان ناظر إليك في كذا» أي إلى صُنعك في كذا، والرؤية إنما يثبتها بأدلة قطعية غَيْرُ هذه الآية، فإذا ثبتت حسُن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقوِيَ، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله تعالىٰ: [إلى] ليست بحرف الجرِّ، وإنما هي «إلى» واحدة الآلاءِ، فكأنه تعالىٰ قال: نِعْمة ربِّها منتظرة أو ناظرة، من النظر بالعين، ويقال: «نظرتُك» بمعنى «انتظرتك»، ومنه قول الحطيئة:

وَقَــدْ نَظَــرْتُكُــمْ إِينَــاءَ صَــادِرةٍ ... لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَبْسَاسي[1]

= والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

(١) اختلفت رواية هذا البيت في كثير من المصادر، فيروى: «أَبْنَاءَ» بدلاً من «إيناءَ»، و«غاشية» بدلاً من «صادرة»، ويروى «لِلْوِرْد» بدلاً من «لِلْخِمْس»، ويروى «تَنْسَاسي» بالنون بدلاً من «تَبْسَاسي» بالباء، ويروى «طار» بدلاً من «طال»، وقد استشهد به صاحب اللسان في كثير من الأماكن، وكذلك أكثر المفسرون من الاستشهاد به، و«نظرتكم» هنا معناها: انتظرتُكم، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، والإيناء: الانتظارُ، والصادرةُ، الإبل الراجعة عن الماءِ، يقول: انتظرتكم كما تنتظر الإبلُ الصادرة عن الماء التي تَرِدُ الخِمْسَ ثم تُسقى لتَصْدُرَ، وكان من عادة العرب أن الإبل ترد الماءَ فتشرب يوم وردها وتصدرُ في ذلك اليوم أي تبتعد عن الماءِ، وتظل بعد ذلك في المرعى ثلاثة أيام بعد يوم الصَّدَر، وترد اليوم الرابع وهو في الحقيقة الخامس، فهذا هو الخمس الذي تنتظره الإبل، والحَوْزُ: السَّوْق الهادىء، والتَّنْسَاسُ: السَّوْق الشديد. وقد قيل: إن الحَوْز هو السَّير الشديد، وأن الرواية التَّبْساس ومعناه أن يقول الحالب للإبل: بُسُّ بُسُّ لِتُدِرَّ اللبن، وبعد هذا يقول الحطيئة:

لَمَّــا بَــدَا لــي مِنْكُــمْ عَيْــبُ أَنْفُسِكُــمْ ... وَلَـمْ يَكُـنْ لِجِراحِـي عِنْـدكُـمْ آسِـي
أزمعــتُ أَمْــراً مُــرِيحَــاً مِــنْ نَــوَالِكُــمْ ... وَلَــنْ تَــرَى طَــارِداً لِلْمَــرءِ كَــالْيَــاسِ

هذا وقد قيل: إن تأويل «نَظَر» بمعنى «انْتَظَر» مدخول، لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: نظَرْتُه، ولاَ يقولون: نَظَرْتُ إليه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، و﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، فالمعنى فيها: ينتظرون، أما إذا أراد العرب النظر بالعين جاءوا بـ «إلى»، وقد ذكرت «إلى» هنا، وذُكر معها الوُجوهُ فقيل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال ابن أبي ربيعة:

نَظَــرْتُ إِلَيْهــا بــالْمُحَصَّــبِ مِــنْ مِنــىً ... وَلِــي نَظَــرٌ لَــوْلاَ التَّحَــرُّجُ عَــارِمُ

وقال امرؤ القيس:

نَظَــرْتُ إِلَيْهــا وَالنُّجــومُ كَــأَنَّهَــا ... مَصَــابِيــحُ رُهْبَــانٍ تُشَــبُّ لِقُفَّــالِ

فإذا أراد العرب بالنظر الفِكرَ والتأمُّلَ قرنوه بحرف الجرّ «في» فقالوا: نظر في الأمر، بمعنى فكر فيه وتأمل.



والتَّبْساسُ أَن يُقال للناقة «بُسّ بُسّ» لتدرَّ على الحالب، وفسَّر أَبو عبيدة في غريبه هذا البيت على روايةٍ أُخرى وهي:

. . . . طـارَ بِهـا حَـوْزي وَتَنْسَـاسـي

بالنون وهو السَّيْر الشديد، فتأَمله.

و«الباسِرَةُ»: العابسة المغمومة النفوس، والبُسُور أَشدُّ العبوس، وإِنما ذكر تعالىٰ الوجوه لأَنه فيها يظهر ما في النفوس من سرور أَو غمٍّ، والمراد أَصحاب الوجوه.

وقوله تعالىٰ: [تَظُنُّ] إِنْ جعلناه بمعنى «تُوقِن» فهو لم يقع بعد على ما قد بيَّنَّاه، وإِن جعلنا الظن هنا على غَلَبَته فذلك محتمل، و«الفاقِرَةُ»: المصيبة التي تكسر فقار الإِنسان، قال ابن المسيب: هي قاصمة الظَّهر، وقال أَبو عبيدة: هي من «فَقَرْتُ البعير» إِذا وسمتُ أَنفه بالنار.

وقوله تعالىٰ: [كَلاَّ] زَجْرٌ لقريش وتوكيد لهم بموطن من مواطن الهول وأَمر الله تعالىٰ الذي لا محيد لبشر عنه، وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها على كل حيوان، و[بَلَغَتْ] يريد النفس، و«التَّرَاقِي» جَمْعُ «تَرْقُوَة»، وهي عظام أَعلى الصدر، ولكل أَحدٍ تَرْقوتان لكن من حيث هذه الأَفْرادُ في كثيرين جُمع؛ إِذ النفس المرادة اسم جنس، والتراقي موازية للحلاقيم، فالأَمر كلُّه كناية عن حال الحشرجة ونزاع الموت، يَسَّره الله تعالىٰ علينا.

واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ ـ فقال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأَبو قِلابة: معناه: مَنْ يَرْقي ويُطب ويشفي ونحو هذا مما يتمناه أَهل المريض، وقال ابن عباس أَيضاً، وسليمان التيمي، ومقاتل بن سليمان: هذا القول للملائكة، والمعنى: مَنْ يَرْقَى بروحه ـ أَيْ يصعد ـ إِلى السماءِ؟ أَملائكة الرحمة أَم ملائكة العذاب؟ وقرأَ حفص عن عاصم بالوقف على (مَنْ)، ويبتدىء [رَاقٍ]، وأَدغم الجمهور، قال أَبو علي: لا أَعرف وجه قراءة عاصم، وكذلك قرأَ: ﴿بَلْ رَانَ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾، يريد: وتيقَّن المريض أَنه فراق الأَحبة والأَهل

---

(١) من الآية (١٤) من سورة (المطففين)، وقد قال أبو حيان في البحر المحيط تعليلاً لقراءة حفص عن عاصم هذه: «وكأن حَفْصاً قصد أَلاَّ يُتَوَهَّم أنهما كلمة واحدة فسكت سكتة لطيفة ليُشعر أنهما كلمتان».



والمال والحياة، وهذا اليقين فيما لم يقع بعد، ولذلك استُعملت فيه لفظة الظَّن، وقال[١] ابن عباس رضي الله عنهما: أَيقن أَنه الفراق، وقال في تَفْسيره: ذهب الظن.

واختُلف في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ ـ فقال ابن عباس، والحسن، والربيع بن أنس، وإِسماعيل بن أَبي خالد: هذه استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أَول يوم منها، لأَنه بين الحالتين قد اختلطا له، وهذا كما يقولون: «شَمَّرَتِ الحرب عن ساقٍ»[٢]، وعلى بعض التأْويلات في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٣]. وقال ابن المسيب، والحسن: هي حقيقة، والمراد ساقا الميت عند تكفينه، أَي: لَفَّهما الكفن، وقال الشعبي: وأَبو مالك، وقتادة: هو التفافهما بشدة المرض لأَنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا وقال الضحاك: المراد سوق حاضريه من الإِنس والملائكة؛ لأَن هؤلاءِ يجهزون روحه إِلى السماءِ، وهؤلاءِ يجهزون بدنه إِلى القبر. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ معناه: إِلى حكم ربك وعدله، فإِمَّا إِلى جنة وإِمَّا إِلى نار، و«الْمَسَاقُ» مصدر من السَّوْقِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآيات كلها إِنما نزلت في أَبي جهل بن هشام، ثم كادت هذه الآية أَن تصرح به في قوله تعالىٰ: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإِنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أَبو جهل يكثر منها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تقديره: فلم يُصَدِّق ولَمْ يُصَلِّ، وهذا نحو قول الشاعر:

فَـأَيُّ خَميـسٍ لاَ أَبـانَـا نَهـابُـهُ ... وَأَسْيافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ كَبْشِهِ دَمَا؟[٤]

---

(١) في بعض النسخ: «وقرأ ابن عباس».

(٢) شَمَّر: مَرَّ جادًّا في الأمر، وشمَّر عن ساقه: جَدَّ وخَفَّ، والسَّاقُ في اللغة: الأَمرُ الشديد، وكَشْفُ السَّاق مَثَلٌ في شدَّة الأمر، كما يقال: «يَدُه مغلولة» إذا وصفته بالشُّح، ولا يَدَ هناك ولا غُلَّ، وإنما هو مثل في شدَّة البخل، كذلك هنا لا ساق ولا كشف وإنما هو كناية عن شدة الأمر وقسوته. (راجع اللسان).

(٣) من الآية (٤٢) من سورة (القلم).

(٤) الخميس: الجيش الكبير، سمِّي بذلك لأَنه يتكون من خمسة أقسام: المقدمة، والوسط والميمنة =



وقول الآخر:

إِنْ تَغْفِـرِ اللَّهُـمَّ تَغْفِـرْ جَمَّـا وَأَيُّ عَبْـدٍ لَـكَ لاَ أَلَمَّـا ؟[1]

فـ[لا] في الآية نافيةٌ لاَ عاطفة. و[صَدَّقَ] معناه: برسالة الله تعالىٰ ودينه، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة والأول أصوب. و[يَتَمَطَّى] معناه: يمشي المُطَيْطَا، وهي مشية بتبختر، قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخروم، وهي مأخوذة من المَطَا وهو الظهر، لأنه ينثني فيها، وقال النبي ﷺ: «إذا مشت أُمتي الْمُطَيْطَا، وخدمتهم الروم وفارس، سلِّط بعضهم على بعض»[2]، وقال مجاهد: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيدٌ ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى: أَولى لك الازدجار والانتهاءُ، وهو مأخوذ من «وَلِيَ»، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[3]، ويروى أَن رسول الله ﷺ لبَّبَ أَبا جهل يوماً في البطحاءِ وقال له: إن الله يقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، فنزل القرآن على نحوها[4]، وفي شعر الخنساءِ:

= والميسرة والساقة، والإباءُ: الامتناعُ، وكبش القوم سيدهم وحاميهم والمنظور إليه فيهم، وكبش الكتيبة: قائدها، والاستفهام هنا للنفي أو للإنكار، يقول: كيف نخاف جيشاً لم يمتنع علينا وسيوفنا تقطر دماً من قائده وحاميه؟ والشاهد أَنَّ «لا أَبَانا» بمعنى: لم يأبنا ولم يمتنع علينا، ومثله قول زهير:

وَكَـانَ طَـوَى كَشْحـاً عَلَـى مُسْتَكِنَّـةٍ فَـلاَ هُـوَ أَبْـداهـا وَلَـمْ يَتَقَـدَّمِ

أي: لَم يُبْدها ولم يتقدم.

(١) هذان البيتان من الرجز من الشعر المختلف في نسبته، فقد نسبهما ابن بَرِّي لأُمية بن أَبي الصلت، ولم أجدهما في ديوانه، ونسبهما مسلم بن أبي طرفة الهذلي لأبي خراش الهُذَليُّ مع بيتين غيرهما، وفي اللسان نسبهما مرة إلى أمية ومرة أُخرى إلى أبي خراش، والجمُّ: الكثير المجتمع، و«أَلَمَّ» من الإلمام وهو مقاربة الذنب دون الوقوع فيه، أو ارتكاب الذنوب الصغيرة، والشاهد هنا أن «لا» بمعنى «لم»، والمعنى: وأي عبد لك لم يرتكب الذنوب الصغيرة؟ لكنهم قالوا: «إن «لا» بهذا المعنى تكون أفصح إذا كُرِّرت، وقلَّما تتكلم العرب بمثل هذا إلاَّ وكررت «لا» مرتين، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: لَم يُصَدِّق وَلَم يُصَلِّ.

(٢) أَخرجه الترمذي وابن عمر عن ابن جرير في تفسيره، وقال عنه السيوطي في الجامع الصغير: حديث حسن، واستشهد به صاحب اللسان والقرطبي.

(٣) من الآية (٢١) من سورة (محمد).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد على وعيد، كما تسمعون، زعم أن هذا أُنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ﷺ أَخذ بمجامع ثيابه فقال: =



هَمَمْـتُ بِنَفْسِـي كُـلَّ الْهُمُـومِ   فَـأَوْلَـى لِنَفْسِـي أَوْلَـى لَهَـا(١)

وقوله تعالىٰ: [أَيَحْسَبُ] توبيخ وتوقيف، و[سُدًى] معناه: مهملاً لا يُؤْمر ولا يُنْهى، ثم قَرَّر تعالىٰ على أَحوال ابن آدم في يد الله التي إِذا تُؤملت لم يُنكر معها جوازَ البعث عاقلٌ. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ بالياءِ، وقرأ الحسن: [أَلم تَكُ] بالتاءِ من فوق، و«النُّطْفَةُ» القطعة من الماءِ، يقال ذلك للقليل والكثير. والْمَنِيُّ معروف. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأَبو عمرو ـ بخلاف ـ وابن محيصن، والجحدري، وسلام، ويعقوب: (يُمْنَى) بالياءِ، يريد بذلك المني، ويحتمل أَن يكون [يُمْنَى] من قولك: «أَمْنَى الرجلُ»، ويحتمل أَن يكون من قولك: «مَنَى اللهُ الخلقَ»(٢)، فكأَنه تعالىٰ قال: من منِيٍّ يُخْلق، وقرأ جمهور السبعة، والناسُ: [تُمْنى] بالتاءِ، يراد بذلك النطفة، و[تُمْنَى] تحتمل الوجهين اللذين ذكرنا. و«العَلَقَةُ» القطعة من الدَّم؛ لأَن الدَّم هو العَلَق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ معناه: فخلق الله تعالىٰ منه بشراً مركباً من أَشياءَ مختلفة، فسَوَّاه شخصاً مستقلاً، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: [يخلق] بالياءِ فعلاً مستقبلاً. و«الزَّوْجَيْن»: النوعين(٣) ويحتمل أَن يريد المزدوجين من البشر.

= ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، فقال عدوُّ الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربُّك شيئاً، والله لأنا أعزُّ من مشى بين جبليها. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قِبَل نفسه أَم أَمَرَهُ الله به؟ قال: بل قاله من قِبَل نفسه ثم أنزله الله.

(١) المعنى: الوَيْلُ لنفسي، ويروى البيت: «وجمت بنفسي»، ويروى «بعض الهموم». والبيت من قصيدة قالتها في رثاءِ أخيها معاوية حين قتله بنو مُرَّة، وزعم أبو عبيدة أنها قالته في رثاءِ أخيها صخر حين دفن بأرض بني سُلَيم، وهي من أبلغ مراثيها.

(٢) ومثل هذا ما ورد في الحديث: أن مُنْشداً أنشد النبي ﷺ:

لاَ تَـأْمَنَـنَّ وَإِنْ أَمْسَيْـتَ فـي حَـرَمٍ   حَتَّـى تُـلاقِـيَ مـا يَمْنِـي لَـكَ الْمَـانِـي
فـالْخَيْـرُ والشَّـرُّ مَقْـرونـانِ فـي قَـرَنٍ   بِكُـلِّ ذَلِـكَ يَـأْتِيـكَ الْجَـدِيـدانِ

فقال النبي ﷺ: «لو أدرك هذا الإسلام». والمعنى: حتى تلاقي ما يُقدِّر لك المُقَدِّرُ وهو الله عزَّ وجلَّ.

(٣) هكذا في الأصول، وقد راعى المؤلف لفظ الآية ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾.



ثم وقف تعالىٰ توقيف توبيخ وإقامة حجة بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقرأ الجمهور بفتح الياءِ الأَخيرة من [يُحْيِيَ]، وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها، وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من [الْمَوْتَى]. ويُروى أَن رسول الله ﷺ كان إِذا قرأَ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وبلى»[1]، ويروى أَنه كان يقول: «بَلَى»[2] فقط.

كمل تفسير سورة القيامة والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن صالح أبي الخليل، وأَخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة في قوله تعالىٰ: [سُدًى]، قال: أن يُهمل، وفي قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: إذا قرأَها: «سبحانه وبَلَى».

(٢) أخرج البخاري في تاريخه عن أَبي أُمامة قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ بعد حجته، فكان يكثر من قراءة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فإذا قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سمعته يقول: «بلَى»، وأنا على ذلك من الشاهدين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الإنسان[١]

قال بعض العلماءِ: هي مكية كلُّها، وحكى النقاش، والثعلبي عن مجاهد وقتادة أَنها مدنية، وقال الحسن وعِكْرِمة: منها آية مكية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، والباقي مدني، وأَنها نزلت في صنيع علي بن أَبي طالب رضي الله عنه في إِطعامه عشاءَه وعشاء أَهْله وولده لمسكين ليلة، ثم ليتيم ليلة، ثم لأَسير ليلة ثالثة، متواليات، وقيل: نزلت في صنيع أَبي الدحداح رضي الله عنه[٢]، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

﴿هَلْ﴾ في كلام العرب قد تجيءُ بمعنى «قَدْ»، حكاه سيبويه، لكنها لا تخلو من تقرير، وبابها المشهور الاستفهام المحض، والتقرير أَحياناً، فقال ابن عباس: هي هنا بمعنى «قد»، و﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يراد به آدم عليه السلام، و«الحِينُ» هو المدَّة التي بقي فيها طيناً قبل أَن تنفخ فيه الروح، أَي أَنه شيءٌ لم يكن مذكوراً مُنَوَّهاً به في العالم، وفي حالة العدم المحض قبل أَن لم يكن شيئاً ولا مذكوراً. وقال أَكثر المتأَولين: «هَلْ» تقرير، و«الإِنسان» اسم الجنس، أَي: إِذا تأَمل كل إِنسان نفسه علم بأَنه قد مرَّ حين من

---

(١) وتُسَمَّى سورَة الدهر.

(٢) أَبو الدَّحداح صحابي من الأنصار، صام يوماً، فلما أراد أن يُفطر جاء مسكين، وأسير، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد، فنزلت فيهم هذه الآية، قال ذلك مقاتل، وقال الخازن: قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: أبو الدَّحداح.



الدهر عظيم لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، أَي لم يكن موجوداً، وقد يُسمى الموجود شيئاً فهو مذكور بهذا الوجه، و«الحين» هنا: المدَّة من الزمن غير محدودة تقع على القليل والكثير، وإِنما يحتاج إِلى تحديد الحِين في الأَيمان، فيمن حلف أَلاَّ يكلم أَخاه حيناً، فذهب بعض العلماءِ إِلى أَن الحين سنة، وقال بعضهم: ستة أَشهر، والقويُّ في هذا أَن «الإِنسان» اسم الجنس، وأَن الآية جعلت عبرة لكل أَحد من الناس ليعلم أَن الصانع له قادر على إِعادته.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، هو هنا اسم الجنس بلا خلاف لأَن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة، و[أَمْشَاجٍ] معناه: أَخلاط، واحدها «مَشَج» بفتح الميم والشين، قاله ابن السكيت وغيره، وقيل: «مَشْج» مثل عَدْل وأَعدال، وقيل: «مَشيج» مثل شريف وأَشراف.

واختلف في المقصود من «الخَلْط» ـ فقيل: هو أَمشاج ماءِ الرجل بماءِ المرأَة، وأَسند الطبري حديثاً ـ وهو أَيضاً في بعض المصنفات ـ أَن عظام ابن آدم وَعَصَبه من ماءِ الرجل، ولحمه وشحمه من ماءِ المرأَة، وقيل: هو اختلاط أَمر الجنين بالنقلة من النطفة إِلى العلقة إِلى المضغة إِلى غير ذلك، فهو أَمر مختلط، وقيل: هو اختلاط الدم والبلغم والسوداءِ والصفراءِ فيه. و[نَبْتَلِيهِ] معناه: نختبره بالإِيجاد والكون في الدنيا، وهو حالٌ من الضمير في [خَلَقْنَا]، كأَنه قال: مختبرين له بذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ﴾ عطف جملة نِعَم على جملة نِعَم، وقال بعض النحويين: إِنما المعنى: فَلِنَبْتَليه جعلناه سميعاً بصيراً، ثم ترتب اللفظ مؤخراً متداخلاً كأَنه قال: نحن نَبْتَليه فلذلك جعلناه، والابتلاءُ ـ على هذا التأْويل ـ هو بالأَسماع والأَبصار لا بالإِيجاد، وليس [نَبْتَليه] حالاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ يحتمل أَن يريد السبيل العامة للمؤمن والكافر، وذلك بخلق الحواسِّ وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالَّة على الصانع، و﴿هَدَيْنَـٰهُ﴾ ـ على هذا ـ بمعنى أَرشدناه، كما يرشد الإِنسان إِلى طريق ويُوقف عليه. ويحتمل أَن يريد بالسبيل اسم الجنس، أَي: هدى المؤمن لإِيمانه والكافر لكفره، فـ ﴿هَدَيْنَـٰهُ﴾ ـ على هذا ـ كأَنه بمعنى أَريناه فقط، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإِيمان، وقوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان وقسمتها [إِمَّا]. قال أَبو عمرو الداني:

وقرأ أبو العاج: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١] وأبو العاج هو كثير بن عبد الله السلمي، شامي، وَلِيَ البصرة لهشام بن عبد الملك.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أعددنا، وقرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: [سَلاَسِلاً] بالصرف، وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أَفْعَل[٢]، وهي لغة الشعراءِ، ثم كثُر حتَّى جرى في كلامهم، وقد عُلِّل بِعِلَّة، وهي أَنه لما كان هذا الضرب من الجموع يُجمع أَشبه الآحاد فصرف، وذلك من شِبْهِ الآحاد موجود في قولهم: «صواحب وصواحبات»، وفي قول الشاعر:

. . . . نَـوَاكِسِـي الأَبْصَـار[٣]

بالياءِ جَمْع «نَوَاكس»، وهذا الإِجراءُ في [سَلاَسِلاً] و[قَوَارِيرًا] ثبت في مصحف ابن

---

(١) بفتح الهمزة من (أَمَّا)، قال أبو حيان في البحر المحيط: «وهي لغة حكاها أَبو زيد عن العرب، وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف»، وقال الزمخشري: «وهي قراءةٌ حسنة»، وعلَّق على كلامه الإمام ناصر الدين أَحمد بن المنير فقال في كتابه (الانتصاف): «واستحسانه لهذه القراءة لتخيُّله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد»، وذلك لأن الزمخشري جعل «أَمَّا» هنا للتفصيل وتقسيم الناس إلى شاكر بتوفيق الله تعالىٰ، وكفور بسوءِ اختياره هو، ولما كان الشكر قليلاً قال الله: ﴿شَاكِرًا﴾، ولما كان كفر النعمة كثيراً قال تعالىٰ: ﴿كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة.

(٢) يريد: «إلاَّ أفعل مِنْكَ»، لأنه لا يوجد في العرب من يقول مثلاً: «أَنا أكرَمٌ منك» بالتنوين، والسبب أَنَّ «من» تقوم مقام الإضافة، ولا يُجمع بين تنوين وإضافة في حرف، لأنهما دليلان من دلائل الأسماءِ ولا يجمع بين دليلين، قال ذلك الفراءُ.

(٣) هاتان الكلمتان قالهما الفرزدق في بيت من الشعر من قصيدة يمدح بها آل المهلَّب، وخصَّ من بينهم «يزيد» ابنه، والبيت هو:

وإِذَا الـرجـالُ رَأَوْا يَـزِيـدَ رَأَيْتَهُـمْ ... خُضُـعَ الـرِّقـابِ نَـوَاكِـسَ الأَبْصَـارِ

وخُضُع: جمع خَضُوع مبالغة في خاضع، وهو المتواضع المُتَطَامن، وقد يُضبط بسكون الضاد فيقال: خُضْع، وهو جمع أَخْضع كأَبْيَض، وهو الذي في عنقه تطامن طبيعي لأنه خُلق هكذا، ومعنى نواكس أنهم ينكسون أبصارهم عند رؤيته هيبةً وإجلالاً له، يقال: «نكس رأسه» إذا طَأْطَأَه من الذل، ونواكس جمع ناكِسٍ، وهو جمع شاذٌ، لأن «ناكس» صفة للعاقل، ولا يجمع «فاعل» على «فواعل» إلا إذا كان لغير العاقل، وقد اضطر الفرزدق لذلك لأنه يجوز لك أن تقول: هي الرجل كما تقول: هي الجمال، فشبه الرجال بالجمال، أما رواية البيت «نَوَاكِسِي» بالياء فلأَن الشاعر ردَّ النواكِسَ إلى الرِّجال، فكأَن أصل الكلام: وإذا الرجال رأيتهم نواكِسَ أَبصارُهُم، فكأن النواكس للأبصار فنقلت إلى الرجال فدخلت الياءُ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا، وفي البيت كلام كثير، راجع كتب النحو، والكتاب لسيبويه، ولسان العرب.



مسعود ومصحف أُبَيٍّ بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة[(١)]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة: [سَلاَسِلاَ] على ترك الصرف في الوصل والوقف، وهي قراءة عمرو بن عبيد. وقرأ أبو عمرو، وحمزة ـ فيما روي عنهما ـ: [سَلاَسِلَ] في الوصل، و[سَلاَسِلاَ] بألِفٍ دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر؛ لأن من العرب من يقول: «رَأَيْتُ عُمَرَا»، يقف بألِفٍ، وأيضاً فالوقف بالألف في [سَلاَسِلاَ] اتباعٌ لخطِّ المصحف.

و«الأَبْرارُ» جمع «بَارٍّ»، كشاهِدٍ وأَشْهاد، قال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذَّرَّ ولا يرضون بالشَّر، و«الكَأْسُ»: ما فيه نبيذ أو نحوه مما يُشرب به، قال ابن كيسان: لا يقال «كأس» إلاَّ لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال «ظعينة» إلاَّ إذا كان عليها امرأةٌ، ولا يقال «مائدة» إلاَّ وعليها طعام، وإلاَّ فهو «خوان». و«المِزاجُ»: ما تمزج به الخمور ونحوها، وهي أَيضاً مِزاجٌ له لأنهما تمازَجَا مِزاجاً، قال بعض الناس: المِزَاجُ نَفْس الكافور، وقال قتادة: قوم تُمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك، وقال الفراءُ: يقال: إن في الجنة عيناً تُسَمَّى كافوراً، وقال بعض المتأولين: إنما أراد كافوراً في النكهة والعرف كما تقول إذا مدحت طعاماً: هذا الطعام مسك.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا﴾ قيل: هو بدل من قوله تعالىٰ: ﴿كَافُورًا﴾، وقيل: هو مفعول بقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أي يشربون ماءَ هذه العين من كأسٍ عطِرةٍ كالكافور، وقيل: نصب ﴿عَيْنًا﴾ على المدح أو بإضمار «أَعْنِي»، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمنزلة «يَشْرَبُهَا»، فالباءُ زائدة، قال الهذلي:

شَـرِبْـنَ بِمـاءِ الْبَحْـرِ. . . . .[(٢)]

---

(١) يعني أن التنوين في [سَلاَسلاً] و[قَوَاريراً] ثبت في هذه المصاحف، وهذه حُجَّة لمن قرأ بالتنوين، فهو يتبع المصاحف، وهناك حجة ثانية هي أنَّ [قواريراً] الأول نُون لأنه رأسُ آية، وكل رُؤوس الآيات جاءت مُنوَّنة، مثل (مَذكوراً، سميعاً بصيراً)، ونُون [قواريراً] الثاني على الجوار للأول، وهاتان الحجتان غير ما ذكره ابن عطية من أن هذه الجموع أشبهت الآحاد فجُمعت جَمْع الآحاد، وأيضاً فإنه قد أشار إلى اتباع خط المصاحف، وأمَا من ترك التنوين فيهما فقد أتى بمحض قياس العربية، قاله ابن خالويه.

(٢) هذا بداية بيت قاله أبو ذؤيب الهذلي في إحدى قصائده والبيت بتمامه:

شَـرِبْـنَ بِمـاءِ الْبَحْـرِ ثـم تَـصَّبَـتْ مَتَـى لُجَـجٍ خُضْـرٍ لَهُـنَّ نَئِيـجُ =



أَيْ: شَرِبْن ماءَ البحر، وقرأ ابن أَبي عبلة: [يَشْرَبُهَا عبادُ الله]، و«عِبَادُ الله» هُنَا خصوص في المؤمنين الناعمين؛ لأَن جميع الخلق عباده. و﴿ يُفَجِّرُونَهَا ﴾ معناه: يشقُّونها[١] بعود قصب[٢] ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أَحد منهم، هكذا ورد الأَثر، قال الثعلبي: وقيل: عين في دار النبي عليه الصلاة والسلام تُفَجَّر إلى دور الأَنبياءِ عليهم السلام ودور المؤمنين. وهذا قول حسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ ﴾.

وصف الله تعالىٰ حال الأَبرار بأَنهم كانوا يوفون بالنَّذْر، أَي كل ما نذروه وأَعطوا به عهداً[٣]، يقال: وَفَى الرجل وأَوفى، واليومُ المشار إليه يومُ القيامة، و﴿ مُسْتَطِيرًا ﴾ معناه: متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والصَّدْع في الزجاجة، وبه شُبِّه في القلب، ومن ذلك قول الأَعشى:

فَبَانَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِي الفُؤا … دِ صَدْعاً ـ عَلَى نَأْيِهَا مُسْتطيراً[٤]

= يصف الشاعر السحابات التي شربت من ماء البحر، وتَنَصَّبت: ارتفعت إلى أعلى، ويُروى: ترفَّعت، ويروى: تصعَّدت، و«مَتَى» بمعنى «مِنْ»، ولَهُنَّ نَئِيجٌ: لهنَّ مَرٌّ سريعٌ، والشاهد هنا أن «شرب به» بمعنى شربه، وأن الباءَ زائدة، وهذا مثل قولهم: «فلان يتكلم بكلام حسن» أي: يتكلم كلاماً حسناً. وقيل: إن الباءَ في الآية ليست زائدة، وإنما هي بمعنى «من»، فالمعنى: يشرب منها، قاله القتبي.

(١) في بعض النسخ: «يُنْبعونها».

(٢) القَصَب: كلُّ نبات ذي أنابيب، والمفرد: قَصَبة. قال في اللسان: «وكل نبات كان ساقه أنابيب وكعوباً فهو قصب».

(٣) النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يُوجبه لم يلْزمه، فهو يوجب على نفسه شيئاً غير واجب عليه، وقد قال قتادة: المراد: يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات، ويُقوي هذا قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾، أي أَعمال نُسكهم التي ألزموا بها أَنفسهم حين أَحرموا بالحج، ومعنى هذا أن النَّذْر يندرج فيه ما التزمه المرءُ بإيمانه من امتثال أَمر الله، قال ذلك القشيري، ونقله عنه القرطبي.

(٤) هذا البيت من قصيدة قالها الأَعشى يمدح هوذة بن علي الحنفي، وبعده يقول: =



وقول ذي الرُّمَّة:

أَرادَ الظَّاعِنونَ لِيَحْزُنُوني فَهاجُوا صَدْعَ قَلْبي فَاسْتَطَارَا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يحتمل أَن يعود الضمير على «الطعام»، أَي: وهو محبوب للفاقة والحاجة، وهو قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل أَن يعود على الله تعالىٰ، أَي: لوجهه وابتغاءَ مرضاته، قاله أَبو سليمان الداراني، والأَول أَمدح لهم لأَن فيه الإِيثار على النفس، وعلى الاحتمال الثاني قد يفعله الأَغنياءُ أَكثر، وقال الحسن بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أَيْ مُحقِّين في فعلهم ذلك، لا رياءَ فيه ولا تكلُّف. و«المِسْكين»: الطَّواف المنكشف في السؤال، و«اليتيمُ»: الصبيُّ الذي لا أَب له من الناس، والذي لا أُمَّ له من البهائم، وهي صفة قبل البلوغ، وقد قال النبي ﷺ: «لا يُتْم بعد حُلُم»[٢]، و«الأَسيرُ» معروف، فقال قتادة: أَراد أَسرى الكفار وإِن كانوا على غير الإِسلام، قال الحسن: ما كان أَسراهم إِلاَّ مشركين؛ لأَن في كل كبد رطبة أَجْراً، وقال بعض العلماءِ: هذا مما نُسخ بآية السيف، وَإِما أَنه محكم ليحفظ حياة الأَسير إِلى أَن يرى الإِمام فيه رأْيه، وقال مجاهد، وابن جبير، وعطاءٌ: أَراد المسجونين من الناس، ولهذا يُحض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يُؤْسر أَحدٌ في الإِسلام بغير العدول»[٣] وروى الخدريُّ أَن النبي ﷺ فسَّر الأَسير هنا بالمملوك المسجون[٤]، وقال: أَراد أَسرى المسلمين الذين تركوا في

= كَصَدْعِ الزُّجاجَةِ ما تَسْتَطِيـ ـعُ كَفُّ الصَّناعِ لَها أَن تُحيرا

والبين: البُعد والفراق، والصَّدع: الشق في الشيءِ الصلب، ثم استعمل في القلب تجوزاً، والنَّأي: البُعد، ومستطيراً: منتشراً شائعاً، والصنَّاع: الماهر في الصنعة، وأَن تُحيرَا: أن تُصلحها وترجعها كما كانت، والشاهد استعمال كلمة مستطيراً بمعنى الانتشار والاستطالة في بيان ما يحدثه أَلم الفراق في القلب تشبيهاً له بالزجاجة. والبيت في الطبري، وابن كثير، والقرطبي، والشوكاني.

(١) الحُزْن: نقيض الفرح، وتقول: حَزَنَني وأَحْزَنَني، وصدْع القلب كناية عمَّا حدث فيه من آلام وأَحزان، واستطار: انتشر وتشعب واستطال، والشاهد هو ما ذكرناه في البيت السابق.

(٢) أخرجه أبو داود عن عليٍّ، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، ولفظه كما ذكره السيوطي: «لا يُتْمَ بعد احتلام، ولا صُمات يوم إلى الليل».

(٣) النص كما في اللسان: «لا يُؤْسر أحد في الإسلام بشهادة الزور، إنا لا نقبل إلا العدول» والمعنى: لا يحبس أحد إلا بشهادة العدول.

(٤) أَخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، عن أَبي سعيد، عن النبي ﷺ في قول الله: [مِسْكيناً]، قال: فقيراً، =



بلاد الحرب رهائن وخرجوا لطلب الفداءِ، وقال أَبو حمزة الثُّمَاليُّ[(١)]: الأَسير هنا المرأَة، ودليله قول النبي ﷺ: «اسْتَوْصوا بالنِّساءِ خيراً فإِنَّهن عَوَانٍ عندكم»[(٢)].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، المعنى: يقولون لهم عند الإِطعام، وهذا إِما أَن يكون المُطْعِم يقول ذلك نصًا، فحكى ذلك، وإِما أَن يكون ذلك مما يقال في الأَنْفُس وبالنِّية، فمدح بذلك، وهذا تأْويل مجاهد وابن جبير. وقرأَ أَبو عمرو في رواية ابن عياش بجزم الميم من [نُطْعِمْكُمْ][(٣)]، قال أَبو علي: سكن تخفيفاً، و«الشُّكُورُ» مصدر كالشُّكْر، ووصف اليوم بالعَبُوس هو على التجوز، كما تقول: «ليلٌ نائم» أَي فيه نوم، و«الْقَمْطَرِيرُ» والْقُمَاطِرُ هو في معنى العُبُوس والازْبداد، يقال: «اقمطرَّ الرجلُ» إِذا جمع ما بين عينيه غضباً، ومنه قول الشاعر:

بَنِي عَمِّنا هَلْ تَذْكُرونَ بَلاءَنَا ... عَلَيْكُمْ إِذَا ما كانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ[(٤)]

= [وَيَتِيماً] قال: لا أَب له، [وأَسيراً] قال: المملوك والمسجون. (الدرُّ المنثور). وذكره الثعلبي فقال: «قال أَبو سعيد الخدري: قرأَ رسول الله ﷺ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فقال: المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أَب له، والأسير المملوك المسجون».

(١) هو ثابت بن أَبي صفية الثُّمَالي ـ بضم المثلَّثة وتخفيف الميم ـ أبو حمزة، واسم أَبيه دينار، وقيل: سعيد، وهو كوفي، ضعيف، رافضي، من الطبقة الخامسة، مات في خلافة أَبي جعفر. (تقريب التهذيب).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٧٢) عن أَبي حُرَّة الرقاشي عن عمه قال: كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه، فقال. وساق حديثاً طويلاً جاء فيه: «فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساءِ فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقاً، ألا يوطئن فُرُشكم أحداً غيركم، ولا يأذنَّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح»، وأَخرجه الترمذي عن عمرو بن الأحوص الجُشَمي، وقال: حديث حسن صحيح، كذلك أخرجه ابن ماجه، ووصيتهُ ﷺ بالنساء في حجة الوداع ثابتة في كتب السنة الصحيحة ولكن تختلف الألفاظ بعض الشيءِ عما ورد هنا.

(٣) اختلفت النسخ في إثبات اسم الراوي، ففي بعضها: ابن عياش، وفي بعضها: عياش، وفي بعضها: عباس، ولم يذكر هذه القراءة تقريباً غير ابن عطية، فلم يذكرها الطبري ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا الزمخشري، كذلك لم نجدها في كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري، ولا في كتاب (الحجة) لابن خالويه، وابن عياش هو عباس بن عياش بن أبي ربيعة.

(٤) هذا البيت ذكره الفراءُ شاهداً على أَن «القُمَاطِر» هو الشديد، وعنه ذكره المفسرون، كالطبري، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، وهو أَيضاً في اللسان، ولم ينسبه أحد إلى قائل معين، ويروى: «هل تُدركون» بدلاً من «هل تذكرون»، والبلاءُ: الاجتهاد وحسن الصنيع في الحرب، واليوم القُماطر=



وقال الآخر:

فَفِـرُّوا إذا مـا الْحَـرْبُ ثـارَ غُبـارُهـا　　وَلَجَّ بِها الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقُمَاطِرُ[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه مثل القَطِران، وعبَّر ابن عباس عن القمطرير بالطويل، وعبَّر عنه ابن الكلبي بالشديد، وذلك كله قريب في المعنى.

وقرأ الجمهور: (فَوَقَاهُمُ) بتخفيف القاف، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: [فَوَقَّاهُم] بتشديد القاف، و«النَّضْرةُ» حال البشرة، وذلك لا يكون إلاَّ مع فرح النفس وقرة العين، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: ﴿وَجَازَاهُمْ﴾ بأَلِف، وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عام، عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد، ففي هذا يدخل كل ما خصص الناس من صوم ونحوه، و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ من الضمير المنصوب في ﴿جَزَاهُمْ﴾ وهو الهاءُ والميم، وقرأَ أبو جعفر وشيبة: [مُتَّكِينَ] بغير همز، و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر المستورة بالحجال، وهذا شرط لبعض اللغويِّين، وقال بعض اللغويين: كل ما يُتَوَسَّد ويفترش مما له حشو فهو أَريكة وإن لم يكن في حَجَلة[2]. وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ الآية عبارة عن اعتدال مسِّ هوائها، وذهاب ضرورتي الحرِّ والقرِّ عنها، وكون هوائها سجْسَجاً كما في الحديث المأْثور[3]، ومسُّ الشمس هو أَشدُّ الحرِّ، والزمهرير أَشدُّ البرد، وقال ثعلب: الزَّمهرير بلغة طيىءٍ: القَمر.

= والمُقْمَطِرُّ والقَمْطريرُ هو الذي يُقَبِّض ما بين العينين لشدَّته، هكذا قال في اللسان.

(١) هذا البيت في القرطبي وفتح القدير، والبحر المحيط، و«ثار غبار الحرب» كناية عن اشتداد المعركة واحتدام القتال، ولَجَّ في الأمر: تمادى عليه وأَبى أن ينصرف عنه، والبيت كسابقه في الاستشهاد، ونسبة العبوس إلى اليوم تجوز، ومثل هذين البيتين قول حذيفة بن أَنس الهُذَليِّ:

بَنُـو الْحَـرْبِ أُرْضِعْنَـا بهـا مُقْمَطِـرَّةً　　وَمَـنْ يُلْـقَ مِنَّـا يُلْـقَ سِيـدٌ مُـدَرَّبُ

والسِّيدُ المدرَّب هو الأسد الضاري.

(٢) الحَجَلةُ: ساتر كالقُبَّة يُزَين بالثياب والسُّتور للعروس، أو سِتْرٌ يضرب للعروس في جوف البيت.

(٣) السجْسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد، والحديث هو: «نهارُ الجنة سَجْسَجٌ»، وفي رواية «إن هواء الجنة سَجْسَجَ لا حرٌّ ولا بردٌ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

اختلف النحويون في إعراب قوله تعالىٰ: ﴿وَدَانِيَةً﴾ ـ فقال الزجاج وغيره: هو حالٌ عطفاً على ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وقال أيضاً: يجوز أن يكون صفةً للجنة، فالمعنى: وجزاهم جنةً دانيةً[1]، وقرأ جمهور الناس: ﴿دَانِيَةً﴾، وقرأ الأعمش: (وَدَانِياً عَلَيْهِمْ)، وقرأ أبو حيوة: [وَدَانِيَةٌ] بالرفع، وقرأ أُبَيُّ بن كعب: [وَدَانٍ]، فهو مفردٌ مرفوع في الإعراب، ودُنُوُّ الظلال بتوسطٍ أَنْعَم لها لأن الشيءَ الْمُظل إذا بَعُد فَتَر ظلُّه لا سيَّما من الشجر. و«التَّذْليلُ» أن تَطِيبَ الثَّمرةُ فتتدلَّى وتنعكس نحو الأرض، والتَّذليل في الجنة هو بحسب إرادة ساكنيها، قال قتادة، وسفيان، ومجاهد: إن كان الإنسان قائماً تناول الثَّمر دون كلفة، وإن كان قاعداً فكذلك، وإن كان مضطجعاً فكذلك، فهذا تذليلها، لا يردُّ اليدَ عنها بُعد ولا شوك، ومن اللفظة قول امرىءِ القيس:

. . . . كَـأُنْبُـوبِ السَّقِـيِّ الْمُـذَلَّـلِ[2]

ومنه قول الأنصاري: «والنخل قد ذُلِّلت فهي مطوقة بثمرها»، و«القُطوفُ» جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوهما.

و«الآنِيَةُ» جمع إناءٍ، و«الكُوبُ» ما لا عروة له ولا أُذن من الأواني، وهي معروفة

---

(١) معنى ذلك أَنها صفة لموصوف محذوف تقديره: جَنَّةً، وقيل: انتصبت [دَانِيَةً] على المدح، أما رفع [دانٍ] في قراءة أُبَيٍّ فهو على الاستئناف.

(٢) البيت بتمامه:

وَكَشْـحٍ لَطِيـفٍ كَـالْجَـدِيـلِ مُخَصَّـرٍ ... وسـاقٍ كَـأُنْبـوبِ السَّقِـيِّ الْمُـذَلَّـلِ

والكَشْحُ هو الخِصْرُ، ولطيف: رقيق، والجديلُ: خطامٌ يُتخذ من الجلد، والمُخصَّرُ: الدَّقيق الوسط، والأنبوب: ما بين العقدتين من القصب من كل نبات مُجوَّف، والسَّقِيُّ: النخل المرويُّ، والمُذَلَّلُ: الذي كثر ماؤهُ فأصبح ليِّناً يطاوع كل من يتناوله، وذلك أنهم كانوا في أيام الثَّمر يلِحُون على النَّخل بالسقي فهو حينئذ «سَقِيٌّ» و«مُذَلَّلٌ»، يقول: إن خصرها رقيق ليِّنٌ كأنه الزِّمام الرقيق، وإن ساقها متألقٌ طريٌّ ريّان يحكي في صفاء لونه النبات الذي كثر ماؤه فَلانَ.

الشكل في تلك البلاد، وهو الذي تقول له العامة «القب»، لكنها تسمي ذلك ما له عروة، وذلك خطأٌ أَيضاً، وقال قتادة: الكوب القَدَح، و«القواريرُ» الزجاجُ. واختلف القراءُ، فقرأَ نافع، والكسائي وأَبو بكر عن عاصم: (قَوَاريراً، قَوَاريراً) بالإِجراءِ فيهما على ما تقدم في [سَلاسِلاً][1]، وقرأَ ابن عامر، وحمزة: [قَواريرَ، قَوَاريرَ] بترك الإِجراءِ فيهما[2]، وقرأَ ابن كثير بالإِجراءِ في الأَول وتركه في الثاني[3]، وقرأَ أَبو عمرو إِذا وقف في الأَول بأَلف دون تنوين، وبِتَرْك الإِجراءِ في الثاني. وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ يقتضي أَنها من زجاج ومن فضَّة، وذلك متمكن لكونه من زجاج في شفوفه ومن فضة في جوهره، وكذلك فضة الجنة شفافة، وقال أَبو علي: جعلها من فضة لصفائها وملازمتها لتلك الصفة، وليست من فضة في حقيق أَمرها، وإِنَّما هذا كقول الشاعر:

أَلاَ أَصْبَحَـتْ أَسْمـاءُ جـاذِمَـةَ الْـوَصْـلِ ... وَضنَّـتْ عَلَيْنـا والضَّنيـنُ مِـنَ البُخْـلِ[4]

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتمل أَن يكون الضمير للملائكة، ويحتمل أَن يكون للطائفين، ويحتمل أَن يكون للمنعَّمين، والتقدير إِما أَن يكون على قدر الأَكُفِّ، قاله الربيع، أَو على قدر الريِّ، قاله مجاهد، وهذا كله على قراءة من قرأَ: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ بفتح القاف، وقرأَ ابن أَبزى، وعليٌّ، والجحدريُّ، وابن عباس، والشَّعبيُّ، وقتادة: ﴿قُدِّرُوهَا﴾ بضم القاف وكسر الدال، قال أَبو علي: كأَن اللفظ «قُدِّروا عليها»، وفي المعنى قلب لأَن حقيقة المعنى أَن يقال: قُدِّرت عليهم، فهي مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾[5]، ومثل قول العرب: «إِذا طلعت الجوزاءُ أُلقي العود على الحرباءِ»، حكاه أَبو علي.

---

(١) يعني بتنوينهما وَصْلاً وإبدال التنوين أَلِفاً في الوقف.

(٢) يعني بمنع صرفهما، وهي قراءة حفص عن عاصم.

(٣) يعني بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني.

(٤) هذا البيت لِخداش بن بشر المجاشعي المعروف باسم البعيث، وهو في اللسان ـ جذم وضَنَّ ـ ويروى «خنساءُ» بدلاً من «أسماء»، و«الحبل» بدلاً من «الوصل». وجَذَم: قَطَع، يقال: جذب فلان حبْل وصله وجذمه إذا قطعه، والضَّنُّ: البُخْل، وأراد بقوله: (والضَّنين من البخل) أن الضَّنين مخلوق من البخل، كقولهم: هو مجبول من الكرم، وهي مخلوقة من البخل، وهذا على المجاز لأن المرأة جوهر والبخل عَرَض، والجوهر لا يكون من العرض، إنما يريد أن البخل تمكن فيها حتَّى كأنها مخلوقة منه، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٥) من الاية (٧٦) من سورة (القصص).

وكون الزنجبيل مزاجاً هو على ما ذكرناه في العرف ولذع اللسان، وذلك من لذات المشروب، والزنجبيل طيب حارٌّ، وقال الشاعر:

كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّنْجَبِيـ ـلِ باتَ بِفِيهَا وَأَرْياً حَشُورَا[1]

وقال الْمسيَّبُ بن عَلَس:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلاَفَةَ الْخَمْرِ[2]

وقال قتادة: الزَّنجبيل اسمٌ لعين يشرب منها المقربون صرفاً، ويُمزج لسائر أَهل الجنة. و[عَيْناً] بدل من [كَأْساً]، أَو من [زَنْجَبِيلاً] على القول الثاني[3].

و[سَلْسَبِيلاً] قيل: هو اسمٌ بمعنى السَّلْس المُنْقاد الْجَرْيَة، وقال مجاهد: حديد الجرية[4]، وقيل: هي عبارة عن اتساعها، وقال ابن الأَعرابي: لم أَسمع هذه اللفظة إِلاَّ في القرآن، وقال آخرون: [سَلْسَبِيلاً] صفة لقوله تعالىٰ: [عَيْناً]، و[تُسَمَّى] بمعنى: تُوصف وتشهر، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفةً لا اسماً[5]، وقال بعض المفسرين: [سَلْسَبِيلاً] أَمر للنبي ﷺ ولأُمته بسؤال السبيل إِليها، وهذا قول ضعيف لأَن

---

(١) هذا البيت للأعشى، وهو من قصيدته التي مدح بها هوذة بن عليٍّ الحنفي، والرواية في الديوان: (خَالَطَ فَاهَا)، والْجَنِيُّ: ما جُني لساعته من الثمر، ويَكُون لهذا غضاً طيباً لم يلحقه تغيير، والأَرْيُ: العَسَلُ والْمَشُورُ: المستخرج من الخليَّة، يصف ريقها ويشبهه في حلاوته بالزنجبيل والعسل الصافي، والشاهد أن العرب تستطعم الزنجبيل إلى هذه الدرجة.

(٢) المسيَّب لقب لُقِّب به، واسمه زهير بن عَلَس بن مالك، والبيت مع بيت بعده من أفضل ما قيل، وقد سبق إلى ما فيهما من معنى، وأَخذه عنه غيره، وفيهما يقول:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلاَفَةَ الْخَمْرِ
شَرِقاً بماءِ الذَّوْبِ أَسْلَمَهُ لِلْمُبْتَغِيهِ مَعَاقِلُ الدَّبْرِ

ومعنى «شَرِقاً» مختلطاً، وهي حال، والدَّبْر: النحل، وسُلافة الخمر: أول ما يعصر منها، وهو أَخلصها وأَفضلها، يذكر ثغر المرأة ويشبه ما فيه بطعم الزنجبيل وبأَصفى وأفضل أَنواع الخمر، والشاهد أن طعم الزنجبيل ممدوح محبوب عند العرب.

(٣) في الأصول: أو من (عين)، وما أثبتناه هنا يتفق مع ما في «البحر المحيط»، وهو الملائم لقوله: «على القول الثاني»، أي قول قتادة.

(٤) في بعض النسخ: «جيِّد الجرية»، وما أثبتناه يتفق مع ما في الطبري، ولعل معناه أن جريه محدد يقصد هدفاً معيناً.

(٥) في بعض النسخ: «لا أَمراً»، وكأنه ينفي الرأي الذي سيذكره بعد ذلك وهو أن الكلمة أَمر للنبي ﷺ.



براعة القرآن وفصاحته لا تجيءُ هكذا، واللفظة معروفة في اللسان، وأن «السَّلْس والسَّلْسبيل» بمعنى واحد ومتقارب.

و[مُخَلَّدونَ] قال جمهور الناس: معناه: باقون، من الخلود، وجعلهم ولْداناً لأنهم في هيئة الولدان في السن، لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره: [مُخَلَّدُونَ] معناه: مُقَرَّطون، والخلدات حُلَى تُعَلَّق في الآذان، ومنه قول الشاعر:

وَمُخَلَّـدَات بِـالـلُّجَيْـنِ كَـأَنَّمَـا ... أَعْجـازُهُـنَّ أَقَـاوِزُ الكُثْبَـانِ[1]

وشهرة هذه اللغة في حِمْير.

وشبههم تعالىٰ باللؤلؤ المنثور في بياضهم وانْتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون، وفي جمالهم، ومنه سميت المرأة دُرَّة وجوهرة، ثم كرَّر تعالىٰ ذكْر الرؤية مبالغة، و[ثَمَّ] ظرف، والعامل فيه [رَأَيْتَ] أو معناه، وقال الفراءُ: التقدير: إذا رأيتَ ما ثمَّ رَأَيتَ، وحذفت «ما». وقرأ حميد الأعرج: [ثُمَّ] بضم الثاءِ، و«النَّعيمُ» ما هم فيه من حسن عيش. و«الْمُلْكُ الكبيرُ» قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمُهُمْ عليهم وتعظيمُهُمْ لهم في ذلك كالملوك، وقال أكثر المفسرين: «الْمُلْك الكبير» اتساع مواضعهم، روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلاَّ يسعى عليه ألف غلام، كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في مُلكه مسيرة ألف عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾.

قرأَ نافع، وحمزة، وأَبان عن عاصم: [عَالِيهِمْ] بالرفع للابتداءِ، وهي قراءة

---

(١) البيت في اللسان وفي الطبري غير منسوب، ومُخَلَّدات: يلبسن الخلدات وهي الأقراط، والقرطُ يُسَمَّى الْخَلدة، واللُّجَيْن: الفضة، ولزوم صيغة التصغير هذه فلا مُكَبَّر له، ومثله في ذلك الثُّرَيَّا والكُمَيْت، والأَعجاز: أرداف المرأَة، والواحد عَجُز، والأقاوز: جمع قَوْز، وهو مرتفع صغير مستدير من الرمل تُشَبَّه به أرداف النساء، وقد قيل: إن أَصله أَقَاويز بالياءِ، وقد حذفها الشاعر ضرورة.



الأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وابن عباس بخلاف عنه ـ، وقرأَ الباقون وعاصم: [عَالِيَهُمْ] بالنصب على الحال، والعامل فيه [لَقَّاهُمْ] أَو [جَزَاهُمْ]، وهي قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وأَهل مكة. وقرأَ الأَعمش، وطلحة: [عَالِيَتُهُمْ]، وكذلك هي في مصحف عبد الله، وقرأَ أَيضاً الأَعمش: [عَالِيَتَهُمْ] بالنصب على الحال، وقد يجوز في النصب في القراءتين أَن تكون على الظرف؛ لأَنه بمعنى: فوقهم، وقرأَت عائشة رضي الله عنها: [عَلَتْهُمْ] بتاءِ فعل ماض، وقرأَ مجاهد، وقتادة، وابن سيرين، وأَبو حيوة: [عَلَيْهِمْ] بالياءِ.

و«السُّنْدُس» رقيق الديباج والمرتفع منه، وقيل: السندُس هو الحرير الأَخضر، و«الإِسْتَبْرَقُ» والدِّمَقْسُ هما الأَبيض، والأرجوان هو الأَحمر. وقرأَ حمزة والكسائي: [خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ] بالخفض فيهما، وهي قراءة الأَعمش، وطلحة، ورويت عن الحسن، وأَبي عمرو ـ بخلاف عنهما ـ، على أَن «خُضْراً» نعت للسندس، وجائز جمع صفة اسم الجنس إذا كان اسماً مفرداً، كما قالوا: «أَهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْر والدِّرهمُ البيضُ»، وفي هذا قُبح، والعرب تفرد صفة اسم الجنس وهو جمع أَحياناً فيقولون: «هو حصىً أَبيض»، وفي القرآن: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾[(١)]، و﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[(٢)] فكيف بأَن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع. و[إِسْتَبْرَقٍ] في هذه القراءَة عطف على [سُنْدُسٍ]، وقرأَ نافع، وحفص عن عاصم، والحسن، وعيسى: ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع فيهما، [خُضْرٌ] نعت لـ [ثِيَابٌ]، و[إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابٌ]، وقرأَ أَبو عمرو، وابن عامر، ونافع أَيضاً: [خُضْرٌ] رفعاً و[إِسْتَبْرَقٍ] خفضاً، و[خُضْرٌ] صفة لـ [ثِيَابٌ] و[إِسْتَبْرَقٍ] عطف على [سُنْدُسٍ]، وقرأَ ابن كثير، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ: [خُضْرٍ] خَفضاً و[إِسْتَبْرَقٌ] رَفعاً، فخفض [خُضْرٍ] على ما تقدم أَوَّلاً، و[إِسْتَبْرَقٌ] عطف على [ثِيَابٌ]، و«الإِسْتَبْرَقُ» غليظ الديباج، وقرأَ ابن محيصن: [وَاسْتَبْرَقَ] موصولة الأَلف مفتوحة القاف، كأَنه مثال الماضي من بَرِقَ واسْتَبْرَقَ كَعَجِب واسْتَعْجَبَ، قال أَبو حاتم: لا يجوز، والصواب أَنه اسم جنس لا يَنبغي أَن يحمل ضميراً، ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب فيه قطع الأَلف وإِجراؤه على

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (يس).

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (القمر).



قراءة الجماعة. وقرأ أبو حيوة: [عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ] بالرفع (سُنْدُسٌ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ) رفعاً في الثلاثة، وقوله تعالىٰ: [وَحُلُّوا] أي جعل لهم حلي، و[أَساوِر] جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرَة جمع سوار، وهو من حلي الذراع.

قوله تعالىٰ: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾، قال أبو قِلابة، والنَّخَعي: معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك، وهنا محذوف يقتضيه القول تقديره: يقول الله تعالىٰ لهم والملائكة عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية... تثبيتٌ لمحمد ﷺ، وتقوية لنفسه على أفعال قريش وأحوالهم، و«حُكْمُ رَبِّه» تعالىٰ أن يبلِّغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأذى ليعرِّف الله تعالىٰ إليهم. وقوله تعالىٰ: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ هو تخيير في أن يعرف الذي ينبغي أَلاَّ يطيعه بأي وصف كان من هذين؛ لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور، ولم تكن الأُمة حينئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على العاصي، واللفظ أيضاً يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثِم من العصاة أو كفور من المشركين، وقال أبو عبيدة: (أَوْ) بمعنى «الواو» وليس في هذا تخيير.

ثم أمره تعالىٰ بذكر ربِّه عزَّ وجلَّ دأباً بُكرةً وأصيلاً، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قَوْلَ: «سبحان الله»، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس، منهم ابن حبيب وغيره، فالبُكْرَةُ: صلاةُ الصبح، والأصيل الظهر والعَصْر، ومن الليل: المغربُ والعِشاءُ، وقال ابن زيد وغيره: كان هذا فرضاً ونُسخ، فلا فرض إلا الخمسة، وقال قوم، هو محكم على جهة الندب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

الإشارة بـ [هؤلاءِ] إلى كفار قريش، و«العاجِلَةُ»: الدنيا، وحُبُّهم لها أنهم لا يعتقدون غيرها، و﴿يَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ معناه: فيما يأتي من الزمان بعد موتهم، وقال لبيد:



أَلَيْـسَ وَرَائــي إِنْ تَــراخَــتْ مَنِيَّتــي ... لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصابِعُ[١]

ووصف اليوم بالثِّقَل على جهة النَّسب، أَي ذا ثِقَل من حيث الثقل فيه على الكفار، وهو كلَيْل نائم.

ثم عدد تعالىٰ النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خِلْقَتِهم، و«الأَسْرُ»: الخلْقة واتِّساق الأَعضاءِ والمفاصل، وقد قال أَبو هريرة، والحسن، والربيع: الأَسْرُ: المفاصل والأَوصال، وقد قال بعضهم: الأَسْرُ: القوة، ومنه قول الشاعر:

فَــأَنْجــاهُ غَــداةَ الْمَــوْتِ مِنِّــي ... شَدِيدُ الأَسْرِ عَضَّ عَلَى اللِّجامِ[٢]

وقول الآخر:

مِــنْ كُــلِّ مُجْتَنَــبٍ شَـدَيـدٍ أَسْـرُهُ ... سَلِسِ الْقِيَـادِ تَخـالُـهُ مُخْتـالا[٣]

قال الطبري: ومنه قول العامة: «خذه بأَسره» يريدون: خذه كله[٤].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَصل هذا فيما له شدٌّ ورباط كالعظم ونحوه، وليس هذا مما يختص بالعامة، بل

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي قالها يرثي أَخاه أربد، والتي يقول في مطلعها: (بَلِينَا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطوَالِعُ)، والرواية في النسخ الأصلية: «أَدبُّ مع الوِلْدان أَزحف كالنسر» والتصويب عن الديوان واللسان، ووراء ـ هنا ـ بمعنى أَمام. ، كمعناها في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أَي أَمامهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الفراء: إن هذا المعنى لا يجوز إلاَّ في المواقيت من الليالي والأيام، تقول: وراءك بردٌ شديد، وتراخت: تباعدت وأَبطأَت، ولزوم العصا: مصاحبتها والاعتماد عليها عند المشي، تُحْنَى: تُضَمُّ وتجتمع.

(٢) غداة الموت: صباح يوم الموت، وشديد الأسر: قويُّ المفاصل، والمراد هنا الفرس، يقول: أَنقذه مني عند اشتداد المعركة وكثرة الموت فرسٌ قوي متين. والشاهد أَن الأسر بمعنى القوة. ولم أَقف على قائل هذا البيت.

(٣) البيت للأخطل، وهو في الطبري، والقرطبي، والشوكاني، وهو في وصف الخيل، والمجتنب: الذي يرفقه صاحبه بجانب فرسه ولا يركب عليه، وكان العرب يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل، وشديد الأسر: قويٌّ، وسَلِسُ القياد: ينقاد في سهولة إذا قاده صاحبه إلى جانبه، ومختالاً: يُخيل إليك أنه من نشاطه وحيوته يختال في مشيته، والبيت شاهد على أن الأَسْر بمعنى القوة.

(٤) نصُّ عبارة الطبري: «ومنه قول العامة: خذه بأَسْره، أي: هو لك كله»، وواضح أن الطبري فعلاً قد أراد جمهور الناس.



هو من فصيح كلام العرب، اللهم إلاَّ أَن يريد بالعامة: جمهور العرب. ومن اللفظة «الإِسارُ» وهو القِدُّ الذي يُشدُّ به الأَسير.

ثم توعَّد تعالىٰ بالتبديل، واجتمع من القولين ـ تعديد النعمة والوعيد والتبديل ـ احتجاج على مُنكري البعث، أَي: مَنْ هذا الإِيجادُ والتبديلُ ـ إِذا شاءَ ـ في قُدرته فكيف تتعذر عليه الإِعادة؟

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يَحْتمل أَن يشير إِلى هذه الآية، أَو إِلى السورة بأَسرها، أَو إِلى الشريعة بجملتها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ ليس على جهة التخيير، بل فيه قرينة التحذير والحض على اتخاذ السبيل، و«السَّبيلُ» هنا سبيل النجاة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نَفْي لقدرتهم على الاختراع وإِيجاد المعاني في نفوسهم، ولا يردُّ هذا ما لهم من الاكتساب والميل إِلى الكفر[1]، وقرأَ عبد الله: [وَمَا تَشاءُونَ إِلاَّ ما شاءَ اللهُ]، وقرأَ يحيى بن وثاب: [تِشَاءُونَ] بكسر التاءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ معناه: يعلم ما ينبغي أَن يُيَسِّر عبده إِليه، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إِلاَّ هو.

و[الظَّالِمِينَ] نصب بإِضمار فعل تقديره: ويُعَذِّب الظالمين أَعَدَّ لهم[2]، وفي قراءة ابن مسعود: [ولِلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ] بتكرير اللام، وقرأَ جمهور السبعة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يَشَاءُونَ] بالياءِ، وقرأَ الزبير، وأَبان بن عثمان، وابن أَبي عبلة: [وَالظَّالِمونَ] بالرفع، قال أَبو الفتح: ذلك على ارتجال جملة مستأَنفة.

تم تفسير سورة الإنسان والحمد لله رب العالمين

---

(١) قال القرطبي: «أَخبر أَن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلاَّ أن تتقدم مشيئته سبحانه».

(٢) قال الزجاج: «نصب (الظالمينَ) لأن قبله منصوب، أي: يدخل من يشاء في رحمته، ويُعذب الظالمين، أي المشركين، ويكون (أَعَدَّ لَهُم) تفسيراً لهذا المضمر، كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالمَطَرَا

أَي: أَخشى الذئبَ أَخشاهُ، والاختيار النصب، وإن جاز الرفع، تقول: أَعطيتُ زيداً وعمراً أعددتُ له بِراً، فيُختارُ النصب، أي: وبَرَرتُ عَمْراً، أَو أَبَرُّ عمروا».



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المرسلات[(١)]

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل: إن فيها من المدني قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾[(٢)]، على تأويل من قال إنها حكاية عن حال المنافقين، وإنها بمعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[(٣)]، وقال ابن مسعود: نزلت هذه السورة ونحن مع رسول الله ﷺ بخيبر... الحديث بطوله[(٤)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

قال كثير من المفسرين: «الْمُرْسَلَاتُ»: الرُسُل إلى الناس من الأنبياءِ عليهم السلام، كأَنه تعالىٰ قال: والجماعات المرسلات، وقال أَبو صالح، ومقاتل، وابن مسعود: المرسلات: الملائكة المرسلة بالوحي وبالتعاقب على العباد طرفي النهار، وقال ابن

---

(١) أخرج ابن شيبة، والبخاري، ومسلم، وابن ماجه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أُم المفضل سمعته وهو يقرأ «والْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً» فقالت: يا بني، لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة أَنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في المغرب.

(٢) وهي الآية (٤٨) من السورة.

(٣) من الأية (٤٢) من سورة (القلم).

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة (المُرْسلاتِ عُرْفاً)، فإنه يتلوها، وإني لألقاها من فيه، وإن فاهُ لرطبٌ بها، إذ وثبت عليه حيَّةٌ، فقال النبي ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: وُقيَتْ شرَّكم كما وُقِيتُمْ شرَّها. (الدُّر المنثور).



مسعود أيضاً، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المرسلات: الرياح، وقال الحسن بن أَبي الحسن: المرسلاتُ: السحاب. و[عُرْفاً] معناه على القول الأَول: عُرْفاً من الله وإِفضالاً[١] على عباده ببعثه الرسل عليهم السلام، ومنه قول الشاعر:

مَـنْ يَفْعَـلِ الْخَيْـرَ لا يَعْـدِمْ جَـوازِيَـهُ   لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ[٢]

ويحتمل أَن يريد بقوله [عُرْفاً] متتابعة، على التشبيه بتتابع عُرف الفرس وأَعراف الجبال ونحو ذلك، والعرب تقول: «الناسُ إِلى فلان عُرْفٌ واحد» إِذا توجهوا إِليه، ويحتمل أَن يريد: بالعرف، أَي بالحق والأَمر بالمعروف، وهذه الأَقوال في [عُرْفاً] تتَّجه في قول من قال: المرسلات هي الملائكة، ومن قال إِن المرسلات هي الرياح اتجه في «العرف» أَن يقال: التأَول على تخصيص الرياح التي هي نِعَمٌ بها الأَرزاق والنجاة في البحر وغير ذلك مما لا نقمة فيه، ويكون الصنف الآخر من الريح في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾، ويحتمل أَن يكون [عُرْفاً] بمعنى: والمرسلات الرياحُ التي يعرفها الناس ويعهدونها، ثم عقَّب بذكر الصنف المستنكر الضارِّ وهي العاصفات، ويحتمل أَن يريد بالعرف مع الرياح التَّتابع كعُرف الفرس ونحوه، وتقول العربُ: «هبَّ عُرف من ريح»، والقول في العُرف مع أَن المرسلات هي الرياح يطَّرد على أَن المرسلات هي السحاب، وقرأَ عيسى: [عُرُفاً] بضم الراءِ. و«العاصفُ» من الريح: الشديدة العاصفة للشجر وغيره.

واختلف الناس في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ـ فقال مقاتل، والسُّدي: هي الملائكة تنشر صحف العباد بالأَعمال، وقال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تنشر رحمة الله تعالىٰ ومطره، وقال بعض المتأَولين: الناشراتُ طوائف الملائكة التي تباشر إِخراج الموتى من قبورهم للبعث، فكأَنهم يحيونهم، وقال قوم: الناشرات

---

(١) الإِفْضال: الإِحسان، يقال: أَفضل الرجلُ على فلان بمعنى: أَناله من فضله وأَحسن إِليه. (لسان العرب).

(٢) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه، وفي اللسان، وهو من الأَبيات المشهورة في قيمة المعروف وأَثره بين الناس، قال ابن جني: «ظاهر هذا أَن تكون (جوازِيَهُ) جمع جاز، أَي: لا يعدم جزاءً عليه، وجاز أَن يجمع جزاءٌ على جوازٍ لمشابهة اسم الفاعل للمصدر، فكما جمع سَيْل على سوائل كذلك يجوز أَن يكون جوازيه جمع جزاءٍ». والعرف: المعروف، وهو خلاف المنكر، أَو ما يستحسن من الأَفعال، وفي الحديث الشريف: «أَهل المعارف في الدنيا هم أَهل المعروف في الآخرة».

الرمم في بعث يوم القيامة، يقال: نشر الميت، ومنه قول الأعشى:

. . . . يَـا عَجَبـاً لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ(١)

وقيل: الناشراتُ البقاعُ التي تحيا بالأَمطار، شبهت بالميِّت يُنشر، وقال أَبو صالح: الناشرات الأَمطار تحيي الأَرض.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾، قال ابن عباس، وابن مسعود، وأَبو صالح، ومجاهد، والضحاك: هي الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام، وقال قتادة، والحسن، وابن كيسان: الفارقاتُ آياتُ القرآن.

وأَمَّا ﴿المُلقيات ذكراً﴾ فهي في قول الجمهور: الملائكة، قال مقاتل: جبريل عليه السلام ونحوه، وقال آخرون: هي الرسل عليهم السلام، وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ بسكون اللام، أَي تُلقيه من عند الله تعالىٰ وبأَمره إِلى الرسل عليهم السلام، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر المهدوي ـ: ﴿فَالمُلَقَّيٰتِ﴾ بفتح اللام وفتح القاف وشدها، أَيْ: تَلَقَّاه من قبَل الله تعالىٰ. وقرأَ ابن عباس أَيضاً: ﴿فالمُلَقِّيٰتِ﴾ بفتح اللام وشدِّ القاف وكسرها، أَي: تُلقيه هي للرسل عليهم السلام، و«الذِّكْرُ» الكتبُ والشرائع ومُضَمَّناتها.

واختلف القراءُ في قوله تعالىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، فقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وأَبو جعفر، وشيبة بسكون الذَّال في ﴿عُذْرًا﴾ وضمها في [نُذُراً]، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وإِبراهيم التَّيمي بسكون الذال فيهما، وقرأَ طلحة، وعيسى، والحسن ـ بخلاف ـ وزيد بن ثابت، وأَبو جعفر وأَبو حيوة، والأَعمش عن ابن كثير عن عاصم بضمها فيهما. وإِسكانُ الذال على أَنهما مصدران، يقال: عُذْرٌ وعذيرٌ، ونُذْر ونذير، كنكير ونُكْر، وضم الذال يصحُّ معه

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدته التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

لَـو أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إِلَـى نَحْـرِهـا ... عـاشَ وَلَـمْ يُنْقَـلْ إِلـى قـابـرِ
حَتَّـى يقـولَ النَّـاسُ مِمَّـا رَأَوْا: ... يـا عَجَبـاً لِلْمَيِّـتِ النَّـاشِـرِ

والشاهد أن الناشر بمعنى الحيّ، يقال: نَشَر الله الميت: أحياه، والبيت في الديوان، واللسان، وقد سبق الاستشهاد به.



المصدر ويصح أَن يكون جمعاً لنذير وعاذر واللذين هما اسما فاعل، والمعنى أَن الذِّكْر يُلْقى بإِعذارٍ وإِنذارٍ، أَوْ يُلقيه مُعْذِرون ومُنذِرون، وأَما النصب في قوله تعالىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فيصح إذا كانا مصدرين أن يكون ذلك على البدل من «الذِّكْر»، ويصح أن يكون على المفعول للذِّكْر، كأنه تعالى قال: فالمُلْقيات أنْ نذكُر عُذْراً، ويصح أن يكون [عُذْراً] مفعولاً من أجله، أي تلقى الذكر من أجل الإعذار والإنذار وأما إذا كان (عُذراً أو نُذْراً) جمعاً فالنصب على الحال، وقرأ إِبراهيم التَّيمي: [عُذْراً وَنُذْراً] بواوٍ بدل «أَو».

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾، هذا الذي وقع عليه القسم، والإِشارة إِلى البعث، و«طَمْسُ النجوم» إِزالةُ أَضوائها واستواؤُها مع سائر جرم السماءِ، و«فَرْجُ السماءِ» هو بانفطارها حتى تحدث فيها فروج، و«نَسْفُ الجِبَالِ» هو بعد التَّسيير، وقيل: كونها هباءً وهو تفريقها بالريح، وقرأَ الجمهور: ﴿أُقِّتَتْ﴾ بالهمزة وشدِّ القاف، وقرأَ بتخفيف القاف مع الهمز عيسى، وخالد[1]، وقرأَ أَبو عمرو وحده: [وُقِّتَتْ] بالواو، وقرأَ بها أَبو الأَشهب، وعيسى، وعمرو بن عبيد، قال عيسى: هي لغة سُفْلى مضر، وقرأَ أَبو جعفر بواو واحدة خفيفة القاف، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [ووُقِتَتْ] بِواوَيْن، على وزن فُوعلت، والمعنى: جُعل لها وقت مُسَطَّر فجاءَ وحانَ، والواو في هذا كله هي الأَصل، والهمزة بدل.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تعجيب وتوقيف على عِظَم ذلك اليوم وهوله، ثم فسَّر تعالىٰ ذلك الذي عجَّب منه بقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ يعني تعالىٰ: بَيْن الخلق في منازعتهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أَو نار، ومن هذه الآية انتزع القضاةُ الآجال في الحكومات ليقع فصل القضاءِ عند تمامها، ثم عظَّم سبحانه يوم الفصل بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2] وغير ذلك، ثم أَثبت تعالىٰ الويل للمكذبين في ذلك اليوم، والمعنى: للمكذِّبين به في الدنيا وبسائر فصول الشرع، و«الْوَيْلُ» هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرءِ، ويُروى عن النعمان بن بشير، وابن مسعود، وعمار بن ياسر أَن وادياً في جهنم اسمه الْوَيْلُ.

---

(١) هو خالد بن إلياس أو إياس بن صخر، أبو الهيثم العدوي المدني، إمام المسجد النبوي، وفي بعض الأصول: «وخلف»، وأثبتنا ما يوافق القرطبي.

(٢) الآية الثَّالثة من سورة (الحاقة).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قرأ جمهور القراءِ: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ بضم العين على استئناف الخبر، وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: ﴿ثُمَّ نُتْبِعْهُمُ﴾ بجزم العين عطفاً على [نُهْلِكْ]، وهي قراءة الأعرج، وعلى حسب هاتين القراءتين يجيءُ التأويل في [الأَوَّلينَ]، فَمَنْ قرأ الأُولى جعل [الأَوَّلينَ] الأُممَ التي تقدمت قريشاً بأَجمعها، ثم أَخبر تعالىٰ أنه يُتْبِعُ [الآخرين] مِنْ قريش سِيَرَ أُولئك إذا كفروا وسلكوا سبيلهم، ومَنْ قرأ الثانية جعل [الأَوَّلينَ] قومَ نوح وإبراهيم ومن كان معهم، و[الآخِرِينَ] قوم فرعون وكلَّ من تأَخَّر وقرب من مُدَّة محمد ﷺ، وفي حرف عبد الله: «وَسَنُتْبِعُهُم»، ثم قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أَي في المستقبل، فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار.

وأَما تكرار قوله تعالىٰ في هذه السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فقيل: ذلك بمعنى التأْكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاءَ الوعيد على التكذيب يؤكد الذي في الآية(١).

ثم وقف تعالىٰ على أَصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث، و«الْمَاءُ الْمَهِينُ» معناه: الضعيف، وهو المنيُّ من الرجل والمرأَة، و«الْقَرَارُ الْمَكِينُ» الرَّحِمُ وبطن المرأَة، و«الْقَدَرُ الْمَعْلُومُ» وقتُ الولادة، ومعناه: معلوم عند الله تعالىٰ في شخص شخص، وأَما عند الآدميين فيختلف، فليس بمعلوم قَدَر شخص بعينه، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ونافع، والكسائي: [فَقَدَّرْنَا] بتشديد الدال، وقرأَ الباقون بتخفيفها، وهما بمعنى، من القُدْرة والقدر، ومن التقدير والتوقيف، وقوله

(١) وقيل: كرَّر الوعيد على التكذيب لأنه قسَّمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيءٍ قدراً من العذاب غير العذاب الذي يَسْتَحقه على تكذيبه بشيءٍ آخر، وربَّ شيءٍ كذَّب به هو أعظم جُرْماً من تكذيبه بشيءٍ آخر، لأنه أقبح في تكذيبه وأعظم في الردِّ على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾.

تعالىٰ: ﴿ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ يُرَجِّح قراءة الجماعة، أَما إِن ابن مسعود روى عن النبي ﷺ أنه فسَّر «القادرين» بالْمُقَدِّرين، وقرأ ابن أَبي عبلة: [فقَدَّرنا] بتشديد الدال ﴿فَنِعْمَ المُقْتَدِرونَ﴾.

و«الْكِفاتُ» الستر والوعاءُ الجامع للشيءِ بإِجماعٍ، تقول: كَفَت الرجل شعره، إِذا جمعه بخرقة، والأَرضُ تكْفِتُ الأَحياءَ على ظهرها، وتكْفِتُ الأَمواتَ في بطنها، و[أَحْيَاءً] ـ على هذا التأويل ـ معمول لقوله سبحانه: ﴿كِفَاتًا﴾؛ لأنه مصدر، وقال بعض المتأَولين: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ إنما هو بمعنى أَن الأَرض فيها أَقطارٌ أَحياءٌ وأَقطارٌ أَموات، يراد: ما يُنبت وما لا يُنبت، فنصب ﴿أَحْيَآءً﴾ ـ على هذا ـ إِنما هو على الحال من «الأَرض»، والتأْويل الأَول أَقوى، وقال بُنَان: خرجنا مع الشعبي إِلى جنازة فنظر إِلى الجبانة فقال: هذه كِفاتُ الموتى، ثم نظر إِلى البيوت فقال: هذه كِفاتُ الأَحياءِ، وكانت العرب تُسمي «بَقيع الغَرْقد» كَفْتَةَ لأَنه مقبرةٌ يضم الموتى[1]، وفي الحديث «خَمِّروا آنِيَتَكُم، وأَوْكُوا أَسْقِيَتَكم، واكْفِتُوا صِبْيَانكم، وأَغْلِقُوا أَبْوابكم، وأَطْفِئُوا مَصابِيحَكُمْ»[2]، ودفن ابن مسعود قَملة في المسجد ثم قرأَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾، ولما كان القبر كِفاتاً كالبيت قُطع من سرق منه.

و«الرَّوَاسِي» الجبالُ؛ لأَنها رَسَتْ، أَي ثبتت، و«الشَّامِخُ» المرتفعُ، ومنه: شمخ بأَنفه، أَي ارتفع واستعلى، شبه المعنى بالشخص. و«أَسْقَى» جعله سقياً للغلات والمنافع، و«سَقَى» معناه: للشفة خاصةً، هذا قول لجماعة من أَهل اللغة، وقال آخرون: هما بمعنى واحد، و«الفُراتُ» الصَّافي، ولا يقال لِلْمِلْح فُراتٌ، وهي لفظة

---

(١) ويقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أي انقلبوا، فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدخلون فيها، وأنشد سيبويه:

كِرامٌ حينَ تَنْكَفِتُ الأَفاعِي ... إِلَى أَجْحارِهِنَّ مِنَ الصَّقيعِ

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق والأشربة، ومسلم وابن ماجه في الأشربة، والترمذي في الأطعمة، ومالك في صفة النبي ﷺ بالموطأ، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٠١، ٣٠٦، ٣٥٥)، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَغْلقوا أبوابكم، وخَمِّروا آنِيَتَكُم، وأَطْفِئُوا سُرُجَكُم، وأَوْكُوا أَسْقِيَتكم، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، ولا يكشف غطاء، ولا يحلُّ وِكاءً، وإِنَّ الفُوَيْسقَةَ تضرم البيت على أَهله»، يعني الفأرة. وفي رواية «وأَجيفوا الأبواب»، ومعنى «خَمِّرُوا»: غطُّوا، يقال: خمَّرت المرأة رأسها، أَي غَطَّتْهُ بالخمار، وأَوْكوا: اربطوا فم السقاءِ وهو القِرْبة، والوكاءُ هو الشيءُ الذي تربط به القربة، ومعنى «اكفتوا صبيانكم»: ضموهم إليكم حماية لهم.



تجمع ماءَ المطر ومياه الأنهار، وخص النهر المشهور هذا تشريفاً له، وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ[١]، وجيحان[٢] هو نهر دجلة، والنيل نهر مصر، وحُكي عن عكرمة أَن كل ماءٍ في الأَرض فهو من هذه، وفي هذا بُعد، والله تعالىٰ أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ هو للمكذبين الذين لهم الويل، يقال لهم: انطلقوا إِلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قوله تعالىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ في هذا الأمر الأول، وقرأَ يعقوب ـ في رواية رويس ـ: ﴿انطَلَقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ بفتح اللام، على معنى الخبر، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بكسر اللام، على معنى تكرير الأَمر الأَول، وبيان الْمُنْطَلَق إِليه، وقال عطاءٌ: الظِّلُّ الذي له ثلاث شُعب هو دخان جهنم، رُوي أَنه يعلو من ثلاثة مواضع فيراه الكفار فيظنون أَنه مُغْن فيهرعون إِليه فيجدونه على أَسوأ وصف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه المخاطبة إِنما تقال يومئذ لِعَبَدَةِ الصَّليب إِذا اتَّبع كل أَحد ما كان يعبد، فيكون المؤمنون في ظل الله تعالىٰ، ولا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، ويقال لِعَبَدَة الصَّليب: انطلقوا إِلى ظِلِّ معبودكم وهو الصليب له ثلاث شُعب، والشُّعب تفرق الجسم الواحد فرقاً، ثم نفى تعالىٰ عنه محاسن الظِّلِّ.

والضمير في [إِنَّها] لجهنم، وقرأَ عيسى بن عمر: [بِشَرَارٍ] بأَلِف، جمع شرارة، وهي لغة تميم، و«الْقَصْر» في قول ابن عباسٍ وجماعة من المفسرين: اسم نوع

---

(١) سَيْحان: نهر كبير بين أنطاكية والروم، يمرُّ بأَذَنَة ثم ينفصل عنها فيصب في بحر الروم، وبلْخ: مدينة مشهورة بخراسان، (معجم البلدان).

(٢) جَيْحان ـ بالفتح ثم السكون والحاء المهملة: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي، ومخرجه من بلاد الروم، ويصب في بحر الشام، قال أبو الطيب:

سَرَيْتَ إِلَى جَيْحَانَ مِنْ أَرْضِ آمِدٍ ... ثَلاثاً، لَقَدْ أَدْنَاكَ رَكْضٌ وَأَبْعَدَا

(راجع معجم البلدان).



القُصُور، وهي الأَدْوُر الكبار مُشَيَّدَة، وقد شبهت العرب بها النُّوق، ومن المعنى قول الأَخطل:

كَـأَنَّهَـا بُـرْجُ رُومِـيٍّ يُشَيِّـدُهُ ... لُـزَّ بِجِـصٍّ وَآجُـرٍّ وَأَحْجـارِ[١]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القَصْر أَيضاً خشب كان في الجاهلية يُقْطع من جَزْل الحطب من النخل وغيره، على قدر الذراع وفوقه ودونه، يُسْتَعَدُّ به للشتاءِ، يُسَمَّى القَصْر، واحده قَصْرة[٢]، وهو المراد في الآية، وإِنما سُمِّي بالقَصْر لأَنه يحيط بالقصرة. وقال مجاهد: القَصْر حُزَمَ الحطب، وهذه قراءة الجمهور. وقرأَ ابن عباس أَيضاً وابن جبير: [كَالْقَصَر] بفتح الصاد، جمع قَصَرَة، وهي أَعناق الخيل والإِبل، وكذلك هي أَيضاً في الناس[٣]، وقال ابن عباس: جذور النخل، وقرأَ ابن جُبَيْر أَيضاً والحسن: [كالْقِصَرِ] بكسر القاف وفتح الصاد، وهي جمع قَصْرَة كَحَلْقَةٍ وحِلَق من الحديد.

واختلف الناس في «الجِمالات»، فقال جمهور المفسرين: هي جمع «جمال» على صحيح البناءِ كرجال ورجالات، وقال آخرون: أَراد بالصُّفْرِ: السُّودَ، وأَنشدوا على ذلك بيت الأَعشى:

تِلْـكَ خَيْلـي مِنْـهُ وَتِلْـكَ رِكَـابـي ... هُـنَّ صُفْـرٌ أَوْلادُهـا كـالـزَّبِيـبِ[٤]

---

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة قالها أَبو أُمامة غياث بن غوث التغلبي المعروف بالأَخطل، ومطلعها: (تَغَيَّرَ رَسْمُ الدَّار مِنْ سَلْمَى بأَحْفار)، وهو في وصف الناقة، وقد استشهد به المؤلف هنا على أَن العرب قد تشبه النُّوقَ في ضخامتها بالقصور أَو بالدُّور الكبيرة، والبُرجُ: البناء العالي أَو الحصن، ولُزَّ الشيءُ بالشيءِ: شُدَّ وأُلْصِق، والجِصُّ: من مواد البناءِ، والآجُرُّ اللَّبِنُ المُحْرَقُ المُعَدُّ للبناءِ والقصيدة في الديوان وفي جمهرة أَشعار العرب.

(٢) على وزن تَمْرَة وتَمْر.

(٣) جاء في اللسان: «والقَصَرَةُ بالتحريك: أَصْل العُنق، قال اللحياني: إنما يقال لأَصل العُنق قَصَرة إذا غلظت، والجمع قَصَرٌ».

(٤) قال الأَعشى هذا البيت في قصيدة له يمدح بها قيس بن معديكرب، والبيت يشير إِلى خَيْل كريمة أَهداها إِليه قيسٌ هذا، فهو يقول: إن خيلي كلها منه، ثم يصف أَلوانها بأَنها صفراء وأَولادها مثل الزبيب في اللون، والعربُ تُسمي السُّود من الإِبل أَو الخيل صُفْراً لأَنه يشوب سوادَها شيءٌ من صفرة، كما قيل لِبيضِ الظباءِ: الأُدْمُ لأَن بياضها تعلوه كُدْرة، والشَّرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار كان أَشبه شيءٍ بالإِبل السود لما يشوبها من صفرة، وضعف بعضهم هذا القول ورأَى أَن هذا محال في اللغة، إذ=



وقال جمهور الناس: بل «الصُّفْرُ»: الفاقعة لأنها أشبه بلون الشَّرَر، وشبَّه الشَّرر بالجمالات، وقرأ الحسن: [صُفُرٌ] بضم الصَّادِ والفاءِ، وقال ابن عباس، وابن جبير: الجمالات قلُوسُ السفن[1]، وهي جمالاتها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاءَ منها أجرام عظام، وقال ابن عباس: الجمالاتُ قِطعُ النحاس الكبار، وكان اشتقاق هذه اللفظة من اسم الجملة.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: (جِمَالَةٌ) بكسر الجيم، لحقت التاءُ جمالاً لتأنيث الجمع فهي كَحَجَر وحِجارة، وقرأ ابن عباس، وأبو عبد الرحمن، والأعمش: [جُمالَةٌ] بضم الجيم، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: [جِمالاتٌ] على ما تفسَّر بكسر الجيم، وقرأ ابن عباس أيضاً، وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأبو رجاءٍ ـ بخلاف عنهما ـ: [جُمالاتٌ] بضم الجيم، واختُلف عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة، وكان ضم الجيم فيها من الجملة لا من الجمل، وكسرها من الجمل لا من الجملة.

ولما ذكر تعالىٰ المكذبين قال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي في يوم القيامة أَسكتتهم الهيبة وذُلُّ الكفر، وهذا في موطن خاص فإنهم لا ينطقون فيه؛ إذ قد نطق القرآن بنطقهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾[2] ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾[3]، فهي مواطن، و[يَوْمُ] مضاف إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. وقرأ الأعرج، والأعمش، وأبو حيوة: [هَذَا يَوْمَ]، لما أضاف إلى غير متمكن بناه، فهي فتحة بناءٍ، وهي في موضع رفع، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بـ [هَذَا] إلى رَمْيِها بشَرَر كالقصر. وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف على ﴿يُؤْذَنَ﴾، ولم ينصب في وجوب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ﴾ مخاطبة للكفار يومئذ، و«الأَولُونَ» المشار

= كيف نتحدث عن شيءٍ يشوبه لون بقِلَّة فننسبه كله إلى هذا اللون القليل؟

(١) القُلوسُ: جمع قَلْس، وهو حَبْل غليظ من حبال السفن، ويُجمع أيضاً على أَقْلاس.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٧٥) من سورة (النساء): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وتكررت في قوله تعالىٰ في الآية (١٠٧) من سورة (المؤمنون): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، وفي قوله سبحانه في الآية (٣٧) من سورة (فاطر): ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة (غافر): ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

إِليهم قوم نوح وغيرهم ممن جاءَ في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر. ثم وقف تعالىٰ عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، أي: إِن كان لكم حيلةٌ أَو مكيدة تُنجيكم فافعلوها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ذَكَر تعالىٰ حالة المتقين عَقِبَ ذِكْر حالة أَهل النار ليبين الفرق، و«الظِّلالُ» في الجنة عبارة عن تكاثف الأَشجار وجودة المباني، وإِلاَّ فلا شمس تؤذي هنالك حتى يكون ظِلٌّ يجير من حرِّها، وقرأَ الجمهور: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، وقرأَ الأَعرج، والأَعمش: [في ظُلَلٍ] بضم الظاءِ، و«العيونُ» الماءُ النابع، وقوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إِعلامٌ بأَن المأْكل والمشرب هنالك إِنما يكون برسم شهواتهم، بخلاف ما هي الدنيا عليه، فإِن فيها شاذٌّ نادر، والعُرْف أَن المرءَ يردُّ شهوتَه إِلى ما يقتضيه وُجْده، وهنا محذوف يدل عليه اللفظ، تقديره: يقال لهم: كلوا. و[وهَنِيئاً] نصب على الحال، ويجوز أَن يكون نصبه على جهة الدعاءِ. والكاف في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كاف تشبيه، والإِشارة بذلك إِلى ما ذكره من نعيم أَهل الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ مخاطبة لقريش، على معنى: قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أَمْر معناها التهديد والوعيد، وقد بيَّنَ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَلِيلًا﴾، ثم بيَّن تعالىٰ لهم الإِجرام الموجب لتعذيبهم، وقال مَن جعل السورة كلَّها مكية: إِن هذه الآية في كفار قريش، وقال مَن جعل هذه الآية منها مدنية: إِن هذه الآية نزلت في المنافقين، وقال مقاتل: نزلت في ثقيف لأَنهم قالوا للنبي ﷺ: حُطَّ عنا الصلاة فإِنَّا لا نَنحَني لأَنها مَسَبَّة، فأَبى رسول الله ﷺ وقال: لا خير في دين لا صلاة فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إِذا سجد الناس فأَرادوا هم السجود فانصرفت أَصلابهم إِلى الأَرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه، وقال قتادة في

آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذِكْرُ الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، وقال بعض المتأولين: عنى بالركوع التواضُعَ، كما قال الشاعر:

. . . . تَرَى الأُكُمَ فِيهِ سُجَّداً لِلحَوافِرِ[1]

أَيْ مُتَذَلِّلة، وتأَول قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه، وقال: عليكم بحسن الركوع، والذي أَقول: إن ذكْر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أَحوال العبادة إِنما كان لأَن كثيراً من العرب كان يَأنف من الركوع والسجود، ويراها هيئة مُنكرة، لما كان في أَخلاقهم من العجرفة، أَلا تَرَى أَن بعضهم قد سئل فقيل له: كيف تقول: استخذأْتُ أَو اسْتَخْذَيْتُ؟ فقال: كلٌّ لا أَقول، قيل له: لِمَ؟ قال: لأَن العرب لا تستخذئُ، فظن أَنه سئل عن المعنى، ولم يفهم أَنه سُئِل عن اللفظة[2]، وفي كتاب السِّير عن بعض العرب أَنه استعفى متكلماً عن قومه ونفسه رسول الله ﷺ من الصلاة، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، قيل: قال له: لا بُدَّ من الصلاة، فقال عند ذلك: سَنُؤْتيكها وإِن كانت دناءة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ يُؤَيِّد أَن الآية كلها في قريش، والحديث الذي يقتضيه الضمير في [بَعْدَهُ] هو القرآن، وهذا توقيف وتوبيخ، وروي عن يعقوب أَنه قرأَ: [تُؤْمِنونَ] بالتاءِ من فوق، على المواجهة، ورُويت عن ابن عامر.

كمل تفسير سورة المرسلات والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرة، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر، والشوكاني، وفي اللسان، ويستشهد به المؤلف على أن السجود بمعنى الخضوع والتواضع، والبيت بتمامه:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فـي حَجَـرَاتِـهِ تَـرَى الأُكْمَ فيـهِ سُجَّـداً للْحَـوَافِـرِ

والبُلْق: جمع أَبلق، والبَلَقُ سوادٌ وبياضٌ في الدَّابة، وقيل: هو ارتفاع التَّحْجيل إلى الفخذَيْن، والحَجَرَات: النواحي، والمفرد حَجْرَة، والأُكْمُ جمع إكام، وهي جمع أَكَم والواحدة أَكَمَةٌ، وهي المجموعة من الحجارة وهي دون الجبل لكنها غليظة، يقول: إنها مع أنها غليظة تخضع لحوافر الخيل.

(٢) قال اللغويون: إن هذا العربي أجاب عن السؤال وهو لا يدري، فقد نطق الكلمة بالهمزة لا بالياء، وكان هذا هو الهدف من السؤال.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة النبأ

وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخٌ ولا حكم إلاَّ ما قاله بعض الناس في قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ من أنه منسوخ، وهو قول خلف، لأن الأخبار لا تُنسخ، وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

أَصل ﴿عَمَّ﴾ عن ما، ثم أُدغمت النون بعد قلبها فبقي «عمَّا» في الخبر وفي الاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ «عَمَّ» هو استفهام توقيف وتعجيب منهم. وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وابن مسعود وعِكْرمة، وعيسى: [عمَّا] بالأَلف، وقرأ الضحاك: [عمَّه] بهاءٍ، وهذا إنما يكون عند الوقف.

و﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال قوم: هو الشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ، وقال مجاهد وقتادة: هو القرآن خاصة، وقال قتادة أَيضاً: هو البعث من القبور. ويحتمل الضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أَن يريد به جميع العالَم، فيكون «الاختلاف» حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات الملحدين، ويحتمل أَن يريد بالضمير الكفار من قريش، فيكون «الاختلاف» شك بعض وتكذيب بعض، وقولهم شِعْر وسِحر وكهانة وجنون وغير ذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظاهر[1]، كأَنه تعالىٰ

(١) هذا رأي، ورأيٌ آخر يقول: إن (عَن) لا تتعلق بـ (يَتَساءلون) الذي في التلاوة، لأنه كان يلزم دخول=



قال: لم يتساءَلون عن هذا النبأ؟ وقال الزجاج: الكلام تامٌّ في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يُجيب مجيبٌ فيقول: يتساءَلُون عن النبأ العظيم، فاقتضى إيجاز القرآن ببلاغته أن يبادر المحتَجُّ بالجواب الذي تقتضيه الحالُ والمجاورةُ، اقتضاباً للْحُجَّة وإسراعاً إلى موضع قطعهم، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾[(١)]، وله أَمثلة كثيرة، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها.

وقرأ السبعة، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، والأَعمش: [كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ] بالياءِ في الموضعين، على ذكْر الغائب، فظاهر الكلام أَنه ردٌّ على الكفار في تكذيبهم، ووعيدٌ لهم في المستقبل، وكرر الزَّجر تأكيداً، وقال الضحاك: المعنى: كلاَّ سيعلمون، يعني الكفار على جهة الوعيد، ثم كلاَّ سيعلمون، يعني المؤمنين على جهة الوعد، وقرأَ ابن عامر ـ فيما رُوي عنه ـ ومالك بن دينار، والحسن ـ بخلاف ـ ﴿كَلاَّ سَتَعْلَمونَ﴾ بالتاءِ في الموضعين، على مخاطبة الحاضر، كأَنه تعالىٰ يقول: قُلْ لهم يا محمد، وكرر عليهم الزجر والوعد تأكيداً، وكلُّ تأْويل في هذه القراءة غير هذا متعسِّف. وقرأَ قوم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على جهة الردِّ والوعيد للكفار، ثم ﴿كَلاَّ سَتَعْلَمونَ﴾ بالتاءِ من فوق على جهة الردِّ على الكفار والوعد للمؤمنين، فالعلم في هذه الآية بمعنى «ستعرفون»، فلذلك لم يَتَعَدَّ.

ثم وقفهم تعالىٰ على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظرُ فيها الإِقرارَ بالبعث والإِيمانَ بالله تعالىٰ، «والمِهادُ» الفِراش الممهَّد الوطيءُ، وكذلك الأَرض لبنيتها[(٢)]، وقرأَ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: [مَهْداً]، والمعنى نحو الأَول، وشبَّه سبحانه الجبال بالأَوتاد لأَنها تمسك وتثقل وتمنع الأَرض أَن تميد، و[أَزْواجاً] معناه: أَنواعاً في أَلوانكم وصوركم وأَلسنتكم، وقال قوم: معناه مزدوجين ذكراً وأُنثى.

و«السُّبات» السُّكُونُ، وسَبَتَ الرجلُ معناه: استراح واتَّدَعَ[(٣)] وترك الشغل، ومنه

= حرف الاستفهام، فيكون: أَعَن النبأ العظيم؟ كقولك: كم مالك؟ أَثلاثون أَم أربعون؟ فوجب لما ذُكر امتناع تعلق بـ (يَتَسَاءَلونَ) الذي في التلاوة، وإنَّما يتعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ» آخر مضمر، وحَسُن ذلك لتقدم (يَتَسَاءَلونَ)، قال ذلك المهدوي، ونقله عنه القرطبي، وذكره أبو حيان في البحر مجملاً بدون تفصيل.

(١) من الآية (١٩) من سورة (الأنعام).

(٢) هكذا في جميع الأُصول.

(٣) اتَّدَعَ: ترَفه وارتاح، قال في اللسان: «رَجُلٌ مُتَّدِعٌ، أي: صاحبُ دَعَةٍ وراحةٍ».

السُّبَاتُ وهي علَّةٌ معروفة؛ سُمِّيت بذلك لأَن السكون أَو السكوت أَفرط على الإِنسان حتى صار ضارًّا قاتلاً[1]، والنوم شبيه به إلاَّ في الضرر، وقال أَبو عبيدة: ﴿سُبَاتًا﴾: قَطْعاً للأَعمال والتصرف، والسَّبْتُ: القَطْع، ومنه «سَبَتَ الرجلُ شَعْرَه» إذا قطع شَعْرَه، ومنه النِّعال السبتيَّةُ وهي التي قطع عنها الشعر.

و﴿لِبَاسًا﴾ مصدر، وكان الليل كذلك من حيث يغشى الأَشخاص فهي تلبسه وتتدرَّعُه، ويقال: جعله لباساً لأَنه يطمس نور الأَبصار ويُلبس عليها الأَشياءَ، والتصريفُ يضعف هذا القول لأَنه كان يجب أَن يكون «مُلْبِسا»، ولا يقال «لباس» إلاَّ من لبس الثياب. و﴿جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ على حذف مضاف، أَو على النسب، وهذا كما تقول: «لَيْلٌ نائمٌ». و«السَّبْعُ الشِّدادُ»: السموات، والأَفصح في لفظة السماءِ التأنيث، ووصفها بالشدة لأَنه لا يُسرع إِليها فسادٌ لِوَثَاقَتِها، و«السِّراجُ»: الشمس، و«الوَهَّاجُ»: الحارُّ المضطرم الاتِّقاد، المتعالي اللهب، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إِن الشمس في السماءِ الرابعة إِلينا ظهرها، ولَهَبُها مضطرمٌ علوًّا.

واختلف الناس في ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وأُبَيُّ بن كعب، وابن جُبَيْر، وزيد بن أَسلم، ومقاتل، وقتادة: هي السموات، وقال ابن عباس، وأَبو العالية، والربيع، والضحاك: المعصراتُ هي السحاب القاطرة، وهو مأخوذ من العصر؛ لأَن السحاب ينعصر فيخرج منه الماءُ، وهذا قول الجمهور، وبه فسَّر الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصير . . . . . البيت[2].

---

(١) جاءَ في اللسان: «المسبوتُ: الميت والمغشَى عليه، وكذلك العليلُ إذا كان ملقىً كالنائم يغمض عينيه في أكثر أحواله مسبوتٌ، وفي حديث عمرو بن مسعود، قال لمعاوية: ما تسأل عن شيخ نومه سباتٌ، وليله هُبات؟ السبات: نوم المريض والشيخ المسن».

(٢) هذا جزء من بيت قاله حسان في قصيدته التي مطلعها: (أسألتَ رسم الدار أَم لم تسأَل) وهو في الديوان وفي اللسان، وقد رُوي بروايتين: الأولى:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطِنِي ... بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمِفْصَلِ

والثانية: (كِلْتَاهُمَا عَرَقُ الزُّجاجَةِ فاسْقِني. . البيت)، والعصير والعُصارة: ما تحلَّب منه الشيء إذا عصرتَه، والمَفصِل ـ بفتح الميم وكسر الصاد ـ: اللسان، ويُرْوى المِفْصَل ـ بكسر الميم وفتح الصاد، راجع اللسان والصحاح، والضمير في (كلتاهما) يعود على نوعين من الخمر ذكرهما في البيت السابق، =



وقال بعض مَنْ سَمَّيْتُ: هي السحاب التي فيها الماءُ ولمَّا تُمطر، كالمرأة المُعْصر، وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد، وقال ابن كيسان: قيل للسحاب مُعْصرات من حيث تُغيث، فهي من «العُصْرة»، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعصرات: الرياح لأنها تعصر السحاب، وقرأ ابن الزبير، وابن عباس والفضل بن عباس، وقتادة، وعكرمة: ﴿وَأَنْزَلْنا بالْمُعْصِراتِ﴾، فهذا يقوي أنه أراد الرياح. و«الثَّجَّاجُ»: السريعُ الاندفاع كما يندفع الدَّمُ من عروق الذبيحة، ومنه قول النبي ﷺ وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «العجُّ والثَّجُّ»[2]، أراد: التضرُّع بالدعاءِ الجهير وذبح الهدي. و«الحَبُّ»: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان، و«النباتُ»: العُشب الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة، فذكر الله تعالىٰ موضع المنفعتين. و﴿أَلْفَافًا﴾ جمع «لُفٍّ» بضم اللام و«لُفٌّ» جمع «لَفَّاءَ»، والمعنى مُلْتَفَّاتُ الأغصان والأوراق، وذلك أبداً موجود مع النضرة والريِّ، وقال قوم: ﴿أَلْفَافًا﴾ جمع «لِفٍّ» بكسر اللام، واللِّفُّ: الجنةُ المُلْتَفَّةَ الأغصان، وقال الكسائي: «ألفافٌ» جمع «لفيف»، وقد قال الشاعر:

أَحَـابِيـشُ أَلْفَـافٍ تَبـايَـنَ فَـرْعُهُـم ... وَجِـذْمُهُـم عـن نِسْبَـةِ الْمُتَقَـرِّب[3]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

= واحدة ممزوجة بالماءِ لا يريدها، والثانية خالصة صافية وهي التي يريدها، قال:

إنَّ الَّتـي نـاوَلْتِنـي فـرَدَدْتُهـا ... قُتِلَـتْ قُتِلْـتَ، فَهـاتِهـا لـمْ تُقْتَـلِ

(١) من الآية (٤٩) من سورة (يوسف).

(٢) العَجُّ هو رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ هو إراقة الدماءِ وذبح الهدايا.

(٣) الأحابيشُ: أحياءٌ من القَارَةِ تجمعوا في حرب كانت بين بني لَيْث وقريش قبل الإسلام، فسميت تلك الأحياءُ بالأحابيش من قِبَل تجمعها، والقَارَةُ قبيلة من كنانة، سمُّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم، وأَلْفَافٌ: جمع لفيف، واللَّفيف: القومُ يجتمعون من قبائل شتَّى ليس أَصلهم واحداً، وفَرْعُ الرجل: أولاده، وجِذْمُ القوم: أصلهم، والنِّسْبَةُ القرابة، والتَّقَرُّب: التَّداني إلى الشيءِ والتوصُّل إلى إنسانٍ بقربه، والشاهد في البيت أن الألفاف هي جمع لفيف، واللفيف هم القوم الذين يجتمعون بعضهم مع بعض.

«يومُ الفَصْلِ» هو يوم القيامة؛ لأَن الله تعالىٰ يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل، و«الْميقاتُ» مِفْعالٌ من الوقت، كميعادٍ من الوعد. وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من [يَوْمَ] الأَول، و«الصُّورُ»: القَرْنُ الذي يُنفخ فيه لبعث الناس، هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أَن يكون «الصُّور» فيه جمع «صورة»، أَي: يومَ يردُّ الله تعالىٰ الأَرواح إِلى الأَبدان، هذا قول بعضهم في «الصُّور»، وجوَّزه أَبو حاتم، والأَول أَشهر، وبه تظاهرت الآثارُ، وهو ظاهر كتاب الله تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾[1]، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: [في الصُّوَرِ] بفتح الواو. و«الأَفواجُ»: الجماعاتُ يتلو بعضها بعضاً، واحدها فوجٌ.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وأَبو جعفر، وشيبة، والحسن: [وَفُتِّحَتِ] بشد التَّاءِ على المبالغة، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: [وَفُتِحَتِ] دون شدٍّ. وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ معناه: تنفطر وتتشقَّق حتى يكون فيها فتوح كالأَبواب في الجدران، وقال آخرون ـ فيما حكى مكي بن أَبي طالب ـ: الأَبواب هنا فِلَق الخشب التي تجعل أَبواباً لفتوح الجدران، أَي تتقطع السماءُ قِطعاً صغاراً حتى تكون كأَلواح الأَبواب، والقول الأَول أَحسن، وقال بعض أَهل العلم: تنفتح في السماءِ أَبواب للملائكة من حيث ينزلون ويصعدون، وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباءً منبثًّا، ولم يُرد تعالىٰ أَن الجبال تعود تشبه الماءَ على بُعْد من الناظر إِليها.

و﴿مِرْصَادًا﴾ موضع الرصد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[2]، ويروى عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال: لا يدخل أَحد حتى يجوز على جهنم، فمن كانت له أَسباب نجاةٍ نجا وإِلاَّ هلك، وقال قتادة: تعلموا أَنه لا سبيل إِلى الجنة حَتَّى تقطع النار، وفي الحديث الصحيح: «إِن الصراط جسرٌ يُنْصب على مَتْن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فناج ومكدوس»[3]، وقال بعض المتأولين: «مرصادٌ» مفعال بمعنى

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (الزُّمَر).

(٢) الآية (١٤) من سورة (الفجر).

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل أَخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، وأَحمد، عن أَبي سعيد الخدري، وفيه كما جاء في البخاري، في كتاب التوحيد «ثم يؤتى بالجسر فيُجعل بين ظَهْرَيْ جهنم، قلنا: =

راصد، وقرأ أَبو مَعْمَر المِنْقَري[(١)]: ﴿أَنَّ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الألف، والجمهور على كسرها، و«الطَّاغونَ»: الكافرون، و«الْمَآبُ»: المرجع، و«الأَحْقابُ» جمع حُقَب ـ بضم الحاءِ وفتح القاف، وحِقَب بكسر الحاءِ، وحُقُب بضمها وضم القاف، وهو جمع حِقْبة، ومنه قول مُتَمِّمٍ:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... منَ الدَّهْرِ حَتَّى قيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا[(٢)]

وهي المدة الطويلة من الدَّهْر[(٣)] غير محدودة، ويقال للسنة أَيضاً: حِقْبة، وقال

= يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: مدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شوكة عُقَيْفَاءُ تكون بنَجْد يقالُ لها: السَّعدان، المؤمِنُ عليها كالطَّرْف وكالْبَرْق وكالرِّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ونَاجٍ مَخدوشٌ ومَكدُوسٌ في نار جهنم، حتى يَمُرَّ آخرهم يُسْحَبُ سَحْباً... الحديث»، وهو طويل. هذا والمَدْحَضَةُ: المزلقة. والمزلَّةُ: موضع الزَّلَل، يقال: أَرضٌ مَزِلَّة. والكلاليب: جمع كُلاَّب، وهو الحديدة المعوجَّةُ من ناحية رأسها يُعَلَّق بها الشيءُ. وَحسَكُ السَّعدان: نباتٌ له ثمرةٌ خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأَوبار الإبل، والطَّرْفُ: تحريك العَيْن أو الجفن. والمخدوش: الذي أُصيب جلده بجروح، والمكْدُوسُ: الذي دفع من ورائه فسقط على وجهه وسقط غيره فوقه فتجمع بعضهم على بعض.

(١) هو عبد الله بن عمرو بن أَبي الحجاج التَّيمي، أَبو مَعْمَر المِنْقري، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، ثَبْت، رمي بالقدر، مات سنة أربع وعشرين».

(٢) مُتَمِّم بن نُوَيْرة كان له أَخٌ اسمه مالك بن نُوَيْرة، وهو الذي قتله خالدُ بن الوليد في حروب الرِّدَّة، وتزوج امرأَته، وقتل من قومه مقتلة عظيمة، وكان هذا أَحد الأسباب التي جعلت عمر بن الخطاب يسخط على خالد، ويوم أن استشهد زيد بن الخطاب في حرب مسيلمة قال عمر رضي الله عنه لِمُتَمِّم بن نويرة: أنشدني بعض ما قلتَ في أخيك مالك، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

فَلَمَّا تفَرَّقْنَا كَأَنِّي ومَالِكاً ... لِطُولِ اجْتِماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

وأَرادَ بندماني جذيمة «مالكاً وعقيلاً» ابني فارج بن كعب، فقد نادما جَذِيمَةَ الأَبرش حين ردَّا عليه ابن أخته «عمرو بن عدي»، فحكَّمهما فاختارا منادمته، فكانا نديميه فترة من الزمن، ثم غدر بهما وقتلهما، ولما أَنشد مُتَمم شعره لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عمر: يا مُتَمِّم لو كنتُ أَقول الشعر لسرَّني أن أَقول في أَخي زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ في أَخيك، قال مُتَمم: يا أَمير المؤمنين، لو قتل أَخي قتلة أَخيك ما قلت فيه شعراً أَبداً، قال عمر: يا متمم، ما عزَّاني أحد في أَخي بأَحسن مما عزيتني به، وذلك أن زيد بن الخطاب قتل شهيداً في يوم اليمامة، أما مالك ابن نويرة فقد قتل مرتدًّا عن الإسلام.

(٣) في بعض النسخ: «من السَّنة».



بشر بن كعب[١]: حدُّها على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة، وقال هلال الهجري: ثمانون سنة، قالا: في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وقال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: ثمانون أَلف سنة، وقال الحسن: سبعون أَلف سنة، وقيل: خمسون أَلف سنة، وقال أَبو أُمامة عن النبي ﷺ: إنه ثلاثون أَلف سنة[٢]، وأَكثَرَ الناسُ في هذا، واللازم أَن الله تعالىٰ أَخبر عن الكفار أَنهم يلبثون أَحقاباً، كلما مرَّ حُقُب جاءَ غيره، إلى غير نهاية، قال الحسن: ليس لها عدة إلاَّ الخلود في النار، ومن الناس من ظن لذكْر الأَحقاب أَن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان[٣]: الحُقُب سبعة عشر أَلف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[٤]، وقد ذكرنا فساد هذا القول[٥]. وقال آخرون: الموصوف باللبث أَحقاباً هم عصاة المؤمنين. وهذا أَيضاً ضعيف، ما بَعْدَه في السورة يردُّ عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: لابثين فيها أَحقاباً غيْرَ ذائقين بَرْداً ولا شراباً، فبهذه الحال يلبثون أَحقاباً، ثم يبقى العذابُ سرمداً وهم يشربون أَشربة جهنم.

وقرأَ الجمهور: ﴿لَٰبِثِينَ﴾، وقرأَ حمزة وحده، وابن مسعود، وعلقمة، وابن وثاب، وعمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل[٦]: [لَبِثِينَ] جمع «لَبِثٍ»، وهي قراءة معترضة، لأَن فَعِلاً إنما يكون لما صار خُلُقاً كحَذِرٍ وفَرِق، وقد جاءَ شاذًّا فيما ليس بخلق، وأَنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد:

أَوْ مِسْحَلٍ عَمِلٍ عِضادَةَ سَمْحَجٍ   بِسَرَاتِهَا نَدَبٌ لَهُ وكُلُومُ[٧]

---

(١) الذي في الدر المنثور «بشير بن كعب».

(٢) أَخرجه ابن عمر العدني في مسنده، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، بسند ضعيف، عن أَبي أُمامة (الدرُّ المنثور).

(٣) هو مقاتل بن حيان، النَّبَطي ـ بفتح النون والباء ـ أبو بسطام البلخي الخزاز، قال عنه في (تقريب التهذيب): «صدوق فاضل، أَخطأَ الأزدي في زعمه أَن وكيعاً كذَّبه، وإنما كذب الذي بعده، مات قبل الخمسين بأرض الهند».

(٤) هي الآية (٣) من هذه السورة (النبأ).

(٥) عندما قال في بداية تفسير هذه السورة: «لأن الأخبار لا تُنسخ».

(٦) أَما ابن ميمون فهو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري، أَبو عبد الله، سبط سعيد بن جبير، ثقة فاضل، مات سنة سبع وأربعين، وأَمَّا ابن شرحبيل فهو عمرو بن شُرحبيل بن سعيد، بن سعد بن عبادة الأنصاري. (تقريب التهذيب).

(٧) البيت في وصف حمار الوحش، وهو في الديوان، واللسان، والطبري، ومعاني القرآن، والمِسْحلُ: =



قال المعترض في القراءة: لا حُجةَ في هذا البيت لأن «عَملاً» قد صار كالخلق الذي يواظب على العمل به حتى إنه ليُسَمَّى به في وقت لا يعمل فيه، كما تقول «كاتب» لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أَحيانه، قال المحتجُ لها: شبه «لبث» لدوامه بالخُلُق لما صار اللُّبث من شأنه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

قال أَبو عبيدة، والكسائي، والفضل بن خالد، ومعاذ النحوي: البَرْدُ في هذه الآية النومُ، والعرب تُسميه بذلك لأَنه يُبْرد سورة العطش، ومن كلامهم: «منع البَرْدُ البَرْدَ»[1]، وقال جمهور الناس: البَرْدُ في الآية مَسُّ الهواءِ البارد، وهو القرُّ، أَي: لا يمسهم منه ما يُستلذُّ ويكسر عذاب الحرِّ، فالذَّوق ـ على هذين القولين ـ مستعار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البَرْدُ الشرابُ البارد المُسْتَلَذُّ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقـونَ مَـنْ وَرَدَ الْبَـرِيـصَ عَلَيْهِـم ... بَـرَدَى يُصَفَّـقُ بِـالـرَّحيـقِ السَّلْسَـلِ[2]

= الحمارُ الوحشيُّ، وهي صفة غالبة، وسمِّي بذلك لأن نهيقه يُسمَّى السَّحيل، وعَمِل ـ بوزن فَرِحَ ـ: وصفٌ له: وهي بمعنى عامل، ويروَى: (سَنِج) ـ بمعنى بَشِم ـ ويروى أيضاً (شنِج) ـ بمعنى ملازم للأتان ـ، أما العضادة فهي ما يكون بجانب الشيءِ ويكون عوناً له، فهي هنا بمعنى أنه بجانب أنثاه وهو عون لها ومرافق، والسَّمْحَج: الأتان الطويلة الظهر، وسَراتُها وسط ظهرها، ونَدَبٌ: جمع نَدَبَة، وهي أَثر الجرح، والكلوم: الجروح ومفردها كَلْم. يريد أن هذا الحمار يرافق أنثاه دائماً وهو كثير العضِّ لها حتى امتلأ ظهرها بالجروح وآثارها. والشاهد كما قال الفراء إن الشاعر أوقع (عمل) على (عضادة)، قال: ولو كان (عاملاً) لكان أفضل.

(١) يعني: أذهب البَرْدُ النوم.

(٢) هذا البيت من قصيدة لحسان مطلعها: (أسأَلْتَ رسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ) ؟ والبريصُ: موضعٌ بالشام كان موطن آل جفنة، وبَرَدَى: نهر دمشق، ولو أن المؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن البَرْد هو الشراب البارد المُسْتلذ، والرحيق: الخمر، ويُصَفَّق: يمزج بالخمر، والسَّلْسل: السَّهْل اللَّيِّن. وقد روي =



ومنه قول الآخر:

أَمـانِـيُّ مِـنْ سُعْـدَى حِسـانٌ كَـأَنَّمـا   سَقَتْكَ بِها سُعْدَى عَلَى ظَمَإٍ بَرْدَا[1]

ثم قوله تعالىٰ: ﴿ولا شراباً إلا حميماً﴾، فالاستثناءُ متصل، و«الحميمُ»: الحارُّ الذائب، وأَكثر استعماله في الماءِ السخن والعرق، ومنه الحمَّامُ، وقال ابن دُرَيْد: الحميمُ دموعُ أَعينهم، وقال النقاش: الحميمُ الصُّفْرُ[2] المذابُ المتناهي الحر، واختلف الناسُ في «الغَسَّاقِ» ـ فقال قتادة، والنَّخَعي، وجماعة: هو ما يسيل من أَجسام أَهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرحُ إِذا سَال منه قيح ودم، وغسقت العين إِذا دمعت وخرج قذاها، وقال ابن عباس ومجاهد: الغَسّاقُ مشروب لهم مفرط الزمهرير كأنه في الطرف الثاني من الحميم، يشوي الوجوه بِبرْده، وقال عبد الله بن بريدة: الغَسّاقُ المُنْتن.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم[3]، وجماعة من الجمهور: [غَسَاقاً] مخففة السِّين، وهو اسمٌ على ما قدمناه، وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن أَبي إِسحاق، والشعبيُّ، والحكم بن عُيَيْنة، وقتادة، وابن وثاب: ﴿غسَّاقاً﴾ مشددة السين، وهي صفةٌ أُقيمت مقام الموصوف، كأنه تعالىٰ قال: ومشروباً غساقاً، أَي كأنه سائل من أَبدانهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ معناه: لأَعمالهم وكفرهم، أَي: هو جزاؤهم الجدير بهم، الموافق مع التحذير لأَعمالهم، فهي كُفْرٌ والجزاءُ نارٌ. و﴿ يَرْجُونَ﴾ قال أَبو عبيدة وغيره: معناه: يخافون، وقال غيره: الرجاءُ هنا على بابه، ولا رجاءَ إِلاَّ وهو مُقترنٌ بخوف، ولا خوف إِلاَّ وهو مُقْترنٌ برجاءٍ، فذكر أَحد القسمين لأَن المقصد العبارة عن

= البيت: (كأساً يصفق) في الخزانة، والمعرب، ومنتخبات من أخبار اليمن، وروي في طبقات الشعراء: (خمْراً يصفق)، وفي اللسان (بَرَدَى تُصَفَّقُ).

(١) ذكر صاحب أمالي القالي أن الرياشيَّ أَنشد لِرَجُلٍ من بني الحارث هذين البيتين:

مُنـىً إِنْ تَكُـنْ حَقـاً تَكُـنْ أَحْسَـنَ الْمُنَـى   وَإِلاَّ فَقَـدْ عِشْنَـا بِهَـا زَمَنـاً رَغَـدَا

أَمَـانِـيُّ مِـنْ سُعْـدَى حِسـانٌ كَـأَنَّمَـا   سَقَتْـكَ بِهَـا سُعْـدَى عَلَـى ظمإٍ بَـرْدَا

أي شراباً بارداً مُسْتَلَذّاً.

(٢) الصُّفْر: النحاس الأَصفر، أو النحاس الخالص من كل شيءٍ.

(٣) أي في رواية أبي بكر عنه.



تكذيبهم، كأنه تعالىٰ قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه. وقرأ جمهور الناس: ﴿ كِذَّابًا ﴾ بشدِّ الذال وكسر الكاف، وهو مصدر بلغة بعض العرب، وهي يمانِيَّة، ومنه قول أحدهم وهو يستفتيني: «اَلْحَلْقُ أَحَبُّ إِليكَ أَم القِصَّارُ»(١)؟ ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَمَا ثَبَّطَتْنِي عَنْ صَحَابَتِي ... وَعَنْ حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِنْ شِفائِيَا(٢)

وهذا عندهم مصدر من فَعَّل، وقال الطبري: لم يختلف القراءُ في هذا الموضع في «كِذَّاب»، وأُراه أراد السبعة، وأمَّا في الشَّاذ فقرأ علي بن أبي طالب، وعوف الأعرابي، وعيسى ـ بخلاف ـ والأعمش، وأبو رجاءٍ: [كِذَاباً] بكسر الكاف وتخفيف الذال، وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: [كُذَّاباً] بضم الكاف وشد الذال على أنه جمع كاذب، ونصبه على الحال، قاله أبو حاتم(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ يريد: كلّ شيءٍ شأنه أن يُحصى، وفي هذا الخبر رَبْطٌ لأجزاءِ القصة بأوَّلها، أي: هم مُكَذِّبون كافرون ونحن قد أحصينا بالقول لهم في الآخرة: «ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً»، وكان عبد الله بن عمر(٤) رضي الله عنهما يقول: ما نزلت في أهل النار آية أشد من قوله تعالىٰ: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ(٥).

---

(١) هذا الكلام منقول عن الفراءِ، وقد نقله أيضاً صاحب اللسان، قال الفراءُ في (معاني القرآن): «هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذَّبت به كِذَّاباً، وخرَّقت القميص خِرَّاقاً، وكلُّ فَعَّلت فمصدره فِعَّالٌ في لغتهم مشدد، قال لي أعرابيٌّ منهم على المروة يستفتيني: آلْحَلْقُ أَحبُّ إليك أم القِصَّارُ؟ يعني: هل حلق الشعر أحبُّ إليك أم تقصيره؟

(٢) هذا البيت في (معاني القرآن) للفراءِ، ونقله عنه صاحب اللسان: «قال الفراء: وأنشدني بعض بني كلب... وذكر البيت»، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وابن كثير، وثَبَّطهُ عن الشيءِ: عوَّقه وبطَّأ به، والحِوَجُ: جمع حاجة وهي ما يفتقر إليه الإنسان، يقول: لقد عوَّقتني عن أصحابي وعن حاجات في قضائها شفائي.

(٣) يقول أبو حاتم: «لا وجه إلا أن يكون (كُذَّابا) جمع كاذب، فتنصبه على الحال، وقد يجوز أن يكون وصفاً لمصدر محذوف، أي: كَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً كُذَّاباً، أي كِذَّاباً متناهياً في معناه، فهو واحدٌ لا جمع له، كرجل حُسَّان، وَوَجه وُضَّاء».

(٤) هذا يوافق ما في (البحر المحيط)، ولكن في (الدُّر المنثور) وفي تفسير ابن كثير: (عبد الله بن عمرو).

(٥) قال ابن كثير في تفسيره: «وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، حدثنا=



ولما ذكر تعالىٰ أمر أَهل النار عقَّب بذكر أَهل الجنة ليبين الفرق، و«المفاز» موضع الفوز؛ لأَنهم زحزحوا عن النار، وأُدخلوا الجنة، و«الحدائق» البساتين التي عليها جدرات أَو حظائر، و﴿أَتْرَابًا﴾ معناه: على سنٍّ واحدة، والتِّرْبان هما اللذان مسَّا التراب في وقت واحد، و«الدِّهاقُ» الْمُتْرَعة فيما قال الجمهور، وقال ابن جبير ومجاهد: معناه: المتابعة، وهي من الدَّهق، وقال عكرمة: هي الصافية، وفي البخاري، قال ابن عباس: سمعتُ أَبي في الجاهلية يقولُ للساقي: اسقني كأساً دهاقاً. و«اللَّغْوُ» سقط الكلام، وهو ضروب، وقد تقدم القول في ﴿كِذَّابًا﴾ إلاَّ أَن الكسائي من السبعة قرأَ في هذا الموضع: [كِذَاباً] بالتخفيف، وهو مصدر، ومنه قول الأَعشى:

فَصَدَقْتُها وَكَذَبْتُها وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُه[1]

واختلف المتأولون في قوله تعالىٰ: ﴿حِسَابًا﴾ ـ فقال جمهور المفسرين واللغويين: معناه: مُحْسِباً، أَي كافياً، من قولهم: أَحسبني هذا الأَمر، أَي كفاني، ومنه، حسبي الله، وقال مجاهد ما معناه: إن ﴿حِسَابًا﴾ معناه: مُقَسَّطاً على الأَعمال؛ لأَن نفس دخول الجنة هو برحمة الله تعالىٰ وتفضُّله لا بعمل، والدرجات فيها والنعم على قدر الأَعمال، فإذا ضاعف الله تعالىٰ لقوم حسناتهم بسبعمائة مثلاً ومنهم المكثر من الأَعمال والمُقِلُّ أَخذ كل واحد سبعمائة بحسب عمله، وكذلك في كل تضعيف، فالحساب هنا هو بموازنة أَعمال القوم، وقرأَ الجمهور: ﴿حِسَابًا﴾ بكسر الحاءِ وتخفيف السين مفتوحة، وقرأَ ابن قطيب: [حَسَّاباً] بفتح الحاءِ وشدِّ السين، قال أَبو الفتح: جاءَ بالاسم من أَفْعل على فَعَّال كما قالوا: أَدْرك فهو دَرَّاك، وقرأَ ابن عباس، وسراج: (عَطاءً حَسَناً) بالنون من الحسن، وحكى عنه المهدوي أَنه قرأَ:

= خالد بن عبد الرحمن، حدثنا جسْر بن فرقد عن الحسن قال: سأَلتُ أَبا برزة الأسلمي عن أَشد آية في كتاب الله على أهل النار، قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال: «أُهلك القومُ بمعاصيهم الله عزَّ وجلَّ» وجِسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية» اهـ. وفي الدر المنثور: (أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن الحسن بن دينار أَنه سأَل أَبا بَرزة الأسلمي إلخ)، الحديث ولكن لم يرفعه إلى الرسول ﷺ.

(١) البيت في الزمخشري غير منسوب، وفي القرطبي منسوباً للأعشى أيضاً، قال الشهاب: «وضمير (صَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُها) للنفس، والمراد أَنه يَصْدُق نفسه تارة بأَن يقول إن أَمانيها مُحَقَّقة، وتكذيبها بخلافه، أَو على العكس».



[حَسْباً] بفتح الحاءِ وسكون السين وبالباءِ، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي: [حِسَّاباً] بكسر الحاءِ وشد السين المفتوحة، وقرأ نافع، وأَبو عمرو، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، وأَهل الحرمين: [رَبُّ] بالرفع، وكذلك [الرَّحْمَنُ]، وقرأَ ابن عامر، وعاصم، وابن مسعود، وابن أَبي إِسحاق وابن محيصن، والأَعمش: [رَبِّ] بالخفض، وكذلك [الرَّحْمَنِ]. وقرأ حمزة، والكسائي: [رَبِّ] بالخفض، و[الرَّحْمَنُ] بالرفع، وهي قراءة الحسن، وابن وثاب، والأَعمش، وابن محيصن ـ بخلاف عنهما، ووجوه هذه القراءة بينة[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الضمير للكفار، أَي: لا يملكون من أَفضاله وإِجماله أَن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها، وهذا في موطن خاص.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

اختلف الناس في «الروح» المذكور في هذا الموضع ـ فقال الشعبي والضحاك: هو جبريل عليه السلام، ذكره خاصة من بين الملائكة تشريفاً، وقال ابن مسعود: هو ملك عظيم، أَكبر الملائكة خِلْقة يسمى بالروح، وقال ابن زيد: كان أَبي يقول: هو القرآن، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[(٢)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالقيام فيه مستعار يراد به بيانُه وظهوره وشدة آثاره، والأَشياءُ الكائنة عن تصديقه وتكذيبه، ومع هذا في القول قَلَقٌ، وقال مجاهد: الروحُ خَلْقٌ على صورة بني آدم يأكلون ويشربون، وقال ابن عباس عن النبي ﷺ: «الروح خلق غير الملائكة، وحفظة للملائكة كما الملائكة حفظة للأَنبياءِ ولنا»، وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: الروحُ

---

(١) أما الخفض فعلى النعت لـ (رَبِّ) من قوله تعالى: (جَزَاءً من رَبِّكَ)، وأما الرفع فعلى الاستئناف، فيكون (رَبُّ) مبتدأ وخبره (الرَّحمَن)، أو (رَبُّ) يكون خبر لمبتدأ محذوف، و(الرَّحْمَنُ) خبر ثان، وفي القراءة الأخيرة لحمزة والكسائي فإن (رَبِّ) تكون مخفوضة على النعت، و(الرَّحْمَنُ) تكون مرفوعة على أنها خبر مبتدأ، أي: هو الرحمن.

(٢) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).

هنا اسم جنس يُراد به أرواح بني آدم، والمعنى: يوم تقوم الأرواح في أجسادها إثْر البعث والنشأة الآخرة، ويكون الجمع من الإنس والملائكة صفاً[1]، ولا يتكلم أحد هيبة وفزعاً، إلا مَن أذن له الرحمن من مَلَك أو نبي، وكان أهلاً أن يقول صواباً في ذلك الموطن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائد إلى الناس خاصة، و«الصواب» المشار إليه هو «لا إله إلاَّ الله»، قال عكرمة: أي قالها في الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحقُّ كونُه ووجوده، وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ وعدٌ ووعيد وتحريض، و«الْمَآبُ» المرجعُ وموضعُ الأوبة، والضمير الذي هو الكاف والميم في ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ هو لجميع العالم وإن كانت المخاطبة لمن حضر النبيَّ ﷺ من الكفار، و«العذابُ القريبُ» عذابُ الآخرة، ووصفه بالقرب لِتَحقُّق وقوعه، وأنه آت وكلُّ آتٍ قريب، والجميع داخل في النذارة منه، و«نظر المرءِ إلى ما قدمت يداه من عمل» قيامٌ للحُجَّة عليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «المرْءُ» هنا المؤمن، وقرأ ابن أبي إسحاق: [الْمُرْءُ] بضم الميم، وضَعَّفَها أبو حاتم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، قيل: إن هذا تَمَنٍّ أن يكون شيئاً حقيراً لا يُحاسب ولا يُلتفت إليه، وهذا قد تجده في الخائفين من المؤمنين، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليتني كنت بعرة»، وقال أبو هريرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله تعالىٰ يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها بعد ذلك: كوني تراباً، فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكفار ذلك تمنَّوا مثله. قال أبو القاسم بن حبيب: رأيت في بعض التفاسير أن الكافر هنا إبليس، إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال: يا ليتني كنت تراباً، أي كآدم الذي خُلق من تراب واحتقره هو أولاً.

كمل تفسير سورة النبأ والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) في إحدى النسخ: «ويكون الجمع بين الإنس والملائكة حقاً».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النَّازعات

هي مكية بإجماع من المتأولين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١﴾.

قال ابن مسعود وابن عباس: «النَّازعاتُ»: الملائكةُ تنزع نفوس بني آدم، و[غَرْقاً] ـ على هذا القول ـ إمَّا أن يكون مصدراً بمعنى الإغراق والمبالغة في الفِعْل، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم: تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم، وقال السُّدي وجماعة: النَّازعاتُ: النفوسُ تَنْزِعُ بالموت إلى ربها، و[غَرْقاً] هنا بمعنى الإغراق أي تغرق في الصدور، وقال عطاءٌ ـ فيما روي عنه ـ: النازعاتُ: الجماعاتُ النازعات بالْقِسِيِّ[1]، و[غَرْقاً] بمعنى الإغراق، وقال الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن كيسان، والأخفش: النازعات: النجومُ لأنها تَنْزِعُ من أُفق إلى أُفق، وقال قتادة: النازعاتُ: النفوسُ التي تحنُّ إلى أوطانها وتَنْزِعُ إلى مذاهبها، ولها نَزْع عند الموت، وقال مجاهد: النازعاتُ: المنايا لأنها تنزع نفوس الحيوان، وقال عطاءٌ وعكرمة: النازعاتُ: القِسِيُّ أنفسها لأنها تنزع بالسهام.

واختلف في «النَّاشطاتِ» ـ فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة لأنها تَنْشِطُ النفوس عند الموت، أي تحلُّها كحلِّ العِقال، وتَنْشَط بأمر الله تعالىٰ إلى حيث كان، وقال مجاهد: النَّاشطات: المَنايا، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة، والأخفش، والحسن: الناشطاتُ: النجومُ لأنها تَنشِطُ من أُفُق إلى أُفُق، أي تذهب وتسير بسرعة،

(١) جمع قَوْس، وهي آلة معروفة على هيئة هلال تُرمى بها السهام.

ومن ذلك قيل لِبَقَر الوحش: النَّوَاشِطُ؛ لأَنَّهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر، وقال عطاءٌ: الناشطاتُ في الآية: البقرُ الوحشيةُ وما جرى مجراها من الحيوان الذي يَنْشِط من قُطْر إلى قُطْر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

أَمْسَتْ هُمُومي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا ... الشَّامَ بِي طَوْراً وَطَوْراً واسِطا[1]

وكأَن هذه اللفظة في هذا التأويل مأْخوذة من النشاط، وقال عطاءٌ أَيضاً وعكرمة: الناشطاتُ الأَوْهَاق[2]، تقول: نَشَطْتُ البعير والإِنسان إذا رَبَطْتَه، وأَنْشَطْتُه إذا حَلَلْتَه، حكاه الفراءُ وخولف فيه، ومنه الحديث «كَأَنَّمَا أُنْشِطَ من عِقالٍ»[3]، وقال ابن عباس أَيضاً: الناشطاتُ: النفوسُ المؤمنة تَنْشِطُ عند الموت للخروج.

والسَّبْحُ: العومُ في الماءِ، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواءِ والتقلُّب فيه، واختلف في «السَّابِحاتِ» في الآية، ما هي؟ فقال قتادة والحسن: هي النجوم لأَنها تسبح في فَلَك، وقال عليٌّ ومجاهد رضي الله عنهما: هي الملائكة لأَنها تتصرَّف في الآفاق بأمر الله تعالىٰ، تجيءُ وتذهب، وقال أَبو رَوْق[4]: السَّابحاتُ: الشمس والقمرُ والليلُ والنهارُ، وقال بعض المتأَولين: السَّابحات: السحابُ لأَنها كالعائمة في الهواءِ، وقال عطاءٌ وجماعة: السَّابحات: الخيلُ، ويقال للفرس: سابحٌ، وقال آخرون السَّابحاتُ: الحيتانُ دوابُّ البحر فما دونها، وذلك من عظيم المخلوقات، فيروى أَن الله تعالىٰ بثَّ في الدنيا أَلف نوع من الحيوان، منها أَربعمائة في البَرِّ وستمائة في البحر، وقال عطاءٌ أَيضاً: السَّابحاتُ: السُّفن، وقال مجاهد أَيضاً: السَّابحات: المنايا تسبح في نفوس الحيوان.

واختلف في «السَّابِقاتِ»، فقال مجاهد: هي الملائكة، وقيل: هي الرياح، وقال عطاءٌ: هي الخَيْل، وقيل: النجوم، وقيل: المنايا تسبق الآمال، وقال الشاعر:

---

(١) البيت لهِمْيان بن قُحافة، وهو في اللسان شاهدٌ على أَن الهموم تَنْشِطُ بصاحبها. وواسط تطلق على مُدن ومواضع كثيرة، ولكن أشهرها وأَقربها إلى الذكر مدينة بين البصرة والكوفة، وسميت بذلك لتوسطها تماماً بين المدينتين.

(٢) الأوهاق: جمع وَهَق ـ بفتح الهاء وقد تسكن ـ والوَهَق: الحبل تُشد به الإبل والخيل لئلا تفِرَّ، ويقال: لا بُدَّ في طرفه من أنشوطة.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع والطب. وهو عن الذي أصابه السحر يبرأُ منه. ومعنى «أُنشِط» فيه: حُلَّ، والمألوف أن الجَمَل إذا حُلَّ عقاله نهض بسرعة.

(٤) هو عطية بن الحارث، أَبو رَوْق ـ بفتح الراء وسكون الواو بعدها قاف ـ الهمداني الكوفي، صاحب التفسير، صدوق، من الطبقة الخامسة. (تقريب التهذيب).



لاَ أَرَى الْموتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شيءٌ(١)

وأَمَّا «الْمُدَبِّرَاتُ» فلا أَحفظ خلافاً أَنها الملائكة، ومعناها أَنها تدبِّر الأُمور التي يسخرها الله تعالىٰ لها وصرَّفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات.

قال ابن زيد: «الرَّاجفةُ»: الأَرض بأَهْلها، تهتزُّ بنفخة الصُّور الأُولى، وقيل: الرَّاجفة النفخة نفسها، و«الرَّادفة» النفخة الأُخرى، ويروى أَن بينهما أَربعين سنة، وقال عطاءٌ: الراجفةُ القيامة، والرادفة البعث، وقال ابن زيد: الراجفةُ الموتُ، والرادفة الساعةُ، وقال أُبَيُّ بن كعب: كان النبي ﷺ إِذا ذهب ربع الليل قام وقال: «يا أَيُّها الناس اذكروا الله، جاءَت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاءَ الموتُ بما فيه»(٢).

ثم أَخبر تعالىٰ عن قلوب ترجف ذلك اليوم، أَي ترتعد خوفاً وفَرَقاً من العذاب، ووجيف القلب يكون من الفزع، ويكون من الإِشفاق، ومنه قول الشاعر قيس بن الخطيم:

إِنَّ بَنِـي جَحْجَبَـى وَأُسْـرَتَهُـمْ ... أَكْبـادُنَـا مِـنْ وَرَائِهِـمْ تَجِـفُ(٣)

ورُفع [قُلُوبٌ] بالابتداءِ، وجاز ذلك وهو نكرة لأَنها قد تخصصت بقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾(٤).

---

(١) يعني أن الموت يسبق أفكار الناس وآمالهم وتخطيطهم للغد، ولم أَقف على قائله ولا بقيته.

(٢) أَخرجه أَحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أُبي بن كعب، ذكر ذلك في الدرِّ المنثور، ولفظه كما جاء فيه «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب رُبع الليل قام فقال: يا أَيُّها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

(٣) هكذا ورد البيت في الأصول، ولكن في الديوان نجد الشطر الأول في بيت مع اختلاف في الألفاظ، وهو:

أَبْلِـغْ بَنِـي جَحْجَبَـى وَقَـوْمَهُـمُ ... خَطْمَـةَ أَنَّـا وراءَهُـمْ أُنُـفُ

وجَحْجَبة وخَطْمَة: حيان لقبيلة قيس بن الخطيم، لأنه أَوسيٌّ، وفي رواية (أَبلغ بني مَذْحِج وقومهم)، وفي الأغاني: (وإخوَتَهم... زيداً بأَنَّا)، ومعنى البيت نأنف من ورائهم. ثم نجد الشطر الثاني في بيت آخر بعد بيتين من الأول، وهو:

إِنَّـا وَلَـوْ قَـدَّمُـوا الَّتِـي عَلِمـوا ... أَكْبَـادُنَـا مِـنْ وَرَائِهِـمْ تَجِـفُ

وفي الأصمعيات (الذي علموا)، وفي الأغاني (إِنَّا وَإِنْ قَلَّ نَصْرُنَا لَهُمُ)، وتجف: تضطرب وتخفق، يقال: وجف القلب: خفق، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا. ومعنى البيت: إنهم وإن كانوا قد قدَّموا ما قدَّموا من أَعمال يعرفونها وننكرها عليهم؛ فإننا نشفق عليهم من وراء غيبهم.

(٤) حكى أبو حيان في البحر هذا عن ابن عطية، ثم عقَّب بقوله: «ولا تتخصَّصُ الأجرامُ بظروف الزمان، =



واختلف الناس في جواب القسم، أين هو ؟ فقال الفراءُ والزجاج: هو محذوف دلَّ الظاهر عليه، تقديره: لَتُبْعَثُن أو لَتُعَاقَبُنَّ يوم القيامة، وقال بعض النحاة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾، وهذا ضعيف لِبُعْد القول، ولأن المعنى هنالك يستحق «أَنَّ»، وقال آخرون: هو في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ﴾ على تقدير حذف اللام، كأنه تعالىٰ قال: لَيَوْمَ، وقال آخرون: هو موجود في جملة قوله تعالىٰ: ﴿يوم ترجف الراجفة. . . . قلوب يومئذ واجفة﴾، كأنه تعالىٰ قال: لَتجِفَنَّ قلوب يوم كذا، ولما دلَّت القلوب على أَصحابها ذكر بعد ذلك أَبصارها وخشوعها، ذُلَّها وما يظهر منها من الهم بالحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ هي حكاية حالهم في الدنيا، معناه: هم الذين يقولون، وقولهم: ﴿أَئِنَّا﴾ هو على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، وابن يَعْمَر: [آئِنَّا] بهمزتين ومَدَّة، على الاستفهام، وقرأَ جمهور القراءِ: [أَينَّا] باستفهام وهمزة واحدة.

و«الحافِرَةُ» لفظة توقعها العربُ على أَوَّل أَمر رُجع إِليه من آخره، يقال: عاد فلانٌ في الحافرةِ إِذا ارتكس في حالٍ من الأَحوال، ومنه قول الشاعر:

أَحـافِـرَةً عَلَـى صَلَـعٍ وَشَيْـبٍ ؟ مَعَـاذَ اللهِ مِـنْ سَفَـهٍ وَعَـارِ[1]

والمعنى: أَئِنَّا لمردودون إِلى الحياة بعد مفارقتها بالموت ؟ وقال مجاهد والخَليل: الحافرة الأَرضُ، فاعِلَةٌ بمعنى مفعولة، وقيل: بل هو على النَّسب، أَي ذات حفر، والمراد القبور لأَنها حُفرت للموتى، فالمعنى: أَئِنَّا لمردودون أَحياءً في قبورنا ؟ وقال زيد بن أَسلم: الحافرةُ النارُ، وقرأَ أَبو حيوة: [في الْحَفِرَةِ] بغير أَلف، فقيل: هو بمعنى الحافرة، وقيل: هي الأَرض المُنْتنة المتغيرة بأجساد موتاها، من قولهم: حُفِرت أَسنانُه إِذا تآكلت وتغيَّر ريحها.

و«النَّاخِرَةُ»: الْمُصَوِّتَةُ بالريح الْمُجَوَّفَةُ، ومنه قول الشاعر:

= وإنَّما تخصَّصت بقوله تعالىٰ: ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾.

(١) البيت في اللسان، والطبري، والقرطبي، والكشاف، وفتح القدير، والبحر المحيط، وهو غير منسوب، والرواية في الطبري: «من سَفَهٍ وطيش»، يقال: رجع عَلَى حافِرَتِهِ، أَي الطريق الذي جاءَ منه، ومعنى البيت: أأَرْجع إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزل واللهو وفعل العار بعد أَن شبْت وصَلِعْتُ ؟

وَأَخْلَيْتُهـا مِـنْ مُخِّهـا فكـأَنَّهـا قَواريرُ في أَجْوافِهَا الرِّيحُ تَنْخُرُ(١)

وروي: تَصْفِرُ. و[نَاخِرةً] هي قراءة حمزة، وعاصم، في رواية أبي بكر ـ وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعبٍ، وابن عباس، وابن الزبير، ومسروق، ومجاهد، وجماعة سواهم، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والحسن، والأعرج، وأبو رجاءٍ، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عبد الرحمن، وابن جبير، وأهل مكة، وشبل، وقتادة، وأيوب، والنَّخعي، وابن وثاب: [نَخِرَةً] دون ألف بعد النون، ومعناه: باليةٌ متعفنة قد صارت رميماً، يقال: نخر العودُ والعظْمُ إذا بَلِيَ وصار يتفتَّتُ، وحُكي عن أبي عبيدة، وأبي حاتم، والفراءِ، وغيرهم أن النَّاخرة والنَّخِرَة بمعنى واحد، كطامِعٍ وطَمِعٍ، وحاذِرٍ وحَذِرٍ، والأكثر من الناس على ما قدمناه، قال أبو عمرو بن العلاءِ: النَّاخِرَةُ التي لم تنخر بَعْد، والنَّخِرَةُ التي قد بَلِيَت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ عنهم قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث وإنكارهم قالوا: لو كان هذا حقًّا لكانت كرَّتنا ورَجْعَتُنا خاسرة؛ إِذْ هي إِلى النار، وقال الحسن: [خَاسِرَة] معناه: كاذبة، أي ليست بكافية، ورُوي أن بعض صناديد قريش قال ذلك.

ثم أخبر الله تعالىٰ عن حال القيامة فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، أي نفخة في الصُّور، فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياءً على وجه الأرض، وفي قراءة عبد الله:

(١) لم يذكر هذا البيت أحد من المفسرين غير ابن عطية وصاحب «البحر المحيط»، والمُخُّ: نقيُ عظام القَصَب، والقواريرُ: جمع قارورة، وهي وعاءٌ من زجاج يستقرُّ فيه الشراب، وتَنْخُر: تَصُوِّتُ صوتاً يشبه صوت الأنف، يقول: إنه أفرغها من مخها فأصبحت خالية كأنها القوارير التي تصوِّت فيها الريح.



[فإنما هي وقعة واحدة]، و«الساهرة» وجه الأَرض، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

وَفيهـا لَحْـمُ سـاهِـرَةٍ وَبَحْـرٍ وَمَـا فـاهُـوا بِـهِ لَهُـمُ مُقيـمُ[(١)]

وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّاهرة جبلٌ بالشام يمدُّه الله تعالىٰ لحشر الناس يوم القيامة كيف شاءَ، وقال أَبو العالية وسفيان: السَّاهرةُ أَرضٌ قريبة من بيت المقدس، وقال قتادة: السَّاهرة جهنم لأَنه لا نوم لمن فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السَّاهرةُ أَرض مكة، وقال الزهري: السَّاهرة الأَرض كلها.

ثم وقف تعالىٰ نبيَّه محمداً ﷺ على جهة جمع النفس لتلقي الحديث، فقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. و«الوادي المقدس» وادٍ بالشام، قال منذر بن سعيد: هو بين المدينة ومصر، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، والأَعمش، وابن أَبي إِسحاق، وقعنب: [طِوًى] بكسر الطاء مُنَوَّنة، ورويت عن عاصم، وقرأَ الجمهور: [طُوىً] بضم الطاءِ، وأَجرى بعض القراءِ [طُوى]، وترك إِجراءَه ابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، والحسن، وجماعة وقد تقدم شرح هذه اللفظة في سورة طه[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبْ﴾ تفسير النداءِ الذي ناداه ربُّه، ويحتمل أَن يكون المعنى: قال له اذهب، وفي هذه الأَلفاظ استدعاءٌ حَسَن، وذلك أَنه أُمر أَن يقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، وهذا قولٌ جوابُ كلِّ عاقل عنده: نَعَم أُريد أَن أَتزكَّى، والتَّزكِّي هو التَّطهر من النقائص والتَّلبس بالفضائل، وفسَّر بعضهم ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بـ «تُسْلِم»، وفسَّرها بعضهم بقول «لا إِله إِلاَّ الله»، وهذا تخصيص، وما ذكرناه يَعُمُّ كل هذا، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [تَزَّكَّى] بشدِّ الزاي، وقرأَ الباقون: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بتخفيف الزاي.

ثم أَمر [الله تعالىٰ][(٣)] موسى عليه السلام بأَن يفسِّر له التَّزكي الذي دعاه إِليه بقوله:

---

(١) هذا البيت من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي والبحر المحيط، وفتح القدير، ومعاني القرآن، والساهرة: الأرض، قال الفراءُ: سُمِّيت بذلك لأن فيها الحيوان نوْمَهم وسَهَرَهم، ومُقيم: دائمٌ حاضر عندهم، يقول في وصف الجنة: إن فيها من اللحم من صيد الأرض ولحم البحر، وكل ما فاهت به أَفواههم وجدوه حاضراً مقيماً عندهم.

(٢) راجع صفحة ٨٣ من المجلد السادس.

(٣) ما بين العلامتين زيادة للتوضيح.



﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، والعلم تابع للهدى، والخشية تابعة للعلم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

و﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ العَصَا واليَدُ، قاله مجاهد وغيره، وهما قَصَب موسى عليه السلام للتحدي[2]، فوقعت المعارضة في الواحدة، وانغلِب فيها فريق الباطل. وقال بعض المفسرين: ﴿أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ حقيقة، قام من موضعه مولِّياً فارًّا بنفسه من مجالسة موسى عليه السلام، وقال الجمهور: ﴿أَدْبَرَ﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان، و﴿يَسْعَىٰ﴾ معناه: يجتهد على أمر موسى عليه السلام[3] والرَّدِّ في وجه شرعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ﴾ معناه: جمع أَهل مملكته، ثم ناداهم بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: المعنى: فنادى فحشر، وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ نهاية في المَخْرقة، ونحوها باق في ملوك مصر وأَتباعهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿نَكَالَ﴾ منصوبٌ على المصدر، وقال قوم: «الآخِرَةُ» قولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وروي أنه مكث بعد قوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَربعين سنة، وقيل: كانت هذه المدة بين الكلمتين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، و﴿الأخِرَةِ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال ابن رُزَين: الأُولى كُفْره وعصيانُه، والآخرةُ قولُه: (أَنا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) وقال ابن زيد: الأُولى الدنيا، والآخرةُ الدارُ الآخرة، أَي: أَخذه الله تعالىٰ بعذاب جهنم وبالغرق في الدنيا، وقال مجاهد: هذه عبارةٌ عن أَول معاصيه وكُفْره وآخرِها، أَيْ نكّل بالجميع،

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (فاطر).

(٢) هذا من قولهم: «أَحرز قَصَب السبْق»، إذ أَنهم كانوا يَنْصُبون في حلبة السباق قَصبة فمن سبق أَخذها ليُعْرف أَنَّه السابق.

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في هذه الجملة، ففي بعضها: «يجتهد على أمر موسى»، وفي بعضها: «يروم جُلَّ أمر موسى»، وفي بعضها: «يَتَحَزَّم أمر موسى».



و﴿نَكَالَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه على رأي سيبويه [أَخَذَ]؛ لأَنه في معناه، وعلى رأَيِ أَبي العباس المبرد فِعْلٌ مضمر من لفظ «نكال»، كأَنه قال: نَكَّله نَكَالَ.

ثم وقف تعالىٰ على موضع العبرة بحال فرعون، وتعذيبه، وفي الكلام وعيد للكفار المخاطبين برسالة محمد ﷺ، ثم وقفهم مخاطبة منه تعالىٰ لجميع العالم، والمقصد الكفار، ويحتمل أَن يكون المعنى: قل لهم يا محمد: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الآية. وفي هذه الآية دليل على أَن بعث الأَجساد من القبور لا يتعذَّر على قدرة الله تعالىٰ، و«السَّمْكُ» الارتفاع الذي بين سطح السماءِ الأَسفل الذي يلينا وبين سطحها الأَعلى الذي يلي ما فوقها، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يحتمل أن يريد: خلقها ملساءَ مستويةً ليس فيها مرتفع ومنخفض، و يحتمل أَن يكون عبارة عن إِتقان خلقها، ولا يقصد معنى امِّلاس سطحها، والله تعالىٰ أَعلم كيف هي.

و﴿أَغْطَشَ﴾ معناه: أَظلَم، والأَغْطَشُ: الأَعمى، ومنه قول الشاعر:

نَحَـرْتُ لَهُـمْ مَـوْهِنـاً نَـاقَتِـي ... وَلَيْلُهُـمْ مُـدْلَهِـمٌّ غَطِـشْ[1]

ونسب الليل والضحى إِليها من حيث هما ظاهران منها وفيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ متوجِّهٌ على أَن الله تعالىٰ خلق الأَرض ولم يَدْحُها، ثم استوى إِلى السماءِ وهي دخان فخلقها وبناها، ثم دحا الأَرض بعد ذلك، وقرأَ مجاهد: «والأَرْضَ مَعَ ذَلكَ»، وقال قوم: إِن ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: مع ذلك، والذي قلناه مترتب عليه آيات القرآن كلها، ونسب الماءَ والمرعى إِلى الأَرض من حيث هما منها يظهران، ودَحْو الأَرض: بَسْطُها، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصلت:

دَارٌ دحـاهـا ثُـمَّ أَسْكَنَنَـا بِهـا ... وَأَقامَ بالأُخْرى الَّتي هي أَمْجَدُ[2]

---

(١) البيت للأعشى، وقد ذكره في القرطبي، والرواية فيه:

عَقَـرْتُ لَهُـمْ مَـوْهِنـاً نـاقَتِـي ... وَغَـامِـرُهُـم مُـدْلَهِـمٌّ غَطِـش

كذلك استشهد بالشطر الثاني صاحب فتح القدير، واللفظ فيه كاللفظ في القرطبي. وعَقَر الناقة: قطع إحدى قوائمها لتسقط فيتمكن من ذبحها، ثم درج العُرف على استعمال العَقْر في الذبح، والموهن: نحو نصف الليل أو بعد ذلك بساعة، والغامرُ هو الليل لأنه يغمر الناس ويغطيهم، ومُدْلَهِمٌّ: كثيف الظلام، وغَطِش: شديد الظلام، وهو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) ويروى: «ثُمَّ أَعْمَرَنَا بها»، وهي في الطبري، والدَّحْو هو البسط، يقال: دَحَا الأرض دَحْواً: بَسَطَها، =

وقرأ الجمهور: ﴿والأَرْضَ﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وعيسى: [والأرضُ] بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿والجبالُ﴾ رفعاً. و﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ معناه: أثبتها، وجميع هذه النعم إذا تُدُبِّرت فهي متاعٌ للناس والأنعام، يتمتعون فيها وبها، وقرأ الجمهور: ﴿مَتَٰعٗا﴾ بالنصب، وقرأ ابن أبي عبلة: [متٰعٌ] بالرفع.

و﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ هي القيامة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقال الحسن، وابن عباس أيضاً: النفخة الثانية، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ معناه: ما عمِل من سائر عمله، ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بضم الباءِ وشد الراءِ المكسورة، وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة رضي الله عنها: [وَبَرَزَت] بفتح الباءِ والراءِ، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ بالياءِ، أي: لمن يُبصر ويُحصِّل، وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة رضي الله عنها: [لِمَنْ تَرَى] بالتاءِ، أي: تراه أنت يا محمد، فالإشارة إلى كُفَّار مكة، أو إشارة إلى الناس والقصد كُفار مكة، ويحتمل أن يكون المعنى: لمن تراه الجحيم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾[1]، وقرأ ابن مسعود: [لِمَنْ رأَى] على فعل ماض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿طَغَىٰ﴾ معناه: تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها، و﴿آثر الحياة الدنيا﴾ عَلَى الآخِرَةِ لتكذيبه بالآخرة، و﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ المنزلُ والمسكن حيث يأوي المرءُ ويلازم. و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ هو يوم القيامة وإنما المراد: مَقَامَ بَيْن يدي ربه، فأضاف المقام إلى الله تعالىٰ من حيث هو بين يديه، وفي ذلك تفخيمٌ للمقام وتعظيم لهوله وموقعه من

= وهذا التعبير كثير مطروق في الشعر العربي، قال زيد بن عمرو بن نُفَيل:

دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ... عَلَى الْماءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالاَ

(١) من الآية (١٢) من سورة (الفرقان).

النفوس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: خافه عند المعصية فانتهى عنها. و﴿ٱلْهَوَىٰ﴾ هو شهوات النفس وما جرى مجراها، وأَكثر استعماله إِنما هو في غير المحدود، قال سهل التَّسْتُّري: لا يسلم من الهوى إِلا الأَنبياءُ عليهم السلام وبعض الصديقين، وقال بعض الحكماءِ: إِذا أَردتَ الصواب فانظر هواك فخالفه، وقال الفَضْلُ بن عياض: أَفضل الأَعمال خلاف الهوى.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية... نزلت بسبب أَن قريشاً كانت تُلح في البحث عن وقت الساعة التي كان رسول الله ﷺ يخبرهم بها ويتوعدهم بأَمرها ويكثر من ذلك، و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ معناه: مَتَى ثُبوتها ووقت رسوها، أَي ثُبوتها، كأَنه شيءٌ يسير إِلى غاية مَّا ثم يقف كما تفعل السفينة التي ترسو، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي: [إِيَّانَ] بكسر الأَلف.

ثم قال تعالىٰ لنبيِّه عليه السلام ـ على جهة التوقيف ـ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، أَي: من ذكر تحديدها ووقتها، أَي: لسْتَ من ذلك في شيءٍ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يَسْأَل عن الساعة كثيراً، فلما نزلت هذه الآية انتهى[(١)]. وقرأَ أَبو جعفر، وعمر بن عبد العزيز، وأَبو عمرو ـ بخلاف ـ وابن محيصن، والأَعرج، وطلحة، وعيسى: [مُنذِرٌ] بالرفع بتنوين «مُنْذر»، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ بإِضافة [مُنْذِرُ] إِلى [مَنْ].

ثم قرَّب تعالىٰ أَمْر السَّاعة بإِخباره أَن الإِنسان عند رؤيته إِيَّاها يظن أَنه لم يلبث إِلاَّ عشيَّة يوم أَوْ بُكْرته، فأَضاف «الضُّحَى» إِلى «العَشِيَّة» من حيث هما طرفان للنهار، وقد بدأَ بذكر أَحدهما فأَضاف الآخر إِليه تَجُوزاً وإِيجازاً[(٢)].

كمل تفسير سورة النازعات والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه البَزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، وأَخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه عن عروة مرسلاً.

(٢) قال الفراءُ في معاني القرآن: «يقول القائل: وهل للعشيِّ ضُحى؟ إِنما الضُّحى لصدر النهار، فهذا بيِّن ظاهر من كلام العرب أَن يقولوا: آتيك العَشِيَّةَ أَو غداتها، وآتيك الغَداةَ أَو عشِيَّتَها، وأَنشدني بعض بني عقيل:

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً في دارِهَا ... عَشِيَّةَ الْهِلالِ أَوْ سَرارِهَا

أَراد: عَشِيَّةَ الهلال أَو عَشِيَّةَ سَرار العَشِيَّة، فهذا أَسَدُّ من آتيك الغداةَ أَو عشِيَّتَها».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة عبس(١)

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين.

وقصص هذه السورة التي لا تفهم الآية إلاَّ به أَن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إسلام قريش وأَشرافهم، وكان يتحَفَّى بدعائهم إلى الله تعالىٰ، فبينا هو يوماً مع رجل من عظمائهم ـ قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: شيبة، وقيل: العباس، وقيل: أُمَيَّةُ بن خلف، وقيل: أُبَيُّ بن خلف. وقال ابن عباس: كان في جمع منهم، فيهم عُتْبة والعباسُ وأَبو جهل ـ إِذْ أَقبل عبد الله بن أُمِّ مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لُؤَي، وهو رجل أَعمى، يقوده رجل آخر، فأَومأَ رسول الله ﷺ إلى قائده أَن يُؤَخره عنه، فَفَعَل، فدفعه عبد الله وأَقبل نحو رسول الله ﷺ وقال: اسْتَدْنني يا محمد، علِّمني مما علَّمك الله، فكان في ذلك كلِّه قطع لحديث رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد قرأَ عليه القرآن وقال له: أَترى بما أَقول بأْساً؟ فكان ذلك الرجل يقول: لا والدُّمَى ـ يعني الأَصنام ـ ويروى: لا والدِّما ـ يعني الذبائح التي للأَصنام ـ، فلما شغب عليه أَمر عبد الله بن أُمِّ مكتوم عبس وأَعرض عنه، وذهب ذلك الرجل، فيروى أَن النبي ﷺ انصرف إلى بيته فَلُوِيَ رَأْسُه وشخص بصره وأُنزلت عليه السورة(٢). قال سفيان الثوري: فكان بعد ذلك إِذَا رَأَى ابنَ أُمِّ مكتوم قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي عزَّ

---

(١) قال الشوكاني في فتح القدير: «وتُسمى سورة السَّفَرة».

(٢) ذكره الواحديُّ في (أسباب النزول)، وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أُنزلت سورة عبس وتولّى في ابن أُمِّ مكتوم الأعمى، وساقت الخبر، وأخرج مثلَه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأَبو يَعْلَى، عن أَنس رضي الله عنه، وأَخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عُتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأَبا جهل بن هشام، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرصُ أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أَعمى، . . . . وساق القصة.



وجلَّ، وبَسَط له رِدَاءَه، قال أَنس بن مالك: رأيتُهُ يوم القادسية وعليه دِرْعٌ ومعه رايةٌ سوداء، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾.

العُبُوس: تقطيب الوجه وارْبِدادُه عند كراهية أَمر، وفي مخاطبته ﷺ بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب، لأَن في ذلك بعض الإعراض، وقال كثير من العلماءِ، وابن زيد، وعائشة وغيرهما من الصحابة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لَكَتَم هذه الآيات وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش. و«التَّوَلِّي» هنا الإعراض، و[أَنْ] مفعول من أجله. وقرأ الحسن: (آن جاءَهُ) بمَدَّةٍ تقرير وتوقيف، والوقف ـ على هذه القراءَة ـ على ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾، وهي قراءة عيسى[1]. وذكر الله تعالىٰ ابن أُمِّ مكتوم بصفة العمى الذي شأن البشر احتقاره، وبَيَّن أَمره بِذِكْر ضده من عُتُوِّ ذلك الكافر، وفي هذا دليلٌ على أَن ذكر هذه العاهاتِ ـ متى كانت لمنفعة، أَو أَن شُهرتها تعرِّف السامع صاحبها دون لبس ـ جائزٌ، ومنه قول المحدِّثين سليمان الأَعمش، وعبد الرحمن الأَعرج، وسالم الأَفطس، ونحو هذا، ومتى ذكرت هذه الأَشياءُ على جهة التَّنَقُّص فتلك الغِيبَة، وقد سمع رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها تذكر امرأَة، فقالت: إِنها لقصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته»[2].

ثم خاطب تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالعتْب فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ

---

(١) الذي في البحر المحيط أَن الحَسَن، وأَبا عمران الجوني، وعيسى قرءوا بهمزةٍ ومدَّةٍ بعدها. وفي المحتسب (آنْ جاءَهُ) بالمد.

(٢) أَخرجه أبو داود في الأدب، والترمذي في القيامة، وأحمد في مسنده (٦/ ١٨٩)، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن أَبي حذيفة، وكان من أَصحاب عبد الله، وكان طلحة يحدث عنه، عن عائشة قالت: «حكيت للنبي ﷺ رجلاً، فقال: ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا، قالت: فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأةٌ ـ وقال بيده كأنه يعني قصيرة ـ فقال: لقد مزجتِ بكلمة لو مُزج بها ماءُ البحر مُزجت»، قال عبد الله ـ ابن الإمام أحمد ـ: وجدت هذا الحديث في كتاب أَبي بخط يده.



﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾. أَي: وما يطلعك على أَمره وعُقبى حاله؟ ثم ابتدأَ القول: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، أَي: تنمو بركتُه ويتطهَّر لله تعالىٰ وينفعُ إِيمانه. وأَصل ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: يَتَزَكَّى، فأدغم التاءَ في الزاي، وكذلك ﴿يذَّكَّر﴾. وقرأَ الأعرج: [يَذْكُر] بسكون الذال وضم الكاف، ورويت عن عاصم، وقرأَ جمهور السبعة: [فَتَنْفَعُهُ] بضم العين على العطف، وقرأَ عاصم وحده[1]، والأَعرج: (فَتَنْفَعَهُ) بالنصب في جواب التَّمني؛ لأَن قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ في حكم قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

ثم أَكَّد تعالىٰ عتب نبيِّه ﷺ بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾، أَي بمالِهِ، و﴿تَصَدَّىٰ﴾ معناه: تتعرض بنفسك، وقرأَ ابن كثير، ونافع: [تصَّدَّى] بشد الصاد، على إِدغام التاءِ، وقرأَ الباقون، والأَعرج، والحسن، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، وعيسى، والأَعمش ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بتخفيف الصاد، على حذف التاءِ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [تُصَدَّى] بضم التاءِ وتخفيف الصاد، على بناءِ الفعل للمفعول، أَي: يُصَدِّيك حرصُك على هؤلاءِ الكفار أَن يسلموا، تقول: تَصَدى الرجلُ وصَدَّيته، كما تقول: تَكَسَّب وَكَسَّبْتُه، ثم قال تعالىٰ تحقيراً لشأْن الكفار: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أَي: وما يضرك أَلاَّ يفلح؟ فهذا حضٌّ على الإِعراض عن أَمرهم، وترك الاكتراث بهم.

ثم قال تعالىٰ مبالغاً في العَتْب: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾، أَي يمشي، وقيل: المعنى: يسعى في شؤونه وأَمْر دينه وَتَقَرُّبه منك، وهو يخشى الله تعالىٰ، ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾، أَي: تشتغل، تقول: لَهِيتُ عن الشيءِ أَلْهَى إِذا اشتغلت، وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو، أَمَا إِنَّ المعنى يتداخل. وقرأَ الجمهور من القراءِ: ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بفتح التاءِ، على حذف التاءِ الواحدة، وقرأَ ابن كثير ـ فيما رُوي عنه ـ: [تّلهى] بالإِدغام، وقرأَ طلحة بن مصرف: [تَتَلَهَّى] بتاءَين، وروي عنه [تَلْهَى] بفتح التاءِ وسكون اللام وتخفيف الهاءِ المفتوحة، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع: [تُلَهَّى] بضم التَّاءِ[2]، أَي يُلهيك حرصك على أُولئك الكفار، وفي حديث النبي ﷺ: «وَمَا اسْتَأْثَرَ الله بعلمه فَالْهَ عنه»[3] وقوله تعالىٰ

---

(١) أي من القراء السبعة، وإلاَّ فقد قرأ بها الأعرج.

(٢) أما ضبط اللام والهاء فقد أخذناهما عن المحتَسب.

(٣) وجدت هذا الحديث في كتاب النهاية لابن الأثير، وفي لسان العرب ـ أثر ـ واللفظ فيهما: «إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه»، ولم يذكرا شيئاً عن رواته، واستأثر بالشيء: خص به نفسه، ومعنى «الْهَ عنه»: اتركه.

في هاتين: ﴿أَمَّا مَنِ﴾، ﴿وَأَمَّا مَن﴾ فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أُمِّ مكتوم، ثم هي بَعْدُ تتناول من شَرِكَهم[١] في هذه الأوصاف، فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بِمِثْل ما خوطب النبي ﷺ في هذه السورة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ يا محمد، أَي: ليس الأمر في حقِّه كما فعلتَ، إِن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر تذكرةٌ لجميع العالم، لا يُؤْثر فيها أَحد دون أَحد، وقيل: المعنى: إِن هذه المَعْتَبَة تَذْكِرَةٌ لك يا محمد، ففي هذا التأويل إِجلالٌ لمحمد ﷺ وتأنيسٌ له. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾، وهذا يؤيد أَن التذكِرة يراد بها جميع القرآن، وقال بعض المتأَولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأَنبياء عليهم السلام الْمُنزَّلةُ، وقيل: مصاحف المسلمين.

واختلف الناس فِي «السَّفَرة» ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة لأَنهم كَتَبَةٌ، يقال: سفرتُ أَي كَتبتُ، ومنه السِّفْرُ[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الملائكة سَفَرة لأَنهم يسفرون بين الله تعالىٰ وبين أَنبيائه، وقال قتادة: هم القُراءُ، وواحد السَّفَرة: سافِر، وقال وهب بن مُنَبِّه: هم الصحابة؛ لأَن بعضهم يسفر إِلى بعض في الخير والتعليم والتعلم، والقول الأَول أَرجح، ومن اللفظة قول الشاعر:

فَمَا أَدَعُ السِّفارة بَيْنَ قَومي ... وَلاَ أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ[٣]

و«الصُّحفُ» ـ على هذا ـ صحفٌ عند الملائكة أَو اللوح، وعلى القول الآخر هي المصاحف.

---

(١) أي اشترك معهم فيها، وشَرِك تأتي بمعنى شارك.

(٢) هو الكتاب الكبير.

(٣) هذا البيت ذكره الفراء في معاني القرآن، وهو في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، مع اختلاف كبير في الشطر الثاني، ولم ينسبه أحد منهم، ويروى (وَمَا) بدلاً من (فَمَا)، وكذلك يروى (وَمَا) بدلاً من (وَلاَ)، و(ما أَسعَى) بدلاً من (وما أَمشي)، يفتخر الشاعر بأنه سفير يصلح بين أبناء قومه.



وقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ على اسم الجنس، وهو عموم يراد به الخصوصُ، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾: هو أهل أن يُدْعى عليه بهذا، وقال مجاهد: ﴿قُتِلَ﴾ معناه: لُعن، وهذا تحكُّم، وقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً، أي: أَيُّ شيءٍ أَكْفَرَهُ؟ أَيْ جعله كافراً.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أَبي لهب، وذلك أنه غاضب أَباه فأَتى النبيَّ ﷺ، ثم إنَّ أَباه استصلحه وأَعطاه مالاً وجهَّزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر بربِّ النجم إذا هَوَى، فيروى أَن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ ابعث إليه كلبك حتى يأكله»، ويروى أَنه قال: «أَما يخاف أَن يُرسل الله عليه كلبه فيأكله»، ثم إن عتبة خرج في سَفَر فجاءَ الأَسد فأكله من بين رفاقه[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيءِ الذي خَلَقَ الإنسانَ منه، وهي عبارة تصلح للتحقير وللتعظيم، والقرينةُ تبيِّن الغرض، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[2]، و«النُّطفة» المشار إليها هي ماءُ الرجل وماءُ المرأَة. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بشدِّ الدال، وقرأَ بعض القُراءِ: [فَقَدَرَهُ] بتخفيفها، والمعنى: جعله بقدرٍ وحَدٍّ مَعْلوم من الأَعضاءِ والخُلُق والأَجل وغير ذلك من إنجابه حسب إرادته تعالىٰ في إنسانٍ إنسانٍ.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ـ فقال ابن عباس، وقتادة، وأَبو صالح، والسدي: هي سبيل الخروج من بطن المرأَة ورحمها، وقال

---

(١) قال الإمام السيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن المنذر عن عِكْرمة في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قال: نزلت في عتبة بن أَبي لهب حين قال: «كفرتُ بربِّ النجم إذا هوى، فدعا عليه النبي ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام». وروى الضحاك هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر ذلك القرطبي».

(٢) الآيتان (١٢)، (١٣) من سورة (المرسلات).

الحسن ما معناه: إِنَّ السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتَيْسيرُهُ له هو هِبَةُ العقل، وقال مجاهد: أَراد السبيل عامة، اسم الجنس في «هدى وضلال»، أَي: يَسَّر قوماً لهذا وقوماً لهذا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ معناه: أَمر أَن يُجعل له قبر، وفي ذلك تكريم لئلا يطرح كسائر الحيوان، والقابِرُ هو الذي يتناول جعل الميت في القبر، والمُقْبر هو الذي يأمر بقبر الميت ويقرِّره. و﴿أَنشَرَهُۥ﴾ معناه: أَحياه، يقال: نَشَر الميِّتُ وأَنْشَرَهُ اللهُ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاءَه، وهو يوم القيامة، وقرأَ بعض القراءِ: ﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ بتحقيق الهمزتين[2]، وقرأَ جمهور الناس: [إذا شا آنْشَرُه] بِمَدَّةٍ وبتسهيل الهمزة الأُولى، وقرأَ شعيب بن أَبي حمزة[3]: [إِذَا شَاءَ نَشَرَهُ]، وقرأَ الأَعمش: [إذا شَا أَنْشَرَهُ] بهمزة واحدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ ردٌّ لما عَسى أَن يكون للكفار من الاعتراضات في هذه الأَقوال المسرودة، ونفي مؤكد لطاعة الإنسان لربه، وإثباتٌ أَنه ترك حق الله تعالىٰ ولم يقض أَمره، قال مجاهد: لا يقضي أَحد أَبداً ما افتُرض عليه. ثم أَمر تعالىٰ الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه، وذهب أُبَيُّ بن كعب، ، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم إلى أَن المراد: إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا، وعلى أَي شيءٍ يتفانى أَهلها، وتستدير رحاها، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر أَن الإنسان إذا أَحدث فإن مَلَكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيردُّ بصره إلى نحوه مُوقِفاً له ومُعَجِّباً، فينفع ذلك مَنْ له عقل، وذهب الجمهور إلى أَن معنى الآية: فلينظر الإنسان إلى مطعوماته وكيف يسَّرها الله تعالىٰ له بهذه الوسائط المذكورة من صبِّ الماءِ وشق الأَرض، ويُروى أَنَّ رجلاً أَضافه عابد، فقدم إليه رغيفاً قَفَاراً[4] فكأَن الرجل

---

(١) الآية (٣) من سورة (الإنسان).

(٢) في بعض النسخ: «بتخفيف الهمزتين»، والصواب ما أثبتناه.

(٣) هذا يوافق ما في القرطبي، ويؤكده أن صاحب البحر المحيط نقله عن ابن عطية هكذا: «وفي كتاب ابن عطية: وقرأ شعيب بن أَبي حمزة»، ولكن في المحتسب: «ومن ذلك قراءة شعيب بن أَبي عمرة» بالعين والراءِ، وأحسبه تصحيفاً. وشعيب هذا هو: أَبو بشر بن دينار، المعروف باسم: شعيب بن أَبي حمزة الأموي، قال عنه في تقريب التهذيب: «ثقة، عابد، مات سنة اثنتين وستين أو بعدها».

(٤) الخبزُ القَفَار: هو الخبز بدون إدام.

استخشنه، فقال له: كُلْه فإن الله تعالىٰ لم يُنْعم به ويُكَمِّله حتى سخَّر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً، الماءُ والريح والشمس ثلاثة من ذلك.

وقرأ عاصمٌ، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بفتح الأَلف على البدل، وهي قراءة الأَعرج، وابن وثاب، والأَعمش، وردَّ على هذا الإعراب قومٌ بأن الثاني ليس من الأَول، وليس كما ردُّوا؛ لأَن المعنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، فترتَّب البدل وصحَّ، و﴿أَنَّا﴾ في موضع خفض، وقرأ الجمهور: [إنّا صَبَبْنا] بكسر الأَلف على استئناف تفسير الطعام، وقرأ بعض الناس: [أَنَّى] بمعنى كيف، ذكرها أَبو حاتم، وصبُّ الماءِ هو المطر، وشق الأَرض هو بالنَّبات.

و«الحَبُّ»: جمع حَبَّةٍ ـ بفتح الحاء ـ وهو كل ما يتخذه الناسُ ويؤثرونه كالقمح والشعير ونحوه، والحِبَّةُ ـ بكسر الحاءِ ـ كل ما ينبت من البذور ولا يُحتَفل به ولا هو بِمُتَّخَذٍ، و«القَضْب» قال بعض اللغويين هو الفَصَافِص[1]، وهذا عندي ضعيف لأَن الفَصَافص هي للبهائم، فهي داخلة في «الأَبِّ»، وقال أَبو عبيدة: القَضْب: الرَّطْبة[2]، وقال الحسن: هو العَلَف، وأَهل مكَّة يسمون القَتَّ القَضْبَ، قال ثعلب: لأَنه يُقضب كل يوم، والذي أَقول: إنَّ القَضْبَ هنا هو كل ما يُقْضب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهليون[3] ونحوه، فإنه من المطعوم جزءٌ عظيم، ولا ذِكر له في الآية إلاَّ في هذه اللفظة.

و«الغُلْب»: الغِلاظُ الناعمة القوية، و«الحديقةُ»: الشَّجر الذي قد أُحدق بجدار ونحوه، و«الأَبُّ»: الْمَرْعَى، قاله ابن عباس، وابن زيد، ومجاهد، وقتادة، وقال الضحاك: الأَبُّ: التِّين، وفي اللفظة غرابة، وقد توقف في تفسيرها أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما. و[مَتاعاً] نصب على المصدر، والمعنى: تتمتعون به أَنتم وأَنعامكم، فابن آدم في السبعة المذكورة، والأَنعام في الأَبِّ.

---

(١) الفصافص: جمع فِصْفِصة، وهي نبات عُشْبي كَلَئِيٌّ مُعَمَّر من الفصيلة القرنية يُسَمَّى: البرسيم الحجَازي، وهو في الشام: فِصَّة. (المعجم الوسيط).

(٢) جاء في الصحاح: «والقَضْبَةُ والقَضْبُ: الرَّطبة، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية».

(٣) الهِلْيُون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية، فيه نوع زراعيٌّ مشهور يؤكل، وتسميه العامة: (كشك أَلماس) في مصر، وفيه أَنواع للتزيين، وأَنواعٌ بَرِّيَّة يتبقلونها ويستعملونها، كالهِلْيُون الزراعي. (المعجم الوسيط).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسم من أَسماءِ يوم القيامة، واللفظة في حقيقتها إِنَّما هي لنفخة الصُّور التي تصخُّ الآذان أَيْ تُصِمُّها، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يُصِمُّ نبؤُها الآذان لصعوبتها، وهذه استعارة، وكذلك في الصيحة المفرطة التي يصعب وَقْعُها على الأُذن.

ثم ذكر تعالىٰ فِرار المرءِ من القوم الذين معهودهم أَلاَّ يفر عنهم في الشدائد، ثم رتَّبهم تعالىٰ الأَول فالأَول محبَّةً وحُنُوًّا، وقرأَ أَبو إِياس جؤية[(١)]: [مِنْ أَخِيهُ * وَأُمِّهُ وَأَبِيهُ] بضمِّ الهاءِ في كلها، قال مُنْذر بن سعيد وغيره: هذا الفرار هو خوف من أَن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات، إِذ الْمُلاَبَسَةُ تَعَلُّق المطالبة، وقال جمهور الناس: إنما ذلك لِشدَّة الهول، على نحو ما رُوي أَن الرُّسل تقول يومئذ: نفسي نفسي، لا أَسألك غيري[(٢)]. و«الشَّأنُ الَّذي يُغْنيه» هو فكره في سيئاته، وخوفُه على نفسه من التخليد في النار، والمعنى: يُغنيه عن اللقاءِ مع غيره، والفكرة في أَمره، قال قتادة: أَفضى كلُّ إنسان إِلى ما يشغله عن غيره[(٣)]، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لا يضُرُّك في القيامة كان عليك ثياب أَم لا»، وقرأَ هذه الآية[(٤)]. وقال عليه الصلاة والسلام نحوه لِسَوْدَةَ

---

(١) هو جُؤَيَّة بن عائذ، أَبو إياس. وقد ذكر اسمه لكثرة من عرف بأبي إياس.

(٢) جاء ذلك في حديث الشفاعة، وهو حديث متفق عليه، وسبق لنا تخريجه في أكثر من موضع من هذا التفسير، وفيه أن الناس يجتمعون في صعيد واحد يوم القيامة، وتدنو الشمس، ويبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألَا تنظرون من يشفع لكم ؟ فيذهبون إلى آدم ويطلبون منه أن يشفع للناس، فيقول: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبْله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري)، فيذهبون إلى الأنبياء جميعاً واحداً بعد واحد، وكل نبي يقول نفسي نفسي. إلى أن يذهبوا إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها... الحديث.

(٣) الجملة في الطبري عن قتادة: «أَفضى إلى كل إنسان ما يشغله عن النّاس».

(٤) أخرج هذا الحديث ابن جرير عن أنس رضي الله عنه، قال: «سألت عائشة رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله، بأَبي أَنت وأُمي، إنِّي سائلتُك عن حديث أَخبرني أنت به، قال: إن كان عندي منه علم، =

رضي الله عنها وقد قالت: واسَوْأَتاهُ، ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة[1]، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُغْنِيهِ﴾ بالغين منقوطة وضمِّ الياءِ على ما فسَّرناه، وقرأ ابن محيصن والزهري، وابن السميفع: [يَعْنِيهِ] بفتح الياءِ وعين غير منقوطة، من قولك: عناني الأمرُ، أي قصدني وأرادني.

ثم ذكر تعالىٰ اختلاف الوجوه من المؤمنين الواثقين برحمة الله تعالىٰ حين بدت لهم تباشيرها، ومن الكفار، و﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ معناه: نيِّرَةٌ بادٍ ضوؤها وسرورها. و﴿تَرْهَقُهَا﴾ معناه: تُلحُّ عليها، و﴿الْقَتَرَةُ﴾: الغبار، والغَبَرَةُ الأُولى إنما هي من العبوس والهمِّ، كما يُرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار، وأما القَتَرَةُ فغبارُ الأَرض، ويقال: إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تَعودُ إليه البهائم[2]، ثم فسَّر تعالىٰ أَصحاب هذه الوجوه المغبرَّة بأنهم الكفرة، قريش يومئذ ومن جرى مجراها قديماً وحديثاً.

كمل تفسير سورة عبس والحمد لله رب العالمين

* * *

= قالت: يا نبي الله كيف يُحشر الرجال؟ قال: حُفاةً عُراةً، ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله كيف يُحشر النساء؟ قال: كذلك حُفاةً عُراةً، قالت: واسَوْأَتاه من يوم القيامة، قال: وعن ذلك تسأليني؟ إنه قد نزلت عليَّ آيةٌ لا يَضُرُّك كان عليك ثيابٌ أم لا، قالت: أَيُّ آية هي يا نبي الله؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. هكذا رواه الطبري في تفسيره، وأخرج مثله الحاكم وصححه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يومَ القيامة حفاةً... الحديث.

(١) أخرجه الطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن سودة بنت زمعة، قالت: قال النبي ﷺ: يبعث الناسُ حُفاةً عُراةً غُرلاً، قد ألجمهم العرقُ وبلغ شحوم الآذان، قلت: يا رسول الله، واسَوأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض، قال: شُغل الناسُ عن ذلك، وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. (الدُّر المنثور)، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح مثل ذلك عن أُم سَلَمة رضي الله عنها.

(٢) أي ترجع، وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة التكوير

وهي مكّيَّة بإجماع من المتأولين(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

هذه كلها أَوصاف يوم القيامة، و«تكوير الشمس» هو أَن تُدار ويُذهب بها إلى حيث شاءَ الله تعالىٰ، كما يُدار كَوْرُ العمامة(٢)، وعبَّر المفسرون عن ذلك بعبارات، فمنهم من قال: ذهب نورها، ومنهم من قال: رمي بها، قاله الربيع بن خثيم، وغير ذلك مما هو أَشياءُ تابعة لتكويرها. و«انكدار النجوم» هو انقضاضها وهبوطها من مواضعها، ومنه قول الراجز:

أَبصَر خِربانَ فَضاءٍ فانكَدَرْ ... تَقَضِّيَ البَازي إذَا البازي كَسَرْ(٣)

---

(١) روى الترمذيُّ وحسَّنه، وأحمدُ، وابنُ المنذر، والطبرانيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، وابنُ مردويه، عن بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عيْن فليقرأ: إذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ، وإذا السَّماءُ انفطَرَتْ، وإذا السَّماءُ انشقَّتْ».

(٢) الكَوْرُ: الزِّيادة، يعني: كما تُدار الزيادة التي في طرف العمامة على الرأس، وقيل: كلُّ دارةٍ من العمامة كَوْرٌ، وكلُّ دَوْر كَوْرٌ، وتَكويرُ العمامة كَوْرُها.

(٣) هذان بيتان من الرجز قالهما العجّاج بن رُؤْبة، وهما من قصيدة له يمدح عَمرَو بن عُبَيْد الله بن مَعْمر، وفي مطلعها يقول:

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلٰهُ فَجَبَرْ

وترتيب الأبيات هنا يختلف عما في الديوان، فهو هناك يقول عن ممدوحه: =



وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿انكَدَرَتْ﴾: تغيَّرت، من قولهم: ماءٌ كَدِرٌ، أي متغيِّر اللون. و«تَسْيِيرُ الجبال» قيل: هو نسفها، وإنما ذلك في صدر هول يوم القيامة.

و«العِشَارُ» جمع عُشَراءَ، وهي الناقة التي قد مرَّ لحملها عشرة أشهر، وهي أنْفس ما عند العرب، وتَهَمُّمُهُم بها عظيم للرغبة في نسلها، فإنما تُعطَّل عند شدة الأَهوال[1]، وقرأ مُضَر عن اليزيدي: [عُطِلَتْ] بتخفيف الطاءِ.

و«حَشْرُ الْوُحوش» هو جمعها، واختلف الناس في هذا الجمع، ما هو؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو حَشْرُها بالموت؛ لأنها لا تبعث يوم القيامة، ولا يحضر القيامة غير الثقلين[2]، وقال قتادة وجماعة: حشرت للجمع يوم القيامة، ويقتص للجَمَّاءِ من الْقَرْنَاءِ[3]، فجعلوا ألفاظ الحديث حقيقة لا مجازاً، مثالاً في العدل[4]، وقال أُبَيُّ بن كعب: حشرت في الدنيا في أَول هول يوم القيامة، فإنها تَفِر في الأَرض، وتجتمع إلى بني آدم تأنُّساً بهم. وقرأ الحسن: [حُشِّرتْ] بشد الشّين على المبالغة.

و«تَسْجيرُ البحار» قال قتادة، والضحاك: معناه: فرغت من مائها وذهبت حيث شاءَ الله تعالىٰ، وقال الحسن: يبست، وقال الربيع بن خثيم: معناه: مُلئت وفاضت

= دَانَى جَنَاحَيْه من الطُّور فَمَرْ ... تَقَضِّيَ الْبَازِي إذا الْبَازِي كَسَرْ
أَبْصَرَ خِزْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ ... شَاكِي الْكَلاليب إذا أَهْوى اطَّفَرْ

والطُّور: جبل مختلف في موضعه، لكنه هنا يريد الشام، والخِزْبان: ذَكَرُ الحُبارى، أو هو الحُبارى كلها، والكلاليب: المخالب، واطَّفَر: ظَفر، وأصله اظْتَفَر، فقلبت التاءُ طاء وأدغمت في الظاءِ فصارت اطَّفَر. يقول: إن الممدوح مثل البازي الذي اقترب من جبل الطور، ثم انقض من أعلى الجو لأنه رأى أسراب الحبارى على الأرض، وله مخالب كأنها الكلاليب، وهو بانقضاضه هذا لا بد أن يظفر بصيده. والشاهد أن «انكدر» بمعنى: انقضَّ.

(١) إنما سُمِّيت في الآية (عِشاراً) باعتبار ما سبق لها، قال القرطبي: «وهذا على وجه التَمْثِيل، لأنه في القيامة لا يكون عُشَرَاء، فالمعنى أنه لو كان عُشَرَاءٌ لعطَّلها أَهْلُها واشتغلوا بأنفسهم».

(٢) هما الجنُّ والإِنْس.

(٣) الجَمَّاءُ: الجلحاءُ التي لا قرون لها.

(٤) يشير إلى الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣ ـ ١/ ٧٢) عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وهو: قال رسول الله ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَماء من الشّاةِ القَرْناء تنطحها»، قال أبو جعفر: «يعني في حديثه: يُقادُ للشاء الجلحاءِ». أي يؤخذ لها حقها.



وفُجِّرت من أَعاليها، وقال أُبي ابن كعب: وسُفيان، ووهْب، وابن زيد: معناه: أُضرمتْ ناراً كما يسجر التَّنُّورُ[1]، وقال ابن عباس: جهنم في البحر الأَخضر، ويحتمل أَن يكون المعنى: مُلِكت وقُيِّد اضطرابُها حتى لا تخرج على الأَرض بسبب الهول، فتكون اللفظة مأخوذة من «ساجور الكلب»[2]، وقيل: هذه بحار نار في جهنم تسجر يوم القيامة، وقد تقدم نظير هذه الأَقوال منصوصة لأَهل العلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾[3]، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [سُجِرَتْ] بتخفيف الجيم، وقرأَ الباقون بشدها، وهي مُتَرَجِّحةٌ بكون البحار جمعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[4]، وكما قال سبحانه: ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[5]، ومثله: ﴿قصر مشيد﴾[6]، و﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[7] لأَنها جماعة، وذهب قوم من الملحدين إِلى أَن هذه الأَشياءَ المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأَحوال له عند موته[8]، فالشمسُ نفسُه، والنجومُ عيناه وحواسُّه، والعِشارُ ساقاهُ، وهذا قول سُوءٍ وخيم غَثٌّ ذاهبٌ إِلى إِثبات الرموز في كتاب الله تعالىٰ.

و«تَزْويجُ النُّفُوسِ» هو تنويعُها؛ لأَن الأَزواج هي الأَنواعُ، والمعنى: جُعل الكافر مع الكافر، والمؤمن مع المؤمن، وكل شكل مع شكله، رواه النعمان بن بشيرٍ عن النبي ﷺ[9]، وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم، وقال: هذا نظير قوله

---

(١) التَّنور: الفُرن يخبز فيه، وجمعه: تنانير.

(٢) ساجور الكلب: قلادة أو خشبة توضع في عنقه.

(٣) الآية (٦) من سورة (الطور).

(٤) من الآية (١٣) من سورة (الإسراء).

(٥) من الآية (٥٢) من سورة (المدثّر).

(٦) من الآية (٤٥) من سورة (الحجّ).

(٧) من الآية (٧٨) من سورة (النساء).

(٨) في بعض النسخ: «استعاراتٌ كلها في ابن آدم وأحواله»، ولكن أكثر النسخ على ما أثبتناه.

(٩) أَخرج ابن مردويه عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: «هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار». وأَخرج عبد الرزاق، وابن أَبي شيبة، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه والبيهقي في البعث، وأبو نعيم في الحلية، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سُئل عن قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: يُقرنُ بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السُّوء مع السُّوء في النار، فذلك تزويج الأَنفُس. وفي رواية=

تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، وفي الآية ـ على هذا ـ حضٌّ على دليل الخير، فقد قال ﷺ: «المرءُ مع من أَحب»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «فلينظر أَحدكم من يخالِلْ»[٢]. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وقال مقاتل بن سليمان: زُوِّجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين وغيرهن، وقال عكرمة، والضحاك، والشعبي: زُوِّجت الأَرواح بالأَجساد. وقرأَ عاصم: [زُووجَتْ] غير مدغم[٤].

و﴿الموؤودة﴾ اسم معناه: المثقل عليها، ومنه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾[٥]، ومنه: «اتَّئِدْ»، أَي تَوَقَّر واثقل، وعُرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أَحياءً، يحفر الرجل شبه البئر أَو القبر ثم يسوق ابنته فيلقيها فيها، وإِذا كانت صغيرة جِدًّا خدَّ[٦] لها في الأَرض ودفنها، وبعضهم كان يفعل ذلك خشية الإِملاق وعدم المال، وبعضهم غيرةً وكراهيةً للبنات وجاهلية، وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ بهمزة من «وَأَدَ»، وفي حرف ابن مسعود: «وَإِذا الْمَاوُودَةُ»، وقرأَ البَزِّي: ﴿المَؤُودَةُ﴾ بهمزة

= لابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، قال: الضُّرَباءُ، كلُّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأَن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾، قال: هم الضُّرباءُ.

(١) أَخرجه البخاري في الأَدب، ومسلم في البرِّ، والترمذي في الزهد والدعوات، والدارمي في الرقاق، وأَحمد في عشرات من المواضع، ولفظه كما في مسند أَحمد (٣/ ١٠٤): عن أَنس قال: كان يعجبنا أن يجيءَ الرجل من أَهل البادية فيسأَل رسول الله ﷺ، فجاءَ أَعرابي فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ وأُقيمت الصلاة فصلى رسول الله ﷺ، فلما فرغ من صلاته قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: وما أعددتَ لها؟ قال: ما أَعددتُ لها من كثير عمل لا صلاة ولا صيام، إلا أَني أُحبُّ الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: المرءُ مع من أَحب، قال أَنس: فما رأَيتُ المسلمين فرحوا بعد الإِسلام بشيءٍ ما فرحوا به.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه أَبو داود والترمذي عن أَبي هريرة، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير: «الرجلُ على دين خليله، فلينظر أَحدكم من يخالِلْ». وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حسن.

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (الزخرف).

(٤) الذي في الأصول: ﴿زوجت﴾ بدون ضبط، وقد أَخذنا الضبط عن البحر المحيط حيث قال: «على فُوعِلَتْ، والمفاعلة تكون بين اثنين».

(٥) من آية الكرسي، ورقمها (٢٥٥) من سورة (البقرة).

(٦) خَدَّ: حَفَرَ وشَقَّ.



مضمومة على الواو مثل «المُعوذة»[١]، وقرأ بعض القراءِ: ﴿المَوُودَةُ﴾ بضم الواو الأُولى وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعمش: [الْمَوْدَةُ] بسكون الواو على وزن «الفَعْلَة»، وقرأ بعض السلف: [الْمَوَدَّةُ] بفتح الواو والدال المشدَّة، جعل البنت مَوَدَّةً. وقرأ جمهور الناس: ﴿سُئِلَتْ﴾، وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك؛ لأنها تُسأَل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعلين، ويحتمل أن تكون: مَسئُولاً عنها مطلوباً الجواب منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٢]، وكما سئل التراث والحقوق. وقرأ ابن عباس، وأُبَيُّ بن كعب، وجابر بن زيد، وأبو الضحى، ومجاهد، وجماعة كبيرة منهم ابن مسعود، والربيع بن خثيم [سَأَلَتْ]، ثم اختلف هؤلاءِ، فقرأ أكثرهم: [قُتِلَتْ] بفتح اللام وسكون التاءِ [الثانية][٣]، وقرأ أبو جعفر: [قُتِّلَتْ] بشد التاءِ على المبالغة، وقرأ ابن عباس، وجابر، وأبو الضحى، ومجاهد: [قُتِلْتُ] بسكون اللام وضم التاءِ [الثانية]، وقرأ الأعرج: [سِيلَتْ] بكسر السين وفتح اللام دون همز. واستدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالىٰ قد انتصر لهم ممن ظلمهم.

و«الصُّحف المنشورة» قيل: هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل امرىءٍ كتابه، وقيل: هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل للجزاءِ، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة: [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين المكسورة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [نُشِّرَتْ] بشدِّ الشين على المبالغة. و«الكَشْطُ»: التقشير، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ، وكَشْط السماءِ هو طيُّها كَطَيِّ السِّجل، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [قُشِطت] بالقاف، وهما بمعنى واحد.

و﴿سُعِّرَتْ﴾ معناه: أُضرمت نارها، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (سُعِّرَتْ) بشدِّ العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن

---

(١) قال في البحر المحيط: «يحتمل أن تكون كقراءة الجمهور، ثم نقل حركة الهمزة إلى الواو بعد حذف الهمزة، ثم همز الواو المنقول إليها الحركة، ويحتمل أن يكون اسم مفعول من آد...».

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (الإسراء).

(٣) ما بين العلامتين [.....] زيادة للتوضيح، وقد تكرر ذلك مرة ثانية بعد قليل.

عاصم بتخفيفها، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وقال قتادة: سعَّرها غضب الله عزَّ وجلَّ وذنوب بني آدم.

و﴿أُزْلِفَتْ﴾ معناه: قُرِّبت ليدخلها المؤمنون، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المفسرين: إِلى هذين ما انتهى الحديث، وذلك أَن الغرض المقصود بقوله تعالىٰ: (وَإِذَا، وَإِذَا) في جميع ما ذكرنا إِنما تمَّ بقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أَي: ما أَحضرت من شرٍّ فدخلت به جهنم، أَو من خير فدخلت به الجنة، و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم جنس، أَي: علمت النفوسُ، ووقع الإِفراد لينبِّه الذِّهن على حقارة المرءِ الواحد وقِلَّة دفاعه عن نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، إِما أَن تكون [لاَ] زائدة، وإِما أَن يكون ردًّا لقول قريش في تكذيبهم بنبوَّة محمد ﷺ وقولهم: إِنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، ثم أَقسم الله تعالىٰ بالخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ، فقال جمهور المفسرين: إِن ذلك الدَّراري السبعة، الشَّمسُ والقَمَرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ وَالمرِّيخُ والزُّهَرَةُ والمُشْتري. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: المراد الخمسة دون الشمس والقمر، وذلك أَن هذه الكواكب تَخْنِسُ في جريها، أَي تتقهقر فيما ترى العين، وهي جوارٍ في السماءِ، وأَثبت يعقوب الياءَ في [الجواري] في الوقف، وحذفها الباقون، وهيَ تَكْنِسُ في أَبراجها، أَي تَسْتَتِرُ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وقتادة: المرادُ النجومُ كلها، لأَنها تَخْنِسُ وتَكْنِس بالنهار حين تختفي، وقال عبد الله بن مسعود، والنَّخَعِيُّ، وجابر بن زيد، وجماعة من المفسرين: المراد «بالخُنَّس الجواري الكُنَّس» بقر الوحش لأَنها تفعل هذه الأَفعال في كناسها، وهي المواضع التي تأوي إِليها من الشجر والغِيران ونحوه، وقال ابن عباس، وابن جبير والضحاك: هي الظباءُ، وذهب هؤلاءِ في ﴿الخنس﴾ إِلى أَنه من صفة الأُنوف لأَنها يلزمها الخَنس، وكذلك هي بقر الوحش أَيضاً، ومن ذلك قول الشاعر:

سِوَى بازِ بِيضٍ أَوْ غَزالٍ صَرِيمَةٍ ... أَغَنٌّ مِن الخُنْسِ الْمَناخِرِ تَوْأَمِ[1]

و«عَسْعَسَ اللَّيْلُ» في اللغة إذا كان غير مستحكم الإظلام، فقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في وقت إقباله، وبه وقع القَسَم، وقال عليٌّ، وابن عباس، وزيد بن أَسلم، ومجاهد، وقتادة: ذلك عند إدباره وبه وقع القَسَم، ويرجح هذا قولُه تعالىٰ بَعْدُ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فكأنهما حالان متَّصلان، ويشهد لذلك قول علقمة بن قُرْطٍ:

حَتَّى إذا الصُّبْحُ لَها تَنَفَّسَا ... وَانْجابَ عَنْهَا لَيْلُها وَعَسْعَسَا[2]

وقال أَبو العباس المبرد: أَقسم تعالىٰ بإقباله وإدباره معاً، قال الْخلِيلُ: يقال: عَسْعَسَ الليل وسَعْسَع إذَا أَقبل وأَدبر.

و«تَنَفَّس الصُّبْحُ»: استطار واتَّسع ضوءُه، وقال علوان بن قيس:

وَلَيْلٍ دَجِيٍّ قَدْ تَنَفَّسَ فجْرُهُ ... لَهُمْ بَعْدَ أَن خالُوهُ لَنْ يَتَنَفَّسَا[3]

والضمير في [إِنَّهُ] للقرآن، و«الرسولُ الكريمُ» في قول جمهور الناس: جبريل عليه السلام، وقال آخرون: هو محمد عليه الصلاة والسلام في الآيات كلها، والقولُ الأَول

---

(١) البازُ: لغة في البازي، يقال: بازُ دَجْنٍ، وبازُ بيضٍ، وهو نوع من الصقور التي يُصادُ بها، والصَّرِيمة: القطعة المنقطعة من معظم الرملِ، والأَغَنُّ: الذي في صوته غُنَّةٌ، وظبيٌ أَغَنُّ: يخرج صوته من خيشومه، والخَنَس في الأنف: تأَخُّره إلى الرأْس وارتفاعه عن الشَّفة وليس بطويل ولا مُشْرف، وقيل: هو قِصَر الأَنف ولزوقه بالوجه، وأصله في الظِّباءِ والبقر، وهو موضع الاستشهاد هنا، والمناخر: جمع مِنْخر، والتَّوْأَم: المولود مع غيره في بطن من الاثنين إلى ما زاد، ذكراً أو أُنثى. ولم أقف على قائل هذا البيت.

(٢) البيتان للعجاج، وهما من شواهد أَبي عبيدة في مجاز القرآن، وهما في الطبري، والقرطبي والبحر المحيط، وابن كثير. والتَّنَفُّس: استمداد النَّفَس، وتَنَفَّس الصُّبْحُ: تَبَلَّج وامتدَّ حتى صار نهاراً بيِّناً، وانْجَابَ: انكشف وذهب، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى (عَسْعَسَ) هو: أَدْبَرَ، وقال ابن كثير في تفسيره: «وعندي أَن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾: إذا أَقبل، وإن كان يصحُّ استعماله في الإدبار أَيضاً، لكن الإقبال ها هنا أَنسب، كأنه أَقسم بالليل وظلامه إذا أَقبل وبالفجر وضيائه إذا أَشرق، كما قال تعالىٰ: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وهي وجهة نظر، واللغة تسمح بالرأيين، والله أعلم».

(٣) في بعض الروايات: (وليل رَجُوجيٍّ تَنفَّس فَجْرُهُ)، وتَنَفَّس فَجْرُهُ: طَلَع، وقيل: أَضاءَ، والمعنى واحد، وخالوه: حسبوه لطول الليلِ وشدة ظلامه. والدُّجَى: سوادُ الليل مع غَيْم، يقال: دَجَا الليلُ فهو داجٍ ودَجِيٌّ.



أَصحُّ، و﴿كَرِيمٍ﴾ في هذه الآية صفة تقتضي رَفْع المذامِّ، ثم وصفه تعالىٰ بقوة منحه الله تعالىٰ إِيَّاها.

واختلف الناس في تعلُّق قوله تعالىٰ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، فذهب بعض المتأَولين إِلى تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وذهب آخرون إِلى أَن الكلام تمَّ في قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وتعلَّق الظرف بقوله: ﴿مَكِينٍ﴾، ومعناه: له مكانة ورفعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ معناه: مقبول القول مصدَّق فيما يقوله مُؤْتَمن على ما يُرسَل به ويؤديه مِن وحي وامتثال أَمْر، وقرأَ أَبو جعفر: [ثُمَّ] بضم الثاءِ، وذكر الله تعالىٰ نفسه بالإِضافة إِلى عرشه تنبيهاً على عِظم ملكوته.

وأَجمع المفسرون على أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يُراد به محمد ﷺ، والضمير في ﴿رَءَاهُ﴾ لجبريل عليه السلام، وهذه الرؤية التي كانت بعد أَمْر غار حراءَ حين رآه على كرسي بين السماءِ والأَرض، وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإِسراءِ، وسمَّى ذلك الموضع أُفُقاً مجازاً، وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه. ووصف تعالىٰ الأُفُق بالمُبين لأَنه كان في الشرق من حيث تطلع الشمس، قاله قتادة، وأَيضاً فكلُّ أُفق فهو في غاية البيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بالضاد بمعنى: بخيل، أَي: يشِحُّ به ولا يُبلِّغ ما قيل له ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يُعطى حُلوانه(١). وبالضاد هي في خطوط المصاحف كلها فيما قال الطبري، وهي قراءة نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وعثمان بن عفان، وابن عباس، والحسن، وأَبي رجاءٍ، والأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وجماعة وافرة. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عُمر، وابن الزبير، وعائشة، وعمر بن عبد العزيز، وابن جُبَيْر، وعروة بن الزبير، ومسلم بن جندب، ومجاهد، وغيرهم: [بِظَنِين] بالظاءِ، أَي بِمُتَّهَم، وهذا في المعنى نظير وصفه بأَمِينٍ، وقيل: معناه: بضعيف القوة، من قولهم: بِئْرٌ ظَنون(٢) إِذا كانت قليلة الماءِ، ورجَّح أَبو عبيد قراءَة الظاءِ مشالة لأَن

---

(١) الحُلْوان: أُجرة الدَّلال، والرِّشوة.

(٢) جاءَ في اللسان: «بئْرٌ ظَنون، قليلة الماءِ لا يُوثق بمائها.... وفي الحديث: فنزل على ثَمَدٍ بوادي الحُدَيْبِيَة ظَنُون الماءِ».

قريشاً لم تُبخِّل محمداً ﷺ فيما يأتي به وإنَّما كذبته فقيل ما هو بِمُتَّهم.

ثم نفى تعالىٰ عن القرآن أن يكون كلام شيطان، على ما قالت قريش إن محمداً كاهن، و﴿رَّجِيمٍ﴾ معناه مُبْعدٌ مَرْجومٌ بالكواكب واللعنة وغير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ توقيف وتقرير، على معنى: أَين المذهب لأَحد عن هذه الحقائق، و«الذِّكْرُ» هنا مصدرٌ بمعنى التَّذْكِرَة. ثم خصَّص تعالىٰ من شاءَ الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتكسُّبهم أَفعال الاستقامة. ثم بيَّن تعالىٰ أَن تكسُّب المرءِ على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالىٰ واختراعه الإيمان في صدر المرءِ، ورُوي أنه نزل قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فقال أَبو جهل: هذا أَمْر قد وُكِلَ إِلَيْنَا، فإن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي الحديث: «يقول الله: يابن آدم، تريد وأُريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلاَّ ما أُريد»[1].

كمل تفسير سورة التكوير والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) لَم أَقف عليه في جميع الكتب الصحيحة التي بين يدي، وقد قرأتُ حديثاً قدسيّاً أَخرجه أَبو عيسى الترمذي في صحيحه، عن أَبي ذرٍّ، جاءَ في آخره على لسان الحق تبارك وتعالىٰ: (ذلك بأَني جوادٌ ماجد، أفعل ما أُريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أَمري إذا أَردته أن أَقول له: كن فيكون).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الانفطار

وهي مكيّة كلها بإجماع من المفسرين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾.

هذه أَوصاف يوم القيامة. و«انفطارُ السماءِ» انشقاقُها على غير نظام مقصود، إنما هو انشقاق لتزول زينتها. و«انتثارُ الكواكب» سقوطُها من مواضعها التي هي فيها كالنظام. و«تفجير البحار» يحتمل أَن يكون من امتلائها فتفجر من أَعاليها وتفيض على ما يليها، ويحتمل أَن يكون تفجير تفريغ من قيعانها فيذهب الله تعالىٰ ماءَها حيث شاءَ، وقيل: يفجر بعضها إِلى بعض فيختلط العذبُ بالمِلْح وتصير واحداً، وهذا نحو الاختلاف في ﴿سُجِّرَتْ﴾ في السورة التي قَبْل. وقرأَ مجاهد والربيع بن خثيم: ﴿فُجِرَتْ﴾ بتخفيف الجيم. و«بَعْثرة القبور» نَبشُها عن الموتى الذين فيها.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هو جوابُ [إِذَا]، و﴿نَفْسٌ﴾ هنا اسم الجنس: وإِفرادُها ليبين لذهن السامع حقارتها وقلَّتها وضعفها عن منفعة ذاتها إِلاَّ من رحم الله تعالىٰ، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: إِنها عبارةٌ عن جميع الأَعمال؛ لأَن هذا التقسيم يعم الطاعات المعلومة والمتروكة، وكذلك المعاصي. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القُرظي: معناه: ما قدمت في حياتها وما أَخرت مِمَّا سَنَّتْهُ فعمل به بعد موتها.

ثم خاطب تعالىٰ جنس ابن آدم فوقَفَه ـ على جهة التوبيخ والتنبيه ـ على أَي شيءٍ



أَوجب أَن يغتَرَّ بربِّه الكريم فيعصيه ويجعل له نِدًّا، وغير ذلك من أَنواع الكفر، وهو الخالق المُوجِد بعد العدم. ورُوي أَن النبي ﷺ قرأَ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فقال: جهله[1]، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]، وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلَّط عليه، وقال بعض العلماءِ: غرَّه ستر الله تعالىٰ عليه، وقال غيرُه: غرَّه كرم الله تعالىٰ. ولفظة «الكريم» تُلَقِّن هذا الجواب، فهذا من لطف الله عزَّ وجلَّ بعباده العصاة المؤمنين. وقرأَ ابن جبير، والأَعمش: (مَا أَغَرَّكَ) على وزن أَفْعَلَك، والمعنى: ما دعاك إِلى الاغترار؟ ويكون المعنى تعجُّباً مَحضاً. وقرأَ الجمهور: [فعدَّلك] بشدِّ الدال، وقرأَ الكوفيون، والحسن، وأَبو جعفر، وطلحة، والأَعمش، وأَبو رجاءِ، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، والمعنى: عدل أَعضاءَك بعضها ببعض، أَي وازَنَ بينها.

قوله تعالىٰ: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، ذهب الجمهور إِلى أَن [في] متعلقة بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾، أَي: في صورة قبيحة أَو حَسَنة أَو مشوَّهة أَو سليمة أَو نحو ذلك، وذهب بعض المتأولين إِلى أَن المعنى: فعدلك في أَيِّ صورة، بمعنى: إِلى أَيِّ صورة، حتى قال بعضهم: المعنى: لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار، وذهب بعض المتأولين إِلى أَن المعنى الوعيد والتهديد، أَي: الذي إِن شاءَ ركبك في صورة حمار أَو خنزير أَو غيره، و[ما] في قوله تعالىٰ: ﴿مَا شَآءَ﴾ زائدة، فيها معنى التأكيد والتركيب والتأليف وجمع شيءٍ إِلى شيءٍ، وروى خارجةُ عن نافع: (رَكَّبَك كَّلاَّ) بإِدغام الكاف في الكاف.

ثم ردَّ تعالىٰ على سائر أَقوالهم ورَدَعَ عنها بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا﴾، ثم أَثبت تعالىٰ لهم تكذيبهم بالدِّين، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار، وقرأَ جمهور الناس: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأَ الحسن وأَبو جعفر: [يُكَذِّبونَ] بالياءِ، و«الدِّينُ» هنا يحتمل أَن يريد به الشرع، ويحتمل أَن يريد الجزاءَ والحساب.

و«الْحَافِظُونَ» هم الملائكة الذين يكتبون أَعمال ابن آدم، ووصفهم تعالىٰ بالكرم الذي هو نفي الْمَذَامِّ، و(يَعْلَمُونَ ما يَفْعَلُونَ) لمشاهدتهم حال بني آدم، وقد روي

(١) أَخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار، قال: بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية... الحديث.

(٢) أَخرجه سعيد بن منصور، وابن أَبي حاتم، وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والآية الكريمة من سورة (الأحزاب) ورقمها (٧٢).



حديث ذكره سفيان يقتضي أن العبد إذا عمل سيِّئةً مما لا يُرى ولا يُسمع مثل الخواطر المستَصْحبة ونحوها أن الملَك يجد ريح تلك الخطيئة بإدراك قد خلقه الله تعالىٰ لهم[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

«الأَبْرَارُ» جمع بَرٍّ، وهو الذي قد اطَّردَ بِرُّه عموماً، فَبَرَّ ربَّه في طاعته إياه، وبَرَّ أَبويه، وبَرَّ الناسَ في رفْع ضره عنهم، وجلب ما استطاع من الخير لهم، وبَرَّ الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد منها شيئاً عبثاً وبغير منفعة مباحة، و«الفُجَّارُ» الكُفَّارُ، و[يَصْلَوْنَهَا] معناه: يباشرون حرَّها بأبدانهم، و«يَوْمُ الدِّين» هو يوم الجزاءِ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، قال بعض المتأولين: هذا تأكيد في الإخبار عن أنهم يَصْلَونها، وأنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: المعنى: وما هم عنها بغائبين في البرزخ، كأنه تعالىٰ لمَّا أَخبر عن صَلْيهم إِيَّاها يوم الدِّين أَخبر بعد ذلك عن المدة التي قَبْل يوم الدِّين، وذلك أَنهم يرون مقاعدهم من النار غُدوة وعَشِيَّة، فهم مشاهدون لها. ثم عظَّم تعالىٰ قَدْر هوْل يوم الدِّين بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ﴾.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن أَبي إِسحاق، وعيسى، وابن جندب [يَوْمُ] برفع الميم على معنى: هو، يومُ وقرأَ الباقون، والحسن، وأَبو جعفر وشيبة، والأَعرج: [يَوْمَ] بالنصب على الظرف، والمعنى: الجزاءُ يومَ، فهو ظرف في معنى خبر الابتداءِ.

ثم أَخبر تعالىٰ بضَعْف الناس يومئذ، وأَنه لا يغني بعضهم عن بعض، وأَن الأَمر له تبارك وتعالىٰ، قال قتادة: كذلك هو اليوم، والله تعالىٰ هنالك لا يُنازعه أَحد، ولا يُمَكِّن أَحداً من شيءٍ كما مكَّنه في الدنيا.

كمل تفسير سورة الانفطار والحمد لله رب العالمين

---

(١) الذي ذكره القرطبي هنا أن سفيان هو القائل، قال: «وسُئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همَّ بحسنة أو سيِّئة؟ قال: إذا همَّ العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا همَّ بسيئة وجدوا منه ريح النَّتَن».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المطففين

وهي مكيّة في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا بذكر الأَساطير، وهذا على أَن تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسب ما هو في كل أُمَّة، لا سِيَّما مع كفرهم، وقال ابن عباس، والسدي، والنقاش، وغيرهم: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يُكنى أَبا جهنية، له مكيالان، يأْخذ بالأَوفى ويُعطي بالأَنقص، فنزلت السورة، ويقال: إِنها أَول سورة أُنزلت بالمدينة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ـ فيما روي عنه ـ: نزل بعضها بمكة، ونزل أَمر التطفيف بالمدينة؛ لأَنهم كانوا أَشدَّ الناس فساداً في هذا المعنى، فأَصلحهم الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَمر الكيل والوزن وكيدٌ جداً، وتصرُّفه في المدن ضروري في الأَموال التي هي حرامٌ بغير حق، والإِفسادُ فيه كبيرةٌ لا يَنفع فيها دافِعٌ إِلاَّ التوبة، ولا يُخَلِّص إِلاَّ ردُّ المَظْلَمة إِلى صاحبها. قال مالك بن دينار: احتضر جارٌ لي، فجعل يقول: جبلان من نار، فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: يا أَبا يحيى، كان لي مكيالان، آخُذُ بالوافي وأُعطي بالناقص، وقال عِكرمة: أَشهد على كلِّ كيَّالٍ أَوْ وزَّان أَنه في النار، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المُرُوءَةَ ممن مُرُوءَتُه في رؤوس المكاييل وأَلْسنة الموازين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيۡلٌ﴾ معناه: الثُّبور والحزن والشقاءُ الأَدْوم، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أَنَّ وادياً في جهنم يسمَّى وَيْلاً، ورفع [وَيْلٌ] على الابتداءِ، ورفعه على معنى: ثبت لهم واستقر، وما كان في حيِّز الدعاءِ والتَّرقب فهو منصوب نحو قولهم:

رعْياً وسَقْياً. و«الْمُطَفِّفُ»: الذي ينقص الناسَ حقوقهم، والتطفيف: النُّقصان، أَصله من الشيءِ الطفيف وهو النَّزر، والمُطَفِّف إِنما يأخذ بالميزان شيئاً طفيفاً. وقال سلمان: الصلاة مكيالٌ، فمن أَوفى أُوفي له، ومن طفَّف فقد علمتم ما قال الله تعالىٰ في المطففين، وقال بعض العلماءِ: يدخل التَّطفيف في كل عمل وقول، ومنه قول عمر رضي الله عنه: طفَّفت معناه: نقصت الأَجر أَو العمل، ولذلك قال مالك رحمه الله: يقال لكل شيءٍ وفاءٌ وتطفيف، فجاءَ بالنَّقيضين. وقد ذهب بعض الناس إِلى أَن التَّطفيف هو تجاوز الحدِّ في وفاءٍ أَو نُقصانٍ، والمعنى والقرائن بحسب قولٍ قولٍ تبيِّنُ المراد، وهذا عندي حدٌّ صحيح، وقد بيَّن الله تعالىٰ أَن التَّطفيف ها هنا إِنما أَراد به أَمر الوزن والكيل.

و﴿ ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1] معناه: قبضوا منهم، و﴿ كَالُوهُمۡ ﴾ معناه: أَقبضوهم، يقال: كِلْتُ منك واكْتَلْتُ عليك، ويقال: كِلْتُكَ وكِلْتُ لك، فلما حذفت اللام تعدَّى الفعل، قاله الفراءُ والأَخفش وأَنشد أَبو زيد:

وَلَقَــدْ جَنَيْتُــكَ أَكْمُــؤاً وَعَسَــاقِــلاً ... وَلَقَــدْ نَهَيْتُــكَ عَــنْ بَنَــاتِ الأَوْبَــرِ[2]

وعلى هذا المعنى هي قراءَة الجمهور، وكان عيسى بن عُمر يَجْعلها حرفين[3]، ويقف على [كالُوا] [أَوْ وَزَنُوا] ويبتدىءُ ﴿هم يخسرون﴾، أَي: إِذا كالوا أَوْ وزنوا،

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن): «﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ ﴾، الهاءُ في موضع نصب، تقول: قد كِلْتُك طعاماً كثيراً، وكِلْتَني مثلَه، تريد: كِلْتَ لي، وكِلْتُ لك، وسُمِعَتْ أَعرابية تقول: إذا صدر الناس أَتينا التاجر، فيكيلُنا المُدَّ والمُدَّيْن إلى الموسم المقبل، فهذا شاهد، وهو من كلام أَهل الحجاز ومَن جاورهم من قيس».

(٢) هذا البيت مجهول القائل، وهو في اللسان، وابن عقيل، والمغني لابن هشام، وهو من شواهد النحويين، وكذلك استشهد به من المفسرين الزمخشري في الكشاف، والأَكْمُؤُ: جمع كَمْءٍ، وهو فُطْر من الفصيلة الكَمْئيَّة، وهي أَرضية تنتفخ حاملات أَبواغها فتُجنى وتُؤكل مطبوخة، وهي مختلفة الأحجام والأنواع، والعَسَاقِلُ: نوع من الكَمْأَة أَبيضُ اللون، والمفرد عُسْقُول، وهو جزءٌ من جذر يكون في الأرض مكْتَنزاً مُنْتَفِخاً محتوياً على مواد غذائية كالبطاطس «وابن أَوْبَر» أَيضاً عَلَم على نوع رديء من الكمأة، ثم جُمع على «بَنات أَوْبَر» كما يقال في جمع بن عُرْس: «بناتُ عُرس» ولا يقال: «بنُو عُرْس» لأنه لما لا يعقل. والبيت شاهد على أنه يجوز حذف اللام ويتعدى الفعل بنفسه، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾، أي قدَّرنا لَهُ، ويقال: وهبتُك ديناراً وصدتك ظبياً، أي: وهبتُ لك، وصدتُ لك.

(٣) أي كلمتين.



ورويت عن حمزة(١)، فقوله تعالىٰ: [هُمْ] تأكيد للضمير. وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع، وليس ذلك بالجليِّ، وصدر الآية هو في المشترين، قدَّمهم بأنهم يستوفون ويشاحُّون في ذلك، إذ لا تمكنهم الزيادة على الاستيفاءِ لأن البائع يحفظ نفسه، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة والمندوب إليه، ثم ذكر تعالىٰ أنهم إذا باعوا أمكنهم من الظلم والتطفيف أن يُخسِروا لأنهم يتولون الكيل للمشتري منهم، وكذلك هم بحالة من يُخسِر البائع إن قدر. و[يُخْسِرُونَ] تعدَّى بالهمزة، يقال: خَسِر الرجلُ وأَخْسَرَ غيره، والمفعول بـ[كَالُوا] محذوف.

ثم وقفهم تعالىٰ على أَمر القيامة وذَكَّرهم بها، وهذا يؤيد أَنها نزلت بالمدينة في قوم مؤمنين، وأُريد بها ـ مع ذلك ـ من غير هذه الأُمة. و[يَظُنُّ] هنا بمعنى يتحقق ويعلم. و«اليومُ العظيمُ» يومُ القيامة، و[يَوْمَ] ظرف عمل فيه فعلٌ مقدَّر، «تُبعثون» ونحوه، وقال الفراءُ: هو بدل من «يومٍ عظِيم» لكنه مبني، ويأبى ذلك البصريون لأَنه مضاف إلى مُعْرب.

و«قيامُ الناسِ فيه لربِّ العالمين» يختلف الناسُ فيه بحسب منازلهم، فروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أَنه يقام فيه خمسين أَلف سنة(٢)، وهذا بتقدير شدته، وقيل: ثلاثمائة سنة، قاله النبي عليه الصلاة والسلام(٣)، وقال ابن عُمر: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقال ابن مسعود: أَربعون سنة رافعي رؤوسهم إلى السماءِ لا يُؤمرون ولا يكلَّمون، وقيل غير هذا، وفي هذا كله آثارٌ مروية، ومعناها أَن كُلَّ مُدَّةٍ

(١) والذي روى ذلك هو أَبو عُبَيْدٍ، ولكنه قال: والاختيارُ أن يكونا كلمة واحدةً من جهتين: إحداهما: الخَطُّ، وذلك أَنهم كتبوهما بغير أَلف، ولو كانتا مقطوعتين لكتبتا: (كالوا) و(وزَنُوا) بالألف في الآخر، والأخرى أنه يقال: كِلْتُك ووزَنْتُك بمعنى: كِلْتُ لَكَ ووزنتُ لك.

(٢) أَخرجه الطبراني، وأَبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن ابن عمر ـ هكذا في الدرِّ المنثور، وليس ابن عمرو كما في الأصول هنا ـ ولفظه كما ذكره في الدر المنثور: قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: كيف بكم إذا جمعكم الله كما يُجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظرُ إليكم؟

(٣) أَخرج ابن مردويه عن أَبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لبشير الغفاريِّ: كيف أَنتَ صانعٌ في يوم يقوم الناس لربِّ العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا، لا يأتيهم خبر من السماء، ولا يُؤْمَر فيهم بأمر؟ قال بشير: المستعانُ بالله يا رسول الله، قال: إذا أَويتَ إلى فراشك فتعوَّذ بالله من شرِّ يوم القيامة ومن شرِّ الحساب.



لقوم ما تقتضي حالهم وشدَّة أَمرهم ذلك، ورُوي أَن القيام فيه على المؤمن هو على ما بين الظهر إلى العصر، ورُوي أنه على بعض الناس على قدر صلاة مكتوبة، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس، وهو أَيضاً مُخْتَلِفٌ، فيروى عن النبي ﷺ من طريق عقبة بن عامر أنه يُلجم الكافر إلجاماً[1]، ويروى أَن بعض الناس يكون فيه إلى أَنصاف ساقيه، وبعضهم إلى فوق، وبعضهم إلى أَسفل[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها يظهر أَنها من نمط المكيِّ، وهو أَحد الأَقوال التي ذكرناها قَبْل. و﴿كَلَّآ﴾ يجوز أَن تكون ردًّا لأَقوال قريش، ويحتمل أَن تكون استفتاحاً بمنزلة «أَلاَ»، وهذا قول أَبي حاتم واختياره، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: الكفار، و«كِتَابُهُم» يراد به الذي فيه تحصيل أَمرهم وأَفعالهم، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى: وعدادُهم وكتاب كونهم هو في سِجِّين، أَي: هنالك كُتبوا في الأَزل. وقرأَ أَبو عمرو، والأَعرج وعيسى: [الفُجَّارِ] بالإمالة، و«الأَبْرار» بالفتح، قاله أَبو حاتم.

واختلف الناس في [سِجِّينٍ] ما هو؟ فقال الجمهور: هو فِعِّيل من السَّجن، كسكِّير وشرِّيب، أَيْ في موقع ساجِنٍ وساكر وشارب، فجاءَ «سِجِّين» بناءَ مبالغة، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأَرض السابعة، وقال كعبٌ حاكياً عن التوراة، وأُبَيُّ بن كعب: هو في شجرة سوداءَ هنالك، وقيل ـ عن النبي عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) أَخرج مالك، وهناد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أَحدهم في رشحه إلى أَنصاف أُذنيه.

(٢) أَخرجه مسلم في الجنة، والترمذي في القيامة، وأَحمد في مسنده (٥/ ٢٥٤، ٦/ ٤)، ولفظه كما جاء فيه: عن أَبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويُزاد في حرها كذا وكذا، يغلي منها الهوام كما تغلي القُدُورُ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم. منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق.



في بئر هنالك[1]، وقيل تحت خَدِّ[2] إبليس، وقال عطاءٌ الخراساني: هي الأرض السفلى، وقاله البَرَاءُ عن النبي ﷺ، وقال عكرمة: «سِجِّين» عبارة عن الخسار والهوان، كما تقول: بلغ فلان الحضيض، إذا صار في غاية الخمول، وقال قوم من اللغويين: «سِجِّين» نُونُه بدلٌ من لامٍ، وهو من السِّجيل. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجيب منه، ويحتمل أن يكون تقريرَ استفهام، أي: هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي.

قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، مَنْ قال بالقول الأول في [سِجِّين] فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر [إنَّ]، والظَّرف الذي هو ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ملغى، ومَنْ قال في [سِجِّينٍ] بالقول الثاني فـ [كِتابٌ] مرتفع عنده على خبر ابتداءٍ مضمر، والتقدير، هو كتاب مرقوم، ويكون هذا الكلام مُفَسِّراً لـ [سِجِّينٍ]، ما هو. و[مَرْقومٌ] معناه: مكتوبٌ رُقم لهم بِشَرٍّ، ثم أَثبت تعالىٰ للمكذبين بيوم الحساب والدينِ الويلَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، وذلك أَنه يتضمَّن أَنه يُرفع ليوم عَرْض وجزاءٍ، وبهذا يتم الوعيد ويتَّجه معناه، و«الْمُتَعَدِّي»: الذي يتجاوز حدود الأشياءِ، و[أَثِيم] مبالغة في «آثِم». وقرأَ الجمهور: [تُتْلَى] بالتاءِ، وقرأَ أَبو حيوة: [يُتْلَى] بالياءِ من تحت. و«الأَساطِيرُ» جمع أُسطورة وهي الحكايات التي سطِّرت قديماً، وقيل: هو جمع أَسطارٍ، وأَسطارٌ جمع سَطْر، ويروى أَن هذه الآية نزلت بمكَّة في النضر بن الحارث بن كِلْدة، وهو الذي كان يقول: أَساطير الأَولين، وكان هو قد كتب بالحِيرَة أَحاديث رُستم واسفنديار، وكان يُحدِّث بها بمكة ويقول: أَنا أَحسن حديثاً من محمد، فإنما يحدثكم بأساطير الأَولين.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ﴾ زجْرٌ وردٌّ لقولهم «أَساطير الأَولين»، ثم أَوجب تعالىٰ أَن ما كَسَبُوا من الكفر والطغيان والعتو قَدْ ران على قلوبهم، أَي غطَّى عليها وغَلَب، فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً، ولا يخلُص إلى قلوبهم خير، يقال: رانت الخمر على عقل

---

(١) أخرجه بن جرير في تفسيره عن أَبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «الفَلَقُ جُبٌّ في جهنم مُغَطىً، وأَمّا سِجِّينٌ فمفتوحٌ». قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الخبر: «وهو حديث غريب مُنْكرٌ لا يصحُّ، والصحيح أَن سِجِّيناً مأخوذ من السجن وهو الضِّيق»، ثم ذكر ما يراه دليلاً على ذلك.

(٢) في بعض الأصول: «حَدِّ إبليس» بالحاءِ دون نقط، وهو يوافق ما في الطبري، وفي بعضها: «خَد» بالخاءِ المنقوطة، وهو يوافق ما في القرطبي والدر المنثور وفتح القدير.



شاربها، وران الغَشْيُ على قلب المريض، وكذلك الموتُ، ومنه قول الشاعر:

ثُـــمَّ لمَّـــا رآهُ رانـــتْ بِـــهِ الخَمْـــرُ وأَلاَّ تـــرينَـــهُ بـــاتِّقـــاءِ[1]

والبيت لأبي زُبَيْد، قال الحسن، وقتادة: الرَّيْن: الذَّنب على الذَّنب حتى يموت القلب، ويُروى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرجل إذا أذنب صارت نُكْتة سوداءُ في قلبه، ثم كذلك حتى يتغطى، فذلك الران الذي قال الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[2]. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام اللام في الراءِ، وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة، وقال أبو حاتم: القراءَةُ بالفتح والإدغام، وعلَّق تعالىٰ اللوم بهم فيما كسبوه ـ وإن كان ذلك بخلْقٍ منه سبحانه واختراع ـ لأن الثواب والعقاب متعلِّق بكسب العبد، و﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ يصلح فيها الوجهان اللذان تقدم ذكرهما، والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿رَّبِّهِمْ﴾ هو للكفَّار، فَمَنْ قال بالرؤية ـ وهم أهل السُّنة ـ قال: إنَّ هؤلاءِ لا يرون ربهم، فهم محجوبون عنه، واحتجَّ بهذه الآية مالكُ بن أنس عن مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب، وإلاَّ فلو حَجَب الرؤيةَ عن الكلِّ لما أغنى هذا التخصيص، وقال الشافعي: فلمَّا حجبَ قوماً بالسخط دلَّ أن قوماً يرونه بالرضى. ومَنْ قال بألاَّ رؤية ـ وهو قول المعتزلة ـ قال في هذه الآية: إنهم محجوبون عن رحمة ربهم وغُفرانه. و«صَلْيُ الْجَحِيمِ» هو مباشرة حرِّ النار دون حائل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم والتقريع، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مفعول لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنه قول بُني له الفعل الذي هو [يُقالُ][3]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى تعذيبهم وكونهم في الجحيم.

---

(١) البيت في اللسان (ران) منسوباً لأبي زُبَيْد، وقد استشهد به أبو عُبيدة في (مجاز القرآن)، وهو في وصف سكران غلبت عليه الخمر، يقال: رانَتْ به الخمر، أي غلبت على قلبه وعقله، وكلُّ ما غلبك وعلاكَ فقد ران بك وران عليك.

(٢) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والحاكم، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن حبان، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يناقش أبو حيان الأندلسي هذا الكلام مناقشة طويلة عند تفسير قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما ذكر تعالىٰ أَمر كتاب الفجار عقَّب ذلك بذكْر كتاب ضدهم ليبين الفرق، و«الأَبْرارُ» جمع بَرٍّ، وقرأَ ابن عامر بكسر الراءِ، وقرأَ ابن كثير، ونافع بفتحها، وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، والكسائي بإمالتها. و﴿عِلِّيُّونَ﴾ هو جمع عِلِّيي، عَلَى وزن فِعِّيل بناءَ مبالغة، يريد بذلك الملائكة فلذلك أُعرب بالواو والنون، وقيل: يريد المواضع العَلِيَّةَ لأَنَّهُ عُلُوٌّ فوق عُلُوٍّ، فَلمَّا كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أَشبه «عشرين» فأُعرب إِعراب الجموع إِذْ أَشبهها، وهو أَيضاً مثل «قِنَّسْرين»، فإِنك تقول: طابت قِنَّسْرونَ ودخلت قِنَّسْرينَ[(١)].

واختلف الناس في الموضع المعروف بِعِلِّيِّينَ، ما هو؟ فقال قتادة: قائمة العرش اليُمْنى، وقال ابن عباس: السماءُ السابعة تحت العرش، وروي ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقال الضحاك: هو عند سِدْرة المنتهى، وقال ابن عباس: العِلِّيُّونَ: الجنة، وقال مكي: وقيل هو في السماءِ الرابعة، وقال الفراءُ عن بعض العلماءِ: هو في السماءِ الدنيا، والمعنى أَن كتابهم الذي فيه أَعمالهم هنالك تَهَمُّماً بها وترفيعاً لها، وأَعمال الفجار في سِجِّين في أَسفل سافلين؛ لأَنه روي عن أُبَيٍّ بن كعب، وابن عباس أَن أَعمالهم يُصعد بها إِلى السماءِ فتأْباهَا، ثم تُردُّ إِلى الأَرض فتأْباها أَرْضٌ بعد أَرض حتى تنتهي في سِجِّين تحت الأَرض السابعة. و﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ في هذه الآية خبر [إِنَّ] والظَّرْف مُلْغَى[(٢)]. و«الْمُقَرَّبون» في هذا الموضع الملائكة المُقَرَّبون عند الله تعالىٰ،

---

(١) بكسر القاف وفتح النون المشددة ثم سين بدون نقط، وقد تكسر النون مع التشديد، وهي مدينة بالشام تمَّ فتحها على يد أَبي عبيدة بن الجراح سنة ١٧ للهجرة، وكانت شيئاً واحداً مع حمص. (راجع معجم البلدان للحموي (٥/ ٤٠٢ وما بعدها).

(٢) ذكر أَبو حيان الأندلسي هذا الإعراب عن ابن عطية، ثم اعترض عليه بقوله: «وقول ابن عطية (والظرف الذي هو ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ مُلْغَى» قولٌ لا يصحُّ، لأَن اللام التي في ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ داخلة على الخبر، =

أَهل كل سماءٍ، قاله ابن عباس وغيره.

و﴿الأرائِكُ﴾ جمع أَريكة، وهي السُّرُر في الحجال، و﴿يَنْظرونَ﴾ معناه: إِلى ما عندهم من النعيم، ويحتمل أَن يريد: بعضُهم إِلى بعض، وقيل ـ عن النبي ﷺ ـ: ينظرون إِلى أَعدائهم في النار كيف يُعذبون(١).

وقرأَ جمهور الناس: ﴿تَعْرِفُ﴾ على مخاطبة محمد ﷺ، بفتح التاءِ وكسر الراءِ ﴿نَضْرَةَ﴾ نصباً، وقرأَ أَبو جعفر، وابن أَبي إِسحاق، وطلحة، ويعقوب: [تُعْرَفُ] بضم التاءِ وفتح الراءِ [نَضْرَةُ] رفعاً، وقرأَ قوم: [يُعْرَفُ] بالياءِ لأَن تأْنيث ﴿النَّضْرة﴾ ليس بحقيقي، و﴿النَّضْرَةُ﴾: النعمة والرونق، و﴿الرَّحيقُ﴾: الخمرُ الصافية، ومنه قول حسان:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ(٢)

و﴿مختوم﴾ يحتمل أَن يُختم على كؤوسه التي يشرب بها تَهمُّماً وتَنَظُّفاً، والأَظهر أَنه مختوم شُرْبُه بالرائحة المسكيَّة حسب ما فسَّره قوله تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾.

واختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ ـ فقال ابن مسعود وعلقمة: معناه: خِلْطُه وَمِزَاجه، وقال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير: معناه: خاتمته، أَي تجد الرائحة عند خاتمة الشرب رائحة المسك، وقال أَبو علي: المراد لذاذة المقطع

= وإذا كانت داخلةً على الخبر فلا إلغاءَ في الجار والمجرور، بل هو الخبر، ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ على فضلة هي معمولةٌ للخبر أَوْ لِصِفَةِ الخبر فيكون الجار والمجرور مُلْغىً لا خبراً، لأن ﴿كِتَٰبٞ ۝٣٨﴾ موصوف بـ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ فلا يعمل، ولأن «مرقوماً» الذي هو صفة لـ ﴿كِتَٰبٞ ۝٣٨﴾ لا يجوز أَن تدخل اللام في معموله، ولا يجوز أَن يتقدم معموله على الموصوف، فيتعين بهذا أَنَّ قوله سبحانه: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هو خبر (إنَّ). ا. هـ بتصرف، وهذا الكلام في رأي أَبي حيان يَنْطبق ايضاً على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ الآيات. راجع البحر المحيط (٨/ ٤٤٠).

(١) ذكر ذلك المهدوي، ونقله عنه القرطبي في تفسيره دون أن يذكر «كيف يُعذَّبون».

(٢) سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من موضع في هذا التفسير، وقد قاله حسان بن ثابت في قصيدة يمدح بها أولاد جفنه ملوك الشام، وهو في الديوان، واللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط في أكثر من موضع، ويُصَفَّقُ: يخلط ويُمزج، أَو يُحول من إناءٍ إلى آخر لِيَصْفُو، والبريص: نهرٌ بدمشق، وكذلك بَرَدَى. والسَّلْسل: السهل السائغ في حلوقهم.



وذكاءُ الرائحة مع طيبِ المطعم، وكذلك هو قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿زَنجَبِيلًا﴾(٢)، أي تجد في اللسان، وقد قال ابن مقبل:

مِمَّا يُعَتَّقُ في الحانوت باطِنُها ... بِالفُلْفُلِ الجَوْنِ والرُّمانِ مَخْتومُ(٣)

وقال مجاهد: معناه: طِينُه الذي يُختم به مسكٌ بدل الطين الذي في الدنيا، وهذا إنما يكون في الكؤوس، لأن خمر الآخرة ليست في دنانٍ، إنما هي في أنهار. وقرأ الجمهور: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، وقرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والكسائي، والضحاك، والنَّخَعي: [خاتَمُهُ]، وهذه بيِّنةٌ، المعنى: أنه يراد بها الطبع على الرحيق، وروي عنهم أيضاً كسر التاءِ.

ثم حرَّض تعالىٰ على الجنة بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾، والتَّنافُس في الشيءِ المُغَالاةُ فيه، وأن يتبعه كل واحد نفسه، فكأن نفسيهما تتباريان فيه، وقيل: هو من قولك: شيءٌ نفيسٌ، فكأن هذا يعظِّمه، ويعظِّمه الآخر، ويستبقان إليه.

و«المِزاجُ»: الخلْطُ، والضمير عائد على «الرحيق»، واختلف الناس في ﴿تَسْنِيمٍ﴾ - فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: التَّسْنيمُ أشرف تراب في الجنة، وهو اسم مذكَّر لماءِ عيْن في الجنة، وهي عين يشربها المقربون صرفاً، ويمزج رحيق الأبرار بها، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو صالح، وغيرهم. وقال مجاهد ما معناه: إن «تَسْنِيماً» مصدر من «سنَّمت» إذا علوت، ومنه السنام، فكأنها عيْن قد عَلَت على أهل الجنة فهي تنحدر، وقاله مقاتل بن سليمان، وذهب قوم إلى أن الأبرار والمقربين في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكلٍّ من نعم في الجنة، وذهب الجمهور من المتأولين إلى أن منزلة الأبرار دون منزلة المقربين، وأن الأبرار هم أصحاب اليمين، وأن المقرَّبين هم السابقون.

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الإنسان).

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (١٧) من سورة (الإنسان): ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

(٣) الحانوت: بيت الخَمَّار، وهو مكان تُعاقر فيه الخمرُ وتُباع، وهو يذكَّر ويؤنث. وتَعْتِيقُ الخمر: حفظُها لمدة طويلة حتى تصبح قديمة، والفُلفل ـ بالضَّم وبالكسر في الفاءِ الأولى ـ: حبٌّ هندي، شجره مثل شجر الرمان، يُجنى وهو أخضر، ثم يُشرُّ في الظل فيسودُّ وينكمش، والجَوْن: الأسود المشرب بالحمرة، وقيل: النبات الذي يضرب إلى السواد من شدة خضرته. ومختوم معناه: يجد من يشربها في فمه حدَّة الفلفل وطعم الرمان.



و﴿عَيۡنٗا﴾ منصوب إمَّا على المدح، وإما أن يعمل فيه ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ على رأي من رآه مصدراً، وينتصب على الحال من ﴿تَسۡنِيمٍ﴾، أو ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾، قاله الأخفش، وفيه بُعْدٌ، وقوله تعالىٰ: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ معناه: يشربها، كقول الشاعر:

شَرِبْنَ بماءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ[1]

ثم ذكر تعالىٰ أن الذين أجرموا بالكفر ـ أي اكتسبوه ـ كانوا في دنياهم يضحكون من المؤمنين، ويَسْتَخِفُّون بهم، ويتخذونهم هزوءًا. ويروى أن هذه القصة نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين، وروي أنها نزلت بسبب أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة معه من المؤمنين مرُّوا بجمع من الكفار في مكة، فضحكوا منهم، واستَخَفُّوا بهم عبثاً ونُقصان عقل، فنزلت الآية في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾.

الضمير في ﴿مَرُّواْ﴾ للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار، وأما الضمير في ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك، وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾. و﴿فَكِهِينَ﴾ معناه: أصحاب فاكهة ومرح ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين، يقال: رجل فاكِهٌ كلَابِنٍ وتامِرٍ[2]، وهكذا بألِفٍ هي قراءة الجمهور، ويقال: رجل فَكِهٌ، من هذا المعنى، وقرأ حفصٌ عن عاصم: (فَكِهِينَ) بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي رجاءٍ، والحسن، وعكرمة.

---

(١) هذا البيت لأبي ذؤيب الهذليّ، ويُروى: (تَرَوَّت بماءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَنَصَّبَتْ، على حَبَشِيَّات. . .) والكلام عن السحاب، فهو يعني أن السحاب شربن من ماء البَحْر، و«مَتَى» معناها «من» في لغة هذيل، فهو يعني: مِنْ لُجَجٍ خُضْرٍ أخرجت الماءَ من البحر، وقوله: (ثُمَّ تَرَفَّعَتْ) معناه: ثم ارتفعت، وهو أيضاً معنى (تَنَصَّبَتْ) في الرواية الثانية، ومعنى (لَهُن نَئِيجُ): لَهُنَّ مَرٌّ سريع، يقال: نَأَجَتِ الريح، إذا أسرعت ولها صوتٌ، فمعنى البيت أن السحاب شرب من ماءِ البحر ثم ارتفع من لُجَج خضر أخرجت هذا الماءَ من البحر بوساطة ريح تمرُّ بسرعة شديدة.

(٢) اللاَّبن: صاحب اللبن، والتَّامِر صاحب التَّمْر، وكلٌّ منهما يتمتع ويتنعم بحاجته.



وأَما الضمير في «رَأَوا» وفي «قالوا» فقال الطبري وغيره: هو للكفار، والمعنى أَنهم يرمون المؤمنين بالضلال، والكفار لم يُرسلوا على المؤمنين حَفَظَة لهم، وقال قومٌ: بل المعنى بالعكس، وإِنما معنى الأية: وإِذا رأَى المؤمنون الكفار قالوا: إِنهم ضالون، وهو الحق فيهم، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم، فكأن في الآية حضاً على الموادعة، أَي إِنَّ المؤمنين لم يُرسلوا حافظين على الكفار، وهذا كله منسوخ ـ على هذا التأويل ـ بآية السيف.

ولما كانت الآية المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة وأَن الويل يومئذ للمكذبين، ساغ أَن يقول: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ رُفع على الابتداءِ، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ معناه: إِلى أَعدائهم في النار، قال كعب: لأَهل الجنة كُوىً ينظرون منها، وقال غيره: بينهم جسم عظيم شفاف يرون منه حالهم[1].

و﴿هَلۡ ثُوِّبَ﴾ تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأُمَّته، ويحتمل أَن يريد: «يَنْظُرون هَلْ ثُوِّبَ»، فالنظر واقع على ﴿هَلۡ ثُوِّبَ﴾، والمعنى: هل جُوزي، ويحتمل أَن يكون المعنى: يقول بعضهم لبعض. وقرأَ ابن محيصن، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [هَثُّوِّبَ] بإِدغام اللام في الثاءِ لتقاربهما في المخرج، وقرأَ الباقون: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ﴾ لا يُدغمون، وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُواْ﴾ حذف تقديره: جزاءَ ما كانوا، أَو عذاب ما كانوا يفعلون.

كمل تفسير سورة المطفِّفين والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال الله تعالىٰ في آية أُخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

هذه أَوصاف يوم القيامة، و«انشقاق السماءِ» هو تفطرها لهول يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[(١)]، وقال الفراءُ، والزجاج، وغيرهما: هو تشققها بالغمام، وقال قومٌ: تَشَقُّقها هو تفتُّحها أَبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة. وقرأَ أَبو عمرو: [انْشَقَّت]، يقف على التاءِ كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجرِّ، وكذلك في أَخواتها. قال أَبو حاتم: وسمعتُ أَعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التّاءاتِ، وهي لغة.

و﴿أَذِنَتْ﴾ معناه: استمعت وسمعت أَمره ونهيه، ومنه قول النبي ﷺ: «ما أَذن الله لشيءٍ إِذْنَه لنبيٍّ يتغنى بالقرآن»[(٢)]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) من الآية (١٦) من سورة (الحاقة).

(٢) أَخرجه البخاري في التوحيد، وفي فضائل القرآن، ومسلم في المسافرين، وأَبو داود في الوتر، والترمذي في ثواب القرآن، والنسائي في الافتتاح، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن، وأَحمد في مسنده (٢/ ٢٧١، ٢٨٥، ٤٥٠)، ولفظه كما في البخاري عن أَبي هريرة، سمع النبيَّ ﷺ يقول: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»، ولفظه كما في مسند أَحمد «ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أُذن لنبي أن يتغنى بالقرآن». ومعنى (أَذِنَ): استمع وقبل.



صُـمٌّ إذا سَمِعـوا خَيْـراً ذكـرتُ بِـهِ وَإذَا ذُكِـرْتُ بِسـوءٍ عِنْـدَهُـمْ أَذِنـوا[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُقَّتۡ﴾، قال ابن عباس، وابن جبير: معناه: وحُقَّ لها أَن تسمع وتطيع، ويحتمل أَن يريد: وحُقَّ لها أَن تَشَّقق لشدة الهول وخوف الله تعالىٰ.

و«مَدُّ الأَرض» هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عِوَج ولا أَمْت، فذلك مَدُّها، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ يَمُدُّ الأَرض يوم القيامة مدَّ الأَديم العُكاظي»[٢].

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾، يريد: من الموتى، قاله الجمهور، وقال الزجاج: من الكنوز، وهذا ضعيف لأَن ذلك يكون وقت خروج الدجال، وإنما تُلقي يوم القيامة الموتى. و﴿تَخَلَّتۡ﴾ معناه: خَلَت عما كان فيها، أَي لم تتمسك منهم بشيءٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مخاطبة للجنس، و«الكادِحُ»: العاملُ بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي ﷺ: «من سأَل وله ما يُغنيه جاءَت مسأَلته حدوثاً أَو كدوحاً في وجهه يوم القيامة»[٣]، والمعنى: إنك عامل خيراً أَو شرًّا، وأَنت لا محالة في ذلك سائر إلى ربك لأَن الزمن يطير بعمر الإنسان، وإنما هو في مدة عمره في سير حثيث إلى ربه. وهذه آية وعظ وتذكير، أَي: فكن على حذر من هذه الحال، واعمل عملاً صالحاً تجده، وقرأَ طلحة بإدغام كاف ﴿إِنَّكَ﴾ في كاف ﴿كَادِحٌ﴾، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

---

(١) هذا البيت قاله قَعْنَب بن أُمِّ صاحب، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير ومجاز القرآن، والسِّمط، وقبله يقول قعنب:

إنْ يَسْمَعُـوا ريبَـةً طـاروا بهـا فَـرَحـاً مِنِّـي وَمَـا عَلِمـوا مِـنْ صـالـحٍ دَفَنـوا

وهو شاهد على أَنَّ (أَذِن) بمعنى: استمع.

(٢) أَخرجه الحاكم بسند جيِّد عن جابر عن النبي ﷺ، قال: «تُمَدُّ الأَرض يوم القيامة مدَّ الأَديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه». والأَديم: الجلْدُ، والعكاظيُّ: نسبة إلى عكاظ، والمراد: مما حُمل إلى عكاظ فبيع بها.

(٣) أَخرجه أَبو داود والنَّسائي في الزكاة، وأحمد في مسنده (٢/ ٩٤، ٥/ ١٩)، ولفظه كما في مسند أَحمد، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسأَلةُ كُدُوحٌ في وجه صاحبها يوم القيامة، فمن شاء فليستبق على وجهه، وأَهون المسألة مسأَلةُ ذي الرحم تسأله في حاجة، وخيز المسأَلة المسأَلةُ عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول». قال ابن الأَثير: الكُدوحُ الخدوشُ، وكلُّ أَثر من خَدْشٍ أَو عَضٍّ فهو كَدْحٌ.

وَمَــا الإِنْســانُ إِلاَّ ذو اغْتِــرار طِـوالَ الـدَّهْـرِ يَكْـدَحُ فـي سَفَـال[1]

وقال قتادة: من استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله تعالى فليفعل، وقوله تعالى: [فملاقيه] معناه: فملاق عذابه أو تنعيمه.

واختلف النحاة في العامل في [إذا] فقال بعض النحاة: العامل [انْشَقَّتْ]، وأبى ذلك كثير من أئمتهم، لأن [إذا] مضافة إلى [انْشَقَّتْ]، ومَنْ يُجيز ذلك تضعف عنده الإضافة ويقوى معنى الجزاء[2].

وقال آخرون منهم: العامل ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وقال بعض حُذَّاقهم: العامل فعلٌ مضمر. وكذلك اختلفوا في جواب [إِذَا] ـ فقال كثير من النحاة: هو محذوف لعلم السامع به، وقال أَبو العباس المبرد، والأَخفش: هو في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، أَي: إذا انشقت السماءُ فأَنت ملاقي الله تعالىٰ، وقيل: التقدير: فيا أَيُّها الإنسان، وجواب [إذا] في الفاءِ المقدرة. وقال الفراءُ عن بعض النحاة: هو [أَذِنَتْ] على تقدير زيادة الواو[3]. فأما الضمير في [فَمُلاقيهِ] فقال جمهور المتأولين: هو عائد على الربِّ تعالىٰ، فالفاءُ ـ على هذا ـ عاطفة [مُلاق] على [كادح]، وقال بعض الناس: هو عائد على الكدح فالفاءُ ـ على هذا ـ هي عاطفةٌ جملة الكلام على التي قبلها، والتقدير: فأنت ملاقيه[4]، والمعنى: ملاق جزاءَه خيراً كان أَو شرًّا.

ثم قسَّم تعالىٰ الناس إلى المؤمن والكافر، فالمؤمنون يُعطون كُتُبهم بأَيمانهم، ومن ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم فإنه يُعطى كتابه عند خروجه من النار، وقد جوَّز قوم أَن يُعطاه أَولاً قبل دخول النار، وهذه الآية تردُّ على هذا القول. و«الحِسابُ الْيَسيرُ» هو العرض، وأَمَّا من نُوقش الحساب فإنه يهلك ويعذب، كذلك قال رسول الله ﷺ لعائشة

---

(١) الاغترار: الغفلة، والكَدْحُ: السعْي والمشقَّة، والسفال: مصدر سَفل وهو نقيض العُلُوِّ والرفعة، يقول: إن الإنسان يعيش دائماً في غفلة، ويتعب نفسه في حقير الأُمور التي لا تنفعه أو تنهض به.

(٢) نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا القول نحن نختاره، وقد استدللنا على صحته فيما كتبنا، والتقدير: وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض».

(٣) قال القرطبي تعليقاً على هذا الكلام: «وهذا غلط، لأن العرب لا تُقحم الواو إلاَّ مع «حَتَّى ـ إذا» كقوله تعالىٰ: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾، ومع «لَمَّا» كقوله تعالىٰ: ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه﴾ معناه: نادَيْناهُ، الواو لا تُقحم مع غير هذين».

(٤) أَيضاً نقل أَبو حيان الأندلسي هذا الكلام عن بن عطية في البحر المحيط، وعقب بقوله: «ولا يتعيَّن ما قاله، بل يصحُّ أَن يكون معطوفاً على (كادحٌ) عطف المفردات».



رضي الله عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب»، فقالت عائشة رضي الله عنها: أَلم يقل الله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الآية؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما ذلك العرض، وأَمَّا من نوقش الحساب فإنه يهلك»[١]، وفي الحديث من طريق ابن عمر رضي الله عنه، قال: «يُدني الله تعالىٰ العبد حتى يضع عليه كنفه، فيقول: أَلم أَفعل بك كذا وكذا؟ ـ يُعَدِّدُ عليه نعمه ـ، ثم يقول له: فلم فعلت كذا وكذا؟ ـ لمعاصيه ـ فيقف العبد خزياناً، فيقول الله تعالىٰ: سترتها عليك في الدنيا وأَنا أَغفرها لك اليوم»[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً»، فقلت: يا رسول الله وما هو؟ فقال: «أَنْ يتجاوز عن السيآت»[٣]، وروى ابن عمر أَن النبي ﷺ قال: «من حاسب نفسه في الدنيا هوَّن الله حسابه يوم القيامة»[٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أَي الذين أَعدَّ الله تعالىٰ له في الجنة، إِمَّا من نساءِ الدنيا وإِما من الحور العين وإِما من الجميع.

---

(١) أَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أَخرجه البخاري في الأدب وفي تفسير سورة هود وفي التوحيد، وأَخرجه مسلم في التوبة، وابن ماجه في المقدمة، ولفظه كما في البخاري، عن صفوان بن محرز، قال: بينا ابن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال: يا أَبا عبد الرحمن، أو قال: يابن عمر هل سمعت النبي ﷺ في النجوى؟ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: يُدْنَى المؤمن من ربه ـ وقال هشام: يدنو المؤمن ـ حتى يضع عليه كَنَفَه، فيقرره بذنوبه، تعرف ذنب كذا؟ يقول: أَعرفُ ربِّ، يقول أَعرف مرتين، فيقول: سَتَرْتُهَا في الدنيا وأَغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته، وأَما الآخرون، أو الكفار، فَيُنادَى على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.

(٣) أَخرجه أَحمد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدر المنثور: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنَّه من نوقش الحساب هلك».

(٤) لم أَقف عليه، والذي رواه الترمذي في هذا المعنى قوله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أَن تُحاسبوا».

هذا وقد أَورد الطبري سؤالاً في موضوع الحساب فقال: «إن قال قائل: كيف قِيل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ والمحاسبة لا تكون إلا بين اثنين، والله القائم بأعمالهم، ولا أَحد له قِبَل ربِّه طَلِبَةٌ فيحاسبه؟ قيل: إن ذلك تقرير من الله للعبد بذنوبه، وإقرار من العبد بها وبما أَحصاه كتاب عمله، فذلك المحاسبة على ما وصفنا، ولذلك قيل: يحاسب».

والكافر يُؤتى كتابه من ورائه لأَن يديه مغلولتان، وروي أَن يده تدخل من صدره حتى تخرج من وراءِ ظهره فيأخذ كتابه بها.

ويقال إِن هاتين الآيتين نزلتا في أَبي سلمة بن عبد الأَسد[١] وفي أَخيه الأَسود، وكان أَبو سلمة من أَفضل المسلمين وأَخوه من عُتاة الكافرين. و﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ معناه: يصيح منتحباً: واثُبُوراه واحَزَنَاه ونحو هذا مما معناه: هذا وقتُك وأَوانُك، أَي احضرني، الثُّبور اسمٌ جامعٌ للمكاره كالويل.

وقرأَ بن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وعمر بن عبد العزيز، والجحدري، وأَبو الشعثاءِ، والأَعرج: [وَيُصَلَّى] بشد اللام وضم الياءِ على المبالغة. وقرأَ نافع أَيضاً، وعاصم ـ في رواية أَبان ـ بضم الياءِ وتخفيف اللام، وهي قراءة أَبي الأَشهب، وعيسى، وهارون عن أَبي عمرو. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، وأَبو جعفر، وقتادة وعيسى، وطلحة، والأَعمش بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للفاعل، وفي مصحف ابن مسعود: «وَسَيَصْلَى». وقوله تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ يريد في الدنيا، أَي تملّكه ذلك لا يدري إِلاَّ السرور بأَهله دون معرفة الله تعالىٰ، والمؤمن إِن سُرَّ بأَهله لا حرج عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ معناه: أَن لن يرجع إِلى الله تعالىٰ مبعوثاً محشوراً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم أَعلم ما معنى [يحور] حتى سمعتُ أَعرابية تقول لِبُنَيَّة لها: حوري، أَي ارجعي. والظَّن هنا على بابه، و[أَنْ] وما بعدها تسدُّ مسدَّ مفعولي [ظَنَّ]، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة، و«الحَوْرُ»: الرجوع على الأَدراج، ومنه: «اللهم إِني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْرِ»[٢].

---

(١) هو عبد الله بن عبد الأَسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أَبو سَلَمة، أخو النبي ﷺ من الرضاعة، وابن عمته بَرَّة بنت عبد المطَّلب، كان من السابقين، شهد بدراً، ومات في حياة النبي ﷺ بعد أُحد، فتزوج النبي ﷺ بعده زوجته أُم سَلَمة. (تقريب التهذيب).

(٢) هذا جزءٌ من حديث نبويٍّ شريف معناه: أَعوذ بك من النقصان بعد الزيادة، والحديث رواه مسلم في الحج، والترمذي وابن ماجه في الدعاءِ، والنسائي في الاستعاذة، والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (٥/ ٨٢، ٨٣)، ولفظه كما في مسند أَحمد: عن عبد الله بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر قال: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلُفنا في أَهلنا، اللهم إني أَعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقَلَب، ومن الحَوْر بعد الكَوْر، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال»، وسئل عاصم ـ الراوي عن عبد الله ـ عن الحَوْر بعد الكور، قال: حار بعد ما كان.



ثم ردَّ الله تعالىٰ على ظن هذا الكافر بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أَي: يحور ويرجع، ثم أَعلمهم أَنَّ الله تعالىٰ لم يزل بصيراً بهم، لا تخفى عليه أَفعال أَحد منهم، وفي هذا وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾

[لَا] زائدة، والتقدير: فأُقسم، وقيل: [لَا] ردٌّ على أَقوال الكفار، وابتدأ القول: أُقسِمُ، وقَسَم الله تعالىٰ بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها وتعريضها للعبرة، إِذ القسم بها منبه منها. و﴿الشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب، وقيل: الشفق هنا النهار كله، قاله مجاهد، وهو قول ضعيف، وقال أَبو هريرة وعمر بن عبد العزيز: الشفقُ البياضُ الذي يتلو الحُمرة.

و﴿وَسَقَ﴾ معناه: جَمَعَ وضَمَّ، ومنه الوسْق، أَي الأَصوع المجموعة، والليل يَسِقُ الحيوان جملة، أَيْ يجمعها في نفسه ويضمها، وكذلك جميع المخلوقات التي في الأَرض والهواءِ من البحار والجبال والرياح وغير ذلك.

و«اتِّساق القمر» كمالُه وتمامه بدراً، فالمعنى: امتلأ من النور.

وقرأ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وعمر، وابن عباس ـ بخلاف عنهما ـ وأَبو جعفر، والحسن، والأَعمش، وقتادة، وابن جبير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباءِ، على مخاطبة الناس، والمعنى: لتركبن الشدائد، الموتَ والبعث والحساب حالاً بعد حال، أَو تكون الأَحوال من النطفة إِلى الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبقة، و﴿عَنْ﴾ تجيءُ بمعنى «بَعْد»، كما تقول: «ورث المجد كابراً عن كابر»، وقيل: المعنى: لتركَبُنَّ هذه الأَحوال أُمَّة بعد أُمَّة، ومنه قول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في النبي ﷺ:

وَأَنْتَ لَمَّا بُعِثْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْ ... ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الطُّرُقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ[1]

(١) البيت الثاني في اللسان، واستشهد بالبيتين أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والصَّالب: الصُّلْب وهو الظَّهر، وهو قليل الاستعمال في اللغة، والرَّحِمُ: موضع تكوين الجنين وَوِعاؤُهُ في البطن. ومعنى=



أَي قَرْن من الناس؛ لأَنه طبق الأَرض، قال الأَقرعُ بن حابس:

إنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهرَ أَشْطُرَهُ   وَسـاقَنـي طَبَـقٌ مِنْـهُ إِلَـى طَبَـقِ[1]

أَيْ حالٌ إلى حال، وقيل: المعنى: لتركبُنَّ الآخرة بعد الأُولى، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [لَيَرْكَبُنَّ] على أَنهم غُيَّب، وقال أَبو عبيدة: المعْنى: لتركَبُنَّ سَنَنَ من قبلكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كما في الحديث: «شِبْراً بِشِبْر، وذراعاً بذراع»[2]، فهو طبق عن طبق، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويَحْسُن مع القراءة الأُولى، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعمرو بن مسعود[3]، وابن عباس، ومجاهد، والأَسود، وطلحة، وابن جُبَير، ومعروف، والشَّعبي، وأَبو العالية، وابن وثاب، وعيسى: [لَتَرْكَبَنَّ] بفتح الباءِ، على معنى: أَنتَ يا محمد، فقيل: المعنى: حالاً بعد حال من معالجة الكفار، وقال ابن عباس: سماءً بعد سماءٍ في الإسراءِ، وقيل: هي عِدَةٌ بالنصر، أَي لتركَبَنَّ أَمْر العرب قبيلاً بعد قبيل[4] وفتحاً بعد فتح كما كان ووُجد بعد ذلك، وقال ابن مسعود: المعنى: لتركَبَنَّ السماءَ في أَهوال يوم القيامة حالاً بعد حال، تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتتشقَّق، فالسماءُ هي الفاعلة،

= (إذا مَضَى عالَمٌ بدا طَبَقٌ): إذا مضى قرنٌ ظهر قرنٌ آخر، وإنما قيل للقَرْن طبَقٌ لأنهم طَبَقٌ للأرض ثم ينقرضون ويأتي طبقٌ للأرض آخر.

(١) الأقرع بن حابس هو أَحد حُكّام العرب في الجاهلية، ومعنى (حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ) خبرتُ ضروبه، إذْ مرَّ بي خيرُهُ وشرُّه، يقال ذلك تشبيهاً بحلب أَخلاف الناقة كلها ما كان منها ممتلئاً وما كان غير ممتلىء، والناقة لها خِلْفان قادمان (أماميَّان) وخِلْفان خلفهما، فكأنه حلب القادمَيْن وهما الخير، والآخرين وهما الشَّر، وكلُّ خِلْفين شَطْرٌ، أي نصف. ومعنى (ساقني طبق منه إلى طبق): ساقني حالٌ من الزمان إلى حالٍ آخر، وهذا كناية عن الخبرة المتنوعة. وهذا هو موضع الاستشهاد هنا.

(٢) هذا جزءٌ من حديث أَخرجه البخاري في الأنبياء وفي الاعتصام، ومسلم في العلْم، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده، والحديث بتمامه كما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري، وعن عطاء بن يسار: قال رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قَبْلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لاتبعتموهم، قلنا: يا رسوَل الله، آليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

(٣) في بعض النسخ: «وعمر، وابن مسعود».

(٤) القَبِيل: الجيلُ والجماعة من الناس، من قوم شتَّى أَو من أَب واحد.



وقرأ ابن عباس أيضاً، وعمر رضي الله عنهم: [لَيَرْكَبَنَّ] على ذكر الغائب، فإمَّا أن يراد محمد ﷺ على المعاني المتقدمة، وقاله ابن عباس يعني نبيكم ﷺ إماماً، قال بعض الناس في كتاب النقاش من أن المراد القمر لأنه يتغير أحوالاً وأسراراً واستهلالاً.

ثم وقف تعالىٰ نبيَّه ﷺ ـ والمراد أُولئك الكفار ـ بقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ما حُجَّتهم مع هذه البراهين الساطعة؟ وقرأ الجمهور: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بضم الياءِ وشد الذال، وقرأ الضحاك بفتح الياءِ وتخفيف الذال وإسكان الكاف. و﴿يُوعُونَ﴾ معناه: يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر، كأنهم يحملونها في أوعية، تقول: وعيتُ العلمَ وأوعيتُ المتاع، وجعل تعالىٰ البشارة في العذاب لمَّا صرح به، وإذا جاءت مُطْلقة فإنما هي في الخير.

ثم استثنى تعالىٰ من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإيمان في قضائه. و﴿مَمْنُونٍ﴾ معناه: مقطوع، من قولهم: حبلٌ مَنينٌ، أي مقطوع، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَةَ اليَشْكُريِّ:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْـ ـــعِ منيناً كأنه أَهْبَاءُ[1]

يريد: غباراً متقطعاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَمْنُونٍ﴾ مُعَدَّدٌ عليهم محسوبٌ مُنَغَّص بالمنِّ[2].

كمل تفسير سورة الانشقاق والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا البيت من معلقة الحارث بن حلِّزة، والضمير في «خَلْفَهَا» يعود على الناقة التي كان الشاعر يصفها في الأبيات السابقة ويقول: إنَّها آنست صوتاً وأفزعها القنَّاص حين دنا الإمساء، والرَّجع: رجع قوائمها، والوَقْع: وقع خفافها، والمنين: الغُبار الدقيق، وكلُّ ضعيف فهو منين، والأهباء: جمع هباءٍ، وهو الغبار الذي ينتشر كأنه دخان، وتراه إذا دخلت الشمس من نافذة أو كُوَّة كأنه غبارٌ يتناثر من السماء، ويروى البيت: الإهباء ـ بكسر الهمزة ـ ومعناها: إثارة الناقة لِلْهباء، يقول: لقد ذعرت وفرت، وجعلت تعدو بسرعة مثيرة خلفها الغبار الرقيق المتفرق.

(٢) بمعنى أن الله تعالىٰ لا يَمُن عليهم الأجر الذي يعطيه لهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة البروج

وهي مكيّة بإجماع من المتأولين، لا خلاف في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾.

اختلف الناس في «البروج» ـ فقال الضحاك وقتادة: هي القصور، ومنه قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ ... بَانٍ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ وَأَحْجَارِ[(١)]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البروجُ: النجومُ لأنها تتبرَّج بنورها، والتَّبرج: التَّظاهر والتَّبدي، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً: البروج هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر عَلَى ما قسَّمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة: معناه: ذاتُ الرمل والماءِ، يريد أَنها مبنية في السماءِ، وهذا قول ضعيف.

و﴿اليوم الموعود﴾ هو يوم القيامة باتفاق، قاله النبي ﷺ[(٢)]، ومعناه: الموعود به.

---

(١) يصف الأخطل الناقة في هذا البيت، ويشبهها في ضخامتها بالقصر الكبير المرتفع، وهذا التصوير تكرر كثيراً في كلام العرب. وشيَّد البناءَ، رَفَعه وعَلاَّه، أَو طَلاَه بالشِّيد، وهو كلُّ ما طُلِي به البناء. والجِصُّ والآجُرُّ والحجارة: من موادِّ البناءِ، ويروى: «لُزَّ بجصٍّ» بدلاً من «بان بجصٍّ».

(٢) أَخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن أَبي الدنيا في الأُصول، وابن جرير، وابن المنذر وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يومُ القيامة، واليومُ المشهود يومُ عَرَفَةَ، والشاهدُ يومُ الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلاَّ استجاب الله له، ولا يستعيذ بشيءٍ إلاَّ =

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ معناه: عليه، أَو بِهِ، أَو فيه، وهذا يترتب بحسب الخلاف في تعيين المراد بـ ﴿شاهِد ومشهود﴾، فقد اختلف الناس في المشار إِليه بهما ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهدُ: الله تعالىٰ، والمشهود: يومُ القيامة، وقال ابن عباس أَيضاً، والحسن بن علي، وعكرمة: الشاهدُ: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[1]، وقال تعالىٰ في يوم القيامة: ﴿ذلك يوم مشهود﴾[2]. وقال مجاهد وعكرمة أَيضاً: الشاهد: آدم عليه السلام وجميع ذريته، والمشهود: يوم القيامة. و«شاهد» اسم جنس على هذا، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة «شاهد» يراد به رجل فرد أَو نَسَمة من النَّسم، ففي هذا تذكير لحقارة المسكين ابن آدم، و«المشهود» يوم القيامة، وقال الحسن بن أَبي الحسن وابن عباس أَيضاً: الشاهد: يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، وقال عليٌّ، وابن عباس، وأَبو هريرة، والحسن، وابن المسيب وقتادة: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم عرفة، وقال ابن عمر: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم النحر، وقال جابر: «شاهد» يوم القيامة، و«مشهود» الناس، وقال محمد بن كعب: الشاهد: أَنت يا بن آدم، والمشهود: الله تعالىٰ، وقال ابن جبير بالعكس، وتلا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[3]، وقال أَبو مالك: الشاهد: عيسى عليه السلام، والمشهود: أُمَّتُه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[4]، وقال ابن المسيب: «شاهد»: يوم التروية، و«مشهود»: يوم عرفة، وقال بعض الناس في كتاب النقاش: الشاهد يوم الاثنين، والمشهود يوم الجمعة، وذكره الثعلبي. وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم النحر، وعنه أَيضاً: «شاهد»: يوم القيامة، و«مشهود»: يوم عرفة،

= أَعاذه الله منه»، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من حديث موسى بن عُبَيْدَة الرَّبَذي، ومُوسى بن عُبَيْدة يضعف في الحديث، ضعَّفه يحيى بن سعيد وغيره من قبَل حفظه، وقال ابن كثير: «روى هذا الحديثَ ابنُ خزيمة من طرق عن موسى بن عُبَيْدَةَ الرَّبَذي، وهو ضعيف، وقد رُوي موقوفاً على أَبي هريرة، وهو أشبه». كذلك قال الحافظ ابن حَجَر في «التقريب» عن موسى بن عُبَيْدَة: إنه ضعيف.

(١) من الآية (٤٥) من سورة الأحزاب، وتكررت في الآية (٨) من سورة (الفتح).

(٢) من الآية (١٠٣) من سورة (هود).

(٣) من الآية (٧٩)، وتكررت في الآية (١٦٦) من سورة (النساء)، كذلك تكررت في الآية (٢٨) من سورة (الفتح).

(٤) من الآية (١١٧) من سورة (المائدة).

وقال أَبو هريرة عن النبي ﷺ: «شاهد»: يوم الجمعة، و«مشهود»: يوم عرفة، قاله عليٌ وأَبو بكر والحسن. وقال إِبراهيم النَّخَعي: الشاهد: يوم الأَضحى، والمشهود: يوم عرفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووصف هذه الأَيام بشاهدٍ لأنها تشهد لحاضريها بالأَعمال، والمشهود فيما مضى من الأَقوال بمعنى المشاهَد ـ بفتح الهاءِ ـ، وقال الترمذي الشاهد: الملائكة الحفظة، والمشهود عليهم: الناس، وقال عبد العزيز بن يحيى ـ عند الثعلبي ـ: الشاهدُ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، والمشهود عليهم أُمَّته، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1]، أَي شاهداً، وقيل: الشاهد الأَنبياءُ عليهم السلام، والمشهود عليهم أُمَمُهُم، وقال الحسن بن الفضل: الشاهدُ أُمَّة محمد ﷺ، والمشهود عليهم قوم نوح عليه السلام وسائر الأُمم حسب الحديث المنصوص في ذلك. وقال ابن جبير أَيضاً: الشاهدُ الجوارحُ التي تنطق يوم القيامة فتَشهد على أَصحابها، والمشهود عليهم أَصحابها، وقال بعض العلماءِ: الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأُمة، والمشهود قُرْآن الفجر، وتفسيره ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[2]. وقال بعض العلماءِ: الشاهد النجم، والمشهود عليه الليل والنهار، أَي: يشهد النجم بإِقبال هذا وإِدبار هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «حَتَّى يطلع الشاهد»[3]، «الشاهد النجم» وقال بعض العلماءِ: الشاهد هو الله تعالىٰ والملائكة وأُولو العلم، والمشهود به الوحدانيةُ وأَنَّ الدين عند الله الإِسلام، وقيل: الشاهد مخلوقاتُ الله تعالىٰ، والمشهود به وحدانيته، وأَنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر:

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَلَـى أَنَّـهُ الـواحِـدُ[4]

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء).

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الإسراء).

(٣) أَخرجه مسلم في المسافرين، والنسائي في المواقيت، ففي صحيح مسلم عن أَبي بصرة الغفاريِّ، قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ بالمُخَمَّصِ ـ موضع معروف لهم ـ فقال: إن هذه الصلاة عُرِضت على من كان قبلكم فضيَّعوها، فمن حافظ عليها كان له أَجره مرَّتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلُع الشاهدُ «والشاهد النجم». هذا والأجران أحدهما لامتثال أَمر الله تعالىٰ، والثاني للمحافظة عليها.

(٤) الآية: العلامة، جعل الأَشياءَ كلها علامات دالَّةٍ على وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ.



و[قُتِلَ] معناه: فعل الله تعالىٰ بهم ذلك لأنهم أهل له، فهو على جهة الدعاءِ بحسب البشر، لا أن الله تعالىٰ يدعو على أحد، وقيل ـ عن ابن عباس ـ: معناه: لُعن، وهذا تفسير بالمعنى، وقيل: هو إخبارٌ بأن النار قتلتهم، قاله الربيع بن أنس، وسيأتي بيانه.

واختلف الناس في أَصحاب الأُخدود ـ فقيل: هم قومٌ كانوا على دين، وكان لهم ملك، فزنى بأُخته، ثم حَمَلَه بعض الناس[1] على أَن يسن في الناس نكاح الأخوات والبنات، فَحَمَلَ الناسَ على ذلك، فأَطاعه كثير وعصته فِرقٌ، فَخَدَّ لهم أَخاديد ـ وهي حفائر طويلة كالخنادق ـ وأَضرم لهم ناراً وطرحهم فيها، ثم استمرت المجوسية في مطيعيه، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: صاحب الأُخدود مِلك من حمْيَر، كان بمزارع[2] من اليمن، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين، ثم غلب في آخر الأَمر، فحرَّقهم على دينه إِذْ أَبَوْا دينه، ومنهم كانت المرأَة ذات الطفل التي تلَكَّأَت فقال لها الطفل: امضي في النار فإِنك على الحق. وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه أَن نبيَّ أَصحاب الأُخدود كان حبشياً، وأَن الحبشة بقية أَصحاب الأُخدود، وقيل: صاحب الأُخدود ذُو نُوَاس في قصة عبد الله بن الثَّامر التي وقعت في السِّير، وقيل: كان صاحب الأُخدود في بني إِسرائيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورأَيت في بعض الكتب أَن صاحب الأُخدود هو محرِّق، وأَنه الذي حرَّق من بني تميم المائة، ويُعترض هذا القول بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، فينفصل عن هذا الاعتراض بأَن هذا الكلام منقطع من قصة أَصحاب الأُخدود، وأَن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿هُمْ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات.

واختلف الناسُ في جواب القَسم ـ فقال بعض النحاة: هو محذوف لِعِلْم السامع به، وقال آخرون: هو قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ﴾، والتقدير: لَقُتِلَ، وقال قتادة: هو في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، وقال آخرون: هو في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل من ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهو بدل اشتمال، وهذه قراءة

---

(١) في بعض النسخ: «ثم حمله بعض نسائه»، وفي بعضها: «فزنى بابنته».

(٢) في بعض النُّسخ: بمدارج، ولعله يريد أرضاً متدرجة.

الجمهور ﴿ٱلنَّارِ﴾ بخفض الراءِ، وقرأ قوم: [النَّارُ] بالرفع، على معنى: قتلتهم النارُ. و[الوُقودُ] ـ بالضَّم ـ مصدر من: وقدت النار إذا اضطرمت، و﴿الوَقُودُ﴾ ـ بفتح الواو ـ ما توقد به، وقرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ الحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو حَيْوَة بضمها.

وكان من قصة هؤلاءِ أَن الكفار قَعَدُوا، وضُم المؤمنون فعرض عليهم الدخول في الكفر، فمن أَبَى رُمي في أُخدود النار فاحترق، فروي أَنه احترق عشرون أَلفاً. قال الربيع بن أَنس، وابن إِسحاق، وأَبو العالية: بعث الله تعالىٰ على المؤمنين ريحاً فقبضت أَرواحهم، أَو نحو هذا، فخرجت النار وأَحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأُخدود، وعلى هذا يجيءُ ﴿قُتِلَ﴾ خبراً لا دعاءً، وقال قتادة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يعني المؤمنين.

و﴿نَقَمُوا﴾ معناه: اعتدوا وتعدوا، وقرأ جمهور الناس: ﴿نَقَمُوا﴾ بفتح القاف، وقرأ أَبو حَيْوةَ، وابن أَبي عبلة: [نَقِمُوا] بكسر الفاءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَتَنُوا﴾ معناه: أَحرقوا، وفتنتُ الذهب والفضة في النار: أَحرقتهما، والفَتينُ: حجارةُ الحرَّة السودُ لأَن الشمس كأَنها أَحرقتها. ومَنْ قال إِن هذه الآيات الأَواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيبَ، ويُقَوِّي هذا التأْويلَ بعْضَ التقوية قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ لأَن هذا اللفظ في قريش أَحْكم منه في أُولئك الذين قد عُلم أَنهم ماتوا على كفرهم، وأَمَّا قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تابَ بعد ذلك وآمن بمحمد ﷺ. و«جَهنَّمُ والحريقُ» طبقتان من النار، ومن قال إِن النار خرجت فأَحرقت الكفارَ القعودَ جعل الحريق في الدنيا. و«البطشُ» الأَخْذُ بقوة وسرعة، و﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ قال الضحاك، وابن زيد: معناه: [يُبْدِىءُ] الخَلْقَ بالإِنشاءِ و[يُعيدُ] بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه: إِن ذلك عام في جميع الأَشياءِ، فهي عبارة عن أَنه يفعل كل شيءٍ، أَي: يُبْدىءُ كل ما يبدأُ ويُعيدُ كل ما يُعادُ، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأَشياءِ، وقال الطبري: معناه: يبدىءُ العذاب ويعيده على الكفار.



و﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ صفتا فِعل، الأُولى سَتْرٌ على عباده، والثانية لُطْف بهم وإحسانٌ إليهم، وخصص العرش بإضافة نفسه إليه تشريفاً للعرش وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم، والحسن، وابن وثاب، والأعمش، وعمرو بن عبيد [المجيدِ] بخفض الدال صفةً للعرش، وهذا على أن المجد والتمجُّد قد يوصف به كثير من الموجودات، وقد قالوا: مَجَدَت الدابةُ إذا سمنت، وأَمجدتُها إذا أحسنتَ عليها، وقالوا: «في كل شجر نار واستمجد المَرْخُ والعَفَارُ»(١)، أي كثرت نارهما، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة لله تعالىٰ. وقرأ الجمهور: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، وروي عن ابن عامر: (ذي العَرشِ) نعتاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا توقيف للنبي ﷺ وتقرير، بمعنى: فاجعل هؤلاءِ الكفرة الذين يخالفونك وراءَ ظهرك ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالىٰ من أُولئك الأقوياءِ الأشداءِ فكيف بهؤلاءِ؟ و﴿ٱلْجُنُودِ﴾: الجموع المُعَدَّةُ للقتال والجري نحو غرض واحد، وناب فرعون بالذكر مناب قومه وآله إذ كان رأسهم، و﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ في موضع خفض على البدل من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾.

ثم ترك القول بحاله، وأَضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاءِ الكفار بمحمد ﷺ لا حجة لهم عليه ولا برهان، بل هو تكذيبٌ مجرد سببه الحسد، ثم توعدهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، أي وعذاب الله تعالىٰ ونقمته، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ معناه يأتي من بعد كفرهم وعصيانهم.

---

(١) المَرْخُ: شجر من العضاة من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء، ليس له ورق ولا شوك، سريع الوَرْيُ يقتدحُ به، والعَفَارُ: شجيرة من الفصيلة الأريكيّة لها ثَمَرٌ لُبِّيٌّ أحمر، ويُتّخذ منه الزنادُ، فيسرع الوري. وهذا مثل من أمثال العرب، والمعنى أنهما استكثرا من النار، كأنهما أَخذا من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما، وقيل: لأنهما يُسرعان الوَرْيَ فَشُبِّهَا بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد.



ثم أَضرب تعالىٰ عن تكذيبهم مُبطلاً له ورادًّا عليه، وأَخبر أَنه قرآن مجيد، أَي: لا مَذَمَّة فيه، وهذا ممَّا تقدم من وصف غير الله تعالىٰ بالمجد والتمجُّد. وقرأَ ابن السّميفع اليمانيُّ: ﴿قُرءَانُ مَجِيدٍ﴾ على الإِضافة وأَن يكون الله تعالىٰ هو المجيد. و﴿اللَّوْحُ﴾ هو اللَّوْحُ المحفوظ الذي فيه جميع الأَشياءِ، وقرأَ جمهور القراءِ: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ بِالخَفْض صفة لِلَّوْح المشهور بهذه الصفة، وقرأَ نافع وحده ـ بخلاف عنه ـ وابن محيصن، والأَعرج: [مَحْفُوظٌ] بالرفع صفة للقرآن، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1]، أَي هو محفوظ في القلوب لا يُدركه الخطأُ والتبديل. وقال أَنس: إِن اللوح المحفوظ هو في جهة إِسرافيل عليه السلام، وقيل: هو من دُرَّة بيضاءَ، قاله ابن عباس، وهذا كله مما قصَّرت به الأَسانيد، وقرأَ ابن السميفع: [في لُوحٍ] بضم اللام.

كمل تفسير سورة البروج والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) من الآية (٩) من سورة (الحجر).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الطارق

وهي مكيّة، لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالسماءِ المعروفة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: السَّماءُ هنا المطر، والعرب تُسَمِّي سماءً لِمَا كان من السماءِ، وتُسَمِّي السحاب سماءً، قال الشاعر:

إِذا نَـزَلَ السَّمـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ ... رَعَيْنـاهُ وَإِنْ كـانـوا غِضـابَـا[1]

وقال النابغة:

كَـالأُقْحُـوَانِ غَـدَاةَ غِـبِّ سَمَـائِـهِ ... .[2]

---

(١) هذا البيت للشاعر معاوية بن مالك الذي سمِّي «مُعَوِّد الحكمَاء»، ورواية اللسان «إذا سَقَطَ السماءُ»، وهذا يؤكد أن المراد بالسماء المطر، يفخر بقومه ـ على عادة العرب ـ بأنهم أَعِزَّة، ولعزَّتهم فإنهم يرعون ماشيتهم حيث يشاءون حتى ولو كان ذلك في أرض قوم عرفوا بالعنف والغضب.

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة ضمن قصيدة يمدح بها النعمان بن وائل الكلبي، والبيت مع بيت قبله يصف أسنان محبوبته وثغرها، ويشبه هذا الثغر بالأقحوان الذي نزل المطر على أرضه وسقاه فأينع، ثم جفت أعاليه وبقي أسفله ندياً رطباً، والبيتان هما:

تَجْلـو بِقَـادِمَتَـي حَمَـامَـةِ أَيْكَـةٍ ... بَـرَداً أُسِـفَّ لِثـاتُـهُ بـالإثْمِـدِ
كَـالأُقْحُـوانِ غـداةَ غـبِّ سَمَـائِـهِ ... جَفَّـتْ أَعـاليـهِ وَأَسْفَلُـهُ نـدِي

والأُقحوان نبات مِن الفصيلة المركبة من جنس «أَنْتَاميس وجنس كِرِزَنْتِيُوم»، وتسمِّيه العامَّة في مصر «أراولة»، وفي الشام «الغريب»، وغِبّ: عَقِب وبَعْد، وسماؤهُ: مطره، وهي موضع الاستشهاد، =



و«الطَّارق»: الذي يأتي ليلاً، وهو اسم الجنس لكل ما يظهر أو يأتي ليلاً، ومنه نهى النبي ﷺ الناسَ في أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقاً[1]، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر:

يـا نـائـِمَ اللَّيْـلِ مُغْتَـرًّا بـأَوَّلِـهِ ... إنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارَا[2]

ثم بيَّن تعالىٰ الطارق الذي قَصَدَ من هذا الجنس المذكور وهو ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، وقيل: بل معنى الآية: والسماءِ وجميع ما يطرق فيها من الأُمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالىٰ بعد ذلك ـ على جهة التَّنبيه ـ أجلَّ الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب.

فكأنه تعالىٰ قال: وما أدراك ما الطارق حقَّ الطارق.

واختلف المتأولون في ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن ما معناه أَنه اسم الجنس، لأَنها كلها باقية أَي ظاهرة الضوءِ: يقال: ثَقَب النجمُ إِذا أَضاءَ، وثَقَبت النارُ كذلك، وثَقَبت الرائحةُ إِذا سطعت، ويقال للمُوقِدِ؛ أَثْقِب نارك، أَي أَضِئْها. وقال ابن زيد: أَراد نجماً مخصوصاً وهو زُحل، ووصفه بالثقوب لأَنه مُبَرِّز على الكواكب في ذلك، وقال ابن عباس: أَراد الجدي، وقال بعض هؤلاءِ: ثَقَب النجمُ إِذا ارتفع، فإنما وصف زُحَلاً بالثقوب لأَنه أَرفع الكواكب مكاناً، وقال ابن زيد أَيضاً وغيرُه: النجم الثاقب: الثُّرَيَّا، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم الجنس معرفاً.

= والصورة التشبيهية مركَّبة من لون أبيض صاف تحيط به الخضرة الداكنة مع جفاف في الأعالي وندى في الأَسفل.

(١) أَخرجه البخاري في العمرة والنكاح، ومسلم في الإمارة، والترمذي والدارمي في الاستئذان، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٥، ٣/ ٣٠٢)، ولفظه كما في مسند الدارمي: (عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أَهله ليلاً، أو يخونهم، أو يلتمس عثراتهم)، قال سفيان ـ راوي الحديث: قوله: (أَو يخونهم أو يلتمس عثراتهم) ما أدري أشيءٌ قاله محارب أو شيءٌ هو في الحديث. ورواية أَحمد عن سعد بن أَبي وقاص أنه قال: (إن رسول الله ﷺ نَهَى أَن يطرق الرجل أهله بعد صلاة العشاء).

(٢) هذا بيت مشهور متداول، ومع ذلك لم يتفق الرواة على قائله، فالقرطبي ينسبه لابن الرومي، وهو بعيد عن روح بن الرومي، وغير موجود في ديوانه، واستشهد به الحافظ في كتاب الحيوان ولم ينسبه، وذكره الغزالي في كتابه «الإحياء»، ويروى (يا راقد الليل مسروراً بأوَّله)، وبعده بيت آخر يذكر دائماً معه في مجال الاستشهاد هو:

لا تَفْـرَحَـنَّ بِلَيْـلٍ طـابَ أَوَّلُـهُ ... فَـرُبَّ آخِـرِ لَيْـلٍ أَجَّجَ النَّـارَا



وجواب القسم في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾، وقرأ جمهور الناس: [لَمَا] مخففة الميم، قال الحُذَّاق من النحويين وهم البصريون: [إنْ] مخففة من الثقيلة، واللام لام التأكيد الداخلة على الخبر، وقال الكوفيون: [إنْ] بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلاَّ»، فالتقدير: ما كلُّ نفس إلاَّ عليها حافظ، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وأَبو عمرو، ونافع ـ بخلاف عنهما ـ وقتادة: (لَمَّا) بتشديد الميم، وقال أَبو الحسن الأَخفش: [لَمَّا] بمعنى «إلاَّ»، لغة مشهورة في هُذَيل وغيرهم، تقول: أَقسمتُ عليك لمَّا فعلت كذا، أَي: إلاَّ فعلت كذا.

ومعنى هذه الآية ـ فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما ـ إن كل نفس مكلَّفة فعليها حافظ يحصي أَعمالها ويُعِدُّها للجزاءِ عليها، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر. وقال الفراءُ: المعنى: عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى القدر، وهذا قول فاسد المعنى لأَن مدة الحفظ إنما هي بقَدَر، وقال أَبو أُمامة: قال النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «إن لكل نفس حَفَظَةً من الله تعالىٰ يَذُبُّون عنها كما يُذَبُّ عن العسل، ولو وُكل المرءُ إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الغِيَرُ والشَّياطين»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ توقيف لمنكري البعث على أَصل الخِلقة الدالَّة على أَن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظة إلى الجواب[2] اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة؛ إذ لا جواب لأَحد إلاَّ هذا. ﴿دَافِقٍ﴾ قال كثير من المفسرين: هو بمعنى مدفوق، وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب، أَي: ذا دَفْق، والدَّفْق: دَفْع الماءِ بعضه ببعض كدفع الوادي والسيل إذا جاءَ يركب بعضه بعضاً، ويصح أَن يكون

(١) الذي أثبته السيوطي في الدر المنثور، عن أبي أمامة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن ثلاثمائة وستون مَلَكاً يدفعون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك للبصر سبعة أملاك، يَذبُون عنه كما يُذَبُّ عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل، كلُّهم باسطٌ يديه فاغرٌ فاه، وما لو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين»، والذي في القرطبي عن أبي أمامة: «وُكِّلَ بالمؤمن مائة وستون مَلَكاً يَذبّون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبُّون عنه، كما يُذَبُّ عن قصعة العسل الذبابُ ولو وُكِلَ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين»، قال السيوطي في الدر المنثور: «أخرجه بن أَبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني والصابوني في المائتين، عن أَبي أُمامة رضي الله عنه». لاحظ اختلاف الروايات، وهذا راجع إلى اختلاف الرواة عن أَبي أُمامة.

(٢) هكذا كل الأصول، وكلمة «اللفظة» هنا تكاد تكون زائدة.



الماءُ دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافقٌ ومدفوق.

قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، قال قتادة والحسن وغيرهما: معناه: من بين صُلْب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه، وقال سفيان وقتادة أيضاً وجماعة: من بين صُلْب الرجل وترائب المرأة، والضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾ يحتمل أن يكون للإنسان، ويحتمل أن يكون للماءِ، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصُّلْبِ﴾ بسكون اللام، وقرأ أهل مكة وعيسى: [الصُّلُبِ] بضم اللام على الجمع. و«التَّرِيبَةُ» من الإنسان: ما بين التَّرْقُوَةِ إلى الثدي، قال أبو عبيدة: مُعَلَّقُ الحلي على الصدر، وجمع ذلك «تَرِيبٌ»، قال المثقب العبديُّ:

وَمِـنْ ذَهَـبٍ يُسَـنُّ عَلَـى تَـرِيـبٍ ... كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ(١)

وقال امرؤ القيس:

. . . . تَـرَائِبُهَـا مَصْقـولَـةٌ كَـالسَّجَنْجَـلِ(٢)

فجمع التَّرِيبَة وما حولها فجعل ذلك ترائب. وقال مكي عن ابن عباس: إن «التَّرائب» أَطرافُ المرءِ، رجلاه ويداه وعيناه، وقال معمر: التَّرائب جمع تَرِيبَة وهي عُصارة القلب، ومنها يكون الولد، وفي هذه الأَقوال تحكُّم على اللغة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التَّرائب موضع القلادة، وقال أَيضاً: هي ما بين ثَدْيَي المرأَة، وقال ابن جُبير: هي أَضلاع الرجل التي أَسفل الصلب، وقال مجاهد: هي الصدر، وقال:

---

(١) المثقَّب لقبٌ له، واسمه: عائذ بن محصن بن ثعلبة، والبيت من قصيدة مشهورة له قال عنها أبو عمرو ابن العلاء: «لو كان الشعر مثلَها لوجب على الناس أن يتعلموه»، والبيت في الديوان، واللسان، والمفضليات، والقرطبي، والبحر المحيط، والطبري، ومجاز القرآن. وفتح القدير، ومعنى «يُسَنّ»: يُصْقَل، والتَّريب: جمع تَرِيبَة، وهذه تجمع أيضاً على ترائب، وهي موضع القلادة من الصدر، يصف محاسن محبوبته، ويروى البيت: (ومن ذهبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ).

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس المشهورة، والبيت بتمامه:

مُهَفْهَفَـةٌ بَيْضَـاءُ غَيْـرُ مُفَـاضَـةٍ ... تَـرَائِبُهَـا مَصْقُـولَـةٌ كَـالسَّجَنْجَـلِ

وهو في الديوان واللسان وموسوعة الشعر العربي، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وغيرها، والمُهَفْهَفَة هي الخفيفة اللحم اللطيفة في رقة، وغير مفاضة: غير عظيمة البطن وَلاَ رَهْلة، والتَّرائب: جمع تَرِيبَة وهي موضع القلادة من الصدر، ومصقولة: لامعة صافية، والسَّجَنْجَل: المرآةُ أو سبيكةُ الفضة وكلها أوصاف حِسِّيَّة.



هي التراقي، وقال: هي ما بين المنكبين والصدر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ الضمير في [إِنَّهُ] لله تعالىٰ، واختلف المفسرون في الضمير في [رَجْعِهِ] فقال ابن عباس، وقتادة: هو عائد على الإنسان، أي: على ردِّه حيًّا بعد موته، وقال الضحاك: هو عائد على الإنسان، لكن المعنىٰ: يُرجعه ماءً كما كان أَوَّلاً، وقال الضحاك أيضاً: يُرجعه من الكِبَر إلى الشباب، وقال عكرمة، ومجاهد: هو عائد على الماءِ، أَيْ يردُّه في الإحليل، وقيل: في الصُّلْب، والعامل في [يَوْمَ] ـ على هذين القولين الأخيرين ـ فعلٌ مضمر تقديره: اذكر يومَ تُبلى السرائر، وعلى القول الأَول ـ وهو أَظهر الأَقوال وأَبْينها ـ اختلفوا في العامل في [يَوْمَ] ـ فقال بعضهم: العامل «ناصِرٌ» من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، وقيل: العامل «الرَّجْعُ» من قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾، قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإنْ حال خَبَرَانِ بينه وبين معموله، وقيل: العامل فعلٌ مضمر تقديره: «إِنَّه على رجعه لقادرٌ يُرجعه يوم تُبْلَى السرائر»، وكلُّ هذه الفِرق فرَّت من أَن يكون العامل «قادِرٌ»؛ لأَن ذلكَ يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تُؤُمِّلَ المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أَن يكون العامل «قادِرٌ»، وذلك أَنه على رجعه لقادرٌ، أَي: على الإطلاق أَوَّلاً وَآخِراً وفي كل وقت، ثم ذكر تعالىٰ وخَصَّص من الأَوقات الوقت الأَهم على الكفار؛ لأَنه وقت الجزاءِ والوصول إِلى العذاب، فتجتمع النفوسُ إِلى حذره والخوف منه.

و﴿تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ معناه: تُختبر وتُكتشف بواطنها، وروى أَبو الدرداءِ عن النبي ﷺ أَن السرائر التي يبتليها الله تعالىٰ من العباد: التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، وصوم رمضان[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عُظْم الأَمر. وقال أَبو قتادة: الوجه في الآية العموم في جميع السرائر، وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إلاَّ بأحد وجهين: إِمَّا بقوة في ذات الإِنسان وإِما بناصر

---

(١) أَخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) عن أَبي الدرداء، ولفظه كما ذكره السيوطي في (الدر المنثور): قال رسول الله ﷺ: «ضمن الله خَلْقه أربعة، الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغُسل من الجنابة، وهن السرائر التي قال الله ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وفي رواية ذكرها المهدوي «ائتمن اللهُ تعالىٰ خَلْقَه على أَربع: . . . . الحديث».



خارج عن ذاته، فأخبر الله تعالىٰ عن الإنسان أنه يعدمهما يوم القيامة فلا يعصمه من أمر الله تعالىٰ شيءٌ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

«السَّماءُ» في هذا القَسَم يحتمل أَن تكون المعروفة، ويحتمل أَن تكون السحاب، و«الرَّجْع»: المطر وماؤه، ومنه قول الهُذَليِّ:

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا ... مَا ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّجْع: السحاب والمطر، قال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كلَّ عام، وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض، وقال ابن زيد: الرجعُ مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حالٍ، ومن منزلة إلى منزلة، تذهب وترجع.

و«الصَّدْعُ»: النباتُ؛ لأن الأَرض تتصدَّع عنه، وهذا قول يناسب قول من قال: إن الرَّجْعَ هو المطر، وقال مجاهد: الصَّدْعُ: ما في الأَرض من شعاب ولِصَاب[2] وخندق وتَشقُّق بِحرْثٍ وغيره، وفيها أُمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في «الرَّجْع».

والضمير في [إِنَّهُ] للقرآن ـ ولم يتقدم له ذكر ـ من حيث القول في جزءٍ منه والحالُ تقتضيه. و[فَصْلٌ] معناه: جَزْمٌ، فَصل الحقائق من الأَباطيل، و«الْهَزْلُ»: اللَّعِبُ الباطِلُ.

ثم أَخبر تعالىٰ عن قريش أَنهم يكيدون في أَفعالهم وأَقوالهم وتمرسهم بالنبي عليه

---

(١) البيت للمُتَنَخِّل الهُذَلي يصف السيف، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر، وفتح القدير، ومجاز القرآن، والرَّجْعُ: قيل هو ماء المطر، وقال في اللسان: هو الغدير يتردد فيه الماءُ، وسيْفٌ رَسُوبٌ: ماضٍ يغيب في الضريبة، وكان لرسول الله ﷺ سيف يقال له رسوبٌ، وثاخ: غابَ واختفى، والمُحتَفَلُ: أَعظم موضع في الجسد، ويختلي: يقطع. يقول: إن هذا السيف يترقرق البياض فيه كأنه ماء الغدير، وهو سيف ثقيل يغيب في الجسد، وإذا ما ضرب به غاب في الضريبة وقطع.

(٢) اللِّصاب: جمع لِصْبٍ، وهو كل مضيق في الجبل أو الوادي.



الصلاة والسلام وتدبيرهم ردَّ أَمره، ثم قوى الله تعالىٰ ذلك بالمصدر وأَكّده، وأَخبر سبحانه عن أَنه يفعل بهم عقاباً سمَّاه كيْداً، على العُرف في تسمية العقوبة باسم الذنب، ثم ظهر من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَن عقابه الذي سمَّاه كيْداً متأَخر حتى ظهر بِبَدْرٍ وغيره، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، وقرأَ ابن عباس: [مَهِّلْهُمْ]، وفي هذه الآية مُوَادعة نسختها آية السيف.

وقوله تعالىٰ: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ معناه: قليلاً، قاله قتادة، وهو حالٌ، وهذه اللفظة إِذا تقدمها شيءٌ تَصِفُه، كقولك: سَيْراً رُوَيداً، أَو تقدمها فِعْلٌ يعمل فيها كهذه الآية، وأَما إِذا ابتدأْت بها فقلت: «رُوَيْداً يا فلان» فهي بمعنى الأَمر بالتَمَهُّل، تجري مجرى قولهم: صبراً يا زيد وقليلاً يا عمرو[1].

كمل تفسير سورة الطارق والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) قال الأزهري: إن «رُوَيْد» له أَربعة أَوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر، فالاسم نحو قولك: رُوَيْدَ عَمْراً، أَي أَرْوِدْ عمراً، بمعنى أَمهلْه، والصفة نحو قولك: ساروا سَيْراً رُوَيْداً، والحال نحو قولك: سار القوم رويداً، لما اتَّصل بالمعرفة صار حالاً لها، والمصدر نحو قولك: رُوَيْدَ عَمْرٍو، بالإضافة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. (راجع اللسان وغيره من كتب اللغة).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعلى

وهي مكيَّة في قول الجمهور، وحكى النقاش عن الضحاك أنها مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعاه إليه قول من قال: إنه ذكر صلاة العيد فيها(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

﴿سَبِّحِ﴾ في هذه الآية بمعنى: نزِّه وقدِّس وقل: سبحانه عن النقائص والغِيَر(٢) جميعاً وما يقول المشركون، و«الاسم» الذي هو «ألف، سين، ميم» يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يُراد به المسمَّى، ويأتي في مواضع يُراد به التَّسمية، نحو قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً»(٣) وغير ذلك، ومتى أُريد به المسمَّى فإنما هو صِلَة كالزائد، كأنه تعالىٰ قال في هذه الآية سبِّح ربَّك، أي نزِّه، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماءِ كزيْد وعمرو فيجيءُ في الكلام على ما قُلْتَ، تقول: «زيد قائم» تريد المسمَّى،

---

(١) أخرج البخاري، وابن سعد، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مُصْعبُ بن عمير، وابن أُمِّ مكتوم، فجعلا يُقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاءَ عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاءَ، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

(٢) هي أحوال الدهر وأحداثه المتغيِّرة، قيل: مفرده، غيرة: وقيل بل هو مفرد، وجمعه أغيار.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد والشروط والدعوات، ومسلم في الذكر، والترمذي في الدعوات وابن ماجه في الدعاء، ولفظه كما في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»، أحصاها: حفظها.



وتقول: «زيد ثلاثة أَحرف» تريد التَّسمية، وهذه الآية تحتمل الوجه الأول، وتحتمل أَن يراد بالاسم التسميةُ نفسها على معنى: نزِّه اسم ربِّك عن أَن يُسَمَّى به صنم أَوْ وثن فيقال له: إِلاَهٌ وربٌ ونحو ذلك.

و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ يصح أَن يكون صفة للاسم، ويصح أَن يكون صفة للرب تعالىٰ، وذكر الطبري أَن ابن عمر وعلياً رضي الله عنهما قرأا هذه السورة: [سُبحانَ رَبِّي الأَعْلى، الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى] قال: وهي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب كذلك، وهي قراءة أَبي موسى الأَشعري وابن الزبير، ومالك بن دينار، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ كان إذا قرأَ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»(١)، وكان ابن مسعود، وابن عمر، وابن الزبير يفعلون ذلك، ولما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(٢)، وقال قوم: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: نزِّه اسم الله تعالىٰ عن أَن تذكره إلاَّ وأَنت خاشع، وقال ابن عباس: معنى الآية: صلِّ باسم ربك الأَعلى، كما تقول: ابدأْ باسم الله تعالىٰ، وحُذف حرف الجر.

و﴿سَوَّىٰ﴾ معناه: عدَّل وأَتْقن حتى صارت الأُمور مستوية دالَّةً على قدرته ووحدانيته، وقرأَ جمهور القُرَّاءِ: ﴿قَدَّرَ﴾ بشدِّ الدال، فيحتمل أَن تكون من القَدَر والقضاءِ، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة بين الأَشياءِ، وقرأَ الكسائي وحده: [قَدَرَ] بتخفيف الدال، فيحتمل أَن تكون من القُدرة، ويحتمل أَن تكون من التقدير والموازنة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ عامٌ لجميع الهدايات في الإِنسان والحيوان، وقد خصَّص بعض المفسرين أَشياءَ من الهدايات ـ فقال الفراءُ: معناه: هدَى وأَضلَّ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأُخرى، وقال مقاتلٌ والكلبي: هدى الحيوان إِلى وَطْءِ الذكور الإِناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إِلى مصِّ الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس إِلى الخير والشر والبهائم للمراتع.

---

(١) أَخرجه أَحمد، وأَبو داود والبيهقي في سننه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأَخرج مثله عبد الرزاق، وابن أَبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير. (الدر المنثور).

(٢) أَخرجه أَحمد وأَبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عقبة بن عامر الجهني، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور: قال: لمَّا أُنزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال مثالات، والعمومُ في الآية أَصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

و﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾: النباتُ، وهو أَصل في قوام العيش، إِذْ هو غذاءُ الأَنعام، ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، و﴿الغُثَاءُ﴾: ما يبس وجفَّ وتحطَّم من النبات، وهو الذي يحمله السيل، وبه شُبِّه الناس الذين لا قدر لهم، و﴿الأَحْوى﴾ قيل: هو الأَخضر الذي عليه سوادٌ من شدة الخضرة والغضارة، وقيل: هو الأَسود سواداً يضرب إِلى الخضرة، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وَفي اللِّثاتِ وفي أَنْيابِهَا شَنَبُ[1]

وتقدير هذه الآية: أَخرج المرعى أَحْوَى، أَيْ أَسودَ من خُضرته ونضارته، فجعله غُثاءً عند يُبْسه، فـ ﴿أَحْوَىٰ﴾ حالٌ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فجعله غُثاءً أَحوى، أَي أَسود؛ لأَن الغُثاءَ إِذا قَدُم وأَصابته الأَمطار اسوَدَّ وتقبَّض فصار أَحوى، فهذا صفة.

قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قال الحسن، وقتادة، ومالك بن أَنس: هذه الآية في معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الآية[2] وعده الله تعالىٰ أَن يُقْرئه، وأَخبره أَنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذكُّر فَيُذْهب الآية، وذلك أَن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه مبادرة خوفاً منه أَن ينسى، وفي هذا التأويل آية للنبي ﷺ في أَنه أُمِّيٌّ وحفظ الله تعالىٰ عليه الوحي وأَمَّنه من نسيانه، وقال آخرون: ليست الآية في معنى تلك، وإِنما هذه وعْدٌ بإِقراءِ الشرع والسُّوَر، وأَمْرٌ بأَلاَّ ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالىٰ أَن ترك النسيان ليس في قدرته، فهو نهيٌ عن إِغفال التعاهد، وأَثبت الياءَ في ﴿تَنْسَى﴾ لتعديل رؤوس الآي[3]، وقال الجنيد: معنى ﴿لا تَنْسَى﴾: لا تترك العمل بما تضمن من أَمر ونهي.

---

(١) البيت في الديوان، واللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، والشَّفة اللمياءُ هي اللطيفة القليلة الدَّم، وهذا يُعطيها سمرة كانت محبوبة عند العرب، والحُوَّة: السَّواد الضارب إِلى الخضرة، وهو موضع الاستشهاد بالبيت هنا، واللَّعَسُ ـ بفتح اللام المشددة والعين: لون الشفة إِذا كانت تميل إِلى السواد القليل، واللِّثات: جمع لثَة، والشَّنب: بُرودة وعذوبة في الفم ورقَّة في الأسنان.

(٢) من الآية(١٦) من سورة (القيامة).

(٣) يعني بالياء في ﴿تَنسى﴾ الألف التي أَصلها ياءٌ، يقال: نَسيَ يَنْسَى.



وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: معناه: مما قضى الله سبحانه بِنَسْخِه وأن تُرْفع تلاوتُه وحكمه، وقال الفراءُ وجماعة من أهل المعاني: هو استثناءٌ صِلَةٌ في الكلام، على سنة الله تعالىٰ في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيح نسيانُه، وقال ابن عباس: إلاَّ ما شاءَ الله أن ينسيكه لِتَسُنَّ به، على نحو قوله ﷺ: «إِنِّي لأَنْسَى، وأُنَسَّى لأَسُنَّ»[1]. وقال بعض المتأولين: إلاَّ ما شاءَ الله أن يغلبك النسيانُ عليه ثم يذكِّرك به بعد، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عبَّاد بن بشر: «رحمه الله تعالىٰ، لقد أذكرني كذا وكذا آيةً في سورة كذا»[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونسيانُ النبي ﷺ ممتنع فيما أُمِر بتبليغه؛ إِذْ هو معصوم، فإذا بلَّغه وَوُعِيَ عنه فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك، أو على أن يسن، أو على النسخ.

ثم أخبره تعالىٰ أنه يعلم الجهر من الأشياءِ وما يخفى منها، وذلك لإحاطته بكل شيءٍ علماً، وبهذا يصح الخبر أنه لا ينسى شيئاً إلاَّ ذكَّره الله تعالىٰ به. وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معناه: نذهب بك نحو الأُمور الْمُسْتَحسنة في دنياك وأُخراك، من النَّصر والظَّفَر وعُلُوِّ الرسالة والمنزلة يوم القيامة والرفعة في الجنة.

ثم أمره تعالىٰ بالتذكير، واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فقال الفراءُ، والنحاسُ، والزهراويُّ: معناه: وإن لم تنفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني، وقال بعض الحُذَّاق: إنما قوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، أي: إِنْ نفعت الذكرى في هؤلاءِ الطُّغاة العُتاة، وهذا كنحو قول الشاعر:

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب السهو.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، ومسلم في المسافرين، وأحمد في مسنده (٦/ ٦٢، ٥/ ١٥٣)، ولفظه كما في البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأُ في المسجد فقال: رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آيةً أسقَطْتُهُنَّ من سورة كذا وكذا، وزاد عبَّادُ بن عبد الله عن عائشة: تهجَّد النبي ﷺ في بيتي، فسمع صوت عبَّادٍ في المسجد، فقال: يا عائشة، أَصَوْتُ عبَّادٍ هذا؟ قلت: نعم، قال: اللهم ارحم عباداً.

هذا وعبَّادُ بن بشر من قدماءِ الصحابة، أَسلم قبل الهجرة، وشهد بدراً، وأَبْلَى يوم اليمامة فاستشهد بها، رحمه الله.



لَقَدْ أَسْمَعْتَ ـ لو ناديت حَيّاً ـ وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنادِي[1]

وهذا كله كما تقول لرجل: قُلْ لفلان وأَعِدْ لَهُ إِنْ سَمِعَكَ، إنما هو توبيخ للمشار إليه.

ثم أَخبر الله تعالىٰ أنه سيذكَّرُ من يخشى الله تعالىٰ والدارَ الآخرة، وهم العلماءُ والمؤمنون، كلٌّ بقدر ما وُفِّق، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر، ووجب له صَلْيُ النار، وقال الحسن: «النَّارُ الكبرى» نار الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل، ففيها شَيءٌ أَكبر من شيءٍ، وقال الفراءُ: الكبرى هي السُّفلى من أَطباق النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ معناه: لا يموت فيها موتاً مريحاً ولا يحيا حياةً هنيَّة، فهو لا محالة حيٌّ، وقد ورد في خبر أَن العصاة في النار موتىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَراده على التشبيه لأَنه كالسُّبات[2] والركود والهمود، فجعله موتاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفْلَحَ﴾ في هذه الآية معناه: فاز ببغيته، و﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: طهَّر نفسه ونمَّاها بالخير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال لا إِله إِلاَّ الله تطهَّر من الشرك»، وقال الحسن: من كان عمله زاكياً، وقال أَبو الأَحوص: من رَضَخَ[3] من ماله وزكَّاه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ معناه: وحَّده وصلَّى له الصلوات التي فرض عليه، وتَنَفَّل أَيضاً بما أَمكنه من صلاة وبرٍّ، وقال أَبو سعيد الخدري، وابن عمر، وابن المسيب: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فـ﴿تَزَكَّىٰ﴾ هو أَدَّى زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربه﴾ هو ذكْرُ الله تعالىٰ في طريق المصلى إِلى أَن يخرج الإِمام، و«الصلاة» هي

---

(١) فالجملة الاعتراضية في البيت تفيد معنى التوبيخ، وتفيد أَن الإرشاد والنصح ينفعان من يستحق أن يوصف بالحياة، أما من لا يستفيد من النصيحة فكأنه ميت وإن كان في صورة الأحياءِ.

(٢) السُّبات: الراحة، والنوم.

(٣) رَضَخَ له من ماله: أَعطاه قليلاً من كثير.



صلاة العيد، وقد روي هذا التفسير عن النبي ﷺ[١]. وقال قتادة وكثير من المتأولين: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: أَدَّى زكاة ماله، و﴿صَلَّىٰ﴾ معناه: صلَّى الخمس.

ثم أَخبر الله تعالىٰ الناس أَنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فالكافر يُؤْثرها إِيثار كُفْر يَرَى أَلاَّ آخرة، والمؤمن يُؤْثرها إِيثار معصية وغَلَبَة نفس إِلاَّ من عصم الله تعالىٰ. وقرأَ أَبو عمرو وحده[٢]: [يُؤْثِرونَ] بالياءِ، وقال: يعني الأَشْقَيْن، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وأَبي رجاءٍ، والجحدري، وقرأَ الباقون والناس: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب: [بَلْ أَنتُمْ تُؤْثِرون]، وسبب الإِيثار حبُّ العاجل، والجهل ببقاءِ الآخرة، وقال عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إِلاَّ كنفخة أَرنب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ قال الضحاك: أَراد القرآن، وروي أَن القرآن انتسخ من الصحف الأُولى، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: الإِشارة إِلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإِشارة إِلى هذين الخبرين: إِفلاح من تزكَّى، وإِيثارُ الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها. وهذا هو الأَرجح لقرب المشار إِليه بـ[هَٰذَا].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أَي لم ينسخ هذا قط في شرعٍ من الشرائع، فهو في الأُولى وفي الأَخيرات، ونظير هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ ممَّا أَدرك الناس من كلام النبوَّة الأُولى إِذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت»[٣]، أَي: إِنه مما جاءت به الأُولى واستمر في الغير.

وقرأَ الجمهور: ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ مضمومة الحاءِ، وروى هارون عن أَبي عمرو سكون الحاءِ، وهي قراءة الأَعمش، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [إِبْرَٰهَمَ] بغير ياءٍ ولا أَلف، وقرأَ ابن الزبير: [إِبْرَاهامَ]، وكذلك أَبو موسى الأَشعري في كل القرآن، وقرأَ عبد الرحمن بن أَبي بكر: [إِبْرَاهِمَ] بكسر الهاءِ وبغير ياءٍ في جميع القرآن.

ورُوي أَن صُحُف إِبراهيم عليه السلام نزلت في أَول ليلة من رمضان، والتوراة في

---

(١) أَخرج ابن مردويه عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربِّه فصلَّى، ثم يُقسِّم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلَّى يوم الفطر.

(٢) أَيْ من القراءِ السبعة.

(٣) أَخرجه البخاري في الأنبياءِ والأَدب، وأَبو داود في الأَدب، وابن ماجه في الزهد، ومالك في موطئه، باب السفر، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢١، ١٢٢، ٥/ ٢٧٣).

السادسة من رمضان، والزبور في اثنتي عشرة منه، والإِنجيل في ثماني عشرة منه، والقرآن في أَربع عشرة منه[١].

كمل تفسير سورة الأعلى والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال ابن جرير في تفسيره: «حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، عن أَبي الخلد، قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ ليال خلون من رمضان، وأُنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة، وأُنزل الإِنجيل لثماني عشرة، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين»، وهذا يصحح لنا ما في الأصول هنا من أن القرآن أُنزل في الرابع عشر من رمضان.



بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سُورة الغاشية

وهي مكيّة بلا خلاف في ذلك بين أَهل التأويل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾.

قال بعض المفسرين: ﴿هَلْ﴾ بمعنى «قد»، وقال الحذاق: هي على بابها توقيفٌ فائدته تحريك نفس السامع إِلى تلقِّي الخبر، وقيل: المعنى: هل كان هذا من علمك لولا أَن علمناك؟ ففي هذا التأويل تقرير النعمة. و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: القيامة لأَنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لِبِنْيَتِهِ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين، وقال ابن جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النارُ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1]، وقال: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[2]، فهي تغشى سكانها، والقول الأَول يؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعُها ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب.

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فقال ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة: معناه: عاملةٌ في النار ناصبةٌ فيها، والنَّصَب: التَّعب، لأَنها تكبرت عن العمل لله تعالىٰ في الدنيا فأَعملها في الآخرة في ناره، وقال عِكرمة والسُّدِّيُّ: المعنى: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة، فالعمل ـ على هذا ـ هو مساعي الدنيا، وقال ابن عباس، وزيد بن أَسلم، وابن جبير: المعنى: هي عاملة في الدنيا ناصبة فيها.

(١) من الآية (٥٠) من سورة (إبراهيم).
(٢) من الآية (٤١) من سورة (الأعراف).



لأنها على غير هدى، فلا ثمرة لعاملها إلا النصب، وخاتمته النار، وقالوا: الآية في القِسِّيسينَ وعُبَّاد الأوثان وكل مجتهد في كفر، وقد ذهب إلى هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية، وبكى رحمةً لراهب نصراني رآه مجتهداً[1]، وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر القدرية فبكى وقال: إن فيهم المجتهد[2].

وقرأ ابن كثير ـ في رواية شبل ـ وابن محيصن: [عاملةً ناصبةً] بالنصب على الذَّم، والناصبُ فعل مضمر تقديره: أَذُمُّ أو أعني أو نحو هذا، وقرأ الستة وحفص عن عاصم، والأعرج، وطلحة، وأبو جعفر والحسن: [تَصْلَى] بفتح التَّاءِ وسكون الصاد، على بناءِ الفعل للفاعل، أي الوجوه، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وأبو رجاءٍ، وأبو عبد الرحمن، وابن محيصن ـ واختُلف عن نافع وعن الأعرج ـ: [تُصْلَى] بضم التاءِ وسكون الصاد، وذلك يحتمل أن يكون من «صَلَيْتُه النار» بمعنى أصليته فيكون كتُضرب، ويحتمل أن يكون من أَصليتُه فيكون كتُكرم، قرأ بعض الناس: [تُصَلَّى] بضم التاءِ وفتح الصاد وشدِّ اللام، على التعدية بالتضعيف، حكاها أبو عمرو بن العلاءِ. و﴿الحامية﴾: المسعَّرة التوقد المتوهجة. و﴿الآنِيةُ﴾: التي قد انتهى حرُّها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[3]، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقال ابن زيد: معنى ﴿ءَانِيَةٍ﴾: حاضرة لهم، من قولهم: أَنَى الشيءُ إذا حضر.

واختلف الناس في ﴿الضَّريع﴾ ـ فقال الحسن وجماعة من المفسرين هو الزَّقُّوم؛ لأن الله تعالىٰ قد أخبر في هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم إلاَّ من ضريع، وقد أخبر أن الزَّقُّوم طعام الأثيم[4]، فذلك يقتضي أن الضريع هو الزقوم. وقال سعيد بن جبير: الضريع حجارة في النار. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة: الضَّريع شِبْرِقُ

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والحاكم، عن أبي عمران الجوني، قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه براهب فوقف، ونودي على الراهب فقيل له: هذا أمير المؤمنين، فاطَّلع فإذا إنسان به من الضُّرِّ والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني فقال: قد علمتُ ولكني رحمته، ذكرت قول الله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فرحمت نصبه واجتهاده وهو في النار.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (الرحمن).

(٤) وذلك في قوله تعالىٰ في الآيتين (٤٣، ٤٤) من سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾.

النار، وقال أَبو حنيفة: الضريع الشِّبرق[١]، وهو مرعى سوءٍ لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول ابن عَيْزَارَةَ الهُذَلِيِّ:

وَحُبِسْنَ فـي هـزْم الضَّـريـعِ فَكُلُّهـا حَـدْبـاءُ دامِيَـةُ الْيَـدَيْـنِ حَـرودُ[٢]

وقال أَبو ذُؤَيْب:

رَعَى الشِّبرِقَ الرَّيَّانَ حتَّى إذا ذَوَى وَعَاد ضَريعاً بانَ مِنْهُ النَّحائِصُ[٣]

وقيل: الضريع: العِشْرِقُ[٤]، وقال النبي ﷺ: «الضريع شوك في النار»[٥]، وقال بعض اللغويين: الضَّريع يَبِسُ العَرْفَج[٦] إذا تحطم، وقال آخرون: هو رَطْبُ العَرْفج، وقال الزجاج: هو نَبْت كالعَوْسج[٧]، وقال بعض المفسرين: الضريعُ نبت في البحر

---

(١) جاء في اللسان: «الشِّبْرِق، بالكسر: نباتٌ غضٌّ، وقيل: شجر مَنْبته نجد وتهامة، وثمرته ساكَّة صغيرة الجِرْم، حمراءُ مثل الدم، مَنْبتها السِّباخُ والقيعان، واحدته شِبْرِقة».

(٢) البيت في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وفي التاج، والكشاف، والشاعر هو قَيْس بن عَيْزَارة ـ بفتح العين ـ والبيت في وصف إبل وسُوءِ مرعاها، وقد وصفها بشدة الهُزال، وهَزْمُ الضريع: ما تكسَّر منه، والحدباءُ: الناقة التي ظهرت حراقفُها ـ والحرقَفَةُ رأسُ الوَرِك ـ وكبرَ ظَهْرها وبَدَا عالياً، والحرودُ: التي لا تكادُ تُدِرُّ لبناً، والسبب في أن يديها دَمِيَت أنها ترعى هذا الشوك وتتعرض له.

(٣) البيت في القرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، والكشاف، وقدَ نسب فيها كلها إلى أبي ذُؤيب الهذلي، ولكنا لم نجده في ديوانه، والشبرقُ: نبتٌ يسميه أَهل الحجاز ضريعاً إذا يَبِس، وغيرهم يُسَمِّيه الشِّبرق، وذَوَى: ذَبُل ويبسَ وضَعُف، والنَّحائصُ: جمع نَحُوصٍ، وهي الأتان الوحشية، وقيل: هي التي في بطنها ولد، وقال الأصمعي: النحوصُ من الأُتن هي التي لا لَبن بها، وقيل: هي التي لا لَبن بها ولا ولد لها.

(٤) العشْرِقُ: من الحشيش، ورقه شبيه بورق الغار، إلاَّ أَنه أَعظم منه وأكبر، إذا حرَّكته الريحُ تَسمَع له زجلاً، وله حَمْل كَحَمْل الغار إلاَّ أَنه أَعظم منه. (راجع اللسان).

(٥) أَخرجه بن مردويه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيءٌ يكون في النار، شبه الشوك، أَمَرُّ من الصبر، وأَنْتَن من الجيفة، وأَشدُّ حرًّا من النار، سماه اللهُ الضريع، إذا طَعِمَهُ صاحبه لا يدخل البطن، ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين ذلك، ولا يُغني من جوع». (الدر المنثور).

(٦) العَرْفج: نَبْت سهْليٌّ سريع الاتّقاد، واحدته عَرْفَجة، وقيل: هو من شجر الصيف، وهو ليِّن أَغبر، له ثمرة خشناء كالحَسَك.

(٧) العَوْسَجُ: شجر من شجر الشوك، له ثمر أَحمر مُدَوَّر كأنه خرز العقيق، والمفرد: عَوسَجَة. (عن اللسان).



أَخضر مُنْتِن مُجَوَّف مستطيل، له نَوْر فيه كبير[١]، وقال ابن عباس أَيضاً: الضريع شجر من نار. وكُلُّ من ذكر شيئاً مما قدمناه فإِنما يعني أَن ذلك من نار ولا بُدّ، وكلُّ ما في النار فهو نارٌ، وقال قوم: ضَريع: وادٍ في جهنم، وقال جماعة من المتأولين: الضريعُ طعامُ أَهل النار، ولم يُرد أَن يخصص شيئاً مما ذُكر، قال بعض اللغويِّين: وهذا مما لا تعرفه العرب، وقيل: الضريعُ: الجلدةُ التي على العظم تحت اللحم، ولا أَعرف من تأول الآية بهذا، وأَهل هذه الأَقاويل يقولون: الزَّقُّوم لطائفة، والضَّريعُ لطائفةٍ، والغِسْلينُ لطائفة.

واختلف في المعنى الذي سُمِّي به ضريعاً ـ فقيل: هو ضريعٌ بمعنى مُضْرِع، أَي مضعف للبدن مُهْزِلٌ، ومنه قول النبي ﷺ في وَلَدَيْ جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنهم: «ما لي أَراهما ضارعَيْن»[٢]؟ يريد هزيلَيْن، ومن فَعِيل بمعنى مُفْعل قول عمرو بن معديكرب:

أَمِــنْ رَيْحــانَــةَ الــدَّاعِــي السَّمِيــعُ ... يُــؤَرِّقُنِــي وَأَصْحــابِــي هُجُــوعُ[٣]

يريد: المُسمِع. وقيل: ضَريعٌ: فَعِيل من المضارعة، أَي لأَنه يشبه المرعى الجيِّد ويضارعه في الظاهر، وليس به.

ولما ذكر تعالىٰ وجوه أَهل النار عقَّب ذلك بذكر وجوه أَهل الجنة ليبين الفرق، وقوله تعالىٰ: ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ يريد به: لعملها في الدنيا وطاعتها، والمعنى: لثواب سعيها والتنعيم عليه، ووصف تعالىٰ الجنة بالعُلوِّ، وذلك يصح من جهة المسافة والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة أَيضاً.

---

(١) اختلفت النسخ في كتابة هذه الجملة، واخترنا أَقربها إلى ما يلائم المعنى العام.

(٢) أَخرجه مالك في الموطأ، في كتاب العين.

(٣) هذا البيت هو مطلع قصيدة مشهورة للشاعر ذكر صاحب الأغاني سببيْن لإنشادها، أَولُهما أن عمراً هذا تزوج امرأةً من مُراد تسمَّى «ريحانة»، وذهب مغيراً قبل أن يدخل بها، فلما قدِم أُخبر أنه قد ظهر بها وَضَحٌ ـ وهو داءٌ تحذره العرب ـ فطلقها وتزوجها رجل آخر من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عمراً، كما بلغه أَنَّ ما قيل عن مرضها غير صحيح، فأخذ يشبب بها. وثانيهما أن «ريحانة» هذه هي أُخته، وأن الصِّمة ـ والدُ دُرَيْد بن الصِّمة ـ قد سباها بعد أن غزا بني زبيد، ولم يستطع عمرو أن يسترجعها. والشاهد هنا أن «السَّميع» بمعنى «المُسْمِع»، كما أن «البديع» بمعنى «المبدع»، والمعنى: إن الشوق الداعي المُسمِع يؤرقني في الوقت الذي ينام فيه أَصحابي ويستريحون، عَلَى أن للنحويين كلاماً كثيراً في هذا البيت، فمنهم من يقول ما ذكرناه ومنهم من يخالف، ويدور بين الطرفين نقاش طويل في الإعراب وفي المعنى. والبيت في الأصمعيات، واللسان، والتاج، وفي الخزانة، والشعر والشعراء.



وقرأ نافع وحده، وابن كثير، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ والأَعرج، وأَهل مكة والمدينة: [لا تُسْمَعُ فيها لاغيةٌ] بضم التاءِ من فوق، ورفع ﴿لَٰغِيَةً﴾، ففسَّره بعضهم: لا تُسمع فيها كلمةٌ لاغية، أَي ذات لغو، فهي على النسب، وفسَّره بعضهم على معنى: لا تُسمع فيها فئة أَو جماعةٌ لاغية ناطقة بسوءٍ، وقال أَبو عبيدة: ﴿لَٰغِيَةً﴾ مصدر كالعاقبة والجاثية، وقرأَ الجحدري: [لا تُسْمَعُ] بضم التاءِ [لاَغِياً] بالنصب، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [لاَ يُسْمَعُ] بالياءِ من تحت مضمومة [لاغِيَةٌ] بالرفع، وهي قراءة ابن محيصن، وعيسى، والجحدري أَيضاً، إِلاَّ أَنه قرأَ: [لاَغِيَةً] بالنصب، على معنى: لا يُسمع أَحدٌ كلمةً لاغية، من قولك: أَسمعتُ زيداً، وقرأَ الباقون، ونافع ـ في رواية خارجة ـ والحسن، وأَبو رجاءٍ، وأَبو جعفر، وقتادة وابن سيرين، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ بفتح التاءِ [لاغِيَةً] بالنصب، والمعنى إِمَّا على الكلمة وإِمَّا على الفئة، والفاعل بـ ﴿تَسْمَعُ﴾ إِمَّا الوجوه، وإِمَّا محمد ﷺ ـ قاله الحسن ـ وإِمَّا أَنتَ أَيها المخاطب عموماً. و«اللَّغْوُ» سَقَط القول، فذلك يجمع الفُحْش وسائر الكلام السَّفاسف[1] الناقص، وليس في الجنة نقصان ولا عيب فعل ولا قول، والحمد لله وَلِيِّ النعمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

﴿عَيْنٌ﴾ في هذه الآية اسم جنس، ويحتمل أَن تكون عيناً مخصوصة ذُكرت على جهة التشريف لها. ورَفْعُ السُّرُر أَشرف لها، و﴿الأَكْوابُ﴾ أَوان كالأَباريق لا عُرَى لها ولا آذان ولا خراطيم، وشكلها عند العرب معروف، و﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ معناه: بِأَشْرِبَتها مُعَدَة، و«النُّمْرُقَةُ»: الوسادة، ويقال: نِمْرِقَةٌ بكسر النون والراءِ، قال زهير:

كُهُـولاً وَشُبَّـانـاً حِسـانـاً وُجُـوهُهُـمْ ... عَلَـى سُـرُر مَصْفُـوفَـةٍ ونمـارِقِ[2]

---

(١) أي: الحقير الرديء من كل قول أو فعل.

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان زهير «دار صادر ببيروت»، وقد ذكره في البحر المحيط منسوباً أيضاً إلى=



و﴿الزرابي﴾ واحدتها «زَرِبيّة»، ويقالُ بفتح الزاي، وهي كالطنافس لها خَمْلٌ[١]، قاله الفَراءُ، وهي ملونات و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ معناه: كثيرة متفرقة.

ثم أَقام تعالىٰ الحجة على منكري قدرته على بعث الأَجساد بأَن وَقَفَهم على مواضع العبرة في مخلوقاته، و﴿ٱلْإِبِلِ﴾ في هذه الآية هي الجمال المعروفة، هذا قول الجمهور من المتأولين، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، ليس في الحيوان مَا يَقوم من البروك بحمله سواه، وهو على قوته غاية في الانقياد، قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الجحر فبركت الناقة وأَدنت رأَسها من فم الجحر، وكان شريح القاضي يقول لأَصحابه: اخرجوا بنا إلى الكُناسَة[٢] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت، وقال أَبو العباس المبرد: الإبل هنا: السحابُ لأَن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أَرسالاً كالإبل، وتُزْجَى كما تُزْجَى[٣] الإبل، وهي في هَيْئَتها أَحياناً تشبه الإبل والنعام، ومنه قول الشاعر:

كَــأَنَّ السَّحــابَ دُوَيْــنَ السَّمــا ءِ نَعَــامٌ تَعَلَّــق بــالأَرْجُــل[٤]

وقرأَ أَبو عمرو ـ بخلاف ـ وعيسى: [الإِبِلّ] بشد اللام[٥]، وهي السحاب كما ذكر قوم من اللغويين والنقاش، وقرأَ الجمهور: ﴿خُلِقَتْ﴾ بفتح القاف وضم الخاءِ، وقرأَ

= زهير، والكهل: الرجل إذا جاوز الثلاثين ووخطه الشيب، قال ذلك في الصحاح، والسُّرر: جمع سرير، والنَّمارق: جمع نُمرقة، وهي بضم النون، وقد تأتي بكسرها كما قال ابن عطية، قال الفراء: النُّمرقة هي الوسادة، وفي الحديث: «اشتريت نُمرقة».

(١) الخَمْلُ: هُدْب القطيفة ونحوها مِمَّا ينسج وله فضول، وقد يقال الخَمْل على القطيفة نفسها. (المعجم الوسيط).

(٢) الكُناسة: سوق الكوفة، وكانت الإبل تأتي إليها بالبضائع أو تصدر عنها، وهي مثل المربد سوق البصرة. وتنطق بضم الكاف.

(٣) زَجَّى الشيء وأَزْجاه: ساقه ودفعه، والرِّيحُ تُزجي السحاب، أي تسوقه سوقاً رفيقاً، وفي الكتاب العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

(٤) البيت في البحر المحيط غير منسوب أَيضاً، و«دُون» نقيض «فوق»، ويقال: هذا دُونَ ذلك، أَي أَقرب منه، وقد صغَّرها الشاعر هنا ليشير إلى أن المسافة بين السحاب والسماء قليلة، وهذا يعني أن السحاب كثير الارتفاع، والبيت يدل على أن السَّحاب قد شُبِّه بالإبل، ولكنه قطعاً لا يُعطي دلالة لغوية على أن الإبل هي السحاب كما يقول أَصحاب هذا الكلام.

(٥) الإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة مثل أَسماءِ الجموع التي لا واحد لها من لفظها، ويقال: «إِبْل»: بسكون الباءِ، والجمع: آبال.



علي بن أَبي طالب: [خَلَقْت] بفتح الخاءِ وسكون القاف، على فعل المتكلم، وكذلك [رَفَعْتُ، ونَصَبْتُ، وسَطَحْتُ]، وقرأَ أَبو حيوة: ﴿رُفِّعَتْ، وَنُصِّبتْ، وَسُطِّحَتْ﴾ بالتشديد فيها. و[نُصِبَتْ] معناه: أُثبتت قائمة في الهواءِ لا تنبطح، وقرأَ الجمهور: ﴿سُطِحَتْ﴾ بتخفيف الطاءِ، وقرأَ هارون الرشيد: [سُطِّحَتْ] بشد الطاءِ على المبالغة، وهي قراءة الحسن. وظاهر هذه الآية أَن الأَرض سَطْحٌ لا كُرَة، وهو الذي عليه أَهل العلم، والقول بكرويتها ـ وإِن كان لا ينقض ركناً من أَركان الشرع ـ فهو قول لا يُثبته علماءُ الشرع[1].

ثم أَمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتذكير بهذه الآيات ونحوها. ثم نفى تعالىٰ أَن يكون مسيطراً على الناس، أَي قاهراً مُخْبِراً لهم مع تكبُّر متسلطاً عليهم، يقال: تسيطر علينا فلان، وقرأَ بعض الناس: [بِمُسَيْطِرٍ] بالسين، وبعضهم [بمُصَيْطِرٍ] بالصاد، وقرأَ هارون: [بمُسَيْطَر] بفتح الطاءِ، وهي لغة تميم، وليس في كلام العرب على هذا البناء غير «مُسَيْطر، ومُبَيْطر، ومُبَيْقر، ومُهَيمن»[2]، وفي الأَسماءِ «مُدَيْبر، ومُجَيْمر»، وهو اسم واد، ويحتمل أَن يكون هذان مُصغَّرين[3].

قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾، قال بعض المتأولين: «الاستثناءُ مُتَّصل، والمعنى: إِلاَّ من تولَّى وكفر فأَنت مسيطر عليه، فالآية ـ على هذا ـ لا نسخ فيها، وقال آخرون منهم: الاستثناءُ منفصل، والمعنى: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ وتمَّ الكلام، وهي آية مُوَادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ﴾، وهذا هو القول الصحيح؛ لأَن السورة مكيّةٌ، والقتال إِنما نزل بالمدينة، و﴿مَنْ﴾ بمعنى «الذي». وقرأَ ابن عباس، وزيد بن أَسلم، وقتادة، وزيد بن علي: (أَلاَ مَنْ تَوَلَّى) بفتح الهمزة، على معنى استفتاح الكلام، و﴿مَنْ﴾ ـ على هذه القراءة ـ شرطية. و(العَذَابُ الأَكْبَرُ) عذابُ الآخرة؛ لأَنهم قد عُذِّبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما، وقرأَ ابن مسعود: [فإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ].

---

(١) كان هذا في عصره، أما الآن فلا يُقبل هذا الفهم، ومعنى الآية لا يتعارض مع الحقائق والواقع، فالأرض مسطوحة أمام العين فقط، ولم تتعرض الآية لكرويتها أو انبساطها من أولها إلى آخرها، والقرآن الكريم يقول في آية أخرى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾.

(٢) وهذه الأربعة أسماء فاعلين، من: سَيْطر، وبَيْطَرَ، وبَيْقرَ، وهَيْمَن.

(٣) فهما في الأصل: مُدَبِّرٌ ومُجَمِّر، وبعد التصغير كانا مُدَيْبر ومُجَيْمر.

وقرأ الجمهور: ﴿إِيَابَهُمْ﴾، مصدرٌ من «آب يَؤوبُ» إذا رجع، وهو الحشر والردُّ إلى الله تعالىٰ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: [إِيَّابُهُمْ] بشد الياءِ، على وزن «فِعَّال» بكسر الفاءِ، أَصله «فيعال»، من «أَيَّبَ»، أَصله «فَيْعَلَ»، ويصحُ أَن يكون من «أَوَّبَ» فيجيءُ «إيواباً» وسهلت الهمزة، وكان اللازم في الإدغام ردها «إِوَّاباً»، لكن استحسنت فيه الياءُ على غير قياس[١].

كمل تفسير سورة الغاشية والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

(١) قال صاحب اللوامح وتبعه الزمخشري: «هو نحو كذَّب كِذَّاباً، وقيل فيه «إيواباً. لأن الواو الأولى قلبت ياءً لانكسار ما قبلها»، ويرفض أَبو حيان في البحر المحيط هذا الكلام، ويناقشه مناقشة لغوية مبسوطة. وقال الأزهري: «لا أَدري مَنْ قرأَ «إِيَّابهم» بالتشديد، والقراء على التخفيف».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الفجر

وهي مكيّة عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماءِ أنه قال: إنها مدنية، والأول أشهر وأصحُّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

قال جمهور المفسرين: «الفَجْرُ» هنا هو المشهور الطالع في كل يوم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفجرُ: النَّهار كلُّه، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: الفجر الذي أقسم الله تعالىٰ به: صلاة الصبح، وقرأ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[1]، وقال مجاهد: إنما أراد فجر يوم النحر، وقال الضحاك: المراد فجر ذي الحِجَّة، وقال مقاتل: المراد فجر ليلة جمْع[2]، وقال ابن عباس أيضاً: المراد فجر أول يوم المحرَّم لأنه فجر السنة، وقيل: المراد فجر العيون من الصخور وغيرها، وقال عكرمة: المراد فجر يوم الجمعة.

واختلف الناس في «اللَّيالي العَشْر» ـ فقال بعض الرواة: هي العشرُ الأُول من رمضان، وقال ابن عباس والضحاك: هي العشر الأَواخر من رمضان، وقال يمانُ[3] وجماعة من المتأولين: هي العشر الأُول من المحرم، وفيها يوم عاشوراءَ، وقال ابن

---

(١) في بعض النسخ «وقراءتُها هي قُرْآن الفَجْر».

(٢) جَمْعٌ هي المزدلفة، وسميت بذلك لاجتماع الناس بها، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «بعثني رسول الله ﷺ في الثَّقَل من جَمْع بلَيْل»، وجمع عَلَم للمزدلفة.

(٣) لم يذكر أحد من المفسرين الاسمَ كاملاً، وهناك أكثر من واحد بهذا الاسم.

الزبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وعطية العوفي: هي عشر ذي الحَجة، وقال مجاهد: هي عَشْر موسى عليه السلام التي أتمَّها اللهُ تعالىٰ له. وقرأ الجمهور: ﴿ وَلَيَالٍ ﴾، وقرأ بعض القُرَّاءِ: [وَلَيَالِي عَشْرٍ] بالإضافة، وكأن هذا على أَنَّ «العَشْر» مشارٌ إليه معيَّنٌ بالعلم به، ثم وقع القسم بِلَيَالِيهِ، فكأَن «العَشْر» اسمٌ لَزِمه، وهذا نحو قولهم: «فعلتُ كذا في العشر الأوسط»، فإنما هذا على أن «العَشْرَ» اسمٌ لَزِم حتى عومل معاملة الفرد ثم وُصف به، ومن راعى فيه الليالي قال «العَشْر الوُسُط».

واختلف الناس في «الشَّفْع والوَتْر» ـ فقال جابر عن النبي ﷺ: «الشَّفع يومُ النحر، والوَتْر يومُ عَرَفة»[1]، وروى أَبو أَيوب عنه ﷺ أنه قال: «الشَّفْع يومُ عَرَفة ويومُ الأَضحى، والوتر ليلة النَّحْر»[2]، وروى عِمْرانُ بن حُصَين عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «هي الصلواتُ منها الشَّفع ومنها الوتر»[3]، وقال ابن الزبير وغيره: الشفع اليومان من أَيام التشريق، والوَتر اليوم الثالث، وقال آخرون: الشَّفْعُ العالم، والوتر الله سبحانه؛ إِذْ هو تعالىٰ الواحد محضاً، وسواه ليس كذلك، وقال بعض المتأَولين: الشفع آدمُ وحواءُ عليهما السلام، والوَتْر الله سبحانه وتعالىٰ، وقال ابن سيرين، ومسروق، وأَبو صالح: الشفع والوَتْر شائعان في الخلق كله: الإيمان والكفر، والإنس والجن، وما اطَّرَدَ نحو هذا، فهي أَضدادٌ أَو كالأَضداد، ووترها الله تعالىٰ فردٌ واحدٌ، وقيل: الشفع الصفا والمروة، والوَتْر البيتُ، وقال الحسين بن الفضل: الشفع أَبواب الجنة لأَنها ثمانية، والوَتْر أَبواب النار لأَنها سبعة، وقال مقاتل: الشفع الأَيام والليالي، والوَتْر يوم القيامة لأَنه لا ليل بعده، وقال أَبو بكر الورَّاق: الشفع تضادُّ أَوصاف المخلوقين كالعِزِّ والذُّلِّ ونحوه، والوتر اتحاد صفات الله تعالىٰ، عزٌّ محض وكَرَمٌ محض، ونحوه، وقيل: الشفعُ قِرانُ الحج والعمرة، والوَتْر الإفرادُ بالحج، وقال

---

(١) أَخرجه أحمد، والنسائي، والبَزَّار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن جابر، وأورده السيوطي في الدُّرِّ المنثور، ولفظه أَن النبي ﷺ قال: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾، قال: العَشْر عَشْر الأَضحى، والوَتْر يومُ عرفة، والشفع يومُ النحر.

(٢) أَخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي أيوب، عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الشَّفع والوَتر فقال: «يومان وليلة، يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلةُ النحر، ليلة جَمْع»، (الدر المنثور).

(٣) أَخرجه أَحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن عمران بن حُصَين.

الحسن: أَقسم الله تعالىٰ بالعدد لأنه إمَّا شفع وإمَّا وَتْر، وقال بعض المفسرين: الشفع حواءُ والوَتْر آدم عليهما السلام، وقال ابن عباس ومجاهد: الوَتْر صلاة المغرب، والشفع صلاة الصبح، وقال أَبو العالية: الشفع الركعتان من المغرب، والوَتْر الركعة الأَخيرة، وقال بعض العلماءِ: الشفع تنفُّلُ الليلِ مثنى مثنى، والوتر الركعة الأَخيرة المعروفة.

وقرأَ جمهور القراءِ والناسُ: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو، وهي لغة قريش وأَهل الحجاز، وقرأَ حمزة، والكسائي: والحسن ـ بخلاف ـ وأَبو رجاءٍ، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وقتادة: [وَالْوِتْر] بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر. وذكر الزهراوي أَن الأَغرَّ رواها عن ابن عباس، وهما لغتان في الفَرد، وأَمّا في الذَّحل[1] فإِنَّما هو «وِتْر» بالكسر لا غير، وقد ذكر الزهراوي أَن الأَصمعي حكى فيه اللغتين، الفتح والكسر.

و«سُرى الليل» ذهابُه وانقراضه، هذا قول الجمهور، وقال ابن قتيبة، والأَخفش، وغيرهما: المعنى: إذا يُسْرَى فيه، فيخرج هذا الكلام مخرج «ليل نائم ونهار صائم»، وقال مجاهد، وعكرمة، والكلبي: أَراد بهذا ليلة جمْعٍ لأَنها يُسْرَى فيها، وقرأَ الجمهور: ﴿يَسْرِ﴾ دون ياءٍ في وصل ووقف، وقرأَ ابن كثير: [يَسْري] بالياءِ في وصل ووقف، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [يَسْري] بياءٍ في الوصل ودونه في الوقف، وحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي، قال اليزيديُّ: الوصل في هذا وما أَشبهه بالياءِ، والوقف بغير ياءٍ على خط المصحف، ووقف تعالىٰ على هذه الأَقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لِذِي عقل. و﴿الحِجْرُ﴾: العقلُ والنُّهْيَةُ، والمعنى: فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالىٰ.

ثم وقف تعالىٰ على مصارع الأُمم الخالية الكافرة، وما فعل بها من التعذيب والإهلاك، والمراد بذلك توعُّد قريش ونصب المثل لها. و﴿عَادٍ﴾، قبيلة، لا خلاف في ذلك، واختلف الناس في ﴿إِرَمَ﴾ ـ فقال مجاهد وقتادة: هي القبيلة بعينها، وعلى هذا قال ابن قيس الرقيات:

مَجْـــداً تَليـــداً بَنـــاهُ أَوَّلُـــهُ ... أَدْرَكَ عـــاداً وَقَبْلَهـــا إِرَمَـــا[2]

---

(١) الذَّحْلُ: الحِقدُ والعداوة.

(٢) البيت من قصيدة قالها عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات يمدح عمر بن عبد العزيز، وهو في القرطبي، والبحر=



وقال زهير:

وَآخَـرِيـنَ تَـرى المـاذِيَّ عُـدَّتَهُـمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ أَوْ ما أَوْرَثَتْ إِرَمُ[1]

وقال ابن إسحاق: إِرمٌ هو أَبُو عاد كلِّها، وهو عَادُ بن عوْص بن إِرَم بن سام بن نوح عليه السلام، وقال غير ابن إسحاق: هو أَحد أَجدادها، وقال جمهور المفسرين: إِرمٌ مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقبُري[2]: هي دمشق، وهذان القولان ضعيفان، وقال مجاهد: «إِرَم» معناه: قديمة. وقرأَ الجمهور: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾، فصرفوا «عاداً» على إرادة الحيِّ، ونعتوا بـ «إِرَم» بكسر الهمزة على أَنها القبيلة بعينها، ويؤيد هذا قولُ اليهود للعرب سيخرج فينا نبيٌّ نتَّبعه، نقتلكم معه قتل عادٍ إِرَم، فهذا يقتضي أَنها قبيلة، وعلى هذه القراءة يتجه أَن يكون «إِرَمُ» أَباً لعاد أَوْ جدًّا غلب اسمه على القبيلة. وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: ﴿بِعَاد * إِرَم﴾ على ترك الصرف في «عاد» وإِضافتها إِلى «إِرَمَ»، وهذا يتجه على أَن يكون «إِرَمُ» أَباً أَو جَدًّا، وعلى أَن تكون مدينة. وقرأَ الضحاك: [بِعَادَ أَرَمَ] بفتح الدال والهمزة من «أَرَمَ» وفتح الراءِ والميم، على ترك الصرف في «عاد» والإِضافة، وقرأَ ابن عباس والضحاك: [بِعَادٍ أَرَمَّ] بشدِّ الميم على الفعل الماضي بمعنى: بَلِيَ وصار رَميماً، يقال: أَرمَّ العظمُ ورَمَّ وَأَرَمَّهُ اللهُ، تُعَدِّي «رَمَّ» بالهمزة. وقرأَ ابن عباس أَيضاً: «أَرَمَّ ذاتَ» بالنصب في التاءِ، على إِيقاع الإِرْمام عليها، أَي: أَبْلاها ربُّك وجعلها رميماً، وقرأَ ابن الزبير: [أَرِمَ] بفتح الهمزة

= المحيط، وفتح القدير، والكشّاف، والتَّليد: القديم الأصلي الذي ورثته أو وُلد عندك، وهو نقيض الطارف، وعادٌ هي القبيلة المعروفة، ويضرب بها المثل في القِدَم، وإرم هي نفس القبيلة، وعلى هذا يستشهد المؤلف بالبيت، وقيل غير ذلك مما سيذكره.

(١) هذا البيت من قصيدة قالها زهير بن أَبي سُلْمى يمدح هرم بن سنان، والماذيُّ: الدُّروع السهلة اللَّيِّنة الضافية، من نَسْج داود: من صنعته التي عرف بها، وإرَمُ: هي القبيلة، وأراد بذلك أنها دروع قديمة مُتَوَارَثَة جيدة النسج، منسوبة إلى النبي داود عليه السلام أول من عمل الدروع، أو من ميراث تركته إرم القديمة.

(٢) هو كَيْسان بن سعيد المَقْبُري المدني، أَبو سعيد، مولى أُم شريك، ولهذا لم يعرف نسبه، وهو تابعيٌّ ثقة، كثير الحديث، كان منزله بالقرب من المقابر فاشتهر بالمقبُري، أَوْ لأنه تولى النظر في أَمر القبور، توفي سنة مائة.



وكسر الراءِ، وهي لغة في المدينة، وقرأَ الضحاك بن مزاحم: [أَرْمَ] بسكون الراءِ وفتح الهمزة وهي تخفيف في «أَرِم» كَفَخْذٍ وَفَخِذٍ.

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ فمَنْ قال «إِرَمُ مدينة» قال: العِمَادُ هي أَعمدة الحجارة التي بُنيت بها، وقيل: القصورُ العالية والأَبراجُ، يقال لها: عماد، ومَنْ قال «إِرَمُ» قبيلة قال: العمادُ إِمَّا أَعمدة أَبْنِيَتِهِمْ وإِمَّا أَعمدة بيوتهم التي يرحلون بها؛ لأَنهم كانوا أَهل عمود ينتجعون البلاد، قاله مقاتل وجماعة، وقال ابن عباس: هي كناية عن طول أَبدانهم.

وقرأَ الجمهور: ﴿لَمْ يُخْلَقْ﴾ بضم الياءِ وفتح اللام [مِثْلُها] رفعاً، وقرأَ ابن الزبير: [لَمْ يَخْلُقْ] بفتح الياءِ وضم اللام [مِثْلَهَا] نصباً، وذكر أَبو عمرو الداني عنه أَنه قرأَ: (لَمْ نَخْلُق) بالنون وضم اللام [مِثْلَها] نصباً، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة، والضمير في [مِثْلُها] يعود إِمَّا على المدينة وإِمَّا على القبيلة.

وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَثَمُوداً] بتنوين الدال، و﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾ معناه: خرقوه ونحتوه، وكانوا في واديهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة، و«الوادي» ما بين الجبلين وإِن لم يكن فيه ماءٌ، هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، وقال الثعلبي: يريد: بِوادي القرى، وقال قوم: المعنى: جابوا واديهم وجلبوا ماءَهم في صخر شقُّوه، وهذا فعل ذي القوة والآمال، وقرأَ ابن كثير: [بِالوادِي] بالياءِ، وقرأَ أَكثر السبعة: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بدون ياءٍ، واختلف في ذلك عن نافع وقد تقدم هذا.

و﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو فرعون موسى عليه السلام، واختلف الناس في أَوتاده ـ فقيل: أَبنيته العالية العظيمة، قاله محمد بن كعب، وقيل: جنوده الذين بهم ثبت ملكه، وقيل: المراد أَوتاد أَخبية عساكره وذُكرت لكثرتها ودلالتها على غزواته وطوافه في البلاد، قاله ابن عباس، ومنه قول الأَسود بن يَعْفُر:

. . . . فـي ظِـلِّ مُلْـكٍ ثـابِـتِ الأَوْتَـادِ[1]

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأسود بن يَعْفُر، وهو من قصيدة يتذكَّر فيها الشاعر أيام شبابه، ويتحسر على سعادته الضائعة، وما كان ينعم به من لهو ومجون وفروسية، شأنه شأن الفرسان في الجاهلية، والبيت بتمامه:

وَلَقَـدْ غَنُـوا فيهـا بـأَنْعَـمِ عِيشَـةٍ فـي ظِـلِّ مُلْـكٍ ثَـابِـتِ الأَوْتَـادِ =



وقال قتادة: كانت له أَوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم، وقال مجاهد: كان يوتد الناس بأوتاد الحديد، يقتلهم بذلك، يضربها في أَبدانهم حتى تنفذ إلى الأَرض، وقيل: إنما فعل ذلك بزوجته آسية، وقيل: فعل ذلك بماشطة بنته لأَنها كانت آمنت بموسى عليه السلام.

و«الطغيانُ»: تجاوز الحدود، و«الصَّبُّ» مستعمل في السَّوط لأَنه يقتضي سرعة في النزول، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإِفك:

فَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصداتٌ كَأَنَّهَا ... شَآبيبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحابٍ وَلا قطْرِ[١]

ومن ذلك قول المتأَخر في صفة الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا ... فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ[٢]

وإنما خُصَّ السَّوط بأن يستعار للعذاب لأَنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وقال بعض اللغويين: السَّوْط هنا مصدر، من: ساطَ يَسُوطُ، فكأَنَّهُ تعالىٰ قال: خِلْط عذاب[٣].

و«المِرْصادُ» و«المَرْصَدُ»: موضع الرصد، قاله اللغويون، أَي أَنه عند لسانِ كُلِّ قائل، ومرصدٌ لكلِّ فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاءَ جواب عامر بن قيس

= وَغَنُوا: أَقاموا، يقول: إن أهل هذه الديار التي يتحسَّر عليها كانوا يعيشون فيها منعَّمين تحت حكم ثابت متين.

(١) حديث الإفك معروف، والذين حُدُّوا فيه هم حسَّان، وحَمْنَة، ومِسْطَح، وهم الذين افتروا على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد روى ابن إسحاق في السيرة أربعة أبيات من الشعر قيلت فيهم، ولم ينسبها لشاعر معين، بل قال: «وقال قائل مِنْ المسلمين»، وهذه الأبيات على قافية الحاء، والبيت المذكور هنا هو آخرها، لكن روايته تختلف عما هنا، فهو:

وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا ... شَآبِيبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَى الْمُزْنِ تَسْفَحُ

والمحصداتُ هي السِّيَاط المحكمة الفتل، الشديدة الصلابة. والشآبيب: جمع شُؤْبوب وهو الدفعة من المطر، والذُّرى: الأعالي، والمُزْن: السحاب، وتَسْفَح: تسيل وتنزل بكثرة ـ أما المعنى بحسب المذكور هنا فهو أن هؤلاء المفترين قد صُبَّتْ عليهم السياط الشديدة كأنها المطر الغزير، ولكنه مطر من نوع خاص، فهو لم ينزل من السحاب ولا من الماء، بل من سياطٍ محكمة الفتل.

(٢) يقول الشاعر: إننا صببْنَا على هذه الخيلِ سياطنا، وكنا لها ظالمين، فأسرعت تجري كأنها تطير.

(٣) لأن من معاني «السَّوْط» في اللغة: الخَلْطُ، يقال: ساطه: أَي خَلَطَهُ، فكأنه قال: خِلط عذاب.



لعثمان رضي الله عنه حين قال له: أين ربك يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد، ويحتمل أن يكون «المرصاد» في الآية اسم فاعل، كأنه تعالىٰ قال: لَبالرَّاصد، فعبَّر ببناءِ مبالغة[١]، وروي في بعض الحديث «إنَّ على جسر جهنم ثلاث قناطر، على إحداها الأمانة، وعلى الأخرى الدم، وعلى الأخيرة الربُّ تعالىٰ، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٢]».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر الله تعالىٰ في هذه الآية ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالىٰ وإهانته لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن مَنْ عنده الغِنى والثروة والأَولاد فهو المُكْرم، وبضدِّه المُهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثير من الكفار جاءَ التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس؛ إذْ قد يقع بعض المؤمنين في شيءٍ من هذا المنزع، ومن ذلك حديث الأَعراب الذين كانوا يقصدون المدينة على النبي ﷺ، فمن نال خيراً قال: هذا دِينٌ حسن، ومن ناله شرٌّ قال: هذا دِينُ سوءٍ.

و﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ معناه: اختبره، و﴿نَعَّمَهُۥ﴾ معناه: جعله ذا نعمة، وقرأَ ابن كثير: [أَكْرَمَني] بالياءِ في وَصْل ووقف، وحذفها عاصم، وابن عامر وحمزة، والكسائي في الوجهين، وقرأَ نافع بالياءِ في الوصل وحذفها في الوقف، وكذلك ﴿أَهَٰنَنِ﴾، وخيَّر في الوجهين أبو عمرو. وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى: ضَيَّق، وقرأَ الحسن ـ بخلاف ـ وأَبو جعفر، وعيسى، وخالد: [فَقَدَّرَ] «بشدِّ الدال»[٣]، بمعنى: جعله على قدر، وقيل: هما بمعنى واحد في معنى التَّضييق؛ لأنه ضعَّف [قَدَّرَ]

(١) ذكر أبو حيان في البحر المحيط كلام ابن عطية هذا، وعلَّق عليه بقوله: «ولو كان كما زعم لم تدخل الباءُ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة».

(٢) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن سالم بن أَبي الجعد، وأخرج مثلَه ابنُ جرير عن عمرو بن قيس، ولم يرفعه أي منهما إلى النبي ﷺ. (الدر المنثور).

(٣) ما بين علامتي التَّنصيص زيادة للتوضيح.



مبالغةً لا تعديةً، ويقتضي قول الإنسان: ﴿أَهَٰنَنِ﴾؛ لأن «قَدَّرَ» مُعَدًّى إنما معناه: أعطاه ما يكفيه، ولا إهانة مع ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا﴾ ردًّا على قولهم ومعتقدهم، أَي: ليس إكرامُ الله تعالىٰ وإهانتُه كذلك، وإنما ذلك ابتلاءٌ، فحقٌّ من ابتُليَ بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتُلِيَ بالفقر أَن يشكر ويصبر، وأَما إكرامُ الله تعالىٰ فهو بالتقوى، وإهانتُه فبالمعصية. ثم أَخبرهم تعالىٰ بأعمالهم من أَنهم لا يكرمون اليتيم، وهو ـ من بني آدم ـ الذي فقد أَباه وكان غير بالغ، ومن البهائم ما فقد أُمَّه، وقال النبي ﷺ: «أَحبُّ البيوت إِلى الله تعالىٰ بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرم»[1].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [تَحُضُّونَ] بمعنى: يَحُضُّ بعضكم بعضاً، أَو تحُضُّون أَنفسكم، وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: (تَحَاضُّون) بفتح التاءِ، بمعنى: يتحاضُّون، أَي يحضُّ قومٌ قوماً، وقرأَ أَبو عمرو: [يَحُضُّون] بياءٍ من تحت مفتوحة وبغير أَلف، وقرأَ عبد الله بن المبارك: [تُحَاضُّون] بضم التاءِ ـ على وزن تقاتلون ـ، أَيْ أَنفسكم، أَي بعضكم بعضاً، ورواها الشَّيْرَزِيُّ عن الكسائي، وقد يجيءُ «فاعَلْت» بمعنى «فعَلْتُ»، وهذا منه، وإِلى هذا ذهب أَبو علي، وأَنشد:

تحَاسَنْت بِهِ. . . . .[2]

أَي: حَسُنت، وأَنشد أَيضاً:

إذا تخازرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ[3]

---

(١) أَخرجه البيهقي في شعب الإيمان، عن عمر رضي الله عنه، وأَخرجه العقيلي في الضعفاءِ وأبو نعيم في الحلية عن عمر أَيضاً ولكن بلفظ «خير بيوتكم بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرم»، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح.

(٢) البيت غير واضح في الأُصول، ولم نستطع قراءة شيءٍ منه إلاَّ ما أثبتناه، وهو: (تحاسَنت به)، ، هو موضع الاستشهاد، حيث أن «تحاسَنَ» بمعنى «حَسُنَ»، كما قال المؤلف، لأن «تفاعل» قد تأتي بمعنى «فعل».

(٣) ذكر صاحب اللسان عن ابن بَرِّي أن هذا البيت من الرجز يروى مع أبيات أُخرى لعمرو بن العاص رضي الله عنه، وهذا هو المشهور، ويقال: إنها لأرطاةَ بن سُهيَّة وتمثل بها عمرو بن العاص، والأبيات كما أُنشدها أَبو عبيد:

إذا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ =



ويحتمل أَن يكون مفاعلة، ويتجه ذلك على رجف[١]، فتأمله. وقرأ الأَعمش: [تتحَاضُّون] بتاءين. و«طعام» في هذه الآية بمعنى: إطعام، وقال قوم: أَراد نفس طعامه الذي يأكل، ففي الكلام حذف تقديره: على بذل طعام المسكين، وقد تقدم القول في سورة براءة في المسكين والفقير بما يغني عن إعادته.

وعدَّد تعالىٰ عليهم جِدَّهم في أَكل التراث؛ لأَنهم كانوا لا يُوَرِّثون النساءَ ولا صغار الأَولاد، وإنما كان يأخذ المال من يقاتِل ويحمي الحوزة[٢] و«اللَّمُّ»: الجمع واللَّف، قال الحسن: هو أَن يأْخذ في الميراث حظَّه وحظَّ غيره، وقال أَبو عبيدة: «لَمَمْتُ ما على الخِوان» إذا أَكلتُ جميع ما عليه بأسره، ومنه «لَمُّ الشَّعث»، ومنه قول الشاعر:

وَلَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لا تَلُمُّـهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجالِ الْمُهَذَّبُ؟[٣]

و«الجَمُّ»: الكثير الشديد، ومنه قول الشاعر:

إنْ تغفِـرِ اللَّهُـمَّ تَغفِـرْ جَمَّـا وَأَيُّ عَبْـدٍ لَـكَ لاَ أَلَمَّـا؟[٤]

= ثُـمَّ كَسَـرْتُ الْعَيْـنَ مِـنْ غَيْـرِ عَـوَرْ
وَجَـدْتَنـي أَلْـوَى بَعيـدَ الْمُسْتَمَـرْ
أَحْمِـلُ مـا حُمِّلْـتُ مِـنْ خَيْـرٍ وَشَـرْ

ونلحظ أن المؤلف هنا يقول: «وأَنشدها أبو عليٍ»، وفي اللسان «وأَنشدها أَبو عبيد»، والْخَزْر هو النظر بمُؤْخر العين، والتَّخازُر هو إظهار الْخَزَز مع أنه غير موجود، وهو مثل تَعَامَى وتَجَاهَل وتَغَافل، بمعنى أَظهر العمى والجهل والغفلة، ومعنى «أَلْوَى بعيد الْمُسْتَمَر» أنه قويٌ في الخصومة لا يسأم المِراسَ. (راجع الكتاب لسيبويه، والأمالي للقالي، والمحتسب لابن جني، والمقتضَب، وابن يعيش، واللسان).

(١) هكذا في الأُصول، ولعلَّه يريد: على اضطراب واهتزاز في المعنى.

(٢) حَوزَة الرجل: ما في مِلْكه.

(٣) البيت للنابغة، وهو من قصيدة يعتذر فيها للنعمان ويمدحه. و«مُسْتَبْقٍ» معناها: مُبْقٍ، فالسين والتاءُ للمبالغة، و«أخاً»: صديقاً، و«تَلُمُّه»: لا تقبل منه ما فيه من عيوب، وأَصل اللَّمِّ الجمعُ، وقد استعمل هنا مجازاً في جمع مختلِف الطباع وقبولها سواءٌ أكانت مُرضية أو غير مرضية، و«الشَّعث»: ما تفرق. و«أيُّ» اسم استفهام للإنكار، أَو للنفي، إذ لا يوجد رجل كامل التهذيب، وجملة «أَيُّ الرجال المهذب» بيان لما قبلها، وقد كان حماد الراوية يقدم النابغة لمثل هذا: ويقول: هذا ربع بيت يغنيك عن غيره، ومعنى البيت: إنك لا تستطيع أن تحتفظ بالأَصدقاءِ ما لم تقبل بعض عيوبهم، لأنه لا يوجد إنسان كامل الخُلُق.

(٤) في اللسان ـ جَمَمَ ـ وفي مغني اللبيب أَن هذا البيت لأبي خراش الهُذلي، وفي اللسان ـ لَمَمَ ـ وفي شرح=



ومنه الجَمُّ من الناس.

ثم قال تعالى: [كَلاً] ردًّا على أفعالهم هذه، وتوطئة للوعيد، أي: سترون أن أفعالكم ليست على قوام[1] إذا دُكَّت الأَرض، ودَكُّها هو تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدَّكاءُ هي التي لا سنام لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ معناه: وجاءَ قَدره وسلطانه وقضاؤُه، وقال منذر بن سعيد: معناه ظهورُهُ للخلق هنالك، ليس مجيءَ نُقْلة، وكذلك مجيءُ الصاخّة ومجيءُ الطّامة[2]. و﴿المَلَكُ﴾ اسم جنس، يريد جميع الملائكة، ورُوي أن ملائكة كل سماءٍ يكونون صفاً حول الأَرض في يوم القيامة، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اختصرته، وبهذا المعنى يتفسَّر قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[3] على قراءَة من شدَّ الدال، وقوله تعالىٰ في سورة الرحمن: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ الآية[4].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في هذه الآية: ﴿تُكْرِمُونَ﴾ بالتاءِ، وكذلك سائر الأَفعال بعدها على الخطاب، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريُّ: [يُكْرِمونَ] بالياءِ في جميعها، على ذكر الغائب؛ إذ قد تقدم اسم جنس الإنسان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

رُوي في قوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أنها تُساق إلى الحشر بسبعين أَلف

= الزوزني أنه لأُميّة بن أبي الصلت، ولعلَّ أبا خِراش قد استشهد به، والجَمُّ: الكثير المجتمع، واللَّمَمُ: صغار الذنوب.

(١) القَوَام: العدل والاستقامة.

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة عبس: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، وإلى قوله تعالىٰ في الآية (٣٤) من سورة النازعات: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

(٣) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٢) من سورة غافر: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾.

(٤) من الآية (٣٣) من سورة الرحمن.



زمام، يُمسك كلَّ زمام منها سبعون ألف مَلَك، فيخرج منها عُنق فتنتقي الجبابرة من الكفار... في حديث طويل مختلف الألفاظ[١] و﴿جَهَنَّمَ﴾ هنا هي النار بجُمْلتها، ورُوي أنه لما نزلت ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تغيَّر لون النبي ﷺ[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ معناه: يتذكر عصيانه وطغيانه، وينظر ما فاته من العمل الصالح، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: وأنَّى له نفع الذكرى؟ ثم ذكر تعالىٰ عنه أنه يقول: ﴿يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، واختلف في معنى قوله: ﴿لِحَيَاتِى﴾ فقال جمهور من المتأولين: معناه: لحياتي الباقية، يريد الآخرة، وقال قوم من المتأولين: المعنى: لحياتي في قبري عند بعثي الذي كنت أُكذِّب به وأعتقد أني لن أعود حياً، وقال ﴿لِحَيَاتِى﴾ هنا مجازاً، أيْ: ليتني قدمت عملاً صالحاً لأنعم به اليوم وأَحيا حياةً طيبة، فهذا كما يقول الإنسان: أَحْيني في هذا الأمر، وقال بعض المتأولين: المعنى: لوقت أَو لمدة حياتي الماضية في الدنيا، وهذا كما تقول: جئت لطلوع الشمس، ولتاريخ كذا، ونحوه.

وقرأَ جمهور القراءِ، وعليٌّ بن أَبي طالب، وابن عباس، وأَبو عبد الرحمن: ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾ بكسر الذال والثاءِ، وعلى هذه القراءة في الضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ لله تعالىٰ، والمصدر مضاف إِلى الفاعل، ولذلك معنيان: أَحدهما أَن الله تعالىٰ لا يكلُ عذاب الكفار يومئذ إِلى أَحد، والآخر أَن عذابه من الشدة في حيِّز لم يعذَّب قطُّ أَحدٌ بمثله في الدنيا[٣]، ويحتمل أَن يكون الضمير للكافر، والمصدر مضاف

(١) أَخرجه ابن جرير، قال: حدثنا أَبو كريب، قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربيٌّ، عن إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أَبي زياد، عن محمد بن كعب القرطي، عن رجل من الأنصار، عن أَبي هريرة، وهو حديث طويل: وانظر الهامش التالي.

(٢) أَخرجه ابن مردويه عن أَبي سعيد، وفيه: «لما نزلت هذه الآية تغيَّر رسول الله ﷺ، وعُرف في وجهه، حتى اشتدَّ على أَصحابه ما رأوا من حاله، فسأله عليٌّ فقال: جاءَ جبريل فأقرأني هذه الآية ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾، فقيل: وكيف يُجاءُ بها؟ قال: يجيءُ بها سبعون أَلفَ مَلَك، يقودونها بسبعين أَلف زمام، فتشرد شردة لو تُركت لأَحرقت أَهل الجمع»، وأَخرج مثلَه ابن وهب في كتاب الأهوال، عن زيد بن أَسلم، وأَخرج مسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون أَلف زمام، مع كل زمام سبعون أَلف مَلَك يجرونها».

(٣) في بعض النسخ: «لم يُعَذِّب قطُّ أَحداً بمثله في الدنيا».

إِلى المفعول. وقرأَ الكسائي، وابن سيرين، وابن أَبي إِسحاق، وسوَّاد القاضي[١]: (يُعَذَّبُ) و(يُوثَقُ) بفتح الذال والثاءِ، ورويت كثيراً عن النبي ﷺ[٢]، فالضميران ـ على هذا ـ للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله، والمصدر مضاف إِلى المفعول، ووضع «عذاب» موضع «تعذيب»، كما قال:

وَبَعْدَ عطائِكَ الْمِائَةَ الرِّتاعا ؟[٣]

ويحتمل أَن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالىٰ، كأنه سبحانه قال: لا يُعذِّبُ أَحدٌ قطُّ في الدنيا عذاب الله تعالىٰ للكفار، فالمصدر مضاف إِلى الفاعل، وفي هذا التأويل تحامل. وقرأَ الخليل بن أَحمد[٤]: [وِثَاقَهُ] بكسر الواو.

ولما فرغ ذكر هؤلاءِ المعذَّبين عقَّب تعالىٰ بذكر نفوس المؤمنين وحالهم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية. و«الْمُطْمَئِنَّةُ» معناه: الموقنة غاية اليقين، أَلا ترى أَن إِبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ؟ فهي درجة زائدة على

(١) هو سوَّادُ بن عبد الله بن قدامة التميمي، العنبري، كان قاضي البصرة، قال عنه صاحب كتاب «تقريب التهذيب»: «صدوق، محمود السِّيرة، تكلَّم فيه الثوري لدخوله في القضاءِ، مات سنة ست وخمسين»، وهناك حفيده واسمه: سوَّار بن عبد الله بن سوَّار، كان قاضي الرصافة وغيرها، مات سنة خمس وأَربعين، ونعتقد أَن الأول ـ وهو الجَدُّ ـ هو المقصود، لأنه كان أَشهر بالقضاء، وهذا الثاني كان أَشهر من جده في الحديث.

(٢) أَخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن مردويه، وابن جرير، والبغوي، والحاكم وصححه، وأَبو نعيم، عن أَبي قلابة، عمَّن أَقرأَه النبي ﷺ، وفي رواية مالك بن الحويرث أَن النبي ﷺ أَقرأَه ـ وفي لفظ: أَقرأَ إِياه ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ منصوبة الذال والثاءِ. (الدر المنثور).

(٣) هذا عجز بيت قاله القطاميُّ، وهو من قصيدة طويلة مدح بها زُفَرَ بن الحارث الكلابي، وكان زُفر قد أَسر القطاميَّ في الحرب التي كانت بين قيس وتغلب، وأَرادت قيس قتله، لكن زُفر حال بينهم وبينه، ومَنَّ عليه، وأَعطاه مائة من الإبل، وأَطلق سراحه، فقال قصيدته، والبيت بتمامه:

أَكُفْـــراً بَعْـــدَ رَدِّ الْمَـــوت عَنِّـــي وَبَعْـدَ عَطَـائِـكَ الْمـائَـةَ الـرتـاعَـا ؟

والاستفهام في (أَكُفراً) إنكاريٌّ، والمعنى: أَأَكفُرُ كفراً ؟ والرِّتاع: جمع راتعة، وهي الراعية، يقول: أَأَخونك بعد أَنْ مننتَ عليَّ وأَطلقتَ سراحي وأَعطَيْتَني هذه المائة ؟ والشاهد أَن «العطاءَ» هنا بمعنى «الإعطاءِ»، ولهذا عمل عمله، والمفعول الثاني محذوف، وتقديره: بعد إعطائك المائة الرِّتاع إِيَّايَ، و(رَدِّ): مصدر مضاف إلى المفعول، وفاعله محذوف، والتقدير: بَعْد ردِّك الموتَ عنِّي.

(٤) هو الخليل بن أَحمد الأزديُّ الفراهيديُّ، أبو عبد الرحمن، البصريُّ اللغويُّ، صاحب العروض والنحو، صدوق عالم عابد، وهو أُستاذ سيبويه، مات بعد الستين.



الإِيمان، وهي أَلاَّ يبقى على النفس في يقينها مطلب يُحرِّكها إِلى تحصيله.

واختلف الناس في هذا النداءِ، متى يقع؟ فقال ابن زيد وغيره: هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا، ورُوي أَن أَبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال له: «إِنَّ المَلَكَ سيقولها لك يا أَبا بكر عند موتك»[١]، ومعنى ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ـ على هذا التأويل ـ: ارجعي بالموت، وقوله تعالىٰ: ﴿ فِى عِبَٰدِى ﴾ معناه: في عداد عبادي الصالحين، وهذه قراءة الجمهور، بجمع (عبادي). وقيل: النداءُ عند قيام الأَجساد من القبور، فقوله تعالىٰ: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ معناه: بالبعث من موتك ارجعي إِلى الله تعالىٰ، وقيل: «الرَّبُّ» هنا: الإِنسان ذو النفس، أَي: ادخلي في الأَجساد، و«النفس» اسم جنس[٢]، وقال بعض العلماءِ: هذا النداءُ هو الآن للمؤمنين، كَما ذكر الله تعالىٰ حال الكافرين قال: يا مؤمنون[٣] دُومُوا وجدُّوا حتى ترجعوا راضين مَرْضِيِّينَ، فالنَّفس ـ على هذا ـ اسم الجنس. وقرأَ ابن عباس، وعكرمة، وأَبو شيخ، والضحاك، واليماني، ومجاهد، وأَبو جعفر: (فَادْخُلِي في عَبْدِي)، فالنفس ـ على هذا ـ ليست باسم الجنس، وإِنما خاطب مفردة، قال أَبو شيخ: الروح تدخل في البدن، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: «يَا أَيَّتُهَا الآمِنَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ، الَّتي إِلى ربِّك راضيَةً مَرْضيَّة، فارْجعي في عَبْدي»، وقرأَ سالم بن عبد الله: [فادْخُلي في عبادي وَلِجي جَنَّتي]. وتحتمل قراءَة «عبدي» أَن يكون «العبد» اسم جنس، جعل عباده كالشيءِ الواحد دلالةً على الالتحام، كما قال عليه الصلاةُ والسلام: «وهُمْ يدٌ على مَنْ سواهم»[٤]. وقال

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، عن سعيد بن جبير، وأَخرجه الحكيم الترمذي في (نوادر الأُصول) من طريق ثابت بن عجلان، عن سليم بن أَبي عامر، وأَخرجه بن أَبي حاتم، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) واستدلوا على هذا بقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (فَادْخُلِي في عَبْدي) على التوحيد، وقراءة ابن مسعود: «في جَسَدِ عَبْدِي».

(٣) في جميع الأصول: «يا مؤمنين».

(٤) أَخرجه أَبو داود في الجهاد والديات، والنسائي في القسامة، وابن ماجه في الديات، وأَحمد في مسنده (١/ ١١٩، ١٢٢، ٢/ ١٨٠، ١٩٢، ٢١١، ٢١٥)، ولفظه كما في مسند أَحمد عن أَبي حسان أَن علياً رضي الله عنه كان يأمر بالأَمر فيُؤْتَى، فيقال: قد فعلنا كذا وكذا، فيقول: صدق الله ورسوله، قال: فقال له الأَشتر: إن هذا الذي تقول قد تَفَشَّغ في الناس ـ كثر وانتشر ـ، أَفَشيْءٌ عهده إليك رسول الله ﷺ؟ قال=



آخرون: هذا النداءُ إنما هو في الموقف عندما يُنطلق بأهل النار إلى النار، فنداءُ النفوس ـ على هذا ـ إنما هو نداءُ أرباب النفوس مع النُّفوس. ومعنى ﴿ ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ ـ على هذا ـ: إلى رحمة ربك، و«العبادُ» هنا: الصالحون المتَّقون.

كمل تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

* * *

= عليٌّ رضي الله عنه: ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ شيئاً خاصةً دون الناس، إلاَّ شيءٌ سمعتهُ منه فهو في صحيفة في قراب سيفي، قال: فلم يزالوا به حتى أخرج الصحيفة، قال: فإذا فيها: «من أَحدثَ حَدَثاً أَوْ آوَى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرفٌ ولا عَدل»، قال: وإذا فيها: «إِنَّ إبراهيم حرَّم مكَة، وإنِّي أُحرم المدينة، حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله، لا يُختَلَى خَلاَها، ولا يُنَفَّر صيدها، ولا تُلْتَقطُ لُقَطَتُها إلاَّ لمن أشار بها، ولا تقطع منها شجرة إلاَّ أن يعلف رجلٌ بعيره، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»، قال: وإذا فيها: «المؤمنون تتكافأ دماؤُهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم، أَلاَ لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عَهْد في عهده».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة البلد

وهي مكيَّة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: هي مدنية[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

قرأ الحسن بن أَبِي الحسن: (لأُقْسِمُ)، وقرأ الجمور: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، واختلفوا ـ فقال الزجاج وغيره: [لَا] صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله تعالىٰ: ﴿أُقْسِمُ﴾، وقال مجاهد: [لَا] ردٌّ لكلام متقدم للكفار، ثم استأنف قوله تعالىٰ: ﴿أُقْسِمُ﴾، وقال بعض المتأولين: [لا] نفيٌ لِلْقسم بالبلد، أَخبر الله تعالىٰ أَنه لا يُقْسِم به.

ولا خلاف بين المفسرين أَن البلد المذكور هو مكَّة. واختُلف في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ـ فقال ابن عباس وجماعة: معناه: وأَنت حلال بهذا البلد يحلُّ لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يترتب قول من قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح، ويتركب على هذا التأويل قول من قال: [لا] نافيةٌ، أَي: إِن هذا البلد لا يُقْسِم اللهُ تعالىٰ به، وقد جاءَ أَهلُه بأَعمال توجب إِحلال حرمته، ويتَّجه أَيضاً أَن تكون [لا] غير نافية. وقال بعض المتأولين: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ معناه: ساكِنٌ بهذا البلد، وعلى هذا يجيءُ قولُ من قال: هي مكِّية، والمعنى على إِيجاب القسَم بيِّن، وعلى نفيه أَيضاً يتَّجه على معنى: لا أُقسم ببلد أَنت ساكنه على أَذى هؤلاءِ القوم وكفرهم. وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أَن معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أَي: قد

---

(١) قال القرطبي في تفسيره: «مكيَّةٌ باتفاق»، وقال الشوكاني في فتح القدير: «وهي مكِّيَّة بلا خلاف»، وأَما أَبو حيان في البحر المحيط فقال: «هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقيل مدنية».



جعلوك حلالاً مُسْتَحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا، وإعراب ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ عطف بيان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قسم مستأنف على قول من قال: [لا] نافية، ومعطوف على قول من قال: [لا] غير نافية، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ـ فقال مجاهد: هو آدم عليه السلام وجميع ولده، وقال بعض رواة التفسير: هو نوحٌ عليه السلام وجميع ولده، وقال أبو عمران الْجَوْني: هو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده، وقال ابن عباس ما معناه: إن الوالد والولد هنا على العموم، فهي أسماءُ جنس يدخل فيها جميع الحيوان، وقال ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة: ﴿وَوَالِدٍ﴾ معناه: كلُّ من وَلَدَ وأَنْسل، وقوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ لم يَبْق تحته إلاَّ العاقر الذي ليس بوالد البتَّة.

والقسم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، واختلف الناسُ في ﴿الكَبَدِ﴾ ـ فقال جمهور الناس: «الإنسان» اسم الجنس كُلِّه، والكَبدُ: الْمشقَّةُ والمكابدة، أَي: يكابد أَمر الدنيا وأَمر الآخرة، ومن ذلك قول لبيد:

يـا عيْـنُ هـلاَّ بكيْـتِ أَرْبَـد إذْ   قُمْنَـا وقـام الْخُصـومُ فـي كَبَـدِ(١)

وقول ذي الإصبع:

لِيَ ابْـنُ عَـمٍّ لـوَ انَّ النَّـاسَ فـي كَبَـدِ   لَظَـلَّ مُحْتَجِـزاً بِـالنَّبْـل يَـرْمينـي(٢)

وبالمشقَّة في أَنواع أَحوال الناس فسَّره الجمهور، وقال الحسن: لم يخلق الله تعالىٰ

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها لبيد يرثي بها أَربد بن قيس بن جَزْءٍ، وكان أَخاً للبيد من أُمه، وقد وفد على النبي ﷺ في عام الوفود مع جماعة، وعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فلم يُسلم، وفي أَثناءِ عودته أَصابته صاعقة فأَحرقته، والبيت في الديوان، واللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، واستشهد به أَبو عبيدة في مجاز القرآن، كما استشهد به الزمخشري في الكشاف، وابن عباس في خبر نقله السيوطي في الدرِّ المنثور.

(٢) الشاعر اسمه حُرْثان بن الحارث، وسُمِّي ذا الإصبع لأن حيَّةً نهشت إبهام قدمه فقطعها، والبيت من قصيدة يتحدث فيها ذو الإصبع عن عداوة وقعت بين أَبناءِ قبيلته، فقد كان بنو عدوان من أَعزِّ العرب وأَكثرهم مالاً، ثم وقع بينهم بأْسُهم فتفانوا، ووقف الشاعر يرقب هذه المحنة ويصور نتائجها، والمُحْتجزُ هو الذي يشدُّ وسطه بثوب أَو نحوه، والبيت في البحر المحيط، وفتح القدير، وأَمالي القالي، والمفضَّليات، ومنتهى الطلب، والأغاني، وشعراءِ الجاهلية، والرواية في المفضَّليات: «وَلِي ابنُ عمٍّ»، وفي أَمالي القالي: «محتجراً» بالراءِ، ونحسبه خطأً مطبعياً.



خلقاً يكابد ما يكابد ابنُ آدم، وقال ابن عباس، وابن شداد، وأَبو صالح، والضحاك، ومجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ معناه: منتصب القامة واقفاً[١]، وقال ابن زيد: «الإِنسان» آدمُ عليه السلام، و«في كَبد» معناه: في السماءِ، سَمَّاها كَبَداً، وهذان القولان قد ضُعِّفا، والقول الأَول هو الصحيح.

ورُوي أَن سبب هذه الآية وما بعدها هو أَبو الأَشَدَّين[٢]، رجل من قريش شديد القوة، واسمه أُسَيْد بن كلدة الجُمحي، كان يحسب أَن أَحداً لا يقدر عليه[٣]، ويقال: بل نزلت في عمرو بن عبدِ ودٍّ، ذكره النقاش، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي بن أَبي طالب رضي الله عنه خلف الخندق، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذنب فاستفتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمره بالكفَّارة، فقال: لقد أَهلكت مالاً في الكفَّارات والنفقات منذ تبعت محمداً[٤]، وكان كل واحد منهم قد ادَّعى أَنه أَنفق مالاً كثيراً على إِفساد أَمر النبي ﷺ، أَو في الكفَّارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله.

و﴿يَقْدِرُ﴾ نُصب بـ [لَنْ]، و[أَنْ] مخففة من الثقيلة، وكان قول هذا الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كذباً منه؛ فلذلك قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ؟ أَيْ أَنه رُئيَ وأُحْصِيَ فعلُه، فماله يكذب، ومن قال: «إِن المراد اسم الجنس غير معيَّن مفرد» جعل قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ بمعنى: أَيظنُّ الإِنسان أَن ليس عليه حفظة يرون أَعماله ويُحصونها إِلى يوم الجزاءِ؟ وقال النبي ﷺ: «لا تزولُ قدَما عبْدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عُمُره فِيمَ أَفناه؟ وجسمه فِيمَ أَبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه وأَين أنفقه؟»[٥].

واختلف القراءُ في قوله: ﴿لُبَداً﴾ فقرأ جمهور الناس: [لُبَداً] بضم اللام وفتح

---

(١) يعني لا يمشي على أربع كبقية الحيوانات.

(٢) كذا في الأصول، وهو يوافق ما في «البحر المحيط»، و«معاني القرآن» للفراءِ، و«القرطبي»، أما في «الطبري» و«الكشاف» و«روح المعاني» و«البيضاوي» و«الثعلبي» فهو: أَبو الأَشد.

(٣) قيل: كان هذا الرجل يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه، ثم يقول: من أَزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة من الرجال حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أَعداء النبي ﷺ.

(٤) وقوله هذا إِمَّا أَن يكون استطالةً بما أَنفق فيكون طغياناً منه، وإِما أَن يكون أَسفاً منه فيكون ندماً وحسرة منه، وهو في الحالتين من الخاسرين.

(٥) أخرجه الترمذي في القيامة.



الباءِ، وقرأَ مجاهد: [لُبُداً] بضمهما، وذلك جمع «لِبْدة» أَو جمع «لبود» بفتح اللام، وقرأَ أَبو جعفر يزيدُ: [لُبَّداً] بضم اللام وفتح الباءِ وشدِّها، فيكون مفرداً نحو «زُمَّل»، ويكون جمع «لابد»، وقد روي عن أَبي جعفر [لُبْداً] بسكون الباءِ، والمعنى في هذه القراءات كلها: مالاً كثيراً ملتبداً بعضه فوق بعض من التكاثف والكثرة، وقرأَ الحسن: [لَم يَرْهُ] بسكون الراءِ لتوالي الحركات.

ثم عدَّد تعالىٰ على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهو جوارحه، وقرن تعالىٰ الشَّفتين باللسان لأَن نعمة العبارة والكلام لا تصحُّ إلاَّ بالجميع، وفي الحديث: «يقول الله تعالىٰ: ابن آدم، إنْ نازعك لسانك إلى ما لا يحلُّ لك فقد أَعنتك عليه بشفتين فأَطبق»(١)، واختلف الناس في «النَّجْدَيْن» ـ فقال ابن مسعود، وابن عباس، والناس: طريق الخير وطريق الشر، أَي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد، وقال ابن عباس أَيضاً، والضحاك: النَّجدان: ثَدْيَا الأُم، وهذا مثال، والنَّجْد: الطريق المرتفع، وأَنشد الأَصمعي:

كَميـشُ الإزارِ خـارجٌ نِصْـفُ سـاقِـهِ صبـورٌ عَلَـى الأَرْزاءِ طَـلاَّعُ أَنْجُـدِ(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أَبي الربيع الدمشقي، عن مكحول قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: يا بن آدم، قد أَنعمتُ عليك نعماً عظاماً لا تُحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمتُ عليك أَن جعلتُ لك عينين تنظر بهما، وجعلتُ لهما غطاءً، فانظر بعينيك إلى ما أَحلَلْتُ لك، وإن رأيتَ ما حرَّمتُ عليك فأَطْبق عليهما غطاءهما، وجعلتُ لك لساناً وجعلتُ له غلافاً، فانطق بما أَمرتُك وأَحللتُ لك، فإن عرض عليك ما حرَّمت عليك فأَغْلق عليك لسانك، وجعلتُ لك فرجاً وجعلتُ لك ستراً، فأصبْت بفرجك ما أَحْلَلْتُ لك، فإن عرض عليك ما حرَّمتُ عليك فأَرخ عليك سترك، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي». وفي لفظ للقرطبي عن أَبي حازم: «إن نازعك لسانك إلخ».

(٢) رجلٌ كميشُ الإزار: مُشمِّرهُ، والأَرزاءُ: المصائب، واحدها: رُزْءٌ، وطَلاَّع أَنْجُد: ضابط للأمور غالب لَهَا، والأنجد جمع نجْد، وهو الطريق في الجبل إذا كان مرتفعاً شديداً، والشاعر يصف الممدوح هنا بأنه سريع إلى الأمور، حاسم في مقابلتها بهمة ونشاط، وبأنه صبور على مصائب الدهر، وبأنه غالب للأمور متطلع للسامي منها.



﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ في هذه الآية ـ على عُرف كلام العرب ـ استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعوداً، و﴿ٱقْتَحَمَ﴾ معناه: دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة، وأَما المفسرون فرأَوا أَن ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ يراد بها جبل في جهنم لا ينجِّي منه إلاَّ هذه الأَعمال ونحوها، قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب. قال الحسن: العقبةُ جهنَّم، قال هو وقتادة: فاقتحِموها بطاعة الله تعالىٰ، وفي الحديث «إِن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إِلى العشاءِ»(١).

واختلف الناسُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا﴾ ـ فقال جمهور المفسرين: هو تَخْضيض بمعنى «فأَلاَ»، وقال آخرون: هو دعاءٌ بمعنى أَنه يستحق أَن يُدْعى عليه بأَلاَّ يفعل خيراً، وقيل: هو نفي، أَي: فما اقتحم، وقاله أَبو عبيدة، والزجاج، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾(٢)، فهو نفي محض، كأَنه تعالىٰ قال: وهبنا له الجوارح ودَلَلْناه على السبيل فما فعل خيراً(٣).

ثم عظَّم تعالىٰ أَمر العقبة في النفوس بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾، ثم فسَّر تعالىٰ اقتحام العقبة بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وذلك أَن التقدير: وما أَدراك ما اقتحام العقبة؟ هذا على قراءَة من قرأَ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالرفع على المصدر، وأَما من قرأَ: [فَكَّ] على الفِعْل، ونَصب «الرقبة» فليس يحتاج أَنْ يُقَدَّر: «وما أَدراك ما اقتحام» بل يكون التعظيم للعقبة نفسها، ويجيءُ [فَكَّ] بدلاً من [اقْتَحَمَ] وَمُبَيِّناً له.

وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾، وقرأَ أَبو عمرو: [فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ]، وقرأَ بعضُ التابعين: [فَكَّ رَقَبَةٍ] بالخفض، وقرأَ ابن كثير، والكسائي، وأَبو عمرو أَيضاً: [فَكَّ رَقَبَةً] بالنصب (أَوْ إِطْعام)، وترتيب هذه القراءات، ووجوهها بينةٌ. و«فَكُّ الرقبة» معناه: بالعِتْق من ربقة الأَسْر والرق، وفي الحديث عن

---

(١) لم أَقف عليه.

(٢) الآية (٣١) من سورة (القيامة).

(٣) قال الفراءُ والزَّجاج: «ذكر (لا) مرةً واحدةً، والعرب لا تكاد تفرد «لا» مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يُعيدوها في كلام آخر، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أَن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قائماً مقام التكرير، كأَنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن».



النبي ﷺ: «من أَعتق نسمة مؤمنة أَعتق الله بكل عضو منها عُضواً من النار»[(١)]، وقال أَعرابي للنبي ﷺ: دُلَّني على عمل أَنجو به، فقال: «لئن قصرت القول لقد عرضتَ المسأَلة، فُكَّ الرقبة وأَعْتِقِ النَّسمَةَ»، فقال الأَعرابي أَليس هذا واحداً؟ فقال النبي ﷺ: «لا، عِتْق النَّسَمة أَن تنفرد بعِتْقها، وفَكُّ الرقبة أَن تُعين في ثمنها».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكذلك فكُّ الأَسير إِن شاءَ الله تعالىٰ وفداؤه أَن ينفرد الفادي. ثم قال النبي ﷺ للأَعرابي: «وَأَبْقِ على ذي الرَّحِمِ الظالم، فإِن لم تُطق هذا كلَّه فكُفَّ لسانك إِلاَّ من خير»[(٢)].

و﴿المسغبة﴾: المجاعة، والسَّاغِبُ: الجائع، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ على نعت [يوْم]، وقرأَ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وأَبو رجاءٍ: (ذا مَسْغَبَةٍ) على أَن يعمل فيه [أَطْعمَ] أَو [إِطْعَامٌ] على القرءاتين المذكورتين، وفي هذا حذف الموصوف وإِقامة الصفة مقامهُ؛ لأَن التقدير: إِنساناً ذا مسْغبة، و[يَتِيماً] بدلٌ على هذه القراءة، ويصحُّ أَن يكون صفة لقوله تعالىٰ: ﴿ذا مسغبة﴾، ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف فأَشبهت الأَسماءَ، و«المسغبة» الجوعُ العامُّ، وقد يقال في الخاصِّ: سَغِب الرَّجلُ إِذا جاع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ معناه: ذا قرابة، لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ لزينب امرأَة عبد الله بن مسعود: «تصدَّقي على زوجك فهي لك صدقة وصلة»[(٣)]. و[أَوْ] في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾ فيها معنى الإِباحة ومعنى

---

(١) أَخرجه بن أَبي شيبة، وأَحمد، والبخاري، ومسلم، وابن مردويه، عن أَبي هريرة وأَخرج مثلَه بن مردويه عن أَبي نُجيح السلميِّ. (الدر المنثور). وأَبو نجيح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه.

(٢) أَخرجه أَحمد، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي، عن البراءِ، وفي الرواية التي ذكرها السيوطي في الدرّ المنثور «فإِن لم تُطق ذلك فأَطعم الجائع، واسْق الظمآن، وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر، فإِن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانَك إِلاَّ من خير».

(٣) أَخرجه الإِمام أَحمد في مسنده (٢/٣٧٣، ٣٧٤) عن أَبي هريرة، وفيه أَن النبي ﷺ انصرف من الصبح يوماً، فأَتى النساءَ في المسجد، فوقف عليهن فقال: يا معشر النساءِ، ما رأيتُ من نواقص عقول ودين أَذهبَ لقلوب ذوي الأَلباب منكن، فإِني قد رأَيتكن أَكثر أَهل النار يوم القيامة، فتقرَّبن إِلى الله =

التَّخيير؛ لأَن الكلام يتضمن معنى الحضِّ والأَمر، وفيها أَيضاً معنى التفصيل المجرد؛ لأَن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون «أَو» فيه إِلاَّ مفصِّلة، وأَما معنى الشك والإِبهام فلا مدخل لهما في هذه الآية، والإِبهام نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾[١]، وقول أَبي الأَسود:

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شديداً وَعَبّاساً وحمزةَ أَو عليّا[٢]

و﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ معناه: مدقعاً قد لصق بالتراب، وهذا مما ينحو إِلى أَن المسكين أَشد فاقةً من الفقير، قال سفيان: هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم، وقال ابن عباس: هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إِلى بيته مستيقناً أَنه ليس فيه إِلا التراب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ معطوف على قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾، ويتوجه فيه معاني ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ المذكورة من النفي والتحضيض والدعاءِ، ورجَّح أَبو عمرو بن العلاءِ قراءَته: (فَكَّ رقَبةً) بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، ومعنى ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أَيْ كان وقت

= ما استطعتن، وكان في النساءِ امرأةُ عبد الله بن مسعود فأتت إِلى عبد الله بن مسعود فأخبرته بما سمعت من رسول الله ﷺ، وأَخذت حُلياً لها، فقال ابن مسعود: فأين تذهبين بهذا الحليِّ؟ فقالت: أَتقرب به إِلى الله عزَّ وجلَّ ورسوله، لعلَّ الله ألاَّ يجعلني من أَهل النار، فقال: ويلك، هَلُمِّي فتصدقي به عليَّ وعلى ولدي، فأنا له موضع، فقالت: لا والله حتى أذهب به إِلى النبي ﷺ. فذهبت تستأذن على النبي ﷺ، فقالوا للنبي ﷺ: هذه زينب تستأذن يا رسول الله، فقال: أَيُّ الزَّيانب هي؟ فقالوا: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال: ائذنوا لها، فدخلت على النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إِني سمعتُ منك مقالةً فرجعتُ إِلى ابن مسعود فحدثتُه، وأَخذتُ حُلياً أَتقرب به إِلى الله وإِليك رجاءَ أَلا يجعلني الله من أَهل النار، فقال لي ابن مسعود: تصدَّقي به عليَّ وعلى ولدي، فأنا له موضع، فقلتُ حتى أستأذن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: تصدَّقي به عليه وعلى بنيه فإِنهم له موضع، ثم قالت: يا رسول الله، أرأيت ما سمعتُ منك حين وقفتَ علينا، ما رأيت من نواقص عقول قط ولا دين أَذهب بقلوب ذوي الأَلباب منكن، قالت: يا رسول الله، فما نُقصان ديننا وعقولنا؟ فقال: أَمَّا ما ذكرتُ من نقصان دينكنَّ فالحيضة التي تُصيبكنَّ، تمكث إِحداكن ما شاء الله أَن تمكث لا تصلي ولا تصوم، فذلك من نقصان دينكن، وأَمَّا ما ذكرتُ من نقصان عقولكن فشهادتكن، إِنما شهادة المرأة نصف شهادة.

(١) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ).

(٢) أبو الأَسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بن جندل الكناني، وهو يعد في الشعراء والنحويِّين، وكان علويَّ الرأي، وشهد مع الإمام عليٍّ وقعة صِفِّين، وولي البصرة لابن عباس، والبيت يلتقي مع هذه الاتجاهات، و«أَو» فيه للإِبهام.



اقتحامه للعقبة من الذين آمنوا، وليس المعنى أنه يقتحم ثم يكون بعد ذلك؛ لأَن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن، وذلك غير نافع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ معناه: على طاعة الله تعالىٰ وبلائه وقضائه، وعن الشهوات والمعاصي. و﴿ٱلْمَرْحَمَةُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالىٰ، وقال آخرون: هو التراحم وعطفُ بعض الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا.

و﴿ٱلْمَيْمَنَةُ﴾ مفعلة، وهي ـ فيما روي ـ عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس. و﴿ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ الجانب الأَشأم، وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين، يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليَمَن والشام، للواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمى هي اليسرى، وذهب الزجاج وقوم إلى أَن ذلك مأخوذ من اليُمْن والشُّؤْم.

وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، ونافع، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: [مُوصدةٌ]، على وزن «مُوعَدة»، وكذلك في سورة (الْهُمزة)[1] وقرأَ أَبو عمرو، وحمزة، وحَفْصٌ عن عاصم بالهمز في السورتين، ومعناهما جميعاً: مُطْبَقَةٌ مغلقة، يقال: «أَوْصدْتُ وآصَدْتُ» بمعنى: أَطبقتُ وأَغلقتُ، فَمُوصَدَةٌ ـ دون همز ـ من «أَوْصَدْتُ»، وقد يحتمل أَن يهمز من يراها من «أَوْصَدْتُ» من حيث قيل: الواو حرف مضمومٌ على لغة من قرأَ: [بالسُّؤْق][2]، ومنه قول الشاعر:

لحَبَّ الْمُؤْقِدَان إِليَّ مُؤْسَى . . . .[3]

---

(١) في قوله تعالىٰ في الآية (٨): ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

(٢) من قوله تعالىٰ في الآية (٣٣) من سورة (ص): ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك، والبيت بتمامه:

لَحَبَّ الْمُؤْقِدان إِليَّ مُؤْسَى ... وَجَعْدَةُ لَو أَضاءهُمَا الوُقُودُ

و«حَبَّ» فعل ماض، أصله «حَبُبَ» على وزن «كَرُمَ»، ومعناه: صار محبوباً، أُدغمت الباءُ الأولى في الثانية، إمَّا للقلب. . . أو بنقلها إلى الحاء قبلها، فلذا روي «لَحُبَّ» بفتح الحاءِ وضمها، واللام في «لَحَبَّ» جواب قسم محذوف، ولم يُؤت بـ «قد» مع اللام في «لَحَبَّ» لإجرائه مجرى فعل المدح في مثل «والله لنعم الرجلُ زيد»، وأراد بالمؤقدان من يوقد نار القِرَى، فإنه المتبادر في استعمالات العرب وبخاصة إذا استعمل في مقام المدح والوصف بالكرم. و«الوَقُود» ـ بفتح الواو ـ: ما يوقد به من =



بالهمز فيهما. و«مُؤْصَدةٌ» من «آصَدْتُ»، ويحتمل أَن يسهل الهمزة فيجيءُ «مُوصدة» من «آصدْتُ»، ومن اللفظة «الوصيد»[١]، وقال الشاعر:

قَـوْمـاً يُعـالـجُ قُمَّـلاً أَبْنـاؤُهُـمْ وَسَـلاَسِـلاً حلقـاً وبـابـاً مُـؤْصَـداً[٢]

كمل تفسير سورة البلد والحمد لله رب العالمين

* * *

= الحطب، و«الوُقودُ» ـ بضم الواو ـ: مصدر بمعنى الإيقاد. و«موسى» و«جعدة» ولدا هشام بن عبد الملك، والمعنى: لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتُهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين لي. وكان موسى بن هشام وأخته جعدة بنت هشام مشهورين بالسخاءِ وإيقاد النار للقرى. والشاهد هو همز الواو في كل من «المؤقدان» و«مُؤْسَى»، وفي البيت روايات كثيرة تجدها في اللسان، والخصائص لابن جني، ومخطوطة أنساب الأشراف.

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت، وفي التنزيل العزيز ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ ويقال فيه: «الأصيد».

(٢) هذا البيت قاله الأعشى من قصيدة يخاطب بها كسرى حين أراد منهم رهائن، وفي القصيدة يقول لكسرى: لنقاتلنَّكم قتالاً يُخرِّب الديار، ونحن لَسْنا كغيرنا محبوسين خلف الأبواب الموصدة والسلاسل الموثقة، هذا والقُمَّلُ: دواب صغار من جنس القرْدان إلاّ أنها أصغر منها، واحدتها قُمَّلة، تركب البعير عند الهزال، ويروى: «أُجُداً» بدلاً من «حَلقاً»، والأجد: الموثقة، و«المُؤْصد»: المغلق. وهي موضع الاستشهاد.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الشمس

وهي مكيَّة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالشمس، إما على التنبيه منها وإما على تقدير: وربِّ الشمس، و«الضُّحى» ـ بضم الضاد والقصر ـ: ارتفاعُ الضوءِ وكماله، وبهذا فسَّر مجاهد، وقال قتادة: هو النهار كله، وقال مقاتل: ضحاها: حَرُّها، كقوله تعالىٰ في «طه»: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾(٢). و«الضَّحاءُ» ـ بفتح الضاد والمدِّ: ما فوق ذلك إلى الزوال.

والقمر يتلو الشمسَ من أَول الشهر إلى نصفه في الغروب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر، وهو أَن تغرب هي فيطلع هو. وقال الحسن بن أَبي الحسن: [تَلَاهَا]: تبعها دأباً في كل وقت؛ لأَنه يستضيءُ منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا اتباعٌ لا يختص بنصف أَول من الشهر ولا بآخر، وقاله الفراءُ أَيضاً، وقال الزجاج وغيره: [تَلَاهَا] معناه: امتلأَ واستدار فكان لها تابعاً في المنزلة من الضياءِ

(١) قال القرطبي: «مكِّيَّة باتفاق».

(٢) في قوله تعالىٰ في الآية (١١٩) من سورة (طه): ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾.



والقدر؛ لأنه ليس في الكواكب شيءٌ يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر، قال قتادة: إنما ذلك ليلة البدر، تغيب هي فيطلع هو.

و«النَّهارُ» في ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب الأنواءِ وغَيْرُه. واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ يحتمل أن يعود على الشمس، ويحتمل أن يعود على الأرض وعلى الظلمة، وإن كان لم يجيءْ لذلك ذكرٌ فالمعنى يقتضيه، قاله الزجاج، وجَلَّى معناه: كشف وضوءاً، والفاعل لـ «جَلَّى» ـ على هذه التأويلات ـ النهارُ، ويحتمل أن يكون الفاعلُ الله تعالىٰ، كأنه قال: والنهار إذا جلَّى الله الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته. و﴿يَغْشَىٰ﴾ معناه: يُغَطِّي، والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى، أو للأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أن تكون [ما] فيه بمعنى «الذي»، قاله أبو عبيدة، أي: ومن بناها، وهو قول الحسن ومجاهد؛ لأن «ما» تقع عامَّة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجيءُ القسَم بنفسه تعالىٰ، ويحتمل أن تكون [ما] في جميع ذلك مصدرية، قاله قتادة، والمبرد، والزجاج، كأنه تعالىٰ قال: والسماءِ وَبُنْيَانِها.

و«طَحَا» بمعنى «دَحَا»، و«طَحَا» أيضاً في اللغة بمعنى: ذهب كلَّ مذهب، ومنه قول عَلْقَمَة بن عَبْدَة:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَرُوب بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حان مشيبُ[1]

و«النفس» التي أقسم الله بها اسمُ الجنس، و«تَسْويتُها» إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾... الآية، فالفاءُ تعطي أن التسوية هي هذا الإلهامُ، ومعنى قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أيْ عرَّفها طُرُق ذلك، وجعل لها

---

(١) هذا مطلع قصيدة قالها علقمة في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام ليطلق سراح أخيه ومن معه من تميم ممن كانوا قد أُسروا في وقعة «يوم حليمة»، ومعنى «طَحَا بكَ»: ذهب بك كل مذهب، واتَّسع، والطَّربُ: خِفَّة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو حتى لشدة الحزن، وفي البيت إيقاع موسيقى حنون، مع متانة في البناء، ومفارقة حلوة بين الحنين إلى الحُب والجمال، وبين المرحلة المتقدمة في السِّن التي بلغها الشاعر دون أن يعترف بها.



قوة يصحُّ معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى، وجواب القَسَم في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، والتقدير: لقد أفلح، والفاعل بـ «زكّى» يحتمل أَن يكون هو الله تعالىٰ، وقاله ابن عباس وغيره، كأنه تعالىٰ قال: قد أفلحت الفرقة أَو الطائفة التي زكاها الله تعالىٰ، و[مَنْ] تقع على جمع أَو أَفراد، ويحتمل أَن يكون الفاعل بـ «زكّى» الإِنسان وعليه تقع (مَنْ)، وقاله الحسن وغيره، كأَنه تعالىٰ قال: قد أَفلح من زكّى نفسه، أَي اكتسب الزكاة التي قد خلقها الله تعالىٰ له، و﴿زَكَّىٰهَا﴾ معناه: طهَّرها ونمَّاها بالخيرات، و﴿دَسَّىٰهَا﴾ معناه: أَخفاها وحقَّرها، أَي: احتقر قدرها بالمعاصي والبخل بما يحب، يقال: دسَا يدْسُو، ودسَّى ـ بشد السِّين ـ يُدَسِّي، وأَصله دسَّسَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَسَّسْتُ عَمراً في التُّرابِ فَأَصْبَحَتْ ... حَلائِلُهُ يَبْكِين للْفَقْدِ ضُعَّفَا[١]

ورُوي أَن النبي ﷺ كان إِذا قرأَ هذه الآية قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أَنت خير من زكَّاها، أَنت وليُّها ومولاها»[٢]، وهذا الحديث يُقوِّي أَن المزكِّي هو الله تعالىٰ، وقال ثعلب: معنى الآية: وقد خاب من دسَّاها في أَهل الخير بالرياءِ وليس منهم في حقيقته.

ولما ذكر الله تعالىٰ صفة من دسَّى ذكَر فرقة فعلت ذلك لِيُعْتبرَ بهم ويُنْتهى عن مثل فعلهم، و«الطَّغْوى» مصدر، وقرأَ الحسن، وحمَّاد بن سلمة: [بطُغْوَاها] بضم الطاءِ، مصدر كالعُقْبى والرُّجْعى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الطَّغوى» هنا: العذاب،

---

(١) البيت في اللسان ـ دسا ـ، وفي القرطبي، والبحر المحيط، وفتح القدير، وقد اختلف في ألفاظه، والذي في اللسان:

وَأَنْتَ الَّذي دَسَّيْتَ عَمْراً فَأَصْبَحَتْ ... نساؤهُمُ مِنْهُمْ أَرامِلُ ضُيَّعُ

و«عَمْرٌو» قبيلة، والبيت أَنشده بن الأعرابي لرجل من طيئ يتحدث عن هذه القبيلة، ولهذا قال: «نَساؤهُمُ»، ومعنى «دسَّيْتَ»: أَغْوَيْتَ وأَفسدتَ، والحلائل: جمع حليلة، وهي زوج الرجل، لأنها تُحالُه، أي تَحلُّ حيثُ يَحلُّ، أو لأنها حلالٌ له وهو حلالٌ لها، ومعنى «ضُعَّفاً»: ضعافاً، يقال: ضَعَّفْتُه بمعنى صَيَّرْته ضعيفاً، والضَّائع: الذي أُهمل. والأرامل: جمع أرملة، وهي التي فقدت زوجها، والشاهد أَن دَسَّى ودسَّسَ بمعنى: أَغوى وأفسد.

(٢) أَخرجه النسائي في الاستعاذة، ومسلم في الذكر، وأَحمد في مسنده (٤/ ٣٧١، ٦/ ٢٠٩) وأَخرجه الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها وخير من زكَّاها». هكذا نقله ابن كثير في تفسيره.



كَذبوا به حتى نزل بهم، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[1]، وقال جمهور المتأولين: الباءُ سببيَّةٌ، والمعنى: كذبت ثمودُ نَبيَّها بسبب طغيانها وكفرها. و﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، و﴿أَشْقَىٰهَا﴾ هو قُدار بن سالف، وهو أَحد التسعة الرهط المفسدين، ويحتمل أَن يقع ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ على جماعة حاولت العقر، ويروى أَنه لم يفعل فعله بالناقة حتى مالأَه على ذلك جميع الحيِّ، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لكونهم متفقين على ذلك.

و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: صالحُ عليه السلام، وقوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ نُصب بفعل مضمر تقديره: احفظوا أَو ذَرُوا أَو احْذروا، على معنى: احذروا الإِخلال بحق ذلك، وقد تقدم أَمر الناقة والسُّقْيَا في غير هذه السورة بما أَغنى عن إِعادته، وقد تَقَدَّم التكذيبُ على العقْر لأَنه كان سبب العقْر، ويُروى أَنهم كانوا قد أَسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً عليه السلام مدة ثم كذَّبوا وعقروا، والجمهور من المفسِّرين على أَنهم كانوا على كفرهم. و﴿دَمْدَمَ﴾ معناه: أَنزل العذاب مُقْلقاً لهم مُكرِّراً ذلك، وهي الدَّمْدَمة، وفي بعض المصاحف «فَدَهْدَمَ»، وهي قراءة ابن الزبير بالهاءِ بين الدالين، وفي بعضها «فدمَّر»، وفي مصحف ابن مسعود: «فَدَمْدمهَا عَلَيْهِمْ». وقوله تعالىٰ: ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنبهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ معناه: فَسوَّى القبيلة في الهلاك، لم يُنْجِ منهم أَحداً.

وقرأَ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأَهل الحجاز، وأُبيُّ بن كعب [فَلاَ يَخافُ] بالفاءِ، وكذلك في مصاحف أَهل المدينة والشام، وقرأَ الباقون: (وَلا يَخاف) بالواو، وكذلك في مصاحفهم، وروي عن النبي ﷺ أَنه قرأَ: [ولمْ يَخَفْ عُقْباها]، والفاعل بـ[يخافُ] على من قرأَ: (فلاَ يخافُ) بالفاءِ يحتمل أَن يكون الله تعالىٰ، والمعنى: فلا دَرْكَ[2] على الله تعالىٰ في فعله بهم، لا يُسأَل عما يفعل، وهذا قول ابن عباس والحسن، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأَثرهم، ويحتمل أَن يكون صالحاً عليه السلام، أَي: لا يخاف عقبى الله تعالىٰ بهذه الفعلة بهم؛ إِذ قد كان أَنذرهم وحذَّرهم،

---

(١) الآية (٥) من سورة (الحاقة).

(٢) الدَّرَك والدَّرْك ـ بفتح الراءِ وبسكونها ـ: التَّبِعة، يقال: ما لحقك من دَرْك فعليَّ خلاصُه.

ومن قرأ ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو فيحتمل الوجهين اللَّذيْن ذكرنا، ويحتمل زائداً أن يكون الفاعل بـ [يخافُ] أَشْقاها الْمُنْبعث، قاله الزجاج وأَبو عليٍّ، وهو قول السُّدي والضحاك ومقاتل، وتكون الواو واوَ الحال، كأَنه تعالىٰ قال: انبعث لعقرها وهو لا يخاف عُقْبى فعله لِكُفْره وطغيانه، و«العُقْبى»: جزاءُ الشيءِ وخاتمته وما يجيءُ من الأُمور بعقبه.

واختلف القراءُ في أَلِفَاتِ هذه السورة واللَّتين بعدها، ففتحها ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وقرأَ الكسائي ذلك كلَّه بالإِضجاع، وقرأَ نافع الكلَّ بين الفتح والإمالة، وقرأَ حمزة: [وَضُحَاها] مكسورة، و[تَلاَها] و[طحاهَا] مفتوحتين، وكسر ما عدا ذلك، واختلف عن أَبي عمرو، فمرَّةً كسر الجميع، ومرَّةً كقراءة نافع، قال الزَّجاج: سمَّى الناسُ الإمالة كسْراً وليس بكسر صحيح، والخليل وأَبو عمرو يقولان: إِمالة.

كمل تفسير سورة الشمس والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي: وقيل: هي مدنية، وقيل: فيها مدني، وعددها عشرون آية بإجماع(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أَقسم الله تعالىٰ بالليل إذا غشي الأَرض وجميع ما فيها، وبالنهار إذا تجلَّى أي ظهر وضوَّأ الآفاقَ(٢)، ومنه قول الشاعر:

تجلَّى السُّرى مِنْ وجْهِهِ عَنْ صَبيحَةٍ ... عَلى السَّيْر مِشْرَاقٍ كريمٍ شُجُونُها(٣)

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ يحتمل أَن تكون [ما] بمعنى «الذي» كما قالت العرب: «سبحان ما سبَّح الرعد بحمده»، وقال أَبو عمرو وأَهل مكة: يقولون للرعد:

---

(١) هكذا في الأصول، وقال القرطبي: «وهي إحدى وعشرون آية بإجماع»، وهذا يوافق ما في المصحف الشريف.

(٢) ضَوَّأَ الشيءَ: أَضاءه، أي جعله مضيئاً.

(٣) تَجَلَّى الشيءُ: انكشف ووضح وظهر، وهو موضع الاستشهاد هنا، والسُّرى: السَّير ليلاً، وقيل: هو سير الليل كلِّه، تُذكِّره العرب وتؤنثه. والصبيحةُ هي الصباح، وهو نقيض المساء، ومثلهما الإصباح. والمشراقُ: الموضع الذي تشرق عليه الشمس فينير، والشَّجَنُ: هوى النفس وحاجاتُها أينما كانت، وجمعه أَشجان وشجون، ومن ذلك قول الشاعر:

ذَكَرتُكِ حَيْثُ اسْتَأْمَنَ الوَحْشُ والْتَقَتْ ... رِفاقٌ بهِ، والنَّفْسُ شَتَّى شُجُونُها



«سبحان ما سَبَّحْتَ له»، ويحتمل أَن تكون [ما] مصدرية، وهو مذهب الزجاج. وقرأَ جمهور الصحابة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ﴾، وقرأَ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأَبو الدَّرْداءِ ـ وسمعها من النبي ﷺ ـ وعلقمة، وأَصحاب عبد الله: [والذَّكرَ والأُنثى]، وسقط عندهم ﴿وَمَا خَلَقَ﴾[١]، وذكر ثعلب أَن من السلف من قرأَ: (ومَا خَلَقَ الذَّكَرِ والأُنثى) بخفض [الذَّكرِ]، على البدل من [ما]، على أَن التقدير: وما خلق اللهُ، وقراءة عليٍّ رضي الله عنه: «وَمِنْ ذَكَرٍ» تشهد لهذه، وقال الحسن: المراد هنا بالذَّكَرِ والأُنثى آدم وحواءُ عليهما السلام، وقال غيره: هو عام.

و«السَّعْيُ»: العمل، فأَخبر تعالىٰ مقسماً أَن أَعمال العباد شتَّى، أَيْ مفترقة جداً، بعضها في رضى الله تعالىٰ، وبعضها في سَخطه. ثم قسَّم تعالىٰ الساعين، فذكر أَن من أَعْطَى ـ وظاهر ذلك إِعطاءُ المال، وهي أَيضاً تتناول إِعطاءَ الحق في كل شيءٍ، قول أَو فعل، وكذلك البخل المذكور بعد ـ يكون بالإِيمان وغيره من الأَقوال التي حقُّ الشريعة أَلاَّ يُبخل بها.

ويروى أَن هذه الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أَنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أَسلموا، وكان ينفق في رضى رسول الله ﷺ ماله، وكان الكفار بِضِدِّ

---

(١) أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر وابن مردويه، عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أَبي الدرداءِ، فقال له أَبو الدرداءِ: مِمَّن أنت ؟ قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعتَ عبد الله يقرأ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ؟ قال علقمة: «وَالذَّكَرَ والأنثَى»، قال أَبو الدرداءِ: أَشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاءِ يريدوني على أَني أَقرؤُها: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى»، والله لا أُتابعهم. هكذا ذكره في الدر المنثور. وقد جاء في كتاب الأحكام لابن العربي: «هذا مما لا يلتفت إليه بشر إنما المعوَّل عليه ما في المصحف، فلا يجوز مخالفته لأَحد، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه، مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيَّناه في موضعه، فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عَدلاً، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخلق»، ونقل القرطبي عن أَبي بكر الأنباري أن هذا الحديث مردودٌ بخلاف الإجماع له، وأَن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعةُ المسلمين، والبناء على سنَدَيْن يوافقان الإجماع أَوْلى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماعُ والأُمة، وما يُبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أُخذ برواية الجماعة، وأُبطل نقل الواحد لما يجوز عليه من النسيان والإغفال، ولو صحَّ الحديث عن أَبي الدرداءِ، وكان إسناده مقبولاً معروفاً، ثم كان أَبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه، لكان الحُكم بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه النسيان ما لا يُسرع إلى الجماعة».



ذلك[١]، وهذا قول من قال إن السورة كلها مكية، قال عبد الله بن أبي أوفى: هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأبي سفيان بن حرب، وقال مقاتل: مرَّ أَبو بكر رضي الله عنه على أَبي سفيان وهو يعذِّب بلالاً، فاشتراه منه، وقال السُّدي: نزلت هذه الآية بسبب أَبي الدَّحْداح الأَنصاري رضي الله عنه، وذلك أَن نخلة لبعض المنافقين كانت مُطلَّة على دار امرأَة من المسلمين لها أَيتام، فكان الثمر يسقط عليهم فيأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك، واشتد عليهم، فقال رسول الله ﷺ: بِعْنِيها بنخلة في الجنة، فقال: لا أَفعل، فبلغ ذلك أَبا الدحداح، فذهب إِليه واشترى منه النخلة بحائط له، وجاءَ إِلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أَنا أَشتري النخلة التي في الجنة بهذه، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يمرُّ على ذلك الحائط الذي أَعطى أَبو الدَّحداح، وقد تعلَّقت أَقْنَاؤه[٢] ويقول: وكم قِنْو تعلَّق لأَبي الدحداح في الجنة[٣]، وفي البخاري أَن هذا اللفظ كان رسول الله ﷺ يقوله في الأَقْناءِ التي كان أَبو الدحداح يُعَلِّقها في المسجد صدقة، وهذا كله قول من يقول: بعض السورة مدني.

واختلف الناس في ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في هذه السورة ـ فقال أَبو عبد الرحمن السلمي وغيره: هي لا إِله إِلاَّ الله، وقال ابن عباس، وعكرمة، وجماعة هي الخَلَفُ الذي وعد الله به، وذلك نصٌّ في حديث الملكيْن، إِذْ يقول أَحدهما: اللهم أَعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعط ممسكاً تَلَفاً[٤]. وقال مجاهد، والحسن، وجماعة:

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وابن عساكر، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: كان أَبو بكر يعتق على الإِسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساءً إِذا أَسْلَمن، فقال له أَبوه: أَيْ بُنَيَّ أَراك تعتق أُناساً ضعفاء، فلو أَنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟ قال: أَيْ أَبَت إِنَّما أُريد ما عند الله، قال: فحدثني بعض أَهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

(٢) الأَقْناءُ: جمع قِنْو، وهو العِذْقُ بما فيه من الرُّطب.

(٣) ذكره ابن أَبي حاتم والواحدي في «أَسباب النزول»، من طريق حفص بن عمر العَدَني، عن الحكم بن أبان العدني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف لضعف حفص بن عمر، أما الحكم بن أبان فصدوق عابد، ولكن له أوهام، قال ذلك الحافظ ابن حجر في «التقريب»، وذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ثم قال: «وهو حديث غريب جداً»، وأورده السيوطي في الدرِّ المنثور بسند ضعيف، أَخرجه ابن أَبي حاتم عن ابن عباس، وقال الخازن: والصحيح أن الآية نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) أَخرجه البخاري ومسلم في الزكاة، وأَحمد في مسنده (٢/٣٠٦، ٣٤٧، ٥/١٩٧)، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلاَّ وَمَلَكان ينزلان، فيقول أَحدهما: اللهم أَعْطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر اللهم أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً».



الحُسْنى: الجنة، وقال كثير من المتأولين: الحسنى: الأَجر والثواب مجملاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معناه: سيظهر تيسيرُنا بما يتدرج فيه من أَعمال الخير، وحَتْم تَيسيره قد كان في علم الله تعالىٰ أَزلاً، و﴿اليُسْرى﴾: الحالُ الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و﴿العُسْرى﴾ الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بُدَّ، ومن جعل [بَخِلَ] في المال خاصةً جعل [استغنى] في المال أَيضاً لتعظم المذمَّةُ، ومن جعل [بَخِلَ] عامًّا في جميع ما ينبغي أَن نبذل من قول وفعل قال: «استغنى» عن الله تعالىٰ ورحمته بزعمه. ثم وَقَف تعالىٰ عن موضع غَنَاءِ مالِهِ عنه وقت تَرَدِّيه، وهذا يدل على أَن الإِعطاءِ والبخل المذكورَيْن إِنما هما في المال.

واختلف الناس في معنى [ترَدَّى] ـ فقال قتادة وأَبو صالح: معناه: تَرَدَّى في جهنم، أَي سقط من حافاتها، وقال مجاهد: [تردَّى] معناه: هلك من الرَّدى، وقال قوم: معناه: تردَّى بأَكْفانه من الرداءِ، ومنه قول مالك بن الريب:

وخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مضْجَعي ... وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدائيَا[١]

ومنه قول الآخر:

نَصيبُكَ مِمَّا تَجمعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ... رِداءَانِ تُلْوى فِيهما وَحَنُوط[٢]

ثم أَخبر تعالىٰ أَن عليه هدى الناس جميعاً، أَي تعريفهم بالسبل كلها، ومنحهم الإِدراك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣]، ثم كلُّ أَحد بعد ذلك يتكسَّب ما قُدِّر له، وليست هذه الهداية بالإِرشاد إِلى الإِيمان، ولو كان ذلك لم يوجد كافر. ثم

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها مالك بن الريب التميمي حين حضرته الوفاة وهو غريب، وفيها يخاطب صاحبيه، ويقول:

فَيَا صاحِبَيْ رَحْلي دَنَا الْموتُ فانْزِلاَ ... بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقيمٌ لَيَالِيَا

والأَسِنَّة: جمع سنان، وهو طرف الرمح، والمراد بالمضجع هنا القبر، والرداءُ: ما يرتديه الإنسان، يطالب صاحبيه بأن يحفرا قبره بأطراف رماحهما، وأن يغطياه بالثوب بعد الموت.

(٢) الرداءُ: الذي يلبس، وتثنيته رداءان، وتُلْوَى فيهما: تُلَفُّ فيهما، والحنوط: طيبٌ يخلط للميت خاصة، وهو مشتق من قولهم، حَنِط الرِّمْثُ وأَحنط: ابيضَّ واستوى وصارت له رائحة طيبة، يقول: إنك مهما جمعت من الدنيا فلن تأخذ منها إلا ثوبين تُلَفُّ فيهما، وبعض الطيب الذي يوضع عليك بعد موتك.

(٣) من الآية (٩) من سورة (النحل).



أخبر تعالىٰ أن له الآخرة والأُولى أي الدارين.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ إمَّا مخاطبة منه سبحانه، وإمَّا على معنى: قُل لهم يا محمد، وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بتخفيف التاءِ، وقرأ البزي عن ابن كثير بشدِّ التَّاءِ وإدغام الراءِ فيها، وقرأها كذلك عُبَيْد بن عُمَيْر، ورُوي عنه أيضاً [تَتَلَظَّى] بتاءَيْن، وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، أَي: لا يَصْلاَها صُلِيَّ خلود، ومن هنا ضلَّت المرجئة لأَنها أَخذت نفي الصُّليِّ مطلقاً في قليله وكثيره. و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ هنا ـ: الكافر؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾، والعرب تجعل «أَفْعل» في موضع «فاعِل» مبالغة، كما قال طرفة:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَموتَ وإِنْ أَمُتْ ... فتِلْكَ سَبيلٌ لَسْت فِيهَا بأَوْحَدِ[1]

---

(١) لم أَجد هذا البيت في شعر طرفة، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن، وكذلك استشهدبه الطبري، وقد ورد في أمالي القالي ضمن ثلاثة أبيات كتب بها يزيد بن عبد الملك إلى أَخيه هشام، وكان الخليفةَ بعده، وهي:

تَمَنَّى رِجالٌ أَنْ أَموتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْك سَبيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجو رَدَايَ بضَائِري ... وَمَا عَيْشُ مَنْ يَرْجُو رَدَاي بمُخْلِدِ
فَقُلْ لِلذي يَبْغي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مِثْلِها فَكَأَنْ قَدِ

قيل: فكتب إليه هشام:

وَمَنْ لاَ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عاتِبُ
وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صاحِبُ

فكتب إليه يزيد بأبياتٍ لمَعْن بن أَوس يقول أولها:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْري وَإِنِّي لأَوْجَلُ ... على أَيِّنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وقيل: إن الذي كتب بالأبيات الثلاثة هو الوليد إلى أخيه سليمان ـ جاء ذلك في مروج الذهب للمسعودي ـ ومعنى «يبغي خلاف الذي مضى»: يبغي أن يخلف غيره على ميراثه. وقد حقق الأستاذ عبد العزيز الميمني البيت الذي يدور حوله الحديث عند شرحه لذيل الأمالي، ووصل إلى أن البيت لمالك بن القين الأنصاري.

والمؤلف هنا يستشهد بالبيت على أن (أَوحد) جاءت بمعنى (واحد)، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فإنَّ (أَهْوَن) جاءت بمعنى (هَيِّن)، والصيغة هنا لمجرد الوصف ولا تعطي معنى التفضيل، وقد ناقش البغدادي في خزانة الأدب هذه الصيغة وقال: إن هذا الشاهد وما يماثله يمكن أن=

ولم يختلف أَهل التأْويل أن المراد بـ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة أَبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات. وقوله تعالىٰ: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ معناه: يتطهَّر وَيَتَنَمَّى، وظاهر هذا الإِتيان أَنه في المندوبات، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾ الآية... معناه: وليس إِعطاؤه لِيَجْزيَ نِعَماً قد أُنزلت إليه، بل هو مبتدىءٌ ابتغاءَ وجه الله تعالىٰ.

ورُوي في سبب هذا أَن قريشاً قالوا ـ لما أَعْتق أَبو بكر رضي الله عنه بلالاً ـ: كانت لبلال يدٌ عنده، وذهب الطبري إلى أَن المعنى: وليس يُعطي لِيُثاب نِعماً يُجْزى بها يوماً وينتظر ثَوَابَها، وحوَّم في هذا المعنى وحلَّق بتطويل غير مُغْن، ويتَّجه المعنى الذي أَراد بأَيسر من قوله، وذلك أَن يكون التقدير: وما لأَحد عنده إِعطاءٌ ليقع عليه من ذلك الأَحد جزاءٌ بَعْدُ، بل هو لمجرَّد ثواب الله تعالىٰ وجزائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ نصب بالاستثناءِ المنقطع، وفيه نظر، والابتغاءُ: الطلب، ثم وعده تعالىٰ بالرِّضا في الآخرة، وهذه عِدَةٌ لأَبي بكر رضي الله عنه. وقرىء: [يُرْضَى] بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وهذه الآية تشبه الرِّضا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1].

كمل تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

* * *

= يعطي معنى التفضيل لا مجرد الوصف.

(١) الآية (٢٨) من سورة (الفجر).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الضحى

وهي مكية، لا خلاف في ذلك بين الرواة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

تقدم تفسير «الضُّحَى» بأنه سطوع الضوءِ وعِظَمُه، وقال قتادة: الضحى هنا النهارُ كلُّه[1]، و﴿سَجَىٰ﴾ معناه: سكن واستقر ليلاً تامًّا، وقال بعض المفسرين: ﴿سَجَىٰ﴾ معناه: أَقبل، وقال آخرون: معناه: أدبر، والأول أَصحُّ، ومنه قول الشاعر:

يـا حبَّـذا الْقَمْـراءُ واللَّيْـلُ السَّـاجْ ... وَطُـرُقٌ مِثْـلُ مُـلاءِ النَّسَّـاجْ[2]

ويقال: «بحر ساج» أَي ساكن، ومنه قول الأعشى:

ومـا ذنبُنـا أَنْ جـاش بَحْـرُ ابْـنُ عَمِّكُـمْ ... وَبحْـرُكَ ساجٍ لاَ يُـواري الـدَّعـامِصَـا[3]

---

(١) دليله على المقابلة في قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، فالليل يقابله النهارُ.

(٢) هذان بيتان من الرجز ذكرهما صاحب اللسان قائلاً: «وأنشد الزجاج للحارثيّ. . .»، وهما في الطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، والكامل، والليلة القمراءُ: المُقْمِرة المضيئة، والسَّاج: الساكِنُ الهادىء، والمُلاءُ ـ بالضم والمد ـ: جمع مُلاءَةٍ، وهي الإزارُ والملحفة، يقول: ما أَجمل القمر في هذا الليل الساكن، وعلى هذه الطرق الملساءِ التي لا حجارة فيها ولا حصباء.

(٣) البيت لأعشى بني قيس بن ثعلبة، وهو في اللسان، والطبري، والقرطبي، والبحر المحيط، ويروى: «فما» بدلاً من «وما»، ويروى «أتوعدني» في موضع «فما ذنبنا» أَيضاً، والدَّعامص: جمع دعموص، وهي دودة سوداءُ تعيش في المياه الضحلة، والأعشى يهجو علقمة بن عُلاثة ويقول له: أَتهددني وتوعدني؟ وما ذنبي أنا إذا كان شرف ابن عمك كالبحر الثائر الفائر، وكان شرفك أنت ضعيفاً هزيلاً كالماءِ الساكن الواقف الذي لا يواري ما فيه من الديدان الحقيرة؟ والشاهد أن «ساج» بمعنى «ساكن».



و«طرْفٌ ساج» إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَدَّعَكَ﴾ بشد الدَّال، من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام: [وَدَعَك] بتخفيف الدال، بمعنى تركك. و﴿قَلَىٰ﴾ معناه: أبغض.

واختلف في سبب هذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه: أَبطأَ الوحيُ مُدَّةً عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ـ اختلفت في حدها الروايات ـ حتى شقَّ ذلك عليه، فجاءت امرأَة من الكفار ـ وهي أُمُّ جميل امرأة أَبي لهب ـ فقالت: يا محمد، ما أَرى شيطانك إِلاَّ قد تركك، فنزلت الآية بسبب ذلك(١).

وقال ابن وهب عن رجاله عن عروة بن الزبير أَن خديجة رضي الله عنها قالت: ما أَرى الله إِلاَّ قد خلاك لإفراط جزعك لِبُطءِ الوحي عنك، فنزلت الآية بسبب ذلك(٢)، وقال زيد بن أَسلم: إنما احتبس عنه جبريل لِجرْوٍ كان في بيته(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يحتمل أَن يريد الدارين: الدنيا والآخرة، وهذا تأْويل ابن إسحاق وغيره، ويحتمل أَن يريد حالَيْه في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالىٰ ـ على هذا التأْويل ـ بالنصر والظهور، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعض أَهل البيت: هذه أَرْجى آية في القرآن؛ لأَن رسول الله ﷺ لا يرضى وواحد من أُمته في النار، وقال ابن عباس: رضاهُ أَلاَّ يدخل أَحد من أَهل بيته النار، وقال ابن عباس أَيضاً: رضاه أَن الله تعالىٰ وعده بأَلف قصر في الجنة بما تحتاج إِليه من النعم والخدم، وقال

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأَحمد، والطبري، وأَورده السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته إِلى عبد بن حميد والترمذي، والنسائي، والبيهقي وأَبي نعيم معاً في «الدلائل»، وذكره الواحدي في أسباب النزول، عن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي رضي الله عنه، ولفظه كما ذكره السيوطي: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين أَو ثلاثاً، فأَتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك، لم تره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بسنده، عن هشام بن عروة عن أَبيه، وأَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل كذلك عن عروة، وأَخرج مثله ابن جرير عن عبد الله بن شداد. ذكر ذلك السيوطي في الدرِّ المنثور.

(٣) ذكر ذلك الواحدي في خبر طويل في كتابه «أسباب النزول»، عن حفص بن سعيد القرشي، عن أُمِّه، عن أُمِّها خولة، وكانت خادمة رسول الله ﷺ.



بعض العلماءِ: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، وفي مصحف ابن مسعود: [ولَسَيُعْطِيكَ].

ثم وقفه تعالىٰ على المراتب التي درجه فيها بإِنعامه عليه فقال: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾، والمعنى: أَلم يجدك تحفِّي الله وإِنْعامُهُ، ويُتْمُهُ كان فقد أَبيه وكونه في كنف عمِّه أَبي طالب، وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ يُتِّم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لِئلاَّ يكون عليه حقٌّ لمخلوق. وقرأَ الأَشهب العقيلي: [فأَوَى] بالقصر بمعنى: رحم، يقال: أَويتُ لفلان، أَي رحمتُه. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ أَي: وجدك إِنْعامُه بالنُّبوة والرِّسالة على غير الطريق التي أَنت عليها في نبوتك، فهدَى، هذا قول الحسن والضحاك وفرقة.

و«الضَّلال» مختلف، فمنه البعيد ومنه القريب، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأَصنام، ويحتجُّون لذلك ويغتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ أَقرب ضلال، وهو الكون واقفاً لا يُميِّزُ الْمَهْيعَ[1]، لا لأَنه تمسَّك بطريق آخر، بل كان يرتاد وينظر. وقال السُّدِّي: أَقام على أَمر قومه أَربعين سنة، وقيل: معنى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾: تُنْسب إِلى الضلال، وقال الكلبي: وجدك في قوم ضُلاَّل، فكأَنك واحد منهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورسول الله ﷺ لم يعبد صنماً قط، ولكنه أَكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أَسفل بلْدَح[2]، وجرى على يسير من أَمرهم، وهو مع ذلك ينظر خطأَ ما هم عليه، ودفع من عرفات وخالفهم في أَشياءَ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة، ثم ردَّه الله تعالىٰ إِلى جدِّه عبد المطلب، وقيل: هو ضلاله من حليمة مرضعته، وقال الترمذي، وعبد العزيز بن يحيى: ﴿ ضَآلًّا ﴾: خامِل الذِّكر لا يعرفك الناس، فهداهم إِليك ربُّك، والصوابُ أَنَّه ضلالُ منْ توقَّف لا يدري، كما

(١) المَهْيَع: الطريق الواسع المنبسط.

(٢) هو وادٍ قبل مكَّة من جهة الغرب، وفيه المثل «لكن على بَلْدَحَ قومٌ عَجْفَى»، قاله بيهس الملقَّب بنعامة لمَّا رأى قتلة إخوته وقد نحروا وأَكلوا وشبعوا فقال أَحدهم: ما أَخصب يومنا هذا وأَكثر خيره، فقال نعامة مثلَهُ، فضرب مثلاً في التَّحزن بالأَقارب.



قال عز وجل: و﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[(١)]. وقال ثعلب: هو تزويجه عليه السلام بنته في الجاهلية، ونحو ذلك.

و«العائِلُ»: الفقير، وقرأ اليمانيُّ: [عَيِّلاً] بشدِّ الياءِ المكسورة، ومنه قول الشاعر:

وما يدري الفَقيرُ مَتَى غِناهُ ... وما يدري الغَنِيُّ مَتى يَعيلُ[(٢)]

وأَعال: كثُر عياله، وعَال: افتقر، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾[(٣)]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَغۡنَىٰ﴾، قال مقاتل: معناه: رَضَّاك بما أَعطاك من الرزق، وقيل: فقيراً إِليه فأَغناك به، والجمهور على أَنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي ﷺ أَنه أَغنى الأَغنياءِ بالصبر والقناعة، وقد حُبِّبا إِليه، وقيل: أُغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة رضي الله عنها، ولم يكن النبي ﷺ قطُّ كثير المال، رفعه الله عن ذلك، وقال: «ليس الغِنَى عن كثرة العرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس»[(٤)].

ولما عدَّد الله تعالىٰ عليه هذه النِّعم الثلاث وصَّاه بثلاث وصايا، في كل نعمة وصيَّةٌ مناسبة لها، فبِإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وبِإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾، هذا على قول من قال: إِن السائِلَ هنا هو السائل عن العلم والدين، وليس بسائل المال، وهو قول الحسن وأَبي الدَّرْدَاءِ وغيرهما، وبِإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾، وأَما من قال إِن السائل سائل المال المحتاج، وهو قول الفراءِ وجماعة فقد جعلها بإِزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى).

(٢) هذا واحد من أبيات قالها أُحيحة بن الجلاح، وهو في معاني القرآن، والجمهرة، واللسان، ومجاز القرآن:

فَهَلْ مِنْ كاهِنٍ أَوْ ذي إِلـهٍ ... إذا ما كانَ مِنْ رَبِّي قُفُولُ
أُراهِنُهُ فَيَرْهَنُني بَنِيهِ ... وَأَرْهَنُهُ بَنِيَّ بما أَقولُ
وما يَدْري الفَقيرُ مَتى غِناهُ ... وما يَدْري الغَنِيُّ مَتى يَعيلُ
وما تَدْري إذا أَزْمَعْتَ أَمْراً ... بِأَيِّ الأَرْضِ يُدْرِكُكَ المَقيلُ

(٣) من الآية (٢٨) من سورة (التوبة).

(٤) أَخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الزكاة، والترمذي وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده (٢/٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠) عن أَبي هريرة رضي الله عنه.

فَأَغْنَىٰ﴾، وجعلَ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاءِ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾. وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ معناه: رُدَّ ردًّا جميلاً، إمَّا بعطاءٍ أو بقول حسن. وفي مصحف ابن مسعود: [وَوَجَدَكَ عَديماً فَأَغنى]، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، وإبراهيم التيمي: [فأَمَّا الْيَتِيم فَلاَ تَكْهَرْ] بالكاف، قال الأخفش: وهي بمعنى القَهر، ومنه قول الأعرابي: «وقاكم الله سَطْوة القادر وملكة الكاهر» وقال أبو حاتم: لا أظنُّها بمعنى القهر؛ لأنه قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد: «فما كهرني النبي ﷺ»، فإنما هي بمعنى الانتهار.

وأمره الله تعالىٰ بالتحدث بنعمته، فقال مجاهد، والكلبي: معناه: بُثَّ القرآنَ وبلِّغْ ما أُرسلتَ به، وقال آخرون: بل هو عموم في جميع النِّعم، وكان بعض الصَّالحين يقول: لقد أعطاني الله كذا وكذا، ولقد صليت البارحة كذا وكذا، وذكرت الله تعالىٰ كذا، فقيل له: إن مثلك لا يقول هذا، فقال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأنتم تقولون لا تُحدِّث، وقال النبي ﷺ: «التَّحَدُّثُ بالنِّعم شكرٌ»[1]، ومنه قول النبي ﷺ: «من أُسْدِيَتْ إليه يدٌ فذكرها فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»[2]، ونصب ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ بـ ﴿تَقْهَرْ﴾، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تقهر اليتيمَ.

كمل تفسير سورة الضُّحى والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند ضعيف عن أنس بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة».

(٢) أخرج أبو داود، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ، قال: «من أبلى بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلّى بما لم يُعط فإنه كلابس ثوب زور»، وأخرج أحمد، وأبو داود عن جابر بن عبد الله قال: «من أُعطي عطاءً فوجد فليخبر به، فإن لم يجد فَلْيُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أُولي معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره، فإن من ذكره فقد شكره».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بإجماع من المفسرين، لا خلاف بينهم في ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

عدَّد الله تعالىٰ على نبيِّه ﷺ نعمه في أَن شرح له صدره للنُّبُوَّة وهيَّأَه لها، وذهب الجمهور إلى أَن شَرْح الصدر المذكور هو: تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقِّي ما يُوحَى إليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عليه السلام عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراءِ؛ إذ التشريح شقُّ اللحم. وقرأَ أَبو جعفر المنصور: [أَلم نَشْرحَ] بنصب الحاءِ، على نحو قول الشاعر:

اضْـرِبَ عنْـك الْهُمـوم طـارِقهـا ... ضرْبَك بِالسَّيْف قَوْنسَ الْفرسْ[1]

ومثله مما في نوادر أَبي زيد:

مِـنْ أَيِّ يـوْمَـيَّ مـنَ الْمَـوْتِ أَفـرْ ... أَيـوْمَ لـمْ يُقْـدَرَ أَم يـوْم قُـدرْ[2]

كأَنه تعالىٰ قال: «أَلَم نشرحَنَّ»، ثم أَبدل من النون أَلفاً، ثم حذفها تخفيفاً. وهي قراءة مردودة[3].

---

(١) هذا البيت ورد في نوادر أَبي زيد كالذي بعده، وهو أَيضاً في اللسان، والمحتسب، والبحر المحيط، وقيل: هو من شعر طرفة، وقيل: هو مصنوعٌ عليه، والطَّارق: الذي يأْتي ليلاً، وقَوْنَس الفَرَس: ما بين أُذنيه، والشاهد أَنَّه أَراد: اضربَنْ، بنون التوكيد الخفيفة، فحذفها للضرورة، وهذا من الشاذِّ الذي لا يُقاسُ عليه، لأن نون التوكيد الخفيفة لا تُحذف إلاَّ إذا لقيها ساكن.

(٢) هذا الرَّجز للحارث بن منذر، وهو في «سر الصناعة» و«مُغني اللبيب» والبحر المحيط، وقيل: أَراد: لم يُقْدرَنْ، بنون التوكيد الخفيفة، ثم حذفها للضرورة، قال أَبو الفتح بن جني، وهذا عندنا غير جائز.

(٣) سبب ذلك أن هذه النون للتوكيد، والتوكيد أَشبه شيءٍ به الإسهاب والإطناب، مما يقتضي عدم =



و«الْوِزْرُ» الذي وضعه الله تعالىٰ عنه هو عند بعض المتأَولين الثقل الذي كان على رسول الله ﷺ، وحيرته قبل المبعث؛ إِذ كان يرى سوءَ ما قريش فيه من عبادة الأَصنام، وكان لم يتَّجه له من الله أَمر واضح، فوضع الله تعالىٰ عنه ذلك الثِّقل بنبوته وإِرساله. وقال أَبو عبيدة وغيره: المعنى: خفَّفنا عليك أَثقال النُّبوة، وأَعنَّاكَ على الناس، وقال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزرُ ـ هنا: الذنوب، وأَصله الثقل، فشبهت الذنوب به، وهذه الآية نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1]، وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل النُّبوة وِزْرُهُ صُحبة قومه، وأَكلُه من ذبائحهم، ونحو هذا، وقاله الضحاك، وفي كتاب النقاش: حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالىٰ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه كلُّها جرَّها المنشأُ، كشهوده حرب الفجار، يُنَبِّلُ على أَعمامه[2] وقلبه في ذلك منيب إِلى الصواب، وأَما عبادة الأَصنام فلم يتلبَّس بها قط. وقرأَ أَنس بن مالك: [وحَطَطْنا عنك وِزْرَك]، وفي حرف ابن مسعود: [وَحَلَلْنا عَنْكَ وِقْرَكَ]، وفي حرف أُبَيٍّ: [وَحططْنا عَنْكَ وِقْرك]، وذكر أَبو عمرو أَن النبي ﷺ صوَّبَ جميعها. وقال المحاسبي: إِنما وصفت ذنوب الأَنبياءِ عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لِهَمِّهِمْ بها وتحسُّرهم عليها.

= الحذف. وقد عزا الزمخشريُّ هذه القراءة إِلى أَبي جعفر المنصور، وقال عنها: «لعلَّه بيَّن الحاءَ وأَشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها»، وقد نقل أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط كلام ابن عطية، وكلام الزمخشري، ثم قال: «ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كلِّه، وهو أنه لغةٌ لبعض العرب حكاها اللحيانيُّ في نوادره، وهي الجزم بـ «لَنْ». والنصب بـ «لمْ» على عكس المعروف عند الناس، وأَنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أَبي عبيد، وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما:

قَـدْ كـانَ سَمْـكُ الهُـدَى يَنْهَـدُّ قـائِمُـهُ ... حتَّـى أُتيـح لَـهُ الْمُخْتـارُ فـانْعَمَـدَا

فـي كـلِّ مـا هَـمَّ أَمْضَـى رَأْيَـهُ قُـدُمـاً ... وَلَـمْ يُشـاوِرَ فـي إِقْـدامِـهِ أَحَـدَا

بنصب «يُشاورَ»، وهذا محتمل للتخريجين، وهو أَحسن مما تقدم». انتهى كلام أَبي حيان.

(١) من الآية (٢) من سورة (الفتح).

(٢) أي: يلقط لهم النَّبْل ثم يدفعها إليهم ليرموا بها، وفي حديث الفجار: «كنت أَيام الفجار أَنْبُل عَلَى عُمومتي»، وروي «كنت أُنَبِّلُ عَلَى عمومتي يوم الفجار» ـ ومعنى هذا أننا يمكن أن نضبط الكلمة: يَنْبُلُ، ويمكن أن نجعلها بالتشديد: يُنَبِّلُ.

و﴿أَنقَضَ﴾ معناه: جعله نقْضاً، أَي هزيلاً مُعيباً من الثقل، وقيل: معناه: أَسمع له نقيضاً وهو الصوت، وهو مثل نقيض السُّفن، وكلُّ ما حمَّلْته ثقلاً فإنه يُنْقضُ تحته، وقال عباس بن مرداس:

وَأَنْقَضَ ظهْري ما تطوَّقْتُ منهُمُ ... وَكُنْتُ عليْهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنِّنَا[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ معناه: نَوَّهنا باسمك، وذهبنا به كل مذهب في الأرض، هذا ورسول الله بمكة، وقال أَبو سعيد الخدري، والحسن، ومجاهد، وقتادة: معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أَي: قرنَّا اسمك باسمنا في الأَذان والخُطب، وروي في هذا حديث «إن الله تعالىٰ قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرْتَ معي»[2]، وهذا مُتَّجه إلاَّ أَن الآية نزلت بمكة قديماً والأَذان شرع بالمدينة، ورَفْعُ الذكر نعمة على الرسول ﷺ، وكذلك هو جميل حَسَن للقائمين بأُمور الناس، وخمولُ الذكر والاسم حسَن للمنفردين للعبادة، وقد جعل الله تعالىٰ النِّعم أَقساماً بحسب ما يصلح لشخص شخص، وفي الحديث «إن الله تعالىٰ يوقف عبداً يوم القيامة فيقول: أَلم أَفعل بك كذا وكذا ـ يُعَدِّدُ عليه نِعمه ـ، ويقول في جملتها: أَلَمْ أُخمل ذكرك في الناس»[3]؟ والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي ﷺ: أَي: يا محمد فقد جعلنا جميع هذا فلا تكترث بأَذى قريش، فإن الذي فعل بك هذه النعم سيُظْفِرك بهم ويَنْصرك عليهم.

ثم قوَّى تعالىٰ رجاءَه بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، أَي مع ما تراه من الأَذى فرج يأتيك، وكرر الله تعالىٰ ذلك مبالغة وتبييناً للخير، فقال بعض الناس: المعنى: إن مع العُسْر يسراً في الدنيا، وإن مع العُسْر يسراً في الآخرة، وذهب كثير من العلماءِ إلى

---

(١) أَنقض ظهري: أَثقَلَهُ وَأَوْهَنه، وقيل: جعل له نقيضاً أي صوتاً من شدة الحمْل، ومعنى (تطوَّقتُ منهم): تحملتُ من إِنْعامهم. والإشفاق عليه: شدة الخوف عليه. والتَّحَنُّن: الرحمة والعطف. وعباسُ بن مرداس هو السلَمِيُّ، من المؤلَّفة قلوبهم الذين أَعطاهم النبي ﷺ يوم حُنَين، وجعل نصيبه أَقل من غيره، فأَبَى، فأرضاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، من طريق دَرَّاج عن أَبي الهيثم، ومع صدق دراج في حديثه فإن في روايته عن أَبي الهيثم ضعف، ومع ذلك صححه بن حبان، وأورد السيوطي هذا الحديث في الدر المنثور، وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه، وأَبي نعيم في الدلائل، كذلك رواه بن أَبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به، ورواه أبو يعلى عن دراج.

(٣) لم أَقف عليه.



أَن مع كل عُسْر يُسْرَيْن بهذه الآية، من حيث «العُسْر» مُعرَّف للعهد، و«اليُسْر» منكَّر، فالأَول غير الثاني، وقد رُوي في هذا التأويل حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يغلب عُسْرٌ يُسرين»[(١)]، وأَمَّا قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إِلى أَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما. وقرأَ عيسى، ويحيى بن وثاب، وأَبو جعفر: (العُسُر، واليُسُر) بضمتين، وقرأَ ابن مسعود: «إِنَّ مَعَ العُسْر يُسْراً» واحدةً غير مكررة.

ثم أَمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام إِذا فرغ من شغل من أَشغال النُّبوة والعبادة أَن يَنْصب في آخر، والنصب: التَّعب، فالمعنى أَن يدأَب على ما أُمِرَ به ولا يفتر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فإِذا فرغت من فرضك فانصب في التَّنَفُّل عبادةً لربك، وقال ابن مسعود: فانصب في قيام الليل، وعن مجاهد: فإِذا فرغتَ من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك، وقيل: المعنى: فإِذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانْصب في الدعاءِ، وقال ابن عباس، وقتادة: معنى الكلام: فإِذا فرغتَ من العبادة فانصب في الدعاءِ، وقال الحسن بن أَبي الحسن: فإِذا فرغتَ من الجهاد فانصب في العبادة، ويعترض هذا التأويل أَن الجهاد فُرض بالمدينة. وقرأَ أَبو السَّمَّال: [فرِغْت] بكسر الراءِ، وهي لغة، وقرأَ قومٌ: [فانْصَبَّ] بشدِّ الباءِ وفتحها، ومعناها: إِذا فرغت من الجهاد فانصبَّ إِلى المدينة، ذكرها النقَّاش منبِّهاً على أَنها خطأٌ، وقرأَ آخرون من الإِمامية: [فَانْصِبْ] بكسر الصاد، بمعنى إِذا فرغت من أَمر النُّبوة فانْصِب خليفة، وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم، ومرَّ شريحٌ على رجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أَمر الفراغ، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أَمْرٌ بالتوكل على الله عزَّ وجلَّ، وصَرْف وجه الرغبات إِليه لا إِلى سواه، وقرأَ ابن أَبي عبلة: «فَرَغِّب» بفتح الراءِ وشدِّ العين مكسورة.

كمل تفسير سورة الشرح والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أَخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي، عن الحسن، قال: خرج النبي ﷺ يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة التين

وهي مكيّة، لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

اختلف الناس في معنى «التِّينِ والزَّيتُونِ» اللذين أَقسم الله تعالىٰ بهما ـ فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم، وعطاءٌ، وجابر بن زيد، ومقاتل: هو التِّين الذي يؤكل والزيتون الذي يعتصر، وأَكل النبي ﷺ مع أَصحابه رضي الله عنهم تيناً أُهدي إِليه فقال: «لو قلتُ إِن فاكهة نزلت من الجنة قلتُ هذه؛ لأَن فاكهة الجنة بلا عَجَم[(٢)]، فكلوا فإِنه يقطع البواسير، وينفع من النقرس»[(٣)] وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم السِّوَاكُ الزيتون من الشَّجرة المباركة، هي سواكي وسواكُ الأَنبياءِ من قبلي»[(٤)]. وقال كعب وعكرمة: القسم بمنابتهما، وذلك أَن التِّين ينبت كثيراً بدمشق، والزيتون ينبت بإِيلاءَ، فأَقسم الله تعالىٰ بالأَرضَيْن، وقال قتادة: هما جبلان بالشام، على أَحدهما دمشق، وعلى الآخر بيت المقدس، وقال ابن زيد: التِّين مسجد نوح عليه

---

(١) قال الإمام القرطبي: «مكية في قول الأكثر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية».

(٢) العَجَم: النَّوى. (وهي بفتح العين والجيم).

(٣) نقله القرطبي في تفسيره قائلاً: «وقال أَبو ذرٍّ أُهدي للنبي ﷺ سلٌّ تين فقال... إلخ» ولم أقف عليه في غير القرطبي.

(٤) أَيضاً لم أَقف على هذا الحديث بهذا النص، ولكن وجدت أَن رسول الله ﷺ قال: «كلوا الزيت فإنه مبارك، وائتدموا به، وادَّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»، أخرجه أحمد (٣/٣٩٧)، وكل من الترمذي والدارمي في الأطعمة.



السلام على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التِّين مسجد نوح، والزيتون مسجد إبراهيم عليهما السلام، وقيل: التِّين والزيتون وطور سينين ثلاثة مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب القرظي: التِّين مسجد أَصحاب الكهف، والزيتون مسجد إِيلياءَ، وأَما طور سينين فلم يُختلف أَنه جبل بالشام كلَّم الله تعالىٰ عليه موسى عليه السلام.

واختلف في معنى ﴿سِينِينَ﴾ ـ فقال عكرمة، ومجاهد: معناه: حَسَنٌ مبارك، وقيل: معناه: ذو الشجر. وقرأَ الجمهور: ﴿سِينِينَ﴾، وقرأَ ابن إِسحاق، وأَبو رجاءٍ: [سَيْنِينَ] بفتح السِّين، وهي لغة بكر وتميم، وقرأَ عمر بن الخطاب، وطلحة، والحسن وابن مسعود: [سِيناً] بسين مكسورة وأَلِفٍ، وقرأَ أَيضاً عُمر رضي الله عنه بفتحها.

و«البلدُ الأمينُ» مكَّةُ بلا خلاف، وقيل: معنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك، وقيل: معناه: شجر، واحدها سِينينةٌ، قاله الأَخفش، وسعيد بن مسْعدة. و«أَمِين» فعِيلٌ من الأَمْن، بمعنى: آمِنٌ، أَي: آمِنٌ منْ فيه ومَنْ دخله، وما فيه من طير وحيوان.

والقسم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ولا يدفع هذا أَن يكون غيره من المخلوقات ـ كالشمس وغيرها ـ أَحسن تقويماً منه بالمناسبة، وقال بعض العلماءِ بالعموم، أَي أَن الإِنسان أَحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أَن زوجته أَحسن من الشمس، واحتجوا بهذه الآية. واختلف الناس في تقويم الإِنسان ما هو؟ فقال النَّخعي، ومجاهد، وقتادة: حُسْن صورته وحواسِّه، وقال بعضهم: هو انتصاب قامته، وقال أَبو بكر بن طاهر ـ في كتاب الثعلبي ـ: هو عقله وإِدراكه اللَّذان زيَّناه بالتَّميُّز، وقال عكرمة: هو الشباب والقوة، والصواب أَن جميع هذا هو حُسْن التقويم، إِلاَّ قول عكرمة إِذ قد يفضل فيه بعضُ الحيوان، و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا اسم الجنس، وتقدير الكلام: في تقويم أَحسن تقويم؛ لأَن «أَحْسن» صفة لا بد أَن تجري على موصوف.

واختلف الناس في معنى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ ـ فقال عكرمةُ، وقتادة، والضحاك، والنَّخَعي: معناه: بالهرم وذهول العقل وتغلُّب الكِبَر حتى يصير لا يعلم شيئاً، أَما إِن المؤمن مرفوع عنه القلم، والاستثناءُ ـ على هذا ـ منقطع. وهذا قول حَسَن، وليس المعنى أَن كل إِنسان يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك، وهذه عِبَرٌ منصوبة. وقرأَ ابن مسعود: [السَّافِلِين] بالأَلف واللام.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وإِن نال بعضهم هذا في الدنيا ـ فلهم في الآخرة أَجر عظيم غير ممنون، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأَبو العالية: المعنى: رددناه أَسفل سافلين في النار على كفره، ثم استثنى تعالىٰ الذين آمنوا استثناءً متصلاً، فهم ـ على هذا ـ ليس فيهم من يُردُّ أَسفل سافلين، وفي حديث أَنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذا بلغَ المؤمن خمسين سنة خفف الله حسابه، وإِذا بلغ السِّتين رزقه الله الإِنابة إِليه، فإِذا بلغ السبعين أَحبه أَهل السماءِ، فإِذا بلغ ثمانين كُتبت حسناته، وتجاوز الله عن سيئاته، فإِذا بلغ تسعين غُفرت ذنوبه، وشفع في أَهل بيته، وكان أَسير الله في أَرضه، فإِذا بلغ مائة ـ ولم يعمل شيئاً ـ كُتِب له مثل ما كان يعمل في صحته، ولم تُكْتب عليه سيئة»[١]، وفي حديث: «إِن المؤمن إِذا رُدَّ إِلى أَرذل العمر، كُتب له خير ما كان يعمل في قومه، وذلك أَجر غير ممنون»[٢]، و﴿مَمْنُونٍ﴾ معناه: محسوب مُصرَّد[٣] يُمنُّ عليهم به، قاله مجاهد وغيره، وقال كثير من المفسرين: معناه: مقطوع، من قولهم: «حبْلٌ مَنِينٌ» أَي ضعيف منقطع.

واختلف في المخاطب بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ ـ فقال قتادة، والفراءُ، والأَخفش: هو محمد ﷺ، قال الله تعالىٰ له: فما الذي يُكذِّبك فيما تُخبر به من الجزاءِ والبعث ـ وهو الدِّين ـ بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحَّة ما قلت؟ ويحتمل أَن يكون «الدِّين» ـ على هذا التأْويل ـ جميع دِينه وشَرْعِهِ. وقال جمهور من المتأَولين: المخاطبُ الإِنسانُ الكافر، أَي: ما الذي يجعلك كذَّاباً بالدِّين، تجعل لله تعالىٰ أَنداداً، وتزعم ألاَّ بعْث بعد هذه الدلائل؟ قال منصور: قلتُ لمجاهد: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ يراد به النبي عليه الصلاة والسلام؟ فقال: معاذ الله، يعني به الشَّاكَّ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣) عن أنس رضي الله عنه، وفيه: «ما من مُعمَّرٍ يُعَمَّر في الإِسلام أربعين سنة إلاَّ صرف الله عنه ثلاثة أَنواع من البلاءِ: الجنون، والجذام، والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة ليَّن الله عليه الحساب، فإذا بلغ... إلخ».

(٢) أَخرج البخاريُّ عن أَبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»، كذلك أَخرجه بن مردويه عن أَبي موسى مع اختلاف في بعض الألفاظ، وأَخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ـ ولم يرفعه إلى النبي ﷺ ـ حديثاً طويلاً «جاءَ في آخره وفي لفظ قال: من رُدَّ منهم إلى أرذل العُمر جرى له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، فذلك الأجر غير ممنون، قال: ولا يُمَنَّ به عليهم».

(٣) التَّصْريد في الأجر: تقليله.



ثم وقف تعالىٰ جميع خلقه على أَنه سبحانه أَحكم الحاكمين، على جهة التقرير، ورُوي عن قتادة أَن رسول الله ﷺ كان إِذا قرأَ هذه السورة قال: «بَلى، وأَنا على ذلكم من الشاهدين»[1].

تم تفسير سورة التِّين والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أخرجه عبد بن حميد عن قتادة، وأَخرج مثله عن صالح أَبي الخليل. (الدُّر المنثور).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العلق (القلم)[(١)]

وهي مكيّة بإجماع، وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالىٰ، نزل صدرها في غار حراءَ حسب ما ثبت في صحيح البخاري، وغيره، ورُوي من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[(٢)]، وقال أبُو مَيْسرة عَمْرو بن شُرحبيل[(٣)]: إن أول ما نزل فاتحة الكتاب والقول الأول أصح، والترتيب في إخبار النبي ﷺ يقتضي ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدىء به

---

(١) هكذا في جميع الأصول، وهو أحد أسمائها.

(٢) الآية (١) من سورة (المدَّثِّر). أمَّا حديث جابر فقد أخرجه الطَّيالسي، وعبد الرَّزَّاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن الأنباري في المصاحف، قال: سألتُ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قلتُ: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال أبو سلمة: سألتُ جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلتُ له مثل ما قلتَ، قال جابر: لا أحدثك إلاَّ ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورتُ بحرَاءَ، فلما قضيتُ جواري فنوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرتُ عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعتُ رأسي فإذا الملَك الذي جاءَني بحراءَ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماءِ والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعباً، فرجعتُ فقلت: دثِّروني، فدثروني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾... إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾».

(٣) هو عمرو بن شرحبيل الهمداني، أبو مَيْسرة، الكوفي، ثقة عابد مخضرم، مات سنة ثلاث وستين. تقريب التهذيب.



رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه التَّحنُّث[١] في غار حراءَ، فكان يخلو فيه يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم ينصرف، حتى جاءَه الملك وهو في غار حراءَ فقال له: اقرأْ، قال: ما أَنا بقارىءٍ، قال: فأَخذني فغطَّني[٢]، ثم كذلك ثلاث مرات، فقال له في الثالثة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ . . . إلى قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، قالت: فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره»[٣] الحديث بطوله.

ومعنى هذه الآية: اقرأْ هذا القرآن باسم ربك، أَي: ابدأْ فعلك بذكر اسم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله﴾[٤]. هذا وجه، ووجه آخر في «كتاب الثعلبي» أَن المعنى: اقرأْ في أَول كلِّ سورة وقراءة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، ووجْهٌ آخر أَن يكون المقروءُ الذي أُمر بقراءته هو ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، كأَنه قال له: اقرأْ هذه اللفظة.

ولما ذكر تعالىٰ «الرَّبَّ»، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأَصنام أَرباباً، جاءَ بالصفة التي لا شركة للأَصنام فيها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ثم مثَّل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه، وما يجده كل مفطور في نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخِلْقَةُ الإِنسان من أَعظم العبر حتى أَنه ليس في المخلوقات التي لدينا أَكثر عبراً منه، في عقله وإِدراكه ورباطات بدنه وعظمه. و«العَلَقُ» جمعُ عَلَقة، وهي القطعة اليسيرة من الدم. و«الإِنسان» ـ هنا ـ اسم الجنس، ويمشي الذهن معه إِلى جميع الحيوان، وليست الإِشارة إِلى آدم عليه السلام لأَنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك مقرراً عند المخاطبين بهذه الآية، فلذلك تُرِكَ أَصلُ الخِلْقة وسيق لهم الفرعُ الذي هم به مُقِرُّون تقريباً لأَفهامهم.

---

(١) التَّحَنُّثُ: التَّعبد، يقال: فلان يَتَحَنَّثُ، أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج.

(٢) بمعنى: ضَمَّني وعصرني عصراً شديداً.

(٣) الذي في صحيح البخاري: «يرجف فؤاده». والحديث طويل، وبعض ألفاظه تختلف هنا عمَّا في صحيح البخاري، وقد أخرجه عبد الرزّاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن الأنباريّ في المصاحف، وابن مردويه، والبيهقي من طريق بن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها، وذكر ذلك الواحدي في أول كتابه «أسباب النزول».

(٤) من الآية (٤١) م سورة (هود).



ثم قال تعالىٰ له: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ على جهة التأنيس، كأنه تعالىٰ يقول: امض لما أُمرت به، وربُّك ليس كهذه الأَرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصركَ ويُظهرك.

ثم عدَّدَ تعالىٰ نعمة الكتاب بالقلم على الناس، وهي موضع عِبرة وأَعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، قيل: المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وقيل: اسم الجنس، وهو الأَظهر، وعدَّد تعالىٰ نعمة اكتساب المعارف للإِنسان بعد جهله بها.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ الآية.. نزل بعد مُدَّة في شأْن أَبي جهل بن هشام، وذلك أَنه طغى لغناه، ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناصب رسول الله ﷺ العداوة، ونهاه عن الصلاة في المسجد، ويُروى أَنه قال: لئن رأَيتُ محمداً يسجد عند الكعبة لأَطأَنَّ على عنقه، فيروى أَن رسول الله ﷺ ردَّ عليه القول وانتهره، فقال أَبو جهل: أَيتوعدني محمد ووالله ما بالوادي أَعظم نَدِيًا مني[1]؟ وروي أَيضاً أَنه جاءَ والنبي ﷺ يصلِّي، وهمَّ بأَن يصل إِليه ويمنعه من الصلاة، ثم كعَّ عنه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأَجْنِحة[2] ويروى أَن رسول الله ﷺ قال: «لوْ دَنَا منِّي لأَخذته الملائكة عياناً»[3]، فهذه السورة من قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ إِلى آخرها نزلت في أَبي جهل. و﴿كَلَّآ﴾ هي ردٌّ على أَقوال أَبي جهل وأَفعاله، ويتَّجه أَن تكون بمعنى «حَقًّا»، فهي تثبيت لما بعدها من القول. و«الطُّغيان» تجاوز الحدود الجميلة، و«الغِنى» مُطْغ إِلاَّ من عصم الله تعالىٰ، و«الضمير في ﴿رَّءَاهُ﴾

---

(١) أَخرج ابن أَبي شيبة، وأَحمد، والترمذي وصحَّحه، وابن المنذر، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، وأَبو نعيم والبيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلِّي، فجاءَ أَبو جهل فقال: أَلَمْ أَنْهك عن هذا؟ أَلَمْ أَنْهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره، فقال أَبو جهل: إِنَّك لتعلم ما بها رجل أَكثر نادياً مني، فأَنزل الله ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، قال بن عباس: والله لو دعا ناديه لأَخذته زبانية الله.

(٢) أَخرجه أَحمد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأَبو نعيم والبيهقي، عن أَبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أَخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه، وابن المنذر، وأَبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس رضي الله عنهما.



للإنسان المذكور، كأنه قال: أَن رأَى نفسه غنياً، وهي رؤية قَلْب تقرب من العلم، وكذلك جاز أَن يعمل فيها فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدتُني وظننتني، ولا يجوز أَن تقول: ضربتُني. وقرأَ الجمهور: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ بالمدِّ على وزن «رعاه»، واختلفوا في الإمالة وتركها، وقرأَ ابن كثير ـ من طريق قنبل ـ: [أَن رَأَهُ] دون مدٍّ، على وزن «رَعَه»، على حذف لام الفعل، وذلك تخفيف(١).

ثم حقَّر تعالىٰ غِنَى هذا الإنسان وحاله بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، أَي الحشر والبعث يوم القيامة، و﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مصدر كالرجوع، وهو على وزن العُقْبى ونحوه، وفي هذا الخبر وعيد للطاغين من الناس.

الناهي أَبو جهل، وأَن العبد المصلي محمد ﷺ. وقوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ توقيف، وهو فعل لا يتعدى إِلى مفعولين على حدِّ الرؤية من العلم، بل يقتصر به. وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إِكمالٌ للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها، فجاءَ بها في نَسَق، ثم جاءَ بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ دالٌّ عليها مُغْنٍ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَانَ﴾ يعني العبد المصلي، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يعني الإِنسان الذي ينهى، ونسب تعالىٰ الرؤية إِلى الله تعالىٰ بمعنى: يدرك أَعمال الجميع بإِدراك سمَّاه رُؤْية، والله تعالىٰ مُنَزَّهٌ عن الجارحة وغير ذلك من مماثلة المحدثات، ثم توعده تعالىٰ ـ إِنْ لمْ يَنْتَه ـ بأَن يُؤْخذ بناصيته فيُجر إِلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: «سَفَعْتُ بيدي ناصية الفرس والرجل» إِذا جذبتها مُذَلِّلاً له، قال عمرو بن معديكرب:

قَـوْمٌ إِذا سمِعـوا الصِّيـاحَ رأَيْتَهـمْ ... مـا بَيْـنِ مُلْجـمِ مُهْـره أَوْ سـافِـع(٢)

---

(١) قال أبو حيان: «وهي رواية ابن مجاهد عنه، قال: وهو غلط لا يجوز، وينبغي أَلَا يغلِّطه بل يتطلب له وجهاً، وقد حُذفت الألف في نحو من هذا، قال: «وَصَّانِيَ العجَّاجُ فيما وصَّني»، يريد: وصَّاني، فحذف الألف وهي لام الفعل، وقد حذفت في مضارع (رأى) وهو حذف لا ينقاسُ، لكن إذا صحت الرواية وجب قبوله، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها» اهـ.

(٢) ونسب هذا البيت إلى حميد بن ثور الهلالي، الصحابي المعروف، ويُروى كما في «اللسان»: «الصريخ» بدلاً من «الصِّياح»: والصَّريخ: صوت المستصرخ، ومعنى «سافع»: آخِذٌ بناصيته، وهذا كناية عن الاستعداد للقتال بسرعة، فهم قوم عرفوا بالنجدة والشهامة وسرعة العمل لإنقاذ المستغيث.



فالآية على نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾(١). وقال بعض العلماءِ: «لَنَسْفَعَن» معناه: لَنُحْرِقَنَّ، من قولهم: «سَفَعَتْهُ النارُ» إذا أحرقته، واكتفى بذكر الناصية لدلالتها على الوجه والرأس(٢). وجاءَ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ في خط المصحف بألف بدل النون، وقرأَ أبو عمرو ـ في رواية هارون ـ: [لَنَسْفَعَنَّ] مُثقَّلة النون، وفي مصحف ابن مسعود «لأَسْفَعن بالناصية، ناصية كاذبة فاجرة»، وقرأَ أبو حيوة: [نَاصِيَةً كَاذِبَةً خاطِئَةً] بالنصب في الثلاثة، وروي عن الكسائي أنه قرأ بالرفع فيها كلها. و«النَّاصِيَةُ» مقدم شعر الرَّأس، ثم أبدل تعالىٰ النكرة من المعرفة في قوله تعالىٰ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾، ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها، كما تقول: يَدٌ سارقة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ إشارة إلى قول أَبي جهل: «وما بالوادي أَعظم نديًّا مني»، والنادي والندي: المجلس، ومنه: دار الندوة، ومنه قول زهير:

وَفيهِمْ مقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجوهُهُمْ ... وأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ والْفِعْلُ(٣)

ومنه قول الأَعرابية: «سيِّد ناديه، وَثِمالُ عافيه»(٤).

و﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ملائكة العذاب، واحدهم «زِبْنية»، وقال الكسائي: «زِبْنِي»، وقال عيسى بن عمرو الأَخفش: «زَابِنٌ»، وهم الذين يدفعون الناس في النار، والزَّبْنُ: الدَّفْع، ومنه «حربٌ زبُونٌ»، أَي: تدفع الناس في نفسها، ومنه قول الشاعر:

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أَناتِنَا ... وَلَوْ زَبَنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ(٥)

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (الرحمن).

(٢) هذا معنى آخر، وهو أن [لَنَسْفَعَنّ] بمعنى: لَنُسَوِّدَنّ وجهه بالإحراق، فقال: لَنُسَوِّدن الناصية بدلاً من الوجه لأنها مقدم الوجه، والشاهد على ذلك قول الشاعر:

وَكُنْتُ إِذَا نَفْسُ الْغَوِيِّ نَزَتْ بِهِ ... سَفَعْتُ عَلَى الْعِرْنِينِ مِنْهُ بِمِيسَمِ

أي: وسَمْتُهُ عَلَى عِرْنينه، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

(٣) البيت من قصيدة زهير التي قالها يمدح سنان بن أَبي حارثة الْمُرِّيّ (صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وَقَد كادَ لاَ يَسْلُو). والمقامات: المجالس، ومفردها: مَقَامة. ويَنْتَابُها: يَقْصِدها، والقول والفعل معناهما: يُبَثُّ في هذه الأندية الجميل من القول ويعمل به. والشاهد أَن «الأندية» جمع «النادي»، وهو المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه. وإذا تفرقوا لم يكن نادياً.

(٤) الثِّمال: الغياثُ، يقال: فلانٌ ثمالُ بني فلان، أي عمادهُم وغياثُهم. والعافي: الضَّيف وطالب المعروف. فمعنى التعبير أنه غياث من يلجؤون إليه طلباً للمعروف والمساعدة.

(٥) هذا البيت لأوس بن حَجَر، وهو من قصيدة طويلة بدأها بقوله: =

ومنه قول عتبة بن أَبي سفيان: «وقد زبنتنا الحربُ وَزَبَنَّاهَا، فنحن بَنُوها وهي أُمُّنا»، ومنه قول الشاعر:

عَـدَتْني عَـنْ زِيـارَتـكَ الْعَـوادي ... وَحَـالَـتْ بَيْنَنَـا حَـرْبٌ زَبـونُ[١]

وحذفت الواو من ﴿سَنَدْعُ﴾ في خط المصحف اختصاراً وتخفيفاً، والمعنى: سندعو الزبانية لعذاب هذا الذي يدعو ناديه، وقرأ ابن مسعود: [فَلْيَدْعُ إِلَى ناديهِ].

ثم قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿كَلَّآ﴾ ردًّا على قول هذا الكافر وأَفعاله، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أَي: لا تلتفت إِلى نَهْيه وكلامه، ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لِرَبِّك، ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ إِليه بسجودك وبالطاعة وبالأَعمال الصالحة، وفي الحديث أَن النبي ﷺ قال: «أَقرب ما يكون العبد من الله إِذا سجد، فأَكثروا من الدعاءِ في السجود، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لكم»[٢] وقاله مجاهد، قال: أَلم تسمعوا ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾، وروى ابن وهب عن جماعة من أَهل العلم أَن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، وأَن ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ خطاب لأَبي جهل، أَيْ إِن كنت تجترىء حتى ترى كيف تهلك.

وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أَهل العلم منهم ابن وهب من أَصحاب مالك.

كمل تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

= تَنَكَّـرَتِ مِنَّـا بَعْـدَ مَعْـرِفَـةٍ لَمِـي ... وَبَعْـدَ التَّصـابِـي والشَّبـابِ الْمُكَـرَّمِ

ولَمِي: ترخيم «لَمِيس»، والأناة: الحِلْم والصبر، وزَبَنَتْهُ: دفعته، وهو موضع الاستشهاد، ولم يَترَمْرَم: لم يتحرك.

(١) هذا البيت في «الأمالي» لأبي عليٍّ القالي، ولم ينسبه، والرواية فيه:

عَـدَتْنـي عَـنْ زيـارَتِهَـا العـوادي ... وَحَـالَـتْ دُونَهـا حَـرْبٌ زَبُـونُ

وعَدَتْني: صرفتني وشغلتني، والعوادي: الصَّوَارف والأُمور التي تشغلني، والزَّبون: التي يدفع الناسُ بعضهم بعضاً فيها، أو التي تدفع الناسَ، يقال للناقة التي تدفع الحالب عنها: ناقة زبون.

(٢) أَخرجه مسلم في الصلاة، والنسائي في المواقيت، والترمذي في الدعوات، وأَحمد في مسنده (٢/ ٤٢١)، ولفظه كما في مسند أَحمد «أَقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأَكثروا الدعاءَ»، أما الجملة الأخيرة فقد وردت في حديث آخر أَخرجه الإمام أَحمد أَيضاً في مسنده وهو عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رفعه، أنه ﷺ نهى أَنْ يَقْرَأَ القرآنَ وهو راكعٌ، وقال: «إذا ركعتم فعظِّموا الله، وإذا سجدتم فادعوا، فَقَمِنٌ أَن يستجاب لكم» ومعنى «قَمَنٌ» و«قَمِنٌ»: جدير وخليق. والحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وزاد نسبته إِلى أَبي داود، ثم رمز له بأنه حديث صحيح.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة القدر

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكيّة[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنزله الله تعالىٰ ليلة القدر إلى السماءِ الدنيا جُملة، ثمَّ نَجَّمه[2] على محمد ﷺ في عشرين سنة، وقال الشَّعبي وغيره: المعنى: إنا ابتدأْنا إنزال هذا القرآن إليك ليلة القدر، وقد روي أَن نزول الملَك في حراءَ كان في العشر الأَواخر من رمضان، فيستقيم هذا التأْويل، وقد روي أَن نزول الملَك كان في الرابع عشر من رمضان، فلا يستقيم هذا التأْويل إلاَّ على قول من يقول: إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر من رمضان، وقال قوم: معنى قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: إنَّا أَنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها، ولما كانت السورة من القرآن جاءَ الضمير للقرآن تفخيماً وتحسيناً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِى لَيْلَةِ﴾ هو على نحو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد خشيت أَن ينزل فِيَّ قرآنٌ ليلة نزول سورة الفتح، ونحو قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: لأَنا أَحقر في نفسي من أَن ينزل فيَّ قرآن، وليلة القدر هي لَيْلَةٌ خصَّها الله تعالىٰ بفضل عظيم، وجعلها أَفضل من أَلف شهر لا ليلة قدر فيها، قاله مجاهد وغيره،

---

(١) ذكر الواقديُّ أَنها أول سورة نزلت بالمدينة.

(٢) أَي: أنزله نَجْماً بعد نَجْم، وكانت تنزل منه الآية والآيتان.



وخُصَّت هذه الأُمَّة بهذه الفضيلة لَمَّا رأى محمد ﷺ أعمار أُمَّته فتقاصرها[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ عبارة تفخيم لها، ثم أدراه تعالىٰ بعْدُ بقوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، قال ابن عُيَيْنَة في صحيح البخاري: ما كان في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أَعلمه الله تعالىٰ، وما كان فيه ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يُعْلَم[٢]. وذكر ابن عباس وقتادة وغيرهما أَنها سُمِّيت ليلة القدر لأن الله تعالىٰ يقدِّرُ فيها الآجال والأَرزاق وحوادث العالم كلها ويدفع ذلك إِلى الملائكة لتمتثله، وقد روي هذا في ليلة النصف من شعبان، ولهذا ظواهر من كتاب الله عزَّ وجلَّ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[٣] وأَما الصحة المقطوع بها فغير موجودة، وقال الزهري: معناها: ليلة القدر العظيم والشرف وعِظم الشأنِ، من قولك: رجل له قَدْرٌ، وقال أَبو بكر الورَّاق: سُمِّيت ليلة القدر لأَنها تُكْسب من أَحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل، وتردُّه عظيماً عند الله تعالىٰ، وقيل: سُمِّيت بذلك لأَن كل العمل فيها له قدر خطير.

وليلة القدر مستديرة في أَوتار[٤]، العَشْر الأَواخر من رمضان، هذا هو الصحيح المعوَّل عليه، وهي في الأَوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر، فينبغي لمرتقبها أَن يرتقبها من ليلة عشرين في كلِّ ليلة إِلى آخر الشهر؛ لأَن الأَوتار مع كمال الشهر ليست الأَوتار مع نقصانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لثالثة تبقى، لخامسة تبقى، لسابعة تبقى»[٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة

---

(١) كأنه ظن أنها لا تكفي أن يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغ غيرهم من الأمم في أَعمارهم الطويلة.

(٢) أَمَّا ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد جاءت في القرآن في (١٣) ثلاثة عشر موضعاً هي: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ٣ الحاقة، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ٢٧ المدثر، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ ١٤ المرسلات، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ ١٧ الانفطار، ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ ١٨ الانفطار، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ ٨ المطففين ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ١٩ المطففين. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ ٢ الطارق، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ ١٢ البلد، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ القدر، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ ٣ القارعة، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ ١٠ القارعة، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ ٥ الهُمَزَة. وأما (وَمَا يُدْرِيكَ) فقد جاءت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وهي: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ٦٣ الأحزاب، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ ١٧ الشورى، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ٣ عبس.

(٣) الآية (٤) من سورة (الدخان).

(٤) جمع (وِتْر) أَو (وَتْر) ـ وهو هنا الفَرْدُ من الليالي، أَي العدد الذي لا يقبل القسمة على اثنين.

(٥) أَخرج البخاري، وأَبو داود، وابن جرير، والبيهقي، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، وفي سابعة تبقى، وفي خامسة تبقى»، وأَخرج أحمد عن=



والتاسعة»[(١)]، وقال مالك: بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وقال ابن حبيب: يريد مالك: إذا كان الشهر ناقصاً فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال الشهر ونقصانه، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلاَّ بعمارة العشر كله، ورُوي عن أبي حنيفة وقوم أن ليلة القدر رُفعت، وهذا قول مردود، وإنما رُفع تَعْيينها، وقال ابن مسعود: من يقم السنة كلَّها يصبها، وقال أبو رزين: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: هي ليلة سبع عشرة، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، وقال كثير من العلماءِ: هي ليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة عبد الله بن أُنيس الجُهَني، وقاله ابن عباس، وقال أيضاً هو وجماعة من الصحابة: هي ليلة سبع وعشرين، واستدل ابن عباس على قوله بأن الإنسان خُلق من سبع، وجُعل رزقه في سبع، واسْتَحْسَنَ ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقال زيد بن ثابت، وبلال: هي ليلة أربع وعشرين، وقال بعض العلماءِ: أخفاها الله تعالىٰ عن عباده ليجدُّوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويُقصِّروا في غيرها.

ثم عظَّم الله تعالىٰ أمر ليلة القدر، على نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، وغير ذلك. ثم أخبر تعالىٰ أنها أفضل لمن عمل فيها عملاً من ألف شهر، وهي ثمانون سنة

= أنس أن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر، في تاسعة وسابعة وخامسة»، وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن، قال: ذُكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال: أما أنا فلست بملتمسها إلاَّ في العشر الأواخر بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر، لتاسعة تبقى، أو سابعة تبقى، أو ثالثة تبقى، أو آخر ليلة»، فكان أبو بكرة رضي الله عنه يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر اجتهد. (الدر المنثور).

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والبيهقي، من طريق أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، قلت: يا أبا سعيد، إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل، قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة ؟ قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها التاسعة، وإذا مضى الثلاث والعشرون فالتي تليها السابعة، وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والبيهقي، عن عبادة بن الصامت قال: خرج نبي الله ﷺ وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، قال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين ـ فلان وفلان ـ فَرُفعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».



وثلاثة أَعوام وثلث عام. ورُوي عن الحسن بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما أَنه قال حين عوتب في تسليمه الأَمر لمعاوية رضي الله عنه: إِن الله تعالىٰ أَرى نبيه ﷺ في المنام بَني أُمَيَّة ينزون على منبره نَزْوَ القردة، فاهتم لذلك، فأَعطاه الله تعالىٰ ليلة القدر، وهي خير من مُدَّة مُلْك بني أُمَيَّة، وأَعلمه أَنهم يملكون هذا القدر من الزمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ثم كشف الغيب أَن كان من سنة الجماعة إِلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه، ثم إِن القول يعارضه أَنه قد مَلَك بنو أُمية في غرب الأَرض مُدَّة غير هذه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إِيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

و﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو صنف حفظة للملائكة عليهم السلام، وقوله تعالىٰ: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ اختلف الناس في معناه ـ فمن قال «إِنَّ في هذه الليلة تُقَدَّر الأُمور للملائكة» قال: إِنَّ هذا التَّنَزُّل لذلك، و﴿مِّن﴾ لابتداءِ الغاية، أَي: نزولهم من أَجل هذه الأُمور المقدَّرة وبسببها، ويجيء ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر ابتداءٍ مُسْتأْنَفاً، أَي: سلامٌ هي هذه الليلة إِلى أَول يومها، وهذا قول نافع المقبري والفراءِ وأَبي العالية، وقال بعضهم: ﴿مِّن﴾ بمعنى «الباءِ»، أَي: بِكلِّ أَمر، ومَنْ لم يقل «تُقَدَّر الأُمور في تلك الليلة» قال: معنى الآية: تنزل الملائكة والروح فيها بإِذن ربهم بالرحمة والغفران والفواضل، ثم جعل قوله تعالىٰ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾، أَي من كل أَمر مخوف ينبغي أَن يسلم منه فهي سلامٌ، وقال مجاهد: لا يُصيب أَحداً فيها داءٌ، وقال الشعبي ومنصور: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى التحية، أَيْ تُسَلِّم الملائكة على

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأخرج أحمد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، والبيهقي، وابن مردويه، عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال: في رمضان، في العشر الأواخر، فإنها في ليلة وتر، في إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو آخر ليلة من رمضان، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن أَماراتها أَنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ولا يحل النجم أن يُرمى به تلك الليلة حتى الصباح، ومن أماراتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، مستوية كأنها القمر ليلة البدر، وحرَّم الله على الشيطان أن يخرج معها يومئذ). (الدر المنثور).



المؤمنين، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكلبي: (مِنْ كُلِّ أمْرِىءٍ)، أَي: يسلم فيها من كل امرىء سَوْءٍ، فهذا على أن ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى «سلامة»، وروي عنه أن «سَلاَماً» بمعنى «تحية»، و«كل امرىءٍ» يراد بهم الملائكة، أَي: من كلِّ مَلَك تحية على المؤمنين، وهذا للعاملين بالعبادة فيها، وذهب من يقول بانتهاءِ الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ إِلى أَن قوله تعالىٰ: ﴿هِىَ﴾ إنما هو إِشارة إِلى أَنها لَيْلَةُ سبع وعشرين من الشهر؛ إِذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة، وذكر هذا الغرض ابن بكير، وأَبو بكر الوراق، والنَّقَّاشُ عن ابن عباس.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ﴾ بفتح اللام، وقرأ الكسائي، والأَعمش، وأَبو رجاءٍ، وابن محيصن، وطلحة (حَتَّى مَطْلِع) بكسر اللام، فقيل: هما مصدران بمعنى واحد في لغة بني تميم، وقيل: بالفتح مصدر وبالكسر موضع الطُّلوع عند أَهل الحجاز، والقراءة بالفتح أَوجه على هذا القول، والأُخرى تتخرج على تجوُّز، كأن الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتمُّ فيه، ويتجه الكسر على وجه آخر، وهو أَنه قد شذَّ من هذه المصادر ما كُسِر، كالمعجزة وقولهم: علاهُ المَكْبِرُ ـ بفتح الميم وكسر الباءِ ـ ومنه المَحِيضُ، فيجري «الْمَطْلِعُ» مصدراً مجرى ما شذَّ. وفي حرف أُبَيٍّ بن كعب: «سَلامٌ هِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

كمل تفسير سورة القدر والحمد لله رب العالمين

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير «لم يكن»[١]

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير، وعطاءٌ: هي مدنية، والأول أشهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

في حرف أُبَيٍّ: «مَا كَانَ الَّذِينَ»، وفي حرف ابن مسعود: [لم يكُنِ المُشْركونَ وأَهْلُ الكتابِ مُنْفَكِّينَ]، وقوله تعالىٰ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ معناه: منفصلين متفرقين، تقول: «انْفكَّ الشيءُ عن الشيءِ» إذا انفصل عنه، و«ما انْفكَّ» التي هي من أَخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصِّيغة منفكة.

واختلف الناس، عن ماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكِّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة، وأَوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ لأن باقي الشريعة وعُظْمَهَا لم يرد بَعْدُ. وقال الفراءُ وغيره: لم يكونوا منفكِّين عن معرفة صحة نُبُوَّة محمد ﷺ والتَّوكُّف لأَمره[٢]، حتى جاءتهم البيِّنة فتفرقوا عند ذلك. وذهب بعض النحويِّين إلى أَن هذا النفي المتقدم مع ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يجعلها تلك التي هي مع «كان»، ويرى التقدير في خبرها: عارفين لأَمر محمد ﷺ أَو نحو هذا، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أَن يكون المراد: لم يكن هؤلاءِ القوم منفكِّين من أَمر الله

---

(١) وتُسمَّى سورة البيِّنَة.

(٢) أَي: تَتَبُّعه وتَعَهُّده والنظر فيه.



تعالىٰ وقدرته ونظره لهم حتَّى يبعث إليهم رسولاً منذراً، تقوم عليهم به الحجة، وتتمُّ على من آمن النعمةُ، فكأنه تعالىٰ قال: ما كانوا ليُتْرَكوا سدًى، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالىٰ. وقرأ بعض الناس: و﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ بالرفع، وقرأ الجمهور: [والمشركين] بالخفض، ومعناهما بيِّن[(١)].

و﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ معناه: القصةُ البيِّنةُ والجليَّة، والمراد محمد ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿رَسُولٌ﴾ بالرفع، وقرأ أُبَيٌّ بن كعب: [رسولاً] بالنصب على الحال. و«الصُّحُفُ المطَّهرةُ»: القرآن في صحفه، قاله الضحاك وقتادة، وقال الحسن: الصحفُ المطهَّرة في السماءِ. وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فيها أحكام كُتُب قيِّمة[(٢)]، و﴿قَيِّمَةٌ﴾ معناه: قائمة معتدلة آخذة للناس بالعدل، وهو بناءُ مبالغة، فإلى [قَيِّمةٌ] هو ذكر من آمن من الطائفتين، ثم ذكر تعالىٰ مذمَّة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل، من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد ﷺ إلاَّ من بعد ما رأَوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل مُصْفِقين[(٣)] على نُبُوَّته وصفته، فلما جاءَ من العرب حسدوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [مُخْلَصينَ] بفتح اللام، وكأن [الدِّينَ] ـ على هذه القراءة ـ منصوب بـ [يَعْبُدوا]، أو بمعنى يدل عليه، على أنه كالظرف أو الحال، وفي هذا نظر، وقيل لعيسى عليه السلام: مَن المخلص لله تعالىٰ؟ قال: الذي يعمل العمل لله تعالىٰ ولا يُحب أن يحمده الناس عليه. و﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع «حنيف»، وهو المستقيم المائل إلى طريق الخير، قال ابن جبير: لا تسمي العرب حنيفاً إلاَّ من حجَّ واختتن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حُنَفَآءَ﴾: حجَّاجاً مسلمين، و﴿حُنَفَآءَ﴾ نصب على الحال، وكون الزكاة مع الصلاة في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوِّي قول من قال: السورة مدنية؛ لأن الزكاة

(١) الرَّفع عطف على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والجرُّ عطف على ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمشركون هم عَبَدَة الأصنام.

(٢) هذا إجابة عن سؤال تقديره: كيف قال: «في صحف فيها كُتُب» مع أن الصحف هي الكتب؟ وأجيب أيضاً بأن الكتب هي الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾، بمعنى حَكَمَ، وقال ﷺ: «لأقضينَّ بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس ذكر الرَّجم مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحُكم الله.

(٣) أصْفقوا على الأمر: اجتمعوا عليه. (اللسان).

إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ على معنى: الجماعة القيمة، أو الفرقة القيمة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: [الْقَيِّمة] هنا: الكتب التي جرى ذكرها، وقرأ بعض الناس: (وَذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمَةُ)، والهاءُ في «الْقَيِّمة» ـ على هذه القراءة ـ بناءُ مبالغة كعلاَّمة ونسَّابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن تجعل ﴿ٱلدِّينِ﴾ بمنزلة الملَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

حكم الله تعالىٰ في هذه الآية بتخليد الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ـ وهم عَبَدة الأوثان ـ في النار، وبأنهم شرُّ البريَّة، و«الْبَرِيَّةُ»: جميع الخلق؛ لأن الله تعالىٰ برأهم، أي أوجدهم بعد العدم. وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج: [الْبَرِيئَة] بالهمزة، من «بَرَأ»، وقرأ الباقون والجمهور: [الْبَرِيَّة] بشد الياءِ بغير همز، على التسهيل، والقياسُ الهمز إلاَّ أن هذا مما تُرك همْزُه كالنبيِّ والذُّرِّية، وقال بعض النحويِّين: البَرِيَّةُ مأخوذ من الْبَرَي وهو التراب، وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأً وغلطاً، وهو اشتقاق غير مرضيٍّ.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شروط تَعُمُّ جميع أُمة محمد ﷺ، ومَنْ آمن بنبيِّه من الأُمم الماضية. وقرأ جمهور الناس: ﴿خَيْرُ﴾، وقرأ بعض قراءِ مكة: [خيارُ] بألف، وروي حديث عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الاية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، ثم قال لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنت يا عليُّ وشيعتك»[1]، ذكره الطبري، وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، فقال له: «ذلك إبراهيم عليه السلام»[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير عن محمد بن عليٍّ، من طريق فرقد عن أبي الجارود، وأخرج بن عدي عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيِّين».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧٨، ١٨٤)، عن أنس رضي الله عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: سُكْنى جنات، أَو دخولُ جناتٍ، و«العَدْنُ»: الإقامةُ والدوامُ، عَدَنَ بالموضع: أَقام، ومنه المعدن لأَنه راسٍ ثابتٌ، قال ابن مسعود: جناتُ عَدْنٍ: بُطنان الجنة، أَي وسَطُها.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أَظهر عليهم من أَمارات رحمته وغُفرانه، ورضاهم عنه هو رضاهم بجميع ما قَسَم لهم من جميع الأَرزاق والأَقدار، وقال بعض الصالحين: رِضَا العباد عن الله تعالىٰ رضاهم بما يَرِدُ من أَحكامه، ورضاهُ عنهم توفيقُهم للرضا عنه، وقال أَبو بكر بن طاهر: الرضا عن الله تعالىٰ خروج الكراهية من القلب حتى لا يكون إلاَّ فرح وسرور، وقال سريٌّ السَّقطي: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه أَن يرضى عنك؟ وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم عنه هو رضاهم بما منَّ عليهم به من النعم، ورضاه عنهم هو ما رُوي من أَن الله تعالىٰ يقول لأَهل الجنة: «هل رضيتم بما أَعطيتكم؟» فيقولون نعم يا ربنا، وكيف لا نرضى وقد أَعطيتنا ما لم تُعط أَحداً من العالمين؟ فيقول: «أَفلا أُعطيكم أَفضل من كل ما أَعطيتكم؟ رضواني فلا أَسخط عليكم أَبداً»[1]، وخصَّ تعالىٰ بالذكر أَهل الخشية لأَنها رَأسُ كل بركة، الناهية عن المعاصي، الآمرة بالمعروف.

كمل تفسير سورة «لم يكن» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أَخرجه البخاري في كتاب الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار ـ وفي كتاب التوحيد ـ باب كلام الرب مع أَهل الجنة ـ بسنده إلى أَبي سعيد الخدري، وأخرجه مسلم في صحيحه في باب: كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، كذلك أخرجه الترمذي ج٢ صفحة (٩١) وقال حديث حسن صحيح. ولفظ الحديث كما جاء في البخاري في باب صفة الجنة والنار: عن أَبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أَهْل الجنة، يقولون لبَّيْك ربنا وسعدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أَعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أُعطيكم أَفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأَيُّ شيءٍ أَفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الزلزلة

وهي مكية، قاله ابن عباس وغيره، وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأَن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

العامل في [إِذا] على قول جمهور النحاة ـ وهو الذي يقتضيه القياس ـ فعلٌ مضمر يقتضيه المعنى وتقديره: يُحشرون إذا، أَو يُجازَوْن، ونحو هذا، ويمتنع أَن يعمل فيه [زُلْزِلَت] لأَن معنى الشرط لا يفارقها[٢]، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة.

و﴿زُلْزِلَتِ﴾ معناه: حُرِّكت بعنف، ومنه الزلزال، وقوله تعالىٰ: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أَبلغ من قوله: «زلزالاً» دون إِضافة إِليها، وذلك أَن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قلَّ، وإِذا أُضيف إِليها وجب أَن يكون على قدر ما يَسْتَحِقُّه ويَسْتَوحيه جِرْمها وعِظَمُها، وهذا كما تقول: «أَكرمتُ زيداً كرامَةً»، فذلك يقع على كلِّ كرامة وإِن

(١) قال القرطبي وتَابَعَهُ الشوكاني في فتح القدير ـ: «وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وعطاءٍ وجابر»، وزاد الشوكاني قوله: «أَخرج بن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة». وفي البحر المحيط قال أَبو حيان: «هذه السورة مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاءٍ، ومدنية في قول قتادة ومقاتل لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة». وقد روى الترمذي عن أَنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عدلت له بثلث القرآن، قال: حديث غريب.

(٢) في بعض النسخ: «لأن (إِذَا) مضاف إلى (زُلْزِلَت)، ومعنى الشرط فيها ضعيف».



قلّت بحسب «زيد»، فإذا قلتَ: «كَرَامَتَهُ» أَوجبت أَنك قد وفَّيْتَه حقَّه. وقرأَ الجمهور: ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ بكسر الزَّاي الأُولى، وقرأَ بفتحها عاصم الجحدري، وهو أَيضاً مصدر كالوَسْواس ونحوه.

و«الأَثْقَالُ»: الموتى الذين في بطنها، قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين ـ منهم منذر بن سعيد والزَّجاج والنَّقاش ـ: أَخرجت موادَّها وكنوزها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال. وقول الإنسان: ﴿ مَا لَهَا ﴾ هو قول على معنى التَّعجب من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: الإنسان هنا يراد به الكافر، وهذا متمكِّن لأَنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدَّقه، وقال بعض المتأولين: هو عامٌّ في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن ـ وإن كان قد آمن بالبعث ـ فإنه استهول المرأَى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعاينة»[1].

و«إِخْبارُ الأَرْض» قال ابن مسعود والثوري وغيرهما: هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد، فالتحديث ـ على هذا ـ حقيقة وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالىٰ، وأَضاف تعالىٰ الأَخبار إليها من حيث وَعَتْها وحَصَّلتْها، وانتزع بعض العلماءِ من قوله تعالىٰ: ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أَن قول المحدث: «حدَّثنا وأَخبرنا» سواءٌ، وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى أَن ما تفعله بأَمر الله تعالىٰ من إخراج أَثقالها، وتَفَتُّت أَجزائها، وسائر أَحوالها، هو بمنزلة التحديث بأَنبائها وأَخبارها، ويؤيد القول الأَول قول النبي ﷺ: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إِنْس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة»[2] وقرأَ عبد الله بن مسعود: [تُنْبِىءُ أَخبارَهَا]، وقرأَ سعيد بن جبير: [تُبَيِّنُ].

---

(١) أخرجه الإمام أَحمد في مسنده (١/ ٢٥١، ٢٧١)، والطبراني في الأوسط، والحاكم في مستدركه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالىٰ أَخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يُلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»، وقد رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث صحيح.

(٢) أَخرجه البخاري في الأذان والتوحيد وبدء الخلق، والنسائي في الأذان، ومالك في موطئه في النداء، =



قوله تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، الباءُ باءُ السبب. وقال ابن عباس، وابن زيد، والقرطبي: المعنى: أَوْحى إِليها، وهذا الوحي ـ على هذا التأويل ـ يحتمل أن يكون وحي إِلهام، ويحتمل أن يكون وحياً برسول من الملائكة، وقد قال الشاعر:

أَوْحَـى لَهَـا الْقَـرارَ فَـاسْتَقَـرَّتِ وشَـدَّهَـا بـالـرَّاسِيَـاتِ الثُّبَّـتِ[1]

والوحي في كلام العرب: إِلقاءُ المعنى إِلقاءً خفياً. وقال بعض المتأولين: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ معناه: أَوحى إِلى ملائكته المقربين أن تفعل في الأَرض تلك الأفعال. وقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا﴾ بمعنى: من أَجْلها، ومن حيث الأَفعال فيها فهي لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بمعنى: ينصرفون من موضع وردهم مختلفي الأَحوال. وواحد «الأشتات» شَتٌّ، فقال جمهور الناس: الوِرْدُ هو الكون في الأَرض بالموت والدفن، والصَّدر هو القيام للبعث، و﴿أَشْتَاتًا﴾ معناه: قومٌ مؤمنون وقوم كافرون وقوم عُصاة مؤمنون، والكلُّ سائر إِلى العَرْض ليرى عمله ويقف عليه، وقال النقاش: الورْدُ هو المحشر، والصَّدر أَشتاتاً هو صدر قوم إِلى الجنة وقوم إِلى النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ إما أن يكون معناه: جزاءَ أَعمالهم يراه أَهل الجنة بالنعيم وأَهل النار بالعذاب، وإِما أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾

= وأحمد في مسنده (٣/ ٣٥، ٤٣)، ولفظه كما في مسند أَحمد عن عبد الرحمن بن أَبي صعصعة المازني عن أَبيه أنه أَخبره أن أَبا سعيد قال له: إني أراك تحب الغَنَم والبادية، فإذا كنت في غنمك أَو باديتك فأَذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداءِ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إِنْس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ.

(١) هذان بيتان من الرجز قالهما العجاج يصف الأرض، وهما مع القصيدة في الديوان، وفي كتاب (شعراءُ النصرانية بعد الإسلام) وفي مجاز القرآن، والبحر المحيط، والقرطبي، وروح المعاني وفي الأغاني، لكن الألفاظ وترتيب الأبيات يختلف عما هنا، وقد ذكر صاحب الأغاني أن العجاج أَنشد أبا هريرة قوله الذي وصف فيه الخالق سبحانه وأَعماله ويوم الحساب وأهواله، فقال له أَبو هريرة: أَشهد أَنك تؤمن بيوم الحساب، والأبيات هي:

الْحَمْــدُ للهِ الَّـــذي تَعَلَّـــتِ بِـأَمْـرِهِ السَّمَـاءُ واسْتَقَلَّـتِ
بِـــإِذْنِــهِ الأَرْضُ وَمَـــا تعَنَّــتِ أَرْسَـى عَلَيْهَـا بـالجِبالِ الثُّبَّـتِ
وَحَـــى لَهَـــا الْقَـــرَارَ فَـــاسْتَقَـــرَّتِ رَبُّ الْبِـلادِ والعِبَـادِ القُنَّـتِ

والشاهد هنا أن (وحى لها) و(أوحى لها) بمعنى: أَوحى إليها، لأن العرب تضع اللام موضع «إلى».



اعتراضاً بين أثناءِ الكلام. وقرأ جمهور الناس: ﴿لِّيُرَوْاْ﴾ بضم الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحمَّاد بن سَلَمة، والزهري، وأبو حَيْوة: [لِيَرَوْا] بفتح الياءِ على بنائه للفاعل.

ثم أخبر تعالىٰ أنه من عَمِلَ عملاً رآه، قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يُسَمِّيه أهلُ الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[(١)]، وهذا كثير. وقال بعض الناس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها، فيرى الخيرَ كلَّه من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأن خيره قد عُجِّل له في دنياه، وكذلك المؤمن أيضاً تُعَجَّل له سيآته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها، فيجيءُ من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين مثقال ذرَّة من خيْر أو شرٍّ رآه، فيخرج من ذلك ألاَّ يرى الكافر خيراً في الآخرة، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها، «قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت ما كان يفعل عبد الله بن جُدعان من البرِّ وصلة الرحم وإطعام الطعام، ألهُ في ذلك أجْرٌ؟ فقال: لا، إنه لم يقل قطُّ: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[(٢)] وكان رسول الله ﷺ يسمِّي هذه الآية.. «الجامعة الفَاذَّة»، وقد نصَّ على ذلك حين سُئل عن الحُمُر... الحديث[(٣)]، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً تمرتين،

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الإسراء)، والآية عامة فهي تنهى عن القليل والكثير، ولكن اكتفت بذكر القليل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، كما أخرجه البغوي، وجُدْعان بضم الجيم، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومعنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام وغيرهما لا ينفعه في الآخرة لكونه كافراً.

(٣) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستْر، وعلى رجل وِزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستَنَّت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه ولم يُرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أَجر، ورجلٌ ربطها تَغَنِّياً وتعفُّفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له سِتْر، ورجل ربطها فخراً ورِيَاءً ونواءً فهي على ذلك وزر، فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلاَّ هذه الآية الفَاذَّة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. ورواه مسلم من حديث زيد بن أسلم، وذكره السيوطي في الدرِّ=



فقبض السائل يده، فقال له سعد: ما هذا ؟ إن الله تعالىٰ قَبل مثاقيل الذَّرِّ، وفَعَلَتْ نحوَ هذا عائشةُ رضي الله عنها في حبَّة عنب، وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التميمي عند النبي ﷺ فقال: حَسْبي، لا أُبالي أَنْ أَسمع غيرها[١]، وسمعها رجلٌ عند الحسن فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فَقُهَ الرَّجُلُ.

وقرأَ هشام عن ابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم: [يَرَهْ] بسكون الهاءِ في الأُولى والآخرة، وقرأَ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع ـ فيما رَوَى عنه ورش ـ والحلواني عن قالون عنه في الأُولى: [يَرَهُ]، وأَما الآخرة فهو سكون وقف، وأَما من أَسكن الأُولى فهي على لُغة من يخفف، ومنه قول الشاعر:

. . . . وَمِطْـوَايَ مُشْتَـاقَـانِ لَـهْ أَرِقَـانِ[٢]

وهذه لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأَخفش، وقرأَ أَبو عمرو وحده بضم الهاءِ فيهما مُشْبعتان، وقرأَ أَبان عن عاصم، وابنُ عباس، وأَبو حيوة، وحميد بن الربيع عن الكسائي: [يُرَهْ] بضم الياءِ، وهي رؤية بصر، بمعنى: يجعله يدركه ببصره، والمعنى:

= المنثور، وزاد نسبته إلى مالك، وأَحمد، والنسائي، وابن ماجه. ومعنى «الفاذَّة»: المنفردة.

هذا والطِّيَلُ: الحبل الطويل، واسْتَنَّتْ: عَدَتْ وجَرَتْ، والشَّرَف: الشوطُ، والنواءُ: العداءُ لأَهل الإسلام.

(١) أَخرجه ابن المبارك في الزهد، وأَحمد في مسنده، وعبد بن حميد، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه، عن صَعْصَعَةَ بن معاوية عمِّ الفرزدق.

(٢) هذا عجز بيت ذكره النحويون شاهداً على أن بعض العرب يجوِّزون تسكين الهاءِ، كما في قوله هنا: (لَهْ)، والبيت بتمامه مع بيت قبله:

أَرِقْـــتُ لِبَـــرْقٍ دُونَـــهُ شَـــدَوَانِ ... يَمَـــانٍ وَأَهْـــوَى الْبَـــرْقَ كُـــلَّ يَمَـــانِ

فَظَلْـــتُ لَـــدَى الْبَيْـــتِ الْعَتِيـــقِ أُرِيغُـــهُ ... وَمَطْـــوَايَ مُشْتَـــاقَـــانِ لَـــهْ أَرِقَـــانِ

وهما من قصيدة قالها رجلٌ من أَزْد السَّراة، قيل: اسمه يَعْلَى الأَحْول الأزدي، وقيل: بل هو عمرو بن أَبي عمارة الأزدي، وقيل: بل هو جَوَّاسُ بن حيَّان، من أزد عُمان. والبيت العتيق: مكَّة، وظَلْتُ: قضيت يومي، ويروى بدلاً منها: فَبِتُّ، وَلَدَى بمعنى: عِند، وأُريغُه: أَطْلُبُه، ويروى بدلاً منها: أَخِيلُهُ، بمعنى: أَظُنُّه وأَتخيلَهُ، ويروى: أَشيمه، ومِطْوَاي: مُثَنَّى مِطْو، وهو الصاحبُ والرفيق في السفر. ومُشْتاقان: خبر مِطْوَاي، وكذلك أَرقان خبر ثان. ويَروي صاحبُ الأغاني البيت: (ومِطْوَايَ في شَوْقٍ لَهُ أَرِقان)، وعَلَى هذا فلا شاهد فيه، والضمير في (لَهُ) يعود على (البرق) في البيت السابق. هذا والبيت في اللسان، وخزانة الأدب، والأغاني، والمحتسب، والخصائص، والمنصف.



يُرَى ثوابَه وجزاءَه لأَن الأَعمال الماضية لا تُرى بعين أَبداً، وهذا الفعل كله من «رَأَيْتُ» بمعنى أَدْرَكْتُ ببصري، فتعدِّيه إنما هو إلى مفعول واحد، وقرأَ عكرمة: [خَيْراً يراهُ] و[شَرًّا يَرَاهُ]، وقال النقاشُ: ليست برؤية بصر؛ وإنما المعنى: يُصيبه ويناله.

ويُروى أَن هذه السورة نزلت وأَبو بكر رضي الله عنه يأْكل مع رسول الله ﷺ، فترك أَبو بكر رضي الله عنه الأَكل وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: يا أَبا بكر، ما يُبكيك؟ قال: يا رسول الله، أَو أُسْأَلُ عن مثاقيل الذَّرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أَبا بكر، ما رأَيتَ في الدنيا مِمَّا تكره، فمثاقيل ذرِّ الشَّر، ويدَّخر الله لك مثاقيل ذرِّ الخير[1].

و«الذَّرَّةُ» نملةٌ صغيرة حمراءُ رقيقة لا يرجح بها ميزان، ويقال: إِنَّها تجري إذا مضى لها حول، وقد تُؤُوِّل ذلك في قول امرىءِ القيس:

مِنَ الْقاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ مِنْها لأَثَّرَا[2]

وحكى النقاش أَنهم قالوا: كان بالمدينة رجلان أَحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها، وكان الآخر يريد أَن يتصدَّق فلا يجد إلاَّ اليسير فيستحِي من الصدقة، فنزلت الآية فيهما، كأَنه يقال لأَحدهما: تصدَّق باليسير فإِن مثقال ذرَّة الخير تُرى، وقيل للآخَر: كُفَّ عن الصغائر فإِن مقادير ذرِّ الشَّرِّ تُرَى.

كمل تفسير سورة «الزلزلة» والحمد لله رب العالمين

---

(١) أَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم في تاريخه، وابن مردويه، والبيهقي في (شُعب الإيمان)، عن أَنس رضي الله عنه، وأَخرج مثلَه ابنُ أَبي الدنيا في كتاب البكاءِ، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، كذلك أَخرجه ابن مردويه عن أَبي أَيوب الأنصاري رضي الله عنه، كما أَخرجه عن أَبي إدريس الخولاني رضي الله عنه.

(٢) هذا البيت من قصيدة امرىء القيس التي نظمها وهو في طريقه إلى بلاد الروم، و«القاصرات الطَّرْف»: اللواتي يقصرن طرفهن على أزواجهن ولا ينظرن إلى غيرهم، ويريد حبيبته التي ذكرها في البيت السابق حين قال: إن كل ما يراه من برق ومطر لا ينسيه هذه الحبيبة، وهو يتمنى أن يسقط المطر على ديارها دون سواها:

نَسِيــمُ بُــرُوقِ الْمُــزْنِ، أَيْــنَ مَصَــابُــهُ ... وَلاَ شَـيءَ يَشْفـي مِنْـكِ يـاابْنَـةَ عَفْـزَرَا

والمُحْوِل: الذي مَضَى عليه حَولٌ: أَي سَنَةٌ، والذَّرُّ: النمل الصغير، والإِتْبَ: ثوب غير مخيط على الجانبين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العاديات

وهي مكيّة في قول جماعة من أَهل العلم، وقال المهدوي عن أَنس بن مالك: هي مدنية[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

اختلف الناس في المراد بالعاديات ـ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: أَراد الخيل لأَنها تعدو بالفرسان وتضبح بأَصواتها، قال بعضهم: وسببها أَن رسول الله ﷺ بعث خيلاً إِلى بني كنانة سريَّة، فأَبطأَ أَمْرها عليه حتى أَرجف بعض المنافقين، فنزلت الآية معلمة أَن خيله عليه الصلاة والسلام قد فعلت جميع ما في الآيات. وقال آخرون: القَسَم هو بالخيل جملة لأَنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً، وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك وفي نواصيها الخير إِلى يوم القيامة. وقال عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإِبراهيم، وعبيد بن عمير: العاديات في هذه الآية الإِبلُ لأَنها تَضْبَح في عَدْوها، وقال عليٌّ: والقسم بالإِبل العاديات من عرفة ومن المزدلفة إِذا دفع الحاجُّ، وبإِبل غزوة بدر، فإِنه لم يكن في الغزوة غير فرسين، فرس المقداد وفرس الزبير.

و«الضَّبْحُ» تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا رُغاءٍ ولا نُباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح، وحكى ابن عباس رضي الله عنهما أَنه ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس[٢]،

---

(١) في القرطبي أنها مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاءٍ، ومدنية في قول ابن عباس وأَنس ومالك وقتادة. وذكر ذلك أيضاً أَبو حيان في البحر المحيط والشوكاني في فتح القدير.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بينما أنا في الحِجْر جالس أَتاني رجلٌ=



وذلك أَن الإِبل تضبح، والأَسْودُ من الحيات، والبومُ والصَّدَى[(١)] والأَرنب والثعلبُ والفرسُ، هذه كلها قد استَعْمَلَت العرب لها الضبح، أَنشد أَبو حنيفة في صفة قَوْسٍ:

حَنَّانَةٌ مِنْ نَشَمٍ أَوْ تَأْلَبِ ... تَضْبَحُ في الكَفِّ ضُبَاحَ الثَّعْلَبِ[(٢)]

والظاهر في الآية أَن القسم بالخيل أَو بالإِبل أَو بهما.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، قال عليُّ بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإِبل، وذلك أَنها في عَدْوها ترجمُ الحصى بالحصى فتتطاير منه النار، فذلك القَدْح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل، وذلك بحوافرها في الحجارة، وذلك معروف، وقال عكرمة: الموريات قدحاً هي الأَلْسُن، فهذا على الاستعارة، أَي أَنها تقدح الحُجَجَ وتظهرها، وقال مجاهد: الموريات قدحاً يراد به مكْرُ الرجال، وقال قتادة: المورياتُ الخيل تشعل الحرب، فهي أَيضاً على الاستعارة البيِّنة، وقال ابن عباس أَيضاً وجماعة من العلماءِ: الكلام عامٌ يُدْخل في القسم كلَّ من يظهر بقدحه ناراً، وذلك شائع في الأُمم طول الدهر، وهو نفع عظيم من الله تعالىٰ في عباده، وقد وقف عليه في قوله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾[(٣)]، ومعناه: تُظْهرون بالقدح، قال عَدِيُّ بن زيد:

فَقَدَحْنَا زِنَادَنَا وَوَرَيْنَا ... فَوْقَ جُرْثُومَةٍ مِنَ الأَرْضِ نَاراً[(٤)]

= يسأل عن (الْعادياتِ ضَبْحاً)، فقلت له: الخيل حين تُغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن (الْعاديات ضَبْحاً)، فقال: سألت عنها أَحداً قَبْلي؟ قال: نعم، سألت عنها بن عباس فقال: الخيلُ حين تُغير في سبيل الله، قال: اذهب فادْعُه إليَّ، فلما وقفتُ على رأسه قال: تفتي الناسَ بما لا علْم لَكَ به؟ والله لكانت أَول غزوة في الإِسلام لَبَدْر، وما كان معنا إلاَّ فرسان: فرس للزبير وفرس للمقْداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعتُ عن قولي، ورجعت إلى الذي قال عليٌّ رضي الله عنه.

(١) الصَّدى: الذَّكَرُ من البوم، وقيل: هو طائر خرافي زعموا أَنه يخرج من رأس المقتول، ولا يزال يقول: اسقوني حتَّى يُؤخذ بثأره.

(٢) حَنَّانَةٌ: لها صوتٌ، وهذه صفةٌ تغلب على القوس حتى قال أَبو حنيفة: إنه اسمٌ لها عَلَمٌ عليها. والنَّشَمُ: شجر كانت تُتَّخذ منه القِسيُّ، والواحدة نَشَمة، وكذلك التألب شجر تُصنعُ منه القِسي. وتضبح: تُصَوِّت، وهذا هو الشاهد.

(٣) الآية (٧١) من سورة (الواقعة).

(٤) الشاعر هو عَدِيُّ بن زيد العباديّ، كثير من العلماءِ لا يرون شعره حجة، وقَدَحَ الزِّنادَ: ضربه بحجر =



قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، قال علي بن أَبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإِبل من مزدلفة إِلى منى، أَو في بدر، والعرب تقول: «أَغار» إِذا عَدَا حرباً، ونحوه، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل، واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأُمم، وعُرْف الغارات أَنها مع الصباح لأَنها تسري ليلة الغارة.

و«النَّقْعُ»: الغُبار الساطع المثار. وقرأَ أَبو حيوة: [فَأَثَّرْنَ] بشد الثاءِ، والضمير في [به] ظاهره أَنه للصبح المذكور، ويحتمل أَن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإِن كان لم يجر له ذكر، ولهذا أَمثلة كثيرة، ومشهور «إِثارةُ النقع» هو للخيل، ومنه قول الشاعر:

يُخْرِجْـنَ مِـنْ فُـرُجَـاتِ النَّقْـعِ دَامِيَـةً ... كَـأَنَّ آذانَهَـا أَطْـرَافُ أَقْـلامِ(١)

وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: هو هنا للإِبل تثير النَّقْع بِأَخفافها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، قال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه: هي الإِبلُ، و«جَمْعٌ» هي المزدلفة، وقال ابن عباس وجماعةٌ: هي الخيل، والمراد جَمْعٌ من الناس هم المغزُوُّون، وقرأَ عليٌّ وابن مسعود وقتادة: [فَوَسَّطْنَ] بشدِّ السين، وقال بشر بن أَبي خَازِمٍ:

فَـوَسَطْـنَ جَمْعَهُـمُ وأَفْلَـتَ حَـاجِـبٌ ... تَحْتَ الْعَجاجَةِ في الغُبارِ الأَقْتَمِ(٢)

= لإخراج النار منه، وَوَرَيْنَا النار: أَوقدناها. والجرثومة: المكان المرتفع من الأرض، وقد تجمع من تراب أَو طين.

(١) قال هذا البيت عَديُّ بن الرقاع في وصف الخيل، وفي الأصول: (من مستطار النقع) وما أَثبتناه منقول من كتاب (العقد الفريد). والنَّقع: الغبار الساطع المستطار، والفُرُجَات: جمع فُرْجة وهي الفتحة بين الشيئين أو في الجدار ونحوه، وفي حديث صلاة الجماعة: «لا تذروا فُرُجات الشيطان»، يقول الشاعر: إن الخيل تخرج أطرافاً دامية من فُرجات تلوح بين الغبار المثار، وإن آذانها لتشبه أَطراف الأقلام.

(٢) بشر بن أَبي خازم الأسدي ـ بالخاءِ في خازم ـ، شاعر جاهلي قديم، كان كثير الهجاءِ لأَوس بن حارثة بن لأْم، فنذر أَوسٌ ليحرقنَّه إذا قدر عليه، ثم وقع بشر في أَسر بني نبهان، فطلبه منهم أَوس لينفِّذ وعيده فيه، لكن أُمَّه نهته عن ذلك وقالت له: أَكرِم الرجل وحلَّ عنه، فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه، فلما أَطلقه جعل بشْر مكان كل قصيدة هجاءٍ قصيدةَ مدح في أَوس، والبيت من قصيدة قالها في يوم يسمَّى يوم الجفار. وَوَسَطَ جمعهم: صار في وسطهم، وفي المفضليات (فَفَضَضْنَ جمعهم)، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وحاجبٌ هو حاجبُ بن زرارة، يقول الشاعر عنه: إنَّه فرَّ تحت الغبار، والعَجَاجَة: واحدة العَجَاج وهو الغبار، والأَقتم: الشديد السواد من الكثافة.



وذكر الطبري عن زيد بن أَسلم أَنه كان يكره تفسير هذه الأَلفاظ ويقول: هو قَسَم أَقسم الله تعالىٰ به، وجمهور العلماءِ والأُمة مفسِّرون لها كما ذكرنا.

والقَسَم واقع على قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أَنه قال: «أَتدرون ما الكنود»؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «الكنود الذي يَأكل وحده، ويمنع رِفْده، ويضرب عبده»[1]، وقد يكون في المؤمنين الكفور بالنعمة، فتقدير الآية: إن الإِنسان لنعمة ربِّه لكنود، و«أَرْضٌ كنود»: لا تنبت شيئاً، وقال الحسن بن أَبي الحسن: الكنود: اللائم لِرَبِّه سبحانه، يعدُّ السيئات وينسى الحسنات، والكنود: العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل: كنُودٌ، قال أَبو زُبَيْدٍ:

إِنْ تَفُتْنِي فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً   غَيْرَ أَنِّي أُمْنَى بِدَهْرٍ كَنُودِ[2]

وقال الفضيل: الكنود هوْ الذي تنسيه سيئة واحدة حسناتٍ كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ يحتمل الضمير أَن يعود على الله تعالىٰ، وقاله قتادة، أَي: وربُّه شاهد عليه، ونفس هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أَن يعود على الإِنسان، أَي: أَفعالُه وأَقوالُه وحالُه المعلومة من هذه الأَخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد.

والضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ عائد على الإِنسان لا غير، والمعنى: من أَجل حب الخير لشديد، أَي: بخيل بالمال ضابط له، ومنه قول الشاعر:

---

(١) رواه أَبو أُمامة عن رسول الله ﷺ، وقد أَخرجه الطبري وفي سنده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني بإسنادين، في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف وفي الآخر من لا أَعرفه، وقال السيوطي في الدر المنثور: «أخرجه بن جرير، وابن أَبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر بسند ضعيف عن أَبي أُمامة، ورواه الطبري من حديث حريز بن عثمان، عن حمزة بن هانىء، عن أَبي أُمامة موقوفاً عليه».

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها أَبو زُبَيْد الطائي مكثراً فيها من الحكمة والتأمل في أحداث الحياة والموت، وهي في جمهرة أشعار العرب، والرواية فيها: (بدَهْر كَيُود) بالياء، من الكَيْد، وعلى هذا فلا شاهد فيه، وَتَفُتْني: تسبقني وتذهب عني، ولم أَطب عنك نَفْساً: لم أَرْضَ بذلك، وأُمْنَى: أُرْمَى وأُصاب، والدهر الكنود: الدهر البخيل الذي لا يُعطي الإِنسان ما يريد، ولا يحقق له أَمانيه. وهذا هو موضع الاستشهاد.



أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرامَ وَيَصْطَفِي عَقيلَةَ مالِ الْفاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ[1]

و«الْخَيْرُ»: المالُ على عُرف ذلك في كتاب الله تعالىٰ، قال عكرمة: الخير حيث وقع في القرآن فهو المال. ويحتمل أن يريد هنا الخير الدنيوي من مالٍ وصحةٍ وجاهٍ عند الملوك ونحوه؛ لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك، فأما المحبُّ في خير الآخرة فممدوح مرجُوٌّ له الفوز.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ توقيف على المآل والمصير، أي: أفلا يعلم مآله ومصيره فيستعد له؟ و«بَعْثَرَةُ ما في القبور»: نقضُه مما يستره والبحثُ عنه، وهي عبارة عن البعث، وفي مصحف ابن مسعود: [بُحِثَ مَا في القُبُور]، وفي حرف أُبَيٍّ [وَبُحْثِرَتِ الْقُبُورُ]. و«تَحْصيلُ ما في الصُّدور»: تَمْييزُهُ وكشْفُه ليقع الجزاءُ عليه من إيمان وكفر وَنيَّة، ويفسِّرُه قوله عليه الصلاة والسلام: «فيبعثون على نيَّاتهم»[2]، وقرأ يحيى بن يَعْمر، ونصر بن عاصم بفتح الحاءِ والصاد. ثم استُؤْنف الخبر الصادق الجزْمُ بأن الله تعالىٰ خبير بهم يومئذ، وهو تعالىٰ خبير دائماً، لكن خصَّص يومئذ لأنه يَومُ المُجازاة فإليه طمحت النفوس، وفي هذا وعيدٌ مُصَرَّح.

كمل تفسير «العاديات» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) هذا البيت من قصيدة طرفة المعروفة (لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ)، وهي المعلَّقة التي قالها بعد أن ملَّ حياة التشرُّد، وعاد نادماً إلى أهله.

ويعتامُ: يختار، والعقيلة: الكريمة من المال والنساءِ، والفاحش: البخيل. يقول: أرى الموت يختار الكرام فَيُفْنيهم، ويصطفي أفضل ما عند البخيل المتشدد من مالٍ فيأخذه، وبهذا لا ينفعه بخله ولا تشدده، فلا تخلُّص منه لواحد من الصنفين، فلا يجدي البخيل بخله، فالجود أفضل لأنه أحمد، وقيل: بل المعنى: إن الموت يختار الكرام بالإفناء، ويصطفي كريمة مال البخيل بالإبقاء.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في الفِتَن، وأبو داود في المهدي، والبخاري في الصوم والبيوع، والترمذي وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند (٦/ ٢٩٠)، عن عبيد الله بن القِبْطِيَّة، قال: دخل الحرث بن أبي ربيعة وعبد الله بن صفوان ـ وأنا معهما ـ على أُمِّ سَلَمة أم المؤمنين، فسألها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت أُمُّ سَلَمة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يعوذ عائذٌ بالحجر، فيبعث الله جيشاً، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرض خُسف بهم، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن أُخرج كارهاً؟ قال: يُخسف به معهم، ولكنه يُبعث على نيَّتِهِ يوم القيامة، فذكرت ذلك لأبي جعفر فقال: هي بيداءُ المدينة.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة القارعة

وهي مكِّيَّة بلا خلاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾.

قرأ: [الْقَارِعةَ، مَا الْقَارِعةَ] بالنصب عيسى، قال جمهور المفسرين: القارعةُ: القيامة نفسها؛ لأَنها تقرع القلوب بهولها، وقال قَوم من المتأَوِّلين: القارعةُ: صيحةُ النفخة في الصور؛ لأَنها تقرع الأَسماع وفي ضمن ذلك القلوب. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ تعظيم لأَمرها، وقد تقدم مثلُه(١).

و﴿يَوْمَ﴾ ظرف، والعامل فيه [الْقَارِعَةُ]، وأَمال أَبو عمرو [الْقَارِعَةُ]. و﴿الفَرَاش﴾ طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ولا يزال يتقحَّم على المصباح ونحوه حتى يحترق، ومنه قول النبي ﷺ: «وأَنا آخذ بِحُجَزِكم عن النار وأَنتم تتقحَّمون فيها تقاحُم الفَراش والجنادب»(٢)، وقال الفراءُ: الفَراش في الآية غوغاءُ الجراد، وهو صغيره الذي ينتشر

---

(١) عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾، وأَمثالها.

(٢) أَخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الفضائل، والترمذي في الأدب، وأحمد في مسنده في أكثر من موضع، ولفظه كما في صفحة (٢٤٤) من الجزء الثاني من مسند أحمد: عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، والثلاثة كافي الأربعة، إنما مَثَلي ومَثَلُ الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أَضاءت ما حوله جعل الفَرَاش والدوابُّ تَتَقَحَّم فيها، فأَنا آخُذ بِحُجَزكم وأَنتم تواقعون فيها، ومَثَل الأَنبياءِ كمثل رجل بنى بيتاً فأَحسنه وأَكمله وأَجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون: ما رأينا بنياناً أَحسن من هذا إلاَّ هذه الثَّلمة، فأنا تلك الثَّلمة»، وقيل لِسُفيان ـ راوي الحديث ـ:=



في الأَرضِ والهواءِ، و«المبثوث» معناه: المتفرِّق جمعه وجُملته موجودة متصلة، وقال بعض العلماءِ: الناسُ أَول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث؛ لأَنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إِلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأَن الجراد إنما تَوَجُّهه أَبداً إِلى ناحية مقصودة.

واختلف اللغويون في «العِهْنِ» ـ فقيل: هو الصوف عامًّا، وقيل: هو الصوف الأَحمر، وقيل: هو الصوف المُلَوَّن أَلواناً، واحتج هؤلاءِ بقول زهير:

كـأَن فُتَـاتَ الْعِهْـنِ فـي كُـلِّ مَنْـزِلٍ   نـزَلْـن بـه حـبُّ الْفَنَـا لَـمْ يُحَطَّـمِ [(١)]

والفَنَا: عنب الثعلب، وحبُّه قبل التحطيم منه الأَخضر والأَحمر والأَصفر، وكذلك الجبال جُدد بيضٌ وحمرٌ وصفرٌ وسودٌ، فجاءَ التشبيه ملائماً، وكَوْنُ الجبال كالعِهْن إِنما هو قبل وقت التَّفتيت وقبل النسف ومصيرها هنا، وهي درجات. و«النَّفْشُ»: خلخلة الأَجزاءِ وتفريقها عن تراصِّها، وفي قراءة ابن مسعود، وابن جبير: [كالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ].

و«الموازين» هي التي في القيامة، قال جمهور العلماءِ والفقهاءِ والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين ليبيِّن الله تعالىٰ أَمر العباد بما عهدوه وتيقَّنوه، وقال مجاهد: ليس ثَمَّ ميزانٌ، إِنما هو العدلُ مثَّلَ ذكْره بالميزان؛ إِذْ هو أَعدل ما يدري الناس، وجُمعت الموازين للإنسان لمَّا كانت له موزونات كثيرة متغايرة، وثِقل هذا الميزان هو بالإِيمان والأَعمال، وخِفَّته بعدمها وقلَّتها، ولن يخفَّ خفة موبقة ميزان مؤمن.

و«عيشَةٌ راضيةٌ» معناه: ذاتُ رضىً، على النَّسب، هذا قول الخليل وسيبويه، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، قال كثير من المفسرين: المراد بالأُمِّ نفس الهاوية، وهي دَرْك من أَدْراك النار، وهذا كما يقال للأَرض: «أُمُّ الناس» لأَنها تُؤْويهم، وكما

= من ذكر هذه ؟ قال: أَبو الزناد عن الأَعرج عن أَبي هريرة.

(١) البيت من معلَّقة زهير، والفُتاتُ: اسمٌ لما انفَت وتقطع من الشيءِ، والعِهْنُ: الصوف المصبوغ الْمُلَوَّنُ، وجمعه عُهُون، وحبُّ الْفَنَا: حبُّ عنب الثعلب، والتحطمُ: التكسُّر، والضمير في (نَزَلْنَ) يعود على «الظَّعائِن» اللاتي يتحدث عنهن، وقد ذكرهن في بيت سابق حين قال: (تبَصَّر خَليلي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعائِنٍ)، ومعنى البيت: كأَنَّ قِطَع الصوف المصبوغ الذي زُيِّنت به الهوادج في كل منزل نزلت به هؤلاءِ النسْوة حبُّ عنب الثعلب الذي لم يتحطم، لأنه إذا تحطَّم ذهبت أَلوانه.



قال عتبة بن أَبي سفيان في الحرب: «فنحن بنوها وهي أُمُّنا» فجعل الله تعالىٰ الهاوية أُمَّ الكافر لمَّا كانت مأواه، وقال آخرون: هذا تفاؤلٌ بشَرٍّ فيه تجوُّز، كما قالوا: «أُمُّهُ ثاكلٌ» و«هَوَى نَجْمُه»، وقال أَبو صالح وغيره: المرادُ أُمُّ رأسه لأَنهم يهوون على رُؤوسهم. وقرأَ طلحة: [فَإِمُّهُ] بكسر الهمزة وضم الميم مشددة.

ثم قرَّر تعالىٰ نبيَّه ﷺ على دراية أَمرها وتعظيمه، ثم أَخبره أَنها نارٌ حامية، وقرأَ (مَا هِي) بطرح الهاءِ في الوصل ابنُ أَبي إِسحاق والأَعمش، وروى المبرد أَن النبي ﷺ قال لرجل: «لاَ أُمَّ لك»، فقال: يا رسول الله، تدعوني إِلى الهدى وتقول: لا أُمَّ لك؟ فقال: إِنما أُريد: لا نارَ لك، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

كمل تفسير «القارعة» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التكاثر

وهي مكيَّة لا أَعلم فيها خلافاً[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾.

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ معناه: شغلكم بلذَّاته، ومنه «لَهْوُ الحديث والأَصوات» واللهو بالنساءِ، وهذا خبرٌ فيه تقريع وتوبيخ وتحسر. وقرأَ ابن عباس وأَبو عمران الجوني، وأَبو صالح: [آَلْهاكم] على الاستفهام.

و«التكاثرُ» هو المفاخرة بالأَموال والأَولاد والعدد جملة، وهذا هِجِّيرَى[(٢)] أَهل الدنيا وأَبنائها العربِ وغيرهم، لا يتخلَّص منه إلا العلماءُ المتقون، وقد قال الأَعشى:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ[(٣)]

وقال النبيُّ ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أَكلتَ فأَفْنَيْتَ، أَو لبستَ فأَبليتَ، أَو تصدَّقتَ فأَمضيت»[(٤)]؟

---

(١) قال القرطبي: «روى البخاري أنها مدنية».

(٢) دَأْبُهم وعادتُهم، ولا تستعمل إلاَّ في العادة الذميمة.

(٣) هذا بيت من قصيدة قالها الأَعشى يهجو علقمة بن عُلاثة ويمدح عامرَ بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما، وهو يخاطب في هذا البيت علقمة، و«الأكثر» هنا بمعنى «الكثير»، وليست للتفضيل، لأَن (الأَلف واللام ومِنْ) يتعاقبان في مثل هذا، وقد يجوز أن تكون للتفضيل ولكن تكون (مِنْ) غير متعلقة بـ (الأكثر)، و«الكاثرُ» هنا بمعنى «الكثير». يقول الشاعر لِعَلْقمة: إنك لست أَكثر عدداً من عامر وقومه، والعزة لا تكون إلاَّ لمن كثر عددهم.

(٤) أَخرجه البخاري في الطلاق، ومسلم في اللعان والزهد، وأَبو داود في الطلاق، والترمذي في الزهد=



واختلف المتأولون في معنى قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ ـ فقال بعضهم: حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباءِ والسلف، وتكثَّرتم بالعظام الرميم، وقال آخرون: المعنى: حتى مُتُّم وزرتم بأجسادكم مقابركم، أي قطعتم بالتكاثر أعمارهم، وعلى هذا التأويل رُوي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: بعث القوم للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا يقيم، وحكى النقاش هذه النزعة عن عمر بن عبد العزيز، وقال آخرون: هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور، أي: جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العلم والتعلم زيارة القبور تكثُّراً بمن سلف وإشادة بذكره، وقال: ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً»[1]. فكان نهيه عليه الصلاة والسلام في معنى الآية، ثم أباح بَعْدُ لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهاة والافتخار كما يفعل الناس في ملازمتها وتَسْنيمها بالرخام والحجارة، وتَلْوينها سرفاً، وبنيان النواويس عليها[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تعالىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ تأكيداً، ويأخذ الناس من هذا الزجر والوعيد المكرَّرَيْن كلُّ أحد على قدر حظِّه من التوغُّل فيما يكره، هذا تأويل جمهور الناس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كلاَّ ستعلمون في القبور، كلاَّ ستعلمون في البعث، وقال الضحاك: الزَّجر الأول ووعيده للكفار والثاني للمؤمنين. وقرأ مالك بن دينار: [كلاَّ سَيَعْلَمُونَ] فيهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف مقدر في القول، أي:

= وتفسير سورة التكاثر، والنسائي في الوصايا، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦٨، ٤١٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي مسند أحمد زيادة في آخره «ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»، وأخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأحمد، وابن جرير، والحاكم عن ابن الشِّخِّير.

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، وأبو داود في الجنائز والأشربة، والنسائي وابن ماجه في الجنائز، وأحمد في أكثر من موضع في مسنده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن أبي سعيد الخدري، وفي رواية لمالك في موطئه زيادة: «ولا تقولوا هُجْراً»، والهُجْر: الهَذَيان والقبيح من القول.

(٢) تَسْنيم القبور: إعلاءُ بنائها وتعظيمُه. والناوُوسُ: صندوق من خشب أو نحوه يضع فيه النصارى جثة الميت، وهو أيضاً مقبرة النصارى، والجمع «نواويس» ـ راجع المعجم الوسيط، وقد جاءَ في بعض النسخ بدلاً من «وتلوينها سرفاً» ـ قوله: «وتكوينها شرفاً». وقد نقل أبو حيان كلام ابن عطية هذا ثم قال: «وابن عطية لم يَرَ إلا قبور أهل الأندلس، فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى، وباب النصر وغير ذلك» وما يضيع فيها من الأموال: لتعجَّب من ذلك، ولرأى ما لم يخطر ببال». (راجع البحر المحيط).



لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة، و«اليقين» أعلى مراتب العلم. ثم أخبر تعالىٰ الناس أنهم يرون الجحيم. وقرأ ابن عباس، والكسائي: [لَتُرَوُنَّ] بضم التاءِ، وقرأ الباقون بفتحها، وهي الأرجح، وكذلك في الثانية، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتح التاءِ في الأُولى وضمها في الثانية، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم.

و﴿تَرَوُنَّ﴾ أَصله: تَرْأَيُون، نقلت حركة الهمزة إلى الراءِ، وقلبت الياءُ أَلِفاً لحركتها بعد مفتوح ثم حذفت الأَلف لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم جلبت النون المشدَّدة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأُولى من المشدَّدة؛ إذ قد حذفت نون الإعراب للبناءِ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا خطاب للمشركين، فالمعنى ـ على هذا ـ أَنها رؤية دخول وصَلْي، وهو عين اليقين، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1]، فالمعنى أَن الجميع يراها، ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيد في الخبر، و«عَيْنُ اليقين» حقيقته وغايته. وروي عن الحسن وأَبي عمرو أنهما هَمَزَا [لَتَرَؤُنَّ] و[لَتَرَؤُنَّها] بخلاف عنهما، وروي عن ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَتُرَوُنَّها﴾ بضم التاءِ.

ثم أَخبر تعالىٰ أَن الناس مَسْؤُولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا، كيف نالوه؟ ولِمَ آثروه؟ ويتوجه في هذا أَسْئِلَةٌ كثيرةٌ بحسب شخص شخص، هي منقادة لمن أُعطي فهما في كتاب الله تعالىٰ، وقال ابن مسعود، والشعبي، وسفيان، ومجاهد: النعيم هو الأَمْن والصحة، وقال ابن عباس: هو البَدَن والحواس، يسأَل المرءُ فيما استعملهما؟ وقال ابن جبير: هو كلُّ ما يُتَلَذَّذ به من طعام وشراب، وأَكل رسول الله ﷺ هو وبعض أَصحابه رطباً، وشربوا عليه ماءً فقال لهم: هذا من النعيم الذي تُسأَلون عنه[2]، ومضى عليه الصلاة والسلام يوماً هو وأَبو بكر وعمر رضي الله عنهما ـ وقد جاءوا ـ إلى منزل

---

(١) من الآية (٧١) من سورة (مريم).

(٢) أَخرجه أَحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن جابر بن عبد الله، وفيه أنه سمَّى أبا بكر وعمر بدلاً من قوله هنا: «هو وبعض أَصحابه». (الدرُّ المنثور).

أَبي الهيثم بن التيهان، فذبح لهما شاةً، وأطعمهم خبزاً ورطباً، واستعذب لهم ماءً، وكانوا في ظِلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسأَلُن عن نعيم هذا اليوم»[١]. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أَنه قال: «النعيم المسؤول عنه كسرةٌ تقوتهُ، وماءٌ يرويه، وثوب يواريه»[٢]. وروى أَبو هريرة عن النبي ﷺ أَن النعيم المسؤول عنه الماءُ البارد في الصيف[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أَكل خبز البُرِّ، وشرب الماءَ البارد في ظِلٍّ، فذلك النعيم الذي يسأَل عنه»[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أَخرجه البَزَّارُ، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، وفيه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: إن رسول الله ﷺ خرج يوماً عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد جالساً، فقال: ما أَخرجك هذه الساعة ؟ قال: أَخرجني الذي أَخرجك يا رسول الله، ثم إنَّ عمر جاء، فقال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب ما أَخرجك هذه الساعة ؟ قال: أَخرجني الذي أَخرجكما، فقال رسول الله ﷺ: هل بكما من قوة فتنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان من طعام وشراب ؟ فقلنا: نعم يا رسول الله، فانطلقنا حتى أَتَيْنا منزل مالك بن التَّيْهان أَبي الهيثم الأنصاري. ـ (الدرُّ المنثور).

وفي صحيح مسلم عن أَبي هريرة أنه ﷺ ومعه أَبو بكر وعمر أَتيا رجلاً من الأَنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأَهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أَين فلان ؟ قالت: يستعذب لنا من الماءِ، إذ جاء الأَنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أَضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءَ بعذْق فيه بُسْرٌ وتَمْر ورُطَب، فقال: كلوا من هذا، وأَخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَوْا قال رسول الله ﷺ لأَبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة، أَخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أَصابكم هذا النعيم»، وقد خرجه الترمذي وقال فيه: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظلٌّ باردٌ، ورُطَب طيِّب، وماءٌ بارد»، وكنَّى الرجل الذي من الأَنصار فقال: «أَبو الهيثم بن التَّيْهان»، وذكر قصته.

(٢) أَخرجه ابن جرير عن ثابت البناني عن النبي ﷺ.

(٣) رواه الترمذي والطبري عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد من النعيم ـ أَن يُقال له: أَلم نُصِحَّ لك جسمك وَنُرْوِيَكَ من الماءِ البارد ؟. وأورده السيوطي في (الدر المنثور)، وزاد نسبته إلى أَحمد، وعبد بن حميد، وابن حبَّان، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان).

(٤) أورده السيوطي في (الدرّ المنثور) قائلاً: أَخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه، عن علي بن أَبي طالب أنه سئل عن قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، قال: «من أكل خبز البُرِّ، وشرب ماءَ الفرات مُبَرَّداً، وكان له منزل يسكنه، فذاك هو النعيم الذي يسأَل عنه»، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.



«بيتٌ يُكِنُّكَ، وخِرْقَةٌ تواريك، وكِسْرَةٌ تشُدُّ قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم»[١]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل نعيم فهو مسؤول عنه، إلاَّ نعيماً في سبيل الله عزَّ وجلَّ»[٢].

كمل تفسير سورة «التكاثر» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) ذكره السيوطي في الدر من رواية عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن الحسن مرسلاً، وهو ضعيف في المرفوع.

(٢) الجملة الأولى «كل نعيم فهو مسؤول عنه» تكاد تكون ضمن أكثر الأحاديث التي وردت في الموضوع، لكني لم أقف على الحديث بهذا النص كاملاً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة العصر

وهي مكيّة(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصْرُ: الدهرُ، يقال فيه: عَصْرٌ وعُصُر ـ بضم العين والصاد ـ قال امرؤ القيس:

. . . . وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُر الخالي؟(٢)

وقال قتادة: العَصْر: العشِيُّ، وقال أُبَيُّ بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العصر فقال: «أَقْسَم ربُّك بآخر النهار»(٣)، وقال بعض العلماءِ ـ وذكره أَبو علي ـ العصر: اليوم، والعصر: الليلة، ومنه قول حُمَيْد:

وَلَـنْ يَلْبَـث العَصـرَانِ: يَـوْمٌ وَلَيْلَـةٌ إذا طَلَبَـا أَنْ يُـدْرِكـا مـا تَيَمَّمَـا(٤)

---

(١) وقال قتادة: هي مدنية، وروي هذا أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدته: «الطَّلَلُ البالي»، والبيت بتمامه:

أَلاَ عِـمْ صَبـاحـاً أَيُّهـا الطَّلَـلُ البَـالـي وهَلْ يَعِمَن مَن كانَ في العُصُر الخالي؟

و«عِمْ صباحاً»: أَنْعِمْ صباحاً. والخالي: الماضي القديم، يخاطب الطَّلل كأنه إنسان عاقل، ثم يرجع إلى نفسه ويستدرك لأن النعيم لا يكون أبداً لمن مضى عليه الزمن، وأتت عليه حوادث الأيام وصروف الدهر، وقد استشهد بالبيت صاحب اللسان.

(٣) ذكره أَيضاً القرطبي لكنه لم يخرجه.

(٤) هذا البيت لحُمَيْد بن ثور الهلالي، وهو في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط، ومعنى تَيَمَّمَا: قَصَدَا، والشاهد أن العصر هو اليوم وهو الليلة.



وقال بعض العلماءِ: العصْرُ بُكرة، والعصر عشيَّة، وهما الأَبردان[١]، وقال مقاتل: العصر هي الصلاة الوسطى، أَقسم الله تعالىٰ بها[٢].

و«الإِنسان» اسم جنس، و«الْخُسْرُ»: النقصان وسوءُ الحال، وذلك بيِّن غاية البيان في الكافر، إِنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأَما المؤمن ـ وإِن كان في خُسْر في دنياه في هَرَمه وما يقاسيه من شقاءِ هذه الدار ـ فذلك معفوٌّ عنه في جانب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التوصِّي بالحق والعمل بحسب الوصاة فلا خُسْر معه، وقد جُمع له الخَيْرُ كلُّه.

وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «والعصر، ونوائب الدهر، إِن الإِنسان»، وفي مصحف عبد الله: «والعصر، لَقَدْ خَلَقْنا الإِنسانَ في خُسْر»، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قرأَ: [إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْر، وإِنَّهُ فيهِ إِلى آخر الدَّهْرِ، إِلاَّ الذين]، وقرأَ عاصم، والأَعرج: [لَفِي خُسُر] بضم السين، وقرأَ سلام أَبو المنذر: [والعَصِرِ] بكسر الصاد، و«الصَّبِر» بكسر الباءِ، وهذا لا يجوز إِلاَّ في الوقف، على نقل الحركة، وروي عن أَبي عمرو: [بِالصَّبِر] بكسر الباءِ إِشماماً، وهذا أَيضاً لا يكون إِلاَّ في الوقف.

كمل تفسير سورة العصر والحمد لله ربّ العالمين

* * *

(١) في اللسان: «البَرْدان والأَبْردان: الظِّلُ والفَيْءُ، سُمِّيا بذلك لبردهما، وهما: العَصْرَان، وقيل: هما الغداةُ والعشي، وقيل: ظِلاَّهما».

(٢) قال العلماءُ: لأَنها أَفضل الصلوات، وفي الخبر الصحيح «الصلاةُ الوسطى صلاة العصر» وقال عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوُسْطى صلاةِ العصر»، متفق عليه، وروى مسلم أَنه ﷺ قال: «من فاتَتْه صلاةُ العصر فكأَنما وُتر أَهْلَه ومالَه».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الهمزة

وهي مكيّة بلا خلاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ ﴾ يجمع الشَّر والخزي، وقيل: وَيْلٌ واد في جهنم، و«الْهُمَزَةُ»: الذي يهمز الناسَ بلسانه، أي يعيبهم ويغتابهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المشَّاءُ بالنَّميم[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس به، لكنهما صفتان بتلازم، قال تعالىٰ: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[(٢)] وقال مجاهد: الهُمزة: الذي يَأكل لحوم الناس، وقيل لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إنِّي إذاً لرجل سوءٍ، حسب أنه يقال له: أتقع في سبِّه؟ و«اللُّمَزةُ» قريب من المعنى في «الْهُمَزَةِ»، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[(٣)]، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: [وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ]. وهذا البناءُ الذي هو «فُعَلَة» يقتضي المبالغة في معناه، وقال أبو العالية، والحسن: الهَمْزُ بالحضور واللَّمْزُ بالمغيب، وقال مقاتل ضدَّ هذا، وقال بن أبي نُجيح: الْهَمْزُ باليد والعين واللَّمْزُ باللسان، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾[(٤)].

---

(١) النَّميم: مصدرَ «نَمَّ»، يقال: نمَّ نميمةً ونميماً، وقيل: بل هي جمع «نميمة».

(٢) الآية (١١) من سورة (القلم).

(٣) من الآية (١١) من سورة (الحجرات).

(٤) من الآية (٥٨) من سورة (التوبة).

وقيل: نزلت هذه الآية في الأَخنس بن شريق، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، ثم هي تتناول كلَّ من اتصف بهذه الصفات.

وقرأَ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والحسن: [جَمَّعَ] بشد الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ معناه: أَحصاه وحافظ على عَدَده أَلاَّ يُنْقص، فمنعه من الخيرات ونفقة البر، وقال مقاتل: المعنى استعدَّه وادَّخره. وقرأَ الحسن: [وَعَدَدَهُ] بتخفيف الدالين، فقيل: المعنى: جمع مالاً وعدداً من عشيرة، وقيل: أَراد «عدَّدَ» مشدَّداً فحلَّ التضعيف. وهذا قَلِقٌ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ معناه: يحسب أَن مالَه هو معنى حياته وقوامها، وأَنه حفظه مدة عمره ويحفظه، ثم ردَّ تعالىٰ على هذه المحسبة، وأَخبر إِخباراً مؤكداً أَنه يُنبذ في الحطمة، أَي التي تحطم ما فيها وتلتهمه. وقرأَ: [يَحْسَبُ] ـ بفتح السين ـ الأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة، وقرأَ ابن محيصن، والحسن ـ بخلاف عنه ـ: [لَيُنْبَذَانِّ] بنون مكسورة مُشَدَّدَةٍ قبلها أَلفٌ، يعني: هو ومالُه، ورُوي عنه ضم الذال على نبذ جماعة، هو ومالُه وعدده، أَو يريد جماعة الهُمزات.

ثم عظَّم الله تعالىٰ شأْنها، وأَخبر أَنها نار الله الموقدة التي يبلغ إِحراقُها القلوب ولا تخمد، و«الفؤاد» القلب، ويحتمل أَن يكون المعنى: إِنها لا يتجاوزها أَحد حتى تأْخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته، فكأَنها مطلعة على القلوب بإِطلاع الله تعالىٰ إِيَّاها، ثم أَخبر تعالىٰ أَنها عليهم مُؤْصدة، ومعناه: مطبقة أَو مغلقة، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: أَبواب النار بعضها فوق بعض. وقوله تعالىٰ: ﴿فِى عَمَدٍ﴾ جمع «عمود» مثل أَديم وأَدَم، وهي عند سيبويه أَسماءُ جمع لا جموع جارية على الفعل. وقرأَ ابن مسعود: [مُوصدةٌ بعُمُد مُمَدَّدةً]، وقال ابن زيد: المعنى: في عمد حديد مغلولين لها، والكلُّ من نار، وقال أَبو صالح: هذه النار هي في قبورهم. وقرأَ عاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وحمزة، والكسائي: [عُمُدٍ] بضم العين والميم، وقرأَ الباقون وحفصٌ عن عاصم بفتحهما. وقرأَ الجمهور: [مُمَدَّدَةٍ] بالخفض، على نعت «العَمَد»، وقرأَ عاصم: [مُمَدَّدَةٌ] بالرفع على اتباع [مُؤْصَدَةٌ][1].

كمل تفسير سورة «الهمزة» والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أَبي بكر عنه، أما قراءة حفص عنه فهي بخفض (مُمَدَّدَةٍ) كالجمهور.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفيل

وهي مكيَّة إجماعاً من الرواة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

﴿كَيْفَ﴾ نصب بـ [فَعَلَ]، والجمهور على أنه فيل واحد، وقال الضحاك: ثمانية، فهو اسم الجنس، وقوله مردود، وحكى النقاش ثلاثة عشر.

وهذه السورة تنبيه على اعتبار في أَخْذ الله عزَّ وجلَّ لأَبرهة مِلك الحبشة ولجيشه حين أَمَّ به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه.

وقصته مشهورة في السيرة طويلة، واختصارها أَنه بنى في اليمن بيتاً، وأَراد أَن يَرِدَ إِليه حجُّ العرب، فذهب عربي فأَحدث في البيت الذي بناه أَبرهة، فغضب لذلك واحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل ظاهر مكة، وفرَّ عبد المطلب وقريش إِلى الجبال والشعاب، وأَسلموا له البلد، وغلب طغيانه، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه، جاءَت قدرة الواحد القهَّار، وأَخْذ العزيز المقتدر الجبار، فأَصبح أَبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة، فبرك فيله بذي المُغَمِّس[1] ولم يتوجه قِبَل مكة، فَبَضَعوه بالحديد[2] فلم يمش إِلى ناحية مكة، وكان إِذا وجهوه إِلى غيرها هرول، فبينما هم كذلك في أَمر الفيل بعث الله تعالىٰ عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر ـ وقيل خضْراً ـ، عند كل طير ثلاثة أَحجار في منقاره ورجليه، كلُّ حجر فوق العدسة ودون الحُمُّصة، فرمتهم بتلك الحجارة،

---

(١) موضع قريب من مكة في طريق الطائف.
(٢) بضعه: شق جلده وقطعه.



وكان الحجر منها يقتل المرميَّ، وتتهرأُ لحومهم جرباً وأَسقاماً، وانصرف أَبرهة بمن معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطع أَبرهة أُنملة أُنملة حتى مات، وحمى الله تعالىٰ بيته المرفَّع، فنزلت هذه السورة مُنَبِّهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكلُّ أَن الأَمر كله لله تعالىٰ، ويستسلموا للإِله الذي ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن الأَصنام شيئاً. فأَصحاب الفيل هم أَبْرَهةُ المِلِكُ ورجاله. وقرأَ أَبو عبد الرحمن: (أَلَمْ ترْ) بسكون الراءِ، و«التَّضليلُ»: الخَسَار والتلف. و«الأَبابيلُ»: الجماعاتُ تجيءُ شيئاً بعد شيءٍ، وقال أَبو عبيدة: لا واحد له من لفظه، وهذا هو الصحيح، لا ما تكلَّفه بعض النحاة وقال كعب:

كـادَتْ تُهَـدُّ مِـنَ الأَصْـواتِ راحِلَتـي ... إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالْجُرْدِ الأَبابيلِ[١]

وقد تقدم تفسير «حجارة السِّجِّيل» غير مرة، وهو من «سَنْجٍ وَكِلٍّ»[٢]، أي: ماءٍ وطين، كأنها الآجرُ ونحوه مما طُبِخ[٣] وهي المسوَّمة عند الله تعالىٰ للكفَّار والظالمين.

و«العَصْفُ»: ورق الحِنْطة وتبْنُه، ومنه قول علقمة بن عَبْدة:

تسْقـي مَـذانِـبَ قَـدْ زالـتْ عَصيفتُهَـا ... حَدورُهَا مِنْ أَتِيِّ اَلْماءِ مَطمومُ[٤]

---

(١) تُهَدُّ: تضعف وتعجز عن الحركة. والرَّاحِلَةُ من الإبل: الصالح للأسْفار والأحْمال، والجُرْدُ: جمع أَجرد وهو الذي خلا جسمه من الشعر، أو قصر شعر جسمه، وهي صفة محمودة في الخيْل، والأبابيل: جمعٌ لا واحد له من لفظه، والمراد بها الجماعات التي تأتي وراء بعضها. وقيل: بل له مفرد ثم اختلف اللغويون في هذا المفرد ـ راجع اللسان ـ، هذا والبيت في اللسان، والقرطبي، والبحر المحيط. ومعنى «سالت الأرض بالجُرْد»: امتلأت بها حتى صارت كالسَّيل ينطلق ويتدفّق في كل أنحاءِ الوادي.

(٢) في اللسان «هو حَجَرٌ من طين، معرَّبٌ دخيل، وهو سَنْكِ وَكِلْ، أَيْ حجارة وطين، وقيل: من جلٍّ وطين، وقيل: من جلٍّ وحجارة».

(٣) الطين المحروق بعد جمعه وصبّه في قوالب.

(٤) قال علقمة هذا البيت من قصيدة له يتناول فيها حبيبته ثم ناقته قبل أن يتحدث عن شخصيته، والبيت واحد من الأَبيات التي يصف فيها الناقة فيكثر من ذكر التفاصيل. والمذانب: مدافع الماءِ إلى الأرض، والعَصيفَةُ: الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل، والحَدُور: ما انحدر من الأَرض واطمأنَّ، والأَتِيُّ: السَّيل المندفع، والمطموم الممتلىءُ. يقول: إن هذه الناقة ـ التي وصفها قبل ذلك بالقوة وضخامة الجسم ـ تسقي هذه المذانب التي زال عنها ما كان بها من عصيفة، وامتلأ ما انخفض منها بماءِ السَّيل المندفع إليه من أَعلى.



والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحِنْطة أكلته الدوابُ وراثته[1] فَجَمَع المهانة والخِسَّة والتَّلف. وقرأ أَبو المليحِ الهذلي[2]: [فتركَهُمْ كعَصْفِ]، وقال أبو حاتم: وقرَأ بعضهم: «فَجعلتْهُمْ» ـ يعنون الطير ـ بفتح اللام وتاءِ ساكنة، وقال عكرمة: العصْفُ: حبُّ البُرِّ إذا أُكل فصار أَجوف، وقال الفراءُ: هو أَطراف الزرع قبل أن يُسَنْبل.

وهذه السورة متصلة في مصحف أُبَيِّ بن كعب بسورة «لإِيلافِ قُرَيْش»، لا فصل بينهما[3]، وقال سفيان بن عيينة، كان لنا إِمام يقرأ بهما متصلةً سورة واحدة.

كمل تفسير سورة «الفيل» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) أَي أَخرجته روثاً.

(٢) هو أَبو المليح ابن أُسامة بن عمير ـ أو عامر ـ بن حنيف بن ناجية الهُذَلي، اسمه عامر، وقيل: زيد، وقيل: زيادٌ. قال عنه الحافظ العسقلاني في (تقريب التهذيب): «ثقة، مات سنة ثمان وتسعين، وقيل: ثمان ومائة، وقيل: بعد ذلك».

(٣) فيكون المعنى متصلاً، والتقدير: فعلتُ ذلك بأَصحاب الفيل حتى تألف قريشٌ ما أَنْعمت به عليها من رحلتي الشتاءِ والصيف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة قريش

وهي مكيَّة بلا خلاف[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

قرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: (لإِيلافِ قُرَيْش، إِيلاَفِهِمْ)، على «إِفْعالٍ» والهمزة الثانية ياءٌ. وقرأَ ابن عامر: [لإِلافِ]، على «فِعال» (إِيلافِهِمْ)، على إِفعالٍ بياءٍ في الثانيةِ، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم بهمزتين فيهما، الثانيةُ ساكنة قال أَبو علي: وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له، وقرأَ أَبو جعفر [إِلْفِهِمْ] بلام ساكنة.

و«قريش»: ولد النَّضر بن كنانة، والتَّقْريش: التَّكَسُّب، تقول العربُ: «أَلِفَ الرَّجُلُ الأَمْر وآلَفَهُ غيرُهُ إِيَّاه»، فالله تعالىٰ آلَفَ قريشاً، أَي جعلهم يأْلفون رحلتين في العام، واحدة في الشتاءِ وأُخرى في الصيف، ويقال أَيضاً: «أَلِفَ» بمعنى «آلَفَ»، وأَنشد أَبو زيد:

مِـن الْمُـؤْلفـاتِ الـرَّمْـلِ أَدْمـاءُ حُـرَّةٌ ... شُعاعُ الضُّحى في جيدها يَتوضَّحُ[٢]

فإِلْفٌ وإِلاَفٌ مصدر «أَلِف»، وإِيلافٌ مصدر «آلفَ»، قال بعض الناس: كانت

(١) في القرطبي أَنها مكية في قول الجمهور، ومدنية في قول الضحاك والكلبي.

(٢) هذا البيت لذي الرُّمَّة، والرواية في اللسان: «في مَتْنِها يَتَوَضَّحُ» بدلاً من «جيدها»، وهو شاهد على أَنَّ «آلَفَ» تأتي بمعنى «أَلِفَ». يقال: «أَلِفْتُ الشيءَ وآلَفْتُه» بمعنى: لَزِمْتُه، والأُلْفَةُ هي الأُنْسُ بالشيءِ والتزامه، والأَدْماءُ: شديدة السُّمْرة، يصفها بأنها ممن أَلفت الرمل وأَنِست إِليه، وأَنها سمراءُ تعودت أَن تعيش حرة، ويصف جيدها بأنه يلمع كأن شعاع الشمس يصدر عنه.



الرحلتان إِلى الشام في التجارة ونيل الأَرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَـرَيْـنِ سَنَّهُمَـا لَـهُ ولِغَيْـرِهِ   سَفَـرُ الشِّتـاءِ ورحْلَـةُ الأَصْيـافِ[1]

وقال ابن عباس: كانت رحلة الشتاءِ إِلى اليمن، ورحلة الصيف إِلى بُصرى من أَرض الشام، وقال أَبو صالح: كانت جميعاً إِلى الشام، وقال ابن عباس أَيضاً: كانوا يرحلون في الصيف إِلى الطائف حيث الماءُ والظل، ويرحلون في الشتاءِ إِلى مكَّة للتجارة وسائر أَغراضهم، فهاتان رحلتا الشتاءِ والصيف، وقال الخليل بن أَحمد: فمعنى الآية: لأَن الله تعالىٰ فعل بقريش هذا ومكنهم من إِلْفِهم هذه النعمة فليعبدوا ربَّ هذا البيت.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذِكْرُ «البيت» هنا متمكن لتقدم حمايته في السورة التي قبلها.

وقال الأَخفش وغيره: قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾. أَي: لِيَفْعَل بقريش هذه الأَفاعيل الجميلة، وقال بعض المفسرين: معنى الآية: اعجبوا لإِيلاف قريش هذه الأَسفار وإِعراضهم عن عبادة الله تعالىٰ، ثم أَمرهم تعالىٰ بالعبادة بَعْدُ، وأَعلمهم أَن الله هو الذي أَطعمهم وآمنهم لا سفرهم، والمعنى: فليعبدوا الذي أَطعمهم بدعوة إِبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]، وآمَنهم بدعوته حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[3]، ولا تشتغلوا بالأَسفار فإِنها طلب كسْبٍ وعرضُ دُنْيا. وقال النقاش: كانت لهم أَربع رحَلٍ، وهذا قول مردود، وقال عكرمة: معنى الآية كما أَلِفوا هاتيْن الرحلتيْن لدنياهم فليعبدوا ربَّ هذا البيت لآخرتهم، وقال قتادة: إِنَّما عُدِّدت عليهم الرحلتان لأَنهم كانوا يأَمنون من الناس في سفرهم، والناسُ يُغير بعضهم على بعض، ولا تُمكِّن قبيلاً من العرب أَن يرحل آمناً كما تفعل قريش، فالمعنى: فليعبدوا الذي خصَّهم بهذه الحال فأَطعمهم وآمنهم.

---

(١) سَنَّ: وضع وبيَّن، وكلُّ من ابتدأَ أَمْراً عمِل به قومٌ من بعده فهو الذي سنَّه. والأَصْياف: جمع صَيْف، وهو الفَصْل المعروف من فصول العام، يقال في جمعه: صيوفٌ وأَصياف. ونُرَجِّح أن البيت من قصيدة قالها مطرود بن كعب الخزاعي في رثاءِ عبد المطلب ومدح فيها آل عبد مناف.

(٢) من الآية (٣٧) من سورة (إبراهيم).

(٣) من الآية (٣٥) من سورة (إبراهيم).



وقوله تعالىٰ: ﴿مِن جُوعٍ﴾ معناه أَن أَهل مكة قاطنون بوَادٍ غير ذي زرع عُرْضةً للجوع والجدب لولا لُطْف الله تعالىٰ وأَنْ جعلها بدعوة إِبراهيم عليه السلام تُجبى إِليه ثمراتُ كل شيءٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾، أَيْ: جعلهم ـ لِحُرْمة البيت ـ مفضَّلين عند العرب، يأَمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالىٰ في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. وقال ابن عباس، والضحاك: (آمَنَهُمْ مِنْ خوْفٍ) معناه: من الجُذام، فلا ترى بمكة مجذوماً.

كمل تفسير سورة «قريش» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الماعون

وهي مكيَّة بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

هذا توقيف وتنبيه لتذكر نفسُ السامع كلَّ من تعرفه بهذه الصفة، وهمَز أَبو عمرو [أَرَأَيت] ـ بخلاف عنه ـ، ولم يهمزها نافع وغيره. و«الدِّينُ»: الجزاءُ ثواباً وعقاباً، والحساب هنا قريب من الجزاءِ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، أَي: راقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، و«دَعُّ اليتيم»: دَفْعُه بعنف، وذلك إِمَّا أَن يكون المعنى: عن إِطعامه والإِحسان إِليه، وإِمَّا أَن يكون: عن حقِّه وماله، فهذا أَشد، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [يَدَعُ] بفتح الدال خفيفة، بمعنى: لا يُحسن إِليه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أَيْ لا يأمر بِصَدَقَة، ولا يرى ذلك صواباً.

ويُروى أَن هذه السورة نزلت في بعض المضطرِّين في الإِسلام بمكة الذين لم يُحقِّقوا فيه، وفُتِنوا فَافْتتنوا، وكانوا على هذا الخُلُق من الغشم وغِلَظ العشرة والفظاظة على المساكين، وربما كان بعضهم يصلي أَحياناً مع المسلمين مدافَعَةً وحيرة، فقال الله تعالىٰ فيهم ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقال ابن جريج: كان أَبو سفيان ينحر كل أُسبوع جزوراً، فجاءَه يتيم فقرعه بعصاً، فنزلت السورة فيه،

(١) الذي في الأصول: تفسير سورة (أرأيت)، وقد أثبتنا الاسم المختار في المصحف الشريف.



قال سعد بن أَبي وقاصٍ رضي الله عنه: سأَلتُ النبي ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يُؤخرونها عن وقتها»[(١)]، يريد ﷺ ـ والله تعالىٰ أَعلم ـ تأْخير تَرْكٍ وإِهمالٍ، وإِلى هذا نَحَا مجاهد، وقال قتادة: [ساهُونَ] هم التاركون لها، أَو هم الغافلون الذين لا يبالي أَحدهم صلَّى أَمْ لم يُصَلِّ، وقال عطاءُ بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وفي قراءة ابن مسعود: [لاهون] بدل «ساهون».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ بيانُ أَنَّ صلاة هؤلاءِ ليست لله تعالىٰ بِنِيَّة إِيمان، وإِنما هي رياءٌ للبشر، فلا قبول لها، وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، وأَبو الأَشهب: [يُرَؤُّنَ] مهموزة مقصورة مشددة الهمزة[(٢)]، وروى ابن أَبي إِسحاق: [يُرَؤُنَ] بغير شدٍّ في الهمزة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وصفٌ لهم بقلَّة النفع لعباد الله، وتلك شرُّ خَلَّة[(٣)]، وقال علي بن أَبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم: الماعُون: الزكاة، قال الراعي:

قَــوْمٌ عَلَــى الإِسْــلامِ لمَّــا يَمْنَعُــوا ... مــاعُــونَهُــمْ وَيُضَيِّعُــوا التَّهْليــلاَ[(٤)]

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني في الأوسط، وأَخرجه ابن جرير، قال: حدثني زكريا بن أبان المصري، حدثنا عمرو بن طارق، حدثنا عكرمة بن إبراهيم، حدثني عبد الملك بن عُمير، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أَبي وقاص، قال سأَلت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»، قال ابن كثير، وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلِّية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً أو تأخيراً عن أول الوقت، وكذلك روى الحديث الحافظ أبو يعلى عن أَبي الربيع عن جابر عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفاً، وقد ضعّف البيهقي رفعه وصحح وقفه، وكذلك الحاكم.

(٢) على وزن (يُصَلُّونَ).

(٣) الخَلة: الصِّفة أَو الخَصْلة.

(٤) هذا واحد من أَبيات قالها عبيد بن حصين الراعي، وهي:

أَخَليفَــةَ الإِسْــلام إِنَّــا مَعْشَــرٌ ... حُنَفَــاءُ نَسْجُــدُ بُكْــرَةً وَأَصيــلاَ
عَــرَبٌ نَــرَى للهِ مِــنْ أَمْــوالِنَــا ... حَــقَّ الــزَّكَــاةِ مُنَــزَّلاً تَنْــزِيــلاَ
قَــوْمٌ عَلَــى الإِسْــلامِ لَمَّــا يَمْنَعُــوا ... مَــاعُــونَهُــمْ وَيُضَيِّعُــوا ٱلتَّهْلِيــلاَ

والبيت الأخير في اللسان، والرواية فيه: «قومٌ عَلَى التنْزيل»، «ويُبَدِّلوا التنْزيلاً» وفي التهذيب: =



وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو ما يتعاطاه الناسُ بينهم كالفأس والدلْو والآنية والمقصِّ ونحوه، وقاله الحسن، وقتادة، وابن الحنفية، وابن زيد، والضحاك، وابن عباس، وقال ابن المسيَّب: الماعون ـ بلغة قريش ـ المال، وسُئِل النبيُّ ﷺ: ما الشيءُ الذي لا يحِلُّ منعه؟ فقال: «الماءُ والنار والملح»، روته عائشة رضي الله عنها، وفي بعض الطرق زيادة «والإبرة والخمير»[1]، وحكى الفراءُ عن بعض العرب أَن الماعونَ الماءُ، وقال ابن مسعود: كنَّا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية القِدْر والدلو ونحوها.

كمل تفسير سورة «الماعون» والحمد لله رب العالمين

* * *

= «ويُبَدِّلُوا تَبْديلاً». والبيت شاهد على أَن الماعون هو الزكاة، قال صاحب اللسان: «وعليه العمل، وهو من السهولة والقلة لأنها جزءٌ من كلٍّ».

(١) خرَّجه ابن ماجه في سننه، وفي إسناده لين، وذكره الثعلبي في تفسيره، ولفظه أَن عائشة رضوان الله عليها قالت: قلت: يا رسول الله، ما الشيءُ الذي لا يحلُّ منعه؟ قال: «الماءُ والنار والملح»، قلت: يا رسول الله، هذا الماءُ، فما بال النار والملح؟ فقال: «يا عائشة من أَعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أَعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيِّب به ذلك المِلْح، ومن سقى شربةً من الماءِ حيث يوجد الماءُ فكأنما أَعتق ستِّين نسمة، ومن سقى شربةً من الماءِ حيث لا يوجد فكأنما أَحيا نفساً، ومن أَحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الكوثر

وهي مكيّة[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

قرأ الحسن: [إنا أَنْطَيْنَاكَ]، وهي لغة في «أَعطى»، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «واليَدُ الْمُنْطِيةُ خير من السُّفلى»[(٢)]، وقال الأعشى:

جيــادُك خَيْــرُ جيــادِ الْمُلُــوكِ   تُصَــانُ الجِـلالَ وتُنْطَـى الشَّعِيـرا[(٣)]

---

(١) هذا قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة: إنها مدنية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، عن عروة بن محمد بن عطية، عن أبيه عن جده، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اليد المعطية خير من اليد السفلى»، هكذا بالعين في (المعطية)، أما بالنون فقد قال القرطبي: «روته أُمُّ سلمة عن النبي ﷺ، وهي لغة في العطاءِ، أَنْطيته: أَعطيته»، على أنه قد ورد التعبير «أنطى» بدلاً من «أعطى» وفي بعض أحاديث أُخرى، منها ما أَخرجه أَبو داود والدارمي في الصلاة، وأحمد في مسنده (٥/ ١٣٣)، ولفظه: عن أُبَيِّ بن كعب قال: كان رجل بالمدينة، لا أَعلم رجلاً كان أَبعد منه منزلاً ـ أو قال: داراً ـ من المسجد منه، فقيل له: لو اشتريتَ حماراً فركبته في الرمضاءِ والظلمات، فقال: ما يَسُرُّني أَن داري ـ أو قال: منزلي ـ إلى جنب المسجد، فنمي الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال: ما أَردت بقولك: ما يَسُرُّني أن منزلي ـ أو قال: داري ـ إلى جنب المسجد؟ قال: أردت أن يكتب إقبالي إذا أَقبلت إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أَهلي، قال: أَعطاك الله تعالىٰ ذلك كله، أَو: أَنطاك الله ما احتسبت أَجمع، أو: أنطاك الله تعالىٰ ذلك كله لما احتسبتَ أَجمع.

(٣) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوذة بن علي الحنفي، والرواية في الديوان: (جيادك في الصيف في نعمة)، وذلك أَن الصيف وقت الجفاف وقلة الخير، والجلالُ: جمع جُلٍّ، وهو ما تلبسه الدابة لِتُصانَ به، يقول: إن خيلك هي خير الخيول وأَفضلها لأنها تصان بالجلال وتأكل الشعير في الوقت الذي لا يجد فيه غيرها شيئاً من ذلك، على أن الرواية بالنون لم ترد لا في الديوان ولا في غيره مع أنها لغة معروفة، والشواهد عليها في اللغة كثيرة، وفي الحديث «وإنَّ مال الله مسؤول ومُنْطىً»، أي مُعْطىً، وروى الشعبي أن رسول الله ﷺ قال لرجل: أَنْطِه كذا وكذا، أَي أَعطه، وأَنشد ثعلب: =



قال أَنس، وابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ وجماعة من الصحابة والتابعين: الكوثرُ نهرٌ في الجنة، حافتاه قبابٌ من دُرٍّ مجوَّف، وطينه مسك، وحصباؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته وإن اختلفت أَلفاظ الرواة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً: الكوثرُ: الخيرُ الكثير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

«كوْثَر» بناءُ مبالغة من الكثرة، ولا محالة أَن الذي أَعطى الله تعالىٰ محمداً ﷺ من النبوة والحكمة والعلم بربه تعالىٰ والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أَكثر الأَشياءِ وأَعظمها، فكأَنه يقال في هذه الآية: إِنَّا أَعطيناك الحظَّ الأَعظم، قال سعيد بن جبير: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أَعطاه الله تعالىٰ إِيَّاهُ، فنعم ما ذهب إِليه ابن عباس، ونعم ما تمَّم ابن جبير رضي الله عنهما، وأَمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراءِ وغيره، صلى الله على محمد وسلم، ونفعنا بما منحنا من الهداية به. وقال الحسن: الكوثر: القرآن، وقال أَبو بكر بن عياش: هو كثرة الأَصحاب والأَشياع، وقال جعفر الصادق: نورٌ في قلبه دلَّه على الله تعالىٰ وقطعه عما سواه، وقال أَيضاً: هو الشفاعة، وقال هلال بن يِسَاف[١]: هو التوحيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أَمر بالصلاة على العموم، ففيه المكتوبات بشروطها، والنوافل على أَثرها، والنَّحر نحر الهدي والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأَنه تعالىٰ قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد، وقال أَنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ ينحر يوم الأَضحى قبل الصلاة فأُمِر أَن يصلي ثم ينحر، وقاله قتادة، وقال القرطبي وغيره: في الآية طعن على كفار مكة، أَي أَنهم يصلُّون لغير الله تعالىٰ مُكاءً وَتَصْدية[٢]، وينحرون للأَصنام، ونحوه، فافعل هذا أَنت لربك تكن على صراط مستقيم.

= مِنَ الْمُنْطِيَات الْموْكبَ الْمَعْجَ بَعْدَ مَا ... يُرَى فِي فُرُوعِ الْمُقْلَتَيْنِ نُضُوبُ

راجع اللسان والتاج والصحاح وغيرها من كتب اللغة.

(١) هو هلالُ بن يِسافٍ ـ بكسر الياءِ، ثم سين بدون نقط، ثم فاءٌ ـ ويقال: ابن إساف ـ بالهمزة، الأَشجعي، مولاهم الكوفي، ثقة. (تقريب التهذيب).

(٢) المكاء: الصفير بالفم، أو بعد وضع أصابع اليد فيه. والتصديةُ: التصفيق باليدين.

وقال ابن جبير: نزلت هذه الآية يوم الحُدَيْبيَة وقت صلح قريش، قيل لمحمد ﷺ: صلِّ وانحر الهَدْي، وعلى هذا تكون الآية من المدني، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: معنى الآية: صلِّ لِرَبِّك، وضع يمينك على شمالك عند نَحرك في الصلاة، فالنَّحْر ـ على هذا ـ ليس بمصدر نَحَرَ، بل هو الصدر، وقال آخرون: المعنى: ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ردٌّ على مقالة كان كثير من سفهاءِ قريش يقولها لمَّا لم يكن لرسول الله ﷺ وَلَد، فكانوا يقولون: هو أَبتر، يموت فنستريح منه، ويموتُ أَمره بموته، فقال الله تعالىٰ ـ وقوله الحق ـ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، أَي المقطوع المبتور من رحمة الله تعالىٰ، ولو كان له بنون فهم غير نافعيه. و«الشَّانِىءُ»: المُبْغِضُ. وقال قتادة: الأَبْتر يراد به هنا الحقير الذليل، وقال عكرمة: مات ابن النبي ﷺ فخرج أَبو جهل يقول «بُتِرَ محمد»، فنزلت السورة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، سمَّى النبيَّ ﷺ حين مات ابنه عبد الله: أَبْتر.

كمل تفسير سورة الكوثر والحمد لله ربِّ العالمين

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سُورة الكافرون

وهي مكيّة إجماعاً[١].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

قرأ أُبَيُّ بن كعب وابن مسعود: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَروا».

ورُوي في سبب هذه السورة عن ابن عباس وغيره أَن جماعة من عُتاة قريش ورجالاتها قالوا للنبي ﷺ: دع ما أَنتَ فيه ونحن نُمَوِّلُك ونُزَوِّجُك من شئت من كرائمنا، ونُمَلِّكُكَ علينا، وإِن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبدُ إِلـٰهَكَ حتى نشترك، فحيث كان الخير نلناه جميعاً، هذا معنى قولهم ولفظهم، لكن لِلرُّواة زيادة ونقص. ورُوي أَن هذه الجماعة المذكورة هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأَسود بن المطلب، وأُمية بن خلف، وأُبَيُّ بن خلف، وأَبو جهل، وابنا الحجاج، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد، ولرسول الله ﷺ معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إِحداها بسبب قولهم: هلُمَّ نشترك في عبادة إِلـٰهك وآلِهَتِنَا، ورُوي أَنهم قالوا: اعبد إِلـٰهَنا عاماً ونعبد إِلـٰهك عاماً، فأَخبرهم عن أَمْرِه عزَّ وجلَّ أَنه لا يعبد ما يعبدون، وأَنهم غير عابدين ما يعبد، فلما كان قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ محتملاً أَن يُراد به «الآن» ويبقى المستأَنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاءَ البيان بقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أَيْ أَبداً وما حييتُ، ثم جاءَ قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ حتماً عليهم أَنهم لا يؤمنون به أَبداً كالذي كشف الغيبُ، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا

---

(١) في القرطبي أن ابن مسعود والحسن وعكرمة قالوا: هي مكية، وأن قتادة والضحاك قالا: هي مدنية، وهذا أَيضاً أَحد قولَيْ ابن عباس رضي الله عنهما.



﴿مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[1]، أما إنَّ هذا في مُعَيَّنين، وقوم نوح عموا بذلك، فهذا معنى الترديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرتُه مع التأكيد والإبلاغ، وزاد الأَمْرَ بياناً وتبرِّياً منهم بقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾[2].

وقرأَ أبو عمرو: [وَلِيْ دِينِ] ساكنة الياءِ من [لي]، ونصبها الباقون ـ بخلاف عن كل واحد منهم ـ والقراءتان حسنتان، وأَمال قوم [عابِدٌ] و[عابِدُونَ]، وفتحها قوم، وهما حسنتان أَيضاً، ولم يختلف السبعةُ في حذف الياءِ من (دِينِ)، وأَثبتها سلام، ويعقوب في الوصل والوقف، وقال بعض العلماءِ: في هذه الأَلفاظ مُهادَنةٌ مَّا، وهي منسوخة بآية القتال.

كمل تفسير سورة «الكافرون» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) من الآية (٣٦) من سورة (هود).

(٢) من الآية (٦٤) من سورة (الزُّمَر).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة النصر

وهي مدنيَّةٌ إِجماعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

قرأَ ابن عباس رضي الله عنهما: «إِذَا جاءَ النَّصْرُ والْفَتْحُ»، وسأَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعاً من الصحابة والأَشياخ وبالحضرة ابن عباس، رضي الله عنهم، عن معنى هذه السورة وسببها، فقالوا كلهم: مقتضى ظاهر أَلفاظها أَن رسول الله ﷺ أُمر عند الفتوح التي فُتحت عليه ـ مكة وغيرها ـ بأَن يسبِّح ربه ويحمده ويستغفره، فقال لابن عباس: فما تقول أَنت يا بن عباس؟ فقال: هو أَجَل رسول الله ﷺ، أَعلمه الله تعالىٰ بِقُرْبه إذا رأَى هذه الأَشياءَ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أَعلم منها إلاَّ ما ذكرتَ[1]. وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأَصحابه، ومجاهد وأَصحابه، وقتادة، والضحاك، وروت معناه عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه

(١) أَخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي وأَبو نعيم معاً في (الدلائل)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر يدخلني وأَشياخ بدر، فقال له عبد الرحمن بن عوف: لِمَ تُدخل هذا النَّشءَ معنا ولنا أَبناءٌ مثله؟ فقال: إنه مَنْ قد علمتم، فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلاَّ ليُرِيَهُم مني، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ حتى خَتَم السورة. فقال بعضهم: أَمرنا الله أن نحمده ونستغفره إذا جاءَ نصر الله وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، وبعضُهم لم يقل شيئاً، فقال لي: يابن عباس، أَكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أَجلُ رسول الله ﷺ ـ أَعلمه الله إذا جاءَ نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون، والفتح فتح مكة، وذلك علامة أَجلك، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أَعلم منها إلاَّ ما تعلم. (الدر المنثور).



الصلاة والسلام، وأَنه ﷺ لمَّا فُتحت مكة وأَسْلم العرب جعل يكثر أَن يقول: «سبحان الله وبحمده، اللهم إِنِّي أَستغفرك»، يتأَول القرآن في هذه السورة[١] وقال لها مرة: ما أَراه إِلا حضور أَجلي، وتأَوله عمر والعباس رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فصدقهما[٢].

و«النَّصْرُ» الذي رآه رسول الله ﷺ غلبتُه لقريش وهوازن وغير ذلك، و«الفَتْحُ» هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليَمن، و«دخولُ الناس في دين الله أفواجاً»؛ كان من فتح مكة إِلى موت رسول الله ﷺ. قال أَبو عُمر بن عبد البرِّ رحمه الله في كتابه «الاستيعاب في الصحابة»، في باب أَبي خراش الهذلي ـ: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكلُّ في الإِسلام بعد حُنَين والطائف، منهم من قَدِمَ، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده ﷺ من الرِّدَّة ما كان، ورجعوا كلهم إِلى الدين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمراد ـ والله أعلم ـ العربُ عبدة الأَوثان، وأَما نصارى بني تغلب فما أَراهم أَسلموا قط في حياة رسول الله ﷺ، لكن أَعطوا الجزية.

و«الأَفواج»: الجماعة إِثر الجماعة، وكما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾[٣]. وقال مقاتل: المراد بـ «النَّاس» أَهلُ اليمن، وفد منهم سبعمائة رجل، وقاله عكرمة، وقال الجمهور: المراد جميع وفود العرب؛ لأَنهم قالوا: إِذ فتح الحرم لمحمد، وقد حماه الله تعالىٰ من الحبشة وغيرهم، فليس لكم به يدان. وذكر جابر بن عبد الله فُرْقة الصحابة فبكى، وقال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «دخل الناسُ في الدين أَفواجاً وسيخرجون منه أَفواجاً»[٤].

---

(١) أَخرجه عبد الرزاق، وأَحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٢) ذكره القرطبي بدون سند، قال: «وقيل: نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع، فبكى عمر والعباس، فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نَعْي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «صدقتما، نعيت إلي نفسي».

(٣) من الآية (٨) من سورة (المُلك).

(٤) أَخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وأَخرج مثله الحاكم ـ وصححه عن أَبي هريرة رضي الله عنه.



وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ بِعَقِب ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ ترجيةٌ عظيمة للمستغفرين، جعلنا الله تعالىٰ منهم، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النَّصْرَ هو صلح الحُدَيْبية، وأَن الفتح هو فتح مكة، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بمنى في وسط أَيام التشريق، في حجة الوداع، وعاش بعدها ثمانين يوماً أَو نحوها، ﷺ.

كمل تفسير سورة «النصر» والحمد لله رب العالمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة المسد(١)

وهي مكيَّة بإجماع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

رُوي في الحديث أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما، ثم صعد الصَّفا ونادى بطون قريش: يا بني فلان، يا بني فلان، وروي أنه صاح بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه من كلِّ وجه، فقال لهم: أرَأيتم لو قلت لكم: إنِّي أُنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصدِّقي؟ قالوا: نعم، فقال: إنِّي لكم نذير بين يديْ عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًّا لك اليوم: ألهذا جمعتنا؟ فافترقوا عنه، ونزلت هذه السورة(٢).

و[تبَّتْ] معناه: خسِرتْ، والتَّبابُ: الخُسران والدمار، وأَسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضمِّ ما يملك، ثم أَوجب تعالىٰ عليه أنه قد تبَّ، أَيْ

(١) في الأصول: تفسير سورة (تَبَّتْ)، وأثبتنا الاسم الموجود في المصحف الشريف.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في (الدلائل)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور)، زاد الحميدي وغيره: فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فِهْرٌ من حجارة ـ حجرٌ مِلْءُ الكف ـ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلاَّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، ثم أنشدت شعراً وانصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني.



حُتِم ذلك عليه، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: [تَبَّتْ يدا أَبي لَهبٍ. وقَدْ تبَّ]. وأَبو لهب هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، ولكن سبقت له الشقاوة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: [أَبِي لهْبٍ] بسكون الهاءِ، وقرأ الباقون بتحريك الهاءِ، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ يحتمل أَن تكون [ما] نافية، ويكون الكلام خبراً عن أَن جميع أَحواله الدنيوية لم تُغْن عنه شيئاً حين حُتم عذابُه بعد موته، ويحتمل أَن تكون [ما] استفهاماً على وجه التقرير، أَيْ: أَيْن الغناءُ الذي لِمَالِهِ ولِكسْبه؟ و﴿مَا كَسَبَ﴾ يُراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أَو ليكون الكلام دالاً على أَنه تعب في تكسُّبه، لم يجئه عفواً بميراث وهبة ونحوه. وقال كثير من المفسرين: المراد بـ ﴿مَا كَسَبَ﴾ بنوه، فكأَنه تعالىٰ قال: ما أَغنى عنه ماله وولده، وقد قال رسول الله ﷺ: «خير ما كسب الرجلُ من عمل يده، وإِن ولد الرجل من كسبه»[(١)]. ورُوي أَن أَولاد أَبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما فتنازعوا وتدافعوا، فقام ابن عباس يحجز بينهم فدفعه أَحدهم فوقع على فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أَخرجوا عني الكسب الخبيث، وقرأ أُبيٌّ بن كعب، والأُعمش: [وما اكْتَسَبَ].

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ حَتْم عليه بالنار، وإِعلامٌ بأَنه يوافي على كفره، وانتزع أَهل العلم بالأُصول من هذه الآية جواز تكليف ما لا يطاق، وأَنه موجود في قصة أَبي لهب، وذلك أَنه مخاطب مكلَّف أَن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلَّف أَن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأَنه قد كلِّف أَن يُؤمن، وأَنْ يُؤْمِن بأَنه لا يُؤْمِن، قال الأُصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أَمارة من الله تعالىٰ أَنه قد حَتَم عذابه، أَي عذاب ذلك المكلف، لقصة أَبي لهب. وقرأ الجمهور: [سَيَصْلَى] بفتح الياءِ، وقرأ ابن كثير، والحسن، وابن مسعود بضمها.

---

(١) أخرج أحمد في مسنده أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي مالاً ووالداً وإن والدي يريد أن يجتاح مالي، قال: «أنتَ ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم»، وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

وقد خرَّج أَبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَطيب ما أَكل الرجل من كسبه، وإِن ولده من كسبه».



وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، هي أُمُّ جميل، أُخت أَبي سفيان بن حرب، عمة معاوية بن أَبي سفيان. وعطف قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ على الضمير المرفوع دون أَن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأْكيد، وكانت أُمُّ جميل هذه مؤذيةً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها، وقال ابن عباس: كانت تجيءُ بالشوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ وطريق أَصحابه ليعقرهم، فبذلك سُمِّيت حمالة الحطب، وعلى هذا التأْويل فـ [حَمَّالة] معرفة يرادُ به الماضي. وقيل: إِن قوله تعالىٰ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ استعارة لذنوبها التي تَحْطِبُها على نفسها لآخرتها، فـ ﴿حَمَّالَةَ﴾ ـ على هذا ـ نكرةٌ يرادُ به الاستقبال، وقيل: هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين، كما تقول: «فلان يحطب على فلان»[1]، فكانت هي تحطب على المؤمنين، وفي حبل المشركين، وقال الشاعر:

إِنَّ بَنـي الأَدْرَمِ حَمَّـالـوا الْحَطَـبْ ... هُمُ الْوُشَاةُ في الرِّضا وفي الْغَضبْ[2]

وقرأَ ابن مسعود: [وَمُرَيْئَتُهُ]. وقرأَ الجمهور: [حَمَّالَةُ] بالرفع[3]، وقرأَ عاصم: (حَمَّالَةَ) بالنصب على الذم، وهي قراءة الحسن والأَعرج وابن محيصن، وقرأَ ابن مسعود: «حَمَّالَةٌ لِلْحطبِ» بالرفع ولام الجر وقرأَ أَبو قُلَابَة: [حَامِلَةَ] بكسر الميم بعد الأَلِفِ.

قوله تعالىٰ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، والسُّدي،

---

(١) أي: يسعى به ويمشي بالنميمة بينه وبين الناس.

(٢) استشهد بهذين البيتين القرطبيُّ، وصاحب البحر المحيط، والشوكاني في فتح القدير، وزاد بعضهم بيتاً ثالثاً بعدهما يقول:

عَلَيْهِـــمُ اللَّعْنَـــةُ تَتْـــرَى والْحَـــرَبْ

وبنو الأَدرم: حيٌّ من قريش، وفي الصحاح أنهم قبيلة، والحَرَبُ: نَهْب مال الإنسان كله وتركه بلا شيءٍ، يصفهم الشاعر بأنهم وشاة نَمَّامون، يمشون بالفساد بين الناس.

ومثل هذا قولُ الشاعر:

مِـنَ الْبِيـضِ لَـمْ تُصْطَـد عَلَـى ظَهْـرِ لأمَـةٍ ... وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

أَي أنها لم تمش بالنمائم بين الناس، وجعل الحطب رطباً ليدل على الدخان الذي هو زيادة في الشر، وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنةَ نمام»، وقال صلواتُ الله وسلامه عليه: «من شرِّ الناس ذو الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

(٣) فهو خبر (وَامْرَأَتُهُ).



وابن زيد: الإشارة إلى الحبل حقيقة، وهو الذي ربطت به الشوكَ وحَطبه، قال السُّدي: والمَسدُ: اللِّيف، وقيل: ليف الْمَقْلِ، ذكره أَبو الفتح، وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يُسمَّى المَسد، تصنع منه الحبال، وقال النابغة:

مقذوفةٍ بِدخيسِ النَّحْضِ بازِلُها   لهُ صَريفٌ صَريفَ الْقَعْوِ بالْمَسَدِ[١]

القعْو: البكرة، والمَسَد: الحبلُ. وقال عروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهما: هذا الكلام استعارة، والمراد: سلسلةٌ من حديد في جهنم، ذرْعها سبعون ذراعاً، ونحو هذا من العبارات، وقال قتادة: (حَبْلٌ منْ مسَدٍ): قلادَةٌ من وَدَع، قال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأُنْفقنَّها على عداوة محمد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإنما عبَّر عن قلادتها بحبل من مسدٍ على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث، ورُوي في الحديث أَن هذه السورة لمَّا نزلت وقرئت بلغت أُمَّ جميل، فجاءت أَبا بكر رضي الله عنه وهو مع النبي ﷺ في المسجد، فقالت: يا أَبا بكر، بلغني أَن صاحبك هجاني، ولأَفعلن ولأَفعلن، وإِني لشاعرة، وقد قلت فيه:

مُـــذَمَّمـــاً قَلَيْنـــا   وَدينَـــــهُ أَبَيْنَـــــا

فسكت أَبو بكر، ومضت هي، فقال رسول الله ﷺ: لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأَتني، وكفى الله شرَّها[٢].

كمل تفسير سورة «المسد» والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) هذا البيت من دالية النابغة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه عما بلغه عنه في أمر المتجردة، والبيت في وصف الناقة، ومقذوفةٍ، مَرْميٌّ عليها، على سبيل الاستعارة، إذ استعار القذف لإعطاءِ الشيءِ، والدَّخيس: الممتلىء بالسَّمْن، والنَّحْضُ: اللَّحْمُ، والبازل: الذي كبر وظهرت أَنيابه، والصَّريف: الصوتُ القويُّ، وانتصب (صريفَ) على المفعول المطلق، والقَعْو ـ بفتح القاف وسكون العين ـ: بَكَرةُ السَّقي إذا كانت من الخشب، والمَسَدُ: الحبلُ. ويروى (صريفٌ، صريفُ القَعْو) بضم (صريف) الثانية، وهذا على البدل من الأُولى.

(٢) سبق أن أشرنا إلى هذا في تخريج أول حديث في هذه السورة. وكانت قريش تسمي النبي ﷺ مُذَمَّماً، يريدون بذلك سبَّه، وكان ﷺ يقول: «أَلا تعجبون لِمَا صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبُّون ويهجون مُذَمَّماً، وأنا محمدٌ».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سُورة الإخلاص

هذه السورة مكية، قاله مجاهد ـ بخلاف عنه ـ وعطاءٌ وقتادة، وقال ابن عباس، والقرطبي، وأَبو العالية: هي مدنية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

قرأَ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والربيع بن خثيم: «قلْ هوَ اللهُ الواحدُ الصَّمدُ»، وروى أُبيُّ بن كعب أَن المشركين سأَلوا رسول الله ﷺ عن نسب ربه ـ تعالىٰ عما يقول الجاهلون ـ فنزلت هذه السورة(١)، وروى ابن عباس أَن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد، صفْ لنا ربك وانْسُبه، فإِنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتَّى خرَّ مغشياً عليه، ونزل عليه جبريل عليهما السلام بهذه السورة(٢)، وقال أَبو العالية وقال قتادة: قالت الأَحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأَتاه الوحي بهذه السورة(٣).

و﴿أَحَدٌ﴾ معناه: واحدٌ فردٌ من جميع جهات الوحدانية ليس كمثله شيءٌ، و﴿هُوَ﴾ ابتداءٌ، و﴿اللهُ﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿أَحَدٌ﴾ خبره، والجملة خبر الأَول، وقيل: ﴿هُوَ﴾

---

(١) أَخرجه أحمد، والبخاري في تاريخه، والترمذي، وابن جرير، وابن خُزَيمة، وابن أَبي حاتم في السنَّة، والبغوي في معجمه، وابن المنذر في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأَسماء والصفات، عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه. (الدرّ المنثور).

(٢) أَخرجه بن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأسماءِ والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٣) أما عن أَبي العالية فقد أَخرجه ابن الضريس وابن جرير، وأما عن قتادة فقد أَخرجه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر. (الدر المنثور).

ابتداءُ، و﴿اللهُ﴾ خبره، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه، وحذف أَبو عمرو التنوين من ﴿أَحَد﴾ لالتقاءِ الساكنين فقرأَ: [اللهُ أَحَدُ اللهُ]، وأَثبته الباقون مكسوراً للالتقاءِ، وأَمَّا وقفهم كلهم فبسكون الدال، وقد رُوي عن أَبي عمرو الوصل بسكون الدال، ورُوي عنه أَيضاً تنوينها.

و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ في كلام العرب: السيِّد الذي يُصْمَدُ إِليه في الأُمور ويستقِلُّ بها، وأَنشدوا:

أَلاَ بَكَّـرَ النَّـاعـي بِخيْـرَيْ بَنـي أَسَـدْ بعَمْرِو بنِ مَسْعودٍ وبِالسيِّد الصَّمَدْ[1]

وبهذا تتفسَّر هذه الآية؛ لأَن الله تعالىٰ جلَّت قدرتهُ هو مُوجِد الموجودات، وإِليه تصمد، وبه قوامها، ولا غَنِيَّ بنفسه إِلاَّ هو سبحانه تبارك وتعالىٰ. وقال كثير من المفسرين: الصَّمَدُ: الذي لا جوف له، كأَنه بمعنى: المُصْمَت، وقال الشعبي: هو الذي لا يأْكل ولا يشرب. وفي هذا التفسير كلِّه نظر؛ لأَن الجسم في غاية البعد عن الله تعالىٰ وعن صفاته، فما الذي يُعطينا هذه العبارات؟ و﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ ابتداءٌ وخبر وقيل: ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ نعتٌ والخبرُ فيما بعد.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ﴾ ردٌّ على إِشارة الكفار في النَّسب الذي سأَلوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكَّروا في كل شيءٍ، ولا تتفكروا في ذات الله عزَّ وجلَّ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن الأَفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالىٰ بواجب وجوده، وافتقار كل شيءٍ إِليه، واستغنائه عن كل شيءٍ، وينفي العقل عنه كلَّ ما لا يليق به عزَّ

---

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وصاحب اللسان في ـ صمد ـ، والقرطبي، والطبري، والبحر المحيط، وفتح القدير، ولم ينسبه أحد منهم، ولكن قال أبو عبيدة: قال الأَسدي. . . والنَّاعي: الذي يأتي بخبر الميت، والجمع: ناعون ونعاةٌ، وبكَّر: جاءَ مبكراً وقبل الأوان. ويروى البيت: (بخَيْر بني أَسَد)، والبيت شاهد على أن الصَّمَد هو السيِّد الذي يُقْصد، وليس فوقه أَحدٌ، وقد اختلفت أَقوال اللغويين في معناها، ولكنهم جميعاً لم يخرجوا عن معنى السيادة والعُلوِّ وعدم الحاجة لغيره، والتناهي في السؤدد والشرف، والكامل الذي لا عيب فيه، قال الشاعر:

عَلَـوْتُـهُ بِحُسـامٍ ثُـمَّ قلْـتُ لَـهُ خُـذهَـا حُـذَيـفَ فَـأَنْـتَ السيِّـدُ الصَّـمَـدُ



وجلَّ، وأَنْ ليس كمثله شيءٌ، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ معناه: ليس له ضِدٌّ ولا نِدٌّ ولا شبيه، والكُفُؤ والكُفُؤ والكِفاءُ: النظير، وقرأَ: [كُفُواً] ـ بضم الكاف وهمز مُسَهَّل ـ نافع، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة. وقرأَ بالهمز عاصم(١)، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ، وقرأَ حمزة، وأَبو عمرو: [كُفْؤاً] بالهمز وإسكان الفاءِ، وروي عن نافع: [كُفاً] بفتح الفاءِ وبغير همز، وقرأَ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: [وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كِفَاءً] بكسر الكاف وفتح الفاء والمدِّ، و[كُفُواً] خبر [كان]، واسمها [أَحَدٌ]، والظرف مُلغى، وسيبويه رحمه الله تعالىٰ يستحسن أَن يكون الظرف ـ إذا تقدم ـ خبراً، ولكن قد يجيءُ مُلْغى في أَماكن يَقْتَضيها المعنى كهذه الآية، وكما قال الشاعر ـ أَنشده سيبويه ـ:

مـــا دام فيهِـــنَّ فصيـــلٌ حَيَّـــا(٢)

ويحتمل أَن يكون [كُفُواً] حالٌ لما تقدم من كونه وصفاً لنكرة، كما قال:

لِعَـــزَّةَ مُـــوحِشـــاً طَلَـــلُ . . . .(٣)

---

(١) قال أَبو حيَّان الأندلسي في البحر المحيط: «وقرأ حمزة وحفصٌ بضم الكاف وإسكان الفاءِ، وهمز حمزة وأَبدلها حفصٌ واواً».

(٢) هذا الشعر لابن ميَّادة، وهو في الكتاب لسيبويه، والخزانة للبغدادي، واستشهد به صاحب اللسان مرتين في (جلذ) وفي (هيا). وذكر سيبويه معه بيتين آخرين هكذَا:

لَتَقْـــرُبِـــنَّ قَـــرَبـــاً جُلْـــذِيَّـــا ... مـــا دامَ فيهِـــنَّ فَصيـــلٌ حَيَّـــاً
فَقَـــدْ دَجَـــا اللَّيـــلُ فهَيَّـــا هَيَّـــا

والخطاب لِنَاقَتِهِ، ولتَقْرُبِنَّ: لتَسيرنَّ الليلَ لورود الغَدِ، والْجُلْذيُّ: السريع، أي: لَتَسيرنَّ سيراً سريعاً، وقيل: جُلْذيًا هو مرخم جُلْذِيَّة، وهو اسم ناقة الشاعر التي يتحدث إليها، وقوله: «فيهنَّ» يعني في الإبل التي تسيرين معها، ولم يجر لها ذكر، والفصيل: وَلَدُ الناقة، ودَجَا الليلُ: أَظْلَم، وهَيَّا هيا: زَجْرٌ لها وتصويت بهذا الزَّجْر، ويُنْطق بفتح الهاءِ وبكسرها، يقول لناقته: أَسرعي وسيري مع الإبل حتى نصل، وأَنا لا أَعذرك ما دام في الإبل فصيل يطيق السَّيْر، والشاهد هو تقدم «فِيهِنَّ»، وكان المفروض أن يكون خبراً ولكنه أُلغي.

(٣) هذا صدر بيت يستشهد به النحاة على أن الحال تتقدم على صاحبها إذا كان نكرة، والبيت بتمامه:

لِعَـــزَّةَ مُـــوحِشـــاً طَلَـــلُ ... يَلُـــوحُ كَـــأَنَّـــهُ خِلَـــلُ

والبيت بهذه الرواية (لِعَزَّةَ) لِكُثَيِّر عزَّة، وقد رواه بها أَبو عليٍّ في التذكرة القصرية، ومن رواه (لِمَيَّةَ مُوحشاً) قال: إنه لذي الرُّمَّة، فإن (مَيَّة) اسم محبوبة ذي الرُّمَّة، و(عَزَّة) اسم محبوبة كُثَيِّر، والخِلَلُ=



قال سيبويه: وهذا يقلُّ في الكلام، وبابه الشعر، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لما فيها من التوحيد.

كمل تفسير سورة «الإخلاص» والحمد لله رب العالمين

* * *

= بكسر الخاءِ: جمع خلة، والخِلَل: بطائن تُغشَّى بها أجفان السيوف وهي منقوشة بالذهب وغيره. والطَّلَلُ: ما شَخَص من آثار الديار، والموحش: الخالي من قولهم: «أَوْحَشَ المنزلُ» إذا ذهب عنه الناسُ وصار ذا وحشة، أي خَلْوة، وهمٌّ.

والحال التي تقدمت هنا هي (مُوحِشاً)، وصاحبُها (طَلَلٌ)، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون (مُوحشاً) حال من الضمير في (عَزَّة) وهي معرفة، وجعل الحال من المعرفة أَولى من جعله من النكرة متقدماً عليها.

هذا ويروى البيت برواية أُخرى، وهي:

لِعَــزَّةَ مُــوحِشــاً طَلَــلٌ قَــديــمُ ... عَفــاهُ كُــلُّ أَسْحَــمَ مُسْتَــدِيــمُ

وعَفَاه بمعنى: غَيَّرَهُ وأَذهبه، والأَسحم، الأَسود، والمراد به السحاب، والمستديم: الدائم مدة طويلة.

(١) أَخرجه أَبو عبيد في فضائله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأَخرج أَبو عبيد، وأَحمد في فضائله، والنسائي في اليوم والليلة، وابن منيع، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأَ ثلث القرآن». وأخرج ابن الضريس والبزار، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أَنس أن النبي ﷺ قال: «من قرأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائتي مرة غفر له ذنوب مائتي سنة». وأَخرج أَحمد، والترمذي، وابن الضريس والبيهقي في سننه، عن أَنس رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أُحِبُّ هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «حُبُّك إياهَا أَدخلك الجنة». والأَحاديث في فضل هذه السورة كثيرة متعددة.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الفلق[(١)]

هذه السورة قال ابن عباس: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وآحاد أُمته.

وقال بن عباس، وابن جبير، والحسن، والقرطبي، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: «الفَلَقُ»: الصبح، كقوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[(٢)]، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين: الفلَقُ: جُبٌّ في جهنم، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعمُّ كلَّ موجود له شرٌّ. وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالىٰ لم يخلق الشرَّ: «مِنْ شرٍّ» بالتنوين «ما خَلَقَ» على النفي، وهذه قراءة مردودة، مبنية على مذهب باطل، فالله تعالىٰ خالق كل شيءٍ.

واختلف الناسُ في «الغاسِقِ إذا وقب» ـ فقال ابن عباس، ومجاهد والحسن: الغاسق: الليل، ووَقَبَ: أَظلم ودخل على الناس، وقال الشاعر:

إنَّ هَـــذا اللَّيْـــلَ قَـــدْ غَسقَـــا   وشَكَـــوْتُ الْهَـــمَّ والأَرَقَـــا[(٤)]

---

(١) في الأصول: «تفسير سورة المُعَوِّذَةِ الأولى»، واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف الشريف.

(٢) من الآية (٩٦) من سورة (الأنعام).

(٣) أخرجه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، عن أَبي هريرة، وقال الإمام ابن كثير عنه: «ورد في ذلك حديث مرفوعٍ منكر، إسناده غريب، ولا يصحُّ رفعه». وقال ابن جرير في تفسيره: والصواب القول الأول: إنه فلَقُ الصبح، وقال ابن كثير: وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه.

(٤) هذا البيت لابن قيس الرُّقيّات، وهو في اللسان، والقرطبي، وغَسَقَ الليْلُ: انصَبَّ وأَظْلَمَ.

وقال محمد بن كعب: [غاسق]: النهارُ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أيْ دخل في الليل، وقال ابن زيد عن العرب: الغاسق: سقوط الثُّريَّا، وكانت الأَسقام والطاعون تهيج عنده[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «النجمُ هو الغاسق»[٢]، فيحتمل أَن يريد الثُّريَّا، وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها ـ وقد نظر إلى القمر ـ: «تعوذي بالله مِنْ شرِّ غاسق إذا وقب، فهذا هو»[٣]، وقال القتبي وغيره: هو البَدْرُ إذا دخل في ساهوره فخسف[٤]، وقال الزهري: الغاسق إذا وقب: الشمس إذا غربت، و«وقب» في كلام العرب: دخل (. . . . . .)[٥].

و﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَـدِ﴾: السواحر، ويقال: إن الإشارة أَولاً إلى بنات لبيد بن الأَعصم اليهودي، كُنَّ ساحرات، وهنَّ اللواتي سحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأَنزل الله تعالىٰ إحدى عشرة آية بعدد العقد هي المعوّذتان، فشفي النبي ﷺ[٦]، و«النَّفْث»: شبه النفخ دون تفل ريق، وهذا النَّفث هو على عُقَد تُعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيُؤذى بذلك، وهذا الشأْن في زماننا موجود شائع في صحراءِ المغرب، وحدثني ثقة أَنه رأَى عند بعضهم خيطاً أَحمر قد عُقدت فيه عقد على فُصْلان، فمنعت بذلك رضاعَ أُمهاتها، فكان إذا حلَّ عقدة جرى ذلك الفصيل إلى

---

(١) أي عند سقوط الثريا.

(٢) أَخرجه ابن جرير، عن أَبي هريرة، وقال ابن كثير عن هذا الحديث: «قلت: وهذا الحديث لا يصح رفعُه إلى النبي ﷺ».

(٣) رواه الإمام أَحمد، عن الحارث بن أَبي سلمة، ورواه الترمذي والنسائي في كتابَي التفسير من سننيهما من حديث عبد الرحمن بن أَبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» ولفظه: «تعوذي بالله من شر هذا، فإن هذا الغَاسِقُ إذا وقب»، ولفظ النسائي: «تعوذي بالله من شرِّ هذا، هذا الغاسق إذا وقب»، كذلك أَخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه. عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) الساهورُ: دارةُ القمر.

(٥) تركنا هنا سطرين من الأصول لأن ما فيهما لا يتفق مع جلال هذا الكتاب.

(٦) روى البخاري في كتاب الطبِّ من صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أَنه يأْتي النساءَ ولا يأْتيهن» وهو حديث طويل. . . جاءَ في آخره «فقال: أَمَّا الله فقد شفاني. . .»، ورواه مسلم من حديث أَبي أُسامة وعبد الله بن نمير، ورواه أَحمد عن عفان، عن وهب، عن هشام، ورواه أَحمد أَيضاً عن إبراهيم بن خالد، عن معمر، عن هشام، عن أَبيه، عن عائشة رضي الله عنها.



أُمه في الحين فرضع، أَعاذنا الله تعالىٰ من شرِّ السحرة بقدرته. وقرأ عبد الله بن القاسم، والحسن، وابن عمر: [النافثات].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، قال قتادة: من شرِّ عينه ونفسه، يريد السعي الخبيث والإذاية كيف قدر؛ لأنه عدوٌّ مجدٌّ ممتحن، وقال الشاعر:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا ... إِلاَّ عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ[١]

وعين الحاسد في الغالب لاقفةٌ، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ من شرِّها، قال الشاعر:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ[٢]

والحَسَد في الاثنتين اللَّتين قال رسول الله ﷺ حسدٌ مُسْتحسن غير ضار، وإنما هو باعث على خير[٣].

وهذه السورة خمس آيات، فقال بعض الحذَّاق هي مرادُ الناس بقولهم للحاسد إذا نظر إليهم: الخمس على عينيك وقد غلطت العامة في هذا فيشيرون بالأَصابع لكونها خمسة.

وأَمال أَبو عمرو [حاسِد]، والباقون يفتحون الحاءَ، وقال الحسن بن الفضل: ذكر الله تعالىٰ الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أَنه أَخسُّ طبع.

كمل تفسير سورة «الفلق» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) بيت مشهور، ذكره ابن قتيبة في كتاب الطبائع من (عيون الأخبار)، ولم ينسبه.

(٢) قال هذا البيت حبيب بن أَوس الطائي ـ أبو تمام ـ من قصيدة يمدح بها عبد الله بن أَبي دؤاد، وهو من الأمثال السائرة مع بيت آخر بعده يقول فيه:

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

فالحسود يذيع أَمجاد المحسود بين الناس، وينشر أخباره وفضائله، وإن نار الحسد تنشر عَرف الأخلاق كما تنشر النار الحقيقية عَرف العود الطيب. وبمثل هذه الآراء في شعره قيل عن أَبي تمام إنه حكيم.

(٣) الحديث الذي يشير إليه هو قوله ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناءَ الليل والنهار»، أخرجه البخاري في العلم والزكاة والأحكام والتمني والاعتصام والتوحيد، وأخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩، ٣٦)، واللفظ له.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الناس[(١)]

قال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ اسم من أسماء الشيطان[(٢)]، وهو أيضاً ما تُوَسْوِس به شهوات النفس وتُسَوِّله[(٣)]، وذلك هو الهوى الذي نُهِي المرءُ عن اتِّباعه، وأُمر بمعصيته، والغضب الذي وصى رسولُ الله ﷺ بطرْحه وترْكه حين قال له رجلٌ: أَوصني، فقال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: «لا تغضب»[(٤)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ معناه: الراجع على عقبه، المستتر أَحياناً، وذلك في الشيطان متمكن[(٥)] إذا ذَكر العبدُ الله تعالىٰ وتعوَّذَ، وتَذَكَّر فأبصر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[(٦)]، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوهما فَهو يَخْنِس بتذكُّر النفس اللَّوَّامَة، وبلَمَّةِ الملَك، وبأَن الحياءَ يردعُ والإيمان يردع بقوة، فتَخْنِسُ تلك العوارضُ المتحركة، وتنقمع عند

---

(١) في الأصول «تفسير سورة المُعَوِّذة الثانية»، واخترنا الاسم المشهور والمثبت في المصحف.

(٢) الوَسْواسُ ـ بفتح الواو ـ بمعنى الاسم، أي المُوَسْوِس، وبكسر الواو المصدر، يعني الوسوسة، مثل الزَّلْزال والزِّلزال، والوسوسة هي حديث النفس.

(٣) سوَّلت له نفسُه: زيَّنَتْ لَهُ، وسوَّل له الشيطانُ: أَغواهُ.

(٤) أَخرجه البخاري في الأدب، والترمذي في البر، ومالك في «حسن الخلق» من موطئه، وأَحمد في مسنده (٢/ ٣٦٢) عن أَبي هريرة.

(٥) في بعض النسخ: «وذلك في الشيطان ينكص».

(٦) من الآية (٢٠١) من سورة (الأعراف).



من أُعين بتوفيق الله، وقد اندرج هذان المعنيان من الوسْواس في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، أَي من الشياطين ونفس الإِنسان.

ويظهر أَيضاً أَن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ يُراد به من يوسوس بخدعة من البشر، ويدعو إِلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان.

وكلهم قرأَ: ﴿النَّاس﴾ غير مُمالة، وروى الدوري عن الكسائي أَنه أَمال النون من ﴿النَّاس﴾ في حال الخفض، ولا يُميل في الرفع والنصب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إِذا أَوى إِلى فِراشِهِ جمع كفَّيه ونفث فيهما، وقرأَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ، والْمُعَوِّذتَيْن»، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأُ برأَسه ووجهه وما أَقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً»[1]. وقال قتادة رحمه الله تعالىٰ: إِنَّ من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوذوا بالله عزَّ وجلَّ من شياطين الإِنس والجن.

كمل تفسير سورة «الناس» والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أَخرجه البخاريُّ في (فضائل القرآن)، وأَبو داود في (الأَدب)، والترمذي في (الدعاء)، وأَحمد في مسنده (٦/١١٦)، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خاتمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد بدأ هذا العمل الجليل في غُرَّة المحرم منذ أربعة عشر عاماً وبفضل من الله ورعايته وصلنا إلى نهاية الطريق، بعد أن عشنا في رحاب القرآن الكريم هذا الزمن الطويل، نقطف من ثماره، وننعم بِظلاله، ونرتوي من رحيقه العذب النمير، وكان فضل الله عظيماً، فقد وفَّق وهدى، وسدَّد الخطى، ويسَّر كل عسير، وذلَّل كل صعب، حتى تمت نعمته، وانتهت الرحلة الطويلة على خير ما نحب ونرضى.

لقد كان هذا العمل الكبير فوق طاقتي، وأكبر من جهدي ومعرفتي، لكن إيماني بالله، وثقتي في توفيقه وتأييده، كانا أكبر حافز لي على العمل، ويعلم الله كم لاقيت من الصعاب، وكم عانيت من المشكلات، لكني في كل وقت كنت ألجأُ إلى الله وأَستعينه، فأرى الصعاب تزول، والمشكلات تجد طريقها إلى الحلّ، فأتوجَّه إلى الله سبحانه بالحمد والشكر، وأَعود إلى العمل بِعَزم جديد.

ولم أكن وحدي ـ علم الله ـ في هذا العمل، فقد ساعدني كثير من الفضلاءِ، أذكرهم جميعاً بالتقدير والثناء، وأحمد لهم ما قدموه من عون صادق مخلص.

اللهم يا ذا الفضل والإنعام، أسألك الرحمة والغفران، والتجاوز عن سيئاتي، وأن تتقبل مني هذا العمل بالرضى، وأن تجعله في ميزان حسناتي، وأن تلطف بي فيما بقي من عمري، إنك سميع قريب مجيب.



سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

السيد عبد العال السيد

القاهرة في ٢٤ من جمادى الأولى ١٤١٢

٣٠ من نوفمبر ١٩٩١



فهرس الموضوعات



تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور



تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر





تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة



تفسير سورة الحشر



تفسير سورة الممتحنة

تفسير سورة الصف



تفسير سورة الجمعة

تفسير سورة المنافقون

تفسير سورة التغابن

تفسير سورة الطلاق

تفسير سورة التحريم



تفسير سورة الملك

تفسير سورة القلم

تفسير سورة الحاقة

تفسير سورة المعارج

تفسير سورة نوح

تفسير سورة الجن



تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدثر

تفسير سورة القيامة



تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة النبأ



تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكوير



تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين

تفسير سورة الانشقاق

تفسير سورة البروج

تفسير سورة الطارق

تفسير سورة الأعلى

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

تفسير سورة الشمس

تفسير سورة الليل



تفسير سورة الضحى

تفسير سورة الشرح

تفسير سورة التين

تفسير سورة العلق

تفسير سورة القدر

تفسير سورة البينة

تفسير سورة الزلزلة

تفسير سورة العاديات



تفسير سورة القارعة

تفسير سورة التكاثر

تفسير سورة العصر

تفسير سورة الهمزة

تفسير سورة الفيل

تفسير سورة قريش

تفسير سورة الماعون

تفسير سورة الكوثر

تفسير سورة الكافرون

تفسير سورة النصر

تفسير سورة المسد

تفسير سورة الإخلاص

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

* * *

المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدراية وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.
* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.
* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.
* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.
* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

